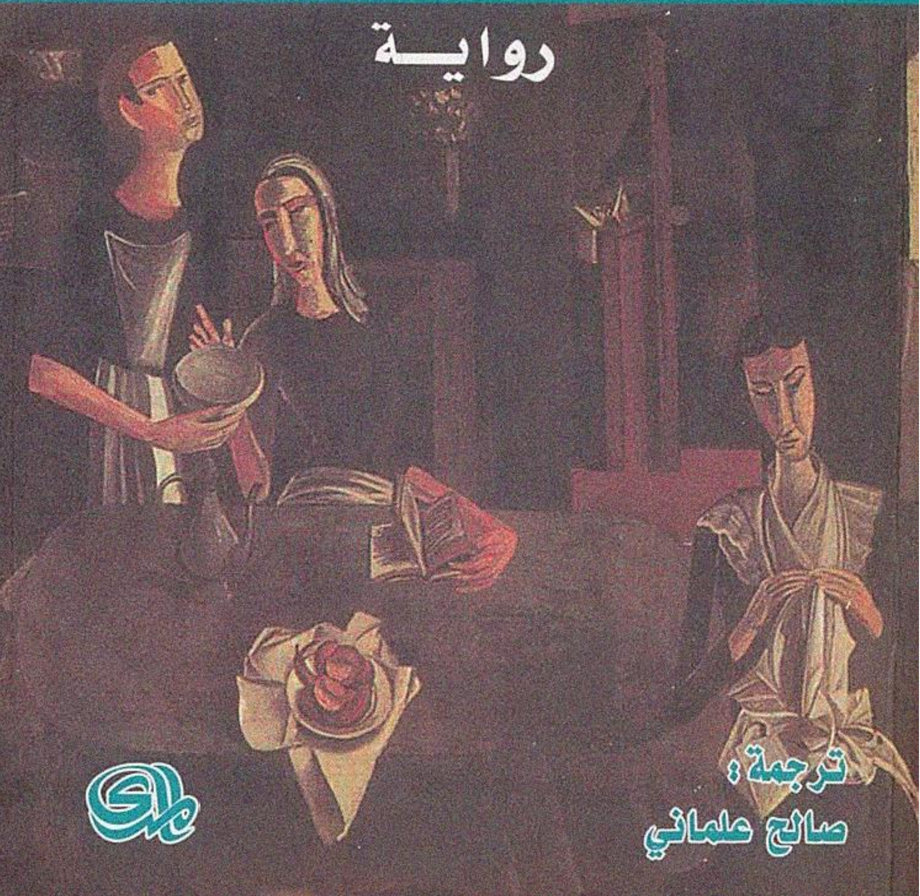
إيزابيل الليندي

بيت الأرواح

رواية



ترجمة:
صالح علماني

إيزابيل الليندي

بيت الأرواح

ترجمة : صالح علماني

بيت الأرواح

رواية

المؤلف: إيزابيل الليندي
عنوان الكتاب: بيت الأرواح
ترجمة: صالح علماني
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2010
الطبعة الثانية: 2014

Author: Isabel Allende
Title: La Casa de los espiritus
Translator: Saleh Almani
P.C. : Al-Mada
First Edition: 2010
Second Edition: 2014

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2269

إلى أمي، وجدتي، والنساء الاستثنائيات الأخريات في هذه القصة.

إ. أ.

كم يعيش المرء في نهاية المطاف؟
أيعيش ألف عام أو عاماً واحداً فقط؟
أيعيش أسبوعاً أو عدة قرون؟
وكم من الزمن يموت الإنسان؟
ما معنى القول إلى الأبد؟

بابلو نيرودا

الفصل الأول

روسا الجميلة

وصل *باراباس* إلى الأسرة عن طريق البحر، هذا ما دونته الطفلة كلارا بخطها الدقيق. وكانت قد اكتسبت في ذلك الحين عادة تدوين الأمور المهمة. وفيما بعد، عندما أصابها البكم، صارت تدون التوافه أيضاً، دون أن يخطر لها أن دفاترها ستفيدني، بعد خمسين عاماً، في إنقاذ ذاكرة الماضي وفي تجاوز رعبي الخاص. يوم وصول *باراباس* كان يوم خميس مقدس[1]. جاء في قفص مخز، يغطيه برازه وبوله، وكان زائغ البصر كسجين بائس وأعزل، وإن كان بالإمكان التكهن - من هيئة رأسه الملكي وحجم هيكله العظمي - بالمارد الخرافي الذي سيصير إليه. كان يوماً مملاً وخريفياً، لا يوحي بشيء من الأحداث التي دونتها الطفلة ليكون بالإمكان تذكرها، والتي جرت خلال قداس الثانية عشرة في كنيسة سان سيباستيان وحضرته الأسرة كلها. ففي إشارة إلى الحداد، غُطيت تماثيل القديسين بقطع قماش بنفسجية تنفض المترهبات عنها الغبار سنوياً عند إخراجها من حجرة المقدسات. وتحت ملاءات الحداد البنفسجية[2] تلك كان ذلك البلّاط السماوي يبدو أشبه بركام أثاث ينتظر النقل، دون أن يكون بإمكان الشموع أو البخور أو حشرجات الأرغن أن تشكل ضداً لهذا الإنطباع المثير للرثاء. فقد انتصبت حزم قاتمة متوعدة في أمكنة تماثيل القديسين التي بالحجم الكامل، وذات الوجوه المتشابهة إلى حد التطابق بملامح الزكام التي تبدو عليها، وباروكاتها المشغولة من شعور الموتى، وزمردها ولآلئها وياقوتها الزجاجي الملون، وملابسها التي كملابس نبلاء فلورنسا. التمثال الوحيد الذي جعله غطاء

---

[1] الخميس المقدس هو اليوم السابق للجمعة الحزينة أو العظيمة.

[2] كان اللون البنفسجي هو لون الحداد آنذاك

الحداد أفضل مظهراً هو شفيع الكنيسة، القديس سيباستيان، لأنه وفر على المؤمنين، خلال الأسبوع المقدس، رؤية منظر جسده المتلوي في وضع غير محتشم، وقد اخترقته ستة سهام، وهو يقطر دماً ودمعاً، مثل شاذ جنسي معذب، وكانت قروحه الإعجازية التي تظل طازجة بفضل ريشة الأب ريستريبو، تبعث في كلارا قشعريرة اشمئزاز.

كان أسبوعاً طويلاً من الصيام والتكفير، فلا لعب بالورق ولا عزف موسيقى لأنها تستثير الشبق أو النسيان، والتزام الجميع، قدر الإمكان، بأقصى ما يمكن من الحزن والعفة، على الرغم من أن متخس الشيطان يكون، في هذه الأيام بالذات، أشد إلحاحاً في غواية الجسد الكاثوليكي الضعيف. كان طعام أيام الصوم يقتصر على حلويات رقائق العجين الخفيفة، وطبائخ الخضروات اللذيذة، وأصناف العجّة الاسفنجية، وقوالب الجبن الكبيرة التي يؤتى بها من الريف، وبهذه المأكولات، تتذكر الأسر آلام السيد المسيح، محاذرة من تذوق أدنى نتفة من اللحم أو السمك، تحت طائلة الحرمان الكنسي، مثلما كان يُلح الأب ريستريبو. ولم يكن هناك من يتجرأ على عصيانه. فقد كانت للكاهن إصبع إتهامية طويلة تشير إلى الخاطئين أمام الملأ، ولسان مدّرب على استثارة المشاعر.

ـ أنت أيها اللص يا من سرقت نقود العبادة! ـ يصرخ من المنبر مشيراً بإصبعه إلى رجل يتظاهر بأنه مشغول بنفض شعرة ناعمة عن ياقة سترته كيلا ينظر إليه مواجهة ـ وأنتِ أيتها الفاجرة التي تتعهرين على أرصفة المرفأ! ـ متهماً بذلك إستير تروبيا المقعدة بسبب التهاب المفاصل، والتقية في محبة شفيعتنا العذراء كارمن، والتي فتحت عينيها على اتساعهما من المفاجأة، دون أن تدري ما الذي تعنيه كلمة تعهر أو أين هي أرصفة المرفأ ـ عليكم بالتوبة أيها الخاطئون، يا من صرتم جيفة دنسة، وغير جديرين بتضحية سيدنا المسيح! صوموا! كفروا عن خطاياكم!

وحين تطغى عليه حماسة غيرته الدينية، يضطر الكاهن إلى كبح نفسه كيلا يدخل في عصيان مكشوف لتعليمات رؤسائه الكنسيين الذين هزتهم رياح الحداثة فصاروا يعارضون التوبة والتكفير بلبس المسوح

الخشنة وجلد النفس بالسياط. أما هو فكان يؤيد قهر ضعف الروح بجلدٍ جيد للجسد. كان مشهوراً بخطابته المندفعة. يلحق به مؤمنوه من كنيسة إلى كنيسة، ويتعرقون وهم يسمعونه يصف عذابات الخاطئين في الجحيم: اللحم الذي تمزقه آلات تعذيب متفننة، والنيران الأبدية، والكلابات التي تخترق أعضاء الذكورة، والزواحف المقززة التي تندس في الثقوب النسائية، وعذابات كثيرة أخرى يضيفها في كل موعظة ليزرع مخافة الرب في النفوس. وكان الشيطان نفسه يوصف حتى أدق تشوهاته وأكثرها حميمة بلكنة الكاهن الغاليسية الذي يرى أن مهمته في هذا العالم تتمثل في هزّ ضمائر الأهالي الكريوليين خامدي الأحاسيس.

كان سيفيرو دل بايه ملحداً وماسونياً، ولكنه ذو تطلعات سياسية، لا يمكنه معها منح نفسه ترف التغيب عن أشد القداديس حشداً في أيام الآحاد والأعياد، كي يتمكن الجميع من رؤيته. أما زوجته نيفيا فتفضل أن تتفاهم مع الرب دون وسطاء، وتشعر بالريبة من ذوي المسوح الكهنوتية، ويضجرها وصف الفردوس السماوي والمطهر والجحيم، لكنها ترافق زوجها في طموحاته البرلمانية يداعبها الأمل في أنه إذا توصل إلى شغل مقعد في مجلس الشيوخ، فسوف تتمكن من الحصول على حق المرأة في التصويت الذي تناضل من أجله منذ عشر سنوات، دون أن يخفف حَبَلها المتوالي من عزيمتها. وفي يوم الخميس المقدس ذاك أوصل الأب ريستريبو مستمعيه إلى أقصى حدود قدرتهم على التحمل برؤاه القيامية، فبدأت نيفيا تشعر بالدوار. وتساءلت إن لم تكن قد حبلت من جديد. فعلى الرغم من الغسول بالخل وقطع الإسفنج المبللة بالمرارة، أنجبت خمسة عشر ابناً، ما زال أحد عشر منهم أحياء، وكانت لديها مسوغاتها للافتراض أنها قد استقرت في سن النضوج، ذلك أن ابنتها الصغرى كلارا بلغت السنة العاشرة من العمر. وصار يبدو أن اندفاع خصوبتها المذهلة قد توقف أخيراً. وحاولت أن تنسب اضطرابها إلى موعظة الأب ريستريبو الذي أشار إليها بإصبعه في تلك اللحظة ليتحدث عن الفريسين الذين يسعون إلى إضفاء الشرعية على أبناء الزنى وعلى الزواج المدني،

وتفكيك العائلة، والوطن، والملكية، والكنيسة، ومنح النساء وضع الرجا ل نفسه في تحرٍ سافر لشريعة الرب بالغة الوضوح من هذه الناحية. كانت نيفيا وسيفيرو يشغلان مع أولادهما صف المقاعد الثالث بكامله. وكانت كلارا تجلس إلى جانب أمها، وهذه تشدّ على يدها بنفاد صبر عندما توغلت خطبة الكاهن كثيراً في الحديث عن خطايا الجسد، لأنها تعرف أن ذلك سيوحي للصغيرة بتصور ضلالات تتجاوز الواقع، مثلما يبدو جلياً في الأسئلة الكثيرة التي تطرحها ولا يعرف أحد الإجابة عليها. لقد كانت كلارا مبكّرة النضوج، وذات مخيلة خصيبة ورثتها جميع نساء العائلة من جهة الأم. كانت درجة الحرارة في الكنيسة قد ارتفعت، وأسهمت رائحة الشموع والبخور والحشد المكدّس في زيادة إنهاك نيفيا. فكانت تتمنى انتهاء الطقوس دفعة واحدة، كي ترجع إلى برودة بيتها، والجلوس على شرفة السرخس، وارتشاف إبريق شراب اللوز الذي تُعدّه النانا في أيام الأعياد. نظرت إلى أبنائها، كان الصغار متعبين، متيبسين في ملابس يوم الأحد، وبدأ الكبار يَشرُدون. مرت بنظرها على روسا، كبرى بناتها الأحياء، وفوجئت كالعادة. فقد كان لجمالها الغريب سمة تبعث على تشوش لا تفلت هي نفسها منه، إذ تبدو كما لو أنها صُنعت من مادة مختلفة عن الجنس البشري. لقد عرفت نيفيا أنها ليست من هذا العالم حتى قبل أن تولد، لأنها رأتها في الحلم، ولهذا لم تفاجأ حين أفلتت من القابلة صرخة فور رؤيتها. فعند ولادتها، كانت روسا بيضاء، ملساء، بلا تجاعيد، كأنها دمية من خزف، بشعر أخضر وعينين صفراوين، أجمل مخلوقة ولدت على الأرض منذ أزمنة الخطيئة الأصلية، كما قالت القابلة وهي ترسم إشارة الصليب. ومنذ الحمّام الأول، غسلت لها النانا شعرها بنقيع البابونج، فكانت له فضيلة التخفيف من لونه بمنحه لمسة من لون البرونز القديم، وكانت تضعها عارية تحت الشمس لتقوية بشرتها الشفافة في أشد أماكن بطنها وإبطيها حساسية، حيث تظهر خطوط الأوردة ونسيج العضلات السري. ومع ذلك، لم تكن تلك الخدع الغجرية كافية، وسرعان ما سرت إشاعة أن ملاكاً قد ولد لهم. وانتظرت نيفيا أن تتكفل مراحل النمو الجاحدة بإضفاء بعض العيوب

على ابنتها، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل على العكس، ففي الثامنة عشرة من عمرها، لم تصبح روسا أكثر سُمنة ولم تظهر لها بثور، وإنما ازدادت حدة رشاقتها البحرية. فكان لون بشرتها بانعكاسات زرقته الخفيفة، ولون شعرها، وبطء حركاتها، وطبعها الصامت، تذكر كلها بكائن مائي. كان فيها شيء من السمك، ولو أنها مُنحت ذيلاً بحراشف لبدت حورية بحر كاملة، لكن ساقيها وضعتاها على حد غير واضح بين المخلوق البشري والكائن الأسطوري. وعلى الرغم من ذلك كله، عاشت الفتاة حياة عادية تقريباً، وكان لها خطيب، وستتزوج ذات يوم، وتنتقل بذلك مسؤولية جمالها إلى يدين أخريين. أحنت روسا رأسها وتسرب شعاع عبر قطع الزجاج القوطي الملون في الكنيسة مانحاً بروفيلها هالة من نور. التفت بعض الأشخاص للنظر إليها وتهامسوا، مثلما يحدث بكثرة، ولكن روسا بدت غير منتبهة لشيء، فهي ذات مناعة ضد الغرور، وقد كانت في ذلك اليوم أكثر سهواً من المعهود، تتخيّل حيوانات خرافية جديدة لتطرزها على سماطها، حيوانات نصف طائرة ونصف لبونة، يغطيها ريش بألوان قوس قزح، ومزوّدة بقرون وحوافر، وشديدة البدانة لكن أجنحتها صغيرة جداً تتحدى قوانين البيولوجيا وعلوم الحركة الهوائية. نادراً ما كانت تفكر في خطيبها إستيبان تروبيا، ليس لنقص في الحب وإنما بسبب طبيعتها النسّاءة ولأن سنتين من الفراق تشكلان غياباً طويلاً. كان يعمل في مناجم الشمال. ويكتب إليها بمنهجية وترد روسا عليه أحياناً بإرسال أبيات شعر مستنسخة ورسوم أزهار بالحبر الصيني على ورق يحاكي الرق. ومن خلال تلك المراسلات التي كانت نيفيا تنتهكها بصورة منتظمة، عرفت مفاجآت مهنة عامل المنجم المهدد على الدوام بانهيارات، ومتابعته لعروق منجمية متهربة، وطلبه لقروض تعتمد تغطيتها على حسن الطالع والأمل بالظهور العجيب لخط رفيع من الذهب يتيح له تكوين ثروة سريعة والعودة ليتأبط ذراع روسا ويقودها إلى مذبح الكنيسة، ويتحول بذلك إلى أسعد رجل في الكون، مثلما يقول دوماً في نهاية رسائله. ومع ذلك، لم تكن روسا تتعجل الزواج، وقد نسيت تقريباً القبلة الوحيدة التي تبادلاها عند الوداع،

ولم يكن بإمكانها كذلك أن تتذكر لون عيني ذلك العريس العنيد. فبتأثير الروايات العاطفية التي تشكّل قراءتها الوحيدة، كان يروقها أن تتخيله بجزمة من النعل، وبشرة أحرقتها رياح الصحراء، ينبش الأرض بحثاً عن كنوز قراصنة من نقود ذهبية إسبانية ومجوهرات إنكية، ولم تكن تنفع محاولات نيفيا في إقناعها بأن ثروات المناجم تقبع بين الصخور، إذ كان يبدو لروسا أنه من المحال أن يجمع استيبان تروييا أطناناً من الصخور ويخضعها لعمليات حرق جائرة على أمل أن تبصق له غراماً واحداً من الذهب. وفي أثناء ذلك، كانت تنتظره دون ملل، متمسكة بثبات بالمهمة العملاقة التي فرضتها على نفسها: تطريز أكبر سماط في العالم. بدأت بتطريز كلاب وقطط وفراشات، ولكن سرعان ما سيطر الخيال على عملها فراح يظهر فردوس بهائم مستحيلة تولد من إبرتها تحت بصر أبيها القلق. كان سيفيرو يرى أن الوقت قد حان كي تنفض ابنته الخدر عنها وتستقر قدماها على أرض الواقع، وأن تتعلم بعض الأعمال المنزلية وتعدّ نفسها للزواج، لكن نيفيا لم تكن تشاطره هذا القلق. فهي تفضل عدم تعذيب ابنتها بمتطلبات دنيوية، لأنها تحدس أن روسا كائن سماوي، وأنها لم تُخلق لتدوم زمناً طويلاً في حركة مرور هذا العالم الفظة، ولهذا تتركها بسلام مع خيوط تطريزها ولا تعترض على حديقة حيواناتها الكابوسية تلك.

انكسر سيخ في مشدّ صدر نيفيا وانغرس طرفه بين أضلاعها. أحست بأنها تختنق في ثوبها المخملي الأزرق، وياقة الدانتيلا العالية، والكمين الضيقين جداً، والخصر المشدود بإحكام، فما إن تفك الحزام حتى تُمضي نصف ساعة من المغص في بطنها إلى أن تستعيد أحشاؤها وضعها الطبيعي. وكثيراً ما ناقشت هذا الأمر مع صديقاتها الداعيات إلى حق التصويت للنساء وتوصلن إلى نتيجة مؤداها أنه ما لم تُقصّر النساء تنانيرهن وشعورهن، وما لم ينزعن تنانيرهن الداخلية، فسيكون سيان لديهن التمكن من دراسة الطب أو نيلهن حق التصويت، لأنهن لن يجدن بأي حال ما يكفي من الهمة لفعل ذلك. ولكنها لم تكن تملك شجاعة أن تكون من أول من يتخلين عن الموضة. لاحظت أن صوت الكاهن

الغاليسي لم يعد يعذب دماغها. إنها إحدى وقفات الصمت الطويلة خلال الموعظة التي يكثر من استخدامها الكاهن العارف بمفعول الصمت القلق. كانت عيناه المتوقدتان تستغلان تلك اللحظات لتستعرضا المؤمنين واحداً فواحداً. أفلتت نيفيا يد ابنتها كلارا وأخرجت منديلاً من كمها لتمسح به قطرة سالت على عنقها. صار الصمت كثيفاً، وبدا أن الوقت توقف في الكنيسة، لكن أحداً لم يجرؤ على السعال أو تغيير وضعه كيلا يجتذب انتباه الأب ريستريبو. كانت أخر كلماته لا تزال تهتز بين الأعمدة.

وفي تلك اللحظة، كما ستتذكر نيفيا بعد سنوات، ووسط الجزع والصمت، سُمع بكل وضوح صوت الصغيرة كلارا.

- بست! أيها الأب ريستريبو! إذا كانت حكاية الجحيم هذه مجرد كذبة، فسوف نكون جميعنا قد تخوزقنا...

إصبع الكاهن الجزويتي السبابة التي كانت قد ارتفعت في الهواء لتشير إلى عذابات جديدة أخرى، ظلت معلقة كمانعة صواعق فوق رأسه. حبس الجميع أنفاسهم، ومن كانوا يغفون قليلاً استعادوا حيويتهم. وكان الزوجان دل بايه أول من أبديا ردّ فعل لدى شعورهما بالرعب يجتاحهما ورؤية أبنائهما يضطربون بعصبية. أدرك سيفيرو أنه عليه أن يتصرف قبل أن ينفجر الضحك الجماعي أو تنزل كارثة سماوية. فأمسك زوجته من ذراعها وابنته كلارا من عنقها وخرج يجرّهما بخطوات واسعة، يتبعه أبناؤه الآخرون الذين أسرعوا متزاحمين باتجاه الباب. وقد تمكنوا من الخروج قبل أن يتمكن الكاهن من استحضار صاعقة تحوّلهم إلى تماثيل من ملح، ولكنهم سمعوا عند العتبة صوت ملاك غاضب:

- شيطانية! شيطانية متعجرفة!

ظلت كلمات الأب ريستريبو هذه راسخة في ذاكرة الأسرة بخطورة تشخيص مرضي، وأتيحت لهم مع توالي السنوات فرصة تذكرها بكثرة. الوحيدة التي لم تعد إلى التفكير فيها هي كلارا نفسها التي اكتفت بتدوينها في يومياتها ثم نسيتها بعد ذلك. أما أبواها بالمقابل فلم يستطيعا تجاهلها، على الرغم من اتفاقهما على أن المس الشيطاني

والعجرفة خطيئتان كبيرتان جداً على طفلة صغيرة. كانا يخشيان تقولات الناس وتعصب الأب ريستريبو. فحتى ذلك اليوم لم يكونا قد وضعا اسماً لشذوذات ابنتهما الصغرى ولم يربطاها بمؤثرات شيطانية. كانا يعتبرانها من سمات الطفلة، مثلما هو عَرج لويس الخفيف أو جمال روسا. فقدرات كلارا الذهنية لم تكن تزعج أحداً ولا تتسبب في اضطراب كبير، وتتكشف على الدوام تقريباً عن شؤون ضئيلة الأهمية في حميمية البيت الصارمة. ففي بعض الأحيان، في موعد الطعام، عندما يكون الجميع مجتمعين في قاعة الطعام الكبرى في البيت، وجالسين في نظام صارم من الوقار والمكانة، تبدأ المملحة بالاهتزاز، ثم تتحرك فجأة على المنضدة بين الكؤوس والأطباق، دون تدخل أي مصدر طاقة معروف أو خدعة شعوذة. فتشد نيفيا جديلتي شعر كلارا وتتوصل بهذه الوسيلة إلى تخلي ابنتها عن شرودها الغريب، فتعود المملحة إلى حالها الطبيعية، وتستعيد جمودها على الفور. وكان الأخوة قد رتبوا أمورهم، في حال وجود زائرين، كي يوقف أقربهم بصفعة من يده ما يمكن أن يتحرك فوق المنضدة، قبل أن ينتبه الغرباء إلى الأمر ويصيبهم الاضطراب. وتواصل الأسرة تناول الطعام دون تعليقات. وكانوا قد اعتادوا كذلك على نبوءات أختهم الصغرى. فهي تتنبأ بالهزات الأرضية قبل بعض الوقت من وقوعها، وهو أمر بدا ملائماً جداً في بلاد الكوارث الطبيعية هذه، لأنها تتيح الوقت لوضع أواني الطعام في مكان آمن، وترك الأخفاف في متناول اليد من أجل الخروج بسرعة في الليل. في السادسة من عمرها تنبأت كلارا بأن الحصان سيُوقع لويس، ولكن هذا رفض الاستماع إليها، فأصيب أحد وركيه بانحراف منذ ذلك الحين. ومع مرور الزمن راحت ساقه اليسرى تقصر، وكان عليه أن يستخدم حذاء خاصاً ذا أرضية ضخمة يصنعه بنفسه. في تلك المناسبة أحست نيفيا بالقلق، ولكن النانا أعادت إليها الطمأنينة قائلة إن أطفالاً كثيرين يطيرون مثل الذباب، ويفسرون الأحلام ويتحدثون إلى الأرواح، ولكن ذلك ينتهي عندما يفقدون البراءة.

ـ لا أحد منهم يظل على هذه الحال حين يكبر ـ أوضحت لها ـ.

انتظري إلى أن يأتي البنت الحيض وسترين كيف ستفارقها نزوة تحريك الأثاث والتنبؤ بالنكبات.

كانت كلارا هي المفضلة عند النانا. فقد ساعدت في ولادتها وكانت الوحيدة التي تفهم فعلاً طبيعة الطفلة الغريبة. وعند خروج كلارا من بطن أمها احتضنتها النانا وغسلتها، ومنذ تلك اللحظة أحبت إلى حدّ اليأس هذه المخلوقة الهشة، ذات الرئتين الممتلئتين بالبلغم، والمشرفة على الدوام على انقطاع النفس وتحول لونها إلى البنفسجي، فكان عليها أن تنعشها مرات كثيرة بدفء ثدييها الكبيرين كلما افتقدت الهواء، لأنها تعرف أنه العلاج الوحيد للربو، وأنه أكثر فعالية من أشربة الدكتور كويفاس الحريفة اللاذعة.

في يوم الخميس المقدس ذاك، كان سيفيرو يمشي في الصالون قلقاً من الفضيحة التي أثارتها ابنته خلال القداس. ويتعلل بأنه لا يمكن إلا لمتعصب مثل الأب ريستريبو أن يؤمن بوجود ممسوسين شيطانيين في أوج القرن العشرين، عصر الأنوار والعلم والتقنية، حيث فقد الشيطان سمعته نهائياً. فقاطعته نيفيا لتقول إن المسألة ليست في ذلك. وإن الخطير في الأمر هو في تجاوز مآثر ابنتها جدران البيت، وبدء الكاهن بالتقصي، وعندئذ سيعرف الجميع الأمر.

- سيبدأ الناس بالمجيء لرؤيتها كما لو أنها أعجوبة - قالت نيفيا.

- وسيذهب الحزب الليبرالي إلى الجحيم - أضاف سيفيرو وهو يرى الضرر الذي يمكن أن يُلحقه بمسيرته السياسية وجود ابنة مسحورة في الأسرة.

وكانا على هذه الحال عندما جاءت النانا تجرجر خفها، وبحفيف تنانيرها المنشّاة، لتعلن أن هناك في الفناء رجالاً يُنزلون ميتاً. وهكذا كان. فقد دخلوا بعربة تجرها أربعة أحصنة احتلت الجزء الأول من الفناء ساحقة أزهار الكاميليا، وملوثة بالروث الأرضية المبلطة اللامعة، وسط زوبعة غبار، ووقع حوافر الخيول ولعنات الرجال المتطيرين الذين يقومون بإيماءات ضد الإصابة بالعين. لقد أحضروا جثمان الخال ماركوس مع أمتعته كلها. وكان يوجّه ذلك الصخب رجلٌ ضئيل متساهل، يرتدي

السواد، مع سترة طويلة وقبعة كبيرة جداً، بدأ خطاباً وقوراً ليشرح ظروف القضية، ولكنه قوطع بفظاظة من قبل نيفيا التي ارتمت على تابوت معفر بالغبار يضم رفات أخيها الأحب إلى نفسها. كانت نيفيا تصرخ طالبة فتح الغطاء لتراه بعنيها. فقد كان عليها أن تدفنه في مناسبة سابقة، وراودتها الشكوك بالتالي في ألا يكون موته نهائياً في هذه المرة أيضاً. اجتذبت صرخاتها حشد خدم البيت وجميع الأبناء الذين هرعوا راكضين حين سمعوا اسم خالهم يتردد مع البكاء المأتمي.

لم تكن كلارا قد رأت خالها ماركوس منذ سنتين، ولكنها تتذكره جيداً. إنها الصورة الوحيدة الواضحة تماماً من طفولتها، ولا تحتاج في تذكرها للرجوع إلى صورة الديغريتب التي في الصالون، حيث يظهر بملابس كشاف، مستنداً إلى بندقية ذات سبطانتين من طراز قديم، وقدمه اليمنى على رقبة نمر ماليزي، بالوضع الظافر نفسه الذي رأت فيه السيدة العذراء على مذبح الكنيسة الأكبر تطأ بقدمها الشيطان المهزوم بين غيوم من الجبس وملائكة شاحبين. كان يكفي أن تغمض كلارا عينيها حتى ترى خالها بلحمه وعظمه، مدبوغ البشرة بقسوة كل مناخات الكوكب، نحيلاً، بشارب قرصان تطل تحته ابتسامة غريبة تكشف عن أسنان سمكة قرش. وبدا أنه من المحال أن يكون داخل ذلك الصندوق الأسود المركون في وسط الفناء.

في كل زيارة قام بها ماركوس إلى بيت أخته نيفيا كان يقضي عدة شهور، مستثيراً مرح أبناء أخته، لاسيما كلارا، وعاصفة يفقد فيها النظام البيتي آفاقه. فالمنزل يمتلئ بصناديق، وحيوانات محنّطة، ورماح هنود، وأكياس بحارة. ويمضي الجميع متعثرين في كل الأنحاء بحوائجه الغريبة، وتظهر حشرات لم تُرَ من قبل قطّ، قامت بالرحلة من أماكن نائية لتنتهي مسحوقة تحت مكنسة النانا في أي ركن من البيت. كانت لماركوس عادات آكل لحم بشري، على حدّ قول سيفيرو. فهو يقضي الليل في حركات غير مفهومة في الصالون، عُرف فيما بعد أنها تمارين مكرسة لإحكام سيطرة الذهن على البدن وتحسين الهضم. ويُجري تجارب خيميائية في المطبخ، فيملأ البيت كله بأبخرة نتنة ويُتلف

القدور بمواد صلبه تلتصق بقعر القدر ولا يعود بالإمكان انتزاعها. وبينما الآخرون يحاولون النوم، يجر حقائبه في الممرات، ويجرب إصدار أصوات حادة بأدوات همجية، ويعلّم ببغاء على التكلم بالإسبانية بدل لغتها الأم ذات المنشأ الأمازوني. وفي النهار ينام في أرجوحة يعلقها بين عمودين من أعمدة الشرفة، دون أية ملابس أخرى سوى مئزر صغير يستر العورة ويعكر مزاج سيفيرو، لكن نيفيا كانت تعذره، لأن ماركوس أقنعها بأن يسوع الناصري كان يعظ بهذه الحال. وكلارا تتذكر تماماً، على الرغم من أنها كانت صغيرة جداً آنذاك، المرة الأولى التي جاء بها الخال ماركوس إلى البيت راجعاً من إحدى رحلاته. استقر كما لو أنه سيبقى إلى الأبد. وبعد وقت قصير، أضجره تقديم نفسه في منتديات سمر الآنسات، حيث تعزف سيدة البيت على البيانو، ولعب الورق، ومن أجل تفادي مضايقات جميع أقاربه اللجوجة بأن يضع عقله في راسه ويدخل للعمل مساعداً في مكتب محاماة سيفيرو دل بابيه، اشترى أرغناً وخرج يجوب الشوارع، بنية إغواء ابنة عمه أنطونيتا، وإبهاج الجمهور في أثناء ذلك، بجهاز موسيقاه ذي ذراع التشغيل اليدوية. لم تكن الآلة أكثر من صندوق صدئ ذي عجلات، ولكنه زيّنه برسوم بحرية وركّب له مدخنة مركب زائفة. فصار له مظهر موقد مطبخ يعمل بالفحم. وكان الأرغن يعزف بالتناوب مارشاً عسكرياً ولحن فالس، وبين دورة وأخرى من ذراع التدوير، كانت الببغاء التي تعلمت الإسبانية، وإن كانت لا تزال تحتفظ بلكنة أجنبية، تجتذب المارة بصرخات حادة. وكانت تسحب بمنقارها كذلك قصاصات ورقية من علبة ليبيع الحظ للفضوليين. وكانت كتابة قصاصات الورق الوردية والخضراء والزرقاء بالغة البراعة، بحيث تشير على الدوام إلى أشد رغبات الزبون سرية. وإضافة إلى أوراق الحظ، كان يبيع كرات مفرقعات صوتية صغيرة من نشارة الخشب للهو الأطفال، ومساحيق مضادة للعجز الجنسي، يُسوّقها بصوت خفيض بين المارة المصابين بهذا الداء. لقد ولدت فكرة الأرغن كوسيلة أخيرة ويائسة لاجتذاب ابنة العم أنطونيتا، بعد أن أخفقت أساليب أخرى أكثر تقليدية في مغازلتها. فكر في أنه لا يمكن لأي امرأة سليمة العقل أن تحافظ

على سلبيتها حيال عزف سيريناد الأرغن. وكان ذلك ما فعله. استقر تحت نافذتها عند غروب أحد الأيام، ليعزف مارشه العسكري ولحن فالسه، في الوقت الذي كانت تتناول فيه الشاي مع جماعة من صديقاتها. لم تعتبر أنطونيتا نفسها المعنية بذلك إلى أن بدأت الببغاء بمناداتها باسمها، فنهضت عندئذ وأطلت من النافذة. ولم تكن ردة فعلها مثلما كان يأمل عاشقها. وقد تولت صديقاتها توزيع الخبر في كل صالونات المدينة، وفي اليوم التالي بدأ الناس بالتجول في الشوارع آملين أن يروا بأعينهم أخا زوجة سيفيرة دل بابيه يعزف على الأرغن ويبيع كرات النشارة مع ببغاء تملؤها العثة، ويفعلون ذلك بكل بساطة من أجل متعة التأكد من أن لدى أفضل العائلات كذلك أسباباً وجيهة للشعور بالخجل. وحيال المهانة العائلية، اضطر ماركوس إلى التخلي عن الأرغن واختيار وسائل أقل صخباً لاجتذاب اهتمام ابنة العم أنطونيتا، ولكنه لم يتخلَّ عن ملاحقتها. غير أن النجاح لم يحالفه على أي حال في النهاية، لأن الشابة تزوجت بين عشية وضحاها من دبلوماسي يكبرها بعشرين سنة، اصطحبها معه للعيش في بلد مداري لا يتذكر اسمه أحد، ولكنه يوحي بالزنوجة والموز والنخيل، حيث تمكنت من تجاوز ذكرى ذلك المتودد الذي دمر سنوات عمرها السبع عشرة بمارشه العسكري وفالسه. غرق ماركوس في الاكتئاب ليومين أو ثلاثة أيام، وأعلن بعدها أنه لن يتزوج أبداً، وأنه سيذهب في رحلة حول العالم. باع الأرغن لرجل أعمى وترك الببغاء إرثاً لكلارا، لكن النانا سممت الطائر سراً بجرعة زائدة من زيت كبد السمك، لأنها لم تستطع تحمل نظراته الشبقة وبراغيثه وصرخاته الصاخبة التي يعرض بها وريقات الحظ، وكرات نشارة الخشب، والمساحيق المضادة للعجز.

كانت تلك هي أطول رحلات ماركوس. وقد رجع بحمولة من صناديق ضخمة حُفظت في أقصى الفناء، بين قن الدجاج ومستودع الحطب، إلى أن انتهى الشتاء. وما إن أطل الربيع حتى نقل الصناديق إلى حديقة الاستعراضات، وهي أرض خلاء فسيحة يجتمع الناس فيها يوم العيد الوطني لمشاهدة عرض العسكريين بمشية البجعة التي استنسخوها

عن البروسيين. وعند فتح الصناديق، تبين أن فيها قطعاً مفككة من الخشب والمعدن والأقمشة الملونة. أمضى ماركوس أسبوعين في تركيب تلك الأجزاء وفقاً لتعليمات كتيب بالإنكليزية، كان يحل رموزه بمخيلة لا تُقهر ومعجم صغير. وعندما صار العمل جاهزاً تبين أنه مجسم طائر ذي أبعاد خرافية، له وجه نسر نزق مرسوم في الجهة الأمامية، وجناحان متحركان، ومروحة في الظهر. تسبب الطائر بصدمة تأثر. فنسيت الأسر الأوليغاركية الأرغن وتحول ماركوس إلى حدث الموسم المستجد. وصار الناس يخرجون للتنزه في أيام الآحاد كي يذهبوا لرؤية الطائر، وحصد بائعو الترهات والمصورون المتجولون المكاسب. غير أن اهتمام الجمهور ما لبث أن بدأ بالنفاد. عندئذ أعلن ماركوس أنه يفكر في التحليق في الطائر، حين يصفو الجو، ليجتاز سلسلة الجبال. وخلال ساعات قليلة انتشر الخبر وتحول إلى حدث تعليقات ذلك العام. كانت الآلة تقبع ببطنها المستقر على الأرض، ثقيلة وخرقاء، أقرب إلى هيئة بطة جريحة منها إلى تلك الطائرات التي بدأ صنعها في أميركا الشمالية. لا شيء في مظهرها يسمح بالافتراض أنها قادرة على الحركة، ناهيك عن التحليق عالياً واجتياز قمم الجبال المكللة بالثلوج. توافدت جموع الصحفيين والفضوليين. وكان ماركوس يبتسم صامتاً حيال سيل الأسئلة الجارف، ويتخذ أوضاعاً مختلفة ليلتقط له المصورن الصور دون أن يقدم أي تفسير تقني أو علمي بشأن الطريقة التي يفكر في أن يحقق بها مغامرته. وكان هناك من جاؤوا من الأقاليم لرؤية الاستعراض. وبعد أربعين سنة من ذلك سيعيد حفيد أخته نيكولاس الذي لم يتوصل ماركوس إلى التعرف إليه، بعث مبادرة الطيران التي ظلت ماثلة على الدوام في رجال سلالته. لقد خطرت لنيكولاس فكرة عمل ذلك لأهداف تجارية، في قطعة سجق عملاقة مملوءة بهواء ساخن، مطبوع عليها إعلان ترويج لشراب غازي. أما في الأزمنة التي أعلن فيها ماركوس عن رحلته في الطائرة، لم يكن هناك من يعتقد بأنه يمكن لذلك الاختراع أن يكون ذا نفع في شيء مفيد. وهو لم يفعل ذلك إلا بدافع من روح المغامرة. طلع صباح يوم الطيران الموعود غائماً، ولكن التوقعات والآمال كانت كبيرة، فلم يشأ

ماركوس تأجيل الموعد. حضر إلى المكان في الوقت المحدد ولم يلق نظرة واحدة إلى السماء الملبدة بغيوم داكنة. ملأت الجموع الذاهلة جميع الشوارع المجاورة، واعتلت سطوح وشرفات البيوت القريبة، وازدحمت في الحديقة. لم يكن بإمكان أي مهرجان سياسي أن يجمع مثل تلك الحشود إلا بعد نصف قرن من ذلك، مع أول مرشح ماركسي يتطلع إلى شغل منصب الرئاسة بوسائل ديمقراطية تماماً. وستتذكر كلارا طيلة حياتها ذلك اليوم الاحتفالي. ارتدى الناس ملابس ربيعية، مستبقين قليلاً الافتتاح الرسمي للفصل، فكان الرجال ببدلات كتانية بيضاء والسيدات بقبعات القش الإيطالية التي شاع استعمالها في ذلك العام. ومرت جماعات من تلاميذ المدارس مع معلميهم يحملون أزهاراً للبطل. تلقى ماركوس الزهور وقال لهم مازحاً أن ينتظروا إلى أن تتحطم به الآلة ليحملوا الزهور في جنازته. والمطران بشخصه، دون أن يطلب منه أحد ذلك، ظهر ومعه حاملا مباخر ليبارك الطائر، وعزفت جوقة الدرك موسيقى مرحة وبلا مزاعم، من أجل إمتاع الجمهور. ووجدت شرطة الخيالة ذات الرماح مشقة في إبقاء الجموع بعيدة عن مركز الميدان، حيث يقف ماركوس مرتدياً أفرهول ميكانيكي، ونظارة سائق سيارة، وخوذة كشاف. ومن أجل الطيران، كان يحمل، فضلاً عن البوصلة، منظاراً وخرائط غريبة للملاحة الجوية رسمها هو نفسه بالاستناد إلى نظريات ليوناردو دافنشي ومعارف الإنكا. وخلافاً لكل منطق، ارتفع الطائر في المحاولة الثانية دون عقبات، وحتى بشيء من الرشاقة، وسط قرقعة هيكله وفرقعات محركه. حلق محركاً جناحيه واختفى بين الغيوم، تحييه عاصفة من التصفيق والصفير، وتلويح المناديل والأعلام، وأنغام موسيقى الجوقة، ورذاذ الماء المبارك. وعلى الأرض ظلت تعليقات الحشد المذهول وأوسع الرجال معرفة، ممن حاولوا تقديم تفسير عقلاني للمعجزة. بقيت كلارا تنظر إلى السماء إلى ما بعد وقت طويل من اختفاء خالها عن الأنظار. وظنت أنها ظلت تراه طيلة عشر دقائق تالية، ولكنَّ ما كانت تراه لم يكن سوى عصفور دوري عابر. وبعد انقضاء ثلاثة أيام، كانت البهجة التي أحدثها تحليق أول طائرة في البلاد قد تلاشت ولم يعد هناك من

يتذكر الحدث، باستثناء كلارا التي ظلت ترصد الأعالي بلا كلل.

وعند مضي أسبوع دون الحصول على أخبار عن الخال الطائر، عرفوا أنه حلق عالياً إلى أن اختفى في الفضاء الفلكي، وراهن أشد الجهلة على فكرة أنه سيصل إلى القمر. وقرر سيفيرو، بمزيج من الأسى والراحة، أن أخا زوجته قد سقط مع آلته في أحد صدوع سلسلة الجبال، حيث لن يكون بالإمكان العثور عليه أبداً. بكت نيفيا بمرارة وأشعلت شموعاً للقديس أنطونيو، شفيع الأشياء المفقودة. وعارض سيفيرو فكرة نذر تلاوة بعض الصلوات، لأنه لا يؤمن بهذه الوسيلة لكسب الفردوس، وأقل من ذلك إيمانه بقدرتها للإعادة إلى الأرض، وراح يؤكد أن القداديس والنذر، مثلها مثل صكوك الغفران والمتاجرة بالصور الدينية والكتفيات، ما هي إلا تجارة غير شريفة. ونظراً لهذا الوضع، استغرقت نيفيا والنانا ومعهما الأطفال جميعهم في ترتيل صلوات المسبحة سراً طوال تسعة أيام. وفي أثناء ذلك، قامت فرق من المكتشفين ومتسلقي الجبال المتطوعين بالبحث عنه دون كلل بين قممٍ ومهاوي سلسلة الجبال، وجابوا كافة الشعاب سهلة المنال واحداً فواحداً، إلى أن رجعوا ظافرين أخيراً وسلموا الأسرة الرفات الفاني في نعش أسود ومتواضع مختوم. جرى دفن الرحالة الجسور في مأتم عظيم. فقد حوله موته إلى بطل، وظل اسمه لعدة أيام في العناوين الرئيسية للصحف كلها. والجموع نفسها التي احتشدت لوداعه يوم تحليقه في الطائر، مرت قبالة نعشه لإلقاء النظرة الأخيرة عليه. وبكته الأسرة كلها بما يستحقه، باستثناء كلارا التي واصلت تفحص السماء بصبرِ عالم فلكيّ. وبعد أسبوع من المأتم، ظهر عند عتبة باب بيت نيفيا وسيفيرو دل بايه الخال ماركوس نفسه، بجسده الحاضر، وبابتسامة مرحة تحت شاربه القرصاني. فبفضل صلوات المرأتين والأطفال السرية، مثلما أقر هو نفسه، ظل حياً ومتمتعاً بكل ملكاته، بما فيها طيب مزاجه. فعلى الرغم من الأصول النبيلة لخرائطه الجوية، كان الطيران إخفاقاً ذريعاً، أدى إلى فقدانه الطائرة، وكان عليه أن يعود ماشياً، ولكن دون أي كسر في عظامه وبحفاظ تام على سلامة روحه المغامرة. رسّخ هذا الحادث من ورع الأسرة وتوقيرها للقديس

أنطونيو، ولم يكن عبرة للأجيال التالية التي حاولت الطيران أيضاً بوسائط مختلفة. ومع ذلك لم يكن ماركوس، من الناحية القانونية، إلا مجرد جثة. فكان على سيفيرو دل بابيه أن يضع كل معرفته بالقوانين في خدمة إعادة أخي زوجته إلى الحياة وإلى وضع المواطن. وعند فتح التابوت أمام السلطات المختصة، تبين لهم أنهم قد دفنوا كيساً من الرمل. وقد لطخت هذه الواقعة سمعة الكشافين ومتسلقي جبال الأنديز المتطوعين الذين كانت سمعتهم نقية وبلا دنس حتى ذلك الحين. فقد اعتُبروا من ذلك اليوم أقل مصداقية من المشعوذين.

انتهى الأمر بانبعاث ماركوس البطولي إلى جعل الجميع ينسون مسألة الأرغن. وعادوا إلى عادة دعوته إلى كافة صالونات المدينة، واستعيد اسمه، لبعض الوقت على الأقل. عاش ماركوس في بيت أخته بضعة شهور. وغادر ذات ليلة دون أن يودّع أحداً، تاركاً صناديقه، وكتبه، وأسلحته، وجزماته، وكافة حاجياته. تنفس سيفيرو، وحتى نيفيا نفسها، الصعداء. كانت زيارته الأخيرة قد استمرت طويلاً. ولكن كلارا أحست بالتأثر، فأمضت أسبوعاً وهي تمشي كمنوَّمة وتمص إصبعها. فالطفلة التي كانت في السابعة من عمرها آنذاك، تعلمت قراءة كتب حكايات خالها، وصارت أقرب إليه من أي فرد آخر في الأسرة بفعل مهاراتها التنبؤية. وكان ماركوس يؤكد أنه يمكن لمَلَكَة ابنة أخته الفريدة أن تكون مصدر دخل وفرصة جيدة لتنمية نفاذ بصيرتها. وقد كانت لديه نظرية تقول إن هذه الملكة موجودة عند جميع الكائنات البشرية، لاسيما في أفراد أسرته، وإذا كانت لا تعمل بفعالية، فإنما السبب هو انعدام التدريب وحسب. اشترى من السوق الفارسي كرة من البلور تتمتع، حسب رأيه، بخصائص سحرية آتية من الشرق، غير أنه عُرف فيما بعد أنها ليست سوى عوامة زورق صيد، وقد وضعها على منديل من مخمل أسود وأعلن أن بإمكانه قراءة الطالع، وعلاج الإصابة بالعين، ورؤية الماضي، وتحسين نوعية الأحلام، وكل ذلك مقابل خمسة سنتافو. وكانت خادمات الجوار هن أولى زبائنه. فقد اتُهمت إحداهن بأنها لصة، لأن سيدتها فقدت خاتماً. ودلت كرة البلور إلى مكان وجود تلك

الحلية: إنها قد تدحرجت تحت إحدى الخزائن. وفي اليوم التالي كان هناك صف طويل عند باب البيت. جاء الحوذيون، والتجار، وموزعو الحليب والماء، ثم ظهر بعد ذلك، بصورة متكتمة، بعض الموظفين البلديين والسيدات البارزات ممن جاءوا متسللين خلسة على امتداد الجدران، ومحاولين ألا يعرفهم أحد. وكانت النانا هي من تستقبل الزبائن، وتجعلهم ينتظرون بانتظام في غرفة الانتظار وتتقاضى منهم الأجور. وقد شغلها هذا العمل طيلة النهار تقريباً واستنفدها كثيراً، حتى إنها أهملت أعمالها في المطبخ وبدأت الأسرة تشكو من أن الشيء الوحيد المتوفر للعشاء هو فاصولياء معتقة وحلوى سفرجل. وقد رتب ماركوس حال مرآب العربة ببعض الستائر المخططة التي كانت معلقة في الصالة ذات يوم، غير أن الإهمال والقِدم حولها إلى نسالات خرق يغطيها الغبار. وهناك كان يستقبل زبائنه ومعه كلارا. كان العرّافان يرتديان جلبابين لهما «لون شعب النُور»، مثلما يسمي ماركوس اللون الأصفر. كانت النانا قد صبغت الجلبابين بمسحوق الزعفران، بأن غلتهما في قدر مخصصة لصنع المهلبية. وفضلاً عن الجلباب، وضع ماركوس عمامة معقودة على رأسه، وتميمة فرعونية معلقة حول عنقه. وكان قد أطلق شعر لحيته ورأسه، فبدا أشد نحولاً من أي وقت مضى. كان ماركوس وكلارا مقنعين بالكامل، لاسيما أن الطفلة لم تكن بحاجة لتنظر إلى البلورة كي تحزر ما الذي يود كل شخص سماعه. فكانت تهمس ذلك في أذن الخال ماركوس الذي يتولى نقل الرسالة إلى الزبون ويرتجل النصائح التي تبدو له ملائمة. وهكذا انتشرت شهرتهما، لأن من كانوا يأتون إلى العيادة حزينين ومحبطين يخرجون منها ممتلئين بالآمال. وكان العشاق المصدودين يحصلون على توجيهات لتليين القلب اللامبالي، ويحصل الفقراء على طريقة مؤكدة لمضاعفة مراهناتهم في ميادين سباق الكلاب. ازدهرت تلك التجارة إلى حد صارت معه غرفة الانتظار مكتظة على الدوام بالناس، وبدأت النانا تشعر بالدوار من طول أمد بقائها واقفة. ولم يكن سيفيرو مضطراً في هذه المرة لأن يتدخل من أجل وضع حد لوقف مبادرة الأعمال تلك التي يمارسها أخو زوجته، لأن المتنبئين

نفسيهما، حين انتبها إلى أنه يمكن لنبوءاتهم الصائبة أن تبدل مصير الزبائن الذين ينفذون كلامهما بحرفيته، خافا وقررا أن ما يقومان به هو مهنة محتالين. فهجرا معبد النبوءات في مرآب العربة واقتسما الأرباح قسمة عادلة، بالرغم من أن النانا كانت المهتمة الوحيدة بالجانب المادي من تلك التجارة.

بين أخوة آل دل بابيه، كانت كلارا هي الأكثر صموداً واهتماماً في الاستماع إلى حكايات خالها. فهي قادرة على إعادة سرد أي قصة منها، وتحفظ عن ظهر قلب عدة كلمات من لهجات هنود أجانب، وتعرف عاداتهم ويمكنها أن تصف الطريقة التي يُدخلون بها عيداناً من الخشب في شفاههم وشحمات آذانهم، مثلما تعرف طقوس تحول أبنائهم إلى مرحلة الرجولة، وأسماء أشد الأفاعي سمّية والترياق المناسب لها. كان خالها شديد البلاغة إلى حدّ يمكن للطفلة معه أن تحس في جسدها نفسه حرقة لدغ الأفاعي، ورؤية الحيوان الزاحف ينسلّ على السجادة بين قوائم الحائط الحاجز المصنوع من البامبو، وسماع زعاق الببغاوات بين ستائر الصالة. وتتذكر دون تردد جولات لوبي دي أغيرّي المترددة بحثاً عن إلدورادو، والأسماء العصية على النطق للنباتات والحيوانات التي رآها أو اختلقها خالها العجيب، وكانت تعرف عن رهبان اللاما الذين يشربون الشاي مالحاً مع شحم ثيران التيبت، ويمكنها أن تصف بالتفصيل وطنيات بولينيزيا الرخيات، أو حقول الرز الصينية، أو سهوب بلاد الشمال البيضاء حيث تقتل الثلوج الدائمة من يسهو من الحيوانات والبشر، وتجمده خلال دقائق قليلة. وكانت لدى ماركوس عدة دفاتر مذكرات عن رحلاته يكتب فيها حول جولاته وانطباعاته، ومجموعة من الخرائط وكتب الحكايات، والمغامرات، وحتى الجنيات، يحفظها في صناديقه في غرفة المهملات، في أقصى الفناء الثالث للبيت. وقد خرجت من هناك لتملأ أحلام ذريتها إلى أن أحرقت نتيجة خطأ، بعد نصف قرن من ذلك، في محرقة مشينة.

رجع ماركوس من رحلته الأخيرة في نعش. فقد مات في وباء أفريقي غامض راح يحول بشرته إلى مجعدة وصفراء كأنها رق. وحين أحس

بالمرض، انطلق في رحلة العودة آملاً في أن تتمكن رعاية أخته وعلوم الدكتور كويفاس من إعادة الصحة والشباب إليه، ولكنه لم يتحمل رحلة الستين يوماً في سفينة، وعند الوصول قبالة غواياكيل مات مستنفداً من الحمى وهو يهذي عن نساء مطيبات بالمسك وكنوز مخبأة. وكان قبطان السفينة، وهو إنكليزي يدعى لونغفيلو، على وشك أن يلقي به إلى البحر ملفوفاً بعلم، ولكن ماركوس كان قد عقد الكثير من الصداقات، وأوقع في حبه الكثير من النساء على متن عابرة المحيطات، وعلى الرغم من مظهره المشوه وهذيانه، فقد حال المسافرون دون رميه في البحر، واضطر لونغفيلو إلى وضعه إلى جانب خضروات الطباخ الصيني، ليحفظه من حرارة المنطقة الاستوائية ويعوضها، إلى أن صنع له نجار السفينة صندوقاً مرتجلاً. وفي كايّاو، تمكنوا من الحصول على تابوت مناسب، وبعد أيام من ذلك أنزله القبطان الحانق من الإزعاج الذي سببه هذا المسافر لشركة الملاحة وله شخصياً، ووضعه على رصيف المرفأ دون أي اعتبارات، مستغرباً أن أحداً لم يحضر للمطالبة به ودفع النفقات الإضافية. وقد عرف في ما بعد أن البريد في هذه الأنحاء من العالم لا يتمتع بالثقة نفسها التي له في إنكلترا النائية، وأن برقياته قد تبخرت في الطريق. ولحسن حظ لونغفيلو ظهر محام في الجمارك يعرف عائلة دل باييه وعرض أن يتولى المسألة بنفسه، فحشر ماركوس وأمتعته المعقدة في عربة شحن مستأجرة وحمله إلى العنوان الوحيد المؤكد الذي يعرفه في العاصمة: بيت أخته.

كان يمكن لتلك اللحظة أن تكون إحدى أشد اللحظات ألماً في حياة كلارا، لو لم يصل *باراباس* بين حزم أمتعة خالها. ومتجاهلة الضجة المخيمة على الفناء، قادتها غريزتها مباشرة إلى الركن الذي ألقوا فيه القفص. وفي داخله كان *باراباس*. لقد كان كومة عظام مغطاة بوبر غير محدد اللون، إحدى عينيه مغلقة والأخرى تنز غمصاً، وكان جامداً بلا حراك كجثة بين قذارة فضلاته. وعلى الرغم من مظهره الغريب، لم تجد الطفلة صعوبة في معرفة حقيقته.

- كلب صغيرا - صاحت.

تولت مسؤولية الحيوان. أخرجته من القفص، ضمته إلى صدرها، وبدأب وحذر راهبة تبشيرية تمكنت من إعطائه ماء في فمه المتورم والمتيبس. لم يكن هناك من اهتم بإطعامه مذ ركنه القبطان لونغفيلو على رصيف المرفأ مع بقية الأمتعة، لأن القبطان، مثله مثل جميع الإنكليز، يعامل الحيوانات أفضل من معاملته للبشر. فخلال وجود الكلب في السفينة إلى جانب سيدة المحتضر، تولى القبطان إطعامه بيده وإخراجه للنزهة على سطح السفينة، وأغدق عليه كل الاهتمام الذي بخل به على ماركوس، ولكن ما إن نزل الكلب إلى اليابسة حتى عُومل كجزء من الأمتعة. تحولت كلارا إلى أم للحيوان، ولم ينازعها أحد هذا الامتياز المشكوك فيه، فتمكنت من إنعاشه وإعادته إلى الحياة. وبعد يومين من ذلك، حين هدأت عاصفة وصول الجثة ودفن الخال ماركوس، انتبه سيفيرو إلى المخلوق الوبري الذي تحمله ابنته بين ذراعيها.

- ما هذا؟ - سألها.

- *بارا باس* - قالت كلارا.

- أعطه للبستاني كي يتخلص منه. لأنه قد ينقل إلينا عدوى أحد الأمراض - أمرها سيفيرو.

ولكن كلارا كانت قد تبنته.

- إنه لي يا بابا. وإذا انتزعته مني، أقسم لك إنني سأتوقف عن التنفس وأموت.

ظل الكلب في البيت. وبعد وقت قصير صار يركض في كل الأنحاء ملتهماً حواشي الستائر، وهدب السجاجيد، وقوائم الأثاث. استعاد قواه من الاحتضار بسرعة كبيرة وبدأ ينمو. وعندما غسلوه تبين أنه أسود، وأن رأسه مربع، وقوائمه طويلة جداً، وشعره قصير. اقترحت النانا قص ذيله كي يبدو كلباً راقياً، فانفجرت كلارا في سَورة غضب انقلبت إلى نوبة ربو، ولم يعد أحد إلى التكلم في هذه المسألة. ظل *باراباس* بذيله كاملاً وسليماً، ومع مرور الوقت بلغ الذيل طول عصا الغولف، وكانت حركته المنفلتة دون كابح تمسح خزف المناضد وتقلب اباجورات الإنارة. كان كلباً من سلالة غير معروفة. لا شيء فيه مشترك

مع كلاب الشوارع الضالة، وأقل من ذلك كلاب السلالات ذات الدماء النقية التي تربيها بعض الأسر الأرستقراطية. ولم يستطع الطبيب البيطري تحديد أصله، فافترضت كلارا أنه يتحدر من الصين، لأن جزءاً كبيراً من أمتعة خالها هي تذكارات من تلك البلاد البعيدة. كان يتمتع بقدرة غير محدودة على النمو. فبعد ستة شهور صار بحجم نعجة، وبعد سنة صارت له أبعاد عجل. فكانت الأسرة تتساءل بيأس إلى أين سيواصل النمو، وبدأت تشك في أنه كلب حقاً، وفكروا في أنه قد يكون حيواناً إكزوتيكياً اصطاده الخال المكتشف في منطقة نائية من العالم، وأنه ربما كان مفترساً في أصوله البدائية. كانت نيفيا تتفحص مخالبه التي كمخالب تمساح وأسنانه الحادة فيرتجف قلب الأم فيها حين تفكر في أنه يمكن للحيوان أن ينتزع رأس إنسان بالغ بقضمة واحدة، فما بالك بما يمكن أن يفعله بأطفالها. ولكن *باراباس* لم يُبد أي مظهر ضراوة، بل على العكس تماماً. لقد كان يتقافز كهرّ. وينام بين ذراعي كلارا، على فراشها، ورأسه على وسادة الريش، وهو مغطى حتى الرقبة لأنه شديد التأثر بالبرد، أما فيما بعد، عندما لم يعد السرير يتسع له، صار يستلقي على الأرض إلى جانب السرير ووجهه الحصاني يستند إلى يد الطفلة. ولم يُر قط ينبح أو يزمجر. كان أسود وصموتاً مثل فهد، يحب لحم الخنزير المقدد والثمار المجففة، وفي كل مرة يأتيهم زائرون وينسون حبسه، يدخل بتكتم إلى قاعة الطعام ويدور حول المائدة، ويسحب برفق ساندويتشاته المفضلة من الأطباق دون أن يتجرأ أحد من الضيوف على منعه. وعلى الرغم من وداعته كآنسة، كان *باراباس* يوحي بالرعب. فمتعهدو التموين يسارعون إلى الهرب إذا ما أطل على الشارع، وفي إحدى المرات أثار وجوده الهلع بين النساء اللاتي كن يقفن في صف أمام عربة توزيع الحليب، فأفزعن دابة الجر وانطلقت راكضة وسط قرقعة صفائح الحليب التي تبعثرت على الشارع. وكان على سيفيرو أن يدفع الأضرار كلها، وامر بأن يُقيّد الكلب في الفناء، ولكن كلارا أصيبت بنوبة أخرى من نوبات غضبها، فتم تأجيل القرار إلى أجل غير مسمى. ونسبت المخيلة الشعبية والجهل بسلالة *باراباس* إلى الكلب صفات أسطورية.

فكانوا يروون أنه واصل النمو، وأنه لو لم تضع وحشية جزار حداً لحياته، لوصل إلى حجم جمل. وكان الناس يعتقدون أنه حصيلة تزاوج كلب وفرس، ويفترضون أنه يمكن أن يظهر له جناحان، وقرنان، وأنفاس تنين كبريتية، مثل الحيوانات التي تطرزها روسا على سماطها غير النهائي. وحين سئمت النانا من جمع فتات أواني الخزف المكسرة، ومن سماع التقولات عن أنه يتحول إلى ذئب في ليالي اكتمال القمر، استخدمت معه الوسيلة نفسها التي استخدمتها مع الببغاء من قبل، ولكن الجرعة الزائدة من زيت كبد السمك لم تقتله، وإنما أصابته بحالة إسهال استمرت أربعة أيام غطت البيت من أعلاه إلى أسفله ببراز كان عليها هي نفسها أن تنظفه.

كانت أزمنة صعبة. وكان لي من العمر آنذاك حوالي خمسة وعشرين عاماً، ولكنني كنت أرى أنه لم يبق أمامي سوى قدر قليل من الحياة لأصوغ مستقبلاً لنفسي وأبلغ المكانة التي أتطلع إليها. كنت أعمل كحيوان، والمرات القليلة التي أجلس فيها لأستريح، مجبراً على ذلك باستراحة يوم أحد مضجرة، أشعر بأنني أضيع لحظات ثمينة وأن كل دقيقة بطالة هي قرن أضافي أقضيه بعيداً عن روسا. كنتُ أعيش في المنجم، في كوخ من ألواح خشبية سقفه من التوتياء، بنيته أنا بنفسي وبمساعدة عاملين اثنين. وكان الكوخ يتألف من غرفة واحدة مربعة رتبت فيها أشيائي، وفي كل حائط منها نافذة كبيرة، من أجل دوران الهواء الساخن فيها نهاراً، ولكل منها مزلاج لإغلاقها ليلاً عندما يهب الهواء الجليدي. وكان أثاثي يتألف من كرسي، وسرير عسكري ضيق، ومنضدة خشنة، وآلة كاتبة، وصندوق خزنة ثقيل اضطررت إلى إحضاره على متن بغلة عبر الصحراء، وفيه أحفظ أجور عمال المنجم، وبعض الوثائق وجراب من قماش الخيام تلمع فيه نتف صغيرة من الذهب تمثل ثمرة جهود كبيرة. لم تكن الغرفة مريحة، ولكنني كنت معتاداً على عدم الراحة. فأنا لم أغتسل قط بماء ساخن، وذكريات طفولتي هي ذكريات برد ووحدة وخواء أبدي في المعدة. وقد أكلت، ونمت، وكتبت

طوال عامين في تلك الغرفة، دون تسلية أخرى سوى بضعة كتب أعدت قراءتها مرات كثيرة، وحزمة جرائد قديمة، وبعض النصوص بالإنكليزية أفادتني في تعلم مبادئ هذه اللغة العظيمة، وعلبة ذات قفل احفظ فيها مراسلاتي مع روسا. لقد اعتدت الكتابة إليها على الآلة الكاتبة، مع الاحتفاظ بنسخة كربونية لي أرتبها حسب تواريخها ومعها الرسائل القليلة التي تلقيتها منها. وكنت آكل من الوجبة المشتركة التي تُطبخ للعمال، وحظرتُ تداول الخمور في المنجم. ولم يكن لدي خمر في بيتي أيضاً، لأنني كنت أعتقد على الدوام بأن الوحدة والضجر تنتهيان إلى تحويل الرجل إلى كحولي مدمن. وربما كانت ذكرى أبي بزر ياقته المفتوح، وربطة عنقه المتهدلة والملطخة، وعينيه الغائمتين، وأنفاسه الثقيلة، مع كأس في يده، هي التي جعلتني أمتنع عن الشراب. ليس لي رأس قادر على تحمل الخمر، فأنا أسكر بسهولة. وقد اكتشفت ذلك وأنا في السادسة عشرة من عمري ولم انسه قطّ. لقد سألتني حفيدتي في أحد الأيام كيف استطعتُ العيش كل ذلك الوقت الطويل وحيداً وبعيداً عن الحضارة. لست أدري. ولكن لا بد أن ذلك كان في الواقع أكثر سهولة عليّ مما هو على آخرين، لأنني لستُ شخصاً اجتماعياً، وليس لي أصدقاء كثيرين، ولا أحب الحفلات أو المرح، بل على العكس تماماً، فأنا أشعر بأنني أفضل حالاً في وحدتي. وأجد صعوبة في التفاعل الحميم مع الناس. لم أكن قد عشت في ذلك الوقت مع امرأة قطّ، ولهذا لم يكن بوسعي الاشتياق إلى ما لا أعرفه. ولم أكن صاحب غراميات، ولم أتحول إلى ذلك قط، فأنا من طبيعة وفية، بالرغم من أن رؤية ظل ذراع، أو انحناءة خصر أو طرف ركبة نسائية تكون كافية لجعل الأفكار تراود رأسي حتى في هذا اليوم، بعد آن صرت عجوزاً هرماً لا أتعرف على نفسي حين أنظر في المرآة. إنني أبدو أشبه بشجرة هرمة ملتوية. لست أسعى بأي حال إلى تبرير خطايا شبابي بحكاية أنني لم أكن قادراً على كبح اندفاع شهواتي. ففي تلك السن كنت معتاداً على علاقات دون مستقبل مع نساء الحياة السهلة، لأنه لم تكن لدي إمكانية العلاقة مع سواهن. ففي أزمنتي كنا نميز بين النساء المحترمات

والأخريات، وكنا نقسم المحترمات أيضاً إلى نسائنا الخاصات ونساء الآخرين. لم أكن قد فكرت في الحب قبل تعرفي إلى روسا، وكانت الرومانسية تبدو لي خطرة وغير مجدية، وإذا ما أعجبتني صبية ذات يوم، لا أجرؤ على الاقتراب منها خوفاً من مواجهة الصد أو السخرية. لقد كنت شديد الكبرياء وقد عانيت من كبريائي أكثر من آخرين.

بعد مضي أكثر من نصف قرن بكثير، مازالت محفورة في ذاكرتي اللحظة التي دخلت فيها روسا الجميلة حياتي كملاك ساهٍ خطف روحي في مروره. كانت تمشي مع النانا وطفلة أخرى، ربما هي أختها الأصغر. وأظن أنها كانت ترتدي ثوباً ليلكياً، ولكنني غير متأكد من ذلك، لأن عينيّ غير معتادتين على التدقيق في ملابس النساء، ولأنها كانت باهرة الجمال إلى حدّ لا يمكنني معه النظر بإمعان إلا إلى وجهها، حتى لو كانت ترتدي معطفاً فاخراً من فراء القاقم. لم يكن من عادتي الاهتمام بمتابعة النساء أثناء سيري، ولكنني سأكون مختلاً لو أنني لم أرَ تلك الرؤيا التي تثير الهرج والمرج لدى مرورها وتعرقل حركة المرور، بذلك الشعر الأخضر غير المعقول الذي يشكل إطاراً لوجهها كمظلة خيالية، وهيئة الحورية، وتلك الطريقة في المشي كما لو أنها تطير. مرت أمامي دون أن تراني، ودخلت طافية إلى متجر الحلوى في ساحة السلاح. ظللتُ في الشارع مشدوهاً، بينما هي تشتري سكاكر اليانسون، تختارها حبّة حبّة، وبضحكتها التي لها رنين صنج صغير، تلقي حبّة في فمها وتقدم أخرى لأختها. لم أكن المنَوَّم الوحيد، فخلال دقائق قليلة تشكل حشد من الرجال يراقبون واجهة المحل. عندئذ جاء ردّ فعلي. لم يخامرني أي شك في أنني أبعد ما يكون عن أن أكون المتودد المثالي لتلك الفتاة السماوية، فأنا لا أملك ثروة، أمقت أن أكون فتى طيباً، وينتظرني مستقبل غير مضمون. ولم أكن أعرفها! ولكنني كنت مبهوراً وقررت في تلك اللحظة أنها المرأة الوحيدة الجديرة بأن تكون زوجتي، وأن العزوبة خير لي إذا أنا لم أستطع الحصول عليها. لحقت بها على امتداد الطريق إلى بيتها. صعدتُ إلى الترام نفسه وجلستُ وراءها دون أن أتمكن من رفع بصري عن كمال قذالها، عن استدارة عنقها، عن

نعومة كتفيها اللذين تداعبهما خصل شعر خضراء تفلت من تسريحتها. لم أشعر بحركة الترام، لأنني كنت أمضي كما في حلم. وفجأة انسلت في الممر بين المقاعد، وحين مرت بجانبي توقفت حدقتاها الذهبيتان المفاجئتان للحظة على حدقتيّ عيني. لا بد أنني مِتُّ هنيهة. لم أعد قادراً على التنفس وتوقف نبضي. وعندما استعدت الوعي، اضطررت إلى القفز إلى الرصيف مجازفاً بكسر أحد عظامي، والركض باتجاه الشارع الفرعي الذي اتخذته. وعرفت أين تسكن حين لمحت لطخة ليلكية اللون تختفي وراء إحدى البوابات. ومنذ ذلك اليوم واظبت على الحراسة قبالة بيتها، أتمشى في الشارع مثل كلب متشرد، أتلصص، أرشو البستاني، أتحدث إلى الخادمات، إلى أن تمكنت من التحدث إلى النانا، فأشفقت تلك المرأة القديسة عليّ ووافقت أن توصل إليها رسائل الحب، والأزهار وما لا حصر له من علب سكاكر اليانسون التي حاولتُ بها استمالة قلبها. وأرسلت إليها كذلك مطرزات شعرية. أنا لا أعرف نظم الشعر، ولكن كان هناك مكتبي إسباني عبقري في نظم القوافي، فكنت أطلب منه نظم قصائد وأغنيات وأي شيء آخر مادته الأولية الحبر والورق. وقد ساعدتني أختي فيرولا على التقرب من عائلة دل باييه باكتشافها قرابة بعيدة بين أسرتينا وبحثها عن فرصة لنتبادل التحية معهم عند الخروج من القداس. في اليوم الذي دخلتُ فيه إلى بيتها ووجدتها في متناول صوتي، لم أجد شيئاً أقوله لها. أصابني البكم وأنا أمسك قبعتي في يدي وفمي مفتوح، إلى أن أنجدني أبواها اللذان يعرفان هذا النوع من الأعراض. لا أدري ما الذي استطاعت روسا أن تراه فيَّ، ولا لماذا قبلت بي مع مرور الزمن زوجاً لها. توصلتُ إلى أن أكون خطيبها الرسمي دون أن أضطر إلى تحقيق أي مأثرة خارقة، لأنه لم يكن لروسا متوددون يطلبون يدها على الرغم من جمالها فوق الإنساني وفضائلها التي لا تُحصى. وقد قدمت لي أمها تفسيراً لذلك: قالت إنه لا وجود لرجل يشعر بأن لديه ما يكفي من القوة لقضاء حياته في الدفاع عن روسا من شهوات الآخرين. لقد حام كثيرون حولها، وفقدوا صوابهم من أجلها، ولكن أياً منهم لم يحسم أمره إلى أن ظهرتُ أنا في الأفق. كان جمالها يبعث الخوف في نفوسهم،

ولهذا ظلوا معجبين بها من بعيد، ولكنهم لا يقتربون. أما أنا فلم أفكر في ذلك قطّ في الواقع. وكانت مشكلتي في أنني لا أملك بيزو واحداً، ولكنني كنت أشعر بأنني قادر، بقوة الحب، على التحول إلى رجل ثري. نظرت في ما حولي بحثاً عن طريق سريع، ضمن حدود النزاهة التي ربوني عليها، ورأيت أن النجاح في الحياة يتطلب أن يكون للمرء عرابون أوصياء، أو دراسات تخصصية، أو رأس مال. ولم يكن حمل اسم أسرة محترمة كافياً. وأظن لو أنه توفرت لي أموال للبدء في الثراء، لكنت راهنت في ألعاب الورق أو سباقات الخيول، ولأن الأمر لم يكن كذلك، فقد اضطررت إلى التفكير في العمل في شيء يمكن له أن يوفر لي الثروة، حتى لو كان خطراً. وكانت مناجم الذهب والفضة هي حلم المغامرين: يمكن لها أن تُغرقهم في البؤس، أو أن تقتلهم بالسلّ، أو تحولهم إلى رجال متنفذين. إنها مسألة حظ. حصلت على امتياز استثمار منجم في الشمال مستفيداً من شهرة اسم أسرة أمي لجعل المصرف يمنحني قرضاً. عقدت عزماً راسخاً على أن أستخرج حتى آخر غرام من المعدن الثمين، حتى لو اضطرني ذلك إلى عصر الجبل بيدي وطحن الصخور بقدمي. فمن أجل روسا كنت مستعداً لعمل ذلك وأكثر منه بكثير.

في أواخر الخريف، وكانت الأسرة قد اطمأنت بشأن نوايا الأب ريستريبو الذي اضطر إلى تهدئة ميوله كمحقق محكمة تفتيش بعد أن حذره المطران شخصياً طالباً منه أن يترك الصغيرة كلارا دل بايِيه بسلام، وعندما استسلم الجميع لفكرة أن الخال ماركوس قد مات حقاً، بدأت خطط سيفيرو السياسية تتماسك وتتخذ قواماً. لقد عمل طوال سنوات من أجل هذا الهدف. وكان انتصاراً له عندما دُعي للتقدم كمرشح عن الحزب الليبرالي في الانتخابات البرلمانية ممثلاً لمقاطعة جنوبية لم يكن قد ذهب إليها من قبل قطّ، ولا يمكن له كذلك أن يحدد موقعها بسهولة على الخريطة. كان الحزب بحاجة ماسة إلى الناس، وكان سيفيرو متلهفاً جداً لشغل مقعد في مجلس الكونغرس،

بحيث لم يجدا صعوبة في إقناع ناخبي الجنوب البائسين بتسمية سيفيرو مرشحاً عنهم. وقد دُعمت الدعوة بخنزير مشوي، ورديّ وضخم، أرسله الناخبون إلى منزل آل دل بابيه. جيء به على صينية خشبية واسعة، معطرة ولامعة، وقد وُضع بقدونس في فمه وجزرة في دبره، وكان يستقر على فرشة من البندورة. وقد خيط بطنه المحشو بطيور التدرج المحشوة بدورها بالخوخ. وجيء به مع دمجانة تحتوي نصف غالون من أفضل خمور البلاد. فكرة التحول إلى نائب في البرلمان، أو سيناتور في الكونغرس، وهذا أفضل بكثير، كانت الحلم الذي داعب مخيلة سيفيرو طويلاً. وكان يوجه الأمور نحو هذا الهدف بعمل دؤوب من الاتصالات، والصداقات، واللقاءات السرية، والظهور العلني المتكتم إنما الفعال، والأموال والخدمات التي يقدمها للأشخاص المناسبين في الوقت المناسب. وكانت تلك المقاطعة الجنوبية هي ما يأمل به، على الرغم من أنها نائية ومجهولة.

مسألة الخنزير جرت يوم الثلاثاء. ويوم الجمعة، عندما لم يكن قد بقي من الخنزير سوى الجلد والعظام التي يقرضها *باراباس* في فناء البيت، أعلنت كلارا أنه سيكون هناك ميت آخر في البيت، وقالت:

- ولكنه سيكون ميتاً بالخطأ.

ويوم السبت قضت ليلة سيئة واستيقظت صارخة. قدمت لها النانا مغلى زيزفون ولم يهتم أحد بها، لأنهم كانوا مشغولين بالإعدادات لرحلة الأب إلى الجنوب، ولأن روسا الجميلة استيقظت محمومة. أمرت نيفيا بإبقائها في الفراش، وقال الدكتور كويفاس إن ما أصابها ليس خطراً، وطلب أن يعطوها ليمونادة فاترة ومحلاة جيداً، مع رشفة من الليكور، كي تتعرق حرارتها. ذهب سيفيرو لرؤية ابنته ووجدها مصطبغة بحمرة الحمى وعيناها تلمعان، وغارقة في دانتيلا ملاءاتها التي بلون الزبدة. حمل لها هدية بطاقة حفلة رقص، وفوض النانا بأن تفتح دمجانة الخمر وتسكب لها منها في الليمونادة. شربت روسا الليمونادة، وتدثرت بحرامها الصوفي ونامت على الفور إلى جانب كلارا التي تشاطرها الحجرة.

في صباح اليوم المأساوي، نهضت النانا باكراً كما هي عادتها. وقبل خروجها إلى القداس، ذهبت إلى المطبخ لتعد الفطور للأسرة. كان

موقد الحطب والفحم مجهزاً منذ اليوم السابق، فأشعلت السخان بالجمار التي مازالت دافئة بين الرماد. وبينما هي تسخن الماء وتغلي الحليب، راحت تعدّ الأطباق لتحملها إلى غرفة الطعام. بدأت تطهو الشوفان، وتصفي القهوة، وتحمص الخبز. وأعدّت صينيتين، واحدة لنيفيا التي تتناول الفطور دوماً في سريرها، وأخرى لروسا التي لها الحق نفسه لأنها مريضة. غطت صينية روسا بمنديل كتان طرزته الراهبات، كيلا تبرد القهوة ولا يحط عليها الذباب، وأطلت إلى الفناء لتتأكد من أن *باراباس* ليس قريباً منها. فقد كانت تنتابه رغبة جامحة في الانقضاض عليها عندما تمر حاملة الفطور. رأته يلعب لاهياً مع دجاجة فانتهزت الفرصة لتخرج في مشوارها الطويل عبر الفناء والممرات، من المطبخ في أقصى البيت حتى حجرة البنات في الطرف الآخر. ترددت أمام غرفة روسا وقد صفعها هاجس قوي. دخلت دون أن تنبه إلى قدومها، مثلما تفعل عادة، وشمت على الفور رائحة ورد، على الرغم من أنه ليس موسم هذا النوع من الأزهار. عندئذ أدركت النانا أن مصيبة لا يمكن إصلاحها قد وقعت. وضعت الصينية بحذر على الكوميدينو ومشت ببطء حتى النافذة. فتحت الستائر السميكة، فدخلت شمس الصباح الشاحبة إلى الحجرة. التفتت قلقة ولم تفاجئها رؤية روسا ميتة في السرير، وأكثر جمالاً من أي وقت مضى. كان شعرها أخضر بصورة نهاية، وبشرتها بلون العاج الجديد، وعيناها الصفراوان كالعسل مفتوحتين. وعند طرف السرير كانت الصغيرة كلارا تتأمل أختها. جثت النانا راكعة بجانب السرير، وأمسكت يد روسا وبدأت الصلاة. وقد واصلت الصلاة إلى أن سُمع في كل أنحاء البيت نواح رهيب كأنه صادر عن سفينة تائهة. كانت تلك هي أول وآخر مرة يُسمع فيها صوت *باراباس*. ظل يزعق طوال النهار، إلى أن حطم أعصاب ساكني البيت والجيران الذين توافدوا يجتذبهم أنين الغرق ذاك.

نظرة واحدة من الدكتور كويفاس إلى جسد روسا كانت كافية ليعرف أن موتها ناجم عن شيء أشد خطورة بكثير من اختلاطات حُميّة. بدأ يشم في كل الاتجاهات، وفتش المطبخ، ومرّ بإصبعه على القدور،

وفتح أكياس الدقيق، وعبوات السكر، وعلب الفواكه المجففة، وبعثر كل شيء مخلفاً وراءه فوضى إعصار. قلّب أدراج روسا، واستجوب الخدم واحداً واحداً، وحاصر النانا بالأسئلة حتى أخرجها عن طورها، وأخيراً قاده البحث إلى دمجانة الخمر، فصادرها دون أي اعتبار. لم يُطلع أحداً على شكوكه، ولكنه حمل القارورة إلى مخبره. وبعد ثلاث ساعات رجع وعليه ملامح رعب حوّلت وجه المعزة الوردي الذي له إلى قناع شاحب لم يغادره طيلة أمد القضية الرهيبة. اتجه إلى سيفيرو، أمسكه من ذراعه وقاده جانباً.

ـ في هذا الخمر يوجد سم يكفي لقتل ثور ـ قال له هامساً ـ. ولكن لا بد لي من تشريح الجثة للتأكد من أن هذا السم هو الذي قتل الصغيرة.

ـ أتعني أنك ستفتح جسدها؟ ـ تأوه سيفيرو.

ـ ليس بالكامل. لن أمس الرأس، سأكتفي بالجهاز الهضمي فقط ـ أوضح الدكتور كويفاس.

أحس سيفيرو بالانهيار.

كانت نيفيا حينئذ قد استُنفدت من البكاء، ولكنها حين علمت أنهم سيأخذون ابنتها إلى مشرحة الجثث، استعادت قواها فجأة. ولم تهدأ إلا بعد أن أقسموا لها إنهم لن ينقلوا روسا من بيتها إلا إلى المقبرة الكاثوليكية مباشرة. عندئذ وافقت على تناول اللودانوم الذي قدمه لها الطبيب ونامت عشرين ساعة.

وعند الغروب، هيأ سيفيرو التحضيرات. فأرسل أبناءه إلى النوم وسمح للخدم بالانسحاب باكراً. أما كلارا المتأثرة بشدة مما حدث، فسمح لها بأن تقضي تلك الليلة مع واحدة أخرى من أخواتها. وبعد أن انطفأت الأنوار وخيم السكون على البيت كله، جاء مساعد الدكتور كويفاس، وهو شاب هزيل وضعيف البصر، يتلعثم في الكلام. وساعد الرجلان سيفيرو في نقل جسد روسا إلى المطبخ ووضعه برفق على الرخام الذي تعجن النانا عليه الخبز وتقطع الخضروات. وعلى الرغم من صلابة طبع سيفيرو، إلا أنه لم يستطع الصمود في اللحظة التي نزعا فيها قميص النوم عن ابنته وبدا عريها البديع كحورية. خرج مترنحاً، مخموراً بالألم، وانهار في

الصالة باكياً كطفل. أما الدكتور كويفاس الذي رأى ولادة روسا ويعرفها مثلما يعرف راحة يده، فأحس برعشة حين رآها بلا ملابس. ومن جهته، بدأ المساعد الشاب باللهاث من التأثر، وظل يلهث في السنوات التالية كلما تذكر رؤية روسا العجيبة تنام عارية فوق منضدة المطبخ، بشعرها الطويل الذي يسقط كشلال نباتي أخضر حتى الأرض.

وبينما هما يمارسان مهنتهما الرهيبة، نهضت النانا وقد ملّت البكاء والصلاة، وبعد أن راودها هاجس بأن شيئاً غريباً يحدث في منطقة نفوذها في الفناء الثالث، تدثرت بشال وخرجت تجوب البيت. رأت ضوءاً في المطبخ، ولكن الباب وستائر النوافذ كانت مغلقة. واصلت التقدم في الممرات الصامتة والجليدية، مجتازة كتل أبنية البيت الثلاث حتى وصلت إلى الصالة. ومن خلال الباب الموارب لمحت سيدها يذرع الحجرة مغموماً. كانت نار المدفأة قد خمدت. دخلت النانا.

- أين هي الصغيرة روسا؟ - سألته.

- الدكتور كويفاس معها يا نانا. ابقي هنا وتناولي كأساً معي - قال سيفيرو متوسلاً.

ظلت النانا واقفة وذراعاها متقاطعان يثبتان الشال إلى صدرها. أشار سيفيرو إلى الصوفا واقتربت هي بخجل. جلست إلى جانبه. كانت تلك هي المرة الأولى التي تجلس على هذا القرب من السيد مذ جاءت للعيش في بيته. سكب سيفيرو كأساً من بيبذ خيريث لكل منهما وشرب كأسه دفعة واحدة. دفن رأسه بين أصابعه، شاداً شعره ومتمتماً بين أسنانه بترتيلة غير مفهومة. النانا التي كانت تجلس متصلبة على حافة المقعد، استرخت حين رأته يبكي. ثم مدّت يدها الخشنة، وبحركة آلية مسدت شعره بالملاطفة نفسها التي عاملت بها أبناءه لمواستهم طيلة عشرين عاماً. رفع رأسه وتأمل الوجه الذي بلا سن محددة، بوجنتيه الهنديتين، وعقيصة الشعر الأسود، والحضن الواسع الذي رأى أبناءه يتأوهون فيه ويغفون على الذراعين، فشعر بأن هذه المرأة الدافئة والسخية كما الأرض يمكنها أن توفر له العزاء. أسند جبهته إلى تنورتها، وتنشق رائحة مريلتها المنشاة الناعمة، وانفجر في البكاء كطفل، ساكباً كل الدموع التي حبسها

فـي حياتـه كـرجل. حكّت النانـا ظهـره، وربتـت عليـه تربيتـات مواسـاة، وكلمتـه بلغـة نـصف اللسان الـتي تـستخدمها لتـنويم الأطفـال، وغنـت لـه هامـسة أغانيهـا الفلاحيـة إلى أن توصـلت إلى تهدئتــه. ظـلا جالــسين متلاصقين، يشربان نبيذ خيريث، ويبكيان بكاء متقطعاً، ويستذكران الأزمنـة الـسعيدة عنـدما كانـت روسـا تـركض فـي الحديقـة وتفـاجئ الفراشات بجمالها الآتي من أعماق البحر.

وفـي المطبخ، كـان الـدكتور كويفـاس ومـساعده يهيئـان أدواتهمـا المشؤومة وقواريرهما كريهة الرائحة، ووضعا حول خصريهما وزرتين من المشمع وشمرا أكمامهما وبدأا النكش في أحشاء روسا الجميلة، إلى أن تأكدا، دون أي مجال للشك، من أن الشابة قد تناولت جرعة كبيرة من سمّ فئران.

ـ هـذا الـسمّ كـان موجهـاً إلى سيفـيرو ـ حـسم الـدكتور الأمـر وهـو يغسل يديه فـي حوض الجلي.

أما المساعد الذي أثر فـيه كـثيراً جمـال الميتـة، فلـم يستسلم لتركهـا مخيطة مثل كيس واقترح أن يُحسّن حالها قليلاً. عندئذ انهمكـا معـاً فـي مهمـة حفـظ الجسد بـالمراهم وملئـه بلزقـات محنطين. عمـلا حتـى الرابعـة فجراً، الوقت الذي أعترف فيه الدكتور كويفاس بهزيمته أمـام الإرهـاق والحزن وخرج من المطبخ، حيث ظلت روسا بين يدي المساعد الذي غسلها باسفنجة، منتزعـاً عنهـا لطخـات الـدم، وألبسها قميـصها المطـرز ليغطـي الخياطة الممتدة من الحنجرة حتى الفرج، ورتب شعرها. ثم نظف بعد ذلك آثار عملهما.

وجد الـدكتور كويفـاس فـي الـصالة سيفـيرو ترافقـه النانـا، وكـانـا مخمورين بالبكاء ونبيذ خيرث.

ـ إنها جاهـزة ـ قـال ـ سنزينها قليلاً كـي تراهـا أمهـا.

أوضح لسيفـيرو أن شكوكه كانـت فـي محلها، وأنه وجد فـي معدة ابنته المادة القاتلة نفسها التي فـي دمجانة الخمـر المهداة إليه. عندئذ تذكـر سيفيرو نبوءة كلارا، وفقـد بقيـة التماسـك التـي مازالـت لديه، غير قـادر على الاستسلام لفكـرة أن ابنتـه قـد ماتـت بـدلاً منـه. انهار وهـو يئن بأنـه

المذنب، لأنه متبجح وطموح وصولي، وأن أحداً لم يأمره بالتدخل في السياسة، وأنه كان أفضل حالاً بكثير حين كان محامياً بسيطاً ورب أسرة، وأنه يتخلى في هذه اللحظة وإلى الأبد عن الترشيح اللعين، وعن الحزب الليبرالي، وعن تبجحاته وأعماله ، ويأمل الا يعود أحد من ذريته إلى التدخل في السياسة، لأنها تجارة قتلة ولصوص، وظل يردد ذلك إلى أن أشفق عليه الدكتور كويفاس وأسكره. وقد كان لخمرة خيريث مفعولاً أقوى من الحزن والإحساس بالذنب. تولت النانا والدكتور نقله محمولاً إلى غرفته، وخلعا عنه ملابسه ووضعاه في السرير. ثم ذهبا بعد ذلك إلى المطبخ حيث كان المساعد ينهي ترتيب وضع روسا.

استيقظت نيفيا وسيفيرو دل بابيه في وقت متأخر من صباح اليوم التالي. كان الأقارب قد أعدوا ترتيب البيت لطقوس الموت، فكانت الستائر مسدلة تتخللها أحزمة حرير مموج، وعلى امتداد الجدران تصطف أكاليل زهور تعبق رائحتها الحلوة مالئة الجو. وحولوا غرفة الطعام إلى حجرة لتسجية الميتة. وفوق المنضدة الكبيرة المغطاة بقماش أسود ذي هُدب ذهبية ، استقر نعش روسا الأبيض ذا مسامير البشم الفضية. وكانت اثنتي عشرة شمعة صفراء في شمعدانات برونزية تضيء الفتاة ببريقها المشع. كانوا قد ألبسوها فستان الزفاف ووضعوا على رأسها إكليل زهر من الشمع احتفظت به لحفل زفافها.

وعند انتصاف النهار بدأ مرور الأقارب والأصدقاء والمعارف ليقدموا التعزية ويرافقوا آل دل بابيه في حدادهم. وحتى أشد الأعداء السياسيين اللدودين حضروا إلى البيت، وكان سيفيرو دل بابيه يتفحصهم جميعاً بتمعن، محاولاً أن يكتشف سر القاتل في كل عينين يراهما ، ولكنه كان يرى في الجميع، بمن في ذلك رئيس الحزب المحافظ، الأسى نفسه والبراءة نفسها.

وخلال السهر على الجثمان، كان السادة يتجولون بين صالات البيت وأروقته معلقين بأصوات خافتة على شؤون صفقاتهم. ويعتصمون بصمت وقور عندما يقترب منهم احد أفراد الأسرة. وفي لحظة الدخول إلى غرفة الطعام والاقتراب من التابوت لإلقاء نظرة أخيرة على روسا ، كان الجميع

يختلجون، لأن جمالها لم يتوقف عن الازدياد خلال تلك الساعات. وكانت السيدات يذهبن إلى الصالة، حيث وُضعت كراسي البيت في دائرة. وهناك يتوفر لهن وضع مريح من أجل البكاء على هواهن، حيث يجدن ذريعة مناسبة في موتٍ شخص غريب ليفضفضن عن أحزان خاصة أخرى. كان البكاء وفيراً، ولكنه وقور وصامت. بعضهن يتمتمن صلوات بأصوات خافتة. وكانت خادمات البيت يتجولن في الصالات، والمستخدمون يقدمون فناجين الشاي وأقداح الكونياك، ومناديل نظيفة للنساء، وسكاكرِ بيتيه، وكمادات صغيرة مبللة بالأمونياك للسيدات اللاتي يعانين دواراً من الازدحام ورائحة الشموع والحزن. جميع الأخوات في أسرة دل باييه، باستثناء كلارا التي مازالت صغيرة جداً، كن يرتدين ثياباً صارمة السواد، ويجلسن حول أمهن مثل حلقة غربان. ونيفيا التي بكت دموعها كلها، كانت تجلس متيبسة على كرسيها، دون زفرة واحدة ودون أي استعانة بالأمونياك لأنه يسبب لها الحساسية. وكان الزائرون يمرون بها لتقديم العزاء. بعضهم يقبل خديها، وآخرون يعانقونها ويضمونها لثوان، ولكنها تبدو كأنها لا تتعرف على أقربهم علاقة بها. كانت قد رأت موت أبناء آخرين في طفولتهم المبكرة أو عند الولادة، ولكن أياً منهم لم يُشعرها بمثل هذا الإحساس بالفقدان.

ودّع كل واحد من الأخوة روسا بقبلة على جبهتها الجليدية، باستثناء كلارا التي لم تشأ الاقتراب من غرفة الطعام. لم يلحوا عليها لأنهم كانوا يعرفون حساسيتها البالغة وميلها إلى المشي وهي نائمة عندما يضطرب خيالها. ظلت في الحديقة متكورة إلى جانب *باراباس*، ترفض الأكل أو المشاركة في السهر على الميتة. النانا وحدها هي التي اهتمت بها وحاولت مواساتها، ولكن كلارا صدتها.

وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها سيفيرو لإسكات الشائعات، تحول موت روسا إلى فضيحة عامة. قدمٍ الدكتور كويفاس لكل من أراد الاستماع إليه التفسير المعقول تماماً لموت الفتاة الناجم، حسب قوله، عن إصابة صاعقة بذات الرئة. ولكن جرى التهامس بأنها سُممت بالخطأ بدلاً من أبيها. لم تكن الاغتيالات السياسية معروفة في

البلاد في تلك الأزمنة، وكان السمّ، في كل الأحوال، وسيلة نساء سيئات السمعة، وشيء مشين لم يُستخدم منذ العهد الاستعماري، لأن الجرائم، بما فيها الجرائم العاطفية، تتم وجهاً لوجه. تعالت صيحة احتجاج ضد محاولة الاغتيال، وقبل أن يتمكن سيفيرو من كبحها، ظهر الخبر منشوراً في إحدى صحف المعارضة، وكان يتهم الأوليغاركية بصورة مواربة ويضيف إن المحافظين لا يتورعون حتى عن مثل هذا العمل، لأنهم لا يستطيعون أن يغفروا لسيفيرو دل باييه أن ينتقل إلى المعسكر الليبرالي على الرغم من انتمائه الطبقي. حاولت الشرطة تتبع أثر دمجانة الخمر، ولكن الشيء الوحيد الذي اكتُشف هو أنها لم تأتي في الأصل مع الخنزير المحشو بطيور التدرج، وأنه لا علاقة لناخبي الجنوب بالقضية. فالدمجانة الغامضة وُجدت مصادفة عند باب الخدم في بيت آل دل بايبه في اليوم والساعة نفسها التي وصل فيها الخنزير المشوي. وافترضت الطاهية أنها جزء من الهدية نفسها. ولم يكن بمقدور حماسة الشرطة، ولا التقصي الذي قام به سيفيرو بدوره، بالاستعانة بتحري خاص، اكتشاف القتلة. وظل شبح ذلك الثأر المعلق ماثلاً في الأجيال التالية. وكان هذا هو العمل الأول من أعمال عنف كثيرة وسمت مصير الأسرة.

إنني أتذكر الأمر جيداً. فقد كان ذلك اليوم يوماً سعيداً بالنسبة لي، إذ ظهر في المنجم عِرقٌ جديد، العرق الثخين والرائع الذي لاحقته خلال كل ذلك الزمن من التضحية، ومن الغياب والانتظار، والذي يمكن له أن يمثل الثروة التي أرغب فيها. كنتُ واثقاً من أنني سأمتلك خلال ستة شهور ما يكفي من الأموال لأتزوج، وأنه يمكن لي خلال سنة أن أبدأ في اعتبار نفسي رجلاً ثرياً. لقد كنتُ محظوظاً جداً، ففي صفقات المناجم كان من يُفلسون أكثر ممن ينتصرون، مثلما كنتُ أقول، أكتب، لروسا في ذلك المساء بابتهاج ولهفة متسرعة، حتى إن أصابعي كانت تتشابك على الآلة الكاتبة القديمة فتخرج الكلمات ملتصقة بعضها ببعض. كنت منهمكاً في تلك الكتابة عندما سمعت طرقات على الباب قطعت إلهامي إلى الأبد. كان بغّالاً معه بغلتين، يحمل

لي برقية وصلت إلى القرية، ومرسلة من أختي فيرولا، تخبرني فيها بموت روسا.

كان عليّ أن أقرأ القصاصة الورقية ثلاث مرات كي أدرك حجم غمي. فالفكرة الوحيدة التي لم تكن قد خطرت لي هي أن تكون روسا كائناً بشرياً فانياً. لقد عانيتُ كثيراً وأنا أفكر في أنها ستضجر من انتظاري وتقرر الزواج من آخر، أو في ألا يظهر عرق المعدن اللعين الذي سيضع الثروة بين يدي، أو في أن ينهار المنجم ويسحقني مثل صرصور. فكرتُ في هذه الاحتمالات كلها وأخرى غيرها، ولكنني لم أفكر قطّ في موت روسا على الرغم من تشاؤمي الذي يُضرب فيه المثل، ويجعلني أنتظر الأسوأ على الدوام. أحسست بأن الحياة دون روسا لم يعد لها معنى في نظري. أُفرغتُ من الداخل، مثل كرة مثقوبة، وغادرتني الحماسة كلها. ظللتُ جالساً على الكرسي أنظر إلى الصحراء من النافذة، ومن يدري كم من الوقت بقيتُ على تلك الحال، إلى أن بدأت الروح تعود ببطء إلى جسدي. كان الغضب هو ردّ فعلي الأول. انقضضت بقبضتيّ على جدران البيت الخشبية الهشة إلى أن أدميت مفاصلهما، مزقتُ رسائل روسا ورسومها إلى آلاف النتف، وكذلك نسخ رسائلي التي كنت أحتفظ بها، دسست ملابسي وأوراقي وجراب قماش الخيام الذي فيه الذهب في حقائبي بسرعة، ثم خرجت بحثاً عن رئيس العمال لأسلمه أجور العمال ومفاتيح مستودع المؤن. وعرض عليّ البغال أن يرافقني حتى القطار. كان علينا أن نسير لوقت طويل من الليل على متن البهائم، والدثار الوحيد الذي يحمينا من الضباب الكثيف هو البطانيات القشتالية، وكنا نتقدم ببطء شديد في تلك القفار اللامتناهية حيث غريزة دليلي هي ضمانتنا الوحيدة للوصول إلى وجهتنا، لأنه لا وجود لأي نقطة علام تدل على الطريق. كانت الليلة مضيئة ومترعة بالنجوم، وكنت أشعر بالبرد ينخر عظامي ويجمد يديّ، ويتغلغل في روحي. وأفكر في روسا متمنياً باحتداد لاعقلاني ألا يكون موتها صحيحاً، وطالباً من السماء بيأس أن يكون ذلك كله مجرد خطأ، أو أن تنتعش

بقوة حبي لها وتستعيد الحياة وتنهض من فراش موتها مثل قيامة العازر. كنت أبكي في داخلي، غارقاً في حزني وفي الجليد الليلي، مطلقاً اللعنات على البغلة التي تمضي ببطء شديد، وعلى فيرولا ناقلة أخبار المصائب، وعلى روسا لأنها ماتت، وعلى الرب الذي سمح بموتها، إلى أن بدأ الأفق ينجلي ورأيت اختفاء النجوم وبزوغ أول ألوان الفجر التي صبغت منظر الشمال بالأحمر والبرتقالي، ومع الضياء استعدتُ شيئاً من سلامة رشدي. بدأت أستسلم لنكبتي، ولم أعد أطلب انبعاثها حية، وإنما التمكن فقط من الوصول في الوقت المناسب لرؤيتها قبل أن يدفنوها. أسرعنا في مسيرنا، وبعد ساعة من ذلك ودّعني البغّال في المحطة الصغيرة التي يمر منها قطار الخط الحديدي الضيق الذي يربط هذه الصحراء التي أمضيتُ فيها سنتين بالعالم المتحضر.

سافرت لأكثر من ثلاثين ساعة دون أن أتوقف ولو لتناول الطعام، ناسياً حتى العطش، ولكنني تمكنتُ من الوصول إلى منزل آل دل باييه قبل الجنازة. يقولون إنني دخلت إلى البيت مغطى بالغبار، ودون قبعة، متسخاً وبذقن غير حليقة، عطشاً وغاضباً، سائلاً بالصراخ عن خطيبتي. وكانت كلارا الصغيرة، وهي آنذاك طفلة نحيلة وقبيحة، قد خرجت للقائي عندما دخلتُ فناء البيت، فأمسكت بيدي وقادتني بصمت إلى غرفة الطعام. وهناك كانت روسا، بين طيات من الساتان الأبيض في نعشها الأبيض، لا تزال تحتفظ برونقها بعد ثلاثة أيام من موتها، وأجمل ألف مرة مما هي عليه في ذاكرتي، لأن روسا تحولت برفق في موتها إلى الحورية التي كانت عليها دوماً في الخفاء.

- يا للعنة! لقد أفلتت من يديّ! - يقولون إنني قلت ذلك صارخاً وجاثياً على ركبتي إلى جانبها، ومستثيراً استنكار الأقارب، لأن أحداً منهم لم يستطع أن يتفهم إحباطي ذاك، ولأني أمضيت سنتين أحفر الأرض لأصير ثرياً، وهدفي الوحيد هو أن أقتاد في أحد الأيام هذه الشابة إلى مذبح الكنيسة، فجاء الموت واختطفها مني.

بعد قليل وصلت العربة الجنائزية، وهي عربة ضخمة، سوداء ولامعة، تجرها ستة أحصنة مزينة بقنازع من الريش، مثلما هي العادة آنذاك،

ويقودها حوذيان يرتديان زياً رسمياً. وقد خرجت من البيت عند العصر، تحت رذاذ خفيف، يتبعها موكب عربات تحمل الأقارب والأصدقاء وأكاليل الأزهار. وعملاً بالعادات، لم تكن النساء والأطفال يحضرون عمليات الدفن، فهذه مهمة رجال، ولكن كلارا اختلطت بالموكب في اللحظة الأخيرة كي ترافق أختها روسا. أحسست بيدها المغطاة بقفاز تتشبث بيدي، وأبقيتها طوال الطريق إلى جانبي، ظلاً ضئيلاً وصامتاً يحرك في روحي رقة مجهولة. في تلك اللحظة لم أنتبه أنا أيضاً إلى أن كلارا لم تنطق كلمة واحدة خلال يومين، ولسوف تمر ثلاثة أيام أخرى قبل أن تشعر الأسرة بالذعر من صمتها.

رفع سيفيرو دل بابيه وأبناؤه الكبار على محمل نعش روسا الأبيض ذا مسامير البرشمة الفضية، وأدخلوه بأنفسهم في كوة الضريح المفتوحة. كانوا يرتدون ملابس الحداد، صامتين ودون دموع، مثلما تتطلب طقوس الحزن في بلاد معتادة على وقار الألم. وبعد أن أغلقوا بوابة المدفن الحديدية، وانسحب الأقارب والأصدقاء وعمال الدفن، ظللتُ هناك بين الأزهار التي أفلتت من شراهة *باراباس* ورافقت روسا إلى المقبرة. لابد أنني كنت أبدو، بذيل سترتي الذي يتراقص في الهواء، أشبه بطائر شتوي قاتم، طويل ونحيل مثلما كنتُ آنذاك، قبل أن تتحقق لعنة فيرولا وأبدأ بالتضاؤل. كانت السماء رمادية وتتوعد بالمطر، وأعتقد أن الجو كان بارداً، ولكنني لم أكن أشعر بذلك، لأن الضغينة كانت تستهلكني. لم أكن قادراً على رفع بصري عن مستطيل الرخام الصغير الذي نُقش عليه بحروف قوطية اسم روسا، روسا الجميلة، والتاريخان اللذان يحددان مرورها القصير في هذا العالم. كنتُ أفكر في أنني أضعتُ سنتين وأنا أحلم بروسا، وأعمل من أجل روسا، وأكتب لروسا، وأرغب في روسا دون أن يتاح لي في نهاية المطاف عزاء أن أُدفن إلى جانبها. فكرتُ في السنوات المتبقية لي لأعيشها وتوصلت إلى نتيجة أن الحياة من دونها لا تستحق أن تعاش، لأنني لن أجد أبداً، في الكون كله، امرأة أخرى لها مثل شعرها الأخضر وجمالها البحري. ولو قيل لي إنني سأعيش أكثر من تسعين عاماً، لكنت أطلقتُ رصاصة على نفسي.

لم أسمع خطوات حارس المقبرة الذي اقترب خلفي. ولهذا فوجئتُ حين لمس كتفي.

- كيف تجرؤ على لمسي - زمجرت.

تراجع الرجل المسكين مذعوراً. وبللت بعض قطرات المطر أزهار الموتى بحزن.

- اعذرني يا سيدي، إنها الساعة السادسة وعليّ أن أُغلق المقبرة - أظن أنه قال لي ذلك.

حاول أن يشرح لي أن الأنظمة تحظر على غير العاملين البقاء في المقبرة بعد غروب الشمس، ولكنني لم أتركه ينهي كلامه، بل وضعت بضع أوراق نقدية في يده ودفعته كي يذهب ويتركني بسلام. رأيته يبتعد ناظراً إليّ من فوق كتفه. لا بد أنه حسبني مجنوناً، أحد أولئك المتوهين محبي القبور الذي يجولون في المقابر أحياناً.

كانت ليلة طويلة، ربما هي أطول ليلة في حياتي. أمضيتها جالساً بجوار قبر روسا، أتحدث إليها، أرافقها في الشطر الأول من رحلتها إلى عالم الغيب، حيث يكون من الصعب الانفصال عن الأرض ويتطلب ذلك محبة من ظلوا أحياء، ليذهب المرء على الأقل محملاً بعزاء أنه قد غرس شيئاً في قلب الغير. كنتُ أتذكر كمال وجهها وألعن حظي. عاتبتُ روسا على السنوات التي قضيتُها محشوراً في حفرة المنجم وأنا أحلم بها. لم أقل لها إنني لم أرَ نساءً خلال ذلك الوقت كله، باستثناء بعض العاهرات المسنات والمستنزفات اللواتي يقدمن خدمتهن للمعسكر كله بطيب النوايا أكثر مما يفعلن ذلك بجدارة. ولكنني قلت لها إنني عشت بين رجال أفظاظ لا يحكمهم قانون، آكل الحمص وأشرب ماء أخضر آسن، بعيداً عن الحضارة، أفكر فيها ليلاً ونهاراً، وأحمل صورتها في روحي كراية تمنحني القوة لأواصل الحفر في الجبل، حتى لو ضاع مني عرق المعدن، مريضاً في معدتي معظم أيام السنة، متجمداً من البرد في الليل وهاذياً من الحر في النهار، وكل ذلك من أجل الزواج منها، ولكنها تذهب وتخونني بموتها قبل أن أتمكن من تحقيق أحلامي، مخلفة لي غماً لا شفاء منه. قلت لها إنها سخرت مني، وقدمتُ لها الحساب

بأننا لم نلتق على انفراد قطّ، وإنني لم أستطع تقبيلها إلا مرة واحدة. كان عليّ أن أنسج الحب من ذكريات ورغبات مُلحة، ولكن من المحال إشباعها، ورسائل متأخرة وحائلة اللون لا يمكن لها أن تعكس وله مشاعري ولا ألم غيابها، لأنني لا أتمتع بالسهولة في فن المراسلات، وأقل من ذلك في الكتابة للتعبير عن عواطفي. قلت لها إن تينك السنتين في المنجم كانتا خسارة لا تعوض، وإنني لو كنت أعلم أنها ستبقى تلك الفترة القصيرة في هذا العالم، لكنت سرقت المال اللازم للزواج منها وبنيت قصراً وزينته بكنوز أعماق البحر: مرجان، لؤلؤ، أصداف، وخطفتها وحبستها فيه، دون أن يكون لأحد سواي القدرة على دخوله. ولكنت أحببتها دون توقف ولوقت لانهائي، لأنني واثق من أنها لو كانت معي لما شربت السمّ المرسل إلى أبيها، ولعاشت ألف عام. حدثتها عن المداعبات التي احتفظت لها بها، وعن الهدايا التي كنت سأفاجئها بها، والطريقة التي كنت سأحبها بها وأُسعدها. وباختصار، قلت لها كل الجنون الذي ما كنت سأقوله لها لو أنها تستطيع سماعي، ولم أعد لقوله لأي امرأة أخرى.

حسبت في تلك الليلة أنني فقدت القدرة على الحب إلى الأبد، وأنني لن أستطيع الضحك بعدها ولا ملاحقة الوهم. ولكن إلى الأبد تعني وقتاً طويلاً. وهذا ما تحققت منه في هذا العمر المديد.

شعرت برؤيا الغضب المتنامي في داخلي مثل ورم خبيث، يلوث أفضل ساعات حياتي، ويُفقدني القدرة على الحنان والرحمة. ولكن ما كان يفوق ذلك الاضطراب والغضب، وأقوى شعور تملكني على ما أذكر في تلك الليلة، هو الشهوة المحبطة، ذلك أنني لن أتمكن أبداً من تحقيق رغبتي في أن أذرع بيدي جسد روسا، والتوغل في أسرارها الحميمة، وإفلات ينبوع شعرها الأخضر، والغوص في أعمق مياهه. استذكرت بيأس آخر صورة تحفظها ذاكرتي لها وهي موسدة بين طيات ساتان تابوتها كعذراء، تكلل رأسها أزهار برتقال إكليل العروس، وبين أصابعها مسبحة. ولم اكن أدري أنني سأعود لرؤيتها في هذا الوضع بالذات، للحظة عابرة، بعد سنوات طويلة من ذلك.

رجع الحارس مع أولى ساعات الضوء. لا بد أنه أحس بالشفقة على هذا المجنون شبه المتجمد الذي أمضى الليل بين أشباح المقبرة الشاحبة. قدم لي زمزميته.

ـ شاي ساخن. اشرب قليلاً منه يا سيدي ـ قال.

ولكنني صددته بحركة من يدي وابتعدت لاعناً بخطوات واسعة غاضبة بين صفوف القبور وأشجار السرو.

في الليلة التي شق فيها الدكتور كويفاس ومساعده جثة روسا وأخرجا أحشاءها في المطبخ ليجدا سبب موتها، كانت كلارا تستلقي في سريرها مفتوحة العينين، ترتجف في الظلام. وكان يسيطر عليها الشك الرهيب في أن أختها قد ماتت لأنها هي من تنبأت بذلك وقالته. كانت تظن أن قواها الذهنية القادرة على تحريك مملحة على المائدة، يمكن لها أن تكون كذلك سبباً في الموت والهزات الأرضية وكوارث أخرى أكبر. ولم تُجدِ شروح أمها لها بأنها ليست قادرة على استثارة الحوادث، وإنما على رؤيتها قبل بعض الوقت من وقوعها وحسب. كانت تشعر بأنها مغمومة ومذنبة، وخطر لها أنها ستكون أحسن حالاً لو استطاعت أن تكون إلى جانب روسا. نهضت وذهبت حافية وبقميص النوم إلى الغرفة التي تقاسمتها مع أختها الكبرى حتى الآن، ولكنها لم تجدها في السرير، حيث كانت قد رأتها آخر مرة. ذهبت للبحث عنها في البيت. كل شيء كان مظلماً وصامتاً. أمها تنام تحت تأثير المخدر الذي أعطاها إياه الدكتور كويفاس، وأخوتها والخادمات انسحبوا باكراً إلى حجراتهم. ذرعت الصالات، متسللة بمحاذاة الجدران، مرعوبة ومتجمدة من البرد. قطع الأثاث الثقيلة، والستائر السميكة المموجة، واللوحات المعلقة، وورق الجدران بأزهاره المرسومة على خلفية قاتمة، والثريات المطفأة والمتأرجحة في السقوف، وأصص السرخس على أعمدتها الخزفية، بدت لها كلها متوعدة. لاحظت أن هناك بصيص نور يتسرب من فجوة تحت باب الصالون وكانت على وشك الدخول، لكنها خشيت أن تجد أباها وأن يأمرها بالعودة إلى فراشها. توجهت عندئذ إلى المطبخ

مفكرة في أنها ستجد العزاء في صدر النانا. اجتازت الفناء الرئيسي، بين أزهار الكاميليا وأشجار البرتقال القزمة، واجتازت صالونات كتلة البناء الثانية في البيت والممرات المظلمة المكشوفة حيث تظل أنوار مصابيح الغاز الخافتة مضاءة طوال الليل، من أجل الخروج بسرعة عند وقوع الهزات الأرضية، وإبعاد الخفافيش وغيرها من الكائنات الليلية، ثم وصلت إلى الفناء الثالث، حيث توجد ملاحق الخدمة والمطابخ. هناك يفقد البيت مهابة فخامته وتبدأ فوضى القذارة وحظائر الدجاج وغرف الخدم. ووراءها يوجد الإسطبل، حيث يحتفظون بالخيول الهرمة التي مازالت نيفيا تستخدمها، على الرغم من أن سيفيرو دل بايه كان من أول من اشتروا سيارة. كانت أبواب ونوافذ المطبخ ومشغل الحلوى مغلقة. غريزة كلارا نبهتها إلى أن شيئاً غير طبيعي يحدث في الداخل، حاولت أن تنظر، لكن أنفها لم يصل إلى حافة النافذة، فكان عليها أن تسحب صندوقاً وتقربه من الجدار، ثم صعدت عليه وتمكنت من النظر من خلال فجوة ضيقة بين درفة الخشب وإطار النافذة الذي ألحقت به الرطوبة والزمن تشوهاً. وعندئذ رأت ما في الداخل.

هناك كان الدكتور كويفاس، ذلك الرجل الضخم الطيب والعذب، ذو اللحية العريضة والكرش المكور، الذي ساعد في ولادتها وعنى بها في كل أمراض طفولتها البسيطة وفي نوبات ربوها، وقد تحوّل إلى مصاص دماء بدين وقاتم كمصاصي الدماء في رسوم كتب خالها ماركوس. كان منحنياً على المنضدة التي تستخدمها النانا لإعداد الطعام. وإلى جانبه شاب مجهول، شاحب كالقمر، قميصه ملطخ بالدم، وعيناه تائهتان حباً. رأت ساقيّ أختها شديدتي البياض وقدميها العاريتين. بدأت كلارا ترتعش. وفي تلك اللحظة تنحى الدكتور كويفاس جانباً، فتمكنت من رؤية المشهد الرهيب لروسا الممددة على رخام المنضدة، مفتوحة من أعلى إلى أسفل في جرح عميق، وأمعاؤها موضوعة جانباً، في إناء السلطة. كان رأس روسا مائلاً باتجاه النافذة التي تتجسس هي منها، وشعرها الطويل الأخضر يتدلى مثل نبتة سرخس من المنضدة حتى بلاط الأرضية، ملوثاً بالأحمر. كانت عيناها مغمضتين، ولكن خُبل

للطفلة، ربما بتأثير الظلال أو بُعد المسافة، أو بتأثير التخيل، أنها ترى تعبير توسل ومذلة.

لم تستطع كلارا المتيبسة فوق الصندوق التوقف عن النظر حتى النهاية. ظلت تراقب من الفجوة لوقت طويل، وكانت تتجمد من البرد دون أن تلحظ ذلك، إلى أن انتهى الرجلان من تفريغ روسا، وحقن سائل في أوردتها، وغسلها من الداخل والخارج بخل عطري وخلاصة الخزامى. وبقيت إلى أن أعادا ملأها بلصقات محنط وخاطاها بإبرة مُنجّد مقوسة. وبقيت إلى أن غسل الدكتور كويفاس يديه تحت صنبور المجلى ومسح دموعه، بينما الآخر يمسح الدم وينظف الأحشاء. وبقيت إلى أن خرج الطبيب وهو يرتدي سترته السوداء بحركة حزن مميت. وبقيت إلى أن قبّل الشاب المجهول روسا من شفتيها، من عنقها، وبين ساقيها، وغسلها بإسفنجة، وألبسها قميص نومها المطرز، ورتب شعرها وهو يلهث. وبقيت إلى أن جاءت النانا والدكتور كويفاس وألبساها ثوبها الأبيض ووضعا على رأسها إكليل أزهار البرتقال الذي كانت تحتفظ به ملفوفاً بورق حرير ليوم زفافها. وبقيت إلى أن حمل المساعد روسا بين ذراعيه بالرقة المؤثرة نفسها التي كان سيحملها بها لاجتياز عتبة البيت أول مرة لو أنها كانت عروسه. ولم تستطع التحرك إلى أن ظهرت أولى الأنوار. عندئذ انسلت إلى سريرها وهي تشعر في أعماقها بكل ما في العالم من صمت. احتلها الصمت بالكامل ولم تعد إلى الكلام إلا بعد تسع سنوات، عندما خرجت بصوتها لتعلن أنها ستتزوج.

الفصل الثاني

الماريات الثلاث

في غرفة الطعام في بيتهما - وسط أثاث عتيق في حالة مزرية، كان في ماض بعيد قِطعاً جيدة من الطراز الفيكتوري - كان إستيبان تروبيا واخته فيرولا يتناولان العشاء نفسه المؤلف من حساء كل يوم الدهني، والسمك عديم الطعم نفسه الذي يتناولانه كل يوم جمعة. وكانت تقوم على خدمتهما خادمة عنت بهما مدى الحياة، وفق تقاليد العبيد المأجورين السائدة آنذاك. كانت المرأة العجوز تأتي وتروح بين المطبخ وغرفة الطعام منحنيّة الظهر، شبه عمياء، لكنها لا تزال ذات همة، تأتي بالأطباق وتعيدها إلى المطبخ بوقار. ولم تكن دونيا إستير تروبيا ترافق ابنيها على المائدة. فهي تقضي فترة الصباح جالسة دون حراك على كرسيها، تراقب حركة الشارع من النافذة، وترى كيف يقوض مرور السنين الحي الذي كان متميزاً في شبابها. وبعد الغداء تُنقل إلى سررها، وتوضع فيه بطريقة تبقيها نصف جالسة، بالوضع الوحيد الذي يتيحه لها التهاب المفاصل، ودون صحبة سوى القراءات الرحيمة لكراسات ورعة عن سير حياة القديسين ومعجزاتهم. وتظل هناك حتى اليوم التالي، حيث تعود لتكرار الروتين نفسه. أما خروجها الوحيد إلى الشارع فكان لحضور قداس يوم الأحد في كنيسة سان سيباستيان، على بعد شارعين من بيتها، تحملها فيرولا والخادمة في كرسيها ذي العجلات.

انتهى إستيبان تروبيا من كشط لحم السمك الأبيض عن الحسك المتشابك، وترك أدوات الطعام في الطبق. كان يجلس متصلباً بصرامة، مثلما يمشي متصلباً جداً، مع ميلان خفيف من رأسه إلى الوراء، وانحراف جانبي قليل، ناظراً موارية بطرف عينه بمزيج من الغطرسة والريبة وقِصر البصر. وكان يمكن لهذه النظرة أن تكون مزعجة لو لم تكن عيناه عذبتين وصافيتين بصورة مثيرة للذهول. وكانت هيئته شديدة

التصلب، أكثر ملاءمة لرجل بدين وقصير يريد أن يبدو أطول قامة مما هو عليه، أما هو فطوله متر وثمانين سنتمتراً فضلاً عن أنه نحيل جداً. خطوط جسده كلها كانت شاقولية وصاعدة، ابتداء من أنفه الحاد والمعقوف وحاجبيه المنتصبين حتى جبهته العالية المكللة بلبدة أسد يسرحها إلى الوراء. وكان طويل العظام، له يدان بأصابع ملساء طويلة. يمشي بخطى واسعة، ويتحرك بنشاط ويبدو قوياً جداً، دون أن تفتقر حركاته، مع ذلك، إلى بعض الظرافة. وله وجه متناسق التقاطيع على الرغم من مظهره الصارم المكفهر وكثرة تبرمه وإعرابه عن تعكر المزاج. كان سوء الطبع والميل إلى العنف وفقدان الصواب هي أبرز صفاته منذ الطفولة، حين كان يرتمي أرضاً بفم ممتلئ بالزبد، ودون قدرة على التنفس من شدة الغضب، ويضرب بقدميه كمن به مس شيطاني. فكان لا بد من تغطيسه في ماء جليدي كي يستعيد السيطرة على نفسه. وقد تعلم في ما بعد كبح نفسه، ولكنه ظل محافظاً طوال حياته على سرعة غضبه الذي لا يحتاج إلا القليل من التحريض لينفجر في نوبات رهيبة.

- لن أعود إلى المنجم - قال.

كانت أول جملة يتبادلها مع أخته على المائدة. وكان قد قرر ذلك في الليلة الفائتة، حين أدرك أنه لا مغزى لمواصلته حياة الناسك التي يعيشها بحثاً عن ثراء سريع. كان يملك امتياز التصرف بالمنجم لسنتين أخريين، وهو زمن كافٍ من أجل استثمار جيد لعرق المعدن العجيب الذي اكتشفه، لكنه فكر في أنه لا وجود لسبب يدفعه إلى الذهاب ليدفن نفسه في الصحراء، حتى لو سرقه رئيس فريق العمل قليلاً، أو لم يعرف كيف يعمل مثله في المنجم. لم يكن راغباً في الثراء مقابل كل تلك التضحيات. فالحياة مازالت أمامه كي يغتني إذا أمكنه ذلك، وكي يضجر وينتظر الموت، من دون روسا.

- عليك أن تعمل في مكانٍ ما يا استيبان - ردّت فيرولا -. أنت تعرف أننا ننفق القليل... لا شيء تقريباً، ولكن أدوية أمنا غالية الثمن.

نظر استيبان إلى أخته. كانت لا تزال امرأة جميلة، ذات تكورات مترفه ووجه بيضوي كوجه عذراء رومانية، غير أنه يمكن لبشاعة

الإذعان أن تُلحظ من خلال بشرتها الشاحبة بانعكاسات مخمل الدراقن وعينيها المترعتين بالظلال. لقد ارتضت فيرولا لنفسها دور الممرضة لأمها. كانت تنام في الغرفة المجاورة لحجرة دونيا إستير، متأهبة في أي لحظة للذهاب راكضة إليها لتعطيها أدويتها، أو لتضع لها المبولة، أو ترتب لها الوسائد. كانت معذبة الروح. تشعر بالمتعة في إذلال النفس وفي الأعمال الحقيرة، معتقدة أنها ستربح الجنة من خلال معاناة المظالم الفظيعة وتحملها، فهي تبتهج بتنظيف دمامل ساقيّ أمها المريضة، وغسلها، والغوص في روائحها وبؤسها وتفحص مبولتها. وبقدر ما كانت تكره نفسها بسبب هذه المتع الملتوية التي لا يمكن الاعتراف بها، كانت تكره أمها لأنها أداتها في ذلك. لقد كانت تُعنى بها دون تذمر، لكنها تسعى خفية لجعلها تدفع ثمن شللها. ودون قول ذلك علناً، كان ماثلاً بين الاثنتين واقع أن الابنة ضحت بحياتها لرعاية أمها وظلت عزباء لهذا السبب. فقد رفضت فيرولا عريسين تقدما لها بحجة مرض أمها. لم تكن تتحدث في هذا الأمر، لكن الجميع يعرفونه. كانت لها حركات فظة وخرقاء، ولها مثل طبع أخيها النزق، لكن الحياة ووضعها كامرأة أجبراها على ترويض طبعها، وكبح غيظها. فهي تبدو شديدة الكمال إلى حدّ اكتسبت معه سمعة قديسة. ويذكرها الجميع كمثال في التفاني الذي تغدقه على دونيا إستير، وفي الطريقة التي ربت بها أخاها الوحيد حين مرضت أمها ومات أبوها مخلفاً إياهم في البؤس. لقد أحبت فيرولا أخاها استيبان حين كان طفلاً. فكانت تنام معه، وتحممه، وتُخرجه للتنزه، وتعمل منذ مطلع الشمس حتى مغيبها في الخياطة للآخرين كي تدفع له تكاليف المدرسة، وقد بكت من الغضب والعجز يوم كان على استيبان الدخول للعمل في مكتب كاتب بالعدل، لأن ما تكسبه لم يكن يكفي لإطعامهم في البيت. لقد عنيت به وخدمته مثلما تفعل الآن مع أمها، وأحاطته هو أيضاً بشبكة غير مرئية من الشعور بالذنب وبدَينٍ من جميلٍ لم يُسدد. بدأ الصبي بالابتعاد عنها منذ أن ارتدى بنطالاً طويلاً. وبإمكان استيبان أن يتذكر بدقة اللحظة التي أدرك فيها أن أخته شبح شؤم. حدث ذلك حين تقاضى أول أجر له. وقرر أن يستبقي

لنفسه خمسين سنتافو يحقق بها حلماً ظل يداعبه منذ الطفولة: تناول فنجان قهوة فيينّي. كان قد رأى عبر زجاج الفندق الفرنسي النُدل الذين يمرون حاملين صواني مرفوعة فوق رؤوسهم وفيها كنوز: كؤوس كريستال عالية مكللة بأبراج من الكريما المخفوقة ومزيّنة بحبة كرز لامعة. يوم تقاضيه أجره الأول مرّ أمام المحل عدة مرات قبل أن يجرؤ على الدخول. أخيراً اجتاز العتبة برهبة، وقبعته البيريه في يده، وتقدم باتجاه الصالة الفخمة، بين ثريات الكريستال وأثاث الستيل، وبإحساس أن الجميع ينظرون إليه، وأن ألف عين تحكم على بدلته الضيقة على مقاسه وحذائه القديم. جلس على حافة الكرسي، وأذناه ساخنتان، وأخبر النادل بطلبه بصوت خفيض. انتظر بفارغ الصبر، مترصداً في المرايا حركة ذهاب الناس ومجيئهم، ومتذوقاً بصورة مسبقة تلك المتعة التي طالما تخيّلها. ووصلت قهوته الفيينية، وكانت أشد إثارة من كل ما تخيله، بديعة، لذيذة، ومعها ثلاث قطع من بسكويت العسل. تأملها طويلاً بافتتان. وأخيراً تجرأ على تناول الملعقة الصغيرة ذات الذراع الطويلة، وغطسها في الكريما متنهداً بسعادة. امتلأ فمه باللعاب، وكان مستعداً لإطالة أمد تلك اللحظة قدر الإمكان، ومطّها إلى الأبد. بدأ بتحريك الملعقة وهو يرى كيف يختلط السائل القاتم في الكأس بالكريما الرغوية. حرّك، وحرك، وحرك... وفجأة ارتطم رأس الملعقة بزجاج الكأس، فأحدث فيه ثقباً تدفقت القهوة منه مضغوطة. واندلقت على ثيابه. وبرعب رأى استيبان محتوى الكأس كله يسيل على بدلته الوحيدة، تحت النظرات المستهزئة التي يوجهها شاغلو الموائد الأخرى. نهض شاحب الوجه من الإحباط، وخرج من الفندق الفرنسي وقد ضيع خمسين سنتافو، مخلفاً في طريقه نثارة من القهوة الفيينية على السجاجيد الوثيرة. وصل إلى البيت ساخطاً، مستاء، والقهوة لا تزال تقطر منه. وحين علمت فيرولا بما حدث، علقت بفظاظة: «هذا يحدث لك لأنك تنفق نقود أدوية أمنا على نزواتك. إنه عقاب الرب لك». في تلك اللحظة رأى إستيبان بوضوح الآليات التي تستخدمها أخته للسيطرة عليه، وطريقتها في جعله يشعر بأنه مذنب، وأدرك أن عليه النجاة بنفسه. وبقدر ما كان يبتعد

عن الوصية عليه، كانت فيرولا تزداد جفاءً نحوه. فالحرية التي راح يتمتع بها تزلها كأنها توبيخ، كأنها ظلم. وعندما أحب روسا ورأته يائساً، مثل طفل، يطلب مساعدتها، يحتاج إليها، يلاحقها في أنحاء البيت متوسلاً إليها أن تتقرب من أسرة دل بايه، وأن تتكلم إلى روسا، وأن ترشو النانا، عادت فيرولا إلى الإحساس بأهميتها بالنسبة إلى إستيبان. وبدا لبعض الوقت أنهما قد تصالحا. لكن ذلك التلاقي العابر لم يدم طويلاً، ولم تلبث فيرولا أن انتبهت إلى أنها تُستغل كأداة. وقد ابتهجت حين رأت أخاها يغادر إلى المنجم. فمنذ بدأ إستيبان العمل، وهو في الخامسة عشرة من عمره، تولى مسؤولية البيت وأبدى الالتزام بمواصلة تلك المسؤولية على الدوام، لكن ذلك لم يكن كافياً في نظر فيرولا. لقد كان يضايقها البقاء حبيسة هذه الجدران العابقة برائحة الشيخوخة والعقاقير، يؤرق نومها أنين المريضة، وتظل متنبهة إلى الساعة كي تقدم لها أدويتها، تعاني الضجر والتعب والحزن، بينما يجهل أخوها هذه الواجبات. يمكن له بلوغ مصير مشرق، حرّ، مليء بالنجاحات. يمكنه الزواج وإنجاب أبناء، ومعرفة الحب. وفي اليوم الذي أرسلت إليه البرقية تنبئه بموت روسا أحست بدغدغة غريبة، دغدغة فرح تقريباً.

- عليك أن تعمل في شيء ما - كررت فيرولا.

- لن ينقصكما أي شيء مادمتُ حياً - قال.

- من السهل قول هذا - ردّت فيرولا وهي تسحب حسكة سمك من بين أسنانها.

- أظن أنني سأذهب إلى الريف... إلى الماريات الثلاث.

- إنها خراب يا إستيبان. لقد قلت لك دائماً إنه من الأفضل بيع تلك الأرض، ولكنك عنيد مثل بغل.

- يجب عدم بيع الأرض أبداً. إنها الشيء الوحيد الذي يبقى عندما ينفد كل شيء آخر.

- لست موافقة على هذا. الأرض مجرد فكرة رومانسية. أما ثراء الرجال فتأتي به العين الصائبة في شؤون التجارة - تعللت فيرولا -. ولكنك دائم القول إنك ستذهب ذات يوم للعيش في الريف.

- وقد حلّ هذا اليوم الآن. إنني أمقت هذه المدينة.

ـ أليس الأصح أن تقول إنك تمقت هذا البيت؟
ـ أمقته أيضاً ـ أجابها ساخراً.
ـ كنت أتمنى لو أنني ولدتُ رجلاً، كي أتمكن من الرحيل أيضاً ـ زمجرت بنبرة ممتلئة بالحقد.
ـ أما أنا فما كنت لأتمنى أن أولد امرأة ـ قال.
وأكملا تناول الطعام بصمت.

كان الأخوان متباعدين جداً أحدهما عن الآخر، والشيء الوحيد الذي مازال يجمع بينهما هو وجود الأم والذكرى المحبة الغائمة التي جمعتهما في الطفولة. لقد ترعرعا في بيت آيل إلى الإفلاس، شهدا تردي الأب الأخلاقي والاقتصادي، ثم مرض الأم البطيء بعد ذلك. فقد بدأت دونيا إستير معاناة داء المفاصل منذ شبابها المبكر، وراحت تتيبس إلى أن لم تعد قادرة على الحركة إلا بمشقة، كما لو أنها مكفنة في الحياة، وأخيراً، عندما لم تعد قادرة على ثني ركبتيها، استقرت نهائياً في كرسيها ذي العجلات، وفي ترملها ويأسها. مازال إستيبان يتذكر طفولته ومراهقته، يتذكر ثيابه الضيقة، وحبل القديس فرانثيسكو الذي كانوا يجبرونه على استخدامه مقابل من يدري أية نذور لأمه أو أخته، وقمصانه المرقعة بعناية، ووحدته. كانت فيرولا التي تكبره بخمس سنوات تغسل قميصيه الوحيدين كل يوم وتنشيهما كي يظل مرتباً حسن المظهر على الدوام، وكانت تُذكّره أنه يحمل من خلال أمه أكثر الألقاب نبلاً وعراقة ترجع إلى أيام نيابة الملك في ليما. ولم يكن لقب تروييا سوى حدث مؤسف في حياة دونيا إستير التي كان مقدراً لها أن تتزوج بواحد من طبقتها، لكنها وقعت إلى حد الضياع في حب ذلك الطائش، والمهاجر من الجيل الأول، الذي بدد دوطتها خلال سنوات قليلة، ثم ميراثها كله بعد ذلك. لكن ماضي الدم الأزرق لم يكن ينفع إستيبان في شيء ما دام لا يوجد في البيت ما يسدد به حسابات المتجر، وما دام مضطراً إلى الذهاب ماشياً إلى المدرسة، لأنه لا يملك سنتافو واحداً يدفع به أجرة الترام. يتذكر أنهم كانوا يرسلونه إلى الدروس وقد غطوا صدره وظهره بورق الصحف، لأنه لم يكن يملك ثياباً داخلية صوفيه، وكان

معطفه في حالة يرثى لها، وكم كان يعاني وهو يتصور أنه يمكن لرفاقه أن يسمعوا، مثلما يسمع هو نفسه، طقطقة احتكاك الورق بجلده. وفي الشتاء، كان مصدر الدفء الوحيد مجمراً في غرفة أمه، حيث يجتمع الثلاثة معاً للاقتصاد بالشمع والفحم. لقد كانت طفولة حرمان، وضيق، وفظاظة، طفولة صلوات مسبحة ليلية لامتناهية، ومخاوف وخطايا. لم يبق له من ذلك كله سوى الغضب وكبريائه غير المحدود.

بعد يومين من ذلك سافر إستيبان تروبيا إلى الريف. رافقته فيرولا إلى المحطة. وعند الوداع قبلت خده بفتور وانتظرت حتى صعد إلى القطار ومعه حقيبتيه الجلديتين المزودتين بأقفال برونزية، وهما الحقيبتان اللتان اشتراهما للذهاب إلى المنجم، وستخدمانه مدى الحياة مثلما وعده البائع. أوصته أن يعنى بنفسه، وأن يحاول المجيء لزيارتها بين وقت وآخر، وقالت إنها ستشتاق إليه، لكن كلاهما كان يعرف أنه مقدر لهما ألا يلتقيان لسنوات طويلة، وكانا يشعران بشيء من الراحة في أعماقهما.

ـ أخبريني إذا ساءت حالة أمي! ـ صاح إستيبان من خلال النافذة عندما بدأ القطار التحرك.

ـ لا تقلق! ـ ردّت عليه فيرولا وهي تلوح بمنديلها على الرصيف.

استند إستيبان تروبيا إلى مسند المقعد المغلف بمخمل أحمر وأثنى على مبادرة الإنكليز في صنع عربات الدرجة الأولى، حيث يمكن للمرء أن يسافر كسيد محترم، دون أن يضطر إلى تحمل الدجاج، والسلال، وعلب الكرتون المحزمة بحبال، وبكاء أطفال الآخرين. وهنأ نفسه لقراره، أول مرة في حياته، بإنفاق النقود لشراء بطاقة أغلى ثمناً، وقرر أنه في هذه التفاصيل يكمن الفرق بين سيّد محترم وفلاح فظّ. لهذا السبب، وعلى الرغم من أنه في وضع مادي سيئ، سوف ينفق النقود منذ هذا اليوم على وسائل الراحة الصغيرة التي تُشعره بأنه غنيّ.

ـ لا أفكر في العودة إلى الفقر! ـ قرر ذلك وهو يفكر في عرق الذهب.

رأى من نافذة القطار مرور مناظر الوادي الأوسط. سهول فسيحة ممتدة عند سفح سلسلة الجبال، حقول خصبة من كروم عنب، وقمح، وبرسيم. قارنها بسهوب الشمال المقفرة، حيث أمضى سنتين محشوراً في

حفرة منجم، وسط طبيعة معادية وقمرية ما كان يمل من تأمل جمالها المخيف، مفتوناً بألوان الصحراء، بتدرجات الأزرق والبنفسجي والأصفر، بالفلزات المنجمية البارزة على سطح الأرض.

- حياتي آخذة بالتبدل - تمتم.

ثم أغمض عينيه وغاب في النوم.

نزل من القطار في محطة سان لوكاس. كان مكاناً بائساً. ولم تكن تُرى في تلك الساعة نفس واحدة على الرصيف الخشبي ذي السقف الذي أتلفته تقلبات الجو وغزو النمل. ومن هناك كان بالإمكان رؤية الوادي كله من خلال ضباب غير ملموس يصعد من الأرض المبللة بمطر الليل. كانت الجبال البعيدة تختفي بين غيوم سماء مكفهرة، وقمة البركان الثلجية وحدها تبرز بوضوح في خلفية المشهد، مضاءة بشمس شتاء خجولة. تطلع في ما حوله. ففي طفولته، المرحلة السعيدة الوحيدة التي يتذكرها، قبل أن ينتهي أبوه إلى الإفلاس ويستسلم للخمر وعاره، كان قد جال معه تلك المنطقة على صهوة حصان. يتذكر أنه كان يلعب في الصيف في الماريات الثلاث، لكن أعواماً طويلة مرت، وصارت الذاكرة شبه ممحوة ولم يعد بمقدوره التعرف إلى المكان. بحث بنظره عن قرية سان لوكاس، لكنه لم يلمح سوى دسكرة بعيدة، شاحبة في رطوبة الصباح. جاب المحطة. كان باب المكتب الوحيد مغلقاً بقفل. وكان هناك إعلان مكتوب بقلم الرصاص، لكنه ممحو إلى حدّ لم يستطع معه أن يقرأه. سمع وراءه القطار وهو يبدأ التحرك ويبتعد مخلفاً عموداً من الدخان الأبيض. كان وحيداً في ذلك المكان الصامت. تناول حقيبتيه وتقدم عبر وحول واحجار درب يؤدي إلى القرية. مشى أكثر من عشر دقائق، شاكراً عدم هطول المطر، لأنه كان يتقدم بمشقة وهو يحمل حقيبتيه الثقيلتين على ذلك الدرب وأدرك أنه يمكن للمطر أن يحوّله خلال ثوان قليلة إلى حمأة وحل غير سالكة. وحين اقترب من الدسكرة رأى دخاناً يتصاعد من بعض المداخن، فتنهد براحة، لأن إحساساً راوده في البدء بأنها قرية مهجورة، وهكذا كانت في عزلتها ومظهرها الهرم.

توقف عند مدخل القرية دون أن يرى أحداً. كان الصمت يسود الشارع الوحيد الذي تحف به أكواخ متواضعة من الطين، وراوده إحساس بأنه يسافر في الحلم. دنا من أقرب بيت، لم تكن له أية نافذة وكان بابه مفتوحاً. وضع حقيبتيه على الرصيف ودخل منادياً بصوت عالٍ. كان الداخل مظلماً لأن الضوء لا يصل إليه إلا من الباب، فاحتاج لبضع ثوان كي يعتاد على الظلمة. عندئذ لمح طفلين يلعبان على الأرضية التي من طين مرصوص، وقد نظرا إليه بعيون واسعة مذعورة، ولمح في فناء خلفي امرأة تتقدم وهي تجفف يديها بطرف مريلتها. وحين رأته قامت بحركة غريزية لترتب خصلة شعر تتهدل على جبهتها. حيّاها وردّت على تحيته وهي تغطي فمها بيدها عند الكلام لتخفي لثتها الدرداء. أوضح لها تروبيا أنه بحاجة إلى استئجار عربة. بدا عليها أنها لم تفهم، واكتفت بتخبئة الطفلين في طيّات مريلتها وهي تتطلع بنظرة لا تعبير فيها. فخرج وحمل أمتعته وتابع طريقه.

وعندما أوشك على اجتياز القرية كلها دون أن يرى أحداً وبدأ يفقد الأمل، سمع وقع حوافر حصان خلفه. كانت عربة حطاب مخلعة. وقف أمام العربة وأجبر سائقها على التوقف.

- أيمكنك أن توصلني إلى الماريات الثلاث؟ سأدفع لك جيداً - صاح.

- وما الذي أنت ذاهب لتفعله هناك أيها السيد؟ - سأله الرجل - إنها أرض لا أحد، أرض حجرية بلا قانون.

لكنه وافق على أن يوصله، وساعده في وضع أمتعته بين حزم الحطب. جلس تروبيا إلى جانبه على مقعد العربة. خرج أطفال من بعض البيوت يركضون وراء العربة. وأحس تروبيا أنه أشد وحدة من أي وقت مضى.

على بعد أحد عشر كيلومتراً عن قرية سان لوكاس، وعلى طريق خرب، تجتاحه النباتات الشوكية وتملؤه الحفر، ظهرت اللوحة الخشبية التي تحمل اسم الملكية. كانت معلقة بسلسلة معدنية مقطوعة، تجعلها الريح ترتطم بالعمود فيصدر عنها صوت أصم بدا له كصوت طبل جنائزي. كانت نظرة واحدة كافية كي يدرك أنه بحاجة إلى قوة هرقل كي ينقذ ذلك المكان من الخراب. فالأعشاب الضارة ابتلعت الدرب،

وأينما نظر لا يرى سوى صخور ونباتات متشابكة وبراري. لم يكن هناك ولو مجرد إشارة توحي بمراع أو بقايا كروم عنب من تلك التي يتذكرها، ولم يخرج أحد لاستقباله. تقدمت العربة ببطء متتبعة أثراً خطه مرور البهائم والبشر بين النباتات المتشابكة. بعد قليل لمح البيت في عمق المكان، كان لا يزال منتصباً، ولكنه يبدو أشبه برؤيا كابوس تملأه الأنقاض، وأسلاك سياج قنٍ دجاج على الأرض، وكوم زبالة. كان نصف قرميد السقف مكسراً، ونبتة برية متسلقة تدخل من النوافذ وتكاد تغطي الجدران كلها. ورأى حول البيت بعض الأكواخ الطينية غير المُبَيَّضة، بلا نوافذ وبسقوف من قش سوّده السناج. وكان هناك كلبان يتشاجران بغضب في الفناء.

اجتذبت قعقعة عجلات العربة وشتائم الحطاب شاغلي الأكواخ الذين راحوا يظهرون شيئاً فشيئاً. كانوا ينظرون إلى من وصلا للتو باستغراب وريبة. فقد انقضت خمس عشرة سنة دون أن يروا أي سيد مالك، واستنتجوا أنه لا مالك لهم. وما كان يمكن لهم أن يتعرفوا في ذلك الرجل طويل القامة والمتسلط على الطفل ذي خصل الشعر الكستنائية المجعدة الذي كان يلعب قبل زمن طويل في هذا الفناء نفسه. نظر إليهم استيبان ولم يستطع كذلك التعرف على أي منهم. كانوا يشكلون جماعة بائسة. رأى عدة نساء من أعمار غير محددة، جلودهن مشققة وجافة، بعضهن حبالى بصورة ظاهرة، وجميعهن يرتدين أسمالاً بالية وحافيات الأقدام. قدر أن هناك اثني عشر طفلاً على الأقل من مختلف الأعمار. كان الصغار منهم عراة. وكانت وجوه أخرى تطل من عتبات الأبواب دون التجرؤ على الخروج. وجّه استيبان إيماءة تحية، ولكن أحداً لم يجبه. وهرع بعض الأطفال للاختباء وراء النساء.

نزل استيبان من العربة، أنزل حقيبتيه وقدم بعض القطع النقدية للحطاب.

- سأنتظركُ إذا رغبت يا سيدي - قال الرجل.

- لا. سأبقى هنا.

توجّه إلى البيت، فتح الباب بدفعة من كتفه ودخل. كانت هناك إنارة

كافية في الداخل، فضوء النهار يدخل من النوافذ المكسرة ومن فتحات السقف في الأماكن التي تساقط قرميدها. كان البيت ممتلئاً بالغبار وشباك العنكبوت، يسوده الإهمال الكامل، وكان واضحاً أن أحداً من الفلاحين لم يجرؤ خلال تلك السنوات على ترك كوخه وشغل بيت السادة الكبير الفارغ. ولم يلمس أحد الأثاث، فقد كان أثاث أزمنة طفولته نفسه لا يزال في أمكنته المعهودة نفسها، ولكنه أشد قبحاً وكآبة وتخلعاً مما يمكن تذكره. كان البيت كله مغطى بسجادة من الأعشاب والغبار والأوراق الجافة، ويعبق برائحة قبر. نبح عليه كلب بارز العظام بغضب، ولكن استيبان تروبيا لم يلتفت إليه، وأخيراً تعب الكلب من النباح، فاستلقى في أحد الأركان وراح يحك براغيثه. وضع حقيبتيه على منضدة وأخذ يجوب البيت مقاوماً الأسى الذي بدأ يداهمه. انتقل من غرفة إلى أخرى، رأى التردي الذي ألحقه الزمن بالأشياء كلها، والفقر والوساخة، وأحس أن هذا المكان جحر أسوأ بكثير من المنجم. كان المطبخ حجرة فسيحة مملوءة بالركام والقذارة، عالية السقف وذات جدران سوّدها دخان الحطب والفحم، عفنة، خربة، مازالت معلقة إلى مسامير على جدرانها قدور ومقالٍ من النحاس والحديد لم تستخدم منذ خمس عشرة سنة ولم يلمسها أحد خلال ذلك الزمن كله. وكانت غرف النوم تضم الأسِّرة نفسها والخزائن الضخمة نفسها ذات المرايا الكبيرة التي اشتراها أبوه في أزمنة أخرى، أما الفرش فكانت مجرد أكوام من الصوف المتعفن وقد عششت فيه الحشرات منذ أجيال. سمع خطوات الفئران الخافتة والمتكتمة في بطانة السقف. ولم يستطيع أن يتبين إن كانت الأرضية من الخشب أم البلاط، لأنها لا تُرى في أي مكان وتغطيها القذارة بالكامل. وكانت طبقة الغبار الرمادية تمحو هيئة قطع الأثاث ومحيطها. وحيث كانت الصالة، مازال يُرى البيانو الألماني بإحدى قوائمه المكسورة وملامسه الضاربة إلى الصفرة، يرن مثل كلافيسين غير مدوزن. وعلى الرفوف بقيت بعض الكتب التي لا يمكن قراءتها وقد تآكلت صفحاتها من الرطوبة، وعلى الأرض بقايا مجلات قديمة جداً بعثرتها الرياح. كانت نوابض المقاعد ظاهرة للعيان، وهناك عش جرذان

صغيرة على الأريكة التي كانت تجلس عليها أمه للحياكة قبل أن يحوّل المرض يديها إلى ما يشبه الخطافات.

حين أنهى استيبان جولته، كانت قد تكونت لديه أفكار واضحة. فقد صار يعرف ما ينتظره من عمل جبار، لأنه إذا كان البيت على هذه الحال من الإهمال، فلا يمكنه أن يأمل بأن تكون بقية الملكية في ظروف أفضل. وقد راودته للحظة فكرة وضع حقيبتيه في العربة والعودة من حيث أتى، لكنه استبعد هذا الخاطر وقرر أنه إذا كان هناك ما يمكنه تهدئة حزن وغضب فقدانه روسا، فلا بد له أن يكون قصم الظهر بالعمل في هذه الأرض الخراب. خلع معطفه، تنفس بعمق، وخرج إلى الفناء حيث مازال الحطاب يقف مع الفلاحين المجتمعين بعيداً بعض الشيء بالخوف الذي يميز أناس الريف. تبادلوا النظرات بفضول. خطا تروبيا خطوتين باتجاههم، ولاحظ حركة تراجع خفيفة بين الجماعة، جال ببصره على الفلاحين المهلهلين وحاول إبداء ابتسامة مودة للأطفال المتسخين بالمخاط، والمسنين ذوي العيون الغمصاء، والنساء اللاتي بلا آمال، ولكنها خرجت منه أقرب إلى تكشيرة.

ـ أين هم الرجال؟ ـ سألهم.

تقدم الرجل الشاب الوحيد خطوة إلى الأمام. ربما كان في مثل عمر استيبان تروبيا، ولكنه يبدو أكبر سناً.

ـ لقد ذهبوا ـ قال.

ـ ما اسمك أنت؟

ـ بيدرو غارثيا الثاني يا سيدي ـ أجابه الآخر.

ـ أنا المالك الآن. لقد انتهت الحفلة. سنبدأ العمل. ومن لا تروقه الفكرة، فلينصرف حالاً. من سيظل هنا لن ينقصه الطعام، ولكن سيكون عليه بذل الجهد. لا أريد كسالى ولا متطاولين، هل تسمعونني؟

تبادلوا النظرات مذهولين. لم يفهموا نصف خطابه، ولكنهم يجيدون التعرف إلى صوت السيد عندما يسمعونه.

ـ لقد فهمنا يا سيدي ـ قال بيدرو غارثيا الثاني ـ لا مكان لنا نذهب إليه، فقد عشنا هنا على الدوام. سوف نبقى.

قرفص أحد الأطفال وراح يتغوط، واقترب كلب أجرب يشمه. فأمر استيبان بقرف أن يأخذوا الطفل، وينظفوا الفناء، ويقتلوا الكلب. هكذا بدأ حياته الجديدة التي ستجعله، مع مرور الزمن، ينسى روسا.

لا يمكن لأحد أن ينزع من راسي فكرة أنني كنت مالكاً طيباً. فأي شخص رأى الماريات الثلاث في أزمنة الهجر والإهمال ويراها الآن، وقد صارت إقطاعية نموذجية، لا بد أن يتفق معي في الراي. ولهذا لا يمكنني تقبل أن تأتيني حفيدتي بتلك الحكاية عن الصراع الطبقي، لأننا إذا ذهبنا إلى العمق، فإن هؤلاء الفلاحين البائسين الآن في وضع أسوأ مما كانوا عليه قبل خمسين سنة. لقد كنتُ بمثابة أب لهم. ومع الإصلاح الزراعي تضررنا جميعنا.

من أجل إخراج الماريات الثلاث من البؤس، كرستُ كل رأس المال الذي وفرته لزواجي بروسا، وكل ما كان يرسله إليّ رئيس العمال في المنجم، ولكن ليس المال هو ما أنقذ تلك الأراضي، وإنما العمل والتنظيم. شاع الكلام عن أن هناك سيداً جديداً في الماريات الثلاث وأننا نقوم بانتزاع الصخور بالجواميس ونحرث المراعي لزراعتها. وسرعان ما بدأ بعض الرجال بالتوافد عارضين أنفسهم كعمال، لأنني كنت أدفع جيداً وأقدم لهم طعاماً وفيراً. اشتريت بهائم. وكانت الحيوانات مقدسة في نظري، فلم نكن نذبحها حتى لو أمضينا السنة كلها دون تذوق اللحم. هكذا تزايدت المواشي. نظمت الرجال في فرق عمل، وبعد الانتهاء من العمل في الحقول، كنا نعكف على إعادة بناء بيت السيد. لم يكونوا نجارين ولا بنائين، وكان عليّ أن أعلِّمهم بنفسي كل شيء مستفيداً من مراجع اشتريتها. حتى التمديدات الصحية أنجزتها معهم، وأصلحنا السقوف، وطلينا كل شيء بالكلس، ونظفنا البيت حتى صار يلمع من الداخل والخارج. وزعتُ الأثاث على الفلاحين، باستثناء منضدة قاعة الطعام، وكانت لا تزال سليمة على الرغم من العثة التي فتكت بكل شيء، والسرير الحديدي الذي كان لأبويّ. ظللت أعيش في البيت الخاوي، دون أثاث آخر غير القطعتين المذكورتين وبعض الصناديق التي

كنت أجلس عليها، إلى أن أرسلت لي فيرولا من العاصمة الأثاث الجديد الذي أوصيتُها عليه. وكان مؤلفاً من قطع ضخمة، ثقيلة، فخمة، صُنعت كي تصمد لأجيال عديدة، ومناسبة للحياة الريفية، والدليل على ذلك أنها احتاجت إلى زلزال كي يدمرها. أسندتُها إلى الجدران مفكراً في الراحة وليس في الجماليات، وعندما صار البيت مريحاً، شعرت بالبهجة وبدأت أعتاد على فكرة أنني سأقضي سنوات طويلة، وربما الحياة كلها، في الماريات الثلاث.

كانت نساء الفلاحين يتناوبن الخدمة في بيت السيد، وتولين بأنفسهن العناية بحديقتي الصغير. وسرعان ما رأيت أولى الأزهار في الحديقة التي خططتها بيدي، وهي الحديقة نفسها الموجودة اليوم مع بعض التعديلات الطفيفة. في ذلك الحين كان الناس يعملون دون أن ينبسوا ببنت شفة. وأظن أن حضوري قد أعاد إليهم الأمان، ورأوا كيف تحولت هذه الأراضي شيئاً فشيئاً إلى مكان مزدهر. كانوا أناساً طيبين وبسطاء، ولم تكن هناك تقلبات. وصحيح أيضاً أنهم كانوا فقراء وجهلة. قبل مجيئي كانوا يكتفون بزراعة قطع أرض عائلية صغيرة توفر لهم الضروريات كيلا يموتوا جوعاً، ما لم تعصف بهم كارثة ما، مثل الجفاف، أو الصقيع، أو الأوبئة، أو النمل والحلزونات، عندئذ تصبح الأمور صعبة في بيوتهم. لقد تبدل كل شيء مع مجيئي. رحنا نستعيد المراعي واحداً بعد آخر، وأعدنا بناء الزرايبة والإسطبلات وبدأنا نخطط نظام ريّ لا تعتمد معه المزروعات على المناخ، وإنما على نوع من الآلية العلمية. لكن الحياة لم تكن سهلة. كانت قاسية جداً. في بعض الأحيان كنت أذهب إلى القرية وأعود مع طبيب بيطري ليفحص الأبقار والدجاج، ويلقي في أثناء ذلك نظرة على المرضى. ليس صحيحاً أنني كنت أنطلق من مبدأ أنه إذا كانت معارف البيطري نافعة للحيوانات، فلا بد إن تكون نافعة للفقراء أيضاً، مثلما تقول حفيدتي عندما تسعى إلى استثارة غضبي. كل ما في الأمر أنه لم يكن بالإمكان العثور على أطباء في تلك المناطق النائية. كان الفلاحون يستشيرون مداوية من السكان الأصليين، تعرف قدرات الأعشاب والإيحاءات، وكانوا يثقون بها ثقة

أكبر بكثير من ثقتهم بالبيطري. وكانت النساء الحوامل يضعن مواليدهن بمساعدة جاراتهن والأدعية، وقابلة تكاد لا تصل أبداً في الوقت المناسب، لأنها تقوم بالرحلة على متن حمار، ولكنها تنفع على السواء في المساعدة بولادة طفل أو إخراج عجل من بقرة متعسرة. أما المرضى الذين في حالة حرجة، أولئك الذين لا يمكن لتعاويذ الساحرة أو لأشربة البيطري أن تشفيهم، فكان يتولى بيدرو سيغوندو غارثيا، أو أنا نفسي، نقلهم في عربة إلى مستشفى الراهبات، حيث يتواجد في بعض الأحيان طبيب مناوب يساعدهم على الموت. وكان الموتى ينتهون بعظامهم إلى مقبرة صغيرة بجوار الكنيسة المهجورة، عند سفح جبل البركان، حيث صارت توجد الآن مقبرة معتبرة. وأتمكن مرة أو مرتين في السنة من إحضار كاهن يبارك الزيجات، والحيوانات، والآلات، ويُعمِّد الأطفال ويتلو صلاة متأخرة على من ماتوا. وكانت متعنا الوحيدة تتمثل في خصي الخنازير والثيران، وصراع الديوك، ولعبة الحجلة، والقصص العجيبة التي يرويها بيدرو غارثيا العجوز، لترقد روحه بسلام. إنه أبو بيدرو غارثيا الثاني، ويقول إن جده كان قد قاتل في صفوف الوطنيين الذين طردوا الإسبان من أميركا. وكان يعلِّم الأطفال كيف يسمحون للعناكب أن تلدغهم، وتناول بول امرأة حبلى من أجل اكتساب المناعة. وكان يعرف أعشاباً كثيرة بقدر ما تعرفه المداوية تقريباً، ولكن الأمور كانت تختلط عليه عند تحديد الوصفة ويقترف بعض الأخطاء التي لا يمكن إصلاحها. ولكنني أعترف مع ذلك بأنه صاحب أسلوب لا يُعلى عليه في قلع الأضراس، أكسبه شهرة يستحقها في المنطقة كلها، وكانت طريقته مزيجاً من النبيذ الأحمر وصلاة «أبانا الذي في السماء»، تُغرق المريض في حالة من السبات. لقد قلع لي ضرساً دون أي ألم، ولو أنه بقي حياً لكان طبيب أسناني الخاص.

سرعان ما بدأت أشعر بأنني على ما يرام في الريف. أقرب جيراني إليّ كانوا يقيمون على مسافة لا بأس بها على صهوة حصان، ولكنني لم أكن أهتم بالحياة الاجتماعية، كنت أستمتع بالوحدة، فضلاً عن أنه كان لدي كثير من العمل يتوجب إنجازه. رحت أتحول إلى بريّ، صرت

أنسى الكلمات، وتقلص معجم مفرداتي، وتحولت إلى آمر نزق. ولأنني لم أكن مضطراً إلى التظاهر أمام أحد، فقد ازدادت حدة سوء الطبع التي ميزتني على الدوام. كل شيء كان يستثير سخطي، أغضب حين أرى الأطفال يحومون حول المطبخ ليسرقوا الخبز، وحين يتعالى صخب الدجاج في الفناء، وعندما تنقض عصافير الدوري على حقول الذرة. وعندما يبدأ تعكر المزاج بمضايقتي وأشعر بعدم الراحة داخل جلدي، أخرج إلى الصيد. أستيقظ قبل الفجر بوقت طويل وأنطلق ببندقية على كتفي، ومعي جرابي وكلبي المدرب على صيد الحجل. كنت أحب ركوب الخيل في الظلام، وبرودة الفجر، والترصد الطويل في الظل، والصمت، ورائحة البارود والدم، والإحساس بارتداد عقب السلاح على كتفي بضربة قوية، ورؤية الطريدة تتخبط محركة قوائمها. كان ذلك كله يهدئني، وعندما أعود من جولة صيد وفي جرابي أربعة أرانب بائسة وبضعة طيور حجل مخردقة جداً بحيث لا تصلح للطهو، وأكون شبه ميت من التعب ومغطى بالوحل، أشعر بالراحة والسعادة.

حين أفكر في تلك الأزمنة، ينتابني حزن عظيم. لقد انقضت حياتي بسرعة كبيرة. وإذا ما أتيح لي البدء من جديد، هناك أخطاء لن أقترفها، ولكنني على العموم غير نادم على شيء. أجل، لقد كنت مالكاً طيباً، وهذا أمر لا شك فيه.

في الشهور الأولى كان استيبان تروييا مشغولاً بشق قنوات الماء، وحفر الآبار، واقتلاع الصخور، وتنظيف المراعي، وإصلاح الحظائر والإسطبلات، إلى حدّ لم يجد معه الوقت للتفكير في أي شيء آخر. كان ينام مستنفد القوى ويستيقظ مع الفجر، فيتناول فطوراً متقشفاً في المطبخ وينطلق على حصانه ليتابع الأعمال في الحقول. ولا يرجع حتى الغروب. وفي هذا الوقت يتناول وجبته اليومية الكاملة، وحيداً في غرفة الطعام في المنزل. في الشهور الأولى صمم على الاستحمام واستبدال ملابسه يومياً في موعد العشاء، مثلما سمع أن المستعمرين الإنكليز يفعلون في القرى الآسيوية والأفريقية النائية، كيلا يفقدوا الوقار والهيبة.

كان يرتدي أفضل ملابسه، ويحلق ذقنه، ويضع في الغراموفون كل ليلة المقطوعات نفسها من أوبراته المفضلة. ولكنه راح يستسلم للخشونة شيئاً فشيئاً، وتقبل أنه ليست لديه ميول إلى التأنق، لاسيما إذا لم يكن هناك من يمكنه إبداء التقدير للجهد المبذول. فتخلى عن حلاقة ذقنه، وصار يقص شعره عندما يصل إلى كتفيه، وواصل الاستحمام فقط لأنه عادة متجذرة لديه، ولكنه أهمل ملابسه ولياقته. بدأ بالتحول إلى همجي. وقبل أن ينام، كان يقرأ قليلاً أو يلعب الشطرنج، وقد طور مهارة التنافس مع كتاب دون اللجوء إلى الغش، وخسارة أدوار الشطرنج دون زعل. ومع ذلك، لم يكن إنهاك العمل كافياً لإخماد طبيعته المتينة والحسية. بدأ يمر بليالي سيئة، تبدو له الأغطية فيها ثقيلة جداً، والملاءات شديدة النعومة. وكان حصانه يلعب معه ألعاباً خبيثة، فيتحول فجأة إلى أنثى هائلة، إلى جبل لحم قاس ومتوحش، يواصل امتطاءه إلى أن تُطحن عظامه. وتبدو له شمامات البستان الدافئة العطرة نهودَ امرأة، ويفاجئ نفسه وهو يدفن وجهه في غطاء مطيته بحثاً عن رائحة العرق البهيمي، وعن الشبه بينها وبين ذلك العبق النائي والمحظور الذي كان يفوح من أولى عاهراته. وفي الليل، يحتدم في كوابيس محارات متعفنة، وأفخاذ ضخمة من لحم بقرة، ودم، ومني، ودموع. فيستيقظ متوتراً وعضوه منتصب كالحديد بين ساقيه، ويكون أشد هياجاً من أي وقت آخر. ولكي يخفف عن نفسه، يهرع ليغطس عارياً في النهر، ويغوص في المياه الجليدية إلى أن يفقد أنفاسه، ولكنه يتخيل عندئذ أنه يحس بأيد غير مرئية تداعب ساقيه. يستسلم مهزوماً للطفو على غير هدى، فيشعر بأن التيار يحتضنه، وأن شراغيف ضفادع تقبله، وأن قصب الضفة يجلده. وبعد وقت قصير صارت حاجته الطاغية ظاهرة، لا يخمدها الغطس الليلي في النهر، ولا مغلى القرفة، ولا وضع حجر قدح تحت الفراش، ولا الممارسات اليدوية المخجلة التي كانت تسبب الجنون للصبية أيام المدرسة الداخلية، وتصيبهم بالعمى وتخضعهم إلى الهلاك الأبدي. عندما بدأ ينظر بعينين شبقتين إلى طيور الزريبة، وإلى الأطفال الذين يلعبون عراة، وحتى إلى عجين الخبز، أدرك أن فحولته لن تهدأ ببدائل من تلك التي يلجأ إليها مساعد

الكاهن. وأشار إليه حسه العملي إلى وجوب البحث عن امرأة، وما إن اتخذ القرار حتى هدأت اللهفة التي كانت تنهشه، وبدا كما لو أن سعاره قد استكان. وفي ذلك اليوم استيقظ باسماً لأول مرة منذ زمن طويل.

رآه بيدرو غارثيا العجوز يخرج وهو يصفر في طريقة إلى الإسطبل، فهز رأسه قلقاً.

أمضى السيد النهار مشغولاً بحراثة حقل كان قد أنهى تنظيفه من الأحجار وخصصه لزراعة الذرة. وذهب بعد ذلك مع بيدرو غارثيا الثاني لمساعدة بقرة تحاول الوضع، وكان عجلها في وضع غير سوي. اضطر إلى إدخال ذراعه حتى المرفق ليقلب العجل الوليد ويساعده في إخراج رأسه. البقرة ماتت على أي حال، ولكن ذلك لم يعكر مزاجه. أمر بتغذية العجل بزجاجة رضاعة، واغتسل بدلو ماء وعاود امتطاء حصانه. كان ذلك هو موعد طعامه المعهود، ولكنه لم يكن جائعاً. ولم يكن لديه شيء مستعجل، لأنه قد قرر ما سيفعله.

لقد رأى الفتاة مرات عديدة وهي تحمل على خاصرتها أخاها الرضيع، وعلى ظهرها كيس، أو جرة من ماء البئر على رأسها. وكان قد راقبها وهي تغسل الملابس، منحنية على أحجار النهر الملساء، بساقيها السمراوين اللتين صقلهما الماء، وتدعك الأسمال حائلة الألوان بيديّ الفلاحة الخشنتين. كانت طويلة القامة وذات وجه شبه هندي، بارزة التقاطيع وغامقة البشرة، لها ملامح هادئة وعذبة، وفمها الواسع الممتلئ مازال يحتفظ بأسنانه كلها، يشع ضوءاً حين تبتسم، ولكنها قلما تفعل ذلك. كانت في جمال مرحلة شبابها الأول، وإن كان بإمكانه رؤية أنها ستذوي عما قريب، مثلما يحدث للنساء اللاتي ولدن لإنجاب أبناء كثيرين، والعمل دون راحة، ودفن موتاهن. كان اسمها بانتشا غارثيا، وكانت في الخامسة عشرة من عمرها.

عندما خرج استيبان تروييا بحثاً عنها كان المساء يميل نحو الغروب، وصار الجو أكثر برودة. ذرع على حصانه الدروب الطويلة المحفوفة بالأشجار والفاصلة بين الحقول وهو يسأل المارين عنها إلى أن رآها على الدرب المؤدي إلى كوخها. كانت تمشي منحنية الظهر تحت ثقل حزمة

الحطب الشوكي من أجل موقد المطبخ، بلا حذاء، ومطرقة رأسها. نظر إليه من علياء حصانه وأحس على الفور بإلحاح الشهوة التي تضايقه منذ شهور طويلة. اقترب خبباً حتى توقف بجانبها، وقد سمعته، ولكنها واصلت المشي دون النظر إليه، حسب العادة القديمة المتوارثة بين جميع نساء سلالتها بخفض الرأس أمام الرجل. انحنى استيبان وانتزع منها حزمة الحطب وأبقاها معلقة في الهواء للحظة ثم ألقى بها بعنف على الطريق، طوق خصر الفتاة بذراعه ورفعها بلهاث بهيمي، أجلسها أمامه على السرج دون أن تبدي أية مقاومة. همز الحصان وانطلقا عدواً باتجاه النهر. ترجلا دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وقدر كل منهما الآخر بعينيه. حلّ استيبان الحزام الجلدي العريض، فتراجعت الفتاة، ولكنه أمسك بها بحركة سريعة من يده. وسقطا متعانقين بين أوراق الأوكاليبتوس.

لم يخلع استيبان ملابسه. ضاجعها بضراوة متوغلاً فيها دون مقدمات، بوحشية غير مجدية. وانتبه متأخراً جداً ـ حين رأى لطخات الدم على ثوبها ـ أن الفتاة كانت عذراء، غير أن مكانة بانتشا المتواضعة وضغوط شهوته الملحة، لم تتيحا له التروي. لم تدافع بانتشا غارثيا عن نفسها، لم تتذمر، لم تغمض عينيها. ظلت مستلقية على ظهرها، تنظر إلى السماء بملامح مذعورة، إلى أن أحست بالرجل ينهار متأوهاً إلى جانبها. عندئذ بدأت تبكي بنعومة. فأمها من قبلها، وجدتها قبل أمها، لقيتا مصير الكلبات نفسه. سوّى استيبان تروبيا بنطاله، وأطبق حزامه، وساعدها على النهوض وأجلسها على ردف حصانه. انطلقا عائدين. كان يصفر. وواصلت هي البكاء. وقبل أن يتركها السيد عند كوخها، قبّلها من فمها.

ـ أريدك أن تأتي منذ الغد للعمل في البيت ـ قال.

وافقت بانتشا دون أن ترفع بصرها. فأمها وجدتها أيضاً خدمتا في بيت السيد.

في تلك الليلة نام استيبان تروبيا كأحد المباركين، دون أن يحلم بروسا. وأحس في الصباح بأنه مفعم بالنشاط، وأنه أكثر عظمة وقوة. ذهب إلى الحقول مترنماً، وعند عودته كانت بانتشا في المطبخ، منهمكة في تحريك المهلبية في قدر نحاسية كبيرة. انتظرها تلك الليلة

بجزع، وعندما هدأت الضجة المنزلية في الدارة القديمة وبدأت حركة الجرذان الليلية، أحس بوجود الفتاة عند باب حجرته.

- تعالي يا بانتشيتا - استدعاها. لم يكن صوته آمراً، بل أقرب إلى التوسل.

في هذه المرة منحِ استيبان نفسه الوقت ليستمتع ويجعلها تستمتع. جابها بطمأنينة، حافظاً عن ظهر قلب رائحة جسدها الرطبة، وملابسها المغسولة بالرماد والمكوية بمكواة فحم، تعرف على نسيج شعرها الأسود والسبط، وبشرتها الناعمة في أشد الأماكن حميمية والخشنة القاسية في الأمكنة المكشوفة، وشفتيها الطازجتين، وعضوها الهادئ، وبطنها الفسيح. اشتهاها بهدوء ولقنها أشد العلوم سرية وقِدماً. ربما كان سعيداً في تلك الليلة وبعض الليالي الأخرى، وهما يتقلبان كجروين على السرير الحديدي الكبير الذي كان لرأس سلالة ترويبا الأول وقد صار شبه أفكح الآن، لكنه مازال قادراً على تحمّل اندفاعات الحب.

كبر نهدا بانتشا غارثيا وتكور ردفاها. وفارق تعكر المزاج استيبان ترويبا لبعض الوقت وبدأ يهتم بفلاحيه. زارهم في أكواخهم البائسة. وفي عتمة أحد تلك الأكواخ اكتشف وجود صندوق محشو بأوراق جرائد يتقاسم النوم فيه طفل رضيع وكلبه نفساء. ورأى في كوخ آخر امرأة مسنة تحتضر منذ أربع سنوات وعظامها ظاهرة من قروح في ظهرها. وفي فناء أحد الأكواخ وجد مراهقاً أبله يريل، حول عنقه حبل مربوط إلى عمود، يتكلم أشياء عن عوالم أخرى، وكان عارياً تماماً وله عضو بغل يحكه دون كلل بالأرض. وأدرك أول مرة أن أسوأ إهمال ليس ذاك الذي حلّ بالأراضي والبهائم، وإنما الإهمال الذي حاق بسكان الماريات الثلاث الذين عاشوا مهجورين منذ الزمن الذي قامر فيه أبوه بدوطة أمه وميراثها. وقرر أن الوقت قد حان لحمل قليل من الحضارة إلى ذلك الركن المنسي بين سلسلة الجبال والبحر.

بدأت في الماريات الثلاثة حمى نشاط هز سباتها. فقد جعل استيبان ترويبا الفلاحين يعملون مثلما لم يعملوا من قبل. فكل رجل وامرأة وشيخ

وطفل قادر على الوقوف على قدميه، استخدمه السيد المتلهف لأن يستعيد خلال شهور سنواتٍ من الإهمال. أمر ببناء مستودع حبوب ومستودعات مؤن لحفظ الأغذية للشتاء، وتمليح لحم الحصان وتدخين لحم الخنزير، وجعل النساء يصنعن حلويات وفواكه محفوظة. حدّث ورشة تصنيع الألبان التي كانت مجرد عنبر يملؤه الروث والذباب، وأجبر الأبقار على إنتاج كميات كافية من الحليب. بدأ ببناء مدرسة مؤلفة من ست قاعات درس، لأنه يطمح إلى تعلم جميع الأطفال والكبار في الماريات الثلاث القراءة والكتابة والحساب، وإن كان غير مؤيد لاكتسابهم معارف أخرى، كيلا تُملأ رؤوسهم بأفكار غير ملائمة لحالتهم ووضعهم. ولكنه لم يجد مع ذلك أستاذاً يرغب في العمل في تلك الأماكن النائية، وحيال صعوبة اجتذاب الصغار بتهديدهم بالجلد وإغرائهم بالسكاكر من أجل محو أميتهم بنفسه، تخلى عن ذلك الوهم وحوّل المدرسة لاستخدامات أخرى. كانت أخته فيرولا ترسل إليه من العاصمة الكتب التي يوصي عليها. وهي كتب أدبيات عملية. وقد تعلم من خلالها حقن الإبر بالتدرب في ساقيه، وصنع جهاز استقبال يعمل بسولفورات الرصاص. وأنفق أرباحه الأولى على شراء أقمشة خشنة وآلة خياطة، وعلبة أقراص أدوية تجانسية مع كتيب تعليمات باستخدامها، وموسوعة، وشحنة من كتب الهجاء، ودفاتر وأقلام رصاص. وداعبته فكرة إقامة مطعم يمكن لجميع الأطفال أن يتلقوا فيه وجبة طعام كاملة كل يوم، كي ينموا أقوياء وأصحاء ويتمكنوا من العمل منذ الصغر، لكنه أدرك أنه من الجنون إجبار الأطفال على المجيء من كافة أرجاء الإقطاعية من أجل طبق من الطعام، فتحول عن المشروع إلى ورشة للخياطة. كان على بانتشا غارثيا أن تتولى حلّ أسرار آلة الخياطة. ظنت في البدء أنها إحدى أدوات الشيطان، وأن لها حياتها الخاصة، ورفضت الاقتراب منها، ولكنه أصر عليها حتى انتهى بها الأمر إلى السيطرة على الآلة. أقام تروبيا دكاناً، عبارة عن متجر متواضع يمكن للفلاحين أن يشتروا منه ما يحتاجونه دون الحاجة للذهاب في عربة إلى سان لوكاس. كان المالك يشتري السلع بالجملة ويعيد بيعها بالسعر نفسه إلى العاملين. وفرض نظام

قسائم تمثل في البدء بنوع من القروض، وجرى استبداله مع مرور الزمن بالنقود الرسمية. وكان يمكن بتلك القسائم الوردية شراء أي شيء من المتجر، وبها كانت تُدفع الأجور. وفضلاً عن تلك القصاصات الورقية، كان لكل فلاح الحق بقطعة أرض يزرعها في وقت فراغه، وست دجاجات لكل أسرة في السنة، وحصة من البذور، وجزء من المحصول تغطي نفقاته، وخبز وحليب لكل يوم، وخمسين بيزو توزع في عيد الميلاد ويوم العيد الوطني على الرجال. أما النساء فلا يتمتعن بهذه المنفعة، حتى لو كنّ يعملن بندية مع الرجال، لأنهن لا يُعتبرن أرباب عائلات، باستثناء الأرامل منهن. أما صابون الاغتسال، وصوف الحياكة، وشراب تقوية الرئتين، فكانت توزع مجاناً، لأن تروبيا لا يريد حوله أناساً قذرين أو يعانون البرد أو مرضى. في أحد الأيام قرأ في الموسوعة عن منافع الوجبات المتوازنة فبدأ هوسه بالفيتامينات الذي سيستمر مدى الحياة. وكان يستشيط غضباً كلما تبين له أن الفلاحين يطعمون أبناءهم الخبز فقط، ويغذون الخنازير بالحليب والبيض. بدأ يعقد اجتماعات إجبارية في المدرسة ليحدثهم عن الفيتامينات، ويطلعهم بصورة عابرة على الأخبار التي يتمكن من التقاطها على موجات مذياع سولفور الرصاص المتقطعة. وسرعان ما أضجره تتبع موجات الأثير بوساطة سلك، فأوصى على مذياع عابر للمحيطات، من العاصمة، مزود ببطاريتين ضخمتين، يستطيع به التقاط بعض الرسائل المتماسكة، وسط صخب باعث على الصمم من أصوات ما وراء البحار. هكذا علم بأمر الحرب في أوروبا وتابع تقدم الجيوش على خريطة علقها على سبورة المدرسة وراح يؤشّر عليها بدبابيس. كان الفلاحون يراقبونه مذهولين، دون أن يفهموا ولو بصورة نائية الهدف من غرس دبوس أزرق ثم استبداله في اليوم التالي بآخر أخضر اللون. ما كان بإمكانهم تخيل العالم بحجم قطعة ورق معلقة على السبورة، ولا تخيل الجيوش مختصرة في رأس دبوس. والحقيقة أن الحرب، واختراعات العلم، وتقدم الصناعة، وسعر الذهب وشطط تقليعات الموضة، لم تكن تستدعي اهتمامهم. إنها حكايات جنيات لا يمكن لها بأي حال أن تبدل ضيق حياتهم. فأخبار المذياع بالنسبة لأولئك المستمعين كانت بعيدة

وغريبة، وسرعان ما فقد ذلك الجهاز سمعته عندما اتضح أنه عاجز عن التنبؤ بأحوال المناخ. والشخص الوحيد الذي أبدى اهتماماً بالرسائل الآتية عبر الأثير هو بيدرو غارثيا الثاني.

لقد شاطره استيبان تروييا ساعات طويلة من وقته، إلى جانب مذياع سولفورات الرصاص أولاً، ثم المذياع ذي البطارية بعد ذلك، بانتظار معجزة صوت مجهول وبعيد يضعهما على اتصال مع الحضارة. ولكن ذلك لم يقرب أحدهما من الآخر. كان تروييا يعرف أن ذلك الفلاح الجلف أكثر ذكاء من الآخرين. فهو الوحيد الذي يعرف القراءة والقادر على الخوض في محادثة تزيد على ثلاث جُمل. وكان بالنسبة لتروييا الشخص الوحيد شبه الصديق في دائرة قطرها مئة كيلومتر، لكن كبرياءه المتضخم يمنعه من الاعتراف له بأي فضيلة، باستثناء تلك الصفات الخاصة بوضعه كعامل ريفي جيد. ولم يكن مؤيداً كذلك للألفة مع مرؤوسيه. وكان بيدرو الثاني من جانبه يكرهه، مع أنه لم يضع قط تسمية لذلك الشعور المضطرب الذي يؤجج روحه ويملأه بالتشوش. لقد كان مزيجاً من الخوف وضغينة الإعجاب. وكان يهجس بأنه لن يتجرأ على مواجهته أبداً، لأنه السيد المالك. عليه أن يتحمل نوبات غضبه، وأوامره الرعناء، وسلطته الكلية طوال ما تبقى من حياته. خلال سنوات إهمال الماريات الثلاث وهجرها، كان هو نفسه من تولى بصورة طبيعية قيادة القبيلة الصغيرة التي ظلت تعيش في تلك الأراضي المنسية. لقد اعتاد على أن يكون محل احترام، يصدر الأوامر، ويتخذ القرارات، وعلى ألا يكون فوق رأسه سوى السماء. وقد بدّل مجيء السيد المالك حياته، ولكنه لا يستطيع إلا الإقرار بأنهم يعيشون الآن حياة أفضل، وأنهم لا يجوعون، وأنهم يتمتعون بقدر أكبر من الحماية والأمن. لقد خُيل لتروييا في بعض الأحيان أنه يلمح في عينيه وميضاً قاتلاً، ولكنه لم يستطع توبيخه على وقاحة قطّ. فقد كان بيدرو الثاني يطيع دون أن ينبس ببنت شفه، ويعمل دون تذمر، وكان نزيهاً ويبدو وفياً. وإذا ما رأى أخته بانتشا على شرفة منزل السيد تتحرك بتثاقل أنثى راضية، يحني رأسه ويحتفظ بالصمت.

كانت بانتشا غارثيا فتية، وكان السيد قوياً. وبدأت النتيجة المتوقعة

لتواصلهما تُلحظ بعد شهور قليلة. أوردة ساقي الفتاة برزت مثل ديدان على بشرتها السمراء، وصارت حركتها بطيئة ونظرتها نائية، وفقدت اهتمامها بالتقلبات البهيجة على السرير الحديدي، وسرعان ما اتسعت استدارة حصرها وتهدل ثدياها بثقل حياة جديدة تنمو في أحشائها. تأخر استيبان طويلاً في ملاحظة ذلك، لأنه يكاد لا ينظر إليها، ولا يداعبها كذلك بعد انقضاء حماسة اللحظات الأولى. كان يكتفي باستخدامها كوسيلة صحية تخفف من توتر النهار، وتوفر له ليلاً بلا أحلام. ولكن جاء الوقت الذي صار فيه حبَل بانتشا واضحاً حتى له هو نفسه. نفر منها. بدأ يراها كوعاء ضخم يحتوي مادة هلامية بلا قوام، لا يمكن له الاعتراف بأن تلك المادة هي ابنه. غادرت بانتشا بيت السيد وعادت إلى كوخ أبويها، حيث لم يسألها أحد شيئاً. واصلت العمل في مطبخ بيت المالك، وكانت تعجن من أجل الخبز وتخيط على آلة الخياطة، وفي كل يوم تزيدها الأمومة تشوهاً. توقفت عن خدمة استيبان على المائدة وتجنبت اللقاء به، لأنه لم يعد هناك ما يتقاسمانه معاً. وبعد أسبوع من مغادرتها فراشه، عاد إلى الحلم بروسا واستيقظ ليجد الملاءات مبللة. تطلع من النافذة ورأى طفلة نحيلة تنشر على سلكٍ ملابس مفسولة للتو. بدا أن عمرها لا يزيد على الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ولكنها كانت كاملة النمو. وفي تلك اللحظة التفتت ونظرت إليه: كانت لها نظرة امرأة.

رأى بيدرو غارثيا السيد يخرج صافراً وهو يتوجه نحو الاسطبل، فهز رأسه بقلق.

خلال السنوات العشر التالية، تحول استيبان تروبيا إلى أكثر السادة المالكين احتراماً في المنطقة، شيد بيوتاً من الآجر لعماله، وتمكن من إحضار معلم للمدرسة، وارتفع مستوى حياة الجميع في أراضيه. لقد كانت الماريات الثلاث تجارة رابحة لا تحتاج إلى مساعدة عرق الذهب المنجمي، بل شكلت، على العكس من ذلك، ضمانة لتمديد امتياز المنجم. تحول سوء طباع تروبيا إلى أسطورة، وازدادت حدتها إلى أن صارت تزعجه هو نفسه. فلم يكن يتحمل أن يرد عليه أحد ولا يتسامح مع أي

معارضة، ويعتبر أدنى اختلاف معه في الرأي استفزازاً. وازدادت أيضاً حدة شهوانيته. فلا تنتقل فتاة من سن المراهقة إلى البلوغ إلا ويكون قد جعلها تجرب الغابة، أو ضفة النهر، أو السرير الحديدي. وعندما لم تعد تتوافر نساء في الماريات الثلاث، انهمك في ملاحقة نساء الإقطاعيات الأخرى، يغتصبهن بطرفة عين في أي مكان من الحقول، وعند الغروب عموماً. ولم يكن يهتم بأن يكون ذلك في الخفاء، لأنه لا يخشى أحداً. وفي بعض الأحيان، كان يأتي إلى الماريات الثلاث أخٌ أو أبٌ أو زوجٌ، أو مالك آخر لتصفية الحساب معه، ولكن زيارات المطالبة بالعدل أو الثأر تلك راحت تقل أكثر فأكثر بسبب عنفه الجامح. لقد انتشرت شهرة شراسته في المنطقة كلها، وكانت تستثير إعجاب الحسد بين رجال طبقته. وكان الفلاحون يخبئون بناتهم ويضغطون قبضاتهم دون جدوى، لأنهم غير قادرين على مواجهته. فاستيبان تروييا أقوى منهم، فضلاً عن أنه يتمتع بالحصانة. لقد ظهرت في مناسبتين اثنتين جثتي فلاحين من مزارع أخرى اخترقتهما طلقات بندقية صيد ولم يخامر الشك أحداً في أنه يتوجب البحث عن الجاني في الماريات الثلاث، لكن الدرك الريفيين اقتصروا على تسجيل الحدث في ملفاتهم، بخط أشباه الأميين المتكلف، مع إضافة أنه تمت مباغتة المذكورين يقومان بالسرقة. ولم يتجاوز الأمر ذلك. وواصل تروييا توسيع سمعته كمغتصب فتيات، مالئاً المنطقة بأبناء الزنى، حاصداً الكراهية، ومكدساً ذنوباً لا تقض مضجعه، لأن روحه تمرست، وضميره أُخمد بذريعة التقدم. وعبثاً كان بيدرو الثاني غارثيا وكاهن مستشفى الراهبات العجوز يحاولان الإيحاء له بأن بيوت الآجر أو لترات الحليب ليست هي التي تجعل من المالك سيداً جيداً، أو مسيحياً طيباً، وإنما تقديم أجور محترمة للناس بدل قصاصات الورق الوردية، وتشغيلهم ساعات عمل لا تقصم ظهورهم، ومعاملتهم بشيء من الاحترام والكرامة. ولكن تروييا لم يكن يرغب في سماع أي حديث عن الأشياء التي تفوح منها، حسب رأيه، رائحة الشيوعية.

- إنها أفكار منحطة - كان يغمغم - أفكار بولشيفية لدفع فلاحيَّ إلى التمرد عليّ. فهم لا يدركون أنه ليس لدى هؤلاء الناس الفقراء ثقافة

ولا تربية، ولا يستطيعون تحمل المسؤولية... إنهم أطفال. كيف يمكن لهم أن يعرفون ما يناسبهم؟ سوف يضيعون من دوني، والدليل على ذلك أنني ما إن أدير وجهي عنهم حتى يخرب كل شيء، ويبدؤون باقتراف الحماقات. إنهم جاهلون جداً. أناسي هؤلاء طيبون، ماذا يريدون أكثر؟ لا ينقصهم شيء. وإذا كانوا يتذمرون، فما ذلك إلا محض جحود. لديهم بيوت من الآجر، وأنا أهتم بتنظيف مخاط أبنائهم وتخليصهم من الطفيليات، وإحضار اللقاحات لهم وتعليمهم القراءة. هل توجد إقطاعية أخرى هنا لديها مدرستها الخاصة؟ لا!! وأجيء لهم بالكاهن كلما استطعت كي يقيم لهم بعض القداديس، ولهذا لا أدري لماذا يأتي الكاهن ليحدثني عن العدالة. عليه ألا يتدخل في ما لا يعرفه ولا يخصه. أرغب في رؤيته يتولى مسؤولية هذه الملكية! ولنرَ عندئذ كيف سيتصرف بتكلف. فمع هؤلاء الأبالسة المساكين لا وجود لأسلوب إلا استخدام القبضة القوية، إنها اللغة الوحيدة التي يفهمونها. فإذا ما ضعف أحدنا، لن يحترموه. لستُ أنكر أنني كنت قاسياً جداً في أحيان كثيرة، ولكنني كنت عادلاً على الدوام. لقد اضطررت إلى تعليمهم كل شيء، حتى الأكل، لأنه لو تُرك الأمر لهم لاكتفوا بأكل الخبز الحاف. وإذا ما سهوت عنهم، أجدهم يقدمون الحليب والبيض للخنازير. أيطالبون بالحق في التصويت وهم لا يعرفون كيف ينظفون مؤخراتهم! إذا كانوا لا يعرفون أين هم، فكيف سيعرفون شؤون السياسة؟ لن يتورعوا عن التصويت للشيوعيين، مثلما يفعل عمال مناجم الشمال الذين يلحقون بإضراباتهم الضرر بالبلاد كلها، ويفعلون ذلك كله في الوقت الذي تصل فيه أسعار المعادن إلى ذروتها. لو أن الأمر بيدي لأرسلت قوات الجيش إلى الشمال لإطلاق النار عليهم، لعلهم يفهمون عندئذ مرة واحدة وإلى الأبد. من المؤسف أن الهراوة هي الوسيلة الوحيدة الناجعة في هذه البلاد. لسنا في أوربا. ما نحن بحاجة إليه هنا هو حكومة قوية، رب عمل قوي. سيكون من البديع لو أننا جميعنا متساوين، ولكننا لسنا كذلك. وهذا أمر ظاهر للعيان. فالوحيد الذي يعرف العمل هنا هو أنا، وأتحداكم أن تثبتوا لي العكس. فأنا أول من يستيقظ وآخر من ينام في هذه الأرض اللعينة. ولو كان الأمر

بيدي لألقيت بهذا كله إلى الجحيم وذهبت للعيش كأمير في العاصمة، ولكن عليّ أن أظل هنا، لأنني إذا تغيبت لأسبوع واحد، سينهار هذا كله وسيبدأ هؤلاء التعساء الموت جوعاً. تذكروا كيف كان المكان عند مجيئي قبل تسع أو عشر سنوات: خراب. مجرد قفر صخور ونسور رخمة. أراض مهملة. كانت الحقول كلها مهجورة. لم يخطر لأحد أن يشق قنوات الماء. كانوا يكتفون بزراعة أربع خسات قذرة في فناء أكواخهم وتركوا ما تبقى كله يغرق في البؤس. كان لابد من مجيئي ليسود هنا النظام والقانون والعمل. كيف لا أكون فخوراً؟ لقد اشتغلت جيداً، وهاأنذا قد اشتريت الإقطاعيتين المجاورتين وصارت هذه الملكية هي الأكبر والأغنى في المنطقة كلها، إنها محط حسد الجميع، إقطاعية مثالية، نموذجية. وقد تضاعف ثمنها الآن، بعد أن مرّ الطريق العام بجانبها، ولو رغبت في بيعها لأمكنني الذهاب إلى أوروبا والعيش من دخل أموالي، ولكنني لن أذهب،سأبقى هنا غارقاً في إنهاك نفسي. إنني أفعل ذلك من أجل هؤلاء الناس. فمن دوني سيضيعون. وإذا تعمقنا في الأمور، فإنهم لا ينفعون حتى في توصيل طلبية. لقد قلت ذلك على الدوام: إنهم كالأطفال. لا وجود بينهم لمن يستطيع أن يفعل ما يتوجب عليه فعله دون أن أكون أنا خلفه أحثه. ثم يأتونني بعد ذلك بحكاية أننا جميعنا متساوون! هذا كلام يُميتني من الضحك، يا للعنة...

اعتاد أن يرسل إلى أمه وأخته صناديق فاكهة، ولحماً مملحاً، وأفخاذ خنزير مدخنة، وبيضاً طازجاً، ودجاجاً حياً أو مملحاً، ودقيقاً، وأكياس رز وحبوب، وأجباناً ريفية، وكل ما يمكن أن تحتاجاه من نقود، كيلا ينقصهما المال. بدأت الماريات الثلاث والمنجم بالإنتاج كما يجب للمرة الأولى منذ وضعهما الرب على هذا الكوكب، مثلما كان يحب القول لكل من يسمعه. كان يقدم للسيدة إستير وفيرولا ما لم تطمحا في الحصول عليه قطّ، ولكنه لم يجد الوقت خلال كل تلك السنوات للذهاب لزيارتهما، ولو زيارة عابرة في أثناء إحدى رحلاته إلى الشمال. كان مشغولاً جداً في الريف، في الأراضي الجديدة التي اشتراها، وفي صفقات أخرى بدأ الانقضاض عليها، بحيث لم يكن

بإمكانه إضاعة الوقت إلى جوار امرأة مريضة. أضف على ذلك أن هناك البريد الذي يبقيهم على اتصال، والقطار الذي يتيح له إرسال كل ما يريده. لم يكن بحاجة لرؤيتهما. ويمكن له أن يقول لهما كل شيء في رسالة. كل شيء باستثناء ما لا يريد أن تعرفاه، مثل قطيع أبناء الزنى الذين بدؤوا يولدون كما في فنون السحر. يكفي أن يبطح فتاة في الحقل حتى تحبل على الفور. لقد كان أمراً شيطانياً، لأن كل تلك الخصوبة تبدو غير معقولة، وكان واثقاً من أن نصف أولئك المواليد ليسوا منه. ولهذا قرر أنه باستثناء ابن بانتشا غارثيا الذي سُمي استيبان مثله، والذي لا شك في أن أمه كانت عذراء عندما ضاجعها، فإنه يمكن للآخرين ان يكونوا ابناءه ويمكن الا يكونوا، ومن الأفضل التفكير على الدوام في أنهم ليسوا كذلك. وعندما كانت تأتي إلى بيته امرأة تحمل بين ذراعيها طفلاً مطالبة أن يمنحه اسمه أو مساعدة ما، كان يضع في يدها ورقتين نقديتين ويطردها متوعداً إياها إذا رجعت بإبعادها بالسوط، وإفقادها الرغبة في فتح ساقيها لعضو أول رجل تقابله، والمجيء بعد ذلك لاتهامه هو. ولهذا لم يعرف قط العدد الدقيق لأبنائه، والحقيقة أن معرفة ذلك لم تكن تهمه. كان يفكر في أنه عندما يرغب في أن يكون له أبناء، سيبحث عن زوجة من طبقته، ويتزوج بمباركة الكنيسة، لأن الأبناء الوحيدين الذين يُحسبون هم من يحملون لقب الأب، أما الآخرون فكما لو أنهم غير موجودين. ولا يريد من أحد أن يأتيه ببلاهة أنهم جميعهم يولدون بالحقوق نفسها ويرثون بالتساوي، لأن كل شيء في هذه الحالة سيذهب إلى الجحيم وتعود الحضارة إلى العصر الحجري. كان يتذكر نيفيا، والدة روسا، التي بدأت حملتها السياسية بعد تخلي زوجها عن السياسة مرعوباً من دمجانة الخمر المسموم. فقد كانت تُقيّد نفسها مع سيدات أخريات على أسوار الكونغرس والمحكمة العليا، في مشهد مخجل يُلحق السخرية بأزواجهن. كان يعرف أن نيفيا تخرج في الليل لإلصاق إعلانات حول حق الاقتراع على جدران المدينة، وأنها لا تتورع عن التجوال في مركز المدينة في وضح النهار يوم الأحد، حاملة مكنسة في يدها وعلى رأسها قلنسوة، مطالبة بأن تنال النساء مثل

حقوق الرجال، وأن يتمكنّ من التصويت ودخول الجامعة، ومطالبة أيضاً بأن يتمتع جميع الأبناء بحماية القانون، حتى لو كانوا أبناء زنى.

- هذه السيدة مصابة بخلل في رأسها! - كان تروبيا يقول -. فما تدعو إليه مناقض للطبيعة. إذا كانت النساء لا يعرفن جمع اثنين زائد اثنين، فكيف سيستطعن إمساك مبضع جرّاح. مهمتهن هي الأمومة، والبيت. لأنهن إذا تابعن في ذلك الطريق، فسوف يصبحن في أي يوم برلمانيات، وقضاة، وحتى رئيس جمهورية! وفي أثناء ذلك يُحدثن اضطراباً وفوضى يمكن أن ينتهي بكارثة. فهن ينشرن مطبوعات هجائية غير محتشمة، ويتكلمن عبر الإذاعة، ويقيدن أنفسهن في أماكن عامة فتضطر الشرطة إلى الذهاب مع حداد ليقص الأقفال كي تعتقلهن، وهو ما يجب ان ينلنه. والمؤسف أن هناك على الدوام زوجاً صاحب نفوذ، أو قاضياً ضعيف البريق أو برلمانياً ذا أفكار تمردية يطلق سراحهن... القبضة القوية هي ما نحتاج إليه أيضاً في هذه الحالة!

انتهت الحرب في أوروبا، وعربات القطارات الممتلئة بالموتى صارت أنّة نائية، ولكنها لم تتطفئ تماماً. ومن هناك كانت تصل الأفكار الهدامة تحملها رياح المذياع والتلغراف التي لا يمكن كبحها، والسفن المحملة بمهاجرين ينزلون كحشد ذاهل، هارب من جوع أرضه التي اجتاحها دوي القنابل وموتى يتعفنون في أثلام الفلاحة. كانت سنة انتخابات رئاسية وقلق من التحولات التي تتخذها الأحداث. وكانت البلاد تستيقظ. وبدأت موجة الاستياء التي تهز الشعب تلطم بنيان ذلك المجتمع الأوليغاركي. وحلت بالريف نكبات من كل نوع: جفاف، جائحة حلزونات، حمى قلاعية. وهناك في الشمال طرد للعمال من أعمالهم، ورأس المال يشعر بآثار الحرب البعيدة. كان عام بؤس، وكان حدوث زلزال هو الشيء الوحيد الذي ينقص كي تكتمل المصيبة.

ومع ذلك، لم تتنبه الطبقة الراقية، سيدة السلطة والثروة، إلى الخطر الذي يهدد توازن وضعها الهش. فكان الأثرياء يلهون برقص الشارلستون، وإيقاعات موسيقى الجاز الجديدة، والفوكس- تروت ورقصات زنوج عجيبة في عدم الاحتشام. استؤنفت الرحلات في السفن إلى أوروبا، بعد

توقفها خلال أربع سنوات الحرب، وشاعت رحلات أخرى إلى أميركا الشمالية. وجاء حدث لعبة الغولف المستجدة، حيث تجتمع صفوة المجتمع لضرب كرة صغيرة بعصا، مثلما كان يفعل هنود تلك الأراضي نفسها قبل مئتي عام. وصارت السيدات يضعن عقود لآلئ مزيفة تصل حتى الركبتين، وقبعات لها شكل المبولة تغطس في الرأس حتى الحاجبين، وكن قد قصصن شعورهن كالرجال، وتبرجن كالعاهرات، وتخلصن من المشدات، وصرن يدخن وهن يضعن ساقاً فوق ساق. وكان السادة مبهورين باختراع السيارات الأمريكية التي تصل إلى البلاد في الصباح وتباع كلها عند عصر اليوم نفسه، على الرغم من أنها تكلف ثروة مصغرة، وليست سوى ضجة دخان وصمولات مفلتة تندفع بسرعة انتحارية على دروب شُقت للخيول وبهائم طبيعية أخرى، وليس بأي حال لهذه الآلات الخيالية. وعلى موائد القمار كانت المراهنات تجري على الثروات الموروثة وثروات ما بعد الحرب التي تم جنيها بسهولة، وكانوا يفتحون زجاجات الشمبانيا، ووصلت صرعة الكوكايين المستجدة إلى الصفوة الأكثر تنعماً وفساداً. وبدا أنه لا نهاية لذلك الجنون الجماعي.

أما في الريف فكانت السيارات الجديدة واقعاً بعيداً كبعد الفساتين القصيرة، ومن تخلصوا من جائحة الحلزونات والحمى القلاعية سجلوا ذلك العام على أنه عام خير. كان استيبان تروبيا وإقطاعيين آخرين من المنطقة يجتمعون في نادي القرية كي يرتبوا أمور العمل السياسي قبل الانتخابات. وكان الفلاحون لا يزالون يعيشون كما في أزمنة المستعمرة، ولم يكونوا قد سمعوا شيئاً عن النقابات، ولا عن عطلة أيام الآحاد، أو عن الحد الأدنى للأجور، ولكن بدأ يتسرب إلى الإقطاعيات موفدو أحزاب اليسار الجديدة، يدخلون متنكرين كمبشرين يحملون الكتاب المقدس تحت إبط ومنشوراتهم الماركسية تحت الإبط الآخر، ويعظون في آن واحد حول حياة التقشف والموت في سبيل الثورة. وكانت ولائم غداء السادة المالكين التآمرية تنتهي بحفلات سكر رومانية أو بمصارعات ديوك، وعند الغروب يقتحمون القنديل الأحمر، حيث كانت عاهرات في الثانية عشرة من العمر، وكارميلو،

المخنث الوحيد في الماخور وفي القرية، يرقصون على أنغام فونوغراف من عصر ما قبل الطوفان، تحت نظرات صوفيا المتأهبة التي لم تعد في سن تسمح لها بتلك النطنطة، ولكنها مازالت تمتلك الطاقة لإدارة المحل بقبضة حديدية ولتحول دون دخول رجال الدرك ليستنفدوا صبرها، ودون أن يتجاوز الملاكون الحدود مع الفتيات أو مضاجعتهن دون دفع الأجر.
كانت ترانسيتو سوتو أفضل الفتيات في الرقص وأكثرهن تحملاً لاحتدام المخمورين، لم تكن تعرف التعب، ولم تتذمر من شيء قطّ، كما لو أنها تتمتع بالمزية التيبيتية بتسليم جسد مراهقتها البائس ليدي الزبون، والانتقال بروحها إلى مكان بعيد. وكان استيبان تروبيا معجباً بها لأنها لا تتكلف التصنع سواء في تجديد ممارسات الحب أو فظاظته، وتغني بصوت عصفور أبح، ولأنها قالت له ذات مرة إنها سوف تشق طريقها في الحياة وتصل إلى مكانة رفيعة، وقد وجد في كلامها طرافة مضحكة.

- لن أظل في القنديل الأحمر مدى الحياة. سأذهب إلى العاصمة، لأني أريد أن أصير ثرية - قالت.

كان استيبان يذهب إلى الماخور لأنه محل اللهو الوحيد في القرية، لكنه لم يكن رجل عاهرات. لا يروقه أن يدفع ثمن ما يمكنه الحصول عليه بوسائل أخرى. ولكنه كان يقدّر ترانسيتو سوتو مع ذلك. فالفتاة تُضحكه.

وبعد ممارسته الحب في أحد الأيام، اجتاحه إحساس بالكرم، وهو ما لم يكن حدث له أبداً، فسأل ترانسيتو سوتو إن كانت تُحب أن يقدم لها هدية.

- أقرضني خمسين بيزو أيها السيد! - طلبت منه على الفور.

- هذا مبلغ كبير. لماذا تريدينه؟

- لدفع ثمن بطاقة قطار، وشراء فستان أحمر، وحذاء عالي الكعب، وقارورة عطر كي أصير محترفة. هذا كل ما أحتاج إليه من أجل البدء. سأعيد لك المبلغ ذات يوم أيها السيد... مع فوائده.

أعطاها استيبان الخمسين بيزو لأنه كان قد باع في ذلك اليوم

خمسة عجول، وكانت جيوبه ممتلئة بالأوراق النقدية، ولأن إنهاك المتعة المُرضية أيضاً جعله عاطفياً بعض الشيء.

- الشيء الوحيد الذي يشعرني بالأسف هو أنني لن أعود لرؤيتك يا ترانسيتو. لقد اعتدتُ عليك.

- بل سنلتقي أيها السيد. فالحياة طويلة وفيها الكثير من اللف والدوران.

تلك المآدب الكبيرة في النادي، ومصارعات الديوك، وأمسيات الماخور، تمخضت عن خطة ذكية، وإن لم تكن مبتكرة بالكامل، من أجل جعل الفلاحين يصوتون. أقاموا حفلة فطائر والكثير من النبيذ، وذبحوا عدداً من رؤوس الماشية للشواء، وعزفوا لهم بعض الأغاني على الجيتار، وألقوا عليهم بعض الخطابات الوطنية، ووعدوهم بعلاوة إضافية إذا نجح المرشح المحافظ، أما إذا نجح أي مرشح آخر، فسيبقون بلا عمل. كما فرضوا رقابتهم على صناديق الاقتراع، ورشوا رجال الشرطة. أما الفلاحون فحملوهم بعد الحفلة في عربة شحن وأخذوهم للتصويت، تحت حراسة مشددة، وسط المزاح والضحك، وهي المناسبة الوحيدة التي تعاملوا معهم بألفة، من هناك يا صاحبي، اعتمد عليّ، لن أخيب ظنك، يا سيدي الصغير، كم أنا معجب يا رجل بامتلاكك هذا الشعور الوطني، وانتبه إلى أن الليبراليين والراديكاليين ليسوا سوى أنذال، أما الشيوعيون فملحدون، إنهم أبناء عاهرات، يأكلون الأطفال.

جرى كل شيء في يوم الانتخابات مثلما هو مقدر مسبقاً، وبنظام متقن. فقد ضمنت القوات المسلحة العملية الديمقراطية، وتم كل شيء بسلام، في يوم ربيعي أكثر سعادة وشمساً من سواه.

- إننا مثل يحتذى في قارة الهنود والزنوج هذه، ممن يقضون حياتهم في ثورات كي يُسقطوا دكتاتوراً وينصبوا آخر. هذا بلد مختلف، جمهورية حقيقية، لدينا كبرياء مدني، فالحزب الليبرالي يكسب هنا بنظافة ولا نحتاج إلى جنرال لفرض النظام والهدوء، لسنا مثل تلك الدكتاتوريات في المنطقة حيث يقتلون بعضهم بعضاً، بينما الغرينغيون يستولون على المواد الأولية كلها - قال تروبيا في مطعم النادي وهو يرفع كأس نخب في يده، في اللحظة التي عرف فيها بنتائج التصويت.

بعد ثلاثة أيام، وكان قد عاد إلى روتينه المعهود، وصلت رسالة فيرولا إلى الماريات الثلاث. كان استيبان تروبيا قد حلم تلك الليلة بروسا. وهو ما لم يحدث منذ زمن طويل. رآها في الحلم بشعرها الصفصافي مفلتاً على ظهرها، مثل شال نباتي يغطيها حتى الخصر، وببشرة قاسية وباردة، لها لون المرمر ونسيجه. وكانت تمضي عارية وهي تحمل حزمة بين ذراعيها، تمشي كما المشي في الحلم، مكللة ببريق الخضرة التي تطفو حول جسدها. رآها تقترب ببطء، وعندما أراد لمسها ألقت الحزمة إلى الأرض، مهشمة إياها عند قدميه. فانحنى وتناولها، رأى طفلة بلا عينين تناديه بابا. استيقظ مغموماً وأمضى الصباح كله معكر المزاج. وبسبب الحلم أحس بالقلق، قبل وقت طويل من تلقي رسالة فيرولا. دخل ليتناول فطوره في المطبخ، كما في كل يوم، ورأى دجاجة تلتقط فتات الخبز عن الأرض. وجه إليها ركلة شقت بطنها وخلفتها تحتضر في بركة من الأحشاء والريش، وهي تخفق بجناحيها وسط المطبخ. لم يهدئه ذلك، بل على العكس، فاقم من غضبه وأحس أنه آخذ بالاختناق. امتطى الحصان وانطلق لمراقبة الماشية التي يَسِمُونها. في أثناء ذلك حضر إلى البيت بيدرو غارثيا الثاني الذي ذهب إلى محطة سان لوكاس ليوصل طلبية، ومرّ بالقرية لإحضار البريد. وجاء برسالة فيرولا.

ظل المغلف طوال فترة الصباح على منضدة المدخل. وعندما حضر استيبان تروبيا توجه مباشرة إلى الحمام، لأنه كان مغطى بالعرق والغبار، ويعبق برائحة البهائم المرعوبة التي لا يمكن الخطأ فيها. جلس بعد ذلك إلى منضدة مكتبه لمراجعة حسابات، وأمر أن يأتوه بالطعام في صينية. لم يرَ رسالة أخته إلا بعد حلول الليل، عندما ذرع البيت مثلما يفعل دائماً قبل أن ينام، كي يتأكد من أن المصابيح مطفأة والأبواب مغلقة. كانت رسالة فيرولا مثل جميع الرسائل الأخرى التي تلقاها منها، ولكنه عرف حين تناولها بيده، حتى قبل أن يفتحها، أن مضمونها سيبدل حياته. راودته الأحاسيس نفسها التي شعر بها عندما استلم برقية أخته التي أخبرته فيها بموت روسا قبل سنوات.

فتح الرسالة وهو يشعر بأن صدغيه ينبضان بسبب الهواجس. كانت

الرسالة تقول باختصار إن دونيا إستير ترويبا تحتضر، وأنه على فيرولا، بعد سنوات طويلة من رعاية الأم وخدمتها كجارية، أن تتحمل، ليس عدم تعرف أمها عليها وحسب، وإنما كذلك طلبها ليلاً ونهاراً بمجيء ابنها استيبان، لأنها لا تريد الموت دون أن تراه. الحقيقة أن استيبان لم يحب أمه قط، ولم يكن يشعر بالراحة في حضورها، لكن الخبر جعله يرتجف. أدرك أن الذرائع المختلفة التي كان يختلقها على الدوام للامتناع عن زيارتها لم تعد مجدية، وأنه قد حان الوقت لسلوك طريق العودة إلى العاصمة ليواجه، آخر مرة، تلك المرأة التي ظلت ماثلة في كوابيسه، برائحتها الزنخة العابقة بالأدوية، وأناتها الخافتة، وصلواتها اللامتناهية، تلك المرأة الموجوعة التي ملأت طفولته بالمحظورات والمخاوف، وحملت حياته كرجل عبء المسؤوليات والخطايا.

استدعى بيدرو غارثيا الثاني وشرح له الوضع. قاده إلى منضدة العمل وأراه سجل المحاسبة وحسابات الدكان. وسلمه حزمة المفاتيح كلها، باستثناء مفتاح قبو النبيذ، وأخبره أنه ابتداء من هذه اللحظة حتى عودته سيكون مسؤولاً عن كل ما في الماريات الثلاث، وأن أي حماقة يقترفها سيدفع ثمنها غالياً. تسلم بيدرو غارثيا الثاني المفاتيح، ودس دفتر الحسابات تحت إبطه وابتسم دون سعادة.

- يمكن لأحدنا أن يفعل ما يستطيعه، وليس أكثر يا سيدي - قال وهو يهز كتفيه.

وفي اليوم التالي عاد استيبان ترويبا، أول مرة منذ سنوات، على الطريق الذي قطعه من بيت أمه إلى الريف. ذهب في عربة ومعه حقيبتيه الجلديتين إلى محطة سان لوكاس، وركب عربة الدرجة الأولى في قطار أزمنة شركة الخطوط الحديدية الإنكليزية، وعاد لاجتياز الحقول الفسيحة الممتدة في أسفل سلسلة الجبال.

أغمض عينيه وحاول النوم، لكن صورة أمه أبعدت النوم عنه.

الفصل الثالث

كلارا، نافذة البصيرة

كانت كلارا في السنة العاشرة من عمرها عندما قررت أنه ليس هناك ما يستحق الكلام وانزوت في صمتها. تبدلت حياتها تماماً. وحاول طبيب الأسرة، الدكتور كويفاس البدين والبشوش، أن يعالج صمتها بأقراص من اختراعه، وبفيتامينات سائلة، وتدليك حنجرتها بعسل بماء أملاح الصوديو، ولكن دون تحقيق أي نتيجة تذكر. ولاحظ أن أدويته لم تكن فعالة، وأن حضوره يصيب الطفلة بالرعب. فما إن تراه كلارا حتى تبدأ بالصراخ وتنزوي في أبعد الأركان منكمشة على نفسها كحيوان محاصر، فتخلى عن معالجتها ونصح سيفيرو ونيفيا أن يأخذاها إلى روماني يدعى روستيبوف، كان مدار الاهتمام في تلك الفترة. فقد كان روستيبوف يكسب عيشه بخدع مشعوذ في مسارح المنوعات، وحقق مأثرة لا تُصدق بمدّ سلك من قمة الكاتدرائية حتى قبة الأخوية الغاليسية في الجانب الآخر من الساحة ليجتاز المسافة ماشياً في الفضاء وهو لا يحمل سوى عصا طويلة هي سنده الوحيد. وعلى الرغم من جانبه الأرعن المبتذل، تسبب روستيبوف بضجة في الأوساط العلمية، لأنه في ساعات فراغه كان يُحسّن حالة المصابين بالهيستيريا بقضبان ممغنطة وبالتنويم المغناطيسي. أخذ سيفيرو ونيفيا ابنتهما كلارا إلى العيادة التي ارتجلها الروماني في الفندق. فحصها روستيبوف بعناية وأعلن أخيراً أن الحالة ليست من اختصاصه، فالصغيرة لا تتكلم لأنها غير راغبة في الكلام، وليس لأنها غير قادرة عليه. ومع ذلك، وحيال إلحاح الأبوين، صنع أقراصاً صغيرة من السكر مطلية بلون بنفسجي ووصفها لها منبهاً إلى أنها دواء سيبيري لعلاج الصم والبكم. ولكن الإيحاء لم يُفد في هذه الحالة، وقد التهم *باراباس* العلبة الثانية في لحظة سهو دون أن يؤثر ذلك أدنى تأثير

على الحيوان. حاول سيفيرو ونيفيا دفعها إلى الكلام بالأساليب البيتيه، من خلال التهديد والتوسل، وبلغ بهما الأمر حدّ تركها دون طعام لعل الجوع يجبرها على فتح فمها لتطلب العشاء، ولكن ذلك لم ينفع أيضاً.

كانت النانا تفكر في أنه يمكن لصدمة رعب قوية أن تدفع الطفلة إلى الكلام، وأمضت تسع سنوات في اختراع وسائل يائسة لإرعاب كلارا، ولكنها لم تتوصل إلا إلى إكسابها المناعة ضد المفاجآت والذعر. فبعد قليل لم تعد كلارا تخاف إي شيء، لم يعد يؤثر فيها ظهور مسوخ شاحبة وهزيلة في غرفتها، ولا طرقات مصاصي الدماء أو الشياطين على نافذتها. كانت النانا تتنكر بهيئة قرصان بلا رأس، وجلاد برج لندن، وكلب ذئبي، وشيطان ذي قرنين، حسب ما توحي به اللحظة والأفكار التي تستقيها من كتيبات رعب تشتريها لهذا الهدف، وإن كانت غير قادرة على قراءتها، إلا أنها كانت تستنسخ وتحاكي رسومها التوضيحية. واكتسبت عادة التسلل بخفة في الممرات كي تنقض على الطفلة في الظلام، والعواء من خلف الأبواب، وإخفاء حشرات حيّة في الفراش، ولكن أياً من تلك الأشياء لم يتوصل إلى انتزاع كلمة واحدة منها. كانت كلارا تفقد صبرها أحياناً، فترتمي على الأرض، وتضرب بقدميها وتصرخ، ولكن دون أن تتلفظ بأي صوت من لغة معروفة، أو تكتب على اللوح الحجري الذي تحمله دوماً أقذع الشتائم للمرأة المسكينة التي تنصرف للانزواء في المطبخ والبكاء لعدم تفهم نواياها.

- إنني أفعل هذا من أجل مصلحتك يا ملاكي - تنتحب النانا وهي ملتفة بملاءة دامية ووجها ملوث بسواد فلينة محروقة.

منعتها نيفيا من مواصلة إرعاب ابنتها. فقد لاحظت أن حالة القلق لا تتمخض إلا عن زيادة قدرات الطفلة الذهنية، وتؤدي إلى اختلاط الأشباح التي تحوم حولها. كما أن توالي هيئات أولئك الشخوص المخيفين يحطم جهاز *باراباس* العصبي، لأن ذلك الكلب لم يمتلك قط حاسة شمّ قوية، وكان عاجزاً عن التعرف على النانا تحت أدوات تنكرها. حتى إنه بدأ يبول جالساً، ومخلفاً بركة فسيحة حوله، وكثيراً ما كانت أسنانه

تصطك. غير أن النانا ظلت تنتهز أي لحظة سهو من الأم لتواظب على محاولاتها لشفاء البكم بالعلاج نفسه الذي يُعالج به الفُواق.

اخرجوا كلارا من مدرسة الراهبات التي تعلمت فيها أخواتها الأخريات، وجيء لها بأساتذة إلى البيت. وسعى سيفيرو لإحضار مربية من إنكلترا، تدعى مس أغاثا، طويلة القامة، لبشرتها لون العنبر، ولها يدا عامل بناء، ولكنها لم تتحمل تبدّل المناخ، ولا الطعام الحريف، ولا تحليق الملحة التلقائي وتنقلها فوق منضدة غرفة الطعام، فاضطرت للرجوع إلى ليفربول. وكانت المعلمة الثانية سويسرية لم تجد حظاً أفضل، ثم المعلمة الفرنسية التي جاءت بفضل علاقات سفير تلك البلاد مع الأسرة، وكانت شديدة التورد، والتكور، والعذوبة، وقد حبلت بعد شهور قليلة، وعند التقصي حول المسألة، تبين أن أبَ الجنين هو لويس، شقيق كلارا الأكبر. زوّجهما سيفيرو دون أن يسألهما عن رأيهما، وقد عاشا سعيدين، خلافاً لتنبؤات نيفيا وصديقاتها. ونظراً لهذه التجارب، أقنعت نيفيا زوجها بأن تعلّم اللغات الأجنبية ليس مهماً لمخلوقة مثل ابنتها تتمتع بمهارات تخاطرية، وأنه من الأفضل التركيز على دروس البيانو وتعليمها التطريز.

كانت كلارا الصغيرة تقرأ كثيراً. وشغفها بالقراءة كان دون تمييز، سيان عندها الكتب السحرية في صناديق خالها ماركوس المسحورة أو وثائق الحزب الليبرالي في مكتب أبيها. وكانت تملأ دفاتر لا حصر لها بملاحظاتها الخاصة، حيث حُفظت أحداث تلك المرحلة، ولم تضع ويمحوها ضباب النسيان، واستطعتُ استخدمها الآن لاستعادة ذكراها.

امتلكت كلارا نافذة البصيرة موهبة تفسير الأحلام. وكانت موهبة طبيعية فيها، لم تتطلب دراسات قبالية متعبة مثلما تلك التي استخدمها الخال ماركوس بجهود أكبر ونجاح أقل. وأول من انتبه إلى موهبتها تلك هو أونوريو، بستاني البيت، وكان قد حلم ذات يوم بحياتٍ تسل بين قدميه، وكي يبعدها عنه راح يركلها إلى أن تمكن من سحق تسع عشرة منها. روى ذلك للطفلة بينما هو يُقلّم شجيرات الورد، كي يسليها وحسب، لأنه كان يحبها كثيراً ويشعر بالأسى لكونها بكماء. فأخرجت كلارا اللوح الصغير من جيب مريولها وكتبت عليه تفسير حلم أونوريو: ستحصل

على مال كثير، ولن يبقى معك إلا لوقت قصير، ستكسبه دون جهد، العب على الرقم تسعة عشر. لم يكن أونوريو يعرف القراءة، لكن نيفيا قرأت له الرسالة بين السخرية والضحك. فعل البستاني ما قيل له وكسب ثمانين بيزو في مقمرة سرية خلف مستودع الفحم. أنفق المبلغ في شراء بدلة جديدة، وسكرة مشهودة مع أصدقائه، وشراء دمية من الخزف لكلارا. ومنذ ذلك الحين صار لدى الطفلة عمل كثير في تفسير الأحلام خفية عن أمها. فمنذ عُرفت قصة أونوريو، صار الناس يأتون لسؤالها عما يعنيه الطيران فوق برج بجناحي بجعة، وماذا يعني السفر في مركب يمضي مندفعاً على غير هدى مع التيار وسماع غناء حورية لها صوت أرملة، وماذا تعني ولادة توءمين ملتصقين من الظهر وكل منهما يمسك سيفاً بيده. فتسجل كلارا دون تردد على اللوح الصغير أن البرج هو الموت ومن يحلق فوقه سينجو من الموت في حادث، أما حلم المشرف على الغرق وسماعه غناء حورية بحر فيعني أنه سيفقد عمله ويعاني البؤس، ولكن امرأة ستساعده وسيشترك معها في تجارة، أما التوءمان فهما زوج وامرأته مرتبطان رغماً عنهما بالمصير نفسه، يجرح كل منهما الآخر بضربات سيف.

لم تكن الأحلام هي الشيء الوحيد الذي تفسره كلارا. فقد كانت تقرأ المستقبل أيضاً وتعرف نوايا الناس، وهي قدرات حافظت عليها طوال حياتها ونمتها مع مرور الزمن. لقد أعلنت موت عرّابها دون سالمون بالديس، وكان سمساراً في البورصة التجارية ظن أنه قد خسر كل شيء، فعلّق نفسه بمصباح مكتبه الأنيق، وهناك وجدوه، بإلحاح من كلارا، وكان له مظهر خروف ذاوٍ، مثلما وصفته هي على لوحها. وتنبأت بفتق أبيها، وبكل الهزات الأرضية وغيرها من تقلبات الطبيعة، وبالمرة الوحيدة التي هطل فيها ثلج في العاصمة وقتل برده الفقراء في الضواحي وشجيرات الورد في حدائق الأثرياء، وبهوية قاتل التلميذات قبل وقت طويل من اكتشاف الشرطة الجثة الثانية، ولكن أحداً لم يصدقها، كما أن سيفرو لم يشأ أن تبدي ابنته رأياً في شؤون مجرمين لا تربطهم قرابة بالأسرة. وقد انتبهت كلارا من النظرة الأولى إلى أن خيتوليو آرماندو سيحتال على أبيها في تجارة الأغنام الاسترالية، لأنها قرأت ذلك في لون

الهالة، وكتبته لأبيها، ولكنه لم يولها اهتماماً، وعندما تذكر تحذيرات ابنته، كان قد خسر نصف ثروته وكان شريكه قد صار في الكاريبي متحولاً إلى رجل ثري، ترافقه جماعة من الخليلات الزنجيات ذوات المؤخرات الضخمة، ولديه سفينة خاصة للاستمتاع بالحمامات الشمسية.

لم تفقد كلارا قدرتها على تحريك الأشياء دون لمسها بعد أن جاءها الطمث، مثلما كانت تتنبأ النانا، بل ازدادت حدة قدرتها حتى صار بإمكانها، من كثرة الممارسة، أن تحرك ملامس البيانو وهو مغلق الغطاء، وإن لم تستطع قط تحقيق رغبتها في تحريك تلك الآلة الموسيقية في الصالة. كانت تشغل معظم طاقتها ووقتها في هذه الممارسات الغريبة. وقد تدربت وطورت قدرتها على معرفة نسبة مذهلة من أوراق اللعب المقلوبة، وابتكرت ألعاب وهم لتسلية إخوتها. لكن أباها منعها من قراءة المستقبل في ورق اللعب، ومن استحضار أشباح وأرواح خبيثة تزعج بقية أفراد الأسرة وتُرعب الخدم، لكن نيفيا أدركت أنه كلما واجهت ابنتها الصغرى المزيد من المحظورات والمخاوف تزداد طباعها شذوذاً وأطوارها غرابة، فقررت تركها وشأنها في خدعها الروحانية وألعابها كعرَّافة وصمتها الكهفي، ومحاولة محبتها دون شروط وتقبلها مثلما هي. وكبرت كلارا كنبتة برية، على الرغم من نصائح الدكتور كويفاس الذي كان قد جاء من أوروبا بمستجدات حمامات المياه الباردة والصدمات الكهربائية لشفاء المجانين.

كان باراباس يرافق الطفلة في النهار والليل، باستثناء فترات في مواسم نشاطاته الجنسية المعهودة. يدور حولها دواماً كظلٍ عملاق لا يقل صمتاً عن الطفلة نفسها، ويستلقي عند قدميها عندما تجلس، وفي الليل ينام إلى جانبها لاهثاً مثل قاطرة. وقد توصل إلى التوحد على أحسن وجه مع سيدته، فعندما تخرج من فراشها وتمشي نائمة في أنحاء البيت، يتبعها الكلب بالوضع نفسه. فكان من المعهود رؤيتهما يجوبان ممرات البيت في ليالي اكتمال القمر مثل شبحين يطفوان في الضوء الباهت. وكلما كبر الكلب، كانت حالات سهوه تصبح أشد وضوحاً. ولم يدرك قطّ طبيعة الزجاج الشفافة، فكان من عادته، في لحظات انفعاله، الارتطام بالنوافذ حين يركض مندفعاً، بنوايا برئية، لاصطياد ذبابه.

فيسقط في الجانب الآخر من النافذة، متفاجئاً وحزيناً، وسط ضجة تحطم الزجاج. وكان الزجاج في تلك الأزمنة يأتي بالسفن من فرنسا، فتحولت نزوة الحيوان بالانقضاض عليه إلى مشكلة حقيقية، إلى أن توصلت كلارا إلى التفكير في رسم هررة على الزجاج كوسيلة أخيرة. وحين أدرك *باراباس* سن البلوغ، تخلى عن ممارسة الجماع مع قوائم البيانو، مثلما كان يفعل في طفولته، ولم تعد غريزة التكاثر تتبدى لديه إلا عندما يشم كلبة في حالة هياج في الجوار. ولا تكون هناك عندئذ سلسلة ولا أبواب قادرة على كبحه، فهو يندفع إلى الشارع متجاوزاً كل العقبات التي تُوضع في طريقه ويختفي ليومين أو ثلاثة أيام. ويرجع في كل مرة مع الكلبة المسكينة ملتصقة بمؤخرته ومعلقة في الهواء وهي مخترقة بعضوه الهائل. ويكون لا بد عندئذ من احتجاز الأطفال كيلا يروا مشهد البستاني وهو يسكب عليهما ماء بارداً إلى أن ينفصل *باراباس* عن عشيقته، بعد كثير من الماء والركلات والخزي، ويتركها تحتضر في فناء البيت، حيث يتوجب على سيفيرو أن يجهز عليها برصاصة رحمة.

انقضت مرحلة مراهقة كلارا بلطف في بيت والديها ذي الأفنية الثلاثة، وسط تدليل إخوتها الكبار وسيفيرو الذي يفضلها على جميع أبنائه، ونيفيا، والنانا التي تخلط بين جولات تنكرها المشؤومة وأرقّ أساليب العناية والرعاية. كان معظم إخوتها قد تزوجوا أو غادروا البيت، بعضهم للسفر وآخرون للعمل في الأقاليم، وصار البيت الكبير الذي آوى عائلة كبيرة العدد شبه خاوٍ، بغرف كثيرة مغلقة. فكانت الطفلة تشغل وقت الفراغ الذي يتركه لها معلموها في القراءة، وتحريك مختلف الأشياء دون لمسها، ومطاردة *باراباس*، وممارسة ألعاب التنبؤ، وتعلم الحياكة، هذا الفن الوحيد الذي استطاعت اتقانه دون سواه من الفنون المنزلية. منذ يوم الخميس المقدس ذاك الذي اتهمها فيه الأب ريستريبو بأنها مسكونة بالشيطان، كانت هناك ظلال تحوم فوق رأسها، تمكنت محبة أبويها وتكتم إخوتها من كبحها، غير أن شهرة مهاراتها الغريبة بدأت تشيع بصوت خافت في سهرات السيدات. ولاحظت نيفيا أن لا أحد يدعو ابنتها وأن أبناء عمومتها أنفسهم يتجنبونها. فحاولت التعويض عن غياب الأصدقاء

بانكبابها الكامل على ابنتها، وحقق في ذلك نجاحاً ترعرعت معه كلارا بسعادة، وستتذكر في السنوات التالية طفولتها كمرحلة مشعة في حياتها، بالرغم من وحدتها وبكمها. وستحتفظ في ذاكرتها مدى الحياة الأماسي التي كانت تقضيها مع أمها في حجرة الخياطة، حيث كانت نيفيا تخيط على آلة الخياطة ملابس للفقراء، وتروي لها حكايات وطرائف عائلية. وتريها صور الديغريتيب المعلقة على الجدران وتروي لها الماضي.

- أترين هذا السيد شديد الصرامة الذي له لحية قرصان؟ إنه الخال ماتيو الذي ذهب إلى البرازيل في تجارة زمرد، لكن خلاسية نارية أصابته بالعين. فسقط شعره، وانخلعت أظفاره، وأفلتت أسنانه. اضطر للذهاب إلى مشعوذ زنجي شديد السواد، قدم إليه تميمة، فثبّتت أسنانه، ونمت له أظفار جديدة واستعاد شعره. انظري إليه يا ابنتي، له شعر أكثر كثافة من هندي. إنه الأصلع الوحيد في العالم الذي نبت شعره من جديد.

كانت كلارا تبتسم دون أن تقول شيئاً، وتواصل نيفيا الكلام لأنها اعتادت على صمت ابنتها. وكانت تأمل من جهة أخرى بأنِ الإكثار منِ حشو الأفكار في رأس ابنتها، سيجعلها عاجلاً أو آجلاً توجه سؤالاً وتستعيد القدرة على الكلام.

- وهذا هو الخال خوان - تقول - كنت أحبه كثيراً. وفي أحد الأيام أفلت ضرطة كانت بمثابة الحكم عليه بالموت، إنها نكبة عظيمة. حدث ذلك في وليمة غداء ريفي. كنا نحن بنات العمومة جميعنا، في يوم ربيعي يعبق بالشذى، نرتدي فساتين الموسلين ونضع قبعاتنا المزينة بأزهار وشرائط، وكان الشبان يتألقون بأفضل ملابسِ أيام الآحاد. خلع خوان سترته البيضاء، أشعرُ كما لو أنني أراه الآن! شمر كمي قميصه وتعلق متباهياً بغصن شجرة ليستثير بمآثره البهلوانية إعجاب كونستانسا أندرادي التي تُوجت ملكة جمال موسم قطاف العنب، والتي فقدَ الطمأنينة مذ رآها أول مرة، وأضناه الحب. قام خوان بحركتي تأرجح بارعتين، ثم شقلبة كاملة، وفي الحركة التالية أفلت ريحاً مدوية. لا تضحكي يا كلارا! كان الأمر رهيباً. ساد صمت مربك، ثم بدأت ملكة قطاف العنب الضحك دون كابح. ارتدى خوان سترته، وكان شاحباً جداً،

ابتعد عن الجماعة دون تسرع ولم نره بعدها قط. بحثوا عنه حتى في الفرقة الأجنبية ، وسألوا عنه في جميع القنصليات، ولكن لم يُعرف أي شيء عنه على الإطلاق. أنا أظن أنه صار مبشراً وذهب للعناية بالمجذومين في جزيرة باسكوا ، وهي أبعد مكان يمكن الوصول إليه كي ينسى ويُنسى، لأن الجزيرة بعيدة عن خطوط الملاحة ولا تظهر في خرائط الهولنديين. ومنذ ذلك الحين يتذكره الناس على أنه خوان الضرطة.

وكانت نيفيا تأخذ ابنتها إلى النافذة وتريها جذع شجرة الحور اليابس.

ـ كانت شجرة ضخمة ـ تقول لها ـ. أمرتُ بقطعها قبل ولادة ابني الأكبر. ويقال إنها كانت عالية جداً ، وإنه يمكن من قمتها رؤية المدينة كلها ، لكن الشخص الوحيد الذي استطاع الوصول إلى أعلاها ، لم تكن له عينان تريان. وكان على كل رجل من آل دل باي ، عندما يريد البدء بارتداء البنطال الطويل، أن يتسلق الشجرة ليثبت شجاعته. كان ذلك شيئاً أشبه بطقوس تأكيد الرجولة. وكانت الشجرة مغطاة بالعلامات. وقد تأكدت من ذلك بنفسي عندما قطعوها. فمنذ الفروع الوسطية الأولى ، الثخينة كالمداخن، يمكن رؤية علامات خلفها الأجداد الذين تسلقوها في زمانهم. ومن خلال الحروف الأولى المحفورة على الجذع يمكن معرفة من تسلقوا إلى ارتفاع أكبر، من هم الأكثر شجاعة ، وكذلك من هم الذين توقفوا خائفين. وفي أحد الأيام جاء دور خيرونيمو ، ابن العم الأعمى. فصعد متلمساً الأغصان دون تردد ، لأنه لم يكن يرى الارتفاع ولا يدرك الفراغ تحته. وصل إلى قمة الشجرة ، ولكنه لم يتمكن من اتمام حفر الـ «خ» التي يبدأ بها اسمه ، لأنه انفصل عن الشجرة كثمرة يابسة وهوى على رأسه ليسقط عند أقدام أبيه وإخوته. كان عمره خمسة عشر عاماً. وقد حملوا الجسد ملفوفاً بملاءة إلى أمه ، فبصقت المرأة المسكينة في وجوههم جميعاً ، وصرخت بشتائم بحارةٍ ولعنت جنس الرجال الذين حثوا ابنها على تسلق الشجرة ، وظلت على تلك الحال إلى أن حملوها إلى راهبات الإحسان مقيدة بقميص مجانين. وكنت أعرف أنه سيكون على أبنائي أن يواصلوا ذلك التقليد الهمجي. ولهذا أمرت بقطعها. لم أشأ أن يكبر لويس والأولاد الآخرين وشبح تلك المشنقة يظهر من النافذة.

في بعض الأحيان كانت كلارا ترافق أمها وصديقتين أو ثلاث من صديقاتها الداعيات إلى حقهن في التصويت لزيارة مصانع، حيث يصعدن على بعض الصناديق ليخطبن بالعاملات، بينما رؤساء العمال وأصحاب المصنع يراقبونهن، بسخرية وعدائية، من مسافة حذرة. وعلى الرغم من صغر سنها وجهلها الكامل بشؤون العالم، كان بإمكان كلارا إدراك عبثية ذلك الوضع، وكانت تصف في دفاترها التناقض بين أمها وصديقاتها اللاتي يأتين بمعاطف الفرو وجزمات من جلد الغزال ليتكلمن عن الاضطهاد والمساواة في الحقوق إلى جماعة صغيرة من عاملات كئيبات ومستسلمات يضعن مآزر خشنة من قماش رخيص، وأيديهن محمرة من البرد. وكانت الداعيات إلى حق المرأة بالتصويت يذهبن من المصنع إلى ساحة السلاح لتناول الشاي وبعض قطع الحلوى، ويتبادلن التعليقات حول تقدم حملتهن، دون أن تبعدهن هذه التسلية التافهة ولو قيد أنملة عن مثلهن العليا المتأججة. في أحيان أخرى كانت أمها تأخذها إلى الأحياء الهامشية وإلى الضواحي، وكنّ يذهبن في عربة محملة بالأطعمة والملابس التي تخيطها نيفيا وصديقاتها للفقراء. وفي هذه المناسبات أيضاً كانت الطفلة تكتب بحدس مذهل أنه لا يمكن لأعمال الإحسان أن تخفف من الظلم الهائل. لقد كانت علاقتها بأمها سعيدة وحميمة، وكانت نيفيا تعاملها كما لو أنها ابنتها الوحيدة، بالرغم من انجابها خمسة عشر ابناً، وتقيم معها علاقة قوية، وهي علاقة تواصلت في الأجيال التالية كتقليد أسري.

كانت النانا قد تحولت إلى امرأة بلا سن محددة، تحتفظ بصلابة شبابها كاملة، يمكنها التقافز عبر الأركان لتخليص الصغيرة من البكم، مثلما يمكنها قضاء النهار كله وهي تحرك بعود محتويات طنجرة ضخمة، على موقد نار جهنمية في الفناء الثالث، حيث يبقبق مربى السفرجل في سائل كثيف ذي لون ياقوتي أصفر، ويتحول بعد تبريده إلى قوالب مختلفة الأحجام توزعها نيفيا على فقرائها. ولأن النانا معتادة على العيش محاطة بأطفال، فقد أسبغت حنانها كله على كلارا حين كبر الآخرون وتفرقوا. ومع أن كلارا قد تجاوزت الطفولة، فقد

ظلت تحممها كما لو أنها طفلة صغيرة، تنقعها في حوض الحمام المطلي بالمينا، في ماء معطر بالحبق والياسمين، وتفركها بإسفنجة، وتصوبنها بدقة دون نسيان أي جزء من الأذنين حتى القدمين، ثم تدلكها بماء الكولونيا، وتنثر عليها البودرة بمرشة من ريش البجع، وتسرح شعرها بصبر غير متناهٍ حتى يصير لامعاً وليناً كنبتة بحرية. وكانت تُلبسها ثيابها، وتفتح لها سريرها، وتحمل إليها الفطور في صينية، وتجبرها على تناول نقيع الزيزفون للأعصاب، والبابونج للمعدة، وزهر الليمون لشفافية البشرة، والسذاب للغدة الصفراء، والنعنع لنداوة الأنفاس، حتى تحوّل الطفلة إلى كائن ملائكي جميل يجوب أفنية البيت وممراته عابقاً بروائح الزهور، وبحفيف تنانير منشاة وهالة من خصل الشعر المجعد والشرائط.

أمضت كلارا الطفولة وانتقلت إلى الشباب داخل جدران بيتها، في عالم قصص مذهلة، وصمت هادئ، حيث لا يُشار إلى الزمن بساعات أو تقاويم، وحيث للأشياء حياتها الخاصة، وحيث تجلس الأشباح إلى المائدة وتتبادل الحديث مع البشر، وحيث الماضي والمستقبل جزء من الشيء نفسه، وواقع الحاضر هو لعبة مرايا غير منتظمة يمكن لأي شيء أن يحدث فيه. إنها لمتعة كبيرة بالنسبة لي أن أقرأ دفاتر تلك المرحلة، حيث يوصف عالم سحري مضى وانتهى. كانت كلارا تسكن عالماً اختُرع من أجلها، محمية من قسوة الحياة، تختلط فيه حقيقة الأشياء المادية التافهة بحقيقة الأحلام الجياشة، وحيث لا تكون قوانين الفيزياء والمنطق هي السائدة على الدوام. عاشت كلارا تلك المرحلة مشغولة بتخيلاتها، ترافقها أرواح الهواء والماء والتراب، وكانت سعيدة إلى حدّ لم تشعر معه بالحاجة إلى الكلام طيلة تسع سنوات. وكان الجميع قد فقدوا الأمل بسماع صوتها من جديد، حتى جاء يوم عيد ميلادها، فبعد أن نفخت على التسع عشرة شمعة المثبتة على قالب حلوى الشكولاته، دشنت صوتاً ظل محفوظاً طوال ذلك الوقت، وكان له رجع آله موسيقية غير مدوزنة.

- سأتزوج عما قريب - قالت.

- ممن؟ - سألها سيفيرو.

- من خطيب روسا - أجابت.

وعندئذ انتبهوا إلى أنها تكلمت أول مرة بعد كل تلك السنوات، فهزت المفاجأة البيت من ركائزه واستثارت بكاء الأسرة كلها. أخبروا بعضهم بعضاً، وانتشر الخبر في المدينة، واستشاروا الدكتور كويفاس في الأمر فلم يستطع تصديق ذلك. وفي هرج ومرج أن كلارا قد تكلمت، نسي الجميع ما قالته ولم يتذكروه إلا بعد شهرين من ذلك، عندما ظهر استيبان ترويبا الذي لم يروه منذ دفن روسا، وجاء طالباً يد كلارا.

نزل استيبان ترويبا في المحطة وحمل بنفسه حقيبتيه. القبة المحطة الحديدية التي بناها الإنكليز في محاكاة لمحطة فيكتوريا، في أزمنة امتلاكهم امتياز سكك الحديد الوطنية، لم يتغير فيها شيء منذ المرة الأخيرة التي كان فيها هناك قبل سنوات: الزجاج المتسخ نفسه، الأطفال ماسحو الأحذية أنفسهم، بائعات عجة البيض والحلوى الكريولية، والحمالون بقبعاتهم القاتمة التي تحمل شارة التاج البريطاني، دون أن يخطر لأحد استبدالها بإشارة أخرى من ألوان العلم الوطني. ركب عربة وأعطى الحوذي عنوان بيت أمه. بدت له المدينة مجهولة، فهناك فوضى حداثة، وأعجوبة نساء يكشفن ربلات سيقانهن، ورجال يرتدون صديات بناطيل ذات كسرة، وجلبة عمال يحفرون حفراً في الطريق، ويقطعون أشجاراً ليغرسوا أعمدة، وينتزعون أعمدة ليقموا أبنية، ويزيلون أبنية ليزرعوا أشجاراً، وعرقلة سير من منادين متجولين يصيحون ممتدحين عجائب مشحذ سكاكين، وفول سوداني محمص، ودمية ترقص تلقائياً، دون سلك أو خيط، تعال وجربها بنفسك، مرّ بيدك عليها، ريح مزابل، مقالي، معامل، سيارات تصدم العربات وترام الجرّ بالدم، مثلما كانت تسمى الخيول الهرمة التي تجر ترام النقل العام، لهاث حشود، ضجة سباق رواح وغدو متعجل وقلق ومواعيد ثابتة. أحس استيبان بالضيق. إنه يكره هذه المدينة أكثر بكثير مما يتذكر، واستعرض في ذهنه دروب الريف المحفوفة بالأشجار، والزمن الذي يقاس بالأمطار، وعزلة الحقول الفسيحة، وبرودة سكون النهر وصمت بيته. واستخلص:

- ما هذه المدينة إلا براز.

أوصلته العربة خبباً إلى البيت الذي ترعرع فيه. وأحس بقشعريرة وهو يرى كيف تردى الحي خلال تلك السنوات، مذ رغب الأغنياء في العيش أعلى من الآخرين واتسعت المدينة ممتدة حتى سفوح سلسلة الجبال. والساحة التي كان يلعب فيها في طفولته، لم يبق منها شيء، فهي مجرد مكان قاحل يغص بعربات السوق المتوقفة بين أكوام قمامة تنبشها كلاب مشردة. كان بيته خرباً. رأى فيه كل علامات مرور الزمن. وفي الباب المزجج المخلع والمزين برسوم طيور إكزوتيكية حُفرت على الزجاج، وهو طراز مضى عهده، كانت هناك مقرعة برونزية لها شكل يد أنثوية تمسك كرة صغيرة. طرَقَ، وكان عليه أن ينتظر لوقت بدا له بلا نهاية إلى أن فُتح الباب بشدّ حبل يمتد من مقبض الرتاج حتى أعلى الدرج. كانت أمه تسكن الطابق العلوي وتؤجر السفلي لمعمل أزرار. بدأ استيبان ارتقاء الدرجات التي تصرّ تحت قدميه لأنها لم تُشمّع منذ زمن طويل. وكانت تنتظره في الأعلى خادم هرمة نسي وجودها تماماً، واستقبلته بمظاهر عاطفة دامعة، مثلما كانت تستقبله وهو في الخامسة عشرة من عمره، عند رجوعه من مكتب الكاتب بالعدل حيث كان يكسب عيشه من استنساخ وثائق نقل ملكيات ووكالات أشخاص مجهولين. لم يتبدل أي شيء، حتى أمكنة الأثاث، لكن كل شيء بدا لاستيبان مختلفاً، الممر ذا الأرضية الخشبية البالية، بعض الزجاج المكسور والمُرقّع بقطع من الكرتون، ونبتات سرخس معفرة وذاوية في علب معدنية صدئة وأصص خزف مقشرة: «يا للبؤس!»، فكر دون أن يستطيع تفسير أين ذهبت كل الأموال التي يرسلها إلى أخته لتعيش حياة محترمة.

خرجت فيرولا لاستقباله بتكشيرة ترحيب كئيبة. لقد تغيرت كثيراً، ولم تعد تلك المرأة الممتلئة التي غادرها قبل سنوات، فقد نحلت وبدا أنفها هائلاً في وجهها ذي الزوايا. كانت كئيبة الملامح ومبهورة الأنفاس، تعبق برائحة خزامى نفاذة، وترتدي ثياباً قديمة بالية. تعانقا بصمت.

- كيف حال أمي؟ - سألها استيبان.

- تعال لتراها، إنها تنتظرك - قالت.

مرّا عبر ممر غرف متصلة بعضها ببعض، جميعها متشابه، مظلمة،

جدرانها ميتة، سقوفها عالية ونوافذها ضيقة، مع ورق جدران مزين بأزهار باهتة الألوان وعذراوات متكاسلات، تتخللها لطخات من سِناج المدافئ وصدأ الزمن والفقر. ومن بعيد كان يصل صوت مذيع إذاعي يعلن عن أقراص الدكتور روي، صغيرة ولكنها فعالة، تكافح الإمساك، والأرق، وخبث النفس. توقفا أمام باب مخدع دونيا إستير تروبيا المغلق.

- إنها هنا - قالت فيرولا.

فتح استيبان الباب واحتاج بضعَ ثوانٍ كي يتمكن من الرؤية في الظلام. صفعت راحة الأدوية والعفونة وجهه، رائحة عرق ورطوبة وحبس، ورائحة أخرى لم يستطع في أول الأمر تحديدها، ولكنها سرعان ما التصقت به كوباء: إنها رائحة جسدٍ آخذ بالتفسخ. كان النور يدخل كخيط من النافذة الموارية، رأى السرير العريض الذي مات عليه أبوه، ونامت عليه أمه منذ زفافها، والمصنوع من خشب أسود مزين بأشكال حفر، ومظله مزركشة بنقوش ملائكة بارزة ومزق بروكار حمراء أبلاها طول الاستخدام. كانت أمه شبه جالسة. كتلة لحم متماسكة، هرم مريع من الشحم والأسمال ينتهي برأس صغير أصلع ذي عينين عذبتين وحيَّتين بصورة مذهلة، زرقاوين وبريئتين. لقد حوّلها داء المفاصل إلى كائن من قطعة واحدة، لا يمكنها ثني مفاصلها أو تحريك رأسها. كانت كلابات أصابعها أشبه بقوائم مستحاثة، ومن أجل البقاء في الوضع الذي هي عليه في السرير، تحتاج إلى الاستناد إلى صندوق وراء ظهرها، مدعم بدعامة خشبية تستند بدورها إلى الجدار. وكان مرور الزمن ملحوظاً في الأثر الذي خلفته الدعامة الخشبية على الحائط، أثر معاناة، ودرب ألم.

- أماه... - تلعثم إستيبان وانكسر صوته في صدره ببكاء مكبوح، ماسحاً بجرة قلم الذكريات الحزينة، والطفولة البائسة، والروائح الزنخة، والصباحات الجليدية، وحساء طفولته الدهني، والأم المريضة، والأب الغائب، وتلك الضغينة التي تنهش أحشاءه منذ وعى على الدنيا، ونسي كل شيء باستثناء اللحظات الوحيدة المضيئة التي احتضنته فيها هذه المرأة المجهولة القابعة في الفراش بين ذراعيها، ولمست جبهته بحثاً عن الحمى، وغنّت له إحدى أغنيات المهد، وانحنت معه على صفحات كتاب، وبكت

ألماً وهي تراه يستيقظ في الفجر كي يذهب إلى العمل وهو لا يزال طفلاً، وبكت فرحاً عند رؤيته يرجع في الليل، لقد بكيتِ يا أماه من أجلي.

مدّت دونيا إستير يدها، ولكنها لم تكن حركة تحية، وإنما إيماءة تطلب منه أن يتوقف.

- لا تقترب يا بني - كان صوتها على حاله، مثلما يتذكره، صوت شابة رخيم وسليم.

- لا تريدك أن تقترب بسبب الرائحة - أوضحت فيرولا بجفاء - إنها رائحة تلتصق بالمرء.

رفع إستيبان دثار النسيج الدمشقي البالي ورأى ساقي أمه. كانا عمودين داكنين، فيليين، تغطيهما قروح عششت فيها يرقات الذباب والديدان التي تحفر فيهما أنفاقاً. ساقان تتفسخان في الحياة، وقدمان ضخمتان شاحبتان مزرقتان، وبلا أظفار في أصابعهما، تتفجران بقيح ودم أسود، وبتلك الدويبات البغيضة التي تتغذى على لحمك يا أماه، رباه، على لحمي.

- الطبيب يريد بترهما يا بني - قالت دونيا إستير بصوت الصبية الهادئ -، ولكنني عجوز هرمة على ذلك، ومتعبة من المعاناة، ومن الخير لي أن أموت. ولكنني لم أشأ الموت دون أن أراك، لأني خلال هذه السنوات كلها توصلت إلى الظن بأنك ميت، وأن أختك هي من تكتب رسائلك كي تعفيني من الألم. قف يا بني في الضوء كي أراك جيداً. رباه! تبدو كمتوحش!

- إنها حياة الريف يا أماه - تلعثم.

- ولكنك مازلت تبدو قوياً. كم صار عمرك؟

- خمسة وثلاثين عاماً.

- سن جيدة للزواج والاستقرار، كي أتمكن من الموت بسلام.

- لن تموتي يا أماه - توسل إستيبان.

- أريد التأكد من أنه سيكون لي أحفاد، أحدٌ يحمل دمي، واسمنا. لقد فقدت فيرولا الأمل بالزواج، أما أنت فعليك البحث عن زوجة. امرأة محترمة ومسيحية. وعليك قبل ذلك أن تقص شعرك ولحيتك، هل تسمعني؟

أومأ إستيبان موافقاً. ركع إلى جانب أمه ودفن وجهه في يدها المتورمة، لكن الرائحة دفعته إلى الوراء. أمسكته فيرولا من ذراعه

وأخرجته من حجرة الكرب تلك. وفي الخارج، تنفس بعمق، بينما الرائحة لا تزال ملتصقة بأنفه. أحس عندئذ بالغيظ. كان غيظه المعروف جيداً يصعد كموجة ساخنة إلى رأسه، يحقن عينيه، يضع تجديفات قرصان على شفتيه. غيظ من الزمن الذي مضى دون أن أفكر فيك يا أماه، غيظ لأني أهملتك، لأني لم أحبك وأعتنِ بك مثلما يجب، غيظ من أني لستُ سوى ابن عاهرة بائس، لا، اعذريني يا أماه، لم أكن أعني ما قلته، يا للعنة، إنك تموتين يا عجوزي، وأنا عاجز عن عمل أي شيء، عاجز حتى عن تهدئة آلامك، أو التخفيف من تعفنك وتخليصك من هذه الرائحة المرعبة، من حساء الموت هذا الذي تُطبخين فيه يا أماه.

بعد يومين من ذلك، ماتت دونيا إستير تروبيا في فراش العذاب الذي عانت فيه طيلة السنوات الأخيرة من حياتها. كانت وحيدة، فقد ذهبت ابنتها فيرولا، كما في كل يوم جمعة، إلى أحياء الفقراء لتصلي صلاة المسبحة للمحتاجين، والملحدين، والعاهرات، والأيتام، ممن كانوا يرمونها بالقمامة، ويفرغون عليها مباول، ويبصقون عليها، بينما هي راكعة في زقاق حي البؤس، تصرخ مرددة «أبانا الذي في السماء» و«يا قديسة مريم» في ترتيل لا ينتهي، وتقطر بقذارة البؤساء، وبصاق الملحدين، وقذارات العاهرات، وزبالة اليتامى، وتنتحب مطلقة آه المهانة، وطالبة الغفران لمن لا يعرفون ما يفعلون، وشاعرة أن عظامها تلين، وأن تراخياً قاتلاً يحوّل ساقيها إلى قطن، وأن حرَّ الصيف يبث خطيئة بين فخذيها، رباه! أبعد عني هذه الكأس، وينفجر بطنها بلهيب جحيم، آه، بقداسة، بخوف، بـ يا أبانا، بجنِّبنا الوقوع في التجربة يا يسوع.

ولم يكن إستيبان أيضاً إلى جانب دونيا إستير عند موتها بصمت في فراش آلامها. كان قد ذهب لزيارة آل دل بايه كي يرى إن كانت لا تزال عندهم ابنة عزباء، لأنه بعد كل تلك السنوات من الغياب والحياة الهمجية، لم يعد يعرف من أين يبدأ في إنجاز الوعد الذي قطعه لأمه بأن ينجب لها أحفاداً شرعيين، وتوصل إلى أنه إذا كان سيفيرو ونيفيا قد قبلاه صهراً لهما في أزمنة روسا الجميلة، فليس هناك من سبب يحول دون أن يتقبلاه من جديد، لاسيما الآن بعد أن صار رجلاً ثرياً وغير مضطر إلى نبش الأرض

لانتزاع ذهبه منها، وإنما يملك كل ما يحتاج إليه في حسابه المصرفي.
وفي تلك الليلة وجد إستيبان وفيرولا أمهما ميتة في الفراش. وكانت على محياها ابتسامة هادئة، كما لو أن المرض أراد أن يوفر عليها عذابها اليومي في اللحظة الأخيرة من حياتها.

يوم طلب إستيبان تروبيا من آل دل بابيه أن يستقبلوه، تذكر سيفيرو ونيفيا الكلمات التي كسرت بها كلارا صمتها الطويل، ولم يبديا أي قدر من الاستغراب عندما سألهما الزائر عما إذا كانت لا تزال لديهم ابنة في سن الزواج. فأجريا حساباتهما وأبلغاه أن آنا قد انضمت إلى سلك الرهبنة، وأن تيريسا مريضة جداً وجميع البنات الأخريات قد تزوجن، باستثناء كلارا، الابنة الصغرى، ولكنها مخلوقة على شيء من الغرابة، وقليلة الأهلية لمسؤوليات الحياة الزوجية والتدابير المنزلية. وأخبراه بكل نزاهة بغرابات ابنتهما الصغرى، دون أن يخفيا عنه واقع أنها ظلت صامتة عن الكلام طوال نصف حياتها، لأنها لم تكن راغبة في الكلام، وليس لأنها غير قادرة عليه، مثلما أوضح بدقة الروماني روستيبوف، وأكده الدكتور كويفاس من خلال فحوص متعددة. ولكن إستيبان تروبيا لم يكن بالرجل الذي يستسلم للخوف من قصص الأشباح التي تطوف في ممرات البيت، أو الأشياء التي تتحرك عن بعد بقدرات الذهن، أو نبوءات سوء الطالع، وأقل من ذلك الصمت الطويل الذي ينظر إليه على أنه فضيلة. وتوصل إلى أن أياً من هذه الأمور لا يشكل عائقاً يحول دون إنجاب أبناء أصحاء وشرعيين، وطلب التعرف على كلارا. خرجت نيفيا بحثاً عن ابنتها وبقي الرجلان وحدهما في الصالون، فانتهز تروبيا الفرصة، بصراحته المعهودة، ليوضح دون مقدمات إمكاناته الإقتصادية.
ـ أرجوك يا إستيبان الا تستبق الأمور! ـ قاطعه سيفيرو ـ. عليك أن ترى الطفلة أولاً، وتتعرف إليها جيداً، ولا بد لنا كذلك من أخذ رغبات كلارا في الاعتبار. الا ترى ذلك؟
رجعت نيفيا ومعها كلارا. دخلت الفتاة إلى الصالون بخدين متأججين بالحمرة وأظفارسوداء، فقد كانت تساعد البستاني في زراعة درنات

أضاليا وخانها نفاد بصيرتها هذه المرة، فلم تنتظر عريسها المستقبلي بالتأنق اللائق. نهض إستيبان مذهولاً حين رآها. إنه يتذكرها كمخلوقة هزيلة تعاني الربو، بلا أي لطف، غير أن الشابة التي أمامه تبدو أشبه بميدالية عاجية مرهفة، ذات وجه عذب وشعر كستنائي مجعد ومختلط يتفلت من التسريحة في خصل مموجة، وعينان كئيبتان تتحولان إلى ملمح ساخر ومتألق عندما تضحك ضحكة صريحة منفتحة، ورأسها يميل قليلاً إلى الخلف. صافحته بالشدّ على يده، دون أن تبدي شيئاً من الخجل.

- كنتُ أنتظرك - قالت ببساطة.

استمرت زيارة المجاملة ساعتين، تحدثوا عن الموسم الغنائي، وعن الرحلات إلى أوروبا، وعن الوضع السياسي والرشوحات الشتوية، بينما هم يشربون النبيذ الحلو ويأكلون حلوى الرقائق. كان إستيبان يتفحص كلارا بكل ما يستطيعه من تكتم، ويشعر بانجذاب متزايد نحو الفتاة. لا يتذكر أنه اهتم بأحد على هذا النحو منذ اليوم المجيد الذي رأى فيه روسا الجميلة تشتري سكاكر اليانسون من متجر في ساحة السلاح. قارن بين الأختين وتوصل إلى أن كلارا تتفوق في اللطف، مع أن روسا كانت أجمل بكثير دون شك. حلّ الليل، ودخلت خادمتان لإغلاق الستائر وإشعال الشموع، عندئذ انتبه إستيبان إلى أن زيارته قد طالت كثيراً. كان يفتقر إلى أساليب اللياقته. ودّع سيفيرو ونيفيا بصرامة، وطلب السماح له بزيارة كلارا مجدداً.

- آمل ألا أسبب لك الضجر يا كلارا - قال وقد احمر وجهه - إنني رجل فظ، ابن أرياف، وأكبرك بخمسة عشر عاماً على الأقل. لستُ شاباً فتياً مثلك...

- أتريد الزواج بي؟ - سألته كلارا، ولمح وميضاً ساخراً في عينيها اللتين بلون البندق.

- بالله عليك يا كلارا! - هتفت أمها مروّعة - المعذرة يا إستيبان، فهذه الطفلة كانت وقحة على الدوام.

- أريد أن أعرف يا أماه، كيلا نضيع الوقت - قالت كلارا.

- أنا أيضاً أفضل الأمور المباشرة - ابتسم إستيبان - أجل يا كلارا، هذا ما جئتُ من أجله.

تأبطت كلارا ذراعه ورافقته حتى المخرج. وفي النظرة الأخيرة التي تبادلاها، أدرك إستيبان أنها قد قبلت به، فامتلأ بالسعادة. وبينما هو في العربه، ابتسم غير مصدق حسن حظه، ودون أن يدري ما الذي يجعل فتاة فاتنة مثل كلارا تقبل به دون أن تعرفه. لم يكن يعلم أنها قد رأت قدرها، وأنها هي من استدعته بفكرها، وأنها مستعدة للزواج دون حب.

انتظرا مرور بضعة شهور احتراماً لحداد إستيبان ترويبا، وخلال تلك الفترة كان يغازلها على الطريقة القديمة، بالأسلوب نفسه الذي غازل به أختها روسا، دون أن يدري أن كلارا تمقت سكاكر اليانسون، وأن القصائد المطرزات تُضحكها. وفي نهاية العام، مع اقتراب عيد الميلاد، أعلنا خطوبتهما رسمياً في الجريدة ولبسا خاتميهما بحضور الأقارب والأصدقاء المقربين، حوالي مئة شخص، في مأدبة باذخة، توالت عليها صواني ديوك حبش محشوة، وخنانيص محلاة، وثعابين مياه باردة، وجراد بحر مقلي بزبد وخبز مبروش، ومحار حي، وقوالب حلوى برتقال، وليمون راهبات كرمليات، ولوز وجوز راهبات دومينيكيات، وشكولاته وبيض راهبات كلاريسيات، وصناديق شمبانيا مجلوبة من فرنسا بوساطة قنصل يمارس التهريب مستغلاً امتيازاته الدبلوماسية، ولكن ذلك كله كانت تُقَدمه وتُسكبه، بكل بساطة، خادمات البيت القديمات بمآزرهن السوداء المعهودة، من أجل إضفاء أجواء اجتماع عائلي متواضع على المأدبة، لأن أي شطط كان يعتبر دليلاً على التبذير ويحكم عليه باعتباره خطيئة زهو دنيوي وسوء ذوق، وذلك بسبب تقشف قديم متوارث وكئيب يسود مجتمع أولئك المهاجرين القشتاليين والباسكيين الآخذ في الانحدار. كانت كلارا طيفاً من دنتيلا تشانتيه بيضاء وأزهار كاميليا طبيعية، تُعوّض كببغاء سعيدة عن تسع سنوات من الصمت، وترقص مع عريسها تحت المظلات وتحت المصابيح، غير منتبهة على الإطلاق الحذيرات الأرواح التي تومئ لها إيماءات يائسة من بين الستائر، لأنها لم تكن ترى ذلك وسط الصخب والازدحام. كانت طقوس لبس الخاتمين لا تزال مثلما كانت عليه في العهد الاستعماري. ففي الساعة العاشرة، جال خادم بين المدعوين وهو يرن جرساً صغيراً من الكريستال، فصمتت الموسيقى،

وتوقف الرقص، واجتمع المدعوون في الصالون الرئيسي. قرأ كاهن ضئيل وبرئ، متشح بزينة القداس الأكبر، موعظة مضطربة كان قد أعدّها، وحث فيها على فضائل مشوشة ومتعذرة التحقيق. لم تستمع إليه كلارا، لأنها حين انطفأ دوي الموسيقى وصخب الراقصين، أعارت اهتمامها إلى همس الأرواح بين الستائر وتنبهت إلى أنها لم ترَ *باراباس* منذ ساعات طويلة. بحثت عنه بنظرها مستنفرة بقية حواسها، غير أن ضربة من مرفق أمها أعادتها إلى تعجل الطقوس. أنهى الكاهن خطبته، وبارك الخاتمين الذهبيين، وعلى الفور وضع إستيبان أحدهما في إصبع خطيبته وأدخل الآخر في إصبعه.

وفي تلك اللحظة هزت الحاضرين صرخة رعب. ابتعد الناس مفسحين الطريق لدخول *باراباس* الذي بدا أشد سواداً وضخامة من أي وقت مضى، وقد انغرست في ظهره سكين جزار حتى مقبضها، وهو ينزف مثل جاموس، وقوائمه التي كقوائم مهر ترتعش، ويسيل من فمه خيط دم، وعيناه غائمتان من الاحتضار. وخطوة خطوة، مجرراً إحدى قوائمه بعد أخرى، تقدم مترنحاً كديناصور جريح. تهاوت كلارا جالسة على أريكة الحرير الفرنسي. اقترب الكلب منها، ووضع رأسه الكبير الذي كرأس وحش معمر على حضنها وظل ينظر إليها بعينين عاشقتين راحتا تُظللمان حتى العمى، بينما الدم يبلل دانتيلا تشانتيه البيضاء، وحرير الأريكة الفرنسي، والسجادة الفارسية والأرضية الخشبية. راح *باراباس* يموت دون تسرع، بعينين مسمرتين على كلارا التي كانت تداعب أذنيه وتتمتم كلمات مواساة، إلى أن سقط أخيراً وتصلب بعد حشرجة وحيدة. عندئذ بدا على الجميع كأنهم يستفيقون من كابوس وجابت الصالون همهمة رعب، ثم بدأ المدعوون يودعون بعضهم بعضاً على عجل، ويهربون قافزين عن برك الدم، وملتقطين بسرعة شالات الفراء وقبعاتهم وعكاكيزهم ومظلاتهم وحقائبهم. لم يبق في صالون الحفلة سوى كلارا والحيوان على حضنها، وأبواها متعانقين وقد شلهم نذير الشؤم، والعريس الذي لم يفهم سبب كل ذلك الاضطراب من أجل مجرد كلب ميت، ولكنه حين انتبه إلى أن كلارا تبدو غائبة عن الوعي، حملها بين ذراعيه وأخذها إلى

حجرتها حيث حالت عناية النانا وأملاح الدكتور كويفاس دون وقوعها مجدداً في الذهول والبكم. طلب إستيبان ترويبا من البستاني أن يساعده، وتعاون كلاهما معاً على رفع جثة *باراباس* إلى العربة، وكان الموت قد زاد من وزنه إلى حدّ صار من شبه المستحيل رفعه عن الأرض.

انقضى العام في الاستعدادات للزفاف. تولت نيفيا أمر تهيئة جهاز كلارا التي لم تُبدِ أدنى اهتمام بمحتويات صناديق خشب الصندل وواصلت تجاربها على المنضدة ذات الثلاثة قوائم والتنبؤ بأوراق اللعب. ملاءات الفراش المطرزة بعناية، وشراشف الحرير والملابس الداخلية التي كانت قد أعدتها الراهبات قبل عشر سنوات من أجل روسا، وطرزن عليها الحروف الأولى، متداخلة، من اسمي ترويبا ودل باييه، استُخدمت كلها في جهاز كلارا. وأوصت نيفيا من بوينس آيرس وباريس ولندن على فساتين سفر، وملابس للريف، وفساتين حفلات، وقبعات رائجة، وأحذية وحقائب من جلود العظاءات والغزلان، وأشياء أخرى لُفت بورق حرير وحُفظت بالخزامى والكافور، دون أن تلقي عليها العروس أكثر من نظرة ساهية.

ووقف إستيبان ترويبا على رأس فريق بنائين ونجارين وسباكين ليبني بيتاً من أمتن البيوت التي يمكن تصورها وأكثرها رحابة وإضاءة، بيتاً يمكن له أن يدوم ألف عام ويؤوي أجيالاً عديدة من آل ترويبا الشرعيين. كلّف مهندساً فرنسياً بوضع المخطط، وأوصى على جزء من مواد البناء من الخارج كي يكون بيته هو الوحيد المزود بزجاج ألماني، وقواعد أعمدة منقوشة في النمسا، وصنابير ماء برونزية إنكليزية، ورخام إيطالي للأرضيات، وأقفال طُلبت وفق كاتالوغات من الولايات المتحدة، ولكنها جاءت ومعها دليل استخدام مستبدل ودون مفاتيحها. وحاولت فيرولا، وقد أرعبتها تلك النفقات، منعه من مواصلة تصرفاته الجنونية بشراء أثاث فرنسي، وثريات كريستال، وسجاجيد تركية، متعللة بأن الإفلاس سيحيق بهم وتتكرر قصة ترويبا غريب الأطوار الذي أنجبهما، لكن إستيبان أثبت لها أنه غني إلى حدّ يسمح له بمثل ذلك الترف وهددها بتلبيس الأبواب بالفضة إذا ما واصلت إزعاجه. فتعللت عندئذ بأن ذلك التبذير هو

خطيئة مميتة بكل تأكيد وأن الرب سيعاقبهم جميعاً بسبب إنفاق حديثي النعمة التبذري الذي من الأفضل استخدامه في مساعدة الفقراء.

وعلى الرغم من أن إستيبان تروبيا لم يكن محباً للمستجدات، وإنما هو على العكس تماماً، يشعر بارتياب كبير من تحولات الحداثة، فقد قرر أنه ينبغي لبيته أن يُبنى على نمط المنازل الفاخرة الأوروبية والأمريكية الشمالية، بتضمينه كافة وسائل الراحة، مع الحفاظ على الطراز الكلاسيكي. كان يرغب في أن يكون البيت أبعد ما يمكن عن نمط العمارة المحلية. فهو لا يريد ثلاثة أفنية، وممرات، ونوافير صدئة، وغرف مظلمة، وجدران طينية مبيضة بالكلس ولا قرميداً معفراً. بل يريد طابقين أو ثلاثة طوابق بطولية، وصفوف أعمدة بيضاء، وسلماً اميرياً يلتف نصف التفافة حول نفسه وينتهي إلى قاعة من رخام أبيض، ونوافذ كبيرة ومضيئة، ويريد على العموم مظهراً من النظام والتناسق، من الترتيب والتحضر، الذي يميز الشعوب الأجنبية ويتوافق مع حياته الجديدة. يجب أن يكون بيته انعكاساً له، لأسرته، وللشهرة التي ينوي إضفاءها على لقب الأسرة الذي لطخه أبوه. كان يرغب في أن يُلحظ تألق البيت من الشارع، فعمد إلى تصميم حديقة فرنسية فيها مظلات كبيرة، وأصص أزهار، ومرج أملس ومتقن، ونوافير ماء، وتماثيل تمثل آلهة الأولمب، وربما تمثال هندي متوحش مستوحى من التاريخ الأمريكي، يكون عارياً ومتوجاً بالريش، كدليل على الحس الوطني. وما كان بإمكانه أن يعرف أن ذلك المنزل الوقور، المكعب، المتماسك والمزهو، الرابض كقبعة وسط محيط خضرته الهندسية، سينتهي به الأمر إلى الامتلاء بالنتوءات الناشزة والإضافات الملحقة، وبأدراج كثيرة ملتوية تؤدي إلى أمكنة غامضة، وبأبراج ونوافذ لا يمكن فتحها، وأبواب معلقة في الفراغ، وممرات متعرجة وكوى مدورة تصل بين الغرف من أجل التكلم في موعد القيلولة، وكل ذلك وفق إلهام كلارا التي كلما احتاجت إلى إيواء نزيل جديد، تأمر ببناء حجرة أخرى في أي مكان، وتهدم جداراً إذا ما أخبرتها الأرواح بأن هناك كنزاً مخبأ او جثة مدفونة في الأساسات، حتى حوّلت المنزل إلى متاهة مسحورة من المحال تنظيفها، في تحد لكثير من

قوانين المدن والأنظمة البلدية. ولكن عندما شيد ترويبا ما سماه الجميع «بيت الناصية الكبير»، كان له طابعه المهيب الذي يحاول فرض نفسه على كل ما يحيط به، في تذكر لحرمان طفولته. لم تذهب كلارا قط لرؤية البيت خلال فترة البناء. بدا أن اهتمامها به ضئيل مثلما هو اهتمامها بجهازها، وتركت القرار لخطيبها وأخت زوجها المستقبلية.

وجدت فيرولا نفسها، بعد موت أمها، وحيدة وبلا شيء مفيد تكرس له حياتها، وفي سن لا مجال فيها للوهم بالزواج. واظبت لبعض الوقت على زيارة أحياء الفقراء يومياً، في اندفاع إحسان جنوني تسبب لها بالتهاب قصبات مزمن دون أن يحمل أدنى قدر من الطمأنينة لروحها المعذبة. أراد لها إستيبان أن تسافر، وأن تشتري ملابس وتلهو لأول مرة في حياتها الكئيبة، ولكنها كانت معتادة على التقشف بعد أن أمضت زمناً طويلاً حبيسة بيتها. وتخاف كل شيء. وجاء زواج أخيها ليُغرقها في القلق، لأنها ترى أن الزواج سيكون سبباً آخر لابتعاد إستيبان عنها، وهو سندها الوحيد. تخاف أن تنهي أيام حياتها في ملجأ مسنين تمارس أشغال الصنارة لعوانس العائلات الراقية. ولهذا أحست بسعادة كبيرة حين اكتشفت أن كلارا ليست جديرة بالمنافسة في جميع الأمور المنزلية، وأنها تبدو ساهية ومتكاسلة كلما توجب عليها مواجهة اتخاذ قرار. وانتهى الأمر بفيرولا إلى الاستنتاج بسعادة: «إنها بلهاء بعض الشيء». بدا لها واضحاً أن كلارا ستكون عاجزة عن تدبر شؤون المنزل الكبير الذي يشيده أخوها، وأنها ستكون بحاجة إلى كثير من المساعدة. وحاولت بأساليب بارعة جعل إستيبان يعرف أن زوجته المقبلة امرأة لا فائدة ترجى منها، وأنها هي نفسها، بروح تضحيتها التي أثبتتها التجربة الطويلة، يمكنها مساعدتها، وأنها مستعدة لذلك، ولكن إستيبان لم يكن يتابع الأحاديث عندما تتخذ مثل تلك الاتجاهات. ومع اقتراب موعد الزفاف، ورؤيتها ضرورة تحديد مصيرها، بدأت فيرولا تشعر باليأس. ولقناعتها بأنها لن تتوصل إلى أي شيء مع أخيها، راحت تتحين فرصة للتحدث إلى كلارا على انفراد، وقد وجدت تلك الفرصة حين رأتها تتمشى في الشارع، في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم سبت. فدعتها لتناول الشاي في الفندق الفرنسي. جلست

المرأتان محاطتين بأطباق حلويات وخزف بافاريا، بينما اوركسترا آنسات تعزف في عمق الصالة رباعية وترية كئيبة. راحت فيرولا تتفحص خلسة زوجة أخيها المقبلة التي تبدو كأنها في الخامسة عشرة ولا يزال في صوتها بعض النشاز نتيجة سنوات الصمت، دون أن تدري كيف تطرح الموضوع. وبعد صمت طويل التهمتا خلاله صينية من المعجنات وشربت كل منهما فنجانين من شاي الياسمين، سوّت كلارا خصلة شعر تهدلت على عينيها، ثم ابتسمت وربتت بمودة على يد فيرولا:

ـ لا تقلقي. ستذهبين للعيش معنا وسنكون كأختين ـ قالت الفتاة.

فوجئت فيرولا وتساءلت عما إذا كانت صحيحة تلك الشائعات عن قدرة كلارا على قراءة أفكار الآخرين. كان الكبرياء هو ردّ فعلها الأول، وكانت سترفض العرض ولو لمجرد جمال اللفتة، غير أن كلارا لم تمنحها الوقت. فقد مالت عليها وقبّلت خدها ببراءة بالغة جعلت فيرولا تفقد التحكم بنفسها وتجهش في البكاء. لم تكن قد ذرفت دمعة واحدة منذ زمن طويل، وأدركت بذهول كم كانت بحاجة إلى مثل التفاتة الحنان تلك. إنها لا تتذكر المرة الأخيرة التي لمسها فيها أحد بمثل تلك العفوية. بكت طويلاً، مفضفضة عن نفسها الكثير من الأحزان والوحدة الفائتة، على يد كلارا التي راحت تساعدها على نفّ أنفها، وتقدم لها بين إجهاشة بكاء وأخرى مزيداً من قطع الحلوى ورشفات الشاي. وظلتا تبكيان وتتحدثان حتى الثامنة ليلاً، وفي ذلك المساء في الفندق الفرنسي ختمتا ميثاق صداقة دامت سنوات طويلة.

ما إن انتهى الحداد على موت دونيا إستير وصار بيت الناصية الكبير جاهزاً حتى تزوج إستيبان تروبيا وكلارا دل باييه في حفلة متحفظة. أهدى إستيبان إلى عروسه زينة حليّ من الماس، وقد وجدتها جميلة جداً، وخبأتها في علبة حذاء ونسيت على الفور أين وضعتها. سافرا في رحلة إلى إيطاليا وبعد يومين من الإبحار، كان إستيبان يشعر بأنه واقع في الغرام مثل مراهق، بالرغم من أن حركة السفينة أغرقت كلارا في دوار بحر شديد، وأدى بقاؤها محتجزة إلى إصابتها بالربو. أما إستيبان

الذي كان يجلس إلى جانبها في القمرة الضيقة، يضع الكمادات الباردة على جبينها ويسندها عندما تتقيء، فكان سعيداً بعمق، ويشتهيها بحدة غير مسوغة إذا ما أُخذت في الاعتبار حالتها المؤسفة. وفي اليوم الرابع استيقظت في حالة أفضل وخرجا إلى سطح السفينة لمشاهدة البحر. وحين رآها إستيبان بأنفها الذي صبغته قوة الريح بالحمرة وهي تضحك لأي سبب، أقسم على أنها ستتوصل إلى حبه عاجلاً أو آجلاً بالطريقة التي يحتاج إلى أن يكون محبوباً بها، حتى لو اضطره التوصل إلى ذلك اللجوء إلى أقصى الوسائل. كان مدركاً أن كلارا لا تنتمي إليه وأنها إذا واصلت العيش في عالم أشباح ومناضد ذات ثلاث قوائم تتحرك وحدها، وأوراق لعب تكشف المستقبل، فسيكون الاحتمال الأكبر هو عدم انتمائها إليه إلى الأبد. لم تكن حسية كلارا المستهترة واللامبالية تكفيه أيضاً. كان يشتهي ما هو أكثر بكثير من جسدها، ويريد الاستحواذ على ذلك الشيء غير المحدد والمضيء الذي في داخلها ومازال يتفلت منه حتى في اللحظات التي تبدو فيها كمن تحتضر من اللذة. كان يشعر أن يديه ثقيلتين جداً، وأن قدميه ضخمتين، وأن صوته شديد القسوة، وأن ذقنه بالغة الخشونة، وأن عاداته في الاغتصاب ومضاجعة العاهرات متجذرة جداً، ولكنه مستعد لإغوائها حتى ولو اضطر قلب داخله خارجاً كما لو أنه قفاز.

رجعا من شهر العسل بعد ثلاثة شهور. كانت فيرولا تنتظرهما في البيت الجديد الذي مازالت تفوح منه رائحة الدهان والإسمنت الطازج، وتملؤه الأزهار وصواني الفاكهة، مثلما كان إستيبان قد أمرها. وعند اجتياز عتبة البيت أول مرة، حمل إستيبان امرأته بين ذراعيه. وفوجئت أخته بأنها لم تشعر بالغيرة ولاحظت أن إستيبان قد استعاد حيوية الشباب.

ـ لقد جعلكَ الزواج أفضل ـ قالت له.

أخذ كلارا للتجول في البيت. فكانت تمر ببصرها وتجد كل شيء جميلاً جداً، باللياقة نفسها التي كانت تحتفي بها برؤية الغروب في عرض البحر، أو ساحة سان ماركوس أو حليّ الماس. وعند باب الحجرة المخصصة لها، طلب منها إستيبان أن تغمض عينيها وقادها من يدها إلى وسط الغرفة.

ـ بإمكانك فتح عينيك ـ قال لها مفتوناً.

نظرت كلارا في ما حولها. كانت حجرة كبيرة جداً، جدرانها مبطنة بحرير أزرق، وفيها أثاث إنكليزي، ولها نوافذ واسعة مع شرفات تطل على الحديقة، وسرير بظلة وستائر شفافة يبدو أشبه بسفينة شراعية تبحر في مياه ساكنة من حرير أزرق.

- جميل جداً - قالت كلارا.

عندئذ أشار إستيبان إلى المكان الذي تقف فيه. إنها المفاجأة المدهشة التي أعدّها لها. خفضت كلارا بصرها وأطلقت صرخة مرعبة. كانت تقف على ظهر *باراباس* الأسود الذي يقبع مفتوح القوائم وقد تحول إلى بساط، رأسه كامل وفيه عينان من زجاج تنظران إليها بتعبير من الخذلان الخاص بالحيوانات المحنطة. تمكن زوجها من إسنادها قبل أن تسقط على الأرض مغمى عليها.

- لقد قلت لكَ يا إستيبان إن هذا لن يروقها - قالت فيرولا.

أخرج جلد *باراباس* المدبوغ بسرعة من الحجرة، وألقي به في ركن من القبو، إلى جانب الكتب السحرية التي في صناديق الخال ماركوس المسحورة وكنوز أخرى؛ حيث صمد في مواجهة العثة والإهمال بعناد جدير بقضية عظيمة، إلى أن أنقذته أجيال أخرى تالية.

سرعان ما تبين أن كلارا حامل. فتحول الحنان الذي تشعر به فيرولا نحو زوجة أخيها إلى ولع برعايتها، وتفان في خدمتها، وتسامح غير محدود في تحمل سهوها وشذوذها. ففي نظر فيرولا التي كرست حياتها لرعاية أم عجوز آخذة بالتفسخ، كانت العناية بكلارا أشبه بدخول فردوس المجد. صارت تحممها بماء معطر بالحبق والياسمين، وتفركها بإسفنجة، وتصوبنها، وتدلكها بماء الكولونيا، وتبودرها بفرشاة ناعمة من ريش البجع، وتسرح شعرها حتى يصير لامعاً وناعماً مثل نبتة بحرية، كما كانت تفعل لها النانا من قبل.

قبل وقت طويل من خمود تلهفه كعريس جديد، اضطر إستيبان تروبيا إلى العودة إلى الماريات الثلاث التي لم تصلها قدماه منذ أكثر من سنة، وكانت تتطلب حضور السيد المالك على الرغم من الاهتمام الذي

يُظهره بيدرو غارثيا الثاني. فأملاكه التي كانت تبدو له من قبل فردوساً ومصدر فخره كله، تحولت الآن إلى مكان مزعج. كان ينظر إلى الأبقار العجماء تجتر في المراعي، وإلى حركة الفلاحين البطيئة تكرر الإيماءات نفسها كل يوم وعلى امتداد حياتهم، وإلى الإطار الثابت الذي تشكله سلسلة الجبال المكللة بالثلج وعمود الدخان الخفيف المتصاعد من البركان، فيشعر بأنه سجين.

وبينما هو في الريف، كانت الحياة في بيت الناصية الكبير تتبدل لتستقر في روتين ناعم بلا رجال. كانت فيرولا هي من تستيقظ أولاً، لأنها حافظت على عادة الاستيقاظ المبكر منذ الزمن الذي كانت تسهر فيه إلى جانب أمها المريضة، لكنها تترك زوجة أخيها نائمة حتى وقت متأخر. وعند الضحى تحمل إليها بنفسها الفطور إلى السرير، وتفتح الستائر الحريرية الزرقاء كي تدخل الشمس من خلال الزجاج، وتملأ حوض الحمام الخزفي الفرنسي المزكش برسوم أزهار النيلوفر، مانحة بذلك الوقت لكلارا كي تزيح عنها النعاس وهي تحيي الأرواح الحاضرة بالدور، ثم تقرّب صينية الفطور وتغمس الخبز المحمص بالشوكولاتة الكثيفة. بعد ذلك تُخرجها من الفراش مداعبة إياها بعناية أم، وتطلعها على ما في الجريدة من أخبار طيبة، وهي أخبار تصبح أقل في كل يوم، فتضطر إلى ملء الفجوات بإشاعات وتقولات حول الجيران، وأمور منزلية تافهة، وطرائف مختلقة تجدها كلارا جميلة جداً وتنساها خمس دقائق، بحيث يمكن إعادة رواية الحكاية نفسها لها عدة مرات، وتستمتع بها كما لو أنها تسمعها أول مرة.

كانت فيرولا تأخذها في نزهة لتتشمس، لأن ذلك جيد لجنينها. وترافقها للشراء كي يكون كل شيء جاهراً عند ولادة الطفل ولا ينقصه شيء، وتتوفر له أرقى الملابس في العالم. وتذهب بها للغداء في نادي الفولف، كي يرى الجميع كم صرتِ جميلة مذ تزوجتِ أخي. ولزيارة بيت أبويها، كيلا يظنوا أنكِ نسيتهم. وإلى المسرح، كيلا تظلي اليوم كله حبيسة البيت. وكانت كلارا تسلم لها قيادها بعذوبة لا تنم عن بلاهة، وإنما عن شرود وهي تستنفد كل قدراتها للتركيز دون

جدوى على التواصل تخاطرياً مع إستيبان الذي لم يكن يتلقى تلك الرسائل، وعلى شحذ نفاد بصيرتها.

كانت تلك هي أول مرة تشعر فيها فيرولا بالسعادة على ما تتذكر. وكانت أقرب إلى كلارا مما كانته مع أي شخص آخر، حتى مع أمها نفسها. ولو أن ذلك حدث مع شخصية أقل أصالة من كلارا، لانتهى بها الأمر إلى الضيق من تدليل أخت زوجها المفرط وقلقها الدائم عليها، أو استسلمت لطبعها المسيطر والمدقق. لكنّ كلارا كانت تعيش في عالم آخر. وكانت فيرولا تمقت اللحظة التي يرجع فيها أخوها من الريف ويملأ البيت كله بحضوره، محطماً الانسجام الذي يسود في غيابه. فأثناء وجوده في البيت، يتوجب عليها أن تبقى في الظل، وأن تكون أشد حذراً في طريقة تعاملها مع الخدم، وكذلك في الاهتمام الذي تحيط به كلارا. وفي كل ليلة، عندما ينسحب الزوجان إلى جناحهما، تشعر بأن حقداً مجهولاً يداهمها، لا تجد له تفسيراً، ويملأ روحها بمشاعر مشؤومة. ولكي تشغل نفسها، تلوذ بعادة صلوات المسبحة في أحياء الفقراء، والاعتراف عند الأب أنطونيو.

- يا قديسة مريم الطاهرة.
- يا من حبلت دون خطيئة.
- إنني أصغي إليك يا ابنتي.
- لا أدري كيف أبدأ يا أبتاه. أظن أن ما فعلته خطيئة...
- خطيئة جسد يا ابنتي؟
- آي! الجسد جف يا أبتاه، أما الروح فلا. الشيطان يعذبني.
- رحمة الرب لا حدود لها.
- أنت لا تعرف الأفكار التي يمكن أن تجول في ذهن امرأة وحيدة يا أبتاه، امرأة عذراء لم تعرف رجلاً، وليس ذلك لنقص في الفرص المتاحة، وإنما لأن الرب أصاب أمي بمرض طويل وكان عليّ العناية بها.
- هذه التضحية مسجلة في السماء يا ابنتي.
- حتى لو كانت هناك خطيئة في التفكير يا أبتاه؟
- حسن، هذا متعلق بأي تفكير تعنين...

- لا أستطيع النوم في الليل، أشعر بالاختناق. وكي أهدئ نفسي، أنهض وأتمشى في الحديقة، أتسكع في أنحاء البيت، أذهب إلى حجر زوجة أخي، ألصق أذني بالباب، وأدخل أحياناً على رؤوس أصابعي لأراها وهي نائمة، إنها تبدو كملاك، تراودني الرغبة في أن أندس في فراشها كي أحس بدفء بشرتها وأنفاسها.

- صلي يا ابنتي. فالصلاة تساعد.

- انتظر، لم أقل بعد كل شيء. أشعر بالخجل.

- يجب ألا تخجلي مني، فأنا لست سوى أداة من أدوات الرب.

- عندما يعود أخي من الريف يصير الأمر أسوأ بكثير يا أبتاه. فالصلوات عندئذ لا تفيدني في شيء، لا أستطيع النوم، أتعرق، أرتجف، وأنهض أخيراً واجتاز البيت كله في الظلام، متسللة عبر الممرات بحذر شديد كيلا تصدر طقطقة من الأرضية. واستمع إليهما من خلال باب مخدعهما، وفي إحدى المرات استطعت رؤيتهما، لأن الباب كان موارباً قليلاً. لا يمكنني أن أخبرك بما رأيته يا أبتاه، ولكنه يجب أن يكون خطيئة فظيعة. ليست خطيئة كلارا، فهي بريئة مثل طفلة. أخي هو من يوجهها. ومن المؤكد أنه محكوم عليه بالجحيم.

- الرب وحده قادر على الحكم والإدانة يا ابنتي. وما الذي كانا يفعلانه؟

كان بإمكان فيرولا عندئذ أن تستغرق نصف ساعة في تقديم التفاصيل. فقد كانت راوية بارعة، تعرف أين تصمت، وكيف تقدّر نبرة صوتها، وكيف تشرح دون الاستعانة بالإيماءات والحركات لترسم لوحة شديدة الحيوية يمكن للمستمع أن يشعر بأنه يعيشها. ويبدو غير قابل للتصديق كيف أنها استطاعت، وهي عند الباب الموارب، أن تدرك نوعية الاهتزازات، وغزارة السوائل، والكلمات المهموسة في الأذن، وأشد الروائح سرية، إنها معجزة في الحقيقة. وبعد التفريج عن نفسها من اضطرابات مزاجها تلك، تعود إلى البيت بقناعها كصنم عديم التأثر وصارم، وتبدأ بإصدار الأوامر، وعدّ أدوات المائدة، وترتيب أمر الطعام، وإقفال الأبواب، وطلب أن تضعوا لي هذا هنا، فيضعونه، واستبدلوا أزهار الزهريات، فيستبدلونها، وغسل الزجاج، وأسكتوا لي تلك الطيور

الشيطانية، لأن لغطها يحول دون نوم السيدة كلارا، ولأن كثرة النقيق ستخيف الجنين ويمكن لها أن تؤدي إلى ولادته مخبولاً. لا شيء يفلت من عينيها المتيقظتين، وهي في حركة دائمة، على عكس كلارا التي تجد كل شيء جميلاً ولا فرق عندها في أن تأكل كمأة محشوة أو بقايا حساء بائت، وأن تنام على فراش من ريش أو جالسة على كرسي، وأن تستحم في ماء معطر أو تظل دون استحمام. ومع تقدم حبلها، كانت تبدو أنها آخذة بالانفصال عن الواقع بصورة محتمة، وانقلاب نحو داخلها في حوار سري ودائم مع الجنين.

كان إستيبان يرغب في طفل يحمل اسمه وينقل لقب آل ترويبا إلى ذريته التالية.

ـ إنها طفلة وستسمى بلانكا ـ قالت له كلارا منذ اليوم الأول لإعلان حبلها.

وهكذا كان.

الدكتور كويفاس الذي تخلصت كلارا أخيراً من الخوف منه، قدر أن الوضع يجب أن يحدث في منتصف شهر تشرين الأول، غير أن كلارا ظلت تتمايل ببطن هائل حتى بداية تشرين الثاني، وهي في حالة أشبه بمن يمشي نائماً، وفي كل يوم يزداد سهوها، وتعبها، وربوها، وعدم مبالاتها بكل ما يحيط بها، بمن في ذلك زوجها الذي لم تكن تتعرف إليه في بعض الأحيان وتسأله حين تراه بجوارها: ما الذي تريده منا؟ وعندما استبعد الطبيب أي خطأ محتمل في حساباته، وتبين بجلاء أنه لا تتوافر لكلارا أية نية في الولادة بالطريقة الطبيعية، بادر إلى فتح بطن الأم وأخرج منه بلانكا التي تكشفت عن طفلة غزيرة الشعر وأقبح من المعهود. واجتاحت إستيبان قشعريرة حين رآها، مقتنعاً بأنه وقع ضحية سخرية القدر، وأنه أنجب مسخاً بدل ابن ترويبا الشرعي الذي وعد أمه به وهي على فراش الموت، والأدهى أن ذلك المسخ من الجنس الأنثوي. تفحص الطفلة بنفسه وتأكد من أن كل أعضائها في أماكنها الصحيحة، على الأقل تلك الأعضاء البادية للعين البشرية. وواساه الدكتور كويفاس بالتوضيح له أن مظهر الطفلة المنفر يعود إلى أنها أمضت وقتاً أطول مما هو طبيعي في بطن

الأم، وإلى معاناة العملية القيصرية، وإلى ضآلتها ونحولها وسمرتها وكثافة شعرها بعض الشيء. أما كلارا بالمقابل فكانت مفتونة بابنتها. بدت كما لو أنها تستيقظ من سبات طويل وتكتشف سعادة كونها حية. تناولت الطفلة بين ذراعيها ولم تعد تفلتها، تتنقل والطفلة معلقة إلى صدرها، تُرضعها طوال الوقت، دون مواعيد ثابتة ودون مراعاة للأساليب الحميدة أو الحياء، وكأنها من نساء السكان الأصليين. لم تشأ تقميطها، ولا قص شعرها، أو ثقب أذنيها، أو التعاقد مع مرضع تتولى تربيتها، وكان رفضها أشد للجوء إلى حليب أحد المختبرات، مثلما تفعل كافة السيدات القادرات على دفع ثمن ذلك الترف. ولم توافق كذلك على وصفة النانا بإعطاء الطفلة حليب بقر مخفف بماء الرز، لأنها توصلت إلى أنه لو أرادت الطبيعة للبشر أن يتغذو بتلك الطريقة لجعلت أثداء النساء تفرز ذلك النوع من الخليط. وكانت كلارا تكلم الطفلة طوال الوقت، دون أن تفعل ذلك بنصف لسان، أو باستخدام صيغ التصغير والتدليل، وإنما بإسبانية سليمة، كما لو أنها تكلم مخلوقة بالغة، وبالطريقة المتأنية والعقلانية نفسها التي تكلم بها الحيوانات أو النباتات، مقتنعة بأنه إذا كانت قد توصلت بذلك إلى نتيجة مع النبات والحيوان، فليس هناك سبب يحول دون أن تكون مجدية كذلك مع الطفلة. وقد كان للمواءمة بين حليب الأم والحديث فضيلة تحويل بلانكا إلى طفلة سليمة وجميلة تقريباً، لا تشبه في شيء آكل النمل الذي كانت عليه عند مولدها.

بعد أسابيع قليلة من ولادة بلانكا، تأكد لاستيبان تروييا، من خلال تقلبهما في سفينة مياه الحرير الأزرق الراكدة، أن زوجته لم تفقد في الأمومة فتنة ممارسة الحب أو قابليتها له، بل على العكس تماماً. أما فيرولا التي انشغلت بتربية الطفلة ذات الرئتين الهائلتين والطبع المندفع والشهية النهمة، فلم تعد تجد وقتاً تذهب فيه للصلاة في أحياء الفقراء، أو للاعتراف عند الأب أنطونيو، وأقل من ذلك للتجسس من خلال الباب الموارب.

الفصل الرابع

زمن الأرواح

في السن التي يمضي فيها معظم الأطفال بالحفاضات وعلى أربع، ويتلعثمون بكلام غير متماسك، ويقطرون ريالة، كانت بلانكا تبدو قزمة عاقلة، تمشي متعثرة، ولكن على ساقيها، وتتكلم بصورة صحيحة، وتأكل وحدها، بفضل أسلوب أمها في معاملتها كالكبار. وكانت أسنانها كلها قد ظهرت، وبدأت تفتح الخزائن لتبعثر محتوياتها، عندما قررت الأسرة الذهاب لقضاء الصيف في الماريات الثلاث التي لم تعرفها كلارا إلا من خلال الأحاديث. في تلك المرحلة من حياة بلانكا كان الفضول أقوى من غريزة البقاء، فكانت فيرولا تمر بلحظات عصيبة وهي تركض وراءها لتحول دون سقوطها من الطابق الثاني، أو حشر نفسها في الفرن، أو ابتلاعها الصابون. وقد بدت لها فكرة السفر إلى الريف مع الطفلة تنطوي على خطورة، وإنها ستكون مرهقة وغير مجدية، وأن إستيبان قادر على تدبر أموره وحده في الماريات الثلاث، بينما هن يستمتعن بحياة متحضرة في العاصمة. ولكن كلارا كانت متحمسة. فالريف يبدو لها فكرة رومانسية، لأنها لم تدخل زريبة قطّ، على حدّ قول فيرولا. الاستعدادات للرحلة شغلت الأسرة كلها طوال أكثر من أسبوعين وامتلأ البيت بصناديق وسلال وحقائب. وقد استأجروا عربة خاصة في القطار لينتقلوا مع الأمتعة غير المعقوله والخدم الذين قدرت فيرولا أنه من الضروري أخذهم معهم، فضلاً عن أقفاص العصافير التي لم تشأ كلارا هجرها، وعلب ألعاب بلانكا الممتلئة ببهلوانات آليين، وتماثيل خزفية، وحيوانات قماشية، وراقصات على الحبال، ودمى لها شعر آدمي ومفاصل بشرية تسافر مع مجموعة ملابسها وسياراتها وأدوات مائدتها الخاصة. حين رأى إستيبان ذلك الحشد المرتبك والعصبي وتلك الحوائج المخلطة، أحس بالهزيمة أول مرة في حياته، وخاصة حين

اكتشف بين الأمتعة وجود تمثال بالحجم الطبيعي للقديس أنطونيو، بعينين حولاولين وصندل جلدي. فكان ينظر إلى الفوضى المحيطة به نادماً على قرار السفر مع زوجته وابنته، ومتسائلاً كيف أمكن له هو وحده أن يحتاج إلى حقيبتيه فقط كي يجوب العالم، بينما هما تحملان تلك الحمولة من الأمتعة التافهة، وذلك الموكب من الخدم الذين لا فائدة ترجى منهم في هذه الرحلة.

وفي سان لوكاس، استأجروا ثلاث عربات حملتهم، مثل الغجر، إلى الماريات الثلاث تلفهم سحابة من الغبار. وفي باحة بيت الإقطاعية كان ينتظرهم، للترحيب بهم، جميع الفلاحين، يتصدرهم الوكيل بيدرو غارثيا الثاني. ولدى رؤيتهم ذلك السيرك الجوال أصابهم الذهول. وبدؤوا تحت أمرة فيرولا بتفريغ العربات وإدخال الأمتعة إلى البيت. لم ينتبه أحد إلى طفل بمثل عمر بلانكا تقريباً، وكان عارياً، مخاطياً، بطنه منتفخ من الطفيليات، له عينان سوداوان بديعتان تنظران نظرات رجل مسن. إنه ابن الوكيل ويدعى بيدرو غارثيا الثالث لتمييزه عن أبيه وجده. وفي جلبة الاستقرار، والتعرف على البيت، وتفحص البستان، وتحية الجيمع، وتركيب مذبح القديس أنطونيو، وإبعاد الدجاج عن الأسرة والفئران من الخزائن، خلعت بلانكا ملابسها وخرجت تركض عارية مع بيدرو الثالث. لعبا بين حزم الأمتعة، واندسا تحت قطع الأثاث، وبلل كل منهما الآخر بقبلات لعابية، ومضغا قطعة الخبز نفسها، ورشفا المخاط نفسه، وتلوثا بالبراز نفسه، وناما أخيراً متعانقين تحت منضدة غرفة الطعام. وهناك وجدتهما كلارا في الساعة العاشرة ليلاً. كانوا قد بحثوا عنهما لساعات مستعينين بالمشاعل، وكان المزارعون قد توزعوا في فرق وجابوا ضفة النهر، ومستودعات الحبوب، والمراعي، والاسطبلات. وكانت فيرولا قد تضرعت للقديس أنطونيو جاثية، واستنفد إستيبان أنفاسه وهو يناديهما، واستحضرت كلارا مواهبها التنبؤية دون جدوى. وحين وجدوهما، كان الطفل مستلقياً على ظهره على الأرض وبلانكا متكورة ورأسها مستند إلى بطن صديقها الجديد المنتفخ. وبهذا الوضع نفسه سيفاجأان بعد سنوات عديدة، لسوء حظهما، ولن تكفي حياتيهما كلها لدفع الثمن.

أدركت كلارا منذ اليوم الأول أن لها مكاناً في الماريات الثلاث، وقد شعرت، وفق ما دونته في دفاتر ملاحظات حياتها، أنها وجدت أخيراً مهمتها في هذا العالم. لم تبهرها بيوت الآجر والمدرسة ووفرة الطعام، لأن قدرتها على رؤية ما هو خفي التقطت على الفور أجواء توجس العاملين وخوفهم وحقدهم، والهمهمات الخافتة التي تنقطع عندما تدير وجهها، والتي أتاحت لها حدس بعض الأمور حول طباع زوجها وماضيه. ومع ذلك، كان السيد المالك قد تغيّر. وكان الجميع يقدرون أنه تخلى عن الذهاب إلى القنديل الأحمر، ووضع حداً لليالي مجونه، وصراعات الديكة، والمراهنات، وغضباته العنيفة، وقبل ذلك كله عادته السيئة بطرح البنات أرضاً في حقول القمح. وقد عزو ذلك إلى كلارا. وهي أيضاً تغيّرت من جانبها. فقد تخلت بين ليلة وضحاها عن فتورها، ولم تعد ترى كل شيء جميلاً، وبدا كما لو أنها شفيت من عادة التكلم إلى الكائنات الخفية وتحريك الأثاث بوسائل خارقة. صارت تنهض في الفجر مع زوجها، ويتناولان الفطور معاً بعد ارتداء ملابسهما، ويذهب هو لمتابعة الأعمال في الحقول، بينما تتولى فيرولا مسؤولية البيت وبلانكا وخدم العاصمة الذين لم يعتادوا على منغصات وذباب الريف. وكانت كلارا توزع وقتها بين مشغل الخياطة والدكان والمدرسة حيث أقامت مقر قيادتها لتطبيق إجراءات علاجية ضد الجرب، والكيروسين ضد القمل، وكشف النقاب عن أسرار كتاب الهجاء، وتعليم الأطفال أغنية «عندي بقرة حلوب، وليس أي بقرة عادية»، وتعليم النساء غلي الحليب، وعلاج الإسهال، وتبييض الملابس. وعند الغروب، قبيل عودة الرجال من الحقول، تجمع فيرولا الفلاحات والأطفال من أجل صلاة المسبحة. وكانوا يأتون بدافع التعاطف أكثر من دافع الإيمان، ويمنحون العانس فرصة تذكر أزمنتها الطيبة في أحياء الفقراء. وكانت كلارا تنتظر إلى أن تنتهي أخت زوجها من ترتيلها صلوات «أبانا الذي في السماء» و«يا قديسة مريم»، فستغل الاجتماع لتكرر الشعارات التي سمعها من أمها حين كانت تقيّد نفسها على حديد سياج مجلس الشيوخ. فتستمع إليها النساء باسمات وخجلات، للسبب نفسه الذي يدفعهن للصلاة مع فيرولا: عدم مضايقة السيدة.

ولكن تلك العبارات الملتهبة تبدو لهن حكايات مجانين. وكن يتذرعن بالقول: «لم يُر قطّ رجلٌ لا يستطيع ضرب امرأته، وإذا كان لا يضربها فلأنه لا يحبها أو لأنه ليس رجلاً كامل الرجولة؛ وأين رؤي أن يكون ما يكسبه رجل أو ما تنتجه الأرض أو تضعه الدجاجات ملكاً للاثنين مادام هو من يأمر؛ وأين رؤي أن امرأة قادرة على عمل الأشياء نفسها التي يعملها رجل، وقد ولدت بثقب كخبز النخالة ودون خصيتين، يا دونيا كلارا».

وكانت كلارا تشعر باليأس. فيوكزن بعضهن بعضاً بالمرفق ويبتسمن خجلات بأفواههن الدرداء وأعينهن المغطاة بتجاعيد، وقد دبغتهن الشمس والحياة البائسة، وهن يعرفن مسبقاً أنه إذا خطرت لهن الفكرة الغريبة بوضع شعارات السيدة المالكة موضع الممارسة، فإن أزواجهن سيشبعونهن ضرباً. وهو ضرب مستحق في الحقيقة، مثلما تؤكد فيرولا نفسها. بعد وقت قصير علم إستيبان بالجزء الثاني من اجتماعات الصلاة، فاستشاط غضباً. كانت تلك هي أول مرة يغضب فيها من كلارا، وأول مرة تراه في واحدة من نوبات غضبه الشهيرة. كان إستيبان يصرخ كمجنون وهو يذرع الصالة بخطوات واسعة ويضرب قطع الأثاث بقبضته، ويقول إنه إذا كانت كلارا تفكر في السير على خطى أمها، فسوف تجد نفسها في مواجهة رجل راسخ الرجولة، سيُنزل لها سروالها ويجلدها على مؤخرتها ليخلصها من الرغبات اللعينة في تحريض الناس، وإنه يمنعها منعاً باتاً من عقد اجتماعات للصلاة أو لأي هدف آخر، وإنه ليس أبله يمكن لامرأته أن تجعل منه أضحوكة. تركته كلارا يصرخ ويوجه ضرباته إلى الأثاث إلى أن تعب، ثم سألته بعد ذلك، وهي ساهية كعادتها، إن كان يستطيع تحريك أذنيه.

طالت الإجازة، وتواصلت الاجتماعات في المدرسة. انتهى الصيف، وغطى الخريف الأرياف بالنار والذهب مبدلاً المشهد. ثم بدأت أول أيام البرد، والمطر والطين، دون أن تبدي كلارا ما يشير إلى أنها تريد الرجوع إلى العاصمة، على الرغم من ضغوط فيرولا التي تمقت الريف. ففي الصيف، كانت تتذمر من قيظ بعد الظهر وهش الذباب، ومن أتربة الفناء التي تملأ البيت بالغبار كما لو أنهم يعيشون في بئر منجم، ومن

ماء حوض الاستحمام الوسخ، حيث تتحول الأملاح العطرية إلى حساء صيني، ومن الصراصير الطيارة التي تندس بين ملاءات الفراش، ومن جحور الفئران والنمل، ومن العناكب التي يطلع عليها الصباح وهي تتخبط في كأس الماء على الكوميدينو، ومن الدجاجات الوقحة التي تضع بيضها في الأحذية وتتبرز على الملابس البيضاء في الخزانة. وعندما تبدل المناخ، وجدت مصائب أخرى تشكو منها: وحل الفناء، وقِصر النهار، ففي الساعة الخامسة يخيم الظلام ولا يكون هناك ما يمكن عمله، اللهم إلا مواجهة الليل الطويل متوحدة، والرياح والزكام، وكانت تكافحه بكمادات الأوكاليبتوس، دون أن تتمكن من الحيلولة دون انتقال العدوى من البعض إلى آخرين في سلسلة بلا نهاية. كانت ضجرة من الكفاح ضد عناصر الطبيعة دون أن تكون لديها أية سلوى أخرى سوى رؤية بلانكا تنمو وهي تبدو أشبه بآكلة لحم بشر، كما تقول عنها، تلعب مع ذلك الصبي القذر المدعو بيدرو الثالث، والأدهى أن الطفلة لا تجد أحداً من طبقتها تخالطه وتلعب معه، وهي تكتسب عادات سيئة، تمضي بخدين ملطخين بالوحل، وقروح متيبسة في الركبتين، «انظروا كيف تتكلم، كأنها هندية، لقد تعبتُ من نزع القمل من رأسها ووضع صبغة اليود على جربها». وعلى الرغم من دمدماتها، كانت تحافظ على صرامة وقارها، وعقيصة شعرها التي لا تتبدل، وبلوزتها المنشاة، وحزمة المفاتيح المعلقة على خصرها، ولا تتعرق أبداً، ولا تحك، وتحتفظ طيلة الوقت على تضوعها برائحة خفيفة من عطر الخزامى والليمون. لم يكن هناك من يظن بأن ثمة ما يمكن أن يفسد سيطرتها على نفسها، إلى أن أحست ذات يوم بلدغة في ظهرها. كان الوخز قوياً لم تستطع معه منع نفسها من الحك بمواربة، لكن ذلك لم يخفف عنها. وأخيراً ذهبت إلى الحمام وخلعت مشدها الذي كانت تلبسه حتى في أيام العمل القاسي. وعندما حلّت الأحزمة سقط جرذ غائب عن الوعي، أمضى هناك فترة الصباح بطولها وهو يحاول دون جدوى الزحف نحو المخرج، وهو محشور بين حواف المشد القاسية ولحم صاحبته المضغوط. وقد أصيبت فيرولا بأول أزمة عصبية في حياتها. وهرع الجميع على صرخاتها ووجدوها

محشورة في حوض الاستحمام، شاحبة من الرعب، ولا تزال نصف عارية، تطلق ولولات مخبولة وتشير بإصبع مرتجف إلى القارض الصغير الذي يسعى جاهداً للوقوف على قوائمه ويحاول التقدم نحو مكان آمن. قال إستيبان إنها سن اليأس ولا حاجة إلى الاهتمام بها. ولم يهتموا بها كذلك في نوبتها العصبية الثانية. وكان ذلك في يوم عيد ميلاد إستيبان. طلع صباح يوم أحد مشمس، وكانت هناك حركة كبيرة في البيت، لأنها المرة الأولى التي تقام فيها حفلة في الماريات الثلاث، منذ الأيام المنسية التي كانت فيها دونيا إسيتر صبية فتية. دعوا عدداً من الأقارب والأصدقاء الذين جاؤوا في القطار من العاصمة، وجميع اقطاعيي المنطقة، دون نسيان وجهاء القرية. وقبل أسبوع من الحفلة جرى إعداد المأدبة: نصف عجل للشواء في الفناء، وفطائر الكلى، وقدر دجاج بالخضار، وذرة مطبوخة، وقالب حلوى بالقشدة والخوخ، وأفضل نبيذ الموسم. وعند الظهر بدأ وصول المدعوين في عربات أو على الخيول، وامتلأ البيت الطيني بالأحاديث والضحك. خرجت فيرولا لحظة لتهرع إلى الحمام، وهو واحد من تلك الحمامات الفسيحة، يستقر مقعد المرحاض في منتصف الغرفة محاطاً بصحراء من الخزف الأبيض. وكانت قد جلست على ذلك المقعد المتوحد مثل عرش عندما فُتح الباب ودخل أحد المدعوين، ولم يكن إلا عمدة القرية، وهو يفك أزرار بنطاله، وقد أصابه بعض السكر من تناول المشروبات فاتحة الشهية. وحين رأى الآنسة وقف مشلولاً من الإرتباك والمفاجأة، وعندما تمكن من الإتيان برد فعل، كان الشيء الوحيد الذي خطر له هو التقدم نحوها بابتسامة معوجة، واجتياز الحجرة كلها، ومدّ يده وتحيتها بانحناءة احترام.

- ثوروبابيل بلانكو خاماسمي، في خدمتك - قال مقدماً نفسه.

«بالله عليكم! لا يمكن لأحد العيش بين أناس بمثل هذه الفجاجة. إذا أردتم يمكنكم البقاء في مطهر المتخلفين هذا، أما أنا فسوف أعود إلى المدينة، أريد أن أعيش كمسيحية، مثلما عشتُ على الدوام»، هتفت فيرولا حين تمكنت من الكلام عن الموضوع دون أن تنفجر في البكاء. ولكنها لم تذهب. فهي لا تريد الابتعاد عن كلارا، وقد وصل بها الأمر

إلى عبادة الهواء الذي تزفره. ومع أن الفرصة لم تعد تتاح لها لتحميمها والنوم معها، إلا أنها كانت تحاول التأكيد على محبتها لها بآلاف التفاصيل الصغير التي تكرس لها حياتها. فتلك المرأة الصارمة وقليلة اللطف مع نفسها ومع الآخرين، يمكن لها أن تصير عذبة وباسمة مع كلارا، وأحياناً مع بلانكا أيضاً على سبيل التوسع. فمعها فقط تسمح لنفسها بترف الاستسلام لرغبتها الجارفة في الخدمة وفي أن تكون محبوبة، ومعها تستطيع أن تُعرب، ولو بصورة متكتمة، عن أشد تطلعات روحها سرية ورهافة. فعلى امتداد سنوات طويلة من الوحدة والحزن راحت تصفي انفعالاتها وتنظف مشاعرها حتى اختزلتها في حفنة عواطف رهيبة وعظيمة تحتلها بالكامل. لم تكن لديها قدرة على الهموم الصغرى، أو الضغائن التافهة، أو الحسد المتكتم، أو أعمال الإحسان، أو أشكال الحنان الباهتة، أو المجاملات اللطيفة أو مظاهرالاحترام اليومية. كانت واحدة من تلك المخلوقات المولودة من أجل عظمة حب وحيد، من أجل حقد مبالغ فيه، من أجل انتقام قيامي، ومن أجل البطولية الأسمى، ولكنها لم تستطع ضبط قدرها على مقاس ميلها الرومانسي، فمضى ذلك القدر مسطحاً ورمادياً، بين جدران غرفةٍ مريضةٍ، وفي أحياء فقر بائسة، وفي اعترافات وعرة، راحت تُستهلك فيها هذه المرأة العظيمة، الرخية، ذات الدم المتأجج، المخلوقة للأمومة، للوفرة، للفعل والحدّة. كانت قد بلغت في ذلك الحين الخامسة والأربعين من عمرها، بفضل سلالتها الرائعة ومن أسلافها الموريسكيين البعيدين، كانت تحتفظ ببشرتها الصقيلة، وشعرها الأسود الحريري، مع خصلة وحيدة بيضاء فوق الجبهة، وبجسد قوي ونحيل، ومشية الناس الأصحاء الحازمة، ومع ذلك، كانت صحراء حياتها تضفي عليها مظهراً أكبر من عمرها بكثير. لدي صورة لفيرولا ملتقطة في تلك السنوات، خلال احتفال بعيد ميلاد بلانكا. إنها صورة عتيقة، جعلها مرور الزمن باهتة، حيث يمكن مع ذلك رؤيتها بوضوح. إنها سيدة مهيبة وفخمة، ولكن تكشيرة مرارة تظهر على وجهها وتعكس مأساتها الداخلية. ربما كانت تلك السنوات التي أمضتها إلى جانب كلارا هي سنوات السعادة الوحيدة التي عرفتها، لأنها لم تستطع

بناء علاقة مودة إلا مع كلارا التي كانت مستقر أشد انفعالاتها رقة، ولها كرست قدراتها الهائلة على التضحية والتوقير. وقد تجرأت ذات مرة على قول ذلك، وكتبت كلارا في دفتر مدونات حياتها أن فيرولا تحبها أكثر بكثير مما تستحقه ومما تستطيع الردّ عليه. وبسبب ذلك الحب الطاغي لم تشأ فيرولا مغادرة الماريات الثلاث، حتى عندما حلّت بهم جائحة النمل التي بدأت بخرخرة في الحقول، وبشبح أسود ينزلق بسرعة ملتهماً كل شيء، زروع الذرة، والقمح، والبرسيم، ودوار الشمس. راحوا يرشونها بالكيروسين ويشعلون النار فيها، ولكنها تعود للظهور باندفاع متجدد. يطلون جذوع الأشجار بالكلس الحي، ولكنها تصعد عليها دون توقف لتنقض على الكمثرى والتفاح والبرتقال، تدخل البستان وتقضي على الشمّام، تدخل مشغل الألبان فيطلع الصباح على الحليب وقد حمض وامتلأ بجثثها الصغيرة، تتسل إلى زرائب الطيور وتلتهم الفراخ وهي حية، مخلفة بقايا ريش وبعض عظام صغيرة مؤثرة. تشكّل دروباً داخل البيت، وتندس في الأنابيب، وتحتل خزانة الأطعمة، فكان لا بد من أكل كل ما يُطبخ، لأنه إذا ما بقي دقائق قليلة على المائدة، يصل إليه النمل في موكب ويلتهمه. كافحها بيدرو غارثيا الثاني بالماء والنار، ودفن قطع إسفنج مبللة بعسل النحل كي تجتذبها الحلاوة وتجتمع ليتمكن من قتلها دون صعوبة، ولكن ذلك كله لم يكن مجدياً. ذهب استيبان تروبيا إلى القرية وعاد بكل أنواع المبيدات المعروفة، على شكل مساحيق وسوائل وأقراص، ونثر الكثير منها في كل مكان، حتى لم يعد بالإمكان أكل الخضروات، لأن أكلها صار يسبب مغصاً في البطن. لكن النمل واصل الظهور والتكاثر، وكان في كل يوم يزداد وقاحة وتصميماً. فذهب استيبان مرة أخرى إلى القرية وأرسل برقية إلى العاصمة. وبعد ثلاثة أيام من ذلك وصل إلى المحطة المستر براون، وهو غرينغي قزم، يحمل حقيبة غامضة، قدمه استيبان على أنه تقني زراعي خبير بإبادة الحشرات. وبعد أن ابترد بإبريق من النبيذ مع الفواكه، فتح حقيبته فوق المنضدة. وأخرج ترسانة من الأدوات التي لم يُر مثلها من قبل، وبادر إلى إمساك نملة وتفحصها بتمعن بواساطة مجهر.

ـ ما الذي تنظر إليه كل هذا الوقت يا مستر، فجميعها متشابهة؟ ـ قال بيدرو غارثيا الثاني.

لم يجبه الفرينغي. وعندما انتهى من تحديد سلالتها، وأسلوب حياتها، ومواضع جحورها، وعاداتها، وحتى أشد نواياها سرية، كان قد انقضى أسبوع، وكان النمل قد اندس في فراش الأطفال، وأكل مخزون المؤن المحفوظة للشتاء، وبدأ بمهاجمة الخيول والأبقار. عندئذ أوضح مستر براون أنه لا بد من رشها بمادة من اختراعه تصيب ذكور النمل بالعقم، وبهذا يتوقف تكاثرها، ويتوجب بعد ذلك رشها بسمّ آخر، وهو من اختراعه أيضاً، يسبب مرضاً مميتاً بين الإناث، وأكد أن ذلك سينهي المشكلة.

ـ وكم من الوقت سيستغرق الأمر؟ ـ سأله إستيبان ترويبا الذي بدأ نفاد صبره بالتحول غضب.

ـ شهر ـ قال مستر براون.

ـ خلال هذا الوقت سيكون النمل قد أكل حتى البشر أنفسهم يا مستر ـ قال بيدرو غارثيا الثاني ـ. إذا سمحت لي يا سيد المالك، فسوف أستدعي أبي. فمنذ ثلاثة أسابيع وهو يقول لي إن لديه علاجاً للجائحة. أنا أظن أنها وسائل رجل عجوز، ولكننا لن نخسر شيئاً بتجريبها.

استدعوا بيدرو غارثيا العجوز، فجاء يجرجر قدميه، وكان قد ازداد قتامة، وتضاءل حجمه، وفقد أسنانه، حتى إن استيبان أحس بقشعريرة حين رأى أثر الزمن. استمع العجوز وهو يمسك قبعته بيده وينظر إلى الأرض ويمضغ الهواء بلثتيه الدردائين. ثم طلب منديلاً أبيض، جاءته به فيرولا من خزانة استيبان، فخرج من البيت، واجتاز الفناء متجهاً مباشرة إلى البستان، يتبعه جميع سكان البيت ومعهم الغريب القزم الذي كان يتبسم بازدراء: يا لهؤلاء الهمج، oh God! قرفص العجوز بصعوبة وبدأ يجمع نملاً. وعندما صارت لديه حفنة منه، وضعها في المنديل، وربط أطرافه الأربعة ودس الحزمة في قبعته.

ـ سأريك الطريق أيها النمل، كي تذهب، كي تأخذ معك البقية ـ قال.

ركب العجوز حصاناً وسار به متمتماً بنصائح ووصايا للنمل، وتراتيل

حكمة وعبارات سحر. رأوه يبتعد باتجاه حدود الملكية. فجلس الغرينغو على الأرض ضاحكاً كمعتوه إلى أن هزه بيدرو غارثيا الثاني.

ـ اذهب واضحك على جدتك يا مستر، ولا تنس أن هذا العجوز هو أبي ـ قال له محذراً.

رجع بيدرو غارثيا العجوز عند الغروب. نزل على الحصان ببطء، وقال للسيد إنه قد وضع النمل على الطريق، وذهب إلى بيته لأنه كان متعباً. وفي اليوم التالي لم يجدوا نملاً في المطبخ، ولا في مستودع المؤونة، وبحثوا في أهراء الحبوب، وفي الاسطبل، وفي زائب الدجاج، وخرجوا إلى الحقول، وذهبوا حتى النهر، فتشوا كل مكان ولم يجدوا نملة واحدة، ولو مجرد عينة. استشاط الخبير غضباً:

ـ يجب عليك أن تخبرني كيف فعلت ذلك؟

ـ بالتكلم إليها يا مستر. قل للنمل أن يذهب، وإنه يسبب الإزعاج وسيفهم ـ أوضح بيدرو غارثيا العجوز.

الوحيدة التي اعتبرت أن ذلك الأسلوب طبيعي هي كلارا. أما فيرولا فتمسكت بهذه الفرصة لتقول إنها تجد نفسها في جحر، في منطقة غير إنسانية، حيث لا مفعول لقوانين الرب ولا لتقدم العلم، وإنهم سيبدؤون ذات يوم بالطيران وهم يمتطون مكانس، غير أن إستيبان ترويبا اسكتها: لأنه لا يريد لهم أن يُدخلوا افكاراً جديدة في رأس امرأته. ففي الأيام الأخيرة كانت كلارا قد عادت إلى مشاغلها الشاذة، والتحدث إلى الأشباح، وقضاء ساعات وهي تكتب في دفاتر مدوناتها عن الحياة. وعندما فقدت اهتمامها بالمدرسة ومشغل الخياطة والاجتماعات النسوية، وعادت تبدي رأيها بأن كل شيء جميل، أدرك الآخرون أنها حُبلى ثانية.

ـ هذا بسببكَ أنت! ـ صرخت فيرولا بأخيها.

ـ هذا ما آمل به ـ أجابها.

وسرعان ما تبين أن كلارا ليست في ظروف تسمح لها بقضاء فترة الحمل في الريف والولادة في القرية، فرتبوا أمر العودة إلى العاصمة. فوجدت فيرولا بعض العزاء في ذلك، لأنها كانت تشعر بحبل كلارا

كخزي شخصي. وقد سافرت أولاً مع القسم الأكبر من الأمتعة والخدم كي تفتح بيت الناصية الكبير وتهيء لمجيء كلارا. وبعد أيام رافق إستيبان زوجته وابنته إلى المدينة وترك الماريات الثلاث مجدداً بين يدي بيدرو غارثيا الثاني الذي تحول إلى وكيل، وإن لم يكن يحظ مقابل ذلك بأي امتيازات، وإنما بمزيد من العمل وحسب.

استنزفت الرحلة من الماريات الثلاث إلى العاصمة قوى كلارا. لقد رأيتُها تزداد شحوباً، ويشتد ربوها، وتتسع الزرقة حول عينيها. ومع اهتزاز عربة الخيول وبعد ذلك القطار، وغبار الطريق، وقابليتها الطبيعية للدوار، راحت تفقد طاقتها بصورة ظاهرة للعيان دون أن يكون بإمكاني فعل الكثير لمساعدتها، لأنها تفضل الا يكلمها أحد عندما تكون في حالة سيئة. وحين نزلنا في المحطة اضطررتُ إلى إسنادها، لأن ساقيها خارتا.

- أظن أنني سأطفو - قالت.

- ليس هنا! - صحتُ بها وقد أرعبتني فكرة خروجها محلقة فوق رؤوس المسافرين على رصيف المحطة.

ولكنها لم تكن تعني الطفو بالضبط، وإنما الصعود إلى مستوى يتيح لها التخلص من الإزعاج، من ثقل حملها، من الإنهاك العميق الذي يتغلغل حتى عظامها. دخلت في مرحلة أخرى من مراحل صمتها الطويل، وأظنها استمرت عدة شهور، كانت تستخدم خلالها اللوح الحجري الصغير، كما في أزمنة خرسها. لم أقلق في هذه المناسبة، لأنني عرفت أنها ستستعيد حالتها الطبيعية مثلما حدث بعد مولد بلانكا، وكنت قد توصلت من جهة أخرى إلى إدراك أن الصمت هو ملجأ امرأتي المنيع الأخير، وليس مرضاً ذهنياً مثلما يؤكد الدكتور كويفاس. كانت فيرولا تعنى بها بالهوس نفسه الذي عنت به بأمنا من قبل، وتعامل كلارا كما لو أنها مقعدة، فلا تتركها وحدها، وأهملت رعاية بلانكا التي كانت تبكي طوال النهار لأنها تريد الرجوع إلى الماريات الثلاث. كانت كلارا تجوب أنحاء البيت كشبح بدين وصامت، بلامبالاة بوذية بكل ما يحيط بها. أما أنا فلم تكن تنظر إليّ، تمر إلى جانبي كما لو أنني قطعة

أثاث، وعندما أوجهُ إليها الكلام تظل ساهية كأنها في القمر، كمن لا تسمعني أو لا تعرفني. لم نعد ننام معاً. وكانت أيام البطالة في المدينة والجو غير العقلاني الذي نتنفسه في البيت يستنفران أعصابي. فكنت أحاول إبقاء نفسي مشغولاً، لكن ذلك لم يكن كافياً: لقد كنت معكر المزاج على الدوام. أخرج كل يوم لمتابعة أعمالي. وفي هذه الفترة بدأت المضاربة في البورصة التجارية وقضاء ساعات في دراسة تقلبات الأسعار العالمية، وانغمست في استثمار الأموال، وتأسيس شركات، وفي أعمال الاستيراد. كنت أقضي ساعات طويلة في النادي. وبدأت أهتم بالسياسة أيضاً، وحتى أنني انضممت إلى النادي الرياضي، حيث أجبرني مدرب مارد على تمرين عضلات لم أكن أظن أنها موجودة في جسدي. وكانوا قد نصحوني بالمساجات، ولكن ذلك لم يرق لي قط، فأنا أكره أن تمسني أيد مرتزقة. ولكن شيئاً من ذلك كله لم يكن يملأ يومي، كنت قلقاً وضجراً، أريد العودة إلى الريف، ولكنني لم أتجرأ على ترك البيت، حيث كان وجود رجل عاقل بين أولئك النساء الهستيريات حاجة ضرورية ظاهرة للعيان. أضف إلى ذلك أن كلارا كانت تسمن كثيراً. فقد صار بطنها ضخماً إلى حد لا يكاد هيكلها العظمي الهش يقوى على حمله. وكانت تخجل من رؤيتي لها عارية، ولكنها امرأتي ولا يمكنني السماح بأن تخجل مني. كنتُ أساعدها على الاغتسال وارتداء ملابسها عندما لا تسبقني فيرولا، وأشعر بأسى غير متناهٍ عليها، فهي ضئيلة ونحيلة جداً بكرش مسخ ضخم، تقترب بصورة حرجة من موعد وضع الوليد. كثيراً ما كانت تؤرقني فكرة أنها قد تموت أثناء الولادة فأختلي بالدكتور كويفاس لمناقشة أفضل طريقة لمساعدتها. وقد اتفقنا على أنه من الأفضل، إذا لم تسر الأمور على ما يرام، إجراء عملية قيصرية أخرى لها، ولكنني لا أريد أن يأخذوها إلى مستشفى، وهو يرفض إجراء عملية ثانية لها في مطبخ البيت، كما في المرة الأولى. يقول إنه لا وجود في البيت لوسائل الراحة اللازمة، ولكن المستشفيات في ذلك الحين كانت بؤر التهابات، ومن يموتون هناك أكثر ممن ينجون.

وذات يوم، وكان موعد الولادة قد اقترب، نزلت كلارا دون إنذار

مسبق من ملجئها البراهمي، وعادت إلى الكلام. أرادت فنجاناً من الشكولاته، وطلبت مني أن آخذها في نزهة. كاد قلبي أن يطفر من مكانه. وامتلأ البيت بالسعادة، فتحنا شمبانيا، وأمرتُ بوضع أزهار طازة في جميع الزهريات، وأوصيت لها على أزهار كاميليا، أزهارها المفضلة، وفرشت بها غرفتها، حتى بدأت تعاني الربو، فاضطررنا إلى إخراج الزهور بسرعة قصوى. هرعتُ إلى شارع الصاغة اليهود لأشتري لها مشبكاً من الماس. وشكرتني كلارا بفرح، فقد وجدته جميلاً، ولكنني لم أرها تضعه قطّ. أعتقد أنه قد انتهى إلى مكانٍ وضعته فيه ثم نسيته تماماً، مثل معظم الحلي التي اشتريتها لها على امتداد حياتنا المشتركة. استدعيتُ الدكتور كويفاس الذي حضر بذريعة تناول الشاي، ولكنه جاء في الواقع لفحص كلارا. أخذها إلى حجرتها، وقال بعد ذلك لي ولفيرولا إنها إذا كانت قد شفيت من أزمتها الذهنية، فإنه علينا بالمقابل الاستعداد لولادة عسيرة، لأن الطفل ضخم جداً. وفي تلك اللحظة دخلت كلارا إلى الصالون، ولا بد أنها سمعت الجملة الأخيرة.

ـ كل شيء سيجري على ما يرام، فلا تقلقوا ـ قالت.

ـ آمل أن يكون ذكراً هذه المرة، كي يحمل اسمي ـ قلتُ مازحاً.

ـ إنه ليس واحداً، بل اثنان ـ ردّت كلارا، ثم أضافت: ـ سيسمى التوءمان خايمي ونيكولاس على التوالي.

كان ذلك كثيراً عليّ. وأظن أنني انفجرتُ من الضغط المتراكم في الشهور الأخيرة. استشطتُ غضباً، وتعللت بأنها أسماء تجار غرباء، وأنه لا أحد يسمى بهذه الأسماء في أسرتي ولا في أسرتها، وأن واحداً منهما على الأقل يجب أن يسمى إستيبان، مثلي ومثل أبي، ولكن كلارا أوضحت أن تكرار الأسماء يولّد التباساً في دفاتر تدوين حياتها وظلت مصممة على قرارها. ومن أجل إخافتها كسرت بضربة من يدي زهرية خزفية أظن أنها الأثر الأخير من أزمنة جدّ أبي المتألقة، ولكنها لم تتأثر، وابتسم الدكتور كويفاس من وراء فنجان شايه، فزاد ذلك من سخطي. خرجتُ صافقاً الباب وذهبت إلى النادي.

في تلك الليلة سكرت. ولأنني كنتُ بحاجة إلى ذلك من جهة، ومن

أجل الانتقام من جهة أخرى، ذهبتُ إلى أشهر ماخور في المدينة، وكان له اسم تاريخي. أريد أن أوضح أنني لست رجل عاهرات، ولم ألجأ إليهن إلا في الفترات التي يكون عليّ فيها أن أعيش وحيداً لفترات طويلة. لا أدري ما الذي حدث لي في ذلك اليوم، كنتُ غاضباً من كلارا، أمضي ساخطاً، وتفيض لدي الطاقة، فوقعت في الغواية. في تلك السنوات كانت تجارة ماخور الكريستوفر كولومبس مزدهرة، ولكنه لم يكن قد اكتسب بعد الشهرة العالمية التي توصل إلى اكتسابها بعد أن صار يظهر على خرائط شركات الملاحة الإنكليزية وفي كتيبات الترويج السياحية، وبعد أن صوروه للتلفزيون. دخلت إلى قاعة أثاث فرنسي، من ذاك الأثاث ذي القوائم الملوية، حيث استقبلتني قوادة محلية تقلد اللهجة الباريسية باتقان، وبدأت بعرض قائمة الأسعار عليّ، ثم بادرت إلى سؤالي عما إذا كانت هناك واحدة معينة في ذهني. فقلت لها إن تجربتي تقتصر على القنديل الأحمر وعلى بعض المواخير البائسة في مناجم الشمال، بحيث يمكن لأي امرأة شابة ونظيفة أن تناسبني.

ـ إنني أستلطفك يا ميسيو ـ قالت ـ. سآتيك بأفضل من في المحل.

وعلى ندائها هرعت امرأة محشورة في فستان ضيق جداً من مخمل أسود، يكاد لا يتسع لفيض أنوثتها. وكان شعرها مسرحاً إلى جهة واحدة فوق أذنها، وهي تسريحة لم ترق لي قط، وتفوح منها رائحة مسك رهيبة تظل طافية في الهواء بمثل إلحاح آهة.

ـ تسعدني رؤيتك أيها السيد المالك ـ قالت محيية، وعرفتها فوراً، لأن الصوت هو الشيء الوحيد الذي لم يتبدل في ترانسيتو سوتو.

قادتني من يدي إلى حجرة مغلقة كقبر، نوافذها مغطاة بستائر قاتمة، لم يدخلها شعاع نور طبيعي منذ زمن غير معروف، لكنها أشبه بقصر على أي حال إذا قورنت بحجرات القنديل الأحمر القذرة. وهناك نزعتُ بنفسي فستان المخمل الأسود عن ترانسيتو، وحللتُ تسريحة شعرها الفظيعة، ورأيت كيف أنها كبرت في تلك السنوات، وازدادت وزناً وجمالاً.

ـ أرى أنكِ تقدمتِ كثيراً ـ قلت لها.

ـ بفضل الخمسين بيزو التي أعطيتني إياها أيها السيد. كان المبلغ

مفيداً كي أبدأ ـ أجابتني ـ. يمكنني الآن أن أعيده إليك معدلاً، لأن قيمة المبلغ لم تعد كالسابق مع هذا التضخم.

ـ أُفضل أن تظلي مدينة لي بجميل يا ترانسيتو! ـ قلتُ ضاحكاً.

انتهيت من نزع ملابسها الداخلية، وتبين لي أنه لم يكد يبقى شيء من الصبية النحيلة بارزة عظام المرفقين والركبتين التي كانت تعمل في القنديل الأحمر، باستثناء قابليتها الحسية المفرطة وصوتها الذي مثل صوت طائر أبح. كان جسدها منتوف الشعر، وبشرتها مدلكة بالليمون والعسل، كي تصير ناعمة وبيضاء كبشرة طفلة حسب قولها. وكانت أظفارها مصبوغة بالأحمر، وحول سرتها وشم ثعبان يمكنها تحريكه في حركة دائرية بينما بقية جسدها ثابت تماماً دون حراك. وبينما هي تريني مهارتها في جعل الثعبان يتموج، حدثتني عن حياتها.

ـ ما الذي كنت سأصير إليه لو ظللت في القنديل الأحمر أيها السيد؟ لو بقيت هناك لما كانت لي الآن أسنان، ولكنت عجوزاً. فإحدانا تُستنزف سريعاً في هذه المهنة، ولا بد من العناية بالنفس. كما أنني لا أخرج للعمل في الشارع. فأنا لم أرغب في ذلك قط، لأنه عمل خطر. ولا بد أن يكون لإحدانا قواد في الشارع وإلا فإن المجازفة كبيرة. لا أحد يحترمنا هناك. ولكن، لِمَ نعطي لرجل ما نتكلف مشقة كبيرة في كسبه؟ النساء بهذا المعنى مغفلات. إنهن بنات الحاجة. يحتجن إلى رجل للشعور بالأمان ولا يفهمن أن الشيء الوحيد الذي عليهن خشيته هو الرجال أنفسهم. لا يعرفن إدارة شؤونهن، يضحين بأنفسهن في سبيل أحدهم. والعاهرات هن الأسوأ، صدقني أيها السيد. يغادرن الحياة وهن يعملن من أجل قواد، ويبتهجن عندما يضربهن، ويشعرن بالفخر حين يرينه متأنق الملبس، وفي فمه أسنان ذهبية، ويضع خواتم، وعندما يتركهن ويذهب مع أخرى أكثر شباباً، يغفرن له «لأنه رجل». لا أيها السيد، أنا لست كذلك. فأنا لم يُعلني أحد، ولهذا لن أتولى إعالة شخص آخر حتى لو كنت مجنونة. أعملُ لنفسي، وما أكسبه أنفقه مثلما أشاء. لقد كلفني ذلك الكثير، ولا تظن أن الأمر كان سهلاً، فصاحبات المواخير لا يروقهن التعامل مع النساء، بل يفضلن التفاهم مع القوادين. إنهن لا يساعدن إحدانا. لا يأخذننا في الاعتبار.

ـ ولكنهم يقدرونك هنا كما يبدو يا ترانسيتو. لقد أخبروني أنك الأفضل في المحل.

ـ إنني كذلك، صحيح. ولكن هذا المحل سينهار لولا وجودي، فأنا أعمل كحمارة ـ قالت ـ. الأخريات صرن أشبه بخرق بالية أيها السيد. ومن يأتون هنا هم رجال مسنون، فالأمر لم يعد كما في السابق. لابد من تحديث هذا المحل من أجل اجتذاب الموظفين العموميين، ممن لا شيء لديهم يعملونه في استراحة الظهيرة، والشباب، والطلاب. لابد من توسيع المنشأة، وإضفاء مزيد من المرح على المحل وتنظيفه. تنظيف في العمق! هكذا يشعر الزبائن بالثقة ولا يفكرون في أنهم قد يجازفون بإصابتهم بمرض زهري، أليس صحيحاً؟ إنهم لا ينظفون المكان أبداً، انظر، ارفع الوسادة ولا شك أن بقة ستخرج لك. لقد قلت ذلك للمدام، ولكنها لا تهتم. لا تتمتع بحس تجاري.

ـ وهل تتمتعين به أنت؟

ـ بالطبع أيها السيد! أنا تخطر لي مليون فكرة لتحسين الكريستوفر كولومبس. إنني أضع حماسة في هذه المهنة. لست من أولئك اللواتي لا يفعلن سوى الشكوى وإلقاء المسؤولية على سوء الحظ عندما تسوء حالهم. ألا ترى إلى أين وصلت؟ إنني الأفضل. وإذا ما سعيت، يمكن لي أن أمتلك أفضل بيت دعارة في البلاد، أقسم لك.

لقد أبهجتني كثيراً. فأنا أعرف كيف أقدّرها، لأنني من كثرة ما رأيت الطموح في المرآة وأنا أحلق ذقني في الصباح، انتهى بي الأمر إلى تعلم التعرف عليه عندما أراه في وجوه الآخرين.

ـ تبدو لي فكرة رائعة يا ترانسيتو. لماذا لا تقيمين محلك الخاص؟ سأقدم لك رأس المال ـ عرضتُ عليها ذلك مفتوناً بفكرة توسيع مصالحي التجارية في ذلك الاتجاه، وكم كنت سكراناً!

ـ لا، شكراً أيها السيد ـ ردّت ترانسيتو وهي تداعب ثعبانها بإظفر مطلي باللّك الصيني ـ. لا يناسبني الخروج من قبضة رأسمالي لأقع في قبضة آخر. ما يتوجب عمله هو تعاونية والتخلص من المدام. ألم تسمع بهذا الأمر؟ كن حذراً، إذا ما شكّل مزراعوك تعاونية في الريف، فسوف

تتخوزق. ما أريده أنا هو تعاونية عاهرات. ويمكن أن يكن عاهرات ومخنثين، لمنح التجارة مزيداً من الاتساع. وسوف نضع نحن كل شيء: رأس المال والعمل. ما حاجتنا إلى أرباب عمل؟

مارسنا الحب بالطريقة العنيفة والشرسة التي كدت أنساها لكثرة ما أبحرت في سفينة مياه الحرير الأزرق الساكنة. وفي ذلك الاختلاط للوسائد والملاءات، ونحن مشدودان في عقدة الشهوة المتأججة، متداخلان حتى التلاشي، عدت إلى الإحساس بأنني في العشرين من عمري، سعيداً بإمتلاكي بين ذراعي تلك الأنثى السمراء الباسلة التي تصير لينة كخرق إذا ما اعتليتها، فرس قوية يمكن امتطائها دون تروٍ أو تفكير في أن يديك قد تبدوان لها ثقيلتين جداً، أو صوتك قاس، أو قدميك كبيرتين، أو لحيتك خشنة، إنها مثل أحدنا، تتحمل سلسلة من البذاءات في مسمعها، ولا تحتاج إلى احتضانها بحنان ولا خداعها بمغازلات رقيقة. وبعد ذلك، بينما أنا مخدر وسعيد، استرحت لبعض الوقت إلى جانبها، مُقدّراً انحناءة ردفها المتين، ورعشة ثعبانها.

- سنلتقي مجدداً يا ترانسيتو - قلت وأنا أقدم لها إكرامية.

- هذا ما قلته لك أنا من قبل أيها السيد، هل تتذكر؟ - أجابتني برجفة أخيرة من ثعبانها.

لم أكن أنوي، في الحقيقة، العودة لرؤيتها. بل كنت أفضل نسيانها.

وما كنت لأذكر هذه الواقعة لو لم تلعب ترانسيتو دوراً بالغ الأهمية بالنسبة لي بعد زمن طويل، لأني، مثلما قلت من قبل، لست رجل مومسات. ولكن ما كان يمكن لهذه القصة أن تُكتب لو لم تتدخل هي لإنقاذنا، وإنقاذ ذكرياتنا في أثناء ذلك.

بعد أيام قليلة، وبينما كان الدكتور كويفاس يُهيئهم معنوياً من أجل فتح بطن كلارا مرة أخرى، مات سيفيرو ونيفيا دل باييه مخلفين العديد من الأبناء وسبعة وأربعين حفيداً على قيد الحياة. علمت كلارا بالأمر قبل الآخرين من خلال حلم، ولكنها لم تخبر بذلك إلا فيرولا التي

حاولت طمأنتها موضحة أن الحبل يسبب حالة رعب يكثر فيها تواتر الأحلام السيئة. ضاعفت من عنايتها بها، فكانت تدلكها بزيت لوز حلو لتجنبها التشققات في جلد البطن، وتضع عسل نحل على حلمتي نهديها كيلا يغورا، وتطعمها قشور بيض مطحونة ليكون حليبها جيداً ولا تُنخر أسنانها، وترتل لهو صلوات مهد بيت لحم من أجل ولادة سهلة. وبعد يومين من الحلم، عاد إستيبان تروبيا إلى البيت أبكر من العادة، وكان شاحباً ومضطرباً، فأمسك أخته فيرولا من ذراعها واختلى بها في المكتبة.

ـ لقد مات حمواي في حادث ـ قال لها بإيجاز ـ. لا أريد أن تعرف كلارا ذلك إلى ما بعد الولادة. يجب فرض سياج من الرقابة حولها، فلا صحف، ولا مذياع، ولا زيارات، ولا أي شيء! راقبي الخدم كيلا يقول أحدهم شيئاً.

ولكن نواياه الطيبة اصطدمت بقوة تنبؤات كلارا. ففي تلك الليلة عادت للحلم بأبويها يتمشيان في حقل بصل، وبأن نيفيا كانت تمشي بلا رأس، وهكذا عرفت كل ما حدث دون حاجة إلى قراءته في الجريدة أو سماعه من المذياع. استيقظت منفعلة جداً وطلبت من فيرولا أن تساعدها في ارتداء ثيابها، لأنها تريد الخروج للبحث عن رأس أمها. هرعت فيرولا إلى إستيبان، واستدعى هذا بدوره الدكتور كويفاس الذي قدم لها شراباً مخصصاً للمجانين، على الرغم من المجازفة بإلحاق ضرر بالتوءمين، لجعلها تنام يومين، ولكن لم يكن للعقار أدنى مفعول عليها.

مات الزوجان دل بايه مثلما حلمت كلارا، ومثلما كانت نيفيا نفسها قد أعلنت مراراً، بمزاح، إنهما سيموتان.

ـ سنقتل نفسينا ذات يوم في هذه الآلة الجهنمية ـ كانت نيفيا تقول وهي تشير إلى سيارة زوجها العتيقة.

لقد كان لدى سيفيرو دل بايه منذ شبابه ضعف تجاه الاختراعات الحديثة. ولم تكن السيارة استثناء. ففي الأزمنة التي كان الجميع فيها يتنقلون مشياً على الأقدام، أو في عربات الخيول، أو على الدراجات الهوائية، اشترى أول سيارة وصلت إلى البلاد، وكانت معروضة كشيء غريب ومثير للفضول في واجهة في مركز المدينة. لقد كانت أعجوبة

آليـة تنــدفع بـسـرعة انتحاريـة تـصل إلى خمـسة عـشر، وحتـى عـشرين كيلومتراً فـي الساعة، وسط ذهـول المشاة، ولعنـات من يلطخهـم مرورهـا بالوحل أو يغطيهم بالغبـار. وقـد عُورضـت فـي أول الأمـر باعتبارهـا خطـراً عامـاً. وأوضـح علمـاء لامعـون فـي الـصحافة أن الجـسم البـشري غير مهيـأ لتحمل الاندفاع بسرعة عشرين كيلوكتراً في الساعة وأنه يمكن للمادة الجديدة المدعوة بنزين أن تشتعل وتحدث متوالية من الانفجـارات قد تـودي بالمدينة كلها. حتى الكنيسة نفسها تدخلت في القضية. فالأب ريستريبو الذي كانت عينه على آل دل بابيه منذ حادثة كلارا البغيضة فـي قـداس الخميس المقدس، نصّب نفسه حارسـاً علـى العـادات الحميـدة ورفـع صـوته الغاليسي ضد «amicis rerum novarum» [أصدقـاء الأشيـاء الجديـدة]، مثل تلـك الآلات الـشيطانية الـتي قارنهـا بالعربـة الـتي اختفـى بهـا الـنبي إيليـا متوجهاً إلى السماء. ولكن سيفيرو تجاهل الضجة، وبعد وقت قصير حذا سـادة آخـرون حـذوه، إلى أن لم يعـد مـشهد الـسيارات أمـراً مـستجداً. اسـتخدمها لأكثـر مـن عـشر سـنوات، ورفـض اسـتبدال الموديـل عنـدما امتلأت المدينـة بسيارات حديثة أكثر فعاليـة وآمانـاً، للسبب نفسه الـذي جعل زوجته ترفض التخلص من خيول الجر حتى موتها هرمة بهدوء. كـان لـسيارة «الـسنبيم» سـتائر مـن الـدانتيلا وزهـريتين مـن الكريـستال فـي الجـانبين، تُبقـي نيفـيا فـيهما زهـوراً يانعـة علـى الـدوام، وكانـت لا تـزال مبطنـة بخـشب ملمـع وفـراء روسـية، وأجزاءهـا البرونزيـة تلمـع كالـذهب. وعلــى الــرغم مــن منــشئها البريطــاني، فقــد عُمــدت بالاســم الهنــدي *كوفادونغا*. والحقيقـة أنهـا كانـت علـى مـا يـرام، باسـتثناء أن مكابحهـا الـتي لم تعمـل جيـداً قـط. وكـان سيفـيرو فخـوراً بمهاراتـه الميكـانيكيـة. فقد فككها عدة مرات محاولاً إصلاحها، وعهـد بهـا فـي مـرات كـثيرة أخـرى إلى المُقَرَّن الكبير، وهـو ميكـانيكي إيطـالي يعتبر الأفضل فـي البلاد. وقد اكتسب لقبـه ذاك بعـد مأسـاة أظلمت حياتـه. يقـال إن امرأتـه ملّت من كثرة ما ركّبت له من قـرون دون أن يبـدي أي اهتمـام، فهجرتـه ذات ليلـة عاصـفة، ولكنهـا قبـل رحيلـها علقـت قرنـي كـبش، حـصلت عليهمـا مـن محـل الجـزارة، علـى طرفـي بوابـة ورشـة الميكـانيكي. وفـي

اليوم التالي، عندما وصل الإيطالي إلى عمله، وجد جوقة من الأطفال والجيران يسخرون منه. لم تؤثر تلك المأساة على سمعته المهنية، ولكنه أخفق هو نفسه أيضاً في إصلاح مكابح الـ *كوفادونغا*. فاختار سيفيرو أن يحمل معه حجراً كبيراً في السيارة، وعندما يتوقف في منحدر، يشدّ أحد الراكبين المكبح بينما ينزل الآخر بسرعة ويضع الحجرأمام العجلات. وكانت نتائج هذا الأسلوب جيدة على العموم، ولكن النتائج لم تكن كذلك في يوم الأحد المشؤوم الذي حدده القدر كآخر يوم في حياتيهما. فقد خرج الزوجان دل باييه للنزهة خارج المدينة مثلما يفعلان عادة في كل يوم مشمس. وفجأة توقفت المكابح عن العمل تماماً وقبل أن تتمكن نيفيا من القفز من السيارة كي تضع الحجر، أو يتمكن سيفيرو من المناورة، اندفعت السيارة نزولاً على المنحدر. حاول سيفيرو حرف مسارها أو وقفها، ولكن الشيطان كان قد استولى على الآلة التي طارت خارج السيطرة لتصطدم بعربة محملة بحديد البناء. دخلت إحدى الصفائح من الزجاج الأمامي وقطعت رأس نيفيا تماماً. خرج رأسها طائراً، وعلى الرغم من بحث الشرطة، وحرس الغابات والجيران المتطوعين الذين خرجوا لتتبع أثره مع الكلاب، كان من المحال العثور عليه طيلة يومين. وفي اليوم الثالث بدأت الجثتان بالتعفن فاضطروا إلى دفنهما ناقصتين في جنازة عظيمة حضرتها قبيلة آل دل باييه وعدد لا يُصدق من الأصدقاء والمعارف، فضلاً عن وفود نسائية خرجت لوداع رفات نيفيا التي كانت تعتبر آنذاك أول مناضلة نسوية في البلاد والتي قال عنها خصومها الأيديولوجيون إنها إذا كانت قد فقدت عقلها في الحياة، فليس هناك ما يدعو لأن تحتفظ به في موتها. أما كلارا المحبوسة في بيتها، محاطة بخدم يرعونها، وبوجود فيرولا كحارس، والدكتور كويفاس الذي يُبلّعها المهداءات، فلم تحضر الدفن. ولم تعلق بما يشير إلى أنها تعرف شيئاً عن مسألة الرأس الضائع المرعبة، وذلك احتراماً لجميع من حاولوا تجنيبها هذا الألم الأخير، ومع ذلك، وبعد أن انتهى المأتم وبدا أن الحياة عادت إلى طبيعتها، تمكنت كلارا من إقناع فيرولا بأن تخرج للبحث عن الرأس، ولم يُجدِ سعي أخت زوجها لإعطائها المزيد من الأشربة والأقراص

المسكّنة، لأنها لم تتراجع عما عزمت عليه. فهُزمت فيرولا وأدركت أنه ليس بالإمكان مواصلة التعلل بأن مسألة الرأس ليست إلا مجرد حلم سيئ من أحلامها، وأنه من الأفضل مساعدتها في خططها قبل أن يؤدي الجزع إلى فقدانها الاتزان. انتظرتا إلى أن خرج إستيبان ترويبا. فساعدتها فيرولا على ارتداء ملابسها واستدعت سيارة أجرة. كانت التعليمات التي وجهتها كلارا للسائق غير محددة بعض الشيء.

- سر حضرتكَ قدما، وأنا سأدلك على الطريق - قالت له مستعينة بغريزتها لرؤية ما هو خفي.

خرجوا من المدينة ودخلوا الفضاء المفتوح حيث تتباعد البيوت وتبدأ الهضاب والوديان الخفيفة، انحرفوا بإشارة من كلارا إلى طريق جانبي وواصلوا بين أشجار حور وحقول بصل إلى أن أمرت السائق بالتوقف إلى جانب بعض الشجيرات.

- إنه هنا - قالت.

- غير ممكن! إننا بعيدون جداً عن مكان الحادث! - تشككت فيرولا.

- أقول لكِ إنه هنا! - أصرت كلارا وهي تنزل من السيارة بمشقة، مؤرجحة بطنها الضخم، تتبعها أخت زوجها التي تتمتم تراتيل والرجل الذي ليست لديه أية فكرة عن سبب الرحلة. حاولت الزحف بين الشجيرات، ولكن حجم التوءمين حال دون ذلك.

- أرجوك أيها السيد أن تدخل هنا وتأتيني برأس سيدة ستجده أمامك - طلبت ذلك من السائق.

زحف الرجل بين الأشواك ووجد رأس نيفيا الذي بدا مثل شمامة متوحدة. حمله من الشعر وخرج به زاحفاً على أربع. وبينما الرجل يتقيأ مستنداً إلى شجرة قريبة، قامت فيرولا وكلارا بتنظيف رأس نيفيا من الأتربة والحصى التي اندست في الأذنين والأنف والفم، ورتبتا شعرها الذي تشعث قليلاً، ولكنهما لم تستطيعا إطباق عينيها. ولفتاه بشال ورجعتا إلى السيارة.

- أسرع أيها السيد، أظن أنني على وشك الوضع! - قالت كلارا للسائق.

وصلتا في الوقت اللازم بالضبط لوضع الأم في سريرها. وانهمكت

فيرولا في إعداد ما يلزم بينما ذهب خادم لاستدعاء الدكتور كويفاس والقابلة. وبفعل ارتجاج السيارة وانفعالات الأيام الأخيرة وأشربة الطبيب، اكتسبت كلارا في الولادة سهولة لم تحصل عليها مع ابنتها الأولى، فقد ضغطت أسنانها، وتشبثت بصاري مؤخرة السفينة الشراعية وسياجها، واستغرقت بكل قواها في مهمة إخراج خايمي ونيكولاس إلى الدنيا على مياة الحرير الأزرق، فكانت ولادتهما سريعة، تحت نظرات جدتهما، بعينيها اللتين ظلتا مفتوحتين تتفحصانهما من فوق الكوميدينو. أمسكتهما فيرولا على التوالي من خصل الشعر المبلل التي تغطي رقبتيهما وساعدتهما على الخروج وهي تشدهما بخبرة اكتسبتها من رؤية ولادة مهور وعجول في الماريات الثلاث. وقبل أن يصل الطبيب والقابلة، خبأت رأس نيفيا تحت السرير لتتجنب تقديم تفسيرات معقدة لهما. وعندما جاءا لم يجدا إلا القليل ليفعلانه، لأن الأم كانت ترتاح بهدوء، ومع أن الوليدين كانا ضئيلي الحجم مثل خديجين، إلا أنهما بدوا مكتملي الأعضاء وبحالة جيدة، وكانا ينامان بين ذراعي عمتهما المنهوكة.

تحول رأس نيفيا إلى مشكلة، لأنه لم يكن هناك مكان يضعونه فيه دون أن يُرى. وأخيراً وضعته فيرولا في علبة قبعة جلدية ملفوفاً ببعض الخرق. ناقشوا إمكانية دفنه كما ينبغي، ولكن عمل ذلك يتطلب إجراءات لانهائية من أجل التوصل إلى فتح القبر وضم الجزء الناقص إلى الجسد. وكانوا يخشون، من جهة أخرى، الفضيحة إذا ما شاع أمر الطريقة التي وجدت بها كلارا الرأس بعد أن أخفقت كلاب اقتفاء الأثر في ذلك. ولأن إستيبان تروبيا كان يخشى تحوله إلى أضحوكة، كعادته دائماً، فقد اختار حلاً لا يقدم ذرائع لألسنة السوء، لاسيما وأنه يعرف أن سلوك زوجته الغريب كان هدفاً للتقولات. كانت قد شاعت قدرة كلارا على تحريك الأشياء دون لمسها، وعلى معرفة المستحيل. وقد اعاد أحدهم إلى الذاكرة قصة خرس كلارا في طفولتها وما اتهمها به الأب ريستريبو، ذلك الرجل القديس الذي تتطلع الكنيسة إلى أن يكون أول من يُطوّب قديساً في البلاد. وقد افادت السنتان اللتان قضوهما في الماريات الثلاث

في إسكات الإشاعات وجعل الناس ينسون، غير أن ترويبا كان يعرف أنه يمكن لأي مسألة تافهة، مثل مسألة رأس حماته، أن تكون كافية كي تعود التقولات والنمائم إلى سابق عهدها. لهذا السبب، وليس بسبب الإهمال، حُفظت علبة القبعة في القبو بانتظار فرصة مناسبة لتوفير دفن مسيحي للرأس.

استعادت كلارا عافيتها من الوضع المزدوج بسرعة. وسلمت تربية الطفلين لأخت زوجها والنانا التي انتقلت بعد موت سيديّها القديمين للعمل في بيت آل ترويبا، كي تواصل خدمة الدم نفسه على حدّ قولها. لقد ولدت لتحتضن أبناء الآخرين، ولتستخدم ملابس يتخلى عنها آخرون، ولتأكل فضلاتهم، وتعيش على مشاعر وأحزان مستعارة، ولتشيخ تحت سقف آخرين، ولتموت ذات يوم في غرفتها الضيقة في الفناء الخلفي الأخير، على سرير ليس لها، ولتُدفن في قبر جماعي في المقبرة العامة. كانت قد قاربت السبعين من عمرها، ولكنها ظلت مواظبة على أعمالها، لا تكل من الذهاب والإياب، غير متأثرة بمرور الزمن، وبرشاقة تتيح لها التنكر كغول ومفاجأة كلارا في الزوايا كلما عاودتها نزوة البكم واللوح الصغير، وبقوة كافية للصراع مع التوءمين، وحنان لتدليل بلانكا، مثلما فعلت من قبل مع أمها وجدتها. كانت قد اكتسبت عادة تمتمة الصلوات بصورة دائمة، لأنها عندما انتبهت أنه لا أحد مؤمن في هذا البيت، تولت مسؤولية الصلاة عن كل أفراد الأسرة الأحياء، وعن جميع أمواتها أيضاً، كملحق إضافي للخدمات التي قدمتها لهم في الحياة. وعندما تقدمت بها السن أكثر، صارت تنسى من أجل من تصلي، ولكنها حافظت على عادتها ليقينها بأن صلاتها ستكون نافعة لأحد. وكانت التقوى هي الشيء الوحيد الذي يجمع بينها وبين فيرولا. أما في كل ما عدا ذلك فكانتا خصمين.

بعد ظهر يوم جمعة، قرعت باب بيت الناصية الكبير ثلاث سيدات شفافات، لهن أيدٍ رقيقة وأعين غائمة، يعتمرن قبعات مزينة بأزهار لم يعد استخدامها رائجاً، ومضمخات بعطر بنفسج بريّ مركّز تسرب إلى كافة

الحجرات وخلّف البيت عابقاً برائحة الأزهار لعدة أيام. إنهن الأخوات مورا الثلاث. كانت كلارا في الحديقة ويبدو أنها كانت تنتظرهن طيلة فترة بعد الظهر، وقد استقبلتهن وهي تحمل الطفلين وكل منهما يرضع من ثدي بينما بلانكا تلهو عند قدميها. تبادلت معهن النظرات، فتعارفن، وابتسمن. وكانت تلك بداية علاقة روحية قوية استمرت مدى الحياة، وإذا كانت نبوءاتهن المسبقة قد تحققت، فلا بد أن تكون تلك العلاقة قد تواصلت في عالم ما بعد الحياة.

كانت الأخوات مورا الثلاث دارسات للروحانيات والظواهر الخارقة، وكن الواحيدات اللواتي لديهن دليل لا يُدحض بأنه يمكن للأرواح أن تتجسد مادياً، ويتمثل دليلهن بصورة فوتوغرافيه تظهرهن حول منضدة وفوق رؤوسهن تحلق هيولى ملتبسة ومجنحة، ينسبها بعض غير المصدقين إلى لطخة في تظهير الصورة ويرى آخرون أنها مجرد خدعة من المصور. وقد علمن بوجود كلارا بوسائل سرية يصل إليها المطلعون، واتصلن بها تخاطرياً وأدركن على الفور أنهن أخوات بالتنبؤات الفلكية. ومن خلال تقصيات متكتمة عرفن عنوانها الأرضي وحضرن مع أوراق تنبئهم الخاصة المضمخة بسيالة ميمونة، ومعهن مجموعات أشكال هندسية وأرقام قبالية من اختراعهن، لكشف القناع عن النفسانيين المزيفين، وصينية حلويات عادية هدية لكلارا. صرن صديقات حميمات، واتفقن منذ ذلك اليوم على اللقاء كل يوم جمعة لاستحضار الأرواح وتبادل رموز القبالة السحرية والوصفات المطبخية. اكتشفن طريقة إرسال طاقة ذهنية من بيت الناصية الكبير حتى الطرف الآخر من المدينة، حيث تعيش الأخوات مورا، في طاحونة قديمة حوّلنها إلى مسكن عجيب لهن، وإرسالها في الاتجاه المعاكس أيضاً، وبهذا صار بإمكانهن تبادل الدعم في ظروف الحياة اليومية الصعبة. كانت الأخوات مورا يعرفن نساء كثيرات، جميعهن تقريباً من المهتمات بهذه الأمور، وقد بدأن بحضور لقاءات أيام الجمعة وقدمن معارفهن وسيالاتهن المغناطيسية. رآهن استيبان تروبيا يتوافدن ويجلن في أنحاء بيته، فكانت شروطه الوحيدة هي أن يحترمن مكتبته، وألا يستخدمن الأطفال في تجارب نفسانية، وأن يكن

متكتمات، لأنه لا يريد فضيحة عامة. كانت فيرولا تعارض نشاطات كلارا هذه، لأنها تراها مخالفة للدين والعادات الحميدة. فكانت تراقب تلك الجلسات عن مسافة حذرة، دون أن تشارك فيها، ولكنها ترصد بطرف عينها بينما هي تحوك، مستعدة للتدخل إذا ما تجاوزت كلارا الحد في لحظة ما. كانت قد لاحظت أن زوجة أخيها تبدو مستنزفة بعد بعض الجلسات التي تقوم فيها بدور الوسيط، وتبدأ الكلام بلغات وثنية وبصوت ليس صوتها. وكانت النانا تراقب الوضع أيضاً بحجة تقديم فناجين قهوة، فتُبعد الأرواح بتنانيرها المنشاة وقرقرة تراتيلها المهموسة وأسنانها المفلتة، ولكنها لم تكن تفعل ذلك لحماية كلارا من حالات شططها، وإنما للتأكد من أن أحداً لا يسرق منافض السجائر. ولم يفد في شيء توضيح كلارا لها أنه ليس لزائراتها أدنى اهتمام بالمنافض، لأن أياً منهن لا تدخن، ولكن النانا كانت قد صنفت الجميع، باستثناء الآنسات مورا الثلاث الفاتنات، على أنهم عصابة قوادين إنجيليين.

كانت النانا وفيرولا متباغضتين. فهما تتنازعان محبة الأطفال، وتتشاجران على العناية بكلارا في شططها وهذيانها، في معركة صماء ودائمة تدور في المطابخ، وفي الأفنية والممرات، ولكن ليس بالقرب من كلارا على الإطلاق، لأن كلتيهما متفقتان على تجنيبها ذلك الإزعاج. كانت فيرولا قد وصلت إلى محبة كلارا بعاطفة غيرة أشبه بعاطفة زوج متطلب أكثر مما هي عاطفة أخت زوج. وفقدت الحذر مع مرور الزمن وبدأت تسمح لافتتانها بالظهور في تفاصيل كثيرة لا تمر مرور الكرام على إستيبان. فحين يعود من الريف، تحاول فيرولا إقناعه بأن كلارا تمر في ما تسميه «إحدى لحظاتها السيئة»، كيلا ينام في فراشها ولا يظل معها إلا مرات قليلة ولوقت محدود. وتتذرع بتوصيات من الدكتور كويفاس، يتبين في ما بعد، عند مواجهتها بالطبيب، أنها مختلقة. وتلجأ لألف طريقة لتقف عثرة بين الزوجين، فإذا ما أعيتها الحيلة، تدفع الأطفال الثلاثة ليطلبوا الخروج للنزهة مع أبيهم، أو القراءة مع أمهم، أو أن يسهرا عليهم لأن حرارتهم مرتفعة، وأن يلعبا معهم، وكانت تقول: «يا للصغار المساكين، إنهم بحاجة إلى أبيهم وأمهم، فهم

يقضون النهار كله بين يدي تلك العجوز الجاهلة التي تغرس أفكاراً متخلفة في رؤوسهم، إنها تحولهم إلى بلهاء بشعوذاتها. ما يتوجب عمله للنانا هو إدخالها إلى ملجأ، ويقال إن لدى خادمات الرب ملجأ رائعاً للخادمات العجائز، يعاملنهن كما لو كن سيدات، ولا يضطررن إلى العمل، ويحصلن على طعام جيد، إنه المصير الأكثر إنسانية، يا للنانا المسكينة، لم يعد بإمكانها إعطاء المزيد». ودون أن يتمكن إستيبان من تبين السبب، بدأ يشعر بعدم الراحة في بيته. يشعر بأن زوجته تبتعد عنه أكثر فأكثر، وأنها تزداد غرابة وتصبح بعيدة المنال، لا يمكنه الوصول إليها بالهدايا، ولا بإظهاره الخجول للحنان، ولا بالعاطفة الجامحة التي تهزه بحضورها على الدوام. وخلال ذلك الزمن كله كان حبه قد تعاظم حتى تحول إلى هوس. يريد لكلارا ألا تفكر إلا فيه، وألا تكون لها حياة غير التي تشاطره إياها، وأن تخبره بكل شيء، وألا تقتني شيئاً لا يأتيها من يديه، وأن تتبعه بالكامل وتعتمد عليه.

ولكن الواقع كان مختلفاً، فكلارا تبدو كما لو أنها تمضي محلقة في طائرة، مثل خالها ماركوس، منفصلة عن الأرض الراسخة، تبحث عن الرب في مذاهب تيبيتية، وتستشير الأرواح على مناضد بثلاث قوائم تصدر عنه طرقات خفيفة، طرقتان اثنتان لـ «نعم»، وثلاث طرقات لـ «لا»، وتحل شيفرات رسائل من عوالم أخرى يمكن أن تؤشر لها حتى على حالة الأمطار. وفي إحدى المرات أخبرتها بوجود كنز مخبأ تحت المدخنة، فأمرت أولاً بهدم الجدار، فلم يظهر شيء، ثم هدمت الدرج، ولا شيء أيضاً، وعلى الفور أمرت بهدم نصف الصالون الرئيسي، ولا شيء. وتبين أخيراً أن الأمر قد اختلط على الروح بسبب التعديلات المعمارية التي أحدثتها كلارا نفسها في البيت، ولم تلحظ أن مخبأ النقود الذهبية الإسبانية ليس في منزل آل ترويبا، وإنما في الجانب الآخر من الشارع، في بيت آل أوغارتي الذين رفضوا هدم غرفة الطعام في بيتهم لأنهم لم يصدقوا حكاية الشبح الإسباني. ولم تكن كلارا قادرة على تضفير جديلتي بلانكا كي تذهب إلى المدرسة، فتولت ذلك فيرولا أو النانا، ولكنها كانت ترتبط مع ابنتها بعلاقة رائعة تستند إلى المبادئ نفسها

التي استندت إليها علاقتها بنيفيا. فهما تتبادلان رواية الحكايات، وتقرأان الكتب السحرية التي في الصناديق المسحورة، وتتبادلات الرأي حول صور الأسرة، وتنقل إحداهما للأخرى الأحداث الطريفة عن أخوال يفلت منهم الضراط، وعميان يسقطون عن أشجار الحور، وتخرجان لتأمل سلسلة الجبال أو لعدّ الغيوم، وتتواصلان بلغة مخترعة تحذف حرف التاء وتستبدله بالنون، وتستبدل الراء باللام، بحيث تتكلمان بطريقة تشبه طريقة الكواء الصيني بالكلام. وفي أثناء ذلك كان خايمي ونيكولاس يكبران بعيداً عن الحدين الأنثويين، وفق مبدأ تلك الأزمنة القائل «يجب صنع الأولاد رجالاً». أما النساء بالمقابل، فيولدن وشرطهن الوراثي ملتصق بهن، لا يحتجن إلى اكتسابه في تحولات الحياة. كان التوءمان يكتسبان القوة والفظاظة في الألعاب الخاصة بسنهما، فكانا يصطادان السحالى في أول الأمر لقطع أذيالها، والجرذان لجعلها تتسابق، والفراشات لنزع الغبار عن أجنحتها، ثم صارا بعد ذلك يتبادلان اللكمات والركلات حسب تعليمات الكواء الصيني نفسه الذي كان متقدماً على عصره، فكان أول من حمل إلى البلاد المعارف القديمة بالفنون الحربية، ولكن أحداً لم يهتم به حين أثبت أنه قادر على كسر قطع آجر بيده وأراد أن يؤسس أكاديمية خاصة به، ولهذا انتهى به الأمر إلى غسل ملابس الآخرين. بعد سنوات من ذلك، تحول التوءمان إلى رجلين يهربان من المدرسة ليذهبا إلى منطقة المزابل القاحلة، حيث يتبادلان أدوات مائدة أمهما الفضية بدقائق حب محرم مع امرأة ضخمة يمكن لها أن تضمهما كليهما إلى ثدييها اللذين كضرع بقرة هولندية، وخنقهما معاً برائحة عرق إبطيها الدهني، وسحق الاثنين بين فخذي الفيلة اللذين لها، ورفعهما معاً إلى المجد بفجوة عضوها القاتمة، السيَّالة، الدافئة. ولكن هذا لم يحدث إلا في وقت متأخر جداً ودون أن تعلم به كلارا، ولهذا لم تسجله في دفاترها كي أقرأه ذات يوم. وقد علمتُ بأمره عبر سبل أخرى.

لم تكن كلارا تهتم بالشؤون المنزلية. تتسكع في الحجرات دون أن يثير استغرابها أن كل شيء مرتب ونظيف. تجلس إلى المائدة دون أن تسأل من أعدّ الطعام أو من أين تُشترى المأكولات، وسيان لديها من يقوم على

خدمتها، فهي تنسى أسماء الخدم وحتى إنها تنسى أسماء أبنائها أنفسهم أحياناً. ومع ذلك، كانت تبدو دائمة الحضور، مثل روح مباركة وسعيدة، وبمرورها تأخذ الساعات بالدوران. كانت ترتدي ملابس بيضاء، لأنها قررت أنه اللون الوحيد الذي لا يُفسد هالتها، وتكون ثيابها بسيطة تصنعها لها فيرولا على آلة الخياطة، وتفضلها على الملابس ذات الكشاكش والخرز التي يهديها إليها زوجها بهدف إبهارها وجعلها تساير الموضة.

كان إستيبان يعاني من نوبات يأس، لأنها تعامله باللياقة نفسها التي تعامل بها الجميع، تكلمه بنبرة التدليل نفسها التي تداعب بها القطط، لم تكن قادرة على تحديد ما إذا كان متعباً أو حزيناً أو راغباً في ممارسة الحب، ولكنها تكتشف بالمقابل، من لون إشعاعاته، أنه يخطط لنذالة ما، وتتمكن من تجريده من غضبه بجملتين ساخرتين. كان يغتاظ لأن كلارا لا تبدو أبداً ممتنة على شيء ولا تحتاج مطلقاً لأي شيء يقدمه إليها. وفي الفراش تكون ساهية وباسمة كما في كافة الأمور الأخرى، مسترخية وبسيطة، ولكنها شاردة الذهن. كان يعرف أنه يمتلك جسدها لممارسة كافة الحركات الرياضية التي يتعلمها من كتب يخفيها في إحدى خزائن مكتبته، ولكن أشد الخطايا فظاعة مع كلارا كانت تبدو ألعاب طفل حديث الولادة، لأنه من المحال تلطيخها بملح أفكار خبيثة أو بفلفل الخضوع. ولشدة غضبه، كان ترويبا يعدو في بعض الأحيان إلى خطاياه القديمة بطرح فلاحة متينة بين الآجام خلال انفصالهما الاضطراري، عندما تظل كلارا مع الأطفال في العاصمة ويكون عليه تولي مسؤولياته في الريف، ولكن ذلك، بدل أن يهدئه، يخلّف طعماً كريهاً في فمه ولا يمنحه أي لذه دائمة، لاسيما وأنه يعرف أنه إذا ما أخبر زوجته بالأمر، فسوف تستنكر فعلته لأنها إساءة للمرأة الأخرى، وليس بأي حال لخيانته الزوجية. فالغيرة، وغيرها كثير من المشاعر البشرية، لم تكن تثقل على كلارا. وقد ذهب كذلك مرتين أو ثلاث مرات إلى القنديل الأحمر، ولكنه توقف عن ذلك لأنه يصاب بالعجز مع العاهرات ويضطر إلى ابتلاع المهانة متمتماً بذرائع أنه شرب الكثير من النبيذ، وأن الغداء ضايقه، وأنه مصاب بالزكام منذ أيام.

ولم يرجع مع ذلك لزيارة ترانسيتو سوتو، لأنه يحدس أنها تحمل في ذاتها خطر الإدمان. كان يشعر برغبة غير مشبعة تفور في أحشائه، بنار يستحيل إطفاؤها، بظمأ إلى كلارا لم يستطع إشباعه قط، حتى في أشد لياليه معها تأججاً وطولاً. فكان ينام مستنفداً وبقلب يوشك على الإنفجار في صدره، ولكنه كان يشعر، حتى في أحلامه، أن المرأة الراقدة إلى جانبه ليست موجودة هناك، وإنما هي في بُعد مجهول لا يمكنه الوصول إليه. كان يفقد صبره أحياناً ويهز كلارا بغضب، ويصيح بأسوأ اللعنات، وينتهي إلى البكاء في حضنها وطلب الصفح منها على فظاظته. وكانت كلارا تتفهم، ولكنها لا تستطيع علاج ذلك. فحب إستيبان تروييا العظيم لكلارا كان، دون ريب، أقوى شعور أحس به في حياته، حتى إنه أعظم من الغضب والغرور، وسيظل بعد نصف قرن من ذلك يتذكره بالرعشة نفسها والتسرع نفسه. ففي فراش شيخوخته ظل يستدعيها حتى آخر أيامه.

تدخلات فيرولا فاقمت من حالة الجزع التي يتخبط فيها إستيبان. فكل عقبة تضعها أخته بينه وبين كلارا تُخرجه عن طوره. ووصل به الأمر إلى كره أبنائه لأنهم يشغلون اهتمام أمهم، فأخذ كلارا في شهر عسل ثانٍ إلى أماكن المرة الأولى نفسها، وكانا يهربان في عطلة نهاية الأسبوع إلى فنادق، ولكن ذلك كله كان بلا طائل. أقنع نفسه بأن المسؤولة عن كل شيء هي فيرولا، وأنها زرعت في امرأته جرثومة خبيثة تحول دون حبها له، وأنها تسرق بالمقابل، بمداعبات محرمة ما هو من حقه كزوج. كان لونه يشحب حين يفاجئ فيرولا وهي تحمم كلارا، فينتزع الإسفنجة من يدها ويطردها بعنف ويُخرج كلارا من الماء محولة عملياً، فيوبخها، ويحظر عليها أن تعود إلى الاستحمام بمساعدة أحد، لأن ذلك في سنها رذيلة، وينتهي إلى تجفيفها بنفسه، ولفها بروبها وحملها إلى السرير وهو يشعر بأنه يبدو مضحكاً. وإذا ما قدمت فيرولا إلى امرأتهِ فنجاناً من الشوكلاتة، انتزعه من يدها بحجة أنها تعاملها كما لو أنها مقعدة، وإذا ما قبّلتها متمنية لها ليلة سعيدة، يُبعدها بضربة من يده قائلاً إن التقبيل غير مستحسن، وإذا اختارت لها أفضل قطع

الطعام من الصينية، يغادر المائدة غاضباً. وصل الأمر بالأخوين إلى تحولهما إلى خصمين معلنين، يتبادلان نظرات العداء، يختلقان مجادلات تافهة ليحط كل منهما من قيمة الآخر في عيني كلارا، ويتجسس كل منهما على الآخر ويراقبه. أهمل إستيبان الذهاب إلى الريف وكلف بيدرو غارثيا الثاني بالمسؤولية عن كل شيء، بما في ذلك الأبقار المستوردة، وتخلى عن الخروج مع أصدقائه، وعن الذهاب للعب الغولف، وعن العمل، كي يتفرغ ليلاً ونهاراً لمراقبة تحركات أخته ومواجهتها كلما اقتربت من كلارا. صار جو البيت خانقاً، كثيفاً وقاتماً، حتى إن النانا نفسها كانت تتجول كمن تحولت إلى روح. والوحيدة التي ظلت غير عارفة بما يجري هي كلارا التي لم تكن تلحظ شيئاً وهي مستغرقة في شرودها وبراءاتها.

تأخرت كراهية إستيبان وفيرولا طويلاً قبل أن تنفجر. بدأت كاستياء متكتم ورغبة في تبادل الإهانة في التفاصيل الصغيرة، ولكنها راحت تتعاظم إلى أن ملأت البيت كله. اضطر إستيبان في ذلك الصيف إلى الذهاب إلى الماريات الثلاث لأن بيدرو غارثيا الثاني سقط عن الحصان في موسم الحصاد، وانتهى به الأمر في مستشفى الراهبات مصاباً بشرخ في الرأس. وما كاد الوكيل يستعيد عافيته حتى رجع إستيبان إلى العاصمة دون إشعار مسبق. انتابته وهو في القطار هواجس مريعة، ورغبة غير معلنة في حدوث مأساة، دون أن يدري أن المأساة قد بدأت حين رغب فيها. وصل إلى المدينة عند العصر، ولكنه ذهب مباشرة إلى النادي، حيث لعب عدة جولات بالورق وتناول العشاء، دون أن يتمكن من تهدئة قلقه ونفاد صبره، على الرغم من أنه لم يكن يعرف ما الذي ينتظره. وخلال تناوله العشاء، حدثت هزة أرضية خفيفة، فتأرجحت ثريات الكريستال مع النوسان المعهود لقطع كريستالها، ولكن أحداً لم يرفع نظره نحوها، إذ واصل الجميع تناول الطعام، وواصل الموسيقيون العزف دون الخطأ في علامة موسيقية واحدة، باستثناء إستيبان ترويبا الذي ارتعش وكأن ما حدث إشارة. أنهى طعامه بسرعة، وطلب الحساب وخرج.

كانت فيرولا تتحكم بأعصابها على العموم، ولكنها لم تستطع

قطّ أن تعتاد على الهزات الأرضية. توصلت إلى عدم الخوف من الأشباح التي تستدعيها كلارا، ومن فئران الريف، ولكن الهزات الأرضية تجعلها ترتعش حتى العظام وتظل ترتجف إلى ما بعد توقف الهزة الأرضية بوقت طويل. لم تكن قد نامت بعد في تلك الليلة، فركضت نحو حجرة كلارا التي كانت تنام بهدوء بعد تناولها مغلي الزيزفون. وفي بحثها عن قليل من الرفقة والدفء، استلقت إلى جانبها محاولة ألا توقظها ومتمتمة بصلوات صامتة كيلا تتحول تلك الهزة الأرضية إلى زلزال. وهناك وجدها إستيبان تروبيا. دخل إلى البيت بحذر شديد مثل لص، وصعد إلى حجرة نوم كلارا دون أن يشعل الأضواء، وظهر مثل إعصار أمام المرأتين الغافيتين اللتين كانتا تظنان أنه في الماريات الثلاث. انقض على أخته بالغضب نفسه الذي كان سيفعل به ذلك لو كان هناك عشيقاً لزوجته، وأخرجها من الفراش بالقوة، وجرجرها في الممر، وأنزلها دفعاً على الدرج وأدخلها بالقوة إلى المكتبة بينما كلارا تصرخ من باب حجرتها دون أن تفهم ما حدث. وعندما صار على انفراد مع فيرولا، صب جام غضبه كزوج محروم وصرخ بأخته ما كان عليه ألا يقوله أبداً، ابتداء من القول إنها مسترجلة وحتى القول إنها قوادة، متهماً إياها بإفساد امرأته، وحرف ميولها بمداعبات عانس، وتحويلها إلى غريبة أطوار وخرساء وروحانية بألاعيب سحاقية، والاستمتاع معها في أثناء غيابه، وتلويث حتى اسم أبنائه، وشرف البيت، وذكرى أمهما القديسة، وأنه قد ملّ كل هذا الخبث وسوف يطردها من بيته، ولتذهب فوراً، وأنه لا يريد أن يراها إلى الأبد، ويمنعها من الاقتراب من امرأته وأبنائه، وأن المال لن ينقصها لتعيش حياة لائقة ما دام حياً، مثلما وعدها ذات مرة من قبل، ولكنه إذا رآها تدور حول أسرته، فسوف يقتلها، وعليها أن تضع هذا في رأسها. أقسم بأمنا إنني سأقتلك!

- إنني ألعنك يا إستيبان! - صرخت به فيرولا -. ستظل وحيداً دائماً، ستتكمش روحك وجسدك، وستموت مثل كلب!

وخرجت إلى الأبد من بيت الناصية الكبير، بقميص النوم ودون أن تحمل شيئاً معها..

ذهب إستيبان تروبيا في اليوم التالي لمقابلة الأب أنطونيو وروى له ما حدث، دون أن يقدم تفاصيل. وكان الكاهن يستمع إليه بلين وبنظرة هادئة كمن سمع الحكاية نفسها من قبل.

- وما الذي تريده مني يا بني؟ - سأله عندما انهى إستيبان تروبيا كلامه.

- أن توصل إلى أختي كل شهر مغلفاً سأحضره لك. لا أريد لها أن تواجه مصاعب مادية. وأبيّن لك أنني لا أفعل ذلك بدافع المحبة وإنما تنفيذاً لوعد قطعته على نفسي.

استلم الأب أنطونيو المغلف الأول وهو يطلق زفرة، ورسم إشارةَ مباركة، ولكن إستيبان تروبيا كان قد استدار وخرج. لم يقدم أي تفسير لكلارا عما حدث بينه وبين أخته. وأخبرها بأنه طردها من البيت، ويمنعها من العودة إلى ذكر اسمها أمامه، وأوحى لها بأنه إذا كان لديها قليل من الوقار، فعليها ألا تأتي على ذكرها حتى في غيابه. أمر بإخراج ملابسها وكل شيء يمكن أن يُذكّر بها وأقنع نفسه بأنها قد ماتت.

أدركت كلارا أنه لا جدوى من توجيه الأسئلة إليه. ذهبت إلى غرفة الخياطة بحثاً عن بندولها الذي يفيدها في الاتصال مع الأشباح وتستخدمه كأداة تركيز. فتحت خريطة للمدينة على الأرض وأمسكت البندول على ارتفاع نصف متر فوقها وانتظرت أن تدلها ذبذباته على مكان أخت زوجها، ولكنها بعد أن حاولت ذلك طوال فترة ما بعد الظهر، أدركت أن هذه الوسيلة لن تنفع إذا كانت فيرولا غير موجودة في عنوان ثابت. وحيال عدم فعالية البندول في تحديد مكانها، خرجت للتجوال بالعربة، آملة بأن توجهها غريزتها إلى مكانها، ولكن هذا الأسلوب لم يوصلها كذلك إلى نتيجة. واستشارت المنضدة ذات الثلاث قوائم فلم تظهر أي روح هائمة لتقودها إلى فيرولا عبر دروب المدينة المتشابكة، واستدعتها ذهنياً فلم تحصل على جواب، كما لم تنفع أوراق اللعب في تنويرها. عندئذ قررت اللجوء إلى الأساليب التقليدية وبدأت البحث بين صديقاتها، وسؤال متعهدي التموين وكل من كانوا يتعاملون معها، ولكن أحداً منهم لم يعد يراها. وقادتها تحرياتها أخيراً إلى الأب أنطونيو.

ـ لا تبحثي عنها يا سيدتي ـ قال لها الكاهن ـ فهي لا تريد رؤيتك.

وأدركت كلارا أن هذا هو السبب في عدم تمكن أجهزتها المعصومة عن الخطأ من تحديد مكانها.

ـ لقد كانت الأخوات مورا على حق ـ قالت لنفسها ـ لا يمكن العثور على من هو غير راغب في أن يُعثر عليه.

دخل إستيبان تروبيا مرحلة ازدهار كبير. بدا كما لو أن عصاً سحرية قد مست صفقاته وأعماله. وكان راضياً عن الحياة. فقد صار ثرياً، مثلما نوى أن يكون ذات يوم. إنه يملك امتيازات مناجم أخرى، ويصدر فواكه إلى الخارج، وأنشأ شركة مقاولات، إضافة إلى ملكيته للماريات الثلاث التي توسعت كثيراً، وتحولت إلى افضل إقطاعية في المنطقة. لم تؤثر عليه الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالبلاد. كان إفلاس شركات ملح البارود في الشمال قد خلّف آلاف العمال في البؤس. وكانت جموع من العاطلين عن العمل يجرجرون نساءهم وأبناءهم وآباءهم المسنين على الدروب بحثاً عن عمل، وانتهى بهم الأمر إلى الاقتراب من العاصمة، وشيئاً فشيئاً راحوا يشكلون حزام بؤس حول المدينة، مستقرين كيفما اتفق، بين ألواح من الخشب وقطع من الكرتون، وسط القمامة والخذلان. كانوا يهيمون على وجوههم في الشوارع طالبين منحهم فرصة للعمل، غير أنه لم يكن هناك عمل للجميع، وسرعان ما تحول العمال الخشنون، ذوو الأسمال، المحزونون الذين أضناهم الجوع وجمدهم البرد، عن طلب العمل وصاروا، بكل بساطة، يطلبون الصدقات. امتلأت المدينة بمتسولين، وبعد ذلك باللصوص. لم يُعرف صقيعاً رهيباً كصقيع تلك السنة. هطلت ثلوج في العاصمة، وهو مشهد فريد احتل صدر الصفحات الأولى في الجرائد، واحتُفل به كخبر مفرح، بينما كان الصباح يطلع على الأطفال في الأحياء الهامشية وقد ازرقت أبدانهم وتجمدوا. ولم تكن أعمال الإحسان كافية لتغطية كل ذلك البؤس والهجران.

كان ذلك العام هو عام حمى التيفوس الطفحي. بدأ الوباء كمصيبة أخرى تحل بالفقراء، وسرعان ما اكتسب مواصفات العقاب الإلهي. لقد

ولد في أحياء البؤساء، بسبب الشتاء، وسوء التغذية، ومياه القنوات الآسنة. فانضم إلى البطالة وانتشر في كل الأنحاء. لم تكن المستشفيات كافية. وكان المرضى يهيمون على وجوههم في الشوارع بعيون زائغة، يسحبون قملهم ويرمونه على الأصحاء. شاع الوباء ودخل كل البيوت، وانتقلت العدوى إلى المدراس والمصانع، ولم يعد هناك من يشعر أنه في مأمن. الجميع يعيشون في خوف، يترصدون الأعراض التي تنبئ بالمرض الرهيب. ومن تنتقل إليهم العدوى يبدؤون بالارتجاف من برودة صفائح حجرية في عظامهم، وبعد قليل يقعون ضحية الخدر. فيصبحون أشبه بالمخبولين، تستنزفهم الحمى، وتغطي أجسامهم البقع، يتبرزون دماً، ويشعرون بدوار نار وغرق، يسقطون أرضاً وقد صارت عظامهم لينة كالصوف، وسيقانهم كالخرق، وطعم مرارة في أفواههم، وأجسادهم لحم حي، بشرة حمراء إلى جانب أخرى زرقاء وأخرى صفراء وأخرى سوداء، يتقيؤون أحشاءهم ويتوسلون إلى الله ان يرأف بحالهم ويتركهم يموتون دفعة واحدة، لأنهم ما عادوا يتحملون، فرؤوسهم تنفجر وأرواحم تغادرهم برازاً وهلعاً.

اقترح إستيبان أخذ الأسرة كلها إلى الريف، لحمايتها من العدوى، ولكن كلارا رفضت سماع كلمة في هذا الموضوع. كانت مشغولة جداً في إغاثة الفقراء في مهمة لا بداية لها ولا نهاية. تخرج في وقت مبكر ولا تعود أحياناً إلا قرابة منتصف الليل. أفرغت خزائن البيت، جردت الأطفال من ثيابهم، والأسرّة من أغطيتها، وزوجها من ستراته. وكانت تُخرج المأكولات من خزانة الطعام، ورتبت نظام تواصل مع بيدرو غارثيا الثاني ليرسل إليها من الماريات الثلاث أجباناً وبيضاً ولحماً مقدداً وفواكه ودجاجاً، تقوم بتوزيعه على المحتاجين. نحل جسمها وصارت تبدو شاحبة. وعادت إلى المشي وهي نائمة في الليل.

أحدث غياب فيرولا شعوراً أشبه بالكارثة في البيت، حتى إن النانا نفسها التي كانت تتمنى مجيء تلك اللحظة ذات يوم، تأثرت لغيابها. وعندما حلّ الربيع تمكنت كلارا من الراحة قليلاً، وازداد ميلها لتجنب الواقع والضياع في الحلم. وعلى الرغم من أنها لم تعد تعتمد على قدرة

أخت زوجها التنظيمية الدقيقة في ترتيب فوضى بيت الناصية الكبير، فقد واصلت اهمالها للشؤون المنزلية. وضعت كل شيء بين يدي النانا والخدم الآخرين، واستغرقت في عالم الأرواح والتجارب النفسية. لقد شاب الاختلاط دفاتر تدوين الحياة، وفقد خطها أناقة الأديرة التي كان عليها دائماً، وانحط إلى نتف مرتبكة تبدو في بعض الأحيان دقيقة جداً إلى حد لا يمكن معها قراءتها وتكون الحروف في أحيان أخرى كبيرة بحيث تملأ ثلاث كلمات الصفحة كلها.

في السنوات التالية التمت حول كلارا والأخوات مورا الثلاث جماعة من دارسي غورديف، وأتباع وردة الصليب، والروحانيين والبوهيميين محبي السهر الذين يتناولون ثلاث وجبات يومية في البيت ويوزعون وقتهم بين استشارات عاجلة لأرواح المنضدة ذات الثلاث قوائم وقراءة أشعار آخر شاعر ملهم حط عند كلارا. كان إستيبان يتسامح مع غزو أولئك الخارقين المستهجنين، لأنه أدرك منذ وقت بعيد أنه لا جدوى من التدخل في حياة امرأته. ولكنه قرر أنه يتوجب إبقاء ابنيه الذكرين على الأقل على هامش ذلك السحر، وهكذا أُدخل خايمي ونيكولاس إلى مدرسة داخلية إنكليزية متزمتة، حيث يمكن لأي سبب إنزال بنطال الصبيان وجلدهم بالعصا على مؤخراتهم، وخاصة خايمي الذي كان يسخر من العائلة المالكة البريطانية، وكان مهتماً منذ الثانية عشرة من عمره بقراءة ماركس، اليهودي الذي يحرض على الثورات في العالم بأسره. أما نيكولاس فورث روح مغامرة جده ماركوس ونزوع أمه إلى بروج الطالع وقراءة المستقبل، ولكن ذلك لم يكن يعتبر جريمة خطرة في نظام المدرسة التربوي الصارم، وإنما يُنظر إليه على انه مجرد شذوذ بسيط، ولهذا كان الفتى يتلقى عقوبات أقل بكثير مما يتلقاه أخوه.

أما حال بلانكا فكان مختلفاً، لأن أباها لم يكن يتدخل في تربيتها. فهو يرى أن مصيرها الزواج والتألق في المجتمع، حيث يمكن لقدرة التواصل مع الموتى أن تكون محل جاذبية، مادامت تُمارس كتسلية خفيفة. وكان يؤكد أن أعمال السحر، مثلها مثل الدين والمطبخ، شأن خاص بالنساء، وربما لهذا السبب كان قادراً على الشعور بالتعاطف مع الأخوات

موراً الثلاث، ولكنه يمقت بالمقابل الروحانيين من الجنس المذكر بقدر مقته للكهنة تقريباً. وكانت كلارا من جهتها تمضي في كل الاتجاهات وابنتها ملتصقة بها، تشركها في جلسات يوم الجمعة، وتربيها على التآلف الوثيق مع الأرواح، ومع أعضاء الجمعيات السرية، ومع الفنانين البائسين الذين توفر لهم الحماية. ومثلما كانت هي مع أمها في فترة خرسها، صارت تأخذ الآن بلانكا لرؤية الفقراء محملة بالهدايا والمواساة.

- هذا يفيدنا في إراحة ضميرنا يا ابنتي - كانت توضح لبلانكا -. لكنه لا يساعد الفقراء. فهم لا يحتاجون إلى الإحسان، وإنما إلى العدالة.

وفي هذه النقطة بالذات كان تنشب بينها وبين إستيبان أسوأ المجادلات، لأن له رأياً آخر في هذا الشأن.

- عدالة! وهل العدالة في أن يملك الجميع الشيء نفسه؟ أن ينال الكسالى مثل ما يناله العاملون؟ والأغبياء مثل الأذكياء؟ هذا لا يحدث حتى بين الحيوانات! فالمسألة ليست مسألة أغنياء وفقراء، وإنما هي مسألة أقوياء وضعفاء. إنني أوافق على وجوب أن تتوفر لنا جميعاً الفرص نفسها، ولكن أولئك الناس لا يبذلون أي جهد. من السهل مدّ اليد وطلب صدقة! أنا أؤمن بالجهد والمكافأة عليه. وبفضل هذه الفلسفة حصلت على ما أملكه. لم أطلب قط معروفاً من أحد ولم أقترف أي عمل غير نزيه، وهذا يُثبت أنه بإمكان أي شخص عمل الشيء نفسه. كان مقدراً لي أن أكون كويتباً بائساً وتعيساً في مكتب كاتب بالعدل. ولهذا لن أتقبل أفكاراً بولشيفية في بيتي. اذهبي لتقديم الإحسان في أحياء الفقراء إذا شئت! هذا أمر لا بأس به، إنه جيد لتربية الآنسات. ولكن لا تأتني ببلاهات بيدرو غارثيا الثالث، لأنني لن أتحملها!

والحقيقة أن بيدرو غارثيا الثالث كان يتكلم عن العدالة في الماريات الثلاث. وكان الوحيد الذي يتجرأ على تحدي السيد المالك على الرغم من الضرب الذي يتلقاه من أبيه بيدرو غارثيا الثاني في كل مرة يفاجئه وهو يفعل ذلك. فمنذ صغره كان الصبي يقوم برحلات دون إذن إلى القرية ليستعير كتباً، ويقرأ الصحف، ويتبادل الحديث مع أستاذ المدرسة، الشيوعي المتأجج الذي سيقتلونه بعد سنوات من ذلك برصاصة بين عينيه.

كما أنه كان يهرب في الليل إلى حانة سان لوكاس، حيث يلتقي مع بعض النقابيين الذين يعيدون تشكيل العالم بين رشفة بيرة وأخرى، ومع الأب خوسيه دولثي ماريا المارد والضخم، وهو أسقف إسباني رأسه مملوء بأفكار ثورية جعلت فرقة يسوع تنفيه إلى ذلك الركن المنسي من العالم، ولكن ذلك كله لم يدفعه إلى التخلي عن تحوير أمثال الكتاب المقدس إلى شعارات اشتراكية. ويوم اكتشف إستيبان تروييا أن ابن وكيله يُدخل أدبيات هدامة بين مزراعيه، استدعاه إلى مكتبه، وجلده بحضور أبيه بسوطه المصنوع من جلد ثعبان.

ـ هذا هو الإنذار الأول، يا مخاطي البراز ـ قال له دون أن يرفع صوته وهو ينظر إليه بعينين ناريتين ـ وإذا وجدتك مرة أخرى تزعج الناس، سأُدخلك السجن. لا أريد مهيجين في ملكيتي، لأنني انا من يأمر هنا ولي الحق في أن أحيط نفسي بأناس يروقونني. أنت لا تروقني، عليك أن تعلم ذلك. إنني أتحملك من أجل أبيك الذي خدمني سنوات طويلة بإخلاص، ولكن عليك أن تكون حذراً، لأنك قد تنتهي نهاية سيئة. انصرف من أمامي!

كان بيدرو غارثيا الثالث شبيهاً بأبيه، أسمر مثله، له ملامح قاسية كأنها منحوتة من صخر، وعينان كبيرتان حزينتان، وأشعر أسود خش ومقصوص كفرشاة. وكان له حبَّان اثنان: أبوه وابنة السيد التي أحبها منذ اليوم الذي ناما فيه عاريين تحت مائدة غرفة الطعام، في طفولتهما الغضة. ولم تنجُ بلانكا من القدر المشؤوم نفسه. ففي كل مرة تذهب إلى الريف في إجازة، وتصل إلى الماريات الثلاث وسط زوبعة غبار تُحدثها العربات المحملة بأمتعة مضطربة، تشعر بقلبها يخفق بضربات طبل أفريقي من اللهفة والجزع. وكانت أول من يقفز من العربة وتندفع راكضة نحو البيت، وتجد بيدرو غارثيا الثالث على الدوام في المكان نفسه الذي التقيا فيه أول مرة، واقفاً عند العتبة، نصف مختف في ظل الباب، وجلاً وعابساً، ببنطاله المكحوت، حافياً، وعيناه الهرمتان ترصدان الطريق لرؤية وصولها. فيركض كلاهما، ويتعانقان ويتبادلان القبلات، يضحكان ويتبادلان لطمات متوددة، ويتدحرجان على الأرض وكل منهما يشدّ شعر الآخر وهما يصرخان فرحاً.

- توقفي أيتها الصغيرة! اتركي هذا الرث! - تصرخ النانا وهي تحاول تفريقهما.

- اتركيهما يا نانا، إنهما طفلان متحابان - تقول لها كلارا التي تعرف أكثر منها.

كان الطفلان يهربان راكضين ويختبئان ليرويا كل ما راكماه خلال شهور الفراق تلك. ويقدم لها بيدرو بعض الحيوانات الصغيرة المنحوته التي صنعها لها من قطع خشبية، وتقدم له بلانكا بدورها الهدايا التي جمعتها له: سكين جيب صغيرة تُفتح على شكل زهرة، ومغناطيس صغير يجتذب، كما في السحر، المسامير المبعثرة على الأرض. والصيف الذي جاءت فيه ومعها جزء من محتويات صندوق كتب الخال ماركوس السحرية، كانت في حوالي العاشرة من عمرها، وكان بيدرو الثالث لا يزال يقرأ بصعوبة، لكن الفضول واللهفة نجحا في تحقيق ما لم تستطعه المعلمة بضربات العصا. أمضيا ذلك الصيف يقرآن مستلقيين بين القصب على ضفة النهر، وبين أشجار الصنوبر في الغابة، وبين السنابل في حقول القمح، يتجادلان حول فضائل ساندوكان وروبين هود، وحول سوء طالع القرصان الأسود، وحول قصص كنز الشباب الصحيحة التي تحث على الفضيلة والتقوى، وحول المعنى الخبيث للكلمات المحظورة في معجم الأكاديمية الملكية للغة الإسبانية، وحول جهاز الدوران في لوحات مرسومة، حيث يمكنهما رؤية رسم شخص بلا جلد وكل أوردته وقلبه مكشوفة، ولكنه بسروال داخلي. وخلال أسابيع قليلة تعلم الطفل القراءة بسرعة. ودخلا عالم القصص المستحيلة الفسيح والعميق، عالم العفاريت، والجنيات، والناجين من الغرق الذين يأكل بعضهم بعضاً بعد إجراء قرعة، والنمور التي تتقبل الترويض بدافع المحبة، والاختراعات المذهلة، والغرائب الجغرافية والحيوانية، والبلدان الشرقية حيث يوجد جنّ في قوارير، وتنانين في كهوف، وأميرات سجينات في أبراج. وكثيراً ما كانا يذهبان لزيارة بيدرو غارثيا العجوز الذي استنزف الزمن حواسه. فقد راح يتحول ببطء إلى العمى، تغطي حدقتيه غشاوة سماوية رقيقة، يقول هو عنها: «إنها سحب تدخل في عيني». وكان يسعد كثيراً

بزيارات بلانكا وحفيده بيدرو الثالث، ولكنه نسي أنه حفيده. ويستمع إلى الحكايات التي يختارانها من الكتب السحرية ويتوجب عليهما أن يصرخا في أذنيه، لأنه يقول إن الرياح دخلت في أذنيه وأصابته بالصمم. وكان يعلمهما بالمقابل كيف يكتسبان المناعة من لدغات الدويبات الخبيثة، ويثبت لهما فعالية ترياقه بوضع عقرب حي على ذراعه. ويعلمهما كيفية البحث عن الماء. يتوجب إمساك غصن يابس بكلتا اليدين والمشي به وهو يلامس الأرض، بصمت، مع التفكير في الماء والعطش الذي يعانيه الغصن اليابس، إلى أن يبدأ الغصن بالارتعاش فجأة، حين يشعر بالرطوبة. في ذلك المكان يتوجب الحفر، يقول لهما العجوز، ولكنه يوضح لهما أنه لم يستخدم هذه الطريقة لتحديد أماكن حفر آبار الماريات الثلاث، لأنه لا يحتاج إلى الغصن. فقد كانت عظامه ظمئة جداً، وحين يمر بمكمن مائي، حتى لو كان عميقاً، تنبهه عظامه إلى وجوده. وكان يريهما أعشاب الحقول ويجعلهما يشمانها، ويتذوقانها، ويلمسانها، كي يعرفا أريجها الطبيعي وطعمها وملمسها، وليتمكنا بذلك من تحديد كل نبتة حسب خصائصها العلاجية: تهدئة النفس، وطرد السيالات الشيطانية، وتلميع العينين، وتقوية البطن، وتنشيط الدم. وكانت معارفه واسعة جداً في هذا الميدان، حتى إن طبيب مستشفى الراهبات كان يتردد عليه طالباً منه النصح. ومع ذلك، لم تستطع معرفته كلها علاج ابنته بانتشا من مغص ليبريا الذي أودى بها إلى العالم الآخر. جعلها تأكل روث بقرة، وحين لم ينفع ذلك، أعطاها روث حصان، ودثرها ببطانيات كي تتعرق الداء حتى ظلت على العظم، ودلكها بالخمر ممزوجاً مع البارود في كل أنحاء جسمها، ولكن ذلك كله لم ينفع؛ فقد كانت بانتشا تضيع في إسهال بلا نهاية اعتصر لحمها وجعلها تعاني عطشاً لا يرتوي. وعندما وجد بيدرو غارثيا نفسه مهزوماً طلب من السيد الإذن كي يأخذها إلى القرية في عربة. وقد رافقه الطفلان. فحص طبيب مستشفى الراهبات بانتشا بدقة وقال للعجوز إنها ضائعة، ولو أنه أحضرها من قبل ولم يتسبب لها بذلك التعرق الشديد، لكان بإمكانه عمل شيء من أجلها، ولكن جسدها لم يعد قادراً على الاحتفاظ بأي قدر من السوائل، وأنها صارت

مثل نبتة جفت جذورها. غضب بيدرو غارثيا وواصل إنكار إخفاقه حتى بعد عودته بجثة ابنته ملفوفة ببطانية، يرافقه الطفلان المذعوران، وأنزل الجثمان في فناء الماريات الثلاث وهو يتمتم ضد جهل الدكتور. دفنوها في مكان متميز في المقبرة الصغيرة، إلى جانب الكنيسة المهجورة، عند سفح البركان، لأنها كانت امرأة السيد بطريقة ما، ومنحته الابن الوحيد الذي يحمل اسمه، وإن لم يحمل كنيته أبداً، وحفيداً هو إستيبان غارثيا غريب الأطوار الذي قُدر له أن يلعب دوراً رهيباً في قصة العائلة.

وفي أحد الأيام روى بيدرو غارثيا العجوز لبلانكا وبيدرو غارثيا الثالث حكاية الدجاجات اللاتي اتفقن على مواجهة ثعلب كان ينسل كل ليلة إلى الزريبة ليسرق البيض ويلتهم الفراخ. قررت الدجاجات أنهن لم يعدن قادرات على تحمل تسلط الثعلب، فانتظرنه وقد انتظمن، وحين دخل إلى الزريبة، اعترضن سبيله وأحطن به، ورحن ينقرنه ولم يتركنه إلا بعد أن صار أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

- ورؤي الثعلب يفر بعد ذلك وذيله بين ساقيه، والدجاجات تلاحقه - أنهى العجوز الحكاية.

ضحكت بلانكا من القصة وقالت إن ذلك محال، لأن الدجاجات تولد حمقاء وضعيفة، بينما تولد الثعالب ماكرة وقوية، غير أن بيدرو الثالث لم يضحك. ظل طوال فترة بعد الظهر مستغرقاً في التفكير، مجتراً حكاية الثعلب والدجاجات، وربما كانت تلك هي اللحظة التي بدأ فيها الطفل بالتحول إلى رجل.

الفصل الخامس

العاشقان

انقضت طفولة بلانكا دون مفاجآت كبيرة، تتناوب فيها فصول الصيف الحارة تلك في الماريات الثلاث، حيث كانت تكتشف قوة عاطفة تنمو معها، وفترات رتابة العاصمة، حيث تعيش حياة مشابهة لغيرها من البنات اللواتي في مثل عمرها ووسطها الاجتماعي، على الرغم من أن وجود كلارا كان يضفي لمسة غرابة على حياتها. ففي كل صباح تأتيها النانا حاملة الفطور لتهزها من نعاسها وتتحقق من زيها المدرسي، فترفع لها جوربيها، وتضع القبعة على رأسها، وتُلبسها القفازين، وتعقد لها المنديل حول عنقها، وترتب كتبها في الحقيبة، وتتمتم في أثناء ذلك بصلوات على أرواح الموتى، وترفقها بتوصيات بصوت عالٍ كيلا تتيح بلانكا للراهبات أن يخدعنها.

- أولئك النساء جميعهن فاسدات - تحذرها - يخترن أجمل التلميذات، وأذكاهن، ومن هن من عائلات محترمة لإدخالهن إلى الدير، حيث يحلقن رؤوس المستجدات، يا للمسكينات! ويوجهنهن لتبديد حيواتهن في صنع قوالب حلوى يبعنها، وفي رعاية مسنين غرباء.

كان السائق يوصل الطفلة إلى المدرسة، وتكون أولى نشاطات اليوم الصلاة والمناولة الإلزاميتين. وبينما بلانكا جاثية في مقعدها، كانت تستنشق زخم رائحة البخور وزنابق مريم، وتعاني العذاب المركب من الغثيان والخطيئة والضجر. فكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي لا يروقها في المدرسة. فهي تحب الممرات الحجرية العالية، ونظافة الأرضيات الرخامية الناصعة، والجدران البيضاء العارية، وتمثال المسيح الحديدي الذي يحرس المدخل. كانت طفلة رومانسية وحساسة، صديقاتها قليلات، وقادرة على التأثر إلى حدّ البكاء حين تزهر ورود الحديقة، وحين تشم رائحة

القماش والصابون الخفيفة التي تنبعث من الراهبات عندما ينحنين ليتفحصن واجباتها المدرسة، وعندما تتأخر في الخروج لتشعر بالصمت الحزين في قاعات الدرس المقفرة. كان يُنظر إليها على أنها خجولة ومكتئبة. ولكنها في الريف فقط، ببشرتها المذهبة بالشمس وبطنها الممتلئ بالثمار الدافئة، وهي تركض مع بيدرو الثالث في المرابع، تبدو حالمة وسعيدة. فكانت أمها تقول هذه هي بلانكا الحقيقة، أما الأخرى، بلانكا المدينة، فتكون في حالة سبات.

وبسبب الهياج الدائم الذي يسود بيت الناصية الكبير، لم ينتبه أحد، باستثناء النانا، إلى أن بلانكا آخذة بالتحول إلى امرأة. دخلت مرحلة المراهقة فجأة. وكانت قد ورثت عن آل تروبيا الدماء الإسبانية والعربية، والمظهر الإقطاعي، والتصعيرة المتكبرة، والبشرة الزيتونية، والعينين القاتمتين لجيناتها المتوسطية، ولكنهما ملونتين بإرث من الأم التي حصلت منها على عذوبة لم يمتلكها أحد من آل تروبيا قط. لقد كانت مخلوقة هادئة، تلهو وحدها، تدرس وتلعب مع دماها، ولا تبدي أدنى ميل طبيعي لروحانيات أمها أو غضبات أبيها. فكانت الأسرة تقول بنبرة مازحة إنها الشخص الطبيعي الوحيد في الأسرة منذ أجيال، والحقيقة أنها تبدو أعجوبة في الرزانة والهدوء. في حوالي الثالثة عشرة من عمرها بدأ صدرها بالنمو، وخصرها يضيق، وراحت تنحل وتطول مثل نبتة مُسمَّدة. جمعت لها النانا شعرها في عقيصة، واصطحبتها لشراء صدارها الأول، وأول زوج جوارب حريرية، وأول فستان نسائي، ومجموعة مناشف صغيرة لما كانت تسميه البرهان. وفي أثناء ذلك كانت أمها تواصل ترقيص الكراسي في أنحاء البيت، وعزف شوبان على البيانو المغلق، وإنشاد أشعار بديعة بلا قافية ولا موضوع ولا منطق لشاعر ناشئ آوته في بيتها، وبدأ الكلام يدور عنه في كل مكان، دون أن تهتم بالتبدلات التي طرأت على ابنتها، ودون أن ترى تفتق أماكن الخياطة في زيّها المدرسي، أو تلحظ أن وجه الفاكهة قد تحول شيئاً فشيئاً إلى امرأة، لأن كلارا كانت تهتم بالهالات والسيالات أكثر من اهتمامها بالكيلوغرامات

والسنتيمترات. وفي أحد الأيام رأتها تدخل إلى حجرة الخياطة بفستان الخروج واستغربت أن تلك الآنسة السمراء وطويلة القامة هي صغيرتها بلانكا. فاحتضنتها وغطتها بالقبلات ونبهتها إلى أن الحيض سيأتيها عما قريب.

- اجلسي وسأشرح لك ما الذي يعنيه ذلك - قالت كلارا.

- لا تزعجي نفسك يا أماه، فعما قريب ستكون قد مضت سنة على مجيئه بانتظام كل شهر - قالت بلانكا ضاحكة.

لم تتعرض العلاقة بينهما إلى تبدلات كبيرة مع نمو الفتاة، لأن تلك العلاقة كانت تستند إلى مبادئ راسخة من التقبل المتبادل الكامل، وقدرتهما على السخرية معاً من أمور الحياة كلها تقريباً.

في تلك السنة حلّ الصيف مبكراً بحرٍ جاف وقيظ لاهب غطى المدينة بوميض حلم خبيث، فقدموا موعد الرحلة إلى الماريات الثلاث حوالي أسبوعين. وكما في كل سنة، انتظرت بلانكا بلهفة لحظة اللقاء ببيدرو الثالث، وعند النزول من العربة، كما في كل سنة، كان أول ما فعلته هو البحث عنه بنظرها في المكان المعهود. اكتشفت ظله مختبئاً عند عتبة الباب فقفزت من العربة واندفعت للقائه بلهفة شهور طويلة من الحلم به، ولكنها فوجئت برؤية الطفل يدور على عقبيه ويهرب.

قضت بلانكا طوال بعد الظهر وهي تجول على الأمكنة التي يلتقيان فيها، سألت عنه، نادته صارخة، بحثت عنه في بيت بيدرو عارثيا العجوز، وأخيراً، عندما حلّ الليل، نامت مهزومة، دون أن تأكل. وفي سرسرها البرونزي الضخم، دفنت وجهها في الوسادة محزونة ومستغربة، وبكت بحرقة. حملت إليها النانا كأس حليب بالعسل وأدركت على الفور سبب غمّها.

- كم أنا سعيدة! - قالت لها بابتسامة ماثلة -. لقد صرت في سن لا يمكنك فيها مواصلة اللعب مع ذلك المخاطي المقمل!

بعد نصف ساعة من ذلك دخلت أمها لتقبّلها ووجدتها تنتحب آخر حشرجات بكاء ميلودرامي. وللحظة تخلت كلارا عن كونها ملاكاً ساهياً ونزلت إلى مستوى البشر الفانين البسطاء الذين يعانون في سن

الرابعة عشرة أولى آلام الحب. أرادت الاستفسار، ولكن بلانكا كانت شديدة التكبر أو أنها صارت امرأة كاملة، ولم تقدم لها أي تفسير، فاكتفت كلارا بالجلوس لحظة على السرير ومداعبتها إلى أن هدأت.

نامت تلك الليلة نوماً سيئاً واستيقظت عند الفجر محاطة بظلال الغرفة الواسعة. ظلت تنظر إلى زخارف السقف حتى سمعت صياح الديك، فنهضت عندئذ وفتحت الستائر مفسحة المجال لدخول ضوء الفجر الخافت وضجة العامل الأولى. اقتربت من مرآة الخزانة ونظرت إلى نفسها بتمعن. خلعت قميص نومها وتأملت جسدها أول مرة بالتفصيل، مدركة أن كل هذه التبدلات هي السبب في هرب صديقها. ابتسمت ابتسامة جديدة ورقيقة كامرأة. ارتدت ملابسها القديمة المتبقية من الصيف السابق، والتي لم تكد تتسع لها، ولفت نفسها ببطانية وخرجت على رؤوس أقدامها كيلا توقظ الأسرة. وفي الخارج، كانت الحقول تنفض عنها نعاس الليل، وأشعة الشمس الأولى تقطع قمم سلسلة الجبال كضربات سيوف، وتدفئ الأرض وتبخر الندى في زبد أبيض خفيف يمحو هيئة الأشياء ويحول المشهد إلى رؤيا حلم. انطلقت بلانكا ماشية باتجاه النهر. كان كل شيء لا يزال ساكناً، وكانت خطواتها تهرس الأوراق المتساقطة والأغصان اليابسة، محدثة قرقعة خفيفة هي الصوت الوحيد في ذلك المدى الفسيح الهاجع. شعرت بأن أشجار الحور الغائمة، وحقول القمح والجبال البعيدة البنفسجية التي تضيع في سماء الصباح نصف الشفافة، ما هي جميعها إلا ذكرى قديمة في ذاكرتها.. شيء كانت قد رأته من قبل على هذا النحو بالضبط، وأنها قد عاشت هذه اللحظة من قبل. كان رذاذ مطر ليلي قد بلل الأرض والأشجار، وأحست برطوبة خفيفة في ثيابها وبرودة في حذائها. استنشقت شذى الأرض المبللة، والأوراق المتعفنة، والدُبال الذي أوقظ متعة مجهولة في حواسها.

وصلت بلانكا إلى النهر ورأت صديق طفولتها جالساً في المكان الذي طالما تواعدا على اللقاء فيه. لم يكن بيدرو الثالث قد كبر مثلها في تلك السنة، وإنما لا يزال الطفل النحيل الأسمر ومنتفخ البطن نفسه، مع تعبير حكمة رجل عجوز في عينيه السوداوين. نهض واقفاً عندما

رآها، وقدَّرت أنه أطول منها بنصف رأس. تبادلا النظرات بارتباك وهما يشعران أول مرة أنهما أشبه بغريبين. وظلا ثابتين دون حراك لوقت بدا لانهائي، يحاولان الاعتياد على التبدلات والأبعاد الجديدة، وعندئذ صدح عصفور دوري وعاد كل شيء ليبدو كما كان في الصيف السابق. وعادا ليكونا الطفلين اللذين يركضان ويتعانقان ويضحكان، يقعان أرضاً، يتقلبان، يرتطمان بالأحجار ويتمتمان اسميهما دون كلل، سعيدين بكونهما معاً مرة أخرى. وأخيراً عادا إلى الهدوء. كان شعرها ممتلئاً بأوراق جافة راح ينزعها واحدة واحدة.

- تعالي، سأريك شيئاً - قال بيدرو الثالث.

قادها من يدها. سارا مستمتعين بفجر العالم ذاك، وكانا يجرجران أقدامهما في الوحل، ويلتقطان سوق نباتات طرية يمصان نسغها وهما يتبادلان النظرات والابتسامات دون أن يتكلما، إلى أن وصلا حقلاً بعيداً. ظهرت الشمس فوق البركان، ولكن النهار لم يكن قد استقر بعد، وكانت الأرض تتثاءب. أشار لها بيدرو أن تنبطح على الأرض وتلتزم الصمت. زحفا مقتربين من أجمة شجيرات، وقاما بالتفافة قصيرة، وعندئذ رأتها كلارا. كانت فرساً بديعة سمراء ضارية إلى الحمرة تضع وليدها. ظل الطفلان جامدين، يحاولان ألا يُسمع حتى تنفسهما، رآياها تلهث وتبذل الجهد إلى أن ظهر رأس المهر وتلا ذلك، بعد وقت طويل، ظهور بقية الجسد. سقط الحيوان الصغير على الأرض وبدأت الأم تلحسه حتى صار نظيفاً ولامعاً مثل خشب مطلي بالورنيش، وراحت تدفعه بمقدمة رأسها كي يحاول الوقوف. وقد حاول المهر النهوض، ولكن قوائم حديث الولادة الضعيفة خارت ووقع أرضاً وهو ينظر إلى أمه بشحوب بينما هي تصهل محيية شمس الصباح. أحست بلانكا بالسعادة تنفجر في صدرها وتتدفق دموعاً من عينيها.

- عندما أكبر سأتزوج منكَ، وسنعيش هنا في الماريات الثلاث - قالت هامسة.

ظل بيدرو ينظر إليها بملامح عجوز حزين وهز رأسه بالنفي. لقد كان لا يزال طفلاً أكبر منها، ولكنه يعرف مكانته في العالم. ويعرف

أيضاً أنه سيحب تلك الطفلة طوال حياته، وأن هذا الفجر سيظل راسخاً في ذاكرته وسيكون آخر ما سيراه في لحظة موته.

أمضيا ذلك الصيف يتأرجحان بين الطفولة التي مازالت تتمسك بهما، واستيقاظ الرجل والمرأة فيهما. فللحظات يركضان كطفلين، يهيجان الدجاجات ويستثيران الأبقار، يُتخمان بالحليب الفاتر المحلوب للتو الذي يخلف لهما شوارب زبد، يسرقان الخبز الخارج من الفرن، يتسلقان الأشجار ليبنيا بيوتاً من الأغصان. وفي أحيان أخرى يختبئان في أمكنة سرية وكثيفة في الغابة، يصنعان فراشاً من ورق الشجر ويلعبان أنهما متزوجان، ويتبادلان المداعبات حتى الإنهاك. ولم يفقدا براءة خلع ملابسهما دون فضول والاستحمام عاريين في النهر، مثلما كانا يفعلان دائماً، إذ يغطسان في الماء البارد ويتركان التيار يجرهما على أحجار القاع اللامعة. ولكن هناك أشياء ما عادا يشتركان فيها كما في السابق. فقد تعلما الخجل. فتوقفا عن التنافس لرؤية من منهما يستطيع صنع بقعة أكبر من البول، ولم تخبره بلانكا بتلك المادة القاتمة التي تلوث سروالها الداخلي مرة في الشهر. وأدركا، دون أن يخبرهما أحد بذلك، أنه لم يعد بإمكانهما التعامل بإلفة زائدة أمام الآخرين. فعندما ترتدي بلانكا ملابسها كآنسة وتجلس عصراً على الشرفة لتشرب الليمونادة مع أسرتها، كان بيدرو الثالث يراقبها من بعيد، دون أن يقترب. بدأا الاختباء لممارسة ألعابهما. وتخليا عن المشي يداً بيد على مرأى من الكبار، ويتجاهل كل منهما الآخر كيلا يلفتان الانتباه. تنفست النانا الصعداء، ولكن كلارا بدأت تراقبهما بدقة أكبر.

انتهت الإجازة وعاد آل تروبيا إلى العاصمة محملين بمرطبانات الحلوى والمربيات، وصناديق الفواكه والأجبان، والدجاج والأرانب المملحة، وسلال البيض. وبينما الجميع يرتبون كل شيء في العربات التي ستنقلهم إلى محطة القطار، اختبأت بلانكا مع بيدرو الثالث في مستودع الحبوب ليودع أحدهما الآخر. فخلال تلك الشهور الثلاثة توصلا إلى أن يتحابا بالعاطفة المشبوبة التي أفقدتهما الصواب طوال ما تبقى من حياتيهما. ومع مرور الزمن تحول ذلك الحب إلى المنعة والثبات، ولكنه كان منذ ذلك

الوقت يتمتع بالعمق واليقين نفسيهما اللذين ميزاه في ما بعد. ففوق كومة من أكياس الحبوب، متنفسين غبار المستودع الشذي على ضوء الصباح الذهبي والمشتت الذي ينفذ من خلال ألواح الخشب، تبادلا القبلات في كل مكان، ولحس كل منهما الآخر، وعضه، ومصه، وبكيا وشربا دموعهما، وأقسما على الوفاء الأبدي واتفقا على رموز سرية ستفيدهما في التواصل خلال شهور الفراق.

جميع من عاشوا تلك اللحظة يتفقون على أن الساعة كانت حوالي الثامنة ليلاً عندما ظهرت فيرولا، دون أن يتنبأ أحد بمجيئها. واستطاع الجميع رؤيتها ببلوزتها المنشاة، وحزمة مفاتيحها المعلقة على خصرها، وعقيصة شعرها كمانس، مثلما تعودوا رؤيتها على الدوام في البيت. دخلت من باب غرفة الطعام في اللحظة التي بدأ فيها إستيبان تقطيع الشواء، وتعرفوا إليها فورا على الرغم من أنهم لم يروها منذ ست سنوات، ومن أنها كانت شاحبة جداً وأشد هرماً بكثير مما كانت عليه. حدث ذلك في يوم سبت، وكان التوءمان قد حضرا من المدرسة الداخلية لقضاء نهاية الأسبوع مع أسرتهما، أي أنهما كانا موجودين أيضاً. وشهادتهما بالغة الأهمية، لأنهما الوحيدان بين أفراد الأسرة اللذان كانا يعيشان بعيداً عن المنضدة ذات القوائم الثلاث، محميين من السحر والروحانية بفعل صرامة مدرستهما الإنكليزية. أحسوا أول الأمر ببرودة مفاجئة في غرفة الطعام، فأمرت كلارا بإغلاق النوافذ ظناً منها أنه تيار هواء بارد. ثم سمعوا صلصلة المفاتيح وتلا ذلك فوراً فتح الباب وظهور فيرولا صامتة وبملامح نائية، في اللحظة نفسها التي دخلت فيها النانا من باب المطبخ حاملة جفنة سلطة. ظل إستيبان تروبيا ممسكاً بشوكة وسكين التقطيع في الهواء وقد شلته المفاجأة، وصاح الأطفال الثلاثة في وقت واحد تقريباً: «العمة فيرولا!». ونهضت بلانكا للذهاب للقائها، غير أن كلارا التي كانت تجلس إلى جانبها، مدت يدها وثبتتها من ذراعها. والواقع أن كلارا هي الوحيدة التي انتبهت إلى ما يحدث منذ النظرة الأولى، وذلك لتعاملها الطويل بشؤون الخوارق، على الرغم من أنه لم

يكن هناك في هيئة أخت زوجها ما يشي بحقيقة وضعها. توقفت فيرولا على بعد متر من المائدة، نظرت إليهم جميعاً بعينين خاويتين وغير مباليتين، ثم تقدمت باتجاه كلارا التي نهضت واقفة دون أن تقوم بأي حركة للاقتراب، بل أغمضت عينيها وبدأ تنفسها يضطرب كما لو أنها على وشك الإصابة بإحدى نوبات ربوها. دنت فيرولا منها، ووضعت يداً على كلٍ من كتفيها وقبّلت جبهتها قبلة خفيفة. كان الشيء الوحيد المسموع في غرفة الطعام هو تنفس كلارا اللاهث والرنين المعدني للمفاتيح المعلقة بحزام فيرولا. وبعد أن قبّلت زوجة أخيها، مرت بجانبها وخرجت من حيث دخلت، مغلقة الباب خلفها برفق. ظلت الأسرة جامدة في غرفة الطعام، كما لو أنها في كابوس. وفجأة بدأت النانا ترتجف بقوة، فسقطت منها ملعقتي السلطة وجعلتهم ضجة ارتطام المغرفتين الفضيتين بالأرض يجفلون جميعاً. فتحت كلارا عينيها. كانت لا تزال تتنفس بصعوبة، بينما دموع صامتة تسيل على خديها وعنقها وتلطخ بلوزتها.

- لقد ماتت فيرولا - أعلنت.

أفلت إستيبان ترويبا أدوات تقطيع الشواء على سماط المائدة وخرج راكضاً من حجرة الطعام. وصل حتى الشارع وهو ينادي أخته، ولكنه لم يجد أثراً لها. وفي أثناء ذلك، أمرت كلارا أحد الخدم أن يأتي بالمعاطف، وحين رجع زوجها كانت ترتدي معطفها ومفاتيح السيارة في يدها.

- فلنذهب إلى حيث الأب أنطونيو - قالت له.

قطعا الطريق بصمت. كان إستيبان يقود السيارة بقلب منقبض، باحثاً عن كنيسة الأب أنطونيو القديمة في أحياء الفقراء تلك التي لم تطأها قدماه منذ سنوات. كان الكاهن مشغولاً بتثبيت زر ثوبه الكهنوتي المهترئ عندما وصلا بخبر أن فيرولا قد ماتت.

- غير ممكن! - هتف الكاهن - لقد كنتُ معها قبل يومين وكانت في صحة جيدة ومعنويات مرتفعة.

- خذنا إلى بيتها يا أبت من فضلك - توسلت كلارا - أنا أعرف لماذا أقول ما أقوله. إنها ميتة.

وحيال إلحاح كلارا، رافقهما الأب أنطونيو. وجّه إسيبان عبر شوارع ضيقة حتى مسكن فيرولا. فخلال سنوات عزلتها تلك، عاشت في أحد أحياء الفقراء حيث كانت تذهب في شبابها لتصلي صلوات المسبحة بالرغم من معارضة من تصلي من أجلهم. وكان عليهم أن يتركوا السيارة على بعد عدة شوارع، لأن الطرق أخذت تضيق أكثر فأكثر، حتى أدركوا أنه لا يمكن التنقل فيها إلا سيراً على الأقدام أو على دراجة. توغلوا مشياً متجنبين برك الماء الآسن التي تفيض من قنوات المجاري، ومتجاوزين أكوام الزبالة المتراكمة حيث تنبش القطط كأشباح محترسة. كان الحي عبارة عن زقاق طويل من بيوت متداعية، جميعها متماثلة، مساكن صغيرة وبائسة من الاسمنت بباب واحد ونافذتين، مطلية بألوان شاحبة، مخلعة، تتآكلها الرطوبة، مع أسلاك ممدودة على طول الزقاق يُعلّق عليها في النهار الغسيل تحت الشمس، أما في ساعة الليل تلك، فكانت فارغة تهتز بصورة غير مرئية. وفي منتصف ذلك الزقاق يوجد حوض ماء وحيد لتزويد كافة العائلات التي تعيش هناك، ومصباحي غاز فقط لإضاءة الممر بين البيوت. حيا الأب أنطونيو عجوزاً تقف إلى جانب حوض الماء منتظرة أن يمتلئ دلوها بالماء الذي يسيل خيطاً رفيعاً من صنبور.

- هل رأيت الآنسة فيرولا؟ - سألها.

ـ لا بد أنها في بيتها يا أبتِ. فأنا لم أرها في الأيام الأخيرة ـ قالت العجوز.

أشار الأب أنطونيو إلى مسكن شبيه بالبيوت الأخرى، كئيب، متآكل الجدران وقذر، ولكنه البيت الوحيد الذي فيه علبتي صفيح معلقتين إلى جانبي الباب، تنمو فيهما نبتتان صغيرتان من زهرة الفقير الشوكية. طرق الكاهن الباب.

ـ ادخلوا، ادخلوا، فالآنسة لا تُقفل الباب أبداً. لا يوجد عندها ما يستحق السرقة!

فتح إستيبان تروبيا الباب وهو ينادي أخته، ولكنه لم يتجرأ على الدخول. فكانت كلارا هي أول من اجتاز العتبة. كان الداخل مظلماً،

واستقبلتهم رائحة الخزامى والليمون التي لا يمكن الخطأ فيها. أشعل الأب أنطونيو عود ثقاب. فنشرت الشعلة الضعيفة دائرة ضوء في الظلمة، ولكنهم قبل أن يتمكنوا من التقدم أو معرفة ما يحيط بهم، انطفأت الشعلة.

- انتظرا هنا - قال لهما الكاهن - أنا أعرف البيت.

تقدم متلمساً طريقه، وبعد لحظة أشعل شمعة. برزت هيئته بفظاظة، ورأيا وجهه مشوهاً بالضوء الذي يضيئه من أسفل متذبذباً عند منتصفه، بينما ظله الضخم يتراقص على الجدران. لقد وصفت كلارا هذا المشهد بدقة في دفتر يومياتها، مفصِّلة باهتمام وصف الغرفتين المظلمتين وجدرانهما الملطخة بالرطوبة، والحمام الصغير القذر بلا ماء جار، والمطبخ الذي لم يكن فيه سوى فضلات خبز قديمة وإناء فيه قليل من الشاي. أما بقية مسكن فيرولا فبدا لكلارا متطابقاً مع الكابوس الذي بدأ بظهور أخت زوجها في غرفة طعام بيت الناصية الكبير لوداعهم. أحست كما لو أنها في حجرة خلفية ملحقة بدكان بائع ملابس مستعملة أو في كواليس مسرح فرقة جوالة بائسة. فمن بعض المسامير في الجدران تتدلى ملابس عتيقة، ولفاعات من ريش، وقطع فراء هزيلة، وعقود أحجار كريمة مزيفة، وقبعات لم تعد تُستخدم منذ نصف قرن، وتنانير حائلة الألوان بكشاكش مهترئة، وفساتين كانت فاخرة ولم يعد من وجود لبريقها، وسترات أميرالات وعباءات مطارنة لا تفسير لوجودها هناك، وكل ذلك مختلط في تآخٍ فج عشش فيه غبار سنوات. وعلى الأرض خليط من أحذية الساتان وحقائب مبتدئات، وأحزمة مرصعة بمجوهرات مقلدة، وحمالات سراويل، وحتى سيف تلميذ ضابط جديد. رأت باروكات شعر كئيبة، وعلب زينة، وقوارير فارغة وأشياء كثيرة، من المستحيل تصورها، مبعثرة في كل مكان.

كان هناك باب ضيق بين الحجرتين الوحيدتين. وكانت فيرولا ترقد على فراشها في الحجرة الثانية، مزينة كملكة نمساوية، ترتدي فستاناً من مخمل نخرته العثة، وتنورة من التفتا الصفراء، وعلى رأسها تلمع باروكة شعر أجعد غير معقولة لمغنية أوبرا. لم يكن معها أحد، ولم يعلم

باحتضارها أحد، وقدروا أنها ماتت منذ ساعات عديدة، لأن الجرذان بدأت بقضم قدميها والتهام أصابعها. كانت عظيمة في دمارها كملكة، وبدا على وجهها تعبير عذب وهادئ لم يكن لها قط في حياتها الكئيبة.

- كانت تحب ارتداء ثياب قديمة تحصل عليها من محلات الأشياء المستعملة أو تجمعها من المزابل، وكانت تتجمل بالأصبغة وتضع هذه الباروكات، ولكنها لم تسئ قط إلى أحد، بل على العكس، فحتى آخر أيامها كانت تصلي من أجل خلاص الخاطئين - أوضح الأب أنطونيو.

- اتركوني وحدي معها - قالت كلارا بحزم.

خرج الرجلان إلى الزقاق، حيث بدأ الجيران بالتجمع. خلعت بلانكا معطف الصوف الأبيض وشمرت كميها، واقتربت من أخت زوجها، فنزعت عنها برفق باروكة الشعر المستعار ورأت أنها كانت شبه صلعاء، هرمة وبائسة. قبّلت جبينها مثلما قبّلتها هي قبل ساعات في غرفة طعام بيتها، ثم بادرت إلى ارتجال طقوس الموت بكل بهدوء. جردتها من ثيابها، وغسلتها، وصوبنتها بعناية دون تجاهل أي جزء، ودلكتها بماء الكولونيا، وبودرتها، وسرحت ما تبقى من شعرها بمحبة، وألبستها أفضل ما وجدته من أسمالها الرثة وأكثره أناقة، ووضعت على رأسها باروكة مغنية السوبرانو، معيدة إليها في موتها تلك الخدمات اللانهائية التي قدمتها إليها فيرولا في حياتها. وبينما هي تعمل، مكافحة الربو، كانت تحدثها عن بلانكا، وعن أنها صارت آنسة، وعن التوءمين، وعن بيت الناصية الكبير، وعن الريف «ولو أنك رأيت كم كنا نشتاق إليك يا أخت زوجي، ومدى حاجتي إليك للعناية بهذه الأسرة، فأنت تعرفين أنني لا أنفع شيئاً في مهمات البيت، فالصبيان صارا لا يطاقان، أما بلانكا بالمقابل فهي طفلة محببة، وأزهار الأرطنسيا التي زرعتها أنت بيديك في الماريات الثلاث صارت رائعة، وتفتحت بعضها زرقاء لأني وضعت قطع عملة نحاسية كسماد في التربة، كي تزهر بهذا اللون، إنه أحد أسرار الطبيعة، وكلما وضعتُ الأزهار في الزهريات أتذكرك، ولكنني أتذكرك أيضاً عندما لا تكون هناك أورطنسيا، إنني أتذكرك دائماً يا فيرولا، فمنذ ابتعدتِ عني لم يمنحني أحد مثل حبك».

انتهت من تظيفها وترتيبها، وظلت لبعض الوقت تكلمها وتداعبها، ثم استدعت زوجها والأب أنطونيو كي يتوليا مسألة الدفن. وفي علبة بسكويت، وجدوا مغلفات النقود التي كان استيبان يرسلها شهرياً إلى أخته، وكانت مثلما هي، لم تمس، خلال تلك السنوات. فقدمتها كلارا إلى الكاهن لينفقها في أعمال الإحسان، متأكدة من أنها الوجهة التي كانت فيرولا ستنفقها بها على كل حال.

ظل الكاهن مع الميتة كيلا تسيء الجرذان احترامها. كان الليل قد انتصف عندما خرجوا. وكان الجيران في الحي قد احتشدوا عند الباب ليعلقوا على الخبر. فاضطروا إلى أن يشقوا طريقهم وهم يبعدون المتطفلين ويدفعون جانباً الكلاب التي تتشمم بين الناس. ابتعد إستيبان بخطوات واسعة وهو يقودُ كلارا من ذراعها بما يشبه الجرّ، دون أن يأبه بالماء الآسن الذي لطخ بنطاله الرمادي المتقن بموديله الإنكليزي. كان غاضباً لأن أخته، حتى بعد موتها، تُشعره بالذنب مثلما كانت عليه الحال وهو طفل. تذكر طفولته، حين كانت تحيطه برعايتها، وتلفه بديون كبيرة من العرفان بالجميل لن يتمكن من سدادها طوال أيام حياته. وعاد لمعاناة الشعور بعدم الجدارة الذي كان يعذبه بحضورها، ولمقت روح التضحية لديها، وصرامتها، وميلها إلى الفقر والتقشف، ورسوخ عفتها التي يحس بأنها تأنيب لطبيعته الأنانية والحسية المتلهفة للسلطة. فليأخذك الشيطان أيتها اللعينة! تمتم رافضاً أن يتقبل، حتى أعماق قلبه، أن زوجته نفسها أيضاً لم تعد تنتمي إليه بعد طرده فيرولا من البيت.

- لماذا كانت تعيش على ذلك النحو مادام لديها فائض من المال؟ - صرخ إستيبان.

- لأنها كانت تفتقر إلى كل ما عدا ذلك - أجابته كلارا بعذوبة.

خلال شهور فراقهما، كان بيدرو الثالث وبلانكا يتبادلان عبر البريد رسائل قصيرة متأججة يوقّعها الفتى باسم امرأة، وتخبئها هي فور وصولها. وقد تمكنت النانا من اعتراض رسالة أو اثنتين، ولكنها لم تكن تعرف القراءة، وحتى لو عرفتها فإن لغة الرموز السرية ستحول دون

فهمها لمضمونها، وهذا من حسن حظها، لأن قلبها ما كان سيتحمل ذلك المضمون. أمضت بلانكا الشتاء في حياكة كنزة من صوف اسكتلندي خلال دروس الأشغال اليدوية في المدرسة، وكانت تفكر في أثناء ذلك في مقاسات الفتى. وتنام في الليل وهي تحتضن الكنزة، وتشم رائحة الصوف وتحلم بأنه هو نفسه من ينام في فراشها. وأمضى بيدرو الثالث، بدوره، الشتاء وهو يؤلف أغنيات بمرافقة الجيتار ليغنيها لبلانكا، وينحت صورتها على كل قطعة خشب تقع بين يديه، دون أن يتمكن من فصل ذكرى الفتاة الملائكية عن تلك الاضطرابات التي تفور في دمه، وتليّن عظامه، وتبدّل صوته وتجعل الشعر ينبت في وجه. كان يتردد حائراً بين متطلبات جسده الآخذ بالتحول إلى جسد رجل وعذوبة شعور مازال مصبوغاً بألعابِ الطفولة البريئة. وكان كلاهما ينتظر بلهفة مؤلمة مجيء الصيف. وأخيراً، عندما حل الصيف وعادا للقاء، تبين أن الكنزة التي حاكتها بلانكا لا تدخل من راس بيدرو الثالث، لأنه غادر الطفولة في تلك الشهور واكتسب أبعاده كرجل بالغ، كما أن الأغنيات الرقيقة عن الزهور والصباحات التي نظمها من أجلها، بدت لها مضحكة، لأنها صارت امرأة كاملة بهيئتها وتسرعها.

كان بيدرو الثالث لا يزال نحيلاً، بشعره القاسي وعينيه الحزينتين، ولكن تبدل صوته أكسبه رنة مبحوحة وعاطفية سيصبح معروفاً بها في ما بعد، عندما سيغني للثورة. كان قليل الكلام، وغير لبق في التعامل، ولكنه رقيق وشديد الحساسية في يديه اللتين لهما أصابع فنان ينحت بهما، وينتزع الآهات من أوتار جيتاره، ويرسم بالسهولة التي يمسك بها أعنة حصان أو يليّن الفأس ليقطع بها الحطب أو يقود بها المحراث. وكان الوحيد الذي يواجه السيد المالك في الماريات الثلاث. وقد طلب منه أبوه بيدرو الثاني ألف مرة ألا ينظر مواجهة إلى عيني السيد، وألا يرد عليه، وألا يزعجه. ورغبة منه في حمايته، وصل به الأمر إلى ضربه بشدة كي يخفف من زهوه. ولكن الابن كان متمرداً. ففي العاشرة من عمره كان يعرف قدر ما تعرفه المعلمة في مدرسة الماريات الثلاث، وفي الثانية عشرة أصر على الذهاب إلى المدرسة الثانوية في القرية، ممتطياً حصاناً أو

ماشياً، فكان يخرج من كوخه في الخامسة صباحاً، سواء أكان هناك مطر أو رعود. وقرأ الكتب السحرية في صناديق الخال ماركوس المسحورة وأعاد قراءتها ألف مرة، وواصل الاقتيات على كتب أخرى يعيره إياها النقابيون الذين يلتقيهم في البار والأب خوسيه دولثي ماريا الذي علّمه أيضاً تنمية موهبته الطبيعية في نظم أفكاره شعراً وترجمتها إلى أغنيات.

- إن أمنا الكنيسة المقدسة إلى اليمين يا بني، ولكن يسوع المسيح كان دائماً إلى اليسار - كان الكاهن يقول له بنبرة ملغزة، بين رشفة وأخرى من نبيذ القداس الذي يحتفي به بزيارات بيدرو الثالث.

وهكذا فإن إستيبان ترويبا الذي كان يستريح على الشرفة ذات يوم بعد الغداء، سمعه يغني شيئاً عن دجاجات منظمة اتحدت لمواجهة الثعلب وانتصرت عليه. فاستدعاه.

- أريد ان اسمعك مرة أخرى. هيا، غن ولنر - أمره.

أمسك بيدرو الثالث الجيتار بحركة محببة، ووضع قدمه على كرسي وداعب الأوتار. ظل ينظر بثبات إلى السيد بينما صوته المخملي يرتفع بانفعال في خدر القيلولة. لم يكن إستيبان ترويبا أبله وفهم التحدي.

- أي! أرى أن أتفه الأمور يمكن أن تقال غناء - قال غامزاً - من الأفضل أن تتعلم غناء أغنيات الحب!

- إنها تعجبني يا سيد. فالاتحاد يصنع القوة مثلما يقول الأب خوسيه دولثي ماريا. وإذا كانت الدجاجات قادرة على مواجهة الثعلب، فما الذي ينمع البشر من ذلك؟

تناول جيتاره وخرج مجرجراً قدميه دون أن يجد الآخر ما يرد به عليه، على الرغم من أن الغضب بلغ حدّ شفتيه وبدأ ضغطه بالارتفاع. منذ ذلك اليوم وضعه إستيبان ترويبا نصب عينيه، فصار يراقبه ويرتاب منه. حاول منعه من الذهاب إلى المعهد مختلقاً له مهمات رجل بالغ، ولكن الفتى صار يستيقظ في وقت أبكر وينام متأخراً كي ينجز مهمامه. وكان ذلك في تلك السنة التي جلده فيها إستيبان بالسوط أمام أبيه لأنه حمل

إلى المزارعين المستجدات التي بدأ تداولها بين نقابيي القرية، وهي أفكار من نوع عطلة يوم الأحد، والحدّ الأدنى للأجر، والتقاعد والخدمة الطبية، وعطلة الأمومة للنساء الحوامل، والتصويت دون ضغوط، والأخطر من ذلك كله فكرة منظمة فلاحية قادرة على مواجهة السادة الملاكين.

في ذلك الصيف، عندما ذهبت بلانكا لقضاء الإجازة في الماريات الثلاث، لم تكد تتعرف عليه، لأنه صار أطول خمسة عشر سنتمتراً مما كان عليه، وخلّف وراءه بعيداً الطفل منتفخ البطن الذي شاطرها كل فصول صيف طفولتها. نزلت من العربة، وسوّت تنورتها ولم تهرع للمرة الأولى راكضة لمعانقته، وإنما أحنت رأسها قليلاً على سبيل التحية، وإن كانت عيناها قد قالتا له ما لا يجب أن يسمعه الآخرون، ولأنها من جهة أخرى كانت قد قالت له ذلك في رسائلها الملغزة غير المحتشمة. لاحظت النانا المشهد بطرف عينها وابتسمت ساخرة. وحين مرت قبالة بيدرو الثالث صعرت وجهها.

- تعلّم أيها المخاطي البقاء ضمن طبقتك ولا تقترب من الآنسات - قالت ساخرة من بين أسنانها.

في تلك الليلة تناولت بلانكا العشاء مع الأسرة كلها في غرفة الطعام، وكان العشاء قدر دجاج بالخضار اعتادوا على استقبالهم به في الماريات الثلاث على الدوام، دون أن يُلحظ عليها أي جزع خلال جلسة بعد العشاء الطويلة التي يرتشف أبوها خلالها الكونياك ويتحدث عن أبقار مستوردة ومناجم ذهب. انتظرت أن أعطت أمها إشارة الانسحاب، فنهضت بهدوء، وتمنت ليلة سعيدة لكل فرد من الأسرة وذهبت إلى حجرتها. وللمرة الأولى في حياتها أقفلت باب الحجرة بالمفتاح. جلست على السرير دون أن تخلع ثيابها وانتظرت في الظلام إلى أن خمدت أصوات التوءمين الصاخبين في الغرفة المجاورة، وخطى الخدم، وحركة الأبواب والمزاليج، واستكان البيت في هدأة النوم. عندئذ فتحت النافذة وقفزت، وقد سقطت على نبتات الأرطنسيا التي كانت قد زرعتها عمتها فيرولا قبل زمن طويل. كان الليل مضيئاً، وكانت تُسمع أصوات الجداجد والضفادع. تنفست بعمق وحمل إليها الهواء شذى رائحة الدراق الذي يجفف

في الفناء لحفظه. انتظرت إلى أن اعتادت عيناها على الظلام ثم بدأت التقدم، ولكنها لم تستطع المضي بعيداً، لأنها سمعت عواء كلاب الحراسة الهائجة التي يفلتونها في الليل. كانت أربعة كلاب دِرواسية تربَّت مربوطة بسلاسل وقضاء النهار محبوسة، ولم تكن بلانكا قد رأت تلك الكلاب عن قرب قط، وكانت تعلم أنه لا يمكن للكلاب أن تتعرف عليها. أحست للحظة أن الخوف قد أفقدها رشدها وكانت على وشك البدء بالصراخ، ولكنها تذكرت عندئذ أن بيدرو غارثيا العجوز قد قال لها إن اللصوص يمضون عراة كيلا تهاجمهم الكلاب. ودون أي تردد خلعت ثيابها بأقصى سرعة أتاحتها لها أعصابها، ووضعتها تحت إبطها وواصلت المشي بخطوات هادئة. كانت تصلي كيلا تشم الحيوانات خوفها. رأتها تتقافز وهي تعوي وواصلت التقدم دون أن تفقد إيقاع مشيتها. اقتربت الكلاب، وزمجرت حائرة، ولكن بلانكا لم تتوقف. واقترب أجرأ الكلاب ليشمها. أحست ببخار أنفاسه الدافئة في منتصف ظهرها، ولكنها لم تُبدي اهتماماً به. واصلت الكلاب الزمجرة والعواء لبعض الوقت، ورافقتها لمسافة من الطريق، وأخيراً استدارت الكلاب منزعجة. تنفست بلانكا الصعداء وانتبهت إلى أنها ترتجف وأنها مغطاة بالعرق، فكان عليها أن تستند إلى شجرة وتنتظر إلى أن ينقضي الإنهاك الذي حوّل ساقيها إلى قطن. وارتدت بعد ذلك ثيابها وانطلقت راكضة باتجاه النهر.

كان بيدرو الثالث ينتظرها في المكان نفسه الذي التقيا فيه الصيف الماضي، وحيث كان إستيبان تروبيا، قبل سنوات طويلة، قد افتض عذرية بانتشا غارثيا. اصطبغت بلانكا بحمرة الخجل بعنف حين رأت الفتى. فخلال شهور فراقهما كان قد تمرس في مهمة تحوله القاسية إلى رجل، أما هي بالمقابل فكانت حبيسة جدران بيتها ومدرسة الراهبات، محمية من ملامسة الحياة، مغذية أحلامها الرومانسية بسيخيّ حياكة وبصوف اسكتلندي، ولكن صورة أحلامها لم تتطابق مع هذا الشاب طويل القامة الذي يقترب منها وهو يهمس باسمها. مدّ بيدرو الثالث يده ولمس رقبتها عند مستوى الأذن. أحست بلانكا بشيء حار يجوب

عظامها ويضعف ساقيها، فأغمضت عينيها واستسلمت. جذبها إليه برفق وأحاطها بذراعيه، فدفنت أنفها في صدر هذا الرجل الذي لا تعرفه، المختلف تماماً عن الطفل النحيل الذي كانت تتبادل وإياه المداعبة حتى التلاشي قبل بضعة شهور. استنشقت رائحته الجديدة، احتكت ببشرته الخشنة، تلمست ذلك الجسد الغريب والقوي وأحست بسلام عظيم وكامل لا يشبه في شيء الاضطراب الذي سيطر عليه. بحث كل منهما عن الآخر باللسان، مثلما كانا يفعلان من قبل، ولكنها بدت مداعبة اختُرعت للتو، سقطا جاثيين وهما يبادلان القبلات بيأس ثم تدحرجا على فراش الأرض الرطبة الطري. كانا يكتشفان نفسيهما أول مرة ولم يكن لديهما ما يقولانه. جاب القمر الأفق كله، ولكنهما لم يرياه، لأنهما كانا مشغولين باكتشاف عمق حميميتهما باندساس كل منهما في جلد الآخر دون ارتواء.

ابتداء من تلك الليلة، صارت بلانكا وبيدرو الثالث يلتقيان دوماً في المكان نفسه وفي الموعد نفسه. كانت تشغل النهار في التطريز والقراءة ورسم لوحات مائية تافهة في محيط البيت، تحت نظرات النانا السعيدة التي صار بإمكانها النوم باطمئنان أخيراً. أما كلارا بالمقابل، فكانت تهجس بأن شيئاً غريباً يحدث، لأنها ترى لوناً جديداً في هالة ابنتها، وتعتقد أنها تحدس السبب. وكان بيدرو الثالث يقوم بأعماله المعهودة في الحقول دون أن يتخلى عن الذهاب إلى القرية للقاء أصدقائه. ومع حلول الليل يكون على وشك الموت من التعب، ولكن فكرة اللقاء مع بلانكا تعيد إليه قواه. فليس عبثاً أنه في الخامسة عشرة. وقد أمضيا الصيف كله على ذلك النحو، وبعد سنوات طويلة سيتذكران ليالي الاحتدام تلك على أنها أفضل فترة في حياتيهما.

في أثناء ذلك، كان خايمي ونيكولاس يستغلان الإجازة لعمل كل تلك الأشياء المحظورة عليهما في المدرسة البريطانية، فيصرخان حدّ الزعاق، ويتشاجران لأي سبب متحولين إلى مخاطيين قذرين، مهملي الهندام، ركبهما ممتلئة بالقروح ورأسيهما بالقمل، متخمين بالثمار الدافئة المقطوفة للتو، وبالشمس والحرية. يخرجان مع الفجر ولا يرجعان

إلى البيت حتى الغروب، مشغولين باصطياد أرانب بالأحجار، والجري على الخيول حتى انقطاع الأنفاس، والتلصص على النساء اللواتي يغسلن الثياب في النهر.

انقضت ثلاث سنوات على هذه الحال، إلى أن بدّل الزلزال الأمور. ففي نهاية تلك الإجازة الأخيرة، رجع التوءمان إلى العاصمة قبل بقية الأسرة، ترافقهما النانا وخدم المدينة وقدر كبير من الأمتعة. ذهب الصبيّان مباشرة إلى مدرستهما الداخلية، بينما انهمكت النانا والخدم الآخرون بترتيب بيت الناصية الكبير لاستقبال السيد والسيدة.

وظلت بلانكا بضعة أيام أخرى مع أبويها في الريف. حينئذ بدأت كلارا برؤية كوابيس، وصارت تمشي وهي نائمة في الممرات وتستيقظ صارخة. كانت تمضي في النهار كبلهاء، ترى إشارات منذرة في سلوك البهائم. فالدجاجات لا تضع بيضتها اليومية، والأبقار تبدو مرعوبة، والكلاب تنبح على الموت، والجرذان والعناكب والديدان تخرج من مخابئها، والطيور تترك أعشاشها وتبتعد هاربة في أسراب، بينما فراخها تصرخ من الجوع على الأشجار. وكانت تنظر بإمعان إلى عمود الدخان الأبيض المتصاعد من البركان، وترصد التبدلات التي تطرأ على لون السماء. أعدت لها نقيع أعشاب ساخنة وحمامات دافئة، ولجأ إستيبان إلى علبة أقراص العلاج التجانسي القديمة لتهدئتها، ولكن الأحلام تواصلت.

ـ الأرض ستهتز! ـ كانت كلارا تقول وهي تزداد شحوباً واضطراباً.

ـ بالله عليك يا كلارا، إنها تهتز على الدوام! ـ يرد عليها إستيبان.

ـ سيكون الأمر مختلفاً هذه المرة. يكون هناك عشرة آلاف قتيل.

ـ لا يوجد مثل هذا العدد من الناس في البلاد كلها ـ يقول لها ساخراً.

بدأت الكارثة في الساعة الرابعة فجراً. استيقظت كلارا قبل ذلك بقليل من كابوس قيامي عن خيول متفزرة، وأبقار يختطفها البحر، وبشر يزحفون تحت الأحجار، وكهوف تنشق في الأرض وتغور فيها بيوت بكاملها. نهضت شاحبة من الرعب وهرعت باتجاه حجرة بلانكا. ولكن

بلانكا، كما في كل ليلة، كانت قد أغلقت باب حجرتها بالمفتاح وانسلت من النافذة باتجاه النهر. ففي الأيام الأخيرة، قبل العودة إلى المدينة، كان وله الصيف قد اكتسب أبعاداً دراماتيكية، وحيال فراق جديد وشيك، صار الشابان يستغلان كل اللحظات الممكنة لتبادل الحب باندفاع. كانا يقضيان الليل عند النهر، غير عابئين بالبرد والتعب، يتقلبان بقوة اليأس، ولا تعود بلانكا إلى البيت إلا مع بزوغ أول أضواء الفجر، فتدخل من النافذة إلى غرفتها التي تصلها في لحظة سماع أصوات الديكة بالضبط. وصلت كلارا إلى باب غرفة ابنتها وحاولت فتحه، ولكنه كان مقفلاً. طرقت الباب، وحين لم يرد أحد خرجت راكضة ودارت حول البيت، وعندئذ رأت النافذة المفتوحة على مصراعيها وأزهار الأُرطنسيا التي زرعتها فيرولا مُداسة. وفي لحظة فهمت سبب لون هالة بلانكا، والزرقة المحيطة بعينيها، وفقدانها الشهية وصمتها، ونعاسها الصباحي ورسومها المائية المسائية. وفي تلك اللحظة بالذات بدأ الزلزال.

أحست كلارا بارتجاج الأرض ولم تستطع البقاء واقفة. سقطت على ركبتيها. تفككت قطع قرميد السطح ونزلت كالمطر حولها في فرقعة تبعث على الصمم. رأت جدار البيت الطيني ينشق كما لو أن فأساً ضربه، والأرض تنفتح مثلما رأتها في أحلامها، وراح صدع هائل يظهر أمامها مبتلعاً في طريقه زرائب الدجاج وأحواض الغسل وجزءاً من الاسطبل. مال خزان الماء وسقط أرضاً مفلتاً ألف لتر من الماء فوق الدجاجات الناجية التي راحت تخفق أجنحتها بيأس. وفي البعيد، كان البركان يقذف ناراً ودخاناً مثل تنين غاضب. أفلتت الكلاب من سلاسلها وراحت تركض بجنون، والخيول التي نجت من انهيار الاسطبل راحت تستنشق الهواء وتصهل رعباً قبل أن تخرج مندفعة نحو البراري، وكانت أشجار الحور تترنح متمايلة كالسكارى وقد سقط بعضها وبرزت جذورها فوق سطح الأرض مهشمة أعشاش عصافير الدوري. ولكن الأرهب من ذلك كله هو الهدير المنبعث من أعماق الأرض، لهاث المردة ذاك الذي سُمع طويلاً، وملأ الفضاء بالرعب. حاولت كلارا أن تجرجر نفسها باتجاه البيت منادية بلانكا، لكن زمجرات الأرض منعتها. رأت

الفلاحين يخرجون مذعورين من بيوتهم، يتوسلون السماء، يحتضنون بعضهم بعضاً، يشدون الأطفال، ويركلون الكلاب، ويدفعون المسنين، يحاولون إنقاذ ممتلكاتهم البائسة وسط هدير ذلك القرميد والآجر الذي يخرج من أحشاء الأرض نفسها كأنه دوي لانهائي لنهاية العالم.

ظهر إستيبان تروبيا عند عتبة الباب في اللحظة نفسها التي انكسر فيها البيت كقشرة بيضة وانهار وسط سحابة من غبار، ساحقاً إياه تحت جبل من الأنقاض. زحفت كلارا إلى هناك وهي تناديه صارخة، ولكن أحداً لم يرد عليها.

هزة الزلزال الأولى استمرت دقيقة تقريباً، وكانت أقوى هزة تُسجل حتى ذلك الحين في بلاد الكوارث تلك. وقد أسقطت أرضاً معظم ما كان منتصباً، وانتهى ما تبقى إلى الانهيار في سلسلة هزات ارتدادية صغيرة واصلت زعزعة العالم حتى الفجر. انتظروا في الماريات الثلاث طلوع الشمس كي يحصوا الموتى والنبش عن المدفونين الذين مازالو يئنون تحت الأنقاض، ومنهم إستيبان تروبيا الذي كان الجميع يعرفون أين هو، ولكن أحداً لم يأمل بالعثور عليه حياً. لقد احتاجوا إلى أربعة رجال يقودهم بيدرو الثاني لإزاحة جبل التراب والقرميد واللّبن الذي يغطيه. كانت كلارا قد خرجت من شرودها الملائكي وراحت تساعد في رفع الأحجار بقوة رجل.

- علينا إخراجه! إنه حي ويسمعنا! - أكدت كلارا، فمنحهم ذلك الحماسة ليواصلوا العمل.

ومع أول أنوار الصباح ظهرت بلانكا وبيدرو الثالث سالمين. انقضت كلارا على ابنتها وصفعتها صفعتين، ولكنها احتضنتها بعد ذلك باكية، وقد شعرت بالراحة لمعرفتها أنها نجت وأنها إلى جانبها.

- أبوك هناك! - أشارت كلارا.

انضم الشابان إلى العمل مع الآخرين وبعد ساعة، حين طلعت الشمس على ذلك العالم المكروب، أخرجوا السيد من قبره. كانت كسور عظامه كثيرة لا يمكن عدّها، ولكنه كان حياً وعيناه مفتوحتين.

- يجب نقله إلى القرية كي يفحصه الأطباء - قال بيدرو الثاني.

كانوا يتجادلون في كيفية نقله دون أن تخرج عظامه من كل جانب

كما من كيس ممزق، عندما جاء بيدرو غارثيا العجوز الذي تحمّل، بفضل عماه وشيخوخته، الزلزال دون تأثر. انحنى إلى جانب الجريح وتحسس جسده بحذر شديد، متلمساً بيديه، وناظراً بأصابعه العتيقة، دون أن يترك رضاً إلا وأحصاه، ولا كسراً إلا وأخذه بالحسبان.

- إذا حركتموه سيموت - أصدر حكمه.

لم يكن إستيبان ترويبا غائباً عن الوعي وقد سمعه بكل وضوح، وتذكر جائحة النمل وتوصل إلى أن العجوز هو أمله الوحيد في النجاة.

- اتركوه، فهو يعرف ما يفعله - قال متلعثماً.

طلب بيدرو غارثيا العجوز أن يأتوه ببطانية وضعَ السيدَ عليها بمساعدة ابنه وحفيده، ورفعوه بحذر إلى منضدة مرتجلة ركبوها وسط ما كان باحة من قبل، ولكنه لم يعد سوى فسحة صغيرة وسط ذلك الكابوس من الركام والأنقاض، وجثث الحيوانات، وبكاء الأطفال، وأنين الكلاب، وصلوات النساء. وأنقذوا من بين الأنقاض زقاً من النبيذ، فقسمه بيدرو غارثيا العجوز ثلاثة أقسام، قسم لغسل بدن الجريح، وآخر لجعله يشربه، وثالث شربه هو نفسه ببطء قبل أن يبدأ بإعادة تركيب العظام واحداً فواحداً، بصبر وهدوء، يشد من هنا، ويضبط من هناك، معيداً كل عظم إلى موضعه، ومثبتاً إياه بقطع خشبية يلفها بمزق ملاءات لمنع حركتها، وهو يتمتم في أثناء ذلك تراتيل قديسين مداوين، مستدعياً عون حسن الطالع ومريم العذراء، ومتحملاً صرخات وتجديفات إستيبان ترويبا، دون أي تبدل في ملامحه المتحجرة كأعمى. أعاد تركيب جسده على أحسن وجه بالتلمس، حتى إن الأطباء الذين فحصوه فيما بعد لم يستطيعوا أن يصدقوا أن ذلك ممكن.

- ما كنت لأتجرأ على مجرد محاولة عمل ما عمله - اعترف الدكتور كويفاس حين علم بالأمر.

الأضرار التي أحدثها الزلزال أغرقت البلاد في حداد طويل. فلم يكن اهتزاز الأرض قد هدم كل شيء وحسب، وإنما تراجع البحر أيضاً عدة أميال وعاد في موجة واحدة هائلة أوصلت السفن إلى الهضاب، بعيداً جداً عن الشاطئ، وحملت معها دساكر، وطرقاً، وبهائم، وأغرقت تحت متر

من سطح البحر عدة جزر في الجنوب. وكانت هناك عمارات انهارت كديناصورات جريحة، وعمارات أخرى تهاوت مثل قصور من ورق، وكان عدد الموتى بالآلاف، ولم تبق أسرة إلا ولها من تبكيه. أتلف ماء البحر المالح المحاصيل، وقوضت الحرائق مناطق كاملة من المدن والقرى، وأخيراً سالت الحمم والمهل وتساقط الرماد، كتتويج للعقاب، على القرى القريبة من البراكين. لم يعد الناس ينامون في بيوتهم، ترعبهم احتمالات تكرار الكارثة، فارتجلوا خياماً في أمكنة مقفرة، أو ناموا في الميادين والشوارع. وكان على الجنود تولي قمع الفوضى والإخلال بالنظام وإعدام من يُضبطون وهم يسرقون رمياً بالرصاص فوراً ودون إجراءات، لأنه بينما كان أشد المسيحيين إيماناً يملؤون الكنائس متوسلين المغفرة عن خطاياهم ومتضرعين إلى الرب أن يهدئ من غضبه، كان اللصوص يجوبون الأنقاض، وحيث تظهر أذن فيها قرط أو إصبع فيه خاتم يستولون عليه بضربة سكين، دون أن يهتموا بكون الضحية ميتاً أو أنه محتجز تحت الأنقاض وحسب. وانفلتت هجمات جراثيم تسببت بعدة أوبئة في كل أنحاء البلاد. أما بقية العالم المشغول بحرب أخرى، فلم يكد يعلم بأن الطبيعة قد جُنت في ذلك المكان النائي من الكوكب، ومع ذلك وصلت شحنات أدوية وبطانيات وأغذية ومواد بناء، ضاعت في دروب الإدارة العامة السرية الوعرة، حتى إنه كان بالإمكان، بعد عدة سنوات، شراء معلبات المأكولات الأمريكية الشمالية وبودرة الحليب الآتية من أوروبا بأسعار رفاهية في المتاجر الراقية.

أمضى إستيبان ترويبا أربعة شهور ملفوفاً بالأضمدة، متيبساً في الجبائر والأربطة والكلابات، وفي عذاب رهيب من الحكة وعدم القدرة على الحركة، يتآكله نفاد الصبر والجزع. وساءت طباعه إلى أن لم يعد هناك من يستطيع تحمله. بقيت كلارا في الريف للعناية به، وعندما أُصلحت المواصلات واستتب النظام أرسلوا بلانكا إلى مدرستها كتلميذة داخلية، لأن أمها لم تعد قادرة على الاهتمام بها.

كان الزلزال في العاصمة قد فاجأ النانا في فراشها، وعلى الرغم من أنه كان أخف بكثير مما هو عليه في الجنوب، فإنه أماتها من

الرعب. طقطق بيت الناصية الكبير مثل جوزه، وتشققت جدرانه وسقطت ثريا الكريستال الكبيرة في حجرة الطعام برنين ألف جلجل، وتشظت فتاتاً. وباستثناء ذلك، كان موت النانا هو الحدث الوحيد الجسيم. وعندما انقضى هول الوهلة الأولى، انتبه الخدم إلى أن تلك المرأة العجوز لم تخرج هاربة إلى الشارع مع الآخرين. دخلوا للبحث عنها فوجدوها في سريرها الضيق، وعيناها جاحظتان وشعرها القليل المتبقي منتصباً من الرعب. ولم يستطيعوا في فوضى تلك الأيام أن يوفروا لها جنازة محترمة، مثلما كانت ترغب، فكان عليهم أن يدفنوها بأقصى سرعة، دون إلقاء كلمات أو ذرف دموع. ولم يحضر جنازتها أي من أبناء الآخرين الذين ربتهم بكثير من الحب.

شكل الزلزال علامة فاصلة بالغة الأهمية في حياة آل ترويبا الذين قسموا الأحداث منذ ذلك الحين إلى قبل ذلك التاريخ وبعده. وفي الماريات الثلاث، عاد بيدرو غارثيا الثاني إلى تولي مسؤوليات الإدارة، حيال عجز السيد عن الحركة من فراشه. فكان عليه أن ينظم العمال، وأن يعيد الهدوء وإعادة بناء الخراب الذي تحولت إليه الملكية. بدؤوا بدفن موتاهم في المقبرة عند سفح البركان، وكانت قد نجت بأعجوبة من نهر الحمم الذي انحدر على سفوح الجبل الملعون. وقد منحت القبور الجديدة جواً احتفالياً للمقبرة البائسة، وغرسوا صفوفاً من أشجار الحور لتوفير ظل لمن يزورون موتاهم. وأعادوا بناء البيوت الصغيرة بالآجر واحداً واحداً، مثلما كانت بالضبط، وكذلك الاسطبلات ومشغل الألبان ومستودع الحبوب، وأعادوا تهيئة الأرض للزراعة، شاكرين حسن الحظ بسقوط الحمم والرماد في أماكن أخرى، ونجاة الملكية. واضطر بيدرو الثالث إلى التخلي عن زياراته للقرية، لأن أباه يحتاج إليه إلى جانبه. فكان يرافقه مستاء، ويبين له أنهم يكسرون ظهورهم من أجل إعادة ثروة السيد المالك إلى سابق عهدها، بينما يظلون هم فقراء مثلما كانوا من قبل.

- لقد كانت الأمور هكذا على الدوام يا بني. ولا يمكن لك أن تغير قانون الرب - يجيبه أبوه.

- بل يمكن تغييره يا أبتاه. وهناك أناس يفعلون ذلك، أما هنا فلا نعلم

حتى بالأخبار. هناك أشياء مهمة تحدث في العالم ـ يجادله بيدرو الثالث ويلقي على مسمعه خطاب معلم المدرسة الشيوعي أو الأب خوسيه دولثي ماريا.

لم يكن بيدرو الثاني يردّ عليه، ويواصل العمل دون تردد. وكان يغض النظر عندما يستغل ابنه التراخي بسبب مرض السيد، ويكسر حصار المراقبة ويُدخل إلى الماريات الثلاث منشورات النقابيين المحظورة، وصحف المعلم السياسية وتفاسير الكاهن الإسباني الغريبة للكتاب المقدس.

وبأمر من إستيبان تروبيا، بدأ الوكيل بإعادة بناء بيت السيد متبعاً المخطط نفسه الذي كان عليه البيت في الأصل. حتى إنهم لم يبدلوا طوب الطين والقش المشوي بآجر حديث، ولم يعدلوا اتساع النوافذ التي كانت ضيقة جداً. والتحسين الوحيد تمثل في إضافة تمديدات الماء الساخن للحمامات وتبديل موقد الحطب القديم في المطبخ بآلة تعمل على زيت البارافين، ولكن لم تعتد على استخدامها أي طباخة، وأنهت أيامها مهملة في الفناء لا يستخدمها أحد سوى الدجاج. وبينما هم يشيدون البيت، ارتجلوا ملجأ من ألواح خشبية وسقف من التوتياء، وضعوا فيه إستيبان في فراشِ شلله، ومن هناك كان بإمكانه أن يراقب تقدم العمل من خلال النافذة وإصدار أوامره صارخاً وهو يفور غضباً لعجزه القسري عن الحركة.

لقد طرأ تبدل كبير على كلارا في تلك الشهور. فقد كان عليها أن تقف إلى جانب بيدرو غارثيا الثاني في مهمة إنقاذ ما يمكن إنقاذه. وتولت أول مرة في حياتها، دون أي عون، مسؤولية الأمور المادية، لأنه لم يعد بإمكانها الاعتماد على زوجها أو فيرولا أو النانا. استيقظت أخيراً من طفولة طويلة كانت فيها محمية على الدوام، محاطة بالعناية ووسائل الراحة ودون أية واجبات. وأُصيب إستيبان تروبيا بهوس الظن أن كل ما يأكله يسبب له الضيق، باستثناء ما تطبخه هي، فكان عليها أن تقضي شطراً لا بأس به من اليوم في المطبخ، تنزع ريش الدجاج لتعدّ حساء المريض وتعجن الخبز. وكان عليها أن تعمل ممرضة، تنظف بدنه

بإسفنجة، وتبدل أضمدته، وتضع له المبولة وترفعها. وبدأ يصبح أكثر نزقاً وطغياناً، يطلب منها أن تضع وسادة هنا، لا، أعلى قليلاً، أحضري لي نبيذاً، ليس هذا، قلت لك إنني أريد نبيذاً أبيض، افتحي النافذة، اغلقيها، يؤلمني هذا الموضع، إنني جائع، أشعر بالحر، حكّي لي ظهري، إلى أسفل قليلاً. وبلغ الأمر بكلارا حدّ خشيته أكثر بكثير من الزمن الذي كان فيه رجلاً سليماً وقوياً يتدخل في سلام حياتها برائحة الفحل المتلهف، وبصوته الإعصاري، وحربه المتمادية، وتسلطه كسيد عظيم يفرض إرادته ويصدم نزواته بالتوازن المرهف الذي تحافظ عليه بين أرواح عالم الغيب والنفوس المحتاجة في دنيا الحاضر. ووصل بها الأمر إلى كرهه. وما كادت عظام استيبان تلتحم ويتمكن من الحركة قليلاً، حتى عاودته الرغبة العاصفة في احتضانها، وكلما مرت بجانبه يمد يده إليها خالطاً في تشوش مرضه بينها وبين الفلاحات الممتلئات اللواتي كن يخدمنه في سنوات شبابه في المطبخ والفراش. كانت كلارا تشعر أنها صارت في سن غير مناسبة لتلك الممارسات. فقد جعلتها المصائب روحانية، وحملها التقدم في العمر وغياب حب زوجها إلى اعتبار الجنس تسلية بهيمية على نحو ما، تخلّف آلاماً في مفاصلها وتُحدث فوضى في الحجرة. وخلال ساعات قليلة، أنزلها الزلزال من أوهامها لتحط وسط العنف والموت والفجاجة، ووضعها على تماس مع الحاجات الأساسية التي تجاهلتها من قبل. ولم تفدها في شيء المنضدة ذات القوائم الثلاث أو القدرة على تكهن المستقبل في أوراق الشاي في مواجهة الحاجة الملحة إلى حماية المزارعين من الوباء والقلق، وحماية الأرض من الجفاف والحلزونات، والأبقار من الحمى القلاعية، والدجاج من الورم اللساني، والثياب من العثة، وحماية أبنائها من الإهمال، وزوجها من الموت ومن غضبه الجامح نفسه. كانت كلارا متعبة جداً. تشعر أنها وحيدة ومشوشة، والشخص الوحيد الذي يمكنها اللجوء إليه وطلب مساعدته في لحظات اتخاذ القرارات هو بيدرو غارثيا الثاني. وقد كان هذا الرجل الوفي والصامت جاهزاً دوماً وفي متناول ندائها، مانحاً شيئاً من الاستقرار للتأرجح العاصف الذي دخل حياتها. وكثيراً ما كانت كلارا

تبحث عنه، في آخر النهار، لتقدم له فنجاناً من الشاي. كانا يجلسان على كراسي خيزران تحت إفريز السقف بانتظار حلول الليل ليخفف من توتر النهار. ينظران إلى الظلام الذي يخيم بعذوبة وإلى أولى النجوم التي تبدأ بالتألق في السماء، يسمعان نقيق الضفادع، ويظلان صامتين. كانت لديهما أشياء كثيرة للتباحث فيها، ومشاكل كثيرة لحلها، وأمور كثيرة معلقة، ولكنهما يدركان أن نصف ساعة الصمت تلك هي جائزة مستحقة، فيرشفان الشاي دون تعجل، كي يستمر لوقت أطول، وكل منهما يفكر في حياة الآخر. لأن كلاً منهما يعرف الآخر منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، ويظلان متقاربين كل صيف، ولكنهما لم يتبادلا بالإجمال سوى جملٍ قليلة. فكان هو ينظر إلى السيدة على أنها رؤيا صيفية منيرة، غريبة عن شؤون الحياة القاسية، من صنف مختلف عن غيرها من النساء اللواتي عرفهن. حتى عندما تكون يداها غارقتين في العجين، أو مريلتها مبللة بدم دجاجة الفداء، تبدو له سراباً في انعكاسات ضوء النهار. وعند الغروب فقط، في سكينة تلك اللحظات التي يتقاسمانها مع فنجاني الشاي، يمكنه رؤيتها في بعدها الإنساني. لقد أقسم لها في سره بالوفاء، وفي بعض الأحيان، يتخيل كمراهق فكرة تقديم حياته من أجلها. لقد كان يقدرها بقدر كراهيته لإستيبان تروبيا.

عندما جاؤوا ليركبوا لهم الهاتف، كان البيت لا يزال بحاجة إلى عمل كثير كي يصير صالحاً للسكن. كان إستيبان تروبيا يكافح منذ أربع سنوات ليتوصل إلى مجيئهم لتركيب الهاتف في وقت لم يكن لديه سقف يحميه من تقلبات الطقس. لم يدم استخدام الجهاز طويلاً، ولكنه أفاد في الاتصال بالتوءمين وسماع صوتهما كما لو أنهما في كوكب آخر، وسط خرخرة تبعث على الصمم ومقاطعات موظفة بدالة القرية التي تشارك في المحادثة. وبواسطة الهاتف علموا أن بلانكا مريضة وأن الراهبات لا يردن تحمل مسؤوليتها. كانت البنت مصابة بسعال متواصل، وكثيراً ما ترتفع حرارتها. وكان الخوف من السل هاجساً حاضراً في كل البيوت، لأنه لم تكن هناك أسرة ليس لديها مسلول يثير الأسى، وهكذا قررت كلارا الذهاب لاحضارها. وفي يوم رحيل كلارا

بالضبط، حطم إستيبان ترويبا الهاتف بضربات عكاز، لأنه بدأ يرن ويصرخ به إستيبان أنه آت، وأن يصمت، ولكن الجهاز واصل الرنين، فانقض عليه بالضرب في نوبة غضب، وخلخلِ في أثناء ذلك عظم الترقوة الذي تكلف بيدرو غارثيا العجوز جهداً كبيراً في تجبيره.

كانت المرة الأولى التي تسافر فيها كلارا وحدها. لقد قطعت الطريق نفسه لسنوات، ولكنها كانت تقطعه وهي ساهية على الدوام، لأنها اعتادت الاعتماد على أحد غيرها يتولى مسؤولية التفاصيل العادية التافهة، بينما تحلم وهي تتأمل المنظر من النافذة. أوصلها بيدرو غارثيا الثاني إلى المحطة وأجلسها على المقعد في القطار. وعند الوداع، انحنت وقبّلته برفق على خده وابتسمت. فرفع يده إلى وجهه ليحمي من الرياح تلك القبلة السريعة ولم يبتسم، لأن الحزن انقض عليه.

مستدلة بالحدس أكثر من معرفتها الأشياء أو المنطق، تمكنت كلارا من الوصول إلى مدرسة ابنتها دون مصاعب. استقبلتها كبيرة الراهبات في مكتبها الإسبارطي، حيث يوجد مسيح ضخم نازف معلق على الجدار، وعلى المنضدة باقة ورود حمراء لا تتناسب مع صرامة المكان.

ـ لقد استدعينا الطبيب يا سيدة ترويبا ـ قالت لها ـ. البنت لا تعاني من شيء في رئتيها، ولكن من الأفضل أن تأخذيها، فالريف سيُحسّن حالها. ونحن، كما تدركين، لا يمكننا تحمل هذه المسؤولية.

هزّت الراهبة جرساً صغيراً ودخلت بلانكا. كانت تبدو أشد نحولاً وشحوباً، مع ظلال بنفسجية تحت عينيها يمكن أن تؤثر في أي أم. ولكن كلارا أدركت على الفور أن مرض ابنتها ليس في البدن وإنما في الروح. وكان الزي المدرسي الرمادي يجعلها تبدو أصغر بكثير مما هي عليه، بالرغم من أن تكورات جسدها كامرأة كانت تتجاوز خياطة الزي. فوجئت بلانكا حين رأت أمها التي تتذكرها كملاك سعيد وساهٍ يرتدي البياض، وقد تحولت خلال شهور قليلة إلى امرأة فعّالة، جلد يديها متصلب، وعلى جانبي فمها تجعيدتان عميقتان.

ذهبتا لزيارة التوءمين في مدرستهما. وكان أول لقاء لهم معاً بعد

وقوع الزلزال، وقد فوجئنا بأن المكان الوحيد في كامل التراب الوطني الذي لم يُمس بتلك الكارثة هو بناء المدرسة القديم، حيث تجاهلوه بالكامل. فالعشرة آلاف قتيل لم يخلّفوا هناك أي أثر من الأحزان أو الأمجاد، بينما المقيمين في المدرسة يواصلون الغناء بالإنكليزية ولعب الكريكيت، لا يتأثرون إلا بالأخبار التي تصلهم من بريطانيا العظمى متأخرة ثلاثة أسابيع. وقد استغربنا رؤية ذينك الصبيين اللذين تجري في عروقهما دماء عربية وإسبانية، واللذين ولدا في أقصى ركن من أميركا، يتكلمان القشتالية بلكنة أكسفورد، وأن الانفعال الوحيد القادران على إظهاره هو المفاجأة برفع حاجبيهما الأيسرين. لم يكن فيهما شيء من الغلامين فائضي الحيوية اللذين كانا يقضيان الصيف في الريف. «آمل ألا يحولهما كل هذا البرود الإنكليزي إلى أبلهين»، تلعثمت كلارا وهي تودّع ابنيها.

أدى موت النانا، وكانت تتولى مسؤولية بيت الناصية الكبير في غياب السيدين على الرغم من سنوات عمرها، إلى تشتت شمل الخدم. فمع غياب الرقابة هجروا أعمالهم ومهماتهم وصاروا يقضون اليوم في قيلولات مجون، والثرثرة بالأقاويل، بينما عدم السقاية يصيب نباتات الزينة باليباس، والعناكب تتمشى في الزوايا. كان التردي واضحاً، حتى إن كلارا قررت إغلاق البيت وصرف الجميع. وانكبت بعد ذلك مع بلانكا على مهمة تغطية الأثاث بملاءات ووضع نفتالين في كل الأماكن. وفتحتا أقفاص الطيور واحداً فواحداً فامتلأت السماء بببغاوات، وكناريات، وحساسين، وقبرات حلقت بارتباك وقد أعمتها الحرية ثم انطلقت بعد ذلك طائرة في جميع الاتجاهات. ولاحظت بلانكا أنه لم يظهر خلال كل تلك الأعمال أي شبح وراء الستائر، ولم يصل أي من أتباع وردة الصليب بإنذار من حاسته السادسة، ولا أي شاعر جائع تجتذبه حاجته. وبدا أن أمها قد تحولت إلى سيدة عادية وريفية.

ـ لقد تبدّلتِ كثيراً يا أماه ـ أبدت بلانكا ملاحظتها.

ـ لست أنا من تغيرت يا ابنتي. العالم هو الذي تغيرـ أجابت كلارا.

وقبل أن تغادرا، ذهبتا إلى حجرة النانا في فناء الخدم. فتحت كلارا

صناديقها، وأخرجت حقيبة الكرتون التي استخدمتها المرأة الطيبة طوال نصف قرن وفتشت خزانتها. لم يكن فيها سوى ملابس قليلة، وصندل قديم، وعلب من كل الأحجام مربوطة بشرائط وقطع مطاط، حيث كانت تحتفظ برسوم مناولات أولى وتعميد أطفال، وخصل شعر، وقلامات أظفار مقصوصة، وصور قديمة باهتة، وأحذية أطفال صغار مهترئة من الاستخدام. إنها ذكريات من جميع أبناء آل دل باييه ثم آل تروبيا بعد ذلك، ممن مروا بين ذراعيها وضمتهم إلى صدرها. ووجدت تحت السرير صرة فيها ملابس التنكر التي كانت النانا تستخدمها لتخليصها من خرسها. وبينما هي جالسة على السرير الضيق، وتلك الكنوز في حضنها، بكت كلارا طويلاً تلك المرأة التي كرست حياتها لتجعل حيوات آخرين أكثر راحة، وتموت في النهاية وحيدة.

ـ بعد كل محاولاتها لإخافتي، كانت هي من ماتت من الرعب ـ قالت كلارا.

أمرت بنقل الجثمان إلى مدافن آل دل باييه في المقبرة الكاثوليكية، لأنها افترضت أنه لن يروق للنانا أن تُدفن مع الأنجليكيين واليهود، وأنها تفضل أن تظل في موتها إلى جانب أولئك الذين خدمتهم في الحياة. وضعت باقة أزهار إلى جانب لوحة القبر وتوجهت مع بلانكا إلى المحطة لترجعا إلى الماريات الثلاث.

خلال الرحلة في القطار، أطلعت كلارا ابنتها على المستجدات في الأسرة وعلى حالة أبيها الصحية، منتظرة أن توجه إليها بلانكا السؤال الوحيد الذي تعرف أن ابنتها راغبة في توجيهه، غير أن بلانكا لم تأتي على ذكر بيدرو غارثيا الثالث، ولم تتجرأ كلارا بدورها على فعل ذلك. فقد كانت ترى أن ذكر اسم المشكلات يجعل هذه المشكلات تتجسد مادياً ولا يعود بالإمكان تجاهلها؛ أما إذا سُكت عنها بالمقابل ولم تُذكر في كلمات، فيمكن لها أن تختفي من تلقاء ذاتها مع مرور الزمن. كان بيدرو الثاني ينتظرهما في المحطة ومعه العربة، وقد فوجئت بلانكا وهي تسمعه يصفر طوال الطريق حتى الماريات الثلاث، لأن المعروف عن الوكيل أنه رجل صموت.

وجدتا إستيبان تروبيا جالساً على كرسي مغلف بمخمل أزرق، وقد ركّبوا له عجلتي دراجة، بانتظار أن يصل من العاصمة الكرسي ذي العجلات الذي أوصى عليه، وقد أحضرته كلارا مع الأمتعة. وكان يوجه بالشتائم وبضربات عكازه تقدم العمل في بناء البيت، ويفعل ذلك باستغراق استقبلهما معه بقبلة ساهية ونسي السؤال عن صحة ابنته.

تناولوا العشاء تلك الليلة على منضدة بدائية من بعض ألواح الخشب، وعلى ضوء مصباح بترولي. رأت بلانكا أمها تقدم الطعام في أطباق من الفخار المصنوعة يدوياً، بالطريقة التي يصنعون بها الطوب الطيني، لأن أواني المائدة الخزفية تحطمت كلها في الزلزال. وبغياب النانا عن توجيه شؤون المطبخ، جرى التبسيط إلى حدّ الزهد، فلم يأكلوا سوى حساء عدس كثيف وخبز وجبن وحلوى سفرجل، وهو أقل مما كانت تأكله في المدرسة الداخلية خلال صيام أيام الجمعة. وكان إستيبان يقول إنه فور تمكنه من النهوض على ساقيه سيذهب بنفسه إلى العاصمة ليشتري لبيته أفخر الزينات وأغلاها، لأنه ضجر من العيش كفلاح بسبب الطبيعة الهستيرية اللعنية لهذه البلاد الجهنمية. ومن كل الحديث الذي دار على المائدة، كان الشيء الوحيد الذي حفظته بلانكا هو أن أباها قد طرد بيدرو غارثيا الثالث وأمر بألا يعود لوضع قدميه في الملكية إلى الأبد، لأنه فاجأه ينقل أفكاراً شيوعية إلى الفلاحين. شحب لون الفتاة حين سمعت ذلك وسقطت محتويات ملعقتها على سماط المنضدة. وكانت كلارا وحدها من انتبهت إلى اضطرابها، لأن إستيبان كان مستغرقاً في مونولوجه الدائم حول أبناء الحرام الذين يعضون اليد التي تقدم لهم الطعام «وكل ذلك بسبب هواة السياسة الشيطانيين! مثل المرشح الاشتراكي الجديد، ذلك الألعوبة الذي يتجرأ على اجتياز البلاد من الشمال إلى الجنوب في قطاره المحمل بالرعاع، محرضاً الناس المسالمين بتبجحاته البولشفية، ولكن من الأفضل له ألا يقترب من هذا المكان، لأنه إذا نزل من القطار فسوف نحوّله إلى هريس، وقد أعددنا العدة لذلك، فلا وجود لملاك واحد في المنطقة كلها إلا واتفق معنا، لن نسمح لهم بالمجيء للوعظ ضد العمل الشريف، والمكافأة العادلة لمن يبذل الجهد، وتعويض

من يمضون قُدماً في الحياة، فمن غير الممكن أن يحصل المتكاسلون على مثل ما نحصل عليه، فنحن نعمل من طلوع الشمس حتى مغيبها ونعرف كيف نستثمر رأسمالنا، وكيف نجازف، ونتحمل المسؤوليات، لأننا إذا ما تعمقنا في الأمر فإن حكاية الأرض لمن يعمل بها ستنقلب ضدهم، فالوحيد الذي يعرف كيف يعمل هنا هو أنا، فقبل مجيئي كان المكان خراباً، وكان يمكن له أن يبقى كذلك. وحتى المسيح نفسه لم يقل إنه يتوجب اقتسام ثمرة جهودنا مع الكسالى، وذلك المخاطي المدعو بيدرو الثالث تجرأ على قول تلك الأمور في ملكيتي، ولم أطلق رصاصة على رأسه لأنني أقدّر أباه، وأدين لجده بحياتي بطريقة ما، ولكنني حذرته بأنني إذا رأيته يتجول هنا فسوف أفتته بطلقات بندقية الصيد».

لم تشارك كلارا في الحديث. كانت مشغولة بوضع الأشياء على المائدة ورفعها، ومراقبة ابنتها بطرف عينها، ولكنها حين رفعت إناء الحساء مع ما تبقى فيه من العدس، سمعت آخر كلمات ترتيلة زوجها.

ـ لا يمكنك أن تحول دون التغيير في العالم يا إستيبان. فإن لم يكن بيدرو غارثيا الثالث، سيكون هناك شخص آخر يحمل الأفكار الجديدة إلى الماريات الثلاث ـ قالت.

وجه إستيبان تروبيا ضربة عكاز إلى إناء الحساء الذي بين يدي زوجته مبعثراً محتوياته على الأرض. نهضت بلانكا مذعورة. كانت تلك أول مرة ترى فيها سوء مزاج أبيها موجهاً ضد كلارا وظنت أن أمها ستدخل في واحدة من حالات شذوذها الغريبة وتنطلق محلقة من النافذة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. فقد جمعت كلارا بقايا إناء الحساء المكسور بهدوئها المعهود، دون أن تبدي ما يشير إلى أنها سمعت بذاءات البحارة المغامرين التي أطلقها إستيبان. انتظرت إلى أن انتهى من تأففه، فتمنت له ليلة طيبة أرفقتها بقبلة فاترة على خده وخرجت مقتادة معها بلانكا من يدها.

لم تفقد بلانكا طمأنينتها بسبب غياب بيدرو الثالث. فكانت تذهب كل يوم إلى النهر وتنتظر. كانت تعرف أن خبر عودتها إلى الريف سيصل إلى الفتى عاجلاً أو آجلاً، وأن نداء الحب سيصله أينما كان. وهذا ما

حدث بالفعل. ففي اليوم الخامس رأت وصول شخص رث، متدثر بعباءته الشتوية ويضع قبعة عريضة الحافة، يجر حماراً محملاً بأوانٍ مطبخية، وقدور من الصفيح، وأباريق النحاس، وطناجر كبيرة من الحديد المطلي بالمينا، ومغارف من كل الأحجام، مع ضوضاء صفيح تعلن عن مجيئه قبل عشر دقائق من ظهوره. لم تتعرف عليه. كان يبدو عجوزاً بائساً، كواحد من أولئك الباعة المتجولين الذين يجوبون المقاطعة ببضاعتهم متنقلين من باب إلى باب. توقف أمامها وخلع القبعة، عندئذ رأت العينين الجميلتين تلمعان وسط شعر طويل ولحية مشعثة. بقي الحمار يقضم العشب بحمولته المزعجة من القدور الصاخبة، بينما انغمست بلانكا وبيدرو الثالث في إطفاء الظمأ والجوع المتراكمين طيلة شهور من الصمت والفراق، متقلبين على الأحجار والنباتات القصيرة، ومتأوهين كيائسين. وبقيا متعانقين بعد ذلك بين قصب الضفة. وسط تحويم اليعاسيب ونقيق الضفادع، أخبرته أنها وضعت قشور موزٍ وورق نشاف في حذائها كي ترتفع حرارتها وابتلعت طبشوراً مطحوناً إلى أن أصابها بسعال حقيقي كي تقنع الراهبات بأن انعدام شهيتها وشحوبها هي أعراض سلّ مؤكدة.

- أردت أن أكون بجانبك! - قالت وهي تقبله من عنقه.

أخبرها بيدرو الثالث بما يحدث في العالم وفي البلاد، وعن الحرب البعيدة التي حولت نصف البشرية إلى مسلخ بالرشاشات، وإلى احتضار معسكر اعتقال، وركام من الأرامل واليتامى، حدّثها عن عمال أوروبا وأميركا الشمالية وحقوقهم المعترف بها، لأن تضحيات النقابيين والاشتراكيين في العقود السابقة أدت إلى قوانين أكثر عدالة وجمهوريات مثلما يشاء لها الرب، حيث لا يسرق الحكام مسحوق حليب المنكوبين.

- ونحن الفلاحين آخر من ينتبه لما يجري، فنحن لا نعلم بما يحدث في أماكن أخرى. الناس هنا يكرهون أباك. ولكنهم يخافونه إلى حد يعجزون معه عن تنظيم أنفسهم لمواجهته. هل تفهمينني يا بلانكا؟

لقد كانت تفهم، ولكن اهتمامها الوحيد في تلك اللحظات كان شمّ رائحته التي لها شذى القمح الطازج، ولحس أذنيه، وغرس أصابعها في تلك اللحية الكثة، وسماع تأوهاته المغرمة. وكانت تخاف عليه أيضاً.

فهي تعرف أن أمر إطلاق رصاصة على راسه لا يقتصر على أبيها وحده، وإنما يمكن لأي واحد من ملاكي الأراضي أن يفعل ذلك بكل سرور. ذكرت بلانكا بيدرو الثالث بقصة القائد الاشتراكي الذي كان يجوب المنطقة على دراجة، قبل نحو سنتين، ويوزع منشورات في الإقطاعيات وينظم المزارعين، إلى أن أمسك به الأخوة سانتيث، فقتلوه ضرباً بالعصي وعلقوه على عمود تلغراف عند تقاطع طريقين، كي يتمكن الجميع من رؤيته. وقد ظل هناك يوماً وليلة يتأرجح على خلفية السماء، إلى أن جاء الدرك الخيالة وانزلوه. ومن أجل التعمية على العملية، وجهوا التهمة إلى هنود المحمية، على الرغم من أن الجميع يعرفون أنهم مسالمون وأنهم يخشون قتل دجاجة، وبالتالي يخشون أكثر قتل إنسان. ولكن الأخوة سانتشيث نبشوا قبره وأخرجوه منه وأعادوا عرض الجثة، فكان ذلك أكبر من أن يُنسب إلى الهنود. ومع ذلك لم تتجرأ العدالة على التدخل، وسرعان ما نسي أمر موت الاشتراكي.

- يمكن لهم أن يقتلوك - توسلت بلانكا وهي تعانقه.

- سأكون حذراً - طمأنها بيدرو الثالث -. لن أبقى في المكان نفسه لوقت طويل. ولن أستطيع على الأقل رؤيتك كل يوم. انتظريني في هذا المكان. وسوف أحضر كلما استطعت.

- أحبك - قالت باكية.

- وأنا أيضاً.

تعانقا من جديد بحرقة عمرهما التي لا ترتوي، بينما كان الحمار يواصل مضغ العشب.

تدبرت بلانكا الأمر كيلا تعود إلى المدرسة، فكانت تستثير قيئها بشرب ماء مملح ساخن، وتُصيب نفسها بالإسهال بأكل الخوخ الأخضر، وبالإنهاك بشدّ خصرها بأحزمة سرج حصان، حتى اكتسبت سمعة أنها معلولة الصحة، وهو ما كانت تسعى إليه بالضبط. كانت تحاكي بصورة جيدة أعراض أمراض كثيرة متنوعة إلى حدّ يمكن لها معه أن تخدع لجنة من الأطباء، ووصل بها الأمر إلى إقناع نفسها بأنها عليلة جداً وضعيفة البنية. ففي كل صباح، عند استيقاظها، تقوم باستعراض ذهني

لجسدها، كي ترى من أي شيء ستتألم وأي داء جديد أصابها. وتعلمت الاستفادة من أي ظرف كي تشعر بأنها مريضة، ابتداء من تبدل في الحرارة حتى غبار طلع الأزهار، وتحويل أي توعك طفيف إلى احتضار. وكانت كلارا ترى أن أفضل وسيلة لحماية الصحة هي إبقاء اليدين مشغولتين، وهكذا أوقفت أمراض ابنتها عند حدها بتكليفها بالأعمال. فكان على الفتاة أن تستيقظ باكراً، مثل الآخرين، وتستحم بماء بارد وتتهمك بما تُكلف به من أعمال تتضمن التعليم في المدرسة، والخياطة في المشغل، والقيام بكافة أعمال عيادة التمريض، ابتداء من وضع الحقن الشرجية حتى خياطة الجراح بإبرة وخيط من أدوات الخياطة، دون أن يفيدها في شيء الإغماء من رؤية الدم، ولا العرق البارد عندما يتوجب عليها تنظيف قيء. وكان بيدرو غارثيا العجوز، وقد قارب التسعين من عمره وصار يجد صعوبة في تحريك عظامه، يشارك كلارا فكرتها في أن اليدين موجودتان لكي تُستخدما. وهكذا حدث أن دعا بلانكا ذات يوم كانت تشكو فيه من صداع رهيب، ودون أية مقدمات وضع في حضنها كرة من الطين. وأمضى فترة ما بعد الظهر في تعليمها قولبة الصلصال لصنع أواني مطبخية، دون أن تتذكر الفتاة في أثناء ذلك أوجاعها. لم يعلم العجوز أنه يقدم لبلانكا ما سيتحول في ما بعد إلى وسيلة عيشها الوحيدة وعزائها في أشد ساعات حزنها. علمها كيفية تحريك الدولاب بقدمها بينما يداها تطيران فوق الصلصال الأبيض لتصنعا أواني وخوابي. وسرعان ما اكتشفت بلانكا أنها تضجر من صناعة الأواني، وأن صنع أشكال حيوانية وبشرية أكثر متعة وتسلية. ومع مرور الوقت، انكبت على صنع عالم مصغر من الحيوانات الداجنة والشخوص المتخصصين في كافة المهن، نجارين، وغسالات، وطاهيات، وجميعهم مع أدواتهم وأثاثهم المصغر.

ـ هذا كله لا يفيد في شيء! ـ قال إستيبان ترويبا حين رأى أعمال ابنته.

ـ فلنبحث عن فائدة منه ـ اقترحت كلارا.

وهكذا برزت فكرة احتفالات عيد الميلاد. بدأت بلانكا بانتاج دمى

لمذود عيد الميلاد، ولم تكتف بشخوص ملوك المجوس والرعاة، وإنما أضافت حشود أشخاص من مختلف الأصناف، وكل أنواع الحيوانات، من الجمال والحمير الوحشية الأفريقية، وعظاءات الإغوانا الأمريكية، والنمور الأسيوية، دون الاقتصار على أنواع الحيوانات الخاصة ببيت لحم. ثم أضافت بعد ذلك حيوانات تخترعها هي نفسها، بإلصاق نصف فيل مع نصف تمساح، دون أن تدري أنها كانت تصنع بالصلصال ما كانت تصنعه خالتها روسا، التي لم تعرفها، بخيوط التطريز على سماطها العملاق، بينما كانت كلارا ترى أنه إذا كانت حالات الجنون تتكرر في الأسرة، فلا بد من وجود ذاكرة وراثية تحول دون ضياعها في النسيان. صارت مشاهد يوم الميلاد التي تصنعها بلانكا تجتذب فضول الناس. فاضطرت إلى تدريب فتاتين لمساعدتها، لأنها لم تعد قادرة على تلبية الطلبات، فقد كان الجميع يرغبون، في تلك السنة، أن يكون لديهم مذودهم الخاص في ليلة عيد الميلاد، لاسيما وأنه مجاني. وقرر إستيبان ترويبا أن نزوة تشكيل الصلصال مناسبة لتسلية الآنسات، ولكنها إذا تحولت إلى تجارة، فإن اسم آل ترويبا سيوضع جنباً إلى جنب مع أسماء التجار الذين يبيعون المسامير في محلات الخردوات، ومن يبيعون السمك المقلي في السوق.

كانت لقاءات بلانكا وبيدرو الثالث متباعدة وغير منتظمة، ولكنها أشد زخماً للسبب نفسه. لقد اعتادت في تلك السنوات على المفاجآت والانتظار، واستسلمت لفكرة أنهما سيبقيان متحابين في السر إلى الأبد، وتخلت عن الحلم بالزواج والعيش في أحد بيوت الآجر الصغيرة التي بناها أبوها للمزارعين. كثيراً ما كانت تمضي أسابيع دون أن تعرف شيئاً عنه، ولكنه يظهر فجأة في الاقطاعية كساعي بريد على دراجة، أو مبشر يعظ وتحت إبطه كتاب مقدس، أو غجري يتكلم بنصف لسان وثني، وجميعهم مسالمين جداً، لا يثيرون شبهات في عيني السيد المتيقظتين. فتتعرف عليه من بؤبؤي عينيه الأسودين. ولم تكن وحدها، بل كان جميع مزارعي الماريات الثلاث، وكثير من فلاحي الإقطاعيات الأخرى ينتظرون مجيئه أيضاً. فمذ صار الشاب مطارداً من السيد،

اكتسب شهرة بطل. الجميع يريدون أن يختبئ عندهم في الليل، والنساء يحكن له عباءات البونتشو والجرابات للشتاء، ويخبئ له الرجال أفضل قارورة خمر ولحوم الموسم المدخنة. وكانت الشكوك تخامر أباه بيدرو غارثيا الثاني في أن ابنه يخرق حظر ترويبا ويكتشف الآثار التي يخلفها مروره. لقد كان موزعاً بين حبه لابنه ودوره كحارس لإقطاعية السيد. أضف إلى ذلك أنه كان يخشى إذا ما تعرّف إليه أن يقرأ السيد ذلك في وجهه، ولكنه كان يشعر بسعادة خفية حين تنسب إلى ابنه بعض الأمور الغريبة التي كانت تحدث في الريف. والشيء الوحيد الذي لم يدر في ذهنه هو أن تكون لزيارات ابنه علاقة بنزهات بلانكا ترويبا إلى النهر، لأن مثل هذا الاحتمال لم يكن ضمن نظام أمور العالم الطبيعية. لم يكن يأتي على ذكر ابنه، اللهم إلا ضمن أسرته، ولكنه يشعر بالفخر به ويفضل أن يراه هارباً على أن يراه واحداً من الكوم، يزرع البطاطا ويحصد الفقر مثل الآخرين جميعهم. وعندما يسمع من يترنم بإحدى الأغنيات عن الدجاجات والثعلب، يبتسم مفكراً في أن كلمات أغاني ابنه الهدامة قد اجتذبت له أنصاراً أكثر ممن اجتذبتهم منشورات الحزب الاشتراكي التي يوزعها دون كلل.

الفصل السادس

الانتقام

بعد مرور سنة ونصف السنة على الزلزال، عادت الماريات الثلاث لتكون الإقطاعية النموذجية التي كانت عليها في السابق. فقد انتصب مجدداً بيت السيد الكبير مثلما كان في الأصل، ولكن أكثر متانة وبتمديدات ماء ساخن في الحمامات. كان الماء أشبه بالشوكلاتة السائلة، بل كانت تظهر فيه أحياناً شراغيف ضفادع، ولكنه كان يخرج متدفقاً باندفاع مرح وقوي. فقد كانت المضخة الألمانية اختراعاً عجيباً. كنتُ أتجول في كل مكان دون أي سند آخر سوى عكاز فضي ثخين، العكاز نفسه الذي لديَّ الآن والذي تقول حفيدتي إنني لا استخدمه بسبب العرج، وإنما لإضفاء مزيد من القوة على كلماتي، بالتلويح به كحجة حاسمة. مرضي الطويل أضعف جسدي وزاد من سوء طبعي. وأعترف أن كلارا نفسها لم تعد قادرة في النهاية على كبح نوبات غضبي. كان يمكن لأي شخص آخر أن يظل عاجزاً إلى الأبد بسبب الحادث، أما أنا فساعدتني قوة اليأس. كنت أفكر في أمي وهي تجلس على كرسيها ذي العجلات وتتعفن في الحياة، فيمنحني ذلك التصميم على النهوض والمشي، حتى ولو فعلت ذلك بالإفراط في اللعنات. أظن أن الناس كانوا يخافونني. حتى كلارا نفسها التي لم يخيفها سوء طبيعي قطّ، والسبب، جزئياً، أنني كنت أحاذر من توجيه غضبي ضدها، صارت ترتعب مني. وكانت رؤيتها خائفة مني تصيبني بالجنون.

وشيئاً فشيئاً راحت كلارا تتغير. صارت تبدو متعبة، ولاحظتُ أنها تنأى عني. لم تعد تتعاطف معي، ولم تعد آلامي تستثير شفقتها وإنما ضيقها وضجرها، ولاحظتُ أنها صارت تتجنب حضوري. وأتجرأ على القول إنها كانت في تلك الفترة تفضل حلب الأبقار مع بيدرو الثاني على

مرافقتي في الصالون. وكلما ازداد ابتعاد كلارا عني، كان يزداد شعوري بالحاجة إلى حبها. لم تتناقص رغبتي فيها عما كانت عليه عندما تزوجتها، كنت أريد امتلاكها بالكامل، حتى آخر فكرة فيها، ولكن تلك المرأة الشفافة كانت تمر بجانبي مثل نسمة، وما كنت قادراً على أسرها، حتى لو ثبتها بيدي واحتضنتها بفظاظة. لم تكن روحها معي. وعندما صارت تخاف مني، تحولت حياتنا إلى مطهر. ففي النهار يمضي كل منا مشغولاً بشؤونه. فلدى كلينا أعمال كثيرة يتوجب علينا إنجازها. كنا نلتقي في موعد تناول الطعام فقط، وكنت أنا وحدي من أتحدث عندئذ، بينما تبدو كمن هي هائمة في الغيوم. كانت قليلة الكلام جداً، وقد فقدت تلك الضحكة النضرة والجريئة التي كانت أول ما أعجبني فيها، ولم تعد تدفع رأسها إلى الوراء، وتضحك بكل أسنانها. وتكاد لا تبتسم. فكرت في أن التقدم في السن والحادث الذي أصابني بدأت تفرق بيننا، وأنها أخذت تمل حياة الزوجية، فهذه الأمور تحدث لكل زوجين، لاسيما أنني لم أكن عاشقاً رقيقاً، من أولئك الذين يقدمون الزهور في لحظة ويقولون عبارات لطيفة. ولكنني حاولت التقرب منها. وكيف حاولتُ ذلك! رباه! كنت أظهر في حجرتها بينما هي منهمكة في دفاتر مدونات عن الحياة أو جالسة إلى منضدة القوائم الثلاث تستحضر الأرواح. بل إنني حاولت مشاطرتها تلك المظاهر الغريبة من حياتها، ولكنها لم تكن تحب أن يقرأ أحد دفاترها، وكان حضوري يقطع إلهامها وهي تتحدث مع أرواحها، فاضطررتُ إلى التخلي عن تلك المحاولات. وتخليتُ كذلك عن نيتي في إقامة علاقة جيدة مع بلانكا. فقد كانت ابنتي غريبة الأطوار منذ صغرها، ولم تكن قط الطفلة الحانية الرقيقة التي تمنيتُ أن تكونها. والواقع أنها كانت تبدو أشبه بحيوان مدرع. ولا أذكر إلا أنها كانت تنفر مني، فلم يكن عليها أن تتجاوز عقدة أوديب، لأنها لم تُصب بها. ولكنها صارت آنسة شابة، تبدو ذكية وناضجة بالنسبة لعمرها، ومتحدة جداً مع أمها. فكرتُ في أنه يمكن لها أن تساعدني وحاولت اجتذابها كحليفة لي، قدمتُ إليها هدايا، وحاولت المزاح معها، ولكنها كانت تتجنبني أيضاً. أما الآن، بعد

أن صرتُ عجوزاً طاعناً في السن، فيمكنني التحدث عن ذلك كله دون أن يُفقدني الغضب عقلي، أظن أن الذنب كله يقع على حبها لبيدرو غارثيا الثالث. لقد كانت فتاة لا سبيل إلى رشوتها. لم تكن تطلب شيئاً على الإطلاق، وتتكلم أقل من أمها، وإذا ما أجبرتها على أن تقبّلني على سبيل التحية، فإنها تفعل ذلك دون رغبة، فتؤلمني قبلتها كما لو أنها صفعة. وكنتُ أقول لنفسي عندئذ: «كل شيء سيتبدل عندما نرجع إلى العاصمة ونعيش حياة متحضرة»، ولكن لم تكن كلارا ولا بلانكا تبديان أدنى قدر من الاهتمام بمغادرة الماريات الثلاث، بل على العكس، ففي كل مرة أتحدث فيها بالأمر، تقول بلانكا إن الحياة في الريف قد أعادت إليها الصحة، ولكنها لا تشعر بعد بأنها بكامل عافيتها، وتذكّرني كلارا بأن هناك أعمالاً كثيرة يجب القيام بها في الريف، وأن الأمور ليست في وضع يمكن تركها معه نصف منجزة. لم تكن زوجتي تتشوق إلى الترف الذي اعتادت عليه. ويوم وصلت إلى الماريات الثلاث شحنة الأثاث والأدوت المنزلية التي أوصيت عليها سراً كي أفاجئها، اكتفت بالقول إنها ترى كل ذلك جميلاً. وكان عليّ أن أقرر بنفسي أين يجب أن توضع الأشياء، لأنها لم تُبدِ أدنى اهتمام بذلك. ارتدى البيت أبهة لم يعرفها من قبل، ولا حتى في أيام الترف السابقة لأبي الذي أوصل البيت إلى الإفلاس والخراب. وصلت قطع أثاث كولونيالي من خشب سنديان أشقر وخشب جوز، محفورة يدوياً، وسجاجيد صوف ثقيلة، وثريات إضاءة من حديد ونحاس مطروق. وأوصيت من المدينة على أواني مائدة خزفية إنكليزية ملونة يدوياً، تليق بسفارة، وأواني كريستال، وأربعة صناديق مترعة بالزينات، وملاءات وأغطية أسرة مطرزة، ومجموعة أسطوانات كلاسيكية وحديثة مبتذلة، مع فونوغراف حديث. وكان يمكن لأي امرأة أن تُفتن بكل ذلك وأن تجد ما يشغلها لعدة شهور في ترتيب بيتها، باستثناء كلارا التي كانت محصنة ضد هذه الأمور. اكتفت بإكساب البراعة لطاهيتين وتدريب بعض الفتيات، من بنات المزارعين، للخدمة في البيت، وما إن وجدت نفسها متحررة من القدور والمكانس، حتى عادت إلى دفاتر مدوناتها عن

الحياة وإلى أوراق التاروت في أوقات فراغها. كانت تقضي معظم النهار مشغولة في مشغل الخياطة، وفي عيادة التمريض والمدرسة. وكنت أتركها وشأنها، لأن تلك الأمور هي مسوغ حياتها. لقد كانت امرأة محسنة وكريمة، تتلهف إلى إسعاد من يحيطون بها، جميع من يحيطون بها باستثنائي أنا. بعد الخراب، أعدنا بناء الدكان، ولكي أرضيها ألغيتُ قصاصات الورق الوردية وصرت أدفع للمزارعين نقوداً، لأن ذلك كما تقول كلارا يتيح لهم الشراء من القرية والتوفير. لم يكن ذلك صحيحاً. فهو لم ينفع إلا في ذهاب الرجال للسكر في حانة سان لوكاس بينما النساء والأطفال يعانون الفاقة. وبسبب هذا النوع من الأمور كنا نتشاجر كثيراً. فقد كان المزراعون سبب مجادلاتنا كلها. حسن، ليس كلها بالضبط. فقد كنا نتجادل أيضاً حول الحرب العالمية. كنت أتابع تقدم القوات النازية على خريطة علقتها على جدار الصالون، بينما كانت كلارا تحوك جوارب لجنود الحلفاء. وكانت بلانكا تمسك رأسها بكلتا يديها، دون أن تفهم سبب اهتمامنا بحرب لا علاقة لنا بها وتجري في الجانب الآخر من المحيط. وأظن أنه كان لدينا سوء تفاهم لأسباب أخرى أيضاً. والحقيقة أننا نادراً ما كنا نتفق على شيء. ولا أظن أن السبب في كل تلك الخلافات يعود إلى سوء طباعي، لأني كنت زوجاً طيباً، لم يبق لدي أي أثر من ملاحقة النساء الذي كنت عليه وأنا عازب. وقد كانت هي المرأة الوحيدة بالنسبة إليّ. ومازالت كذلك.

وذات يوم، أمرت كلارا بوضع مزلاج لباب حجرتها ولم تعد تتقبلني في فراشها، باستثناء تلك المناسبات التي كنتُ أفاقم حدة الوضع إلى حدّ يعني فيه الصدّ قطيعة نهاية. في البداية ظننت أنها تعاني من أحد تلك التقلبات في المزاج التي تصيب النساء بين حين وآخر، أو ربما سن اليأس، ولكن عندما طال أمد المسألة عدة أسابيع، قررتُ التحدث إليها. فأوضحت لي بهدوء أن علاقتنا الزوجية قد تردت ولهذا فقدت حسن الاستعداد للتقلبات الجسدية. وأنها استنتجت بصورة طبيعية أنه مادام ليس لدينا ما يقوله أحدنا للآخر، فليس بإمكاننا تقاسم الفراش أيضاً، وبدت مستغربة من أنني أقضي النهار كله غاضباً منها ثم أرغب في الليل

بمداعبتها. حاولت أن أبين لها أن هناك شيء من الاختلاف بين الرجال والنساء في هذا الشأن وأنني أعبدها بالرغم من كل نزواتي، ولكن ذلك كله لم يُجدِ. في ذلك الحين كنت أوفر صحة وأكثر قوة منها، على الرغم من حادثي ومن أن كلارا أصغر سناً مني بكثير. فقد رحت أنحل مع تقدمي في السن. ولم يكن في جسدي غرام واحد من الشحم، وكنت أحتفظ بصلابة ومتانة أيام شبابي. كان بمقدوري قضاء النهار كله ممتطياً الحصان، والنوم بالاستلقاء في أي مكان، وأكل أي شيء دون الشعور بآلام في المعدة أو الكبد أو غيره من الأجهزة الداخلية التي يتحدث عنها الناس باستمرار. أما عظامي فكانت تؤلمني بالفعل. ففي الأماسي الباردة أو الليالي الرطبة يشتد ألم عظامي التي سحقها الزلزال وتزداد حدّته إلى حدّ كنت أعض فيه الوسادة كيلا تسمع تأوهاتي. وعندما أفقد القدرة على تحمل المزيد، ألقي في حلقي جرعة كبيرة من الخمر وقرصي اسبرين، ولكن ذلك لم يكن يخفف عني. الغريب أن حسيتي صارت انتقائية مع التقدم في العمر، ولكنها ظلت على تأججها الذي كانت عليه في شبابي. كان يروقني النظر إلى النساء، ومازال يروقني. إنها متعة جمالية، وحتى شبه روحية. ولكن كلارا وحدها هي من توقظ فيّ رغبة محددة وفورية، لأننا في حياتنا المشتركة تعلّمنا معرفة أحدنا الآخر، وكان كل منا يمتلك على رؤوس أصابعه جغرافية الآخر الدقيقة. هي تعلم أين هي أشد النقاط حساسية فيّ، ويمكنها أن تقول لي ما أحتاج إلى سماعه بالضبط. ففي سن يكون فيها معظم الرجال ضجرين من نسائهم ويحتاجون إلى تحريض لدى أخريات ليجدوا شرارة الرغبة، كنت مقتنعاً أن كلارا وحدها هي القادرة على ممارسة الحب كما في أزمنة شهر العسل، دون كلل. فلم تكن تراودني غواية البحث عن أخريات.

أتذكر انني بدأت أحصارها مع هبوط الليل. كانت تجلس في المساء لتكتب، وكنت أتظاهر بأنني أستمتع بغليوني، ولكنني في الواقع كنت أرصدها بطرف عيني. وما إن أقدّر انها ستنسحب ـ لأنها تبدأ بتنظيف ريشة الكتابة وإغلاق الدفاتر ـ حتى أتأهب. فأتوجه وأنا أعرج

إلى الحمام، أتهندم، أرتدي روباً من القطيفة الأسقفية اشتريته لإغوائها، ولكن لم يبدُ عليها قطّ أنها انتبهت إلى وجوده، ثم ألصق أذني على الباب وأنتظرها. وعندما أسمعها تتقدم في الممر، أخرج للهجوم. لقد جربتُ كل شيء، ابتداء من إغراقها بالملاطفات والهدايا، حتى تهديدها بخلع الباب وتهشيمها ضرباً بالعكاز، ولكن أياً من هذين الأسلوبين لم يردم الهوة التي تفصلنا. أفترضُ أنه لم تكن ثمة جدوى من محاولتي جعل غرامياتي القسرية ليلاً تنسيها سوء مزاجي الذي أُثقل به عليها في النهار. كانت كلارا تتجنبني بمزاجها الساهي الذي انتهيت إلى مقته. لم أكن أعرف ما الذي يجذبني إليها بتلك القوة. لقد كانت امرأة ناضجة، دون أي تغنج، تجرر قدميها ببطء، وفقدت السعادة غير المسوغة التي كانت تجعلها شديدة الجاذبية في شبابها. لم تكن كلارا مغوية ولا رقيقة معي. وأنا واثق من أنها لم تكن تحبني. ولم يكن ثمة سبب للرغبة فيها بتلك الطريقة المبالغ فيها والفظة التي تُغرقني في اليأس وتجعلني مضحكاً. ولكنني لم أكن أستطع تجنب ذلك. فحركاتها الصغيرة، ورائحتها الخفيفة التي لها عبق الملابس النظيفة والصابون، ونور عينيها، وظرافة رقبتها النحيلة المكللة بتجعد خصل شعر متمردة، وكل شيء فيها كان يروقني. هشاشتها تبعث في نفسي حناناً لا يطاق. كنت أود حمايتها، احتضانها، جعلها تضحك كما في الأزمنة الغابرة، والعودة إلى النوم وهي إلى جانبي، رأسها على كتفي، وساقيها مضمومتين تحت ساقيّ، شديدة الضآلة والفتور، يدها على صدري، ضعيفة وثمينة. كنت أنوي في بعض الأحيان معاقبتها بالتظاهر بعدم المبالاة، ولكنني أتراجع مهزوماً بعد أيام، إنها تبدو أكثر اطمئناناً وسعادة عندما أتجاهلها. أحدثتُ ثقباً في جدار الحمّام كي أراها عارية، ولكن ذلك اصابني بحالة من الاضطراب فضلّتُ معها إعادة سده بالاسمنت. ولكي أجرح شعورها، تباهيت بالذهاب إلى **القنديل الأحمر**، لكن تعليقها الوحيد اقتصر على القول إن ذلك أفضل من اغتصاب الفلاحات، وقد فاجأني قولها، لأني لم اكن اتصور أنها على علم بذلك. ونظراً لتعليقها، عدتُ إلى محاولة عمليات الاغتصاب، لا لسبب آخر سوى إزعاجها. وقد

اكتشفت أن الزمن والزلزال قد ألحقا الضرر برجولتي وأنه لم يعد لدي ما يكفي من القوة لتطويق خصر فتاة ممتلئة ورفعها إلى كفل حصاني، وأقل من ذلك قدرتي على انتزاع ملابسها بحركات خاطفة وولوجها رغماً عن إرادتها. لقد كنت في سن يحتاج فيها المرء إلى مساعدة ورقة من أجل ممارسة الحب. لقد صرت عجوزاً، يا للعنة.

كان هو وحده من انتبه إلى أن جسده آخذ بالتضاؤل. لاحظ ذلك من ملابسه. فهي لم تعد فضفاضة عليه وحسب، وإنما صارت الأكمام وسيقان البناطيل طويلة عليه. طلب من كلارا أن تعدّلها له على آلة الخياطة، بحجة أنه آخذ بالنحول، ولكنه كان يتساءل بقلق عما إذا كان بيدرو غارثيا العجوز قد جبّر عظامه معكوسة، وأنه يتضاءل بسبب ذلك. لم يخبر أحداً بالأمر، مثلما لم يخبر أحداً بآلامه قطّ، بسبب الكبرياء.

في تلك الأيام كانت الاستعدادات تجري لانتخابات الرئاسة. وخلال عشاء سياسي للمحافظين في القرية، تعرف إستيبان تروبيا على الكونت جان دوساتيني. كان ينتعل حذاء من جلد جدي، وسترة من كتان خام، ولم يكن يتعرق مثل غيره من البشر الفانين، وتنوح منه رائحة الكولونيا الإنكليزية، وكان محمصاً بالشمس على الدوام بسبب عادته في إدخال كرة من خلال قوس صغير بوساطة عصا في عز الظهيرة، ويتكلم بجرجرة آخر حروف الكلمات وأكل الراءات. وهو الرجل الوحيد، بين معارف إستيبان، الذي يطلي أظفاره بطلاء لامع، ويقطر قطرة زرقاء في عينيه. ولديه بطاقات تعريف شخصية تحمل شعار أسرته، ويحافظ على كافة قواعد التمدن المعروفة وأخرى من اختراعه، مثل أكل الأرضي شوكي بملاقط، مما كان يثير ذهول الجميع. وكان الرجال يسخرون منه في غيابه، ولكن سرعان ما تبين أنهم يحاولون محاكاة تأنقه، وحذائه الذي من جلد الجدي، ولامبالاته ومظهره المتحضر. وكان لقب الكونت يضعه في مستوى مختلف عن المهاجرين الآخرين القادمين من وسط أوروبا هاربين من أوبئة القرن الماضي، ومن إسبانيا هرباً من

الحرب، ومن الشرق الأوسط بتجارتهم التركية، وأرمن من آسيا لبيع مأكولاتهم التقليدية وبضائعهم الرخيصة. لم يكن الكونت دوساتيني بحاجة لأن يعمل من أجل كسب قوته، مثلما أوضح للجميع. وليست تجارة التشينتشات بالنسبة إليه سوى وسيلة لتزجية الوقت.

لقد رأى إستيبان ترويبا التشينتشات تجوب ملكيته. فكان يصطادها بالرماية عليها كيلا تلتهم الزرع، ولكن لم يخطر له أنه يمكن لتلك القوارض التافهة أن تتحول إلى معاطف للسيدات. وكان جان دوساتيني يبحث عن شريك يقدم رأس المال، والعمل، وأماكن التربية، ويتحمل كل المجازفات، مع اقتسام الأرباح معه مناصفة. لم يكن إستيبان ترويبا مغامراً في مظهر من مظاهر الحياة، ولكن كانت لدى الكونت الفرنسي الظرافة المجنحة والموهبة القادرة على سبية، ولهذا أضاع ليالٍ كثيرة وهو مؤرق يدرس اقتراح التشينتشات ويُجري الحسابات. وفي أثناء ذلك كان المسيو دوساتيني يقضي فترات طويلة في الماريات الثلاث كمدّعوّ شرف. يلعب بكرتة تحت شمس الظهيرة، ويشرب كميات هائلة من عصير الشمام دون سكر، ويدور برقة حول مشغولات بلانكا الخزفية. وبلغ به الأمر حدّ الاقتراح على الفتاة تصدير ما تنتجه إلى أماكن أخرى حيث يوجد سوق مضمون لمشغولاتها الحرفية الهندية. فحاولت بلانكا إخراجه من خطئه بالتوضيح له أن ليس فيها شيئاً هندياً ولا في مشغولاتها كذلك، ولكن حاجز اللغة حال دون فهمه وجهة نظرها. كان الكونت مكسباً اجتماعياً لأسرة ترويبا، لأنه استقر في الملكية، انهمرت عليهم الدعوات من الاقطاعيات المجاورة، واللقاءات مع السلطات السياسية في القرية، وحضور كافة الأحداث الثقافية والاجتماعية في المنطقة. فالجميع يريدون أن يكونوا قريبين من الفرنسي، على أمل أن تنتقل إليهم بعض عدوى تميزه، وكانت الفتيات يتنهدن لدى رؤيته، والأمهات يتشوقن إلى أن يكون صهراً لهن، ويتنازعن شرف دعوته. وكان السادة يحسدون حسن طالع إستيبان ترويبا الذي وقع عليه الاختيار في صفقة التشينتشات. كانت كلارا هي الوحيدة التي لم تبهر بسحر الفرنسي ولم تدهشها طريقته في تقشير برتقالة بالشوكة

والسكين، دون أن يلمسها بأصابعه، ويخلّف القشر على شكل زهرة، أو مهارته في الاقتباس من شعراء وفلاسفة فرنسيين بلغته الأم، بل كانت تضطر كلما التقت به إلى سؤاله عن اسمه، وترتبك حين تجده متوجهاً بروب حريري إلى حمّام بيتها. أما بلانكا بالمقابل، فكانت تتسلى معه وتشكر توفر الفرصة لها لتظهر بأفضل فساتينها، وتسريح شعرها بعناية، وترتيب المائدة بالأواني الإنكليزية والشمعدانات الفضية.

- إنه يُخرجنا من الهمجية على الأقل - كانت تقول.

لم يكن استيبان تروييا مبهوراً ببهرجات النبيل قدر انبهاره بالتشينتشات. وكان يتساءل لماذا لم تخطر له فكرة دبغ جلودها بدل إضاعة كل تلك السنوات الطويلة في تربية الدجاج اللعين الذي يموت بفعل أي إسهال، وهذه الأبقار التي تستهلك مقابل كل لتر حليب هكتاراً من البرسيم وعلبة فيتامينات، وتملأ المكان فوق ذلك بالذباب والروث. وبالمقابل، لم تكن كلارا وبيدرو غارثيا الثاني يشاطرانه حماسته للقوارض: كلارا لأسباب إنسانية، إذ ترى في تربيتها من أجل انتزاع جلودها فظاعة رهيبة، وبيدرو لأنه لم يسمع من قبل شيئاً عن مرابع لتربية الجرذان.

وفي إحدى الليالي خرج الكونت ليدخن واحدة من سجائره الشرقية، المستوردة خصيصاً من لبنان، ومن يدري أين تقع تلك البلاد! كما كان يقول تروييا، وليستنشق شذى الأزهار الذي يتصاعد في هبات كبيرة من الحديقة ويغمر حجرات البيت. تمشى قليلاً على الشرفة وقدّر بنظره اتساع الحديقة الممتدة حول منزل السيد. تنهد متأثراً بتلك الطبيعة العجيبة التي تجمع في تلك البلاد المنسية كل مناخات إبداعها، ابتداء من سلسلة الجبال والبحر، حتى الوديان والقمم الشاهقة، وأنهار المياه البلورية، وحيوانات يمكن التنزه بينها بكل ثقة، مع اليقين بعدم ظهور أفاع سامة أو وحوش ضارية، ومن أجل الكمال التام، لا وجود كذلك لزنوج حاقدين أو هنود متوحشين. كان ضجراً من ذرع بلدان غريبة سعياً وراء صفقات زعانف أسماك قرش مقوية للرغبة الجنسية، وجنسنغ يشفي كل العلل، ودمى ينحتها أناس الإسكيمو، وأسماك بيرانيا محنطة من

الأمازون و تشينتشات لصنع معاطف للسيدات. كان في الثامنة والثلاثين من العمر، هذا على الأقل ما يعترف به، ويشعر بأنه وجد أخيراً الفردوس الأرضي، حيث يمكنه إقامة مشاريع مطمئنة مع شركاء سُذّج. جلس على جذع ليدخن في الظلام. وفجأة رأى ظلاً يهتز وخطرت له بصورة عابرة فكرة أنه قد يكون لصاً، ولكنه سرعان ما استبعدها، لأن قطاع الطرق، مثلهم مثل الحيوانات الضارة، لا مكان لهم في هذه البلاد. اقترب بحذر، ولمح عندئذ بلانكا، كانت تُخرج ساقيها من النافذة وتنزلق مثل قط على الجدار، وتسقط بين أزهار الأرطنسيا دون إحداث أي ضجة. كانت ترتدي ملابس الرجال، لأن الكلاب صارت تعرفها ولم تعد بحاجة إلى المشي عارية. رآها جان دوساتيني تبتعد متوارية في ظل طنف البيت والأشجار، ففكر في اللحاق بها، ولكنه خشي الكلاب ورأى أن لا حاجة به إلى ذلك لمعرفة أين تذهب فتاة تخرج عبر النافذة ليلاً. أحس بالقلق، لأن ما رآه للتو قد يعرض خططه للخطر.

في اليوم التالي، طلب الكونت يد بلانكا تروبيا للزواج. وقد أخطأ استيبان الذي لم يجد الوقت الكافي لمعرفة ابنته، فظن أن الحب هو الدافع وراء لطفها الوديع وحماستها في وضع الشمعدانات الفضية على المائدة. وأحس بالسعادة الغامرة لأن ابنته الضجرة جداً وعليلة الصحة، قد تمكنت من اصطياد الشاب المرغوب أكثر من سواه في المنطقة. «ما الذي رآه فيها؟»، تساءل مستغرباً. أوضح للمتقدم أن عليه أخذ رأي بلانكا، ولكنه متأكد من أنه لا وجود لأي عائق، وأنه يستبق الأمر من جهته ويرحب به كفرد من الأسرة. استدعى ابنته التي كانت في ذلك الوقت تُعطي درس جغرافية في المدرسة، وانفرد بها في مكتبه. بعد خمس دقائق من ذلك انفتح الباب بعنف ورأى الكونت الفتاة تخرج بخدين مصطبغين بالحمرة. ولدى مرورها بجانبه صوبت إليه نظرة قاتلة وأدارت وجهها. وكان يمكن لأي شخص أقل عناداً منه أن يجمع حقائبه على الفور ويذهب إلى الفندق الوحيد في القرية، ولكن الكونت قال لإستيبان إنه واثق من أنه سيتوصل إلى نيل محبة الشابة إذا ما منحه الوقت لتحقيق ذلك. فعرض عليه إستيبان تروبيا البقاء كضيف في الماريات

الثلاث طوال ما يراه ضرورياً من الوقت. لم تقل بلانكا شيئاً، ولكنها لم تعد منذ ذلك اليوم تتناول الطعام إلى المائدة معهم، ولم تفوت فرصة واحدة إلا وجعلت الفرنسي يشعر أنه شخص غير مرغوب فيه. وخبأت فساتينها الاحتفالية وشمعدانات الفضة وصارت تتجنبه بكل دقة. وأخبرت أباها أنه إذا عاد إلى ذكر مسألة الزواج فسوف ترجع إلى العاصمة في أول قطار يمر من المحطة، وستذهب إلى مدرستها كراهبة مستجدة.

- سوف تبدلين رأيك! - زمجر إستيبان تروييا.

- أشك في ذلك - ردّت عليه.

كان وصول التوءمين إلى الماريات الثلاث في ذلك الصيف راحة كبيرة. لقد حملا هبَّة نداوة وصخب إلى أجواء البيت الضاغطة. ولم يقدّر أي من الأخوين مفاتن النبيل الفرنسي، على الرغم من بذله جهوداً سرية لكسب تعاطف الشابين. كان خايمي ونيكولاس يسخران من أساليب لياقته، ومن حذاء المخنثين الذي ينتعله، ومن لقبه الأجنبي، ولم يكن جان دي ساتيني يتضايق من ذلك. وانتهى طيب مزاجه إلى تجريدهما من أسلحتهما وتعايشا في ما تبقى من الصيف بصداقة، ووصل بهم الأمر إلى التحالف معاً لإخراج بلانكا من الغيظ الذي غرقت فيه.

- لقد صرتِ في الرابعة والعشرين يا أختاه. هل تريدين البقاء لتبديل ملابس تماثيل القديسين - كانا يقولان لها. ويحاولان تشجيعها لقص شعرها ومحاكاة الفساتين التي يُروج لها في المجلات، ولكنها لم تكن تبدي اهتماماً بتلك الأزياء الغريبة التي لا أمل لها بالبقاء في زوابع غبار الريف.

كان كل من التوءمين مختلفاً عن الآخر إلى حد لا يبدوان معه أنهما أخوين. فخايمي طويل القامة، قوي البنية، خجولٌ ومنكبٌ على الدراسة. وبقسر نظام التربية في المدرسة الداخلية، توصل من خلال الرياضة إلى تنمية عضلات بطل رياضي، ولكنه كان يرى، في الواقع، أن ذلك النشاط المنهك لا جدوى منه. ولم يكن قادراً على تفهم حماسة جان دوساتيني لقضاء فترة الصباح كلها وهو يلاحق كرة بعصا كي يُدخلها في حفرة صغيرة، بينما الأسهل أن يضعها هناك بيده. وكانت له نزوات

غريبة راحت تتبدى في تلك الفترة وازدادت حدة على امتداد حياته. فهو لا يحب أن يتنفس أحد بالقرب منه، ولا أن تمد له اليد للمصافحة، أو أن توجه إليه أسئلة شخصية، أو يُطلب استعارة كتب منه، أو أن يكتب أحد إليه رسائل. فكان ذلك كله يتسبب في صعوبة علاقته بالناس، ولكنه لم يؤدِ إلى عزله عنهم، فبعد خمس دقائق من التعرف عليه يظهر للعيان أنه، على الرغم من سلوكه السوداوي، شخص كريم، ساذج، ولديه قدرة كبيرة على الحنان، يحاول جاهداً، دون جدوى، أن يخفيها لأنها تسبب له الخجل. كان يهتم بالآخرين أكثر بكثير مما يعترف به، وليس أسهل من استثارة تأثره. وقد اعتاد المزراعون في الماريات الثلاث على تسميته «السيد الصغير»، وكانوا يلجؤون إليه كلما احتاجوا إلى شيء. فكان خايمي يستمع إليهم دون تعليق، ويرد عليهم بكلمات مقتضبة وينتهي إلى أن يدير لهم ظهره، ولكنه لا يستريح إلا بعد أن يحل المشكلة. كان نفوراً، وتقول أمه إنه لم يكن يسمح لأحد بمداعبته حتى في صغره. فقد كانت له تصرفات غريبة منذ طفولته، فهو لا يتورع عن خلع ثيابه التي يرتديها ليقدمها إلى شخص آخر، مثلما فعل في مناسبات عديدة. وكان يرى في إبداء العاطفة والانفعالات علامة انحطاط، ولم يكن يكسر حواجز حيائه المبالغ فيه إلا مع الحيوانات، فهو يتقلب معها على الأرض، ويداعبها، ويضع لها الطعام في أفواهها، وينام وهو يحتضن الكلاب. ويمكن له أن يفعل ذلك مع الأطفال الصغار، على ألا يكون هناك من يراه، لأنه يفضل أن يؤدي أمام الناس دور الرجل الصلب والمتوحد. فتكوينه البريطاني طوال اثني عشر عاماً في المدرسة، لم يستطع أن ينمي فيه الكآبة، التي تعتبر أفضل صفة في أي جنتلمان. لقد كان عاطفياً لا صلاح له. ولهذا السبب اهتم بالسياسة وقرر ألا يكون محامياً، مثلما كان يطلب أبوه، وإنما طبيب، كي يساعد المحتاجين، مثلما اقترحت عليه أمه التي تعرفه بصورة أفضل. لقد لعب خايمي مع بيدرو غارثيا الثالث طوال مرحلة طفولته، ولكنه في تلك السنة بالتحديد تعلم تقديره. فقد اضطرت بلانكا إلى التضحية بلقاءين معه عند النهر، كي تتيح للشابين أن يجتمعا معاً. كانا يتحدثان عن العدالة، عن

المساواة، عن الحركة الفلاحية، عن الاشتراكية، بينما بلانكا تستمع إليهما بنفاد صبر، راغبة في أن ينتهيا سريعاً كي تبقى على انفراد مع حبيبها. وقد جمعت تلك الصداقة الشابين حتى الموت، دون أن تساور إستيبان ترويبا أية شكوك بوجودها.

كان نيكولاس جميلاً مثل فتاة. ورث حساسية وشفافية بشرة أمه، وكان ضئيلاً، نحيلاً، ماكراً وسريعاً مثل ثعلب. وكان لامع الذكاء، يتفوق دون بذل إي جهد على أخيه في كل أمر يقدمان عليه معاً. وقد ابتكر لعبة لمضايقته: فهو يخالفه في موضوع ويقدم حججه بكثير من البراعة والدقة حتى ينتهي به الأمر إلى إقناع خايمي بأنه كان على خطأ، ويجبره على الاعتراف بخطئه. وعندئذ يقول نيكولاس لأخيه:

- هل أنت متأكد من أنني على حق؟

- أجل، أنت على حق - يزمجر خايمي الذي تأبى عليه استقامته الجدل بخبث.

- آه، هذا يسعدني - يهتف نيكولاس -. والآن سأثبت لك أن المحق هو أنت، وأنني أنا المخطئ. سأقدم لك الحجج التي كان عليك أنت أن تقدمها إليّ لو أنك كنت ذكياً.

فكان خايمي يفقد صبره وينهال عليه ضرباً، ولكنه سرعان ما يندم، لأنه أقوى بكثير من أخيه، وقوته البدنية نفسها تجعله يشعر بالذنب. وفي المدرسة، كان نيكولاس يستخدم ذكاءه لمضايقة الآخرين، وعندما يجد نفسه في مواجهة موقف عنف، يستدعي أخاه كي يدافع عنه بينما يكتفي هو بتشجيعه من بعيد. لقد اعتاد خايمي على تلقي الضرب بدلاً من نيكولاس، ووصل إلى حدّ رؤية أنه من الطبيعي أن يتلقى الضرب بدلاً منه، وأن يعمل بدلاً منه، ويغطي على أكاذيبه. وكان اهتمام نيكولاس الأول في تلك الفترة من شبابه ينصب، فضلاً عن ملاحقة النساء، على تنمية مهارة كلارا في التنبؤ بالمستقبل. كان يشتري كتباً عن جمعيات سرية، وعن الأبراج وكل ما له صلة بالخوارق فوق الطبيعية. وقد خطر له في تلك السنة أن يميط اللثام عن المعجزات، فاشترى طبعة شعبية من كتاب *حياة القديسين* وأمضى

الصيف في البحث عن تفسيرات سوقية مبتذلة لأعظم المآثر الروحانية.
فكانت أمه تسخر منه:

- إذا كنت لا تعرف كيف يعمل الهاتف يا بني، فكيف يمكنك أن تفهم المعجزات؟

كان اهتمام نيكولاس بمسألة الخورق فوق الطبيعية قد بدأ يتجلى قبل نحو سنتين من ذلك. ففي عطلات نهاية الأسبوع التي يستطيع خلالها مغادرة المدرسة الداخلية، كان يذهب لزيارة الأخوات مورا الثلاث في الطاحونة القديمة، كي يتعلم منهن العلوم الخفية. ولكنه سرعان ما تبين أنه ليس لديه أي استعداد طبيعي لنفاد البصيرة أو التخاطر، فكان عليه أن يقنع بتعلم آليات أوراق التنجيم، والتاروت، والعيدان الصينية. وبما أن كل أمر يستجر أمراً آخر، فقد تعرف في بيت الأخوات مورا على جميلة تدعى آماندا، أكبر منه سناً بقليل، بدأت بتعليمه التأمل باليوغا والعلاج بالإبر الصينية، وهما علمان توصل بهما نيكولاس إلى علاج الروماتيزم وآلام صغرى أخرى بصورة أفضل مما سيتوصل إليه أخوه بالطب التقليدي بعد سبع سنوات من الدراسة. ولكن ذلك كله جاء بعد زمن طويل. أما في ذلك الصيف، فكان له عشرين عاماً من العمر، وكان يشعر بالضجر في الريف. كما أن أخوه كان يراقبه بصرامة كيلا يضايق الفتيات، لأنه نصّب نفسه حامياً لفضيلة عذراوات الماريات الثلاث، وعلى الرغم من ذلك كان نيكولاس يتدبر أمره لإغواء جميع المراهقات في المنطقة تقريباً بفنون غزل لم تُعرف قطّ في تلك الأمكنة. أما بقية الوقت فكان يقضيه في أبحاثه عن المعجزأت، وفي محاولة فهم خدع أمه في تحريك المملحة بقوة الطاقة الذهنية، وفي كتابة أشعار مشبوبة لآماندا التي كانت تعيدها إليه بالبريد مصححة ومحسَّنة، دون أن يؤدي ذلك إلى أي فتور في حماسة الشاب.

مات بيدرو غارثيا العجوز قبل قليل من الانتخابات الرئاسية. كانت البلاد مضطربة بالحملات السياسية، وقطارات النصر تجتاز البلاد من الشمال إلى الجنوب حاملة المرشحين الذين يطلون من العربة الأخيرة مع

بطانتهم من المبشرين، ويحيّون بالطريقة نفسها، ويعدون جميعهم بالأشياء نفسها، ويرفعون الأعلام وسط صخب جوقة غناء ومكبرات صوت تكسر هدوء المشهد وتُفزع الماشية. كان العجوز قد عاش طويلاً، فلم يعد أكثر من كومة عظام بلورية يغطيها جلد ضارب إلى الصفرة. وكان وجهه أشبه بقطعة دانتيلا من التجاعيد. يطقطق إذا مشى، بطنطنة صنوج، وكان بلا أسنان ولا يستطيع أكل شيء سوى عصيدة الأطفال الرضع، وقد أصيب بالصمم إضافة إلى عماه، ولكنه لم يفقد قطّ قدرة التعرف على الأشياء، وتذكر الماضي والأمور الآنية المباشرة. مات وهو جالس على كرسيه الخيزراني عند الغروب. كان يحب الجلوس عند عتبة كوخه والإحساس بحلول المساء الذي يتبينه من التبدل الطفيف في درجة الحرارة، ومن أصوات الفناء، والحركة النشطة في المطابخ، وصمت الدجاج. هناك وجده الموت. وعند قدميه كان حفيده إستيبان غارثيا الذي صار في حوالي العاشرة من عمره، منهمكاً بفقئ عيني صوص بمسمار. إنه ابن إستيبان غارثيا، الوحيد بين أبناء زنا السيد الذي حمل اسمه الأول، وإن لم يحمل كنيته. لم يكن هناك من يتذكر أصله أو سبب حمله ذلك الاسم، اللهم إلا هو نفسه، لأن جدته بانتشا غارثيا تمكنت قبل موتها من تسميم طفولته بحكاية أنه لو قيض لأبيه أن يولد في مكان بلانكا أو خايمي أو نيكولاس، لاستحق وراثة الماريات الثلاث، ولكان بإمكانه الوصول إلى منصب رئيس الجمهورية إذا رغب في ذلك. في تلك المنطقة المزروعة بأبناء غير شرعيين وبآخرين شرعيين لا يعرفون آباءهم، ربما كان هو الوحيد الذي ترعرع حاقداً على كنيته. عاش مؤرقاً بالحقد على السيد، وعلى جدته المنتهكة، وعلى أبيه ابن الزنا، وعلى قدره القاسي كسيد منبوذ. لم يكن إستيبان تروبيا يميزه عن غيره من صبية الملكية، فقد كان واحداً من جمع أطفال ينشدون النشيد الوطني في المدرسة ويقفون بالدور من أجل تلقي هديتهم في يوم عيد الميلاد. ولم يكن يتذكر بانتشا غارثيا ولا أنها أنجبت ابناً منه، ولا يتذكر شيئاً عن ذلك الحفيد الذي يكن له الحقد، والذي يراقبه من بعيد ليحاكي حركاته ويقلد صوته. كان الطفل يستيقظ في الليل

متخيلاً أمراضاً أو أحداثاً رهيبة تضع حداً لحياة السيد وابنائه جميعاً، كي يتمكن هو من وراثة الملكية. وعندئذ سيحوّل الماريات الثلاث إلى مملكته الخاصة. لقد داعب هذه التخيلات طوال حياته، حتى بعد أن علم أنه لا يمكن أن يحصل على شيء عن طريق الميراث. وظل يُحمّل على الدوام آل تروبيا وزر الحياة القاتمة التي صاغوها له وأحس فيها بالغبن، حتى في الأيام التي وصل فيها إلى قمة السلطة وصاروا جميعهم في قبضته.

انتبه الطفل إلى أن تبدلاً قد طرأ على العجوز. فاقترب منه ولمسه، فاهتز الجسد الهرم. سقط بيدرو غارثيا العجوز مثل كيس عظام. كانت تغطي حدقتي عينيه غشاوة حليبية هي التي راحت تُفقدهما النورعلى امتداد ربع قرن. تناول إستيبان غارثيا المسمار، وكان يتأهب لثقب عيني العجوز عندما وصلت بلانكا ودفعته جانباً دون أن يخطر لها أن ذلك الطفل المتجهم والشرير هو ابن أخيها، وأنه سيكون بعد سنوات أداة مأساة تحلّ بأسرتها.

ـ رباه، لقد مات العجوز ـ أجهشت بالبكاء وهي تنحني على جسد العجوز الذي ملأ طفولتها بالحكايات وحمى غرامياتها السرية.

أقاموا لبيدرو غارثيا العجوز مأتماً استمر السهر فيه على جثمانه ثلاثة أيام، وقد أمر إستيبان تروبيا عدم التقتير في النفقات. وضعوا الجثمان في صندوق خشن من خشب الصنوبر بعد أن ألبسوه بدلة أيام الآحاد، وهي البدلة نفسها التي لبسها يوم زفافه، وكان يرتديها عند الذهاب للتصويت وعند تلقي الخمسين بيزو التي يقدمها السيد في كل عيد ميلاد. وألبسوه قميصه الأبيض الوحيد، فكان فضفاضاً جداً حول عنقه، لأن التقدم في السن قلص حجمه، ووضعوا ربطة عنق الحداد وقرنفلة حمراء في عروة السترة، مثلما كان يتزين في الأعياد. وثبتوا فكه بمنديل ووضعوا على رأسه قبعته السوداء، وكان قد طلب ذلك مرات عديدة، لأنه يريد أن يرفعها عن رأسه ليحيي الرب. لم يكن لديه حذاء، ولكن بلانكا أحضرت أحد أحذية إستيبان تروبيا كي يرى الجميع أنه لن يذهب إلى الفردوس حافياً.

تحمس جان دوساتيني في الجنازة، فأخرج من أمتعته آلة تصوير ذات ثلاث قوائم والتقط عدة صور للميت، فظن ذووه أنه يمكن لذلك أن يسرق روحه، وعمدوا إلى إتلاف البلاكات على سبيل الاحتياط. وقد اجتمع للسهر على الميت فلاحون من المنطقة كلها، لأن بيدرو غارثيا كان قد ارتبط، خلال قرن من حياته، بصلة قربى من كثيرين من سكان المقاطعة. وجاءت العرافة، وكانت هرمة أكثر منه، ومعها عدد من هنود قبيلتها، فبدؤوا البكاء على المتوفى بأمر منها ولم يتوقفوا إلا عند انتهاء المراسم بعد ثلاثة أيام. اجتمع الناس حول كوخ العجوز الميت لشرب النبيذ وعزف الجيتار ومراقبة الشواء. وجاء كذلك كاهنان على دراجة لمباركة رفات بيدرو غارثيا الفاني وترؤس الطقوس الجنائزية. كان أحدهما مارداً متورد الوجه، يتكلم بلكنة إسبانية قوية، هو الأب خوسيه دولثي ماريا الذي يعرفه إستيبان تروبيا بالأسم فقط. وكان على وشك أن يمنعه من الدخول إلى ملكيته، ولكن كلارا أقنعته بأن اللحظة غير مناسبة لتقديم أحقاده السياسية على حماسة الفلاحين المسيحية. وقالت له: «سيضفي الكاهن شيئاً من النظام على شؤون الروح على الأقل». وهكذا انتهى الأمر بإستيبان تروبيا إلى الترحيب به ودعوته للانتظار في بيته مع الأخ المعاون الذي لم يفتح فمه وظل ينظر طوال الوقت إلى الأرض، برأس مائل ويدين مضمومتين. كان السيد متأثراً لموت العجوز الذي أنقذ زرعه من النمل ثم أضاف إلى ذلك إنقاذ حياته، وأراد أن يتذكر الجميع تلك الجنازة كحدث مهم.

جمع الكاهنان المزارعين والزوار في المدرسة لاستذكار الأناجيل المنسية وإقامة قداس لراحة نفس بيدرو غارثيا. ثم انسحبا بعد ذلك إلى الحجرة التي خُصصت لهما في بيت السيد، بينما واصل الآخرون حفلة الصخب والشرب التي قطعها وصولهما. انتظرت بلانكا في تلك الليلة صمت الجيتارات وتوقف بكاء الهنود وذهاب الجميع إلى النوم، كي تقفز من نافذة غرفتها وتمضي في وجهتها المعهودة محتمية بالظلال. وعاودت ذلك الانتظار في الليالي الثلاث التالية، إلى أن غادر الكاهنان. وكان الجميع يعرفون، باستثناء أبويها، أن بلانكا كانت تلتقي بأحدهما عند

النهر. وقد كان من تلتقيه بيدرو غارثيا الثالث الذي لم يشأ التغيب عن مأتم جده واستغلال ثوب الكاهن المستعار ليحرض الفلاحين من بيت لبيت، فكان يوضح لهم أن الانتخابات القادمة هي فرصتهم لينفضوا عن كاهلهم النير الذي عاشوا تحته دائماً. وكانوا يستمعون إليه متفاجئين ومشوشين. لقد كان زمنهم يقاس بالفصول، وتفكيرهم يقاس بالأجيال، وكانوا بطيئين وحذرين. وكان أكثرهم شباباً فقط هم من يستطيعون متابعة خيط أفكاره، لأنهم من يملكون أجهزة مذياع ويسمعون الأخبار، ويذهبون أحياناً إلى القرية ويتبادلون الحديث مع النقابيين. أما الآخرون فكانوا يصغون إلى الفتى لأنه بطل يطارده السادة، ولكنهم مقتنعون في أعماقهم بأن كلامه مجرد حماقات. وقد قالوا له:

- إذا عرف السادة أننا سنصوت للاشتراكيين، فسوف نضيع.

- لن يُعرف ذلك! فالتصويت سري - قال الكاهن المزيف.

- هذا ما تظنه أنت يا بني - ردّ عليه أبوه بيدرو الثاني -. يقولون إنه سري، ولكنهم يعرفون على الدوام لمن نصوت. ثم إذا كسبت جماعة حزبهم بعد ذلك، فسوف يطردوننا إلى الشارع، ولن نجد عملاً. فماذا سأفعل أنا الذي عشت حياتي كلها هنا؟

- لا يمكنهم طرد الجميع، لأن السيد سيخسر أكثر منكم إذا ذهبتم! - أعرب بيدرو الثالث عن حجته.

- ليس مهماً لمن نصوّت، لأنهم سيكسبون هم دائماً.

- إنهم يبدلون أوراق التصويت - قالت بلانكا التي كانت تحضر الاجتماع جالسة بين الفلاحين.

- لن يستطيعوا ذلك هذه المرة - قال بيدرو الثالث -. سنرسل أشخاصاً من الحزب لمراقبة مكاتب التصويت والتأكد من ختم الصناديق.

ولكن الفلاحين يترددون وتساورهم الشكوك. فقد علمتهم التجربة أن الثعلب سيتوصل في نهاية الأمر إلى أكل الدجاجات، على الرغم من الأغنيات الهدامة التي تنتقل من فم إلى فم وتغني عكس ذلك. ولهذا، عندما مرّ قطار مرشح الحزب الاشتراكي الجديد، وهو طبيب حسير البصر وكاريزمي يحرك الحشود بخطابه الملتهب، تأملوه من المحطة وهم

تحت حراسة الملاكين الذين شكلوا دائرة حولهم، وكانوا مسلحين ببنادق الصيد والهراوى. استمعوا باحترام إلى كلمات المرشح، ولكنهم لم يتجرؤوا على توجيه إيماءة تحية إليه، باستثناء عدد محدود من العمال المياومين الذين هرعوا في حشد صغير، مزودين بعصي ومعاول وبصرخات كأنها الزعيق، لأنهم لا يملكون ما يخسرونه، فهم رُحّل في الريف، يهيمون على وجوههم في المنطقة بلا عمل ثابت، وبلا أسرة، وبلا سيد ودون خوف.

بعد قليل من موت بيدرو غارثيا العجوز ودفنه المشهود، بدأ لون بلانكا التفاحي بالشحوب وعانت من حالات إرهاق طبيعي ليس ناتجاً عن حبس أنفاسها المتعمد أو إقياء صباحي بسبب الماء المملح الدافئ. ظنت أن السبب هو إفراطها في الطعام، وكان ذلك في موسم الدراق الذهبي، والمشمش الدمشقي، والذرة الطرية التي تُطهى في قدور من الفخار وتعطر بأوراق الحبق، كان زمن صنع المربيات والمحفوظات من أجل الشتاء. ولكن لم يشفها اللجوء إلى الحمية والصيام وتناول مغلى البابونج والملينات والراحة. فقدت حماستها للمدرسة وعيادة التمريض، وحتى لدمى عيد الميلاد الصلصالية. أصابها الضعف والوهن، وصارت تقضي ساعات مستلقية في الظل ناظرة إلى السماء، دون أن تهتم بأي شيء. والنشاط الوحيد الذي حافظت عليه هو هروبها الليلي من النافذة عندما تكون على موعد مع بيدرو الثالث قرب النهر.

أما جان دوساتيني الذي لم يستسلم ولم يتخلَ عن حصاره الرومانسي لها، فكان يراقبها. وعلى سبيل الحذر والتكتم كان يقضي فترات في فندق القرية ويقوم ببعض الرحلات القصيرة إلى العاصمة، يعود منها محملاً بأدبيات حول التشينتشات، وأقفاصها، وغذائها، وأمراضها، وطرق تكاثرها، وطريقة دبغ جلودها، وكل ما هو متعلق عموماً بتلك القوارض الصغيرة المقدر لها أن تتحول إلى شالات فرو. وحلّ الكونت ضيفاً على الماريات الثلاث خلال الشطر الأكبر من الصيف. لقد كان ضيفاً فاتناً، جيد التهذيب، هادئاً ومرحاً. هناك عبارة لطيفة دائماً على طرف لسانه، يحتفي بالطعام، ويمتعهم في الأمسيات بالعزف على بيانو

الصالون، حيث ينافس كلارا في *نوكتورنات* شوبان، وكان معين حكايات لا تنضب. يستيقظ متأخراً، ويكرس ساعة أو ساعتين لمهماته الشخصية، فيمارس الرياضة، ويهرول حول البيت دون أن يهتم بسخريات الفلاحين الأفظاظ، وينقع نفسه في حوض الحمام المملوء بماء ساخن، ويتأخر طويلاً في اختيار الملابس الملائمة لكل مناسبة. وكان ذلك كله جهداً ضائعاً، لأن أحداً لم يكن يقدّر اناقته، وكثيراً ما كان الشيء الوحيد الذي يحصل عليه حين يرتدي بدلات ركوب الخيل الإنكليزية، وسترات المخمل، وقبعات التيروليه المزينة بريشة ملونة، هو أن تعرض عليه كلارا، بكل طيب نية، ملابس أخرى أكثر ملاءمة للريف. فلا يفقد جان طيب مزاجه، ويتقبل ابتسامات رب البيت الساخرة، ووجه بلانكا العابس، وشرود كلارا الدائم التي ظلت بعد مرور سنة تسأله عن اسمه. وكان يتقن طبخ بعض وصفات الطعام الفرنسي، يتبلها جيداً، ويقدمها بترتيب بديع، مساهماً بها عندما يكون هناك مدعوون. كانت تلك أول مرة يرون فيها رجلاً يهتم بالمطبخ، ولكنهم افترضوا أنها عادات أوروبية ولم يجرؤوا على السخرية منه، كيلا يظهروا بمظهر الجهلة. وخلال رحلاته إلى العاصمة، كان يأتي معه، فضلاً عن متطلبات التشينتشات، بمجلات أزياء، وقصص مسلسلة عن الحرب شاع انتشارها لخلق أسطورة الجندي البطل، وروايات رومانسية لبلانكا. وفي أثناء أحاديث المائدة، كان يشير في بعض الأحيان بنبرة ضجر مميت إلى إجازاته الصيفية مع الطبقة النبيلة الفرنسية في قصور ليشتنشتاين أو على الشاطئ اللازوردي. ولم ينقطع قطّ عن القول إنه سعيد لاستبداله ذلك كله بسحر أميركا. فتسأله بلانكا لماذا لم يختر منطقة الكاريبي، أو بلاداً فيها على الأقل خلاسيات، وأشجار جوز هند وطبول، إذا كان ما يبحث عنه هو الغرائبية، لكنه كان يؤكد أنه لا وجود على الأرض لمكان آخر أكثر لطفاً من هذه البلاد المنسية في أقصى العالم. لم يكن الفرنسي يتحدث عن حياته الشخصية، إلا من أجل تمرير بعض الإشارات غير المحسوسة التي تتيح لمحدثه الماكر أن يستشف فخامة ماضيه، وثروته الضخمة، وأصله النبيل. لم يكن يُعرف شيء مؤكد عن وضعه المدني، أو عن

سنه، أو أسرته أو المنطقة الفرنسية التي يتحدر منها. فكانت كلارا ترى أن كل تلك الأسرار هي أمر خطر، وحاولت أن تكشف عن ذلك بأوراق التاروت، لكن جان لم يكن يسمح بأن تُرمى أوراق طالعه أو تُقرأ خطوط يده. كما لم يكن يُعرف من أي برج هو.

ما كان إستيبان ترويبا يهتم بشيء من ذلك. إذ يكفيه أن يكون الكونت مستعداً لتسليته بدور شطرنج أو دومينو، وأن يظل ذكياً ولطيفاً، وألا يطلب استدانة نقود منه. منذ بدأ جان دوساتيني زيارة البيت، صارت قدرته أكبر بكثير على تحمل ضجر الريف، حيث لا يوجد شيء يمكن عمله بعد الساعة الخامسة مساء. أضف إلى ذلك أنه يحب أن ينظر إليه الجيران بحسد لحظوته بذلك الضيف في الماريات الثلاث.

انتشرت إشاعة أن جان يتودد إلى بلانكا ترويبا، ولكن ذلك لم يحُل دون بقائه العريس المفضل لدى أمهات لديهن بنات في سن الزواج. وكانت كلارا تقدّره أيضاً، وإن لم تكن لديها أية حسابات زواج خفية. أما بلانكا من جهتها، فقد انتهت إلى الاعتياد على حضوره. لقد كان شديد الرزانة والعذوبة في التعامل، إلى حدّ راحت بلانكا تنسى شيئاً فشيئاً نيته في الزواج. وبلغت حدّ الظن أن ذلك لم يكن سوى مزحة من الكونت. فعادت إلى إخراج الشمعدانات الفضية من الخزانة، وإلى إعداد المائدة بأواني الخزف الإنكليزية، وعادت إلى ارتداء أثواب المدينة خلال جلسات تبادل الحديث المسائية. وكثيراً ما كان جان يدعوها إلى القرية أو يطلب منها مرافقته إلى الدعوات الاجتماعية الكثيرة التي يتلقاها. فتضطر كلارا في هذه المناسبات إلى الذهاب معهما، لأن إستيبان ترويبا كان متشدداً بهذه النقطة: فهو لا يريد أن تُرى ابنته وحدها مع الفرنسي. ولكنه كان يسمح لهما بالمقابل بأن يتنزها معاً في الملكية دون مرافقة، ما داما لا يبتعدان كثيراً ويعودان قبل الغروب. فكانت كلارا تقول إذا كان يبغي الحفاظ على عذرية الفتاة، فإن خروجهما ذاك أخطر بكثير من الذهاب لتناول الشاي في إقطاعية آل أوثكاتيغوي، لكن إستيبان كان واثقاً من أنه لا وجود لما يخشاه من جان، لأن نواياه شريفة، غير أنه يجب توخي الحذر من ألسنة السوء التي يمكن لها أن تدمر شرف ابنته.

نزهـات جـان وبلانكـا عـززت صـداقة طيبـة. كانـا علـى خـير مـا يـرام. فكلاهما يحب الخروج عند الضحى على الخيول، ومعهما وجبة خفيفة في سلة وعدة حقائب صغيرة من قماش سميك وجلد تضم آلة تصوير جان. فكان الكونت يستغل كل توقف لهما ليضع بلانكا أمام منظر طبيعي ويصورها، بالرغم من أنها كانت تمانع بعض الشيء لشعورها بإحساس غامض بالسخف. وكان ذلك الشعور يجد مسوغاً له عند رؤية الصور بعد تظهيرها، حيث تبدو فيها بابتسامة ليست ابتسامتها، وفي وضع غير مريح، وبهيئة تعاسة، سببها حسب رأي جان أنها غير قادرة على الوقوف بتلقائية، أما السبب برأيها فهو أنه يجبرها على الوقوف مائلة وحابسة أنفاسها لثوانٍ طويلة، ريثما تنطبع الصورة على البلاك. ولكنهما يختاران على العموم مكاناً ظليلاً تحت الأشجار، فيفرشان بطانية على العشب ويستريحان لقضاء بضع ساعات. كانا يتحدثان عن أوروبا، وعن الكتب، وعن طرائف أسرة بلانكا ورحلات جان. وقد أهدت إليه أحد كتب الشاعر، فتحمس كثيراً وحفظ مقاطع طويلة عن ظهر قلب وصار بإمكانه تلاوة الأبيات دون تردد. وكان يقول إنه أفضل ما كتب من شعر، وأنه لا وجود لما يمكن مقارنته به حتى في اللغة الفرنسية، وهي لغة الفنون. ما كانا يتحدثان عن مشاعرهما. لقد كان جان مبادراً، ولكنه غير متوسل أو لجوج، بل أقرب إلى التآخي والمزاح. فإذا ما قبّل يدها عند الوداع، فإنه يفعل ذلك بنظرة تلميذ تنتزع من حركته أي أثر للرومانسية. وإذا ما أعرب عن إعجابه بأحد أثوابها، أو بطبق طعام أعدّته، أو بإحدى دمى عيد الميلاد، يكون لنبرته وقع سخرية يتيح تفسير العبارة بطرق عديدة. وإذا قطف أزهاراً لها أو ساعدها في النزول عن حصان، يفعل ذلك بمرح يحوّل حركة المغازلة إلى اهتمام صديق. ومع ذلك، وعلى سبيل الاحتياط، كانت بلانكا تخبره، كلما أتيحت لها الفرصة، أنها لن تتزوج منه ولو كان في ذلك موتها. فكان جان يبتسم ابتسامة المغوي اللامعة دون أن يعلق بشيء، ولم يكن بإمكان بلانكا إلا أن تلاحظ أنه أكثر وجاهة بكثير من بيدرو الثالث.

ما كانت تعلم أن جان يتجسس عليها. فقد رآها في مناسبات عديدة

تقفز من النافذة وهي ترتدي ملابس الرجال. وكان يتبعها لمسافة من الطريق، ولكنه يرجع خوفاً من أن تفاجئه الكلاب في الظلام. غير أنه استطاع، من خلال الوجهة التي تتخذها، أن يحدد أنها تذهب دوماً باتجاه النهر.

وفي أثناء ذلك، لم يكن ترويبا قد حسم أمره بشأن التشينتشات. ووافق، على سبيل التجربة، على إقامة قفص تُربى فيه عدة أزواج من تلك القوارض، في محاكاة مصغرة للمشروع النموذجي الكبير. وللمرة الأولى رُؤي جان دوساتيني يشمر للعمل. ومع ذلك، انتقلت إلى التشينتشات عدوى مرض خاص بالفئران وماتت جميعها في أقل من أسبوعين. ولم يتمكنوا حتى من دبغ جلودها، لأن فروها صار كامداً وينفصل عن الجلد مثل ريش طيور مبللة بماء ساخن. نظر جان بهلع إلى تلك الجثث متوفة الوبر، بقوائمها المتيبسة وعيونها البيضاء، وقد قوضت أي أمل بإقناع إستيبان ترويبا الذي فقط حماسته إلى صناعة الفراء بعد رؤيته تلك المذبحة.

- إذا ما أصاب الطاعون هذه الصناعة النموذجية، فسوف أنتهي إلى الإفلاس التام - استنتج ترويبا.

وبين طاعون التشينتشات وخروج بلانكا الليلي سراً، أمضى الكونت عدة شهور يضيع وقته. بدأ يضجر من تلك المساعي ويفكر في أن بلانكا لن تلتفت أبداً إلى مفاتنه. ورأى أن تربية القوارض لا أمل لها في أن تتحقق، فقرر أنه من الأفضل تسريع الأمور، قبل أن يظهر من هو أبرع منه ويستحوذ على الميراث. أضف إلى ذلك أن بلانكا بدأت تروقه، فهي الآن أكثرمتانة وذات فتور زاد من إبراز أساليبها كريفية. فقد كان يفضل النساء الهادئات والثريات، ورؤية بلانكا مستلقية على الوسائد تتأمل السماء في موعد القيلولة، يذكره بأمه. حتى إنها كانت تستثير مشاعره في بعض الأحيان. تعلم جان التكهن بتفاصيل صغيرة لا يلحظها الآخرون حين تخطط بلانكا لنزهة ليلية إلى النهر. ففي تلك المناسبات لا تتناول الشابة العشاء، متذرعة بألم في رأسها، وتنسحب إلى حجرتها باكراً، ويكون هناك بريق غريب في عينيها، ويتعرف على نوع من اللهفة والشوق في حركاتها. وفي إحدى الليالي قرر اللحاق بها حتى

النهاية، كي ينتهي من ذلك الوضع الذي يهدد بأن يطول بصورة لانهائية. كان واثقاً من أن لبلانكا حبيب، ولكنه لم يكن يظن أنها علاقة جدية. ولم يكن جان دوساتيني شخصياً يهتم بمسألة العذرية، ولم يفكر في هذا الموضوع عندما قرر طلب يدها للزواج. ما كان يهمه فيها هي أمور أخرى لا تضيع في لحظة متعة على فراش النهر.

بعد أن انسحبت بلانكا إلى حجرتها، ثم تبعتها بقية الأسرة أيضاً، ظل جان دوساتيني جالساً في الصالون في الظلام، متيقظاً لأصوات البيت، إلى أن حان الوقت الذي قدّر أنها ستقفز فيه من النافذة. وعندئذ خرج إلى الفناء ووقف بين الأشجار منتظراً. بقي يتربص في الظل أكثر من نصف ساعة، دون أن يعكر صفو الليل أي شيء غير طبيعي. وحين سئم الانتظار، واستعد للانسحاب، انتبه إلى أن نافذة بلانكا مفتوحة. فأدرك أنها قفزت قبل أن يكمن متربصاً في الحديقة.

ـ *Merde* ـ دمدم بالفرنسية.

ومتضرعاً ألا تنبه الكلاب بنباحها كل من في البيت، وألا تنقض عليه، توجه نحو النهر، عبر الطريق الذي رأى بلانكا تتخذه في مرات سابقة. لم يكن معتاداً على المشي بحذائه الفاخر في الأرض المحروثة، ولا القفز عن صخور واجتياز برك ماء، ولكن الليلة كانت مضيئة، ينيرها قمر مكتمل في السماء ببريق غير معهود، وما إن فارقه الخوف من ظهور الكلاب، حتى بدأ يستمتع ببهاء تلك اللحظة. مشى أكثر من ربع ساعة قبل أن يلمح أول صفوف القصب على الضفة، وعندئذ ضاعف من تنبهه وتقدم بمزيد من الحذر، متوخياً الحرص في خطواته كيلا يدوس أغصاناً يمكن لها أن تكشف وجوده. كان القمر ينعكس على الماء ببريق بلوري، والنسيم يهز القصب وقمم الأشجار بنعومة. وكان يسود المكان صمت تام، فخُيّل إليه للحظة أنه يعيش حلماً، يمشي فيه ويمشي دون أن يتقدم، ويظل طوال الوقت في المكان المسحور نفسه، حيث الزمن متوقف، وحيث يحاول لمس الأشجار التي تبدو في متناول اليد، ولا يجد إلا الفراغ. فكان لا بد له من بذل جهد لاستعادة حالته المعنوية الواقعية والبرغماتية. وعند انعطافة في المشهد، بين صخور رمادية يضيئها

نور القمر، رآهما قريبين إلى حدّ يكاد يتمكن معه من لمسهما. كانا عاريين. وكان الرجل مستلقياً على ظهره، وجهه إلى السماء، وعيناه مغمضتان، ولكنه لم يجد صعوبة في أن يتعرف فيه على الكاهن الجيزويتي الذي ساعد في قداس مأتم بيدرو غارثيا العجوز. فاجأه ذلك. وكانت بلانكا تنام ورأسها مستند إلى بطن حبيبها الأملس والأسمر. وكان ضوء القمر الخفيف ينشر انعكاسات معدنية على جسديهما، حتى إن جان دوساتيني أحس بقشعريرة وهو يرى انسجام بلانكا التي بدت له في تلك اللحظة نموذجاً في الكمال.

احتاج الكونت الفرنسي المتأنق إلى دقيقة تقريباً كي يخرج من حالة الغيبوبة التي أغرقته فيها رؤية العاشقين، وسكون الليل، والقمر وصمت الريف، وإدراكه أن الوضع أخطر مما كان يتصوره. فقد تعرف في وضع العاشقين على استسلام من هما متعارفين منذ أمد طويل. وأدرك أن ذلك الوضع ليس له مظهر مغامرة صيف غرامية، مثلما افترض، وإنما هو أقرب إلى الزواج جسداً وروحاً. لم يكن بإمكان جان دوساتيني أن يعرف أن بلانكا وبيدرو الثالث قد ناما بذلك الوضع في يوم تعارفهما الأول، وأنهما واصلا فعل ذلك كلما أتيح لهما على امتداد تلك السنوات، ولكنه خمن الأمر بغريزته.

دار على عقبيه محاولاً عدم إحداث أدنى ضجة قد تنبههما، وانطلق عائداً وهو يفكر كيف سيواجه المسألة. وعند وصوله إلى البيت كان قد اتخذ القرار بإخبار أبي بلانكا بالأمر، لأنه رأى أن غضب إستيبان تروبيا السريع هو أفضل وسيلة لحل المشكلة، وفكر: «فليحل الوطنيون الأمر في ما بينهم وعلى طريقتهم».

لم ينتظر جان دوساتيني حتى الصباح، بل طرق باب غرفة مضيفه، وقبل أن يتمكن هذا الأخير من الاستيقاظ تماماً من نومه، قص عليه روايته. قال إنه لم يستطع النوم بسبب الحر، وأنه خرج ليشم الهواء، ومشى ساهياً باتجاه النهر، ووجد نفسه هناك أمام المشهد المزعج لعروسه المستقبلية نائمة بين ذراعي الكاهن الجيزويتي الملتحي، عارية تحت ضوء القمر. ارتبك إستيبان ترويبا للحظة، لأنه لم يستطع تخيل ابنته نائمة بين

ذراعي الأب خوسيه دولثي ماريا، ولكنه انتبه على الفور إلى ما حدث، وإلى الحيلة التي كان ضحية لها خلال مأتم العجوز، وإلى أن المغوي لا يمكن أن يكون إلا بيدرو غارثيا الثالث، وأنه سيجعل ابن الكلبة اللعين ذاك يدفع حياته ثمناً لفعلته. ارتدى بنطاله بأقصى سرعة، وانتعل الجزمة، وألقى بندقية الصيد على كتفه وتناول عن الجدار سوط الفارس المعلق.

ـ انتظرني هنا يا سيد ـ قال آمراً الفرنسي الذي لم يكن ينوي بأي حال أن يرافقه.

ركض إستيبان تروبيا إلى الإسطبل وامتطى حصانه دون سرج. كان يزفر من الغيظ، وعظامه الملتحمة تضج من الجهد المبذول، وقلبه يكاد يطفر من صدره. «سأقتلهما معاً»، كان يردد مزمجراً. انطلق مندفعاً على حصانه بالاتجاه الذي حدده له الفرنسي، ولكنه لم يكن بحاجة إلى الوصول حتى النهر، لأنه التقى في منتصف الطريق ببلانكا تترنم وهي عائدة إلى البيت بشعر مشعث وملابس متسخة، وبذلك المزاج السعيد الذي يميز من ليس لديه مزيداً يطلبه من الحياة. حين رأى ابنته، لم يستطع إستيبان تروبيا كبح سوء طبعه، فاندفع نحوها على حصانه وسوطه مرفوع، وضربها دون رحمة، موجهاً إليها ضربة سوط بعد أخرى إلى أن وقعت الفتاة وظلت ممددة على الوحل دون حراك. قفز أبوها عن الحصان، وهزها إلى أن أعادها إلى الوعي وراح يصرخ موجهاً إليها كل الشتائم المعروفة وشتائم أخرى مخترعة في غضب اللحظة.

ـ من هو؟ أخبريني باسمه وإلا قتلتك! ـ هددها.

ـ لن أخبرك أبداً ـ قالت باكية.

أدرك إستيبان تروبيا أن هذا ليس هو الأسلوب النافع للحصول على أي معلومة من ابنته التي ورثت عنه العناد. ورأي أنه تجاوز الحدّ في العقاب، مثلما هي عادته. أركبها على الحصان ورجعا إلى البيت. كانت الغريزة أو ضجة الكلاب قد أيقظت كلارا والخدم الذين وقفوا ينتظرون عند الباب والأنوار كلها مضاءة. الوحيد الذي لم يظهر في أي مكان هو الكونت الذي انتهز فرصة الصخب ليُعدّ حقائبه، وربط الحصانين إلى العربة وذهب خفية إلى فندق القرية.

- ما الذي فعلته يا إستيبان، بالله عليك! - صرخت كلارا حين رأت ابنتها مغطاة بالوحل والدم.

حملت كلارا وبيدرو غارثيا الثاني بلانكا على أذرعهما إلى فراشها. كان الوكيل شاحباً شحوب الموت، ولكنه لم يقل كلمة واحدة. غسلت كلارا ابنتها، ووضعت لها كمادات باردة على الرضوض، وهدهدت لها إلى أن تمكنت من تهدئتها. وبعد أن تركتها تغفو، ذهبت لتواجه زوجها الذي اعتكف في مكتبه، وهناك كان يتمشى غاضباً وهو يوجه ضربات من سوطه إلى الجدران، ويلعن، ويركل قطع الأثاث. وحين رآها، وجه غضبه كله إليها، اتهمها بأنها ربت بلانكا تربية بلا أخلاق، بلا دين، بلا مبادئ، مثل ملحدة فاجرة، وحتى دون وعي لطبقتها، لأنه يمكن تفهم أن تفعل ذلك مع شخص جيد المولد، أما أن تفعله مع فلاح أخرق، ذي دماغ ساخن، بطال، لا نفع فيه لشيء.

- كان عليّ أن أقتله حين هددته! يضاجع ابنتي أنا! أقسم إني سأجده وحين أمسك به سأخصيه، سأقطع خصيتيه، حتى لو كان ذلك آخر ما سأفعله في حياتي، أقسم بأمي أنه سيندم لأنه ولد!

- بيدرو غارثيا الثالث لم يفعل شيئاً لم تفعله أنت نفسك - قالت كلارا عندما تمكنت من مقاطعته - أنت أيضاً ضاجعت نساء عازبات من غير طبقتك. والفرق بينكما أنه فعل ما فعله عن حب. وبلانكا أيضاً.

نظر إليها ترويبا وقد جمدته المفاجأة. وخلال لحظة بدا أن غضبه قد خمد، وأحس أنه موضع سخرية. ولكن موجة دم صعدت إلى رأسه فوراً. فقد السيطرة على نفسه، ووجه لكمة إلى وجه امرأته جعلتها ترتطم بالجدار: انهارت كلارا دون أن تطلق صرخة واحدة. بدا كما لو إستيبان قد استيقظ من غيبوبة، فجثا إلى جانبها باكياً ومتلعثماً باعتذارات وتفسيرات، منادياً إياها بالتسميات العذبة التي لا يستخدمها إلا في اللحظات الحميمة، دون أن يدري كيف استطاع أن يرفع يده عليها، وأنها الشخص الوحيد الذي يهمه، والتي لم يتخلَّ قط عن احترامها حتى في أسوأ لحظات حياتهما المشتركة. رفعها بين ذراعيه، أجلسها بحب على أريكة، بلل منديلاً ليضعه على جبهتها، وحاول جعلها تشرب قليلاً من

الماء. وأخيراً، فتحت كلارا عينيها. كان الدم ينزف من أنفها. وعندما فتحت فمها، بصقت عدة أسنان سقطت على الأرض مع خيط لعاب دامٍ سال على ذقنها وعنقها.

وفور تمكن كلارا على النهوض، دفعت إستيبان جانباً، ووقفت على قدميها بصعوبة وخرجت من المكتب محاولة المشي منتصبة. وفي الجانب الآخر من الباب كان يقف بيدرو غارثيا الثاني، فتمكن من إسنادها في اللحظة التي ترنحت فيها. وحين أحست به كلارا إلى جانبها، غابت عن الوعي. أسندت وجهها المتورم على صدر هذا الرجل الذي كان إلى جانبها في أشد لحظات حياتها صعوبة، وأجهشت بالبكاء. واصطبغ قميص بيدرو غارثيا الثاني بالدم.

لم تعد كلارا إلى التحدث مع زوجها إلى الأبد. وتخلت عن استخدام اسمها كمتزوجة، وخلعت من إصبعها خاتم الزواج الذهبي الفاخر الذي ألبسها إياه هو نفسه قبل عشرين سنة، في تلك الليلة المشهودة التي مات فيها *باراباس* مقتولاً بسكين جزار.

بعد يومين من ذلك، غادرت كلارا وبلانكا الماريات الثلاث ورجعتا إلى العاصمة. وظل إستيبان مُذلاً وغاضباً، وبإحساس أن شيئاً قد انكسر في حياته إلى الأبد.

ذهب بيدرو الثاني ليُوصل سيدته وابنتها إلى المحطة. ومنذ تلك الليلة لم يعد لرؤيتهما، وظل صامتاً ونفوراً. أجلسهما في القطار وبقي واقفاً وقبعته في يده، وخافضاً بصره دون أن يدري كيف يودّعهما. عانقته كلارا. فظل أول الأمر متصلباً ومرتبكاً، ولكن سرعان ما تغلبت عليه مشاعره وتجرأ على تطويقها بذراعيه بخجل، وطبع قبلة غير محسوسة على شعرها. تبادلا نظرة أخيرة من خلال نافذة القطار، وكانت عيون كليهما مغرورقة بالدموع. وصل الوكيل الوفي إلى بيته المبني من آجر، ووضع في صرّة ممتلكاته الضئيلة، ولفّ في منديل المال القليل الذي استطاع توفيره خلال سنوات خدمته تلك وغادر المكان. رآه تروييا يودع الفلاحين ويمتطي حصانه. حاول إيقافه موضحاً له أن ما حدث لا علاقة له هو به، وأنه ليس من العدل أن يفقد عمله وأصدقاءه وبيته وأمنه بسبب ابنه.

ـ لا أريد أن أكون هنا عندما تجد ابني أيها السيد ـ كانت تلك آخر كلمات بيدرو غارثيا الثاني قبل أن ينطلق باتجاه الطريق العام.

كم أحسستُ بالوحدة عندئذ! لم أكن أعرف أن الوحدة لن تغادرني إلى الأبد، وأن الشخص الوحيد الذي سأجده إلى جانبي في ما تبقى من حياتي سيكون حفيدة بوهيمية غريبة الأطوار، ذات شعر أخضر مثل روسا. ولكن هذا لن يحدث إلا بعد سنوات عديدة.

بعد رحيل كلارا، نظرتُ في ما حولي ورأيت وجوهاً كثيرة جديدة في الماريات الثلاث. فرفاق الطريق القدماء ماتوا أو ابتعدوا. ولم تعد معي امرأتي ولا ابنتي. وعلاقتي بابنيَّ ظلت في أدنى الحدود. كانت قد ماتت أمي، وأختي، والنانا الطيبة، وبيدرو غارثيا العجوز. وكانت روسا أيضاً ترد إلى ذاكراتي كألم لا يُنسى. لم يعد بإمكاني الاعتماد على بيدرو غارثيا الثاني الذي ظل يقف إلى جانبي طيلة خمس وثلاثين سنة. أبكتني حالتي. راحت الدموع تسقط وحدها، فأنفضها عني بضربة من يدي، ولكن دموعاً أخرى تأتي. فليذهبوا جميعهم إلى الجحيم! كنت أجوب أنحاء البيت. أمر في الحجرات الخاوية، أدخل غرفة نوم كلارا وأبحث في خزانتها وفي درجها عن شيء كانت تستخدمه، لأقربه من أنفي وأستعيد رائحة نظافتها الخفيفة، ولو للحظة واحدة عابرة. وأتمدد في سريرها، أدفن وجهي في وسادتها، أداعب الأشياء التي تركتها على منضدة الزينة وأشعر أنني حزين بعمق.

بيدرو غارثيا الثالث هو المذنب في كل ما حدث. بسببه ابتعدت بلانكا عني، وبسببه تشاجرتُ مع كلارا، وبسببه غادر بيدرو الثاني الإقطاعية، وبسببه ينظر الفلاحون إليّ بريبة ويتهامسون من وراء ظهري. كان متمرداً على الدوام، وكان عليّ أن أطرده ركلاً منذ البداية. لقد تركتُ الزمن يمر احتراماً لأبيه وجده، فكانت النتيجة أن ذلك المخاطي القذرانتزع مني أعز ما أحبه في العالم. ذهبت إلى مخفر القرية ورشوة رجال الدرك كي يساعدوني في البحث عنه. أمرتهم ألا يسجنوه، بل أن يسلموني إياه دون إثارةُ أي ضجة. وأشعتُ في البار، وفي محل الحلاقة،

وفي النادي، وفي القنديل الأحمر، أن هناك مكافأة لمن يسلّم إليّ الفتى.

- حذار أيها السيد. لا تحقق العدالة بيدك، فالأمور تغيرت كثيراً منذ أزمنة الأخوة سانتشيث - هكذا حذروني. ولكنني لم أُصغِ إليهم. ما الذي يمكن للعدالة أن تفعله في هذه القضية؟ لا شيء.

مضى نحو خمسة عشر يوماً دون أي جديد. كنت أخرج لأجوب الإقطاعية، وأدخل إلى الملكيات المجاورة، وأتجسس على المزارعين. كنت واثقاً من أنهم يخفون الفتى عني. رفعت قيمة المكافأة وهددت رجال الدرك بإقالتهم بتهمة عدم الكفاءة، ولكن ذلك كله كان بلا جدوى. ومع كل ساعة تمر كان غضبي يتفاقم. بدأت أشرب بطريقة لم أقدم عليها من قبل قط، ولا حتى في سنوات عزوبتي. وكنت أنام بصورة سيئة وأعود للحلم بروسا. وفي إحدى الليالي حلمتُ بأنني أضربها مثلما ضربت كلارا، وأن أسنانها تدحرجت على الأرض أيضاً، فاستيقظتُ صارخاً، ولكنني كنت وحيداً ولا يمكن لأحد سماعي. كنت في حالة من الانحطاط المعنوي تخليتُ معها عن حلاقة ذقني، ولم أعد أبدل ملابسي، وأظن أنني لم أكن استحم أيضاً. كان الطعام يبدو لي حامضاً، وكنت أشعر بطعم المرارة في فمي. كسرت مفاصل أصابعي وأنا أضرب الجدران، وأجهدت حصاناً حتى التفزر وأنا أعدو عليه للتخلص من الغضب الذي ينهش أحشائي. لم يكن هناك من يقترب مني في تلك الأيام، وكانت الخادمات يقدمن لي الطعام وهن يرتجفن، فيزيد ذلك من غضبي.

وفي أحد الأيام كنت في الممر، أدخن سيجارة قبل القيلولة، عندما اقترب صبي أسمر ووقف قبالتي بصمت. كان اسمه إستيبان غارثيا. وكان حفيدي، ولكنني لم أكن أعرف ذلك، والآن فقط، بعد الأحداث الرهيبة التي وقعت وكان هو فاعلها، علمت بأمر القرابة التي تربط بيننا. وكان أيضاً حفيد بانتشا غارثيا، إحدى أخوات بيدور الثاني، والتي لا أتذكرها في الواقع.

- ما الذي تريده أيها المخاطي؟ - سألتُ الصبي.

- أنا أعرف مكان بيدرو غارثيا الثالث - أجابني.

قفزتُ بعنف قلبتُ معه كرسي الخيزران الذي كنت أجلس عليه، أمسكت الصبي من كتفيه وهززته.

ـ أين؟ أين هو ذلك اللعين؟ ـ صرخت به.

ـ هل ستعطيني المكافأة أيها السيد؟ ـ تلعثم الصبي بذعر.

ـ ستحصل عليها! ولكنني أريد التأكد أولاً من أنك لا تكذب عليّ. هيا، خذني إلى مكان ذلك التعيس!

ذهبتُ بحثاً عن بندقيتي وخرجنا. أشار عليّ الصبي أنه لا بد لنا من الذهاب على حصان، لأن بيدرو غارثيا الثالث يختبئ في منشرة آل ليبوس، على بُعد عدة أميال من الماريات الثلاث. كيف لم يخطر لي أنه قد يكون هناك؟ إنه مخبأ مثالي. ففي هذه الفترة من السنة تكون منشرة الألمان مغلقة، وهي بعيدة عن كل الدروب.

ـ كيف علمتَ أن بيدرو غارثيا الثالث موجود هناك؟

ـ الجميع يعرفون ذلك أيها السيد، باستثنائك أنت ـ أجابني.

انطلقنا خبباً، لأنه لا يمكن العدو بسرعة في تلك الأراضي. فالمنشرة تقوم عند خاصرة الجبل، وهناك لا يمكن إجبار البهائم على الجري السريع. وفي أثناء الصعود المجهد كانت سنابك الحصانين تطلق شرراً من احتكاكها بالصخور. وأظن أن وقع خطوات الخيل هو الصوت الوحيد الذي كان يُسمع في ذلك الأصيل الحار والهادئ. لدى الدخول في المنطقة الغابية تبدل المشهد وصار الجو أبرد، لأن الأشجار تنتصب في صفوف متراصة، تمنع نفاذ ضوء الشمس. كانت الأرض سجادة ضاربة إلى الحمرة ووثيرة تغوص فيها حوافر الحصانين بطراوة. عندئذ أحاطنا الصمت. كان الصبي يمضي في المقدمة، ممتطياً حصانه دون سرج، ملتصقاً بالدابة كما لو أنه جزء من جسدها، وكنتُ أمضي وراءه صامتاً أجتر غضبي. كان الحزن يداهمني للحظات، وكان أقوى من الغضب الذي احتضنته لوقت طويل، وأقوى من الحقد الذي أكنه لبيدرو غارثيا الثالث. لابد أن ساعتين تقريباً قد انقضتا قبل أن نلمح عنابر منشرة الأخشاب القائمة على شكل نصف دائرة في فسحة في الغابة. كانت رائحة الخشب والصنوبر قوية جداً في ذلك المكان، حتى إنها أنستني

للحظة الهدف من رحلتي تلك. فقد استحوذ عليّ المشهد، والغابة، والسكون. ولكن ذلك الضعف لم يستمر لأكثر من ثانية واحدة.

- انتظر هنا واحرس الحصانين. لا تتحرك.

ترجلت. تناول الصبي أعنة الحيوان، وانطلقتُ محترساً والبندقية مهيأة بين يدي. لم أكن أشعر بسنوات عمري الستين، ولا بآلام عظامي المنهوكة. كنت أتقدم مدفوعاً بفكرة الانتقام. كان يتصاعد من أحد العنابر عمود دخان خفيف، ورأيت حصاناً مربوطاً عند الباب، فاستنتجت أن بيدرو الثالث يجب أن يكون هناك. توجهت نحو العنبر في حركة التفافية. كانت أسناني تصطك من نفاد الصبر، وكنت أفكر في أنني لا أريد قتله من الطلقة الأولى، لأن ذلك سيكون سريعاً جداً وستنتهي متعتي في دقيقة واحدة، لقد انتظرتُ طويلاً واريد ان اتلذذ بتقطيعه إرباً، ولكن لا يمكنني كذلك أن أوفر له فرصة للهرب. إنه أصغر مني بكثير، وإذا لم أتمكن من مفاجأته فسوف أتخوزق. كان قميصي مبللاً بالعرق وملتصقاً بجسمي، وكانت تغطي عينيّ غشاوة، ولكنني كنت أشعر كما لو أنني في العشرين من عمري وأن لي قوة ثور. دخلت إلى العنبر متسللاً بصمت، كان قلبي يخفق كأنه طبل. وجدت نفسي في عنبر فسيح تغطي أرضه نشارة الخشب. كانت هناك أكوام كبيرة من الخشب، وآلات مغطاة بقماش مشمع أخضر لحمايتها من الغبار. تقدمت متخفياً بين أكوام الخشب إلى أن رأيته فجأة. كان بيدرو غارثيا الثالث مضطجعاً على الأرض ورأسه مستند إلى بطانية ملفوفة، كان نائماً. وكان إلى جانبه موقد جمر على بعض الأحجار وفوقه علبة فيها ماء يغلي. توقفت متأهباً واستطعت تفحصه على هواي، وبكل ما في الدنيا من حقد، محاولاً أن اثبّت في ذاكرتي إلى الأبد ذلك الوجه الأسمر ذي الملامح الطفولية، حيث تبدو اللحية أشبه بقناع تنكر، دون أن أفهم أية شياطين رأتها ابنتي في ذي الشعر الكثيف العادي ذاك. كان في حوالي العشرين من عمره، ولكن رؤيته نائماً جعلته يبدو صبياً صغيراً. كان عليّ أن أبذل مجهوداً عظيماً لأتحكم بارتجاف يدي وأسناني. رفعت البندقية وتقدمت خطوتين. صرت قريباً جداً إلى حدّ يتيح لي تفجير رأسه

دون تصويب، ولكنني قررت الانتظار بضع ثوان كي يهدأ نبضي. وقد كانت لحظات التردد تلك سبب ضياعي. أظن أن عادة التخفي قد أرهفت حاسة سمع بيدرو غارثيا الثالث، وأن الغريزة نبهته إلى الخطر. لا بد أنه عاد إلى الوعي خلال جزء من الثانية، ولكنه أبقى عينيه مغمضتين، وكل عضلاته متأهبة، وأوتاره مشدودة، وركّز كل ما لديه من طاقة في قفزة هائلة أوصلته في اندفاعة واحدة إلى الوقوف على بعد متر عن المكان الذي ارتطمت فيه طلقتي. لم يُتح لي الوقت للتصويب من جديد، لأنه انحنى، وتناول قطعة خشب ورماني بها فأصابت البندقية مباشرة وطوحت بها بعيداً. أتذكر أنني أحسست بموجة ذعر حين وجدت نفسي أعزل من السلاح، ولكنني انتبهت فوراً إلى انه أشد مني خوفاً. كان كل منا يتفحص الآخر بصمت، وكنا نلهث، وكل واحد ينتظر أول حركة من الآخر كي يقفز. عندئذ رأيت الفأس. كانت قريبة جداً يمكنني الوصول إليها بمجرد مدّ ذراعي، وهذا ما فعلته دون أن أفكر في الأمر مرتين. تناولت الفأس، وبصرخة متوحشة خرجت من أعماق أحشائي، انقضضتُ عليه مستعداً لشطره من أعلى إلى أسفل بضربة واحدة. لمعت الفأس في الهواء وهوت على بيدرو غارثيا الثالث. فانفلتت دفقة دم إلى وجهي.

لقد رفع ذراعيه في اللحظة الأخيرة ليوقف الفأس، فقطعت شفرتها ثلاث من أصابع يده اليمنى. ونتيجة الجهد المبذول وجدتني اندفع إلى الأمام وأسقط على ركبتي. ثبّت هو يده إلى صدره وخرج راكضاً، انقلب فوق أكوام الخشب والجذوع الملقاة على الأرض، وتمكن من الوصول إلى حصانه، فامتطاه بقفزة واحدة واختفى بصرخة رهيبة بين ظلال أشجار الصنوبر مخلفاً وراءه نثارة من بقع الدم.

ظللتُ جاثياً على أربع على الأرض وأنا ألهث. احتجتُ إلى عدة دقائق كي أستعيد هدوئي وأدرك أنني لم أقتله. كان ردّ فعلي الأول هو الإحساس بالراحة، لأنني حين شعرت بالدم الدافئ يصفع وجهي، تبدد حقدي فجأة وكان عليّ أن أبذل مجهوداً كي أتذكر لماذا أردت قتله، كي أسوغ العنف الذي كان يخنقني، يفجر صدري، يرن في مسمعي،

يفبش بصري. فتحت فمي بيأس، محاولاً إدخال هواء إلى رئتيّ، وتمكنت من النهوض واقفاً، لكنني بدأت أرتجف، تقدمتُ خطوتين ووقعت جالساً على كومة من ألواح الخشب، كنتُ دائخاً، وبلا قدرة على استعادة إيقاع تنفسي. ظننت أنني سأغيب عن الوعي، وكان قلبي يتقافز في صدري مثل آلة أصابها الجنون. لا بد أن وقتاً طويلاً قد انقضى، لست أدري مداه. وأخيراً رفعت نظري، ونهضت وبحثت عن البندقية.

كان الصبي إستيبان غارثيا إلى جانبي، ينظر إليّ بصمت. وكان قد جمع الأصابع المبتورة وحملها كباقة هليون دامية. لم أستطع تجنب الإحساس بالغثيان، كان فمي ممتلئاً باللعاب، تقيأت ملوثاً حذائي، بينما الصبي يبتسم بلامبالاة.

ـ أفلتها من يدك أيها المخاطي القذر! ـ صرخت وأنا أضربه على يده.

سقطت الأصابع على نشارة الخشب وصبغتها بالأحمر.

تناولت البندقية وتقدمت باتجاه المخرج مترنحاً. صفع وجهي هواءُ الغروب البارد وعبق الصنوبر الزخم، وأعاد إليّ الإحساس بالواقع. تنفست بنهم، وبجرعات هواء كبيرة. مشيت نحو حصاني بجهد كبير، كنت أشعر بألم في كل أنحاء جسدي، وكانت يداي متشنجتان. ولحق الصبي بي.

رجعنا إلى الماريات الثلاث ونحن نبحث عن طريقنا في الظلام الذي خيم سريعاً بعد غياب الشمس. كانت الأشجار تعرقل سيرنا، وكان الحصانان يتعثران بالأحجار والنباتات المتشابكة، وكانت الأغصان تصفعنا لدى المرور. لقد كنت كمن هو في عالم آخر، مشوشاً ومرعوباً من عنفي، وكنت أشعر بالامتنان لأن بيدرو الثالث تمكن من الفرار، لأنني كنت واثقاً من أنه لو وقع أرضاً لواصلتُ ضربه بالفأس حتى قتله، تمزيقه، تقطيعه إلى نتف صغيرة بالتصميم نفسه الذي كنت سأقتله فيه بطلقة في الرأس.

أنا أعرف ما الذي يقولونه عني. فمن بين الأشياء التي يشيعونها أنني قتلتُ رجلاً أو عدة رجال في حياتي. لقد ألصقوا بي موت بعض الفلاحين. هذا غير صحيح. ولو أنني فعلت ذلك لما توانيت عن الاعتراف به، لأنه لم

يعد بالإمكان معاقبتي بعد هذه السن التي بلغتها. فلم يعد أمامي الآن سوى القليل كي أُدفن. ولكنني لم أقتل رجلاً قط، وأكثر مرة كنت قريباً من فعل ذلك هي في ذلك اليوم الذي تناولت فيه الفأس وانقضضت على بيدرو غارثيا الثالث.

وصلنا إلى البيت ليلاً. ترجلتُ بمشقة عن الحصان وسرت باتجاه الشرفة. كنت قد نسيت تماماً الصبي الذي يرافقني، لأنه لم يفتح فمه طوال الطريق، ولهذا فوجئتُ حين أحسست به يشد كمي.

- هل ستعطيني المكافأة يا سيدي؟ - سألني.

أبعدته بلطمة من يدي.

- لا وجود لمكافأة للخونة الوشاة. آه! ولكنني أمنعك من إخبار أحد بما حدث! هل فهمتني؟ - قلتُ مزمجراً.

دخلتُ إلى البيت وذهبت مباشرة لشرب جرعة من الزجاجة مباشرة. أحرق الكونياك حلقي وأعاد إليّ شيئاً من الدفء. استلقيت بعد ذلك على الأريكة وأنا ألهث. كان قلبي لا يزال ينبض باضطراب، وكنت دائخاً. وبظاهر يدي مسحت الدموع التي انزلقت على خديّ.

وفي الخارج، بقي إستيبان غارثيا أمام الباب المغلق، وكان مثلي، يبكي من الغضب.

الفصل السابع

الأخوان

وصلت كلارا وبلانكا إلى العاصمة بمظهر منكوبتين في حالة يرثى لها. كان وجه كلتيهما متورماً، وأعينهما محمرة من البكاء، وثيابهما مجعدة من الرحلة الطويلة في القطار. كانت بلانكا، وهي أضعف من أمها، على الرغم من أنها أطول قامة وأكثر منها شباباً ووزناً، تتنهد وهي مستيقظة، وتنتحب وهي نائمة، في تأوه لا ينقطع ومستمر منذ اليوم الذي ضُربت فيه. أما كلارا فلم يكن لها صبر على النكبة، ولهذا، ما إن وصلت إلى بيت الناصية الكبير الذي كان خاوياً وكئيباً مثل قبر، حتى قررت أنه يكفي تباكٍ وشكوى، وأن الوقت قد حان للبهجة في الحياة. فأجبرت ابنتها على مساعدتها في مهمة التعاقد مع خدم جدد، وفتح النوافذ، ورفع الملاءات التي تغطي الأثاث وأغطية المصابيح، وأقفال الأبواب، ونفض الغبار وإتاحة المجال لدخول الضوء والهواء. وكانتا منهمكتين في هذه المهمات عندما اجتاحت البيت رائحة البنفسج البري التي لا يمكن الخطأ فيها، وهكذا عرفتا أن الأخوات مورا الثلاث قد علمن بعودتهما عن طريق التخاطر أو من خلال حس المودة ببساطة، وجئن لزيارتهما. وتوصلن بثرثرتهن السعيدة، وكمادات الماء البارد، ومواساتهن الروحية، وفتنتهن الطبيعية، إلى جعل الأم والابنة تستردان عافيتهما من رضوض الجسد وآلام الروح.

- علينا شراء طيور جديدة - قالت كلارا وهي تنظر من خلال النافذة إلى الأقفاص الفارغة والحديقة المتشابكة، حيث تماثيل الأولمب تنتصب عارية وملطخة بذرق الحمام.

- لا أدري كيف يمكنك التفكير في الطيور يا أماه وأنت بلا أسنان - قالت بلانكا التي لم تتعود على وجه أمها الجديد الأدرد.

وزعت كلارا وقتها لكل شيء. فخلال أسبوعين كانت الأقفاص القديمة قد امتلأت بطيور جديدة، وأوصت على أن تصنع لها تعويضات

سنية من الخزف، تُثبت في مكانها بآلية بارعة بشبكها بالأضراس المتبقية في فمها، ولكن تبين أن الجهاز غير مريح إلى حدّ فضلت معه أن تحمل الأسنان المستعارة معلقة بشريطة حول عنقها. ولم تكن تضعها في فمها إلا لتأكل، وخلال اللقاءات الاجتماعية أحياناً. أعادت كلارا الحياة إلى البيت. أمرت الطاهية بإبقاء الموقد مشتعلاً على الدوام وطلبت منها أن تكون مستعدة لإطعام عدد متبدل من الضيوف. وكانت تعرف لماذا تقول ذلك. فبعد أيام قليلة بدأ يتوافد أصدقاؤها أتباع وردة الصليب، والروحانيون، والصوفيون، والمداوون بالوخز بالإبر، والتخاطريون، وصانعو المطر، والمشيئيون، ومجيئيو اليوم السابع، والفنانون المحتاجون أو المنكوبون، وباختصار، جميع أولئك الذين يشكلون بطانتها عادة. وكانت كلارا تسود بينهم كملكة صغيرة سعيدة وبلا أسنان. وفي تلك الفترة بدأت محاولاتها الجدية الأولى للتواصل مع المريخيين، وخامرتها أولى الشكوك، مثلما كتبت هي نفسها، حول منشأ الرسائل الروحانية التي تتلقاها من خلال البندول أو منضدة قوائم الثلاث. وكثيراً ما سُمعت تقول ربما أنها لم تكن أرواح الموتى الهائمة في بُعد آخر، وإنما هي ببساطة كائنات من كواكب أخرى تحاول إقامة علاقة مع سكان الأرض، ولكن واقع كونهم من مادة غير محسوسة، يجعل من السهل الخلط بينهم وبين الأرواح. وقد فتن هذا التفسير العلمي نيكولاس، ولكنه لم يلق قبولاً لدى الأخوات مورا الثلاث اللاتي كن محافظات جداً.

عاشت بلانكا على هامش تلك الشكوك. فكائنات الكواكب الأخرى، في نظرها، يدخلون في مرتبة الأرواح، ولا يمكن لهم بالتالي تفهم شغف أمها والآخرين في تحديد هويتهم. كانت مشغولة بشؤون البيت، لأن كلارا أهملت المسائل المنزلية بحجة أنها لم تشعر بميل إليها قط. وكان بيت الناصية الكبير بحاجة إلى جيش من الخدم للحفاظ عليه نظيفاً، وبطانة أمها تتطلب ورديات متواصلة في المطبخ. إذ لا بد من طهو حبوب وأعشاب لبعضهم، وخضار وسمك نيء لآخرين، وفواكه ولبن حامض للأخوات مورا الثلاث، وأطباق لحم متوسطة الشي وحلويات وسموم أخرى لخايمي ونيكولاس اللذين يتمتعان بشهية لا ترتوي، ولم يتوصلا بعد

إلى هوسهما الخاص. فمع مرور الزمن، سيعاني كلاهما الجوع: خايمي تضامناً مع الفقراء، ونيكولاس لتطهير روحه. ولكنهما كانا لا يزالان في ذلك الحين مجرد شابين قويين ومتلهفين للاستمتاع بملذات الحياة.

كان خايمي قد دخل الجامعة بينما هام نيكولاس على وجهه باحثاً عن قدره. وكانت لديهما سيارة خرافية، اشترياها بحصيلة الصواني الفضية التي سرقاها من بيت أبويهما. وقد عمّداها باسم ***كوفادونغا***، تكريماً لذكرى جديهما دل باييه. وقد جرى تفكيك ***كوفادونغا*** وتركيبها عدة مرات بقطع تبديل أخرى، حتى إنها نادراً ما كانت تستطيع السير. وحين تتزحزح من مكانها تفعل ذلك بضجة محرك صدئ، وتبصق دخاناً وعفونة من أنبوب عادمها. وكان الأخوان يتقاسمان استخدامها بطريقة سليمانية: الأيام الزوجية لخايمي والفردية لنيكولاس.

صارت كلارا سعيدة بالعيش مع ابنيها وتأهبت لبدء علاقة صداقة معهما. فقد كان اتصالها بهما قليلاً في طفولتهما. وأثناء السعي لأن «يصيرا رجلين»، فقدت أفضل ساعات يمكن قضاءها مع ابنيها بتحفظها على كل أشكال الحنان. وبعد أن وصلا الآن إلى حجمهما كبالغين، وتحولهما إلى رجلين أخيراً، صار بإمكانها تدليلهما مثلما كان عليها أن تفعل حين كانا صغيرين. ولكن الوقت قد فات، لأن التوءمين ترعرعا دون مداعباتها وانتهى بهما الأمر إلى الاستغناء عنها. أحست كلارا أنهما لا ينتميان إليها. ولكنها لم تفقد عقلها ولا طيب مزاجها. تقبلت الشابين مثلما هما، وتأهبت للاستمتاع بحضورهما دون أن تطلب مقابلاً لذلك.

أما بلانكا فكانت تتذمر لأن أخويها حولا البيت إلى مزبلة. يخلف مرورهما نثاراً من الفوضى والصخب والتكسير. وكانت الفتاة تزداد ضخامة بصورة ظاهرة للعين المجردة، وتبدو في كل يوم أشد خمولاً وتعكر مزاج. أمعن خايمي النظر إلى بطن أخته، وهرع إلى أمه.

- أظن أن بلانكا حبلى يا أماه - قال دون مقدمات.

- كنتُ أتصور ذلك يا بني - قالت كلارا متنهدة.

لم تنكر بلانكا الأمر، وبعد أن تأكد الخبر، دونته كلارا بخط بديع في دفتر تدوين الحياة. ورفع نيكولاس رأسه عن بروج الطالع

الصينية وأشار إلى أنه لا بد من إخبار الأب بالأمر، لأنه لن يكون بالإمكان إخفاء المسألة بعد أسبوعين، وسوف يعلم الجميع بذلك.

- لن أقول أبداً من هو الأب! - قالت بلانكا بحزم.

- لست أعني أبا الطفل، وإنما أبونا - قال أخوها - فمن حق أبينا أن يعرف الخبر منا، قبل أن يخبره به شخص آخر.

- ابعثوا برقية إلى الريف - اقترحت كلارا بأسى. فقد كانت تدرك أنه فور علم إستيبان تروبيا بالخبر، سيتحول طفل بلانكا إلى مأساة.

صاغ نيكولاس الرسالة بروحية الكتابة المشفرة نفسها التي يكتب بها الأشعار لآماندا، كيلا تتمكن عاملة التلغراف في القرية من فهم البرقية وتنشر الإشاعة: «بيضاء حامل. أرسل تعليمات. انتهى». ومثله مثل عاملة التلغراف، لم يستطع إستيبان تروبيا حل رموز البرقية واضطر إلى الاتصال هاتفياً بالبيت في العاصمة كي يعرف الموضوع. وكان على خايمي أن يوضح له ذلك، وأضاف أن الحمل متقدم إلى حدّ لا يمكن معه التفكير في أي حلّ صارم. خيم صمت طويل ورهيب في الجانب الآخر من الخط، ثم أغلق أبوه السماعة. وفي الماريات الثلاث، تناول إستيبان تروبيا عكازه وقد شحب لونه من المفاجأة والغضب، وحطم الهاتف للمرة الثانية. لم يخطر بباله قط أنه يمكن لابنته أن ترتكب مثل تلك الفظاعة المريعة. ولأنه كان يعرف من هو الأب، لم يحتج لأكثر من ثانية واحدة كي يندم لأنه لم يقتله برصاصة في رأسه عندما توفرت له الفرصة. وكان واثقاً من أن الفضيحة عندما تضع ابنته ابن زنا ستكون هي نفسها إذا تزوجت من ابن فلاح: فالمجتمع سيحكم عليها بالإقصاء في الحالتين.

أمضى إستيبان تروبيا عدة ساعات وهو يطوف في أنحاء البيت بخطوات واسعة، موجهاً ضربات بعكازه إلى الأثاث والجدران، ومتمتماً من بين أسنانه بالشتائم، ومفكراً في خطط خيالية، بدءاً من إرسال بلانكا إلى دير في إستريمادورا وحتى قتلها ضرباً. وأخيراً، عندما هدأ قليلاً، ووردت إلى ذهنه فكرة خلاص. أمر بأن يُسرج حصانه وانطلق به إلى القرية.

وجد جان دوساتيني يرتشف عصير شمام دون سكر في محل الحلوى الوحيد في القرية، ولم يكن قد رآه منذ ليلة النحس التي أيقظه فيها

ليخبره بغراميات بلانكا، وكان برفقة جان في المحل ابن إنداليثيو أغيراثابال، وهو متفنج متأنق له صوت حاد ويترنم بإلقاء أشعار روبين داريو. ودون أي احترام، أنهض تروبيا الكونت الفرنسي من ياقة سترته الاسكتلندية الأنيقة وأخرجه من محل الحلويات محمولاً تقريباً أمام أنظار الزبائن الآخرين الذاهلة، وأوقفه في منتصف الرصيف.

- لقد تسببت لي ما يكفي من المشاكل أيها الشاب. أولاً بتشينتشاتك اللعينة وبعد ذلك بموضوع ابنتي. لقد تعبتُ كفاية. اذهب وجمع أمتعتك، لأنك ستذهب معي إلى العاصمة. وستتزوج من بلانكا.

لم يمنحه ما يكفي من الوقت للخروج من المفاجأة. رافقه إلى فندق القرية، حيث انتظره والسوط في إحدى يديه والعكاز في اليد الأخرى، بينما جان دوساتيني يعدّ حقائبه. ثم أخذه إلى المحطة، وأصعده إلى القطار دون احترام. وخلال الرحلة، حاول الكونت أن يوضح له أن لا علاقة له بهذه المسألة وأنه لم يلمس بلانكا تروبيا يوماً ولو بإصبعه، وربما يكون المسؤول عما حدث هو الكاهن الملتحي الذي كانت بلانكا تلتقي به ليلاً على ضفة النهر. فصعقه إستيبان تروبيا بنظرة صارمة، وقال له:

- لستُ أدري عمّ تتكلم يا بني. فهذا الذي تقوله ليس إلا حلماً رأيته.

وبادر تروبيا إلى شرح بنود عقد الزواج، مما طمأن الفرنسي كثيراً. فدوطة بلانكا، ودخلها الشهري، والأمل بوراثتها ثروة طائلة، تجعل منها صفقة جيدة.

- وهذه الصفقة كما ترى أفضل بكثير من تجارة التشينتشات - أنهى الحمو المقبل كلامه دون أن يولي اهتماماً لتباكي الشاب العصبي.

وهكذا وصل إستيبان تروبيا إلى بيت الناصية الكبير يوم السبت، ومعه زوج لابنته مفتضة البكارة، وأب لابن الزنا الصغير. كان يطلق شرراً من الغضب. وبضربة من يده قلب أزهار الأقحوان التي عند المدخل، ووجّه صفعة إلى نيكولاس الذي حاول التدخل لشرح الوضع، وأعلن صارخاً أنه لا يريد رؤية بلانكا وأنها يجب أن تظل محبوسة في حجرتها حتى يوم زفافها. لم تخرج كلارا لاستقباله. ظلت في حجرتها ولم تفتح له حتى بعد أن حطم عكازه الفضي على الباب.

دخل البيت في زوبعة نشاطات ومشاجرات. بدا الهواء فيه خانقاً، وحتى الطيور صمتت في أقفاصها. كان الخدم يركضون تحت إمرة هذا السيد الجزع والفظ الذي لا يقبل تباطأ في تنفيذ رغباته. واصلت كلارا حياتها بالطريقة نفسها متجاهلة زوجها ورافضة التكلم معه. أُنزل العريس، وهو أسير عمه المقبل عملياً، في إحدى حجرات الضيوف العديدة، حيث قضى أيامه يدور دون أن يكون لديه ما يفعله، ودون أن يرى بلانكا، ودون أن يفهم كيف انتهى به الأمر إلى هذه القصة المتسلسلة. لم يكن يدري إذا كان عليه أن يرثي لحاله كضحية لأولئك الوطنيين الهمجيين أم أن يبتهج لتمكنه من الزواج بوارثة أمريكية جنوبية شابة وجميلة. ولأنه كان متفائل المزاج وذو حس عمليّ كحال أبناء جنسه، فقد آثر الخيار الثاني، وراح يستعيد طمأنينته خلال ذلك الأسبوع.

حدد إستيبان ترويبا موعد الزفاف بعد خمسة عشر يوماً. وقرر أن أفضل طريقة لتفادي الفضيحة هي الخروج لمواجهتها بحفلة زفاف خارقة. أراد رؤية عقد قران ابنته على يد مطران، وبثوب أبيض ذي ذيل طوله ستة أمتار يرفعه صبيان وبنات، ونشر صورتها في صفحة الأخبار الاجتماعية في الجريدة. كان يريد حفلة كاليغولية وكثيراً من البهرجة، ونفقات باذخة لا يتمكن معها أحد من تدقيق النظر إلى بطن العروس. وكان جان دوساتيني هو الوحيد الذي ثنّى على خططه.

ويوم استدعى إستيبان ترويبا ابنته ليرسلها إلى الخياط كي تجرب ثوب الزفاف، كانت أول مرة يراها منذ الليلة التي ضربها فيها. ارتعب لرؤيتها سمينة وللببقع التي على وجهها.

ـ لن أتزوج يا أبتاه ـ قالت.

ـ اخرسي! ـ قال مزمجراً ـ. ستتزوجين لأنني لا أريد أبناء زنا في الأسرة. هل تسمعينني؟

ـ كنت أظن أن لدينا كثيرين منهم ـ ردّت بلانكا.

ـ لا تجيبيني! أريدك أن تعرفي أن بيدرو غارثيا الثالث قد مات. لقد قتلته بيديّ، فانسيه وحاولي أن تكوني جديرة بالرجل الذي سيقودك إلى مذبح الكنيسة.

انفجرت بلانكا في البكاء، وظلت تبكي دون كلل في الأيام التالية.

الزفاف الذي لم ترغب فيه بلانكا عُقد في الكاتدرائية الكبرى، بمباركة المطران، وبثوب ملكة صنعه أفضل خيّاط في البلاد، وقد اجترح معجزات ليخفي بطن العروس المنتفخ بملء الثوب بسيل متساقط من الزهور والثنيات الإغريقية الرومانية. وكانت ذروة الزفاف في مأدبة مهيبة، حضرها خمسمئة مدعو بملابس احتفالية رسمية، اقتحموا بيت الناصية الكبير، مع فرقة موسيقيين مأجورين، وكميات هائلة من لحوم الشواء المتبلة بأعشاب عطرة، وأصداف بحرية طازجة، وكافيار من البلطيق، وسلمون نرويجي، وطيور محشوة، وسيل من المشروبات الغريبة، وتدفق من الشمبانيا، وكميات هائلة من حلوى التنهدات والألف رقاقة والإكلاريس المغطاة بمسحوق السكر، وأكواب كريستال كبيرة من الفواكه المجمدة، والفريز الأرجنتيني، وجوز الهند البرازيلي، والبابايا التشيلية، والأناناس الكوبي، ولذائذ أخرى من المستحيل تذكرها، وكل ذلك على منضدة هائلة الطول تمتد ملتفة في الحديقة وتنتهي بقالب حلوى ضخم من ثلاث طبقات، صنعه حلواني إيطالي أصله من نابولي، وصديق لجان دوساتيني، حوّل المواد الأولية البائسة: بيض ودقيق وسكر، إلى محاكاة لأكروبول متوج بسحابة من الكريما حيث يقف عاشقان أسطوريان: فينوس وأدونيس، مصنوعان من عجينة اللوز ومطليان بألوان تحاكي وردية الجسد، وشقرة الشعر، وزرقة العيون الكوبالتية، يرافقهما كيوبيد ممتلئ، وصالح للأكل أيضاً، وجرى قطع القالب الضخم بسكين من فضة أمسك به العريس الفخور والعروس المحزونة.

أما كلارا التي عارضت منذ البدء فكرة إكراه بلانكا على الزواج فقررت عدم حضور الحفلة. وظلت في غرفة الخياطة تحوك نبوءات حزينة للزوجين، تحققت بحذافيرها مثلما تبين للجميع فيما بعد، حتى إن زوجها ذهب يتوسل إليها أن تستبدل ثيابها وتظهر في الحديقة ولو لعشر دقائق فقط، كي تُسكت تهامس المدعوين. ففعلت كلارا ذلك دون رغبة منها، ولكنها وضعت أسنانها الإصطناعية حباً بابنتها، وحاولت الابتسام لجميع الحاضرين.

وصل خايمي مع نهاية الحفلة، لأنه ظل يعمل في مستشفى الفقراء،

حيث بدأ أولى تدريباته كطالب طب. وجاء نيكولاس ترافقه آماندا الجميلة التي اكتشفت سارتر للتو وتبنت مزاج الوجوديين الأوروبيين المشؤوم، فجاءت ترتدي السواد التام، شاحبة، وبعينين عربيتين مخططتين بالكحل، وشعرها الأسود ينسدل مفلتاً حتى خصرها، وبصلصلة عقود وأساور وأقراط تثير صدمة لدى مرورها. وكان نيكولاس من جانبه يرتدي البياض كممرض، ويعلق تمائم حول عنقه. اندفع أبوه لملاقاته، وأمسك بذراعه وقاده بالقوة إلى حمّام، حيث بادر إلى نزع طلاسمه دون تروٍ. وأمره:

ـ اذهب إلى غرفتك وضع ربطة عنق لائقة! وارجع إلى الحفلة وتصرف كسيد محترم! وإياك أن تخطر لك فكرة التبشير بديانة هرطقة بين المدعوين، وقل لهذه الساحرة التي جاءت معك أن تغلق فتحة صدرها!

انصاع نيكولاس باستياء. ومع أنه كان يمتنع عن الشرب مبدئياً، إلا أن الغضب دفعه لشرب بعض الكؤوس، ففقد رشده وألقى بنفسه وهو بملابسه إلى نافورة الحديقة، حيث أخرجوه منها مبلل الوقار.

أمضت بلانكا الليل جالسة على كرسي تتأمل قالب الحلوى بملامح مخبولة وباكية، بينما كان زوجها المشرق يتنقل بين المدعوين مفسراً غياب حماته بنوبة ربو، وبكاء عروسه بتأثرها بالزواج. لم يصدقه أحد. وكان جان دوساتيني يطبع قبلات خفيفة على عنق بلانكا، ويمسك يدها ويحاول مواساتها برشفات من الشمبانيا وقطع من جراد البحر ينتقيها بحب ويقدمها إليها بيده، ولكن دون طائل، لأنها كانت تواصل البكاء. وعلى الرغم من ذلك كله، كانت الحفلة حدثاً كبيراً، مثلما خطط لها إستيبان تروبيا. أكلوا وشربوا بإسراف باذخ وشهدو بزوغ الفجر وهم يرقصون على أنغام الفرقة الموسيقية، بينما كانت جماعات العاطلين عن العمل في مركز المدينة تتدفأ على مواقد صغيرة يحرقون فيها الجرائد، وعصابات شبان بقمصان رمادية يسيرون في عرض عسكري وهم يرفعون أذرعهم بالتحية عالياً، مثلما رأوا في الأفلام عن ألمانيا. وكانت توضع في مقرات الأحزاب السياسية اللمسات الأخيرة على الحملة الانتخابية.

ـ سيكسب الاشتراكيون ـ قال خايمي الذي كان يهلوس لطول معايشته البروليتاريا في مستشفى الفقراء.

ـ لا يا بني، سيكسب من يكسبون دائماً ـ أجابت كلارا التي رأت النتيجة في ورق اللعب، وأكدها حسّها السليم.

عند انتهاء الحفلة، اقتاد إستيبان تروبيا صهره إلى حجرة المكتبة وقدم إليه شيكاً. كانت تلك هدية زفافه. وكان قد رتب كل شيء كي يذهب الزوجان إلى الشمال، حيث يفكر جان دوساتيني في الاستقرار براحة والعيش على إيرادات زوجته، بعيداً عن تعليقات الناس المراقبين الذين لن يتورعوا عن النظر إلى بطنها المنتفخ باكراً. وكانت تدور في ذهنه فكرة المتاجرة بخزف السكان الأصليين ومومياتهم.

وقبل أن يغادر العروسان الحفلة، ذهبا لوداع كلارا التي أخذت بلانكا جانباً، ولم تكن هذه قد توقفت عن البكاء، وكلمتها همساً.

ـ دعك من البكاء يا بنيتي. فكثرة الدموع ستضر بالوليد وربما لن تفيد في إسعادك ـ قالت كلارا.

فردت بلانكا بنشيج جديد.

ـ بيدرو غارثيا الثالث مازال حياً يا بنيتي ـ أضافت كلارا.

ابتلعت بلانكا نحيبها، ونفت أنفها، وسألت:

ـ كيف عرفت ذلك يا أماه؟

ـ لقد حلمتُ به ـ أجابت كلارا.

وكان ذلك كافياً لطمأنة بلانكا تماماً. مسحت دموعها، ورفعت رأسها ولم تعد إلى البكاء حتى اليوم الذي ماتت فيه أمها، بعد سبع سنوات من ذلك، بالرغم من أنها لم تفتقر خلال تلك الفترة إلى الأحزان، والوحدة، ومسوغات أخرى للبكاء.

بعد الفراق بينها وبين ابنتها التي كانت متحدة معها على الدوام، دخلت كلارا في مرحلة أخرى من مراحل تشوشها واكتئابها. واصلت ممارسة الحياة السابقة نفسها في البيت الكبير مشرع الأبواب والممتلئ دائماً بالناس، واجتماعاتها بالروحانيين وسهراتها الأدبية، ولكنها فقدت

القدرة على الضحك بسهولة وكثيراً ما تظل تنظر بثبات إلى الأمام، سارحة في أفكارها. حاولت أن تقيم نظام تواصل مباشر مع بلانكا يتيح لها تجنب تأخر البريد، غير أن التخاطر لا يتحقق دائماً، ولم تكن هناك ضمانة بجودة استقبال الرسالة التخاطرية. واستطاعت التأكد من أن اتصالاتها تختلط بتداخلات غير مسيطر عليها، وتُفهم أمور مختلفة عما أرادت إرساله. أضف إلى ذلك أن بلانكا لم تكن تميل إلى التجارب النفسية، فعلى الرغم من أنها كانت قريبة جداً من أمها على الدوام، إلا أنها لم تُبد أدنى فضول تجاه الظواهر الذهنية. لقد كانت امرأة عملية، دنيوية ومرتابة، وكانت طبيعتها الحديثة والبرغماتية عائقاً كبيراً أمام التخاطر، مما اضطر كلارا إلى الرضوخ لاستخدام الأساليب التقليدية. صارت الأم والابنة تتبادلان الرسائل بصورة شبه يومية، وحلّت مراسلاتهما الغزيزة لعدة شهور محل دفاتر تدوين الحياة. وهكذا كانت بلانكا تعلم بكل ما يحدث في بيت الناصية الكبير، وتستطيع التلاعب بوهم أنها مازالت مع أسرتها وأن زواجها ليس سوى حلم خبيث.

في تلك السنة، افترقت دروب خايمي ونيكولاس وتباعدت بصورة نهائية، لأن الفروق بين الأخوين لم تعد قابلة للمصالحة. كان جديد نيكولاس في تلك الأيام يتمثل في رقص الفلامنكو الذي تعلمه، حسب زعمه، في كهوف الغجر في غرناطة، على الرغم من أنه لم يكن قد غادر البلاد قطّ، ولكن قدرته على الإقناع كانت كبيرة إلى حدّ دفعت أسرته نفسها إلى التشكك. وكان يقدم الدليل عند أدنى استفزاز. يقفز فوق منضدة غرفة الطعام، منضدة خشب السنديان الضخمة التي سجي عليها جثمان روسا للسهر عليه قبل سنوات طويلة، والتي ورثتها كلارا، ويبدأ التصفيق بهياج وضرب المنضدة بقدميه بتشنج، والقفز وإطلاق صرخات حادة إلى أن يتمكن من اجتذاب جميع ساكني البيت، وبعض الجيران، وحتى رجال الدرك في إحدى المناسبات، إذ دخلوا وهم يشهرون هراواتهم، ولوثوا السجاد بوحل أحذيتهم، ولكنهم انتهوا كما الجميع إلى التصفيق وإطلاق صرخة «أولي». وقد تحملت المنضدة ببطولة، وإن بدا مظهرها بعد أسبوع أشبه بمنضدة محل جزارة استخدمت لتقطيع العجول.

لم تكن لرقصة الفلامنكو أي فائدة عملية في مجتمع العاصمة المغلق آنذاك، ولكن نيكولاس نشر إعلاناً غامضاً في الجريدة يعلن فيه عن تقديم خدماته كمعلم لتلك الرقصة النارية. وفي اليوم التالي كانت عنده تلميذة متدربة، وبعد أسبوع انتشرت إشاعة سحره. وتوافدت الفتيات جماعات، كن خجولات وخائفات في البدء، لكنه راح يحوم حولهن، يضرب الأرض بكعبيه، ويطوق خصورهن، ويبتسم لهن بأسلوبه المغوي، وتمكن بعد قليل من تشجيعهن. كانت دروس الرقص نجاحاً باهراً. وكادت منضدة غرفة الطعام أن تتفتت إلى شظايا، فبدأت كلارا تشكو من أوجاع في رأسها، وصار خايمي يقضي الوقت معتكفاً في غرفته، ويحاول أن يدرس وهو يضع كرتي شمع صغيرتين في أذنيه. وعندما علم إستيبان ترويبا بما يجري في البيت خلال غيابه، اجتاحه غضب مريع وعادل، ومنع ابنه من استخدام البيت كأكاديمية لتعليم رقص الفلامنكو أو أي شيء آخر. فاضطر نيكولاس إلى التخلي عن حركاته الملتوية، غير أن التجربة أفادته في التحول إلى الشاب الأوسع شعبية في الموسم، وملك الحفلات وقلوب الفتيات جميعاً. فبينما كان الشبان الآخرون يدرسون، ويلبسون بدلات رمادية متقاطعة الخطوط، ويطلقون الشارب على إيقاع أغنيات البوليرو، كان هو يدعو إلى الحب الحر، ويستشهد بفرويد، ويشرب البيرنود ويرقص الفلامنكو. ومع ذلك، لم يتوصل ذلك النجاح الاجتماعي إلى التقليل من اهتمامه بمهارات أمه النفسية، فكان يحاول محاكاتها دون طائل. كان يدرس بحماسة، ويتدرب إلى حدّ يعرّض معه صحته للخطر، ويحضر لقاءات أيام الجمعة مع الأخوات مورا الثلاث على الرغم من حظر أبيه الحازم الذي يصر على فكرة أن تلك الجلسات ليست من شؤون الرجال. وكانت كلارا تواسيه في إخفاقاته.

- هذه أمور لا يمكن تعلمها ولا توارثها يا بني - كانت تقول له حين تراه يركز بصره حتى الحوَل، في مسعى مجهد لتحريك المملحة دون لمسها.

الأخوات مورا الثلاث كن يحببن الفتى كثيراً. فكن يعرنه الكتب السرية ويساعدنه في حل رموز بروج الطالع وأوراق التنبؤ. ويجلسن حوله

وهن يمسكن بأيدي بعضهن بعضاً كي يخترقنه بسيالات مفيدة، ولكن ذلك لم يفلح أيضاً في تزويد نيكولاس بقدرات ذهنية. وقد حمينه في غرامياته مع آماندا. وبدت الفتاة في البدء مفتونة بمنضدة القوائم الثلاث وبالفنانين طويلي الشعر في بيت نيكولاس، ولكنها مالبثت أن ضجرت من استحضار الأشباح وإلقاء أشعار الشاعر الذي يتداول الجميع أشعاره، ودخلت للعمل في صحيفة ككاتبة تحقيقات.

- هذه مهنة احتيال - أعلن إستيبان ترويبا حين علم بالأمر.

لم يكن ترويبا يشعر بالتعاطف نحوها. ولا تروقه رؤيتها في البيت. ويرى أن لها تأثيراً سيئاً على ابنه، وترادوه فكرة أن شعرها الطويل، وعينيها المكحلتين، وما تحمله من خرز ليست إلا أعراض رذيلة خفية، وأن ميلها إلى خلع الحذاء والجلوس على الأرض متقاطعة الساقين، مثل السكان الأصليين، هي أساليب فتاة مسترجلة.

كانت لأماندا رؤية بالغة التشاؤم للعالم، وتدخن الحشيش من أجل تحمل حالات اكتئابها. وكان نيكولاس يرافقها. وقد لاحظت كلارا أن ابنها يمر بلحظات سيئة، ولكن حدسها العجيب لم يُتح لها الربط بين الغلايين الشرقية التي يدخنها نيكولاس وغيبوباته الهذيانية، وحالات خدره المؤقتة، ونوبات مرحة غير المسوغة، لأنها لم تسمع قط عن ذلك المخدر ولا عن أي مخدر آخر. «إنها شؤون السن، ولا بد أن تنقضي ويتجاوزها»، كانت تقول حين تراه يتصرف كمخبول، دون أن تتذكر أن خايمي قد ولد في اليوم نفسه وليس لديه شيء من تلك الهذيانات.

كان جنون خايمي من نوع مختلف جداً. فهو يميل إلى التضحية والتقشف. لم يكن في خزانة ملابسه سوى ثلاثة قمصان وبنطالين. تقضي كلارا الشتاء وهي تحوك له بتسرع ألبسة من الصوف العادي، كي يظل متدثراً بدفء، ولكنه لا يستخدمها إلا ريثما يلتقي بمن هو بحاجة إليها أكثر منه. وكان كل المال الذي يعطيه أبوه إياه ينتهي إلى جيوب المعوزين الذين يعالجهم في المستشفى. وكلما لحق به كلب هزيل وبارز العظام في الشارع، يؤويه في البيت، وحين يعلم بوجود طفل مهجور، أو أم عزباء، أو مسنة معوزة تحتاج إلى حمايته، يأتي بهم كي

تتولى أمه حل المشكلة. تحولت كلارا إلى خبيرة في العون الاجتماعي، تعرف كافة الخدمات التي تقدمها الدولة والكنيسة، حيث يمكن إيواء المحتاجين، وعندما تُخفق كافة المساعي، تنتهي إلى تقبلهم في بيتها. صارت صديقاتها يخفنها، لأنها كلما جاءت لزيارة إحداهن يكون لديها ما تطلبه على الدوام. وهكذا توسعت شبكة محميي كلارا وخايمي اللذين ما كانا يحسبان أعداد الناس الذين يساعدونهما، حتى إنهما كانا يتفاجآن حين يظهر لهم شخص ليقدم الشكر على صنيع لا يتذكران أنهما قدماه. لقد نظر خايمي إلى دراسته الطب بنوع من الورع الديني. فكان يرى أن أي لهو يبعده عن كتبه أو يضيع وقته بمثابة خيانة للإنسانية التي أقسم على خدمتها. فكانت كلارا تقول: «كان على هذا الولد أن يدخل سلك الرهبنة». ولكن خايمي الذي لم تكن تضايقه نذرالرهبنة في التذلل والبؤس والعفة، كان يرى أن الدين هو سبب نصف مآسي العالم، حتى إنه كان يغضب عندما تبدي أمه رأيها ذاك. فهو يقول إن المسيحية، مثلها مثل الشعوذات كلها تقريباً، تجعل الإنسان أشد ضعفاً واستسلاماً، وإنه لا يتوجب على الناس انتظار الثواب في السماء، وإنما النضال من أجل الحقوق على الأرض. ويناقش مثل هذه الأمور على انفراد مع أمه، لأن عمل ذلك مستحيل مع إستيبان ترويبا الذي يفقد صبره بسرعة، وينتهي به الأمر إلى الصراخ وصفق الأبواب، لأنه ملّ من العيش، على حد قوله، بين مجانين، وأن الشيء الوحيد الذي يريده هو قليل من الاتزان، ولكن سوء حظه جعله يتزوج امرأة غريبة الأطوار وينجب ثلاثة مجانين لا ينفعون في شيء ويملؤون حياته بالمرارة. لم يكن خايمي يجادل أباه. يمر في البيت كشبح، يقبّل أمه قبلة ساهية حين يراها ويتوجه مباشرة إلى المطبخ، فيأكل وهو واقف بقايا طعام الآخرين، ثم يعتكف في حجرته ليقرأ أو يدرس. كانت حجرة نومه سرداب كتب، الجدران كلها مغطاة من الأرض حتى السقف برفوف خشبية مترعة بمجلدات لا ينظفها أحد، لأنه يُبقي الباب مقفلاً بالمفتاح. لقد كانت أعشاشاً مثالية للعناكب والفئران. وفي منتصف الحجرة يوجد سريره، سرير ضيق، يضيئه مصباح عارٍ يتدلى من السقف عند رأس السرير. وخلال هزة أرضية

نسيت كلارا أن تتنبأ بها، سُمع دوي خروج قطارٍ عن سكته، وعندما تمكنوا من فتح الباب، وجدوا السرير مدفوناً تحت جبل من الكتب. فقد انخلعت الرفوف ودُفن خايمي تحتها. أخرجوه دون أن يصاب بخدش واحد. وبينما كانت كلارا ترفع الكتب عنه، تذكرت الزلزال وفكرت في أنها عاشت هذه اللحظة من قبل. وقد أفادت تلك الحادثة في نفض الغبار من السرداب وطرد الحشرات والهوام بضربات المكنسة.

المرات الوحيدة التي كان خايمي يصوب بصره على واقعٍ بيته، هي تلك التي يرى فيها مرور آماندا ممسكة بيد نيكولاس. ونادراً ما كان يتوجه إليها بالكلام، وإذا ما فعلت هي ذلك يحمّر بشدة. كان يرتاب بمظهرها الغريب، وكان مقتنعاً بأنها إذا ما سرحت شعرها مثل الجميع، وأزالت الأصبغة عن عينيها، فإنها ستبدو مثل فأر نحيل وضارب إلى الخضرة. ولكنه لم يكن قادراً مع ذلك على منع نفسه من النظر إليها. فرنين الأساور الذي يرافق الشابة يشغله عن دراسته، ويكون عليه أن يبذل جهداً عظيماً لكبح نفسه عن اللحاق بها عبر البيت مثل دجاجة منوّمة. وحين يكون وحيداً في سريره، لا يتمكن من التركيز على قراءته، ويتخيل آماندا عارية، ملتفة بشعرها الأسود، وبكل صلصلة زيناتها، كأنها إله. لقد كان خايمي متوحداً. ففي طفولته كان نفوراً، وصار في ما بعد رجلاً خجولاً. لم يكن يحب نفسه، وربما شعر بالتالي أنه غير جدير بحب الآخرين. وكان يخجل ويتألم لأدنى قدر من الاهتمام به أو توجيه الشكر إليه. وكانت آماندا تمثل في نظره جوهر كل ما هو أنثوي، وهي في الوقت نفسه جوهر كل ما هو محظور لأنها رفيقة نيكولاس. فشخصية الشابة المرأة الحرة، الودودة، المغامرة تفتنه، ومظهرها كفأر متنكر تستثير فيه لهفة عاصفة لحمايتها. كان يشتهيها بصورة مؤلمة، ولكنه لم يتجرأ قطّ على الاعتراف لنفسه بذلك، ولو في أشد أفكاره سريّة.

واظبت آماندا في ذلك الحين على التردد بكثرة على بيت آل تروييا. فساعات عملها في الجريدة مرنة جداً، وكلما اتيحت لها الفرصة تأتي إلى بيت الناصية الكبير مع أخيها ميغيل، دون أن يلفت حضورهما

الاهتمام فـي ذلك المنزل الممتلئ بالناس والحركة على الدوام. كان ميغيل آنذاك في حوالي الخامسة من عمره، وكان متحفظاً ونظيفاً، لا يثير أي صخب، ولا يشعر بوجوده أحد، كأنه جزء من رسوم ورق الجدران أو من الأثاث، يلعب وحده في الحديقة، ويتبع كلارا عبر أرجاء البيت ويدعوها «ماما». لهذا السبب، ولأنه كان يدعو خايمي «بابا»، افترضوا أن آماندا وميغيل يتيمان. كانت آماندا تتجول دائماً مع أخيها، تأخذه معها إلى عملها، وقد عوّدته على أكل أي شيء، وفي أي وقت، وعلى الاستلقاء للنوم في أقل الأماكن راحة. وكانت تحيطه برقة عاطفية وعنيفة، تداعبه بحك رأسه كما لو كان جرواً، وتصرخ به عندما تغضب ثم لا تلبث أن تهرع لمعانقته. ولم تكن تسمح لأحد بأن يوجه أخاها أو يأمره، ولا تتقبل تعليقات حول الحياة الغريبة التي تحمله على عيشها وتدافع عنه كلبوة، على الرغم من أن أحداً لا ينوي مهاجمته. والشخص الوحيد الذي سمحت له بإبداء الرأي حول تربية ميغيل هو كلارا التي تمكنت من إقناعها بضرورة إرساله إلى المدرسة، كيلا يتحول إلى ناسك أميّ. لم تكن كلارا من أنصار التعليم النظامي تحديداً، ولكنها في حالة ميغيل رأت أنه من الضروري أن تُكرِّس له كل يوم بضع ساعات من الانضباط والتعايش مع أطفال آخرين في مثل سنه. وتولت هي نفسها تسجيله، وشراء لوازمه وزيّه المدرسي، ورافقت آماندا لإيصاله في أول يوم دراسي. وعند باب روضة الأطفال، تعانقت آماندا وميغيل باكيين، دون أن تتمكن المعلمة من فصل الطفل عن تنورة أخته التي تشبث بها بأظفاره وأسنانه وهو يصرخ ويوجه الركلات بيأس لكل من يقترب منه. وأخيراً، تمكنت المعلمة، بمساعدة كلارا، من جرّ الطفل إلى الداخل وأغلقت باب المدرسة خلفها. ظلت آماندا طيلة فترة الصباح جالسة على الرصيف. وظلت كلارا معها لإحساسها بأنها المذنبة في التسبب بكل ذلك الألم، وبدأت ترتاب بحكمة مبادرتها. وعند الظهر، رنّ الجرس وفُتحت البوابة. رأتا خروج قطيع من التلاميذ، وبينهم ميغيل الصغير يمضي بنظام وصمت، بلا دموع، وبشخبرة قلم على أنفه، وبجوربين منزلقين في الحذاء، وقد تعلم في تلك الساعات القليلة أن يمضي في الحياة دون أن

يكون ممسكاً بيد أخته. ضمته آماندا إلى صدرها بهوس، وقالت له بإلهام من اللحظة: «إنني مستعدة لأقدم حياتي من أجلك يا ميفيليتو». ولم تكن تعلم أنها ستضطر إلى فعل ذلك ذات يوم.

في تلك الأثناء كان إستيبان ترويبا يشعر في كل يوم أنه أشد وحدة وسخطاً. أذعن لفكرة أن زوجته لن تبادله الكلام أبداً، وحين ملّ من ملاحقتها في أركان البيت، والتوسل إليها بنظراته، وإحداث ثقوب في جدران الحمام، قرر الانصراف إلى السياسة. ومثلما تنبأت كلارا، فقد كسب الانتخابات من يكسبونها دائماً، ولكن بهامش ضئيل جداً، مما أوقع البلاد في حالة هياج. عندئذ قرر ترويبا أن الوقت قد حان كي يخرج للدفاع عن مصالح الوطن ومصالح الحزب المحافظ، لاسيما وأنه ليس هناك من هو قادر أفضل منه على تجسيد السّياسي النزيه وغير الملوث، مثلما كان يقول هو نفسه، وكان يضيف أنه استطاع النهوض والارتقاء بجهوده، وبتوفيره العمل وظروف الحياة الجيدة لمستخدَميه، وأنه صاحب الإقطاعية الوحيدة التي يسكن فلاحوها بيوتاً من الآجر. وأنه يحترم القانون، والوطن، والتقاليد، ولا يمكن لأحد أن يؤنبه على خطيئة أكبر من التهرب من الضرائب. تعاقد مع وكيل ليحل محل بيدرو غارثيا الثاني وكلفه في الماريات الثلاث بمسؤولية دجاجاته البياضة وأبقاره المستوردة، واستقر نهائياً في العاصمة. كرّس عدة شهور لحملته الانتخابية بدعم من الحزب المحافظ الذي كان بحاجة لأناس يتقدم بهم إلى الانتخابات البرلمانية القادمة، ولثروته التي وضعها في خدمة قضية الحزب. امتلأ البيت بمطبوعات الدعاية السياسية وبأنصاره الذين احتلوه عملياً مختلطين بأشباح الممرات، وجماعة وردة الصليب والأخوات مورا الثلاث. وشيئاً فشيئاً راحت بطانة كلارا تنزاح إلى حجرات البيت الخلفية. وأُقرت حدود غير مرئية تفصل بين القطاع الذي يشغله إستيبان ترويبا والقطاع الذي تشغله زوجته. وبوحي من كلارا ووفقاً لضرورات اللحظة، راحت تنبثق من هندسة البناء الإقطاعي النبيلة غرف ملحقة، وسلالم، وأبراج صغيرة، وعلّيات. ففي كل مرة يتوجب فيها إيواء ضيف جديد، يأتي البناؤون

أنفسهم ويضيفون غرفة أخرى. وهكذا تحول بيت الناصية الكبير إلى ما يشبه المتاهة. فكان نيكولاس يقول:

ـ سيأتي يوم يكون فيه هذا البيت صالحاً للتحول إلى فندق.

ـ أو إلى مستشفى صغير ـ يضيف خايمي الذي بدأت تراوده فكرة إحضار فقرائه إلى الحي الراقي.

ظلت واجهة البيت على حالها دون تغيير. ففي الجهة الأمامية تظهر الأعمدة البطولية والحديقة الفرسايية، أما في الخلف فاختفى الطراز المعماري. فالحديقة الخلفية مجرد دغل متشابك تتكاثر فيه تشكيلة متنوعة من النباتات والأزهار، تتقافز طيور كلارا إلى جانب عدة أجيال من الكلاب والقطط. ووسط مملكة الحيوانات الداجنة تلك، كان الحيوان الوحيد الذي ظل له أثر بارز في ذاكرة الأسرة هو أرنب جاء به ميغيل، أرنب عادي مسكين، كانت الكلاب تلحسه باستمرار إلى أن سقط وبره، وتحول إلى الأرنب الوحيد الأصلع بين أبناء جنسه، يغطيه جلد لامع يمنحه مظهر عظاءة طويلة الأذنين.

ومع اقتراب موعد الانتخابات، كان إستيبان تروبيا يزداد نزقاً. فقد جازف بكل ما يملكه في مغامرته السياسية. وفي إحدى الليالي لم يعد قادراً على التحمل وراح يقرع باب مخدع كلارا. فتحت له الباب. كانت بقميص النوم، وكانت تضع أسنانها الاصطناعية لأنها تحب قضم قطع بسكويت بينما هي تكتب في دفتر تدوين الحياة. بدت لاستيبان شابة وجميلة مثلما كانت في أول يوم قادها فيه من يدها إلى هذه الحجرة المبطنة بحرير أزرق وأوقفها فوق جلد *باراباس*. فابتسم للذكرى.

ـ اعذريني يا كلارا ـ قال وقد اصطبغ بالحمرة مثل تلميذ ـ. أشعر بالوحدة والغم. أريد البقاء قليلاً هنا، إذا كنتِ لا تمانعين.

ابتسمت كلارا أيضاً، ولكنها لم تقل شيئاً. أشارت إلى الأريكة، وجلس إستيبان. ظلا صامتين لحظات، يتقاسمان طبق البسكويت ويتبادلان النظرات باستغراب، لأنهما كانا يعيشان منذ زمن طويل تحت السقف نفسه دون أن يرى أحدهما الآخر.

ـ أظنك تعرفين ما الذي يعذبني ـ قال إستيبان تروبيا أخيراً.

هزت كلارا رأسها موافقة.

ـ وهل تظنين أنني سأنجح في الانتخابات؟

أعادت كلارا هز رأسها بالموافقة من جديد، وأحس ترويبا عندئذ براحة تامة، كما لو أنها أعطته ضمانة خطية. أطلق قهقهة مرحة ومدوية، ثم نهض واقفاً، وأمسكها من كتفيها وقبّل جبهتها، وهتف:

ـ أنت رائعة يا كلارا! ومادمتِ تقولين ذلك، فسوف أصير سيناتوراً.

ابتداء من تلك الليلة تضاءل العداء بينهما. واصلت كلارا عدم التوجه إليه بالكلام، ولكنه كان يتجاهل صمتها ويتكلم إليها بصورة طبيعية، مترجماً أدنى حركاتها على أنها إجابات. وفي حالة الضرورة تستخدم كلارا أو ابنيها لإيصال رسائل إليه. كانت تهتم براحة زوجها، وتساعده في عمله، وترافقه عندما يطلب منها ذلك. وتبتسم له في بعض الأحيان.

بعد عشرة أيام من ذلك جرى انتخاب إستيبان ترويبا سيناتوراً للجمهورية مثلما تنبأت كلارا. احتفل بالحدث مع أصدقائه وأخوته في المعتقد، وبتقديم هبة نقدية لموظفيه وفلاحي الماريات الثلاث، وعقد زمرد وضعه على سرير كلارا مع باقة بنفسج. بدأت كلارا حضور حفلات الاستقبال الاجتماعية والمهرجانات السياسية، حيث يكون حضورها ضرورياً من أجل أن يعكس زوجها صورة الرجل البسيط والعائلي التي تعجب الجمهور والحزب المحافظ. وفي تلك المناسبات، كانت كلارا تضع أسنانها الاصطناعية وبعض المجوهرات التي أهداها إياها إستيبان ترويبا. وصارت تعتبر السيدة الأكثر أناقة ورزانة وفتنة في وسطها الاجتماعي، ولم يكن يخامر الشك أحداً في أن هذين الزوجين المتميزين لا يتبادلان الكلام.

ومع مكانة إستيبان ترويبا الجديدة، تزايد أعداد من تتوجب خدمتهم في بيت الناصية الكبير. لم تكن كلارا تحسب عدد الأفواه التي تُطعمها ولا نفقات البيت. فالفواتير تذهب مباشرة إلى مكتب السيناتور ترويبا في مجلس الشيوخ، ويتولى هو الدفع دون أسئلة، لأنه اكتشف أنه كلما أنفق أكثر، تتضاعف ثروته كما يبدو، وتوصل إلى نتيجة أن كلارا لن تكون من ستودي به إلى الإفلاس بكرم ضيافتها العشوائي وأعمالها الإحسانية. لقد تعامل مع السلطة السياسية، أول الأمر، كلعبة

جديدة. فقد بلغ سن النضج وقد تحول إلى الرجل الثري والمحترم الذي أقسم أن يصير إليه حين كان مراهقاً فقيراً بلا عرابين يرعونه وبلا أي رأسمال سوى كبريائه وطموحه. ولكنه سرعان ما أدرك أنه وحيد جداً مثلما كان دائماً. ابناه يتجنبانه، ولم يعد له أي اتصال مع بلانكا. فهو يعرف أخبارها من خلال ما يرويه أخواها ويكتفي بأن يرسل إليها شيكاً كل شهر، وفاء للالتزام الذي توصل إليه مع جان دوساتيني. كان بعيداً جداً عن ابنيه، بحيث لا يمكنه إقامة حوار معهما دون أن ينتهي إلى الصراخ. فلم يكن ترويبا يعلم بتصرفات نيكولاس الجنونية إلا بعد فوات الأوان، أي عندما تصبح محط تعليقات الجميع. كما أنه لم يكن يعرف شيئاً عن حياة خايمي. ولا بد أنه كان سيصاب بجلطة لو عرف أن ابنه يلتقي بيدرو غارثيا الثالث، وأنه على علاقة مودة أخوية معه، ولكن خايمي كان يتوخى أقصى الحذر من التحدث في هذه الأمور مع أبيه.

كان بيدرو غارثيا الثالث قد غادر الريف. فبعد اللقاء الرهيب مع السيد، احتضنه الأب خوسيه دولثي ماريا في مسكنه الملحق بالكنيسة وعالج يده. ولكن الفتى كان غارقاً في القنوط ويكرر دون كلل أنه لم يعد للحياة معنى، لأنه فقد بلانكا ولم يعد بمقدوره كذلك العزف على الجيتار الذي هو عزاؤه الوحيد. انتظر الأب خوسيه دولثي ماريا أن تساعد بنية الشاب القوية في اندمال جراح أصابعه، ثم حمله في عربة وأخذه إلى محمية السكان الأصليين، حيث عرّفه على امرأة عجوز عمرها مئة عام، وكانت عمياء ويداها معكوفة الأصابع ومتصلبة بفعل الروماتيزم، ولكنها تتمتع بالإرادة مع ذلك لصنع السلال بقدميها. وقال له: «إذا كانت قادرة على صنع السلال بقدميها، فيمكنك أن تعزف الجيتار دون أصابع». ثم روى له الراهب الجيزويتي قصة حياته بالذات.

- أنا أيضاً كنت عاشقاً، يا بني، حين كنتُ في مثل سنك. وكانت خطيبتي أجمل فتاة في القرية. كنا سنتزوج، وبدأت هي بتطريز جهازها، وبدأت أنا أوفر لبناء بيت صغير، وكان أن أخذوني عندئذ إلى الخدمة العسكرية. وعندما رجعت، وجدتُ أنها تزوجت من جزار القرية وتحولت إلى سيدة بدينة. كنتُ على وشك إلقاء نفسي في النهر مع حجر مربوط

بقدميّ، ولكنني قررت دخول سلك الرهبنة. وبعد سنة من ارتدائي مسوح الكهنوت، ترملت المرأة وصارت تأتي إلى الكنيسة لتنظر إلى بعينين مترعتين بلواعج الحب. ـ رفعت قهقهة الكاهن الجزويتي الضخم معنويات بيدرو غارثيا الثالث وجعلته يبتسم أول مرة منذ ثلاثة شهور ـ أروي لك هذا يا بني كي ترى أنه يجب عدم اليأس ـ وأنهى الأب خوسيه دولثي ماريا كلامه ـ ستعود ذات يوم لرؤية بلانكا في وقتٍ لا يخطر على بال.

بعد شفاء بيدرو غارثيا الثالث جسداً ورحاً ذهب إلى العاصمة ومعه صرّة ملابس ونقود قليلة اختلسها الكاهن من صدقات أيام الآحاد. وأعطاه كذلك عنوان قائد اشتراكي في العاصمة احتضنه في بيته خلال الأيام الأولى، ثم حصل له على عمل في نادٍ للبوهيميين. ذهب الشاب للعيش في ضاحية عمالية، في كوخ خشبي بدا له قصراً، دون أي أثاث سوى شبكة حديدية بقوائم، وفرشة، وكرسي، وصندوقين يستخدمهما كمنضدة. ومن هناك كان يدعو إلى الاشتراكية ويجتر استياءه من زواج بلانكا برجل آخر، رافضاً تقبل تفسيرات خايمي وكلماته المواسية. وكان بعد شهور قليلة قد تحكم بيده اليمنى وضاعف استخدام الإصبعين المتبقيين فيها، وواصل تأليف أغنيات عن دجاجات تلاحق الثعالب. وفي أحد الأيام دعوه إلى برنامج إذاعي وكانت تلك بداية شعبية دوارية لم يكن هو نفسه ينتظرها. راح صوته يُسمع كثيراً في الإذاعة وصار اسمه معروفاً. ولكن السيناتور تروبيا لم يسمع ذكر اسمه قط، لأنه لم يكن يسمح بوجود أجهزة راديو في بيته. فهو يعتبرها أجهزة تخص الناس الجهلة، تبث تأثيرات مشؤومة وأفكاراً عامية. لم يكن هناك من هو أكثر بعداً منه عن الموسيقى الشعبية، والشيء الغنائي الوحيد الذي يستطيع تحمله هو أعمال الأوبرا خلال الموسم الغنائي، وفرق مسرح الثارثويلا الغنائي التي تأتي من إسبانيا كل شتاء.

في اليوم الذي جاء فيه خايمي إلى البيت حاملاً خبر أنه يريد استبدال كنيته، لأن زملاءه في الجامعه صاروا يعادونه، وصار أهالي حي الإحسان يرتابون منه مذ أصبح أبوه سيناتوراً من الحزب المحافظ. فقد إستيبان تروبيا

صبره وكان على وشك أن يصفعه، ولكنه كبح نفسه في اللحظة الأخيرة، لأنه رأى في نظرة ابنه أنه لن يتسامح معه هذه المرة.

- لقد تزوجت ليكون لي أبناء يحملون اسمي، وليس أبناء زنا يحملون اسم أمهم - صرخ به وهو شاحب من الغضب.

بعد أسبوعين من ذلك سمع تعليقات في ممرات مجلس الشيوخ وفي قاعات النادي عن أن ابنه خايمي قد خلع بنطاله في ساحة البرازيل وأعطاه لمحتاج، ورجع بسرواله الداخلي ماشياً مسافة خمسة عشر كوادرا حتى بيته، تتبعه زمرة أطفال وفوضوليين يهتفون له. ولأنه تعب من الدفاع عن شرفه من السخرية والتقولات، سمح لابنه أن يطلق على نفسه الكنية التي يرغب فيها، على ألا تكون كنيته. وفي ذلك اليوم، انزوى في مكتبه، وبكى من الخيبة والغضب. وحاول أن يُقنع نفسه بأن مثل تلك التصرفات الغريبة ستنقضي حين ينضج، وعاجلاً أو آجلاً سيتحول إلى الرجل المتزن القادر على مساعدته في أعماله ويكون سنداً له في شيخوخته. أما بشأن ابنه الآخر بالمقابل، ففقد أي أمل في إصلاحه. كان نيكولاس ينتقل من مشروع خيالي إلى آخر. وكان يمضي في تلك الأيام بوهم اجتياز سلسلة الجبال، مثلما حاول قبل سنوات طويلة خاله الجد ماركوس، بوسيلة نقل قليلة الشيوع. فقد اختار التحليق بمنطاد، مقتنعاً بأن مشهد كرة عملاقة معلقة بين الغيوم ستكون عنصر دعاية لا يُقاوم ويمكن لأي شركة مرطبات غازية أن تمول المشروع. استنسخ نموذج منطاد ألماني سابق للحرب، يحلق بوساطة جهاز هواء ساخن، ويحمل شخصاً أو أكثر ممن يتمتعون بالجرأة. الانهماك في تركيب ذلك المنطاد الذي له شكل قطعة سجق عملاقة وقابلة للاشتعال، ودراسة الآليات السرية، وتيارات الرياح، ونبوءات أوراق اللعب، وقوانين الحركية الهوائية، تطلبت منه وقتاً طويلاً من البحث. تجاهل طوال أسابيع جلسات أيام الجمعة الروحانية مع أمه والأخوات مورا الثلاث، بل إنه لم ينتبه إلى أن أماندا قد توقفت عن المجيء إلى البيت. وما إن انتهى طائره المحلق حتى وجد نفسه أمام عقبة لم يضعها في حسابه: فمدير شركة المرطبات، وهو غرينغي من أركنساس، رفض تمويل المشروع بحجة أنه إذا قُتل في

مركبته، فسوف تهبط مبيعات شرابه. حاول نيكولاس البحث عن جهات راعية أخرى، لكن أحداً لم يبدِ اهتماماً بالمشروع. ولكن ذلك لم يكن كافياً لصرفه عن أهدافه، وصمم على التحليق بأي حال، ولو فعل ذلك مجاناً. وفي اليوم المحدد، واصلت كلارا الحياكة دون تأثر ودن ابداء اهتمام بإعدادات ابنها، على الرغم من رعب الأسرة والجيران والأصدقاء من المشروع الجنوني في اجتياز سلسلة الجبال في تلك الآلة الغريبة.

- قلبي يحدثني أنها لن تطير - قالت كلارا دون التوقف عن الحياكة.

وهذا ما حدث. ففي اللحظة الأخيرة ظهرت شاحنة محملة برجال شرطة في الحديقة العامة التي اختارها نيكولاس للتحليق. وطلبوا منه تصريحاً من البلدية، لم يكن يملكه بالطبع. ولم يتمكن من الحصول عليه أيضاً. أمضى أربعة أيام وهو يركض من مكتب إلى آخر، في معاملات يائسة تصطدم بجدار عدم التفهم البيروقراطي. ولم يعرف قط أن نفوذ أبيه الذي لم يكن مستعداً للسماح بتلك المغامرة، هو من يقف وراء شاحنة رجال الشرطة وأوراق المعاملات اللانهائية. وحين تعب من النضال ضد خوف شركات المرطبات والبيروقراطية الجوية، اقتنع بأنه لن يتمكن من الطيران، اللهم إلا إذا فعل ذلك بصورة سرية، وهذا مستحيل نظراً لأبعاد مركبته الضخمة. دخل الشاب في أزمة جزع، فأخرجته منها أمه حين اقترحت عليه، من أجل عدم فقدان كل ما وظفه من أموال، أن يستخدم مواد المنطاد في شيء عملي. عندئذ صاغ نيكولاس فكرة مصنع السندويتشات. وتمثلت فكرته في صنع سندويتشات دجاج تعبأ في قماش المنطاد المقطّع إلى قطع صغيرة وبيعها لموظفي المكاتب. بدا له مطبخ البيت مثالياً لصناعته. وراحت الحدائق الخلفية تمتلئ بطيور مقيدة من قوائمها، تنتظر دورها كي يقوم جزاران جرى التعاقد معهما خصيصاً بقطع رؤوسها بالجملة. امتلأ الفناء بالريش، ولطّخ الدم تماثيل الأولمب، وكانت رائحة مرق اللحم المسلوق تستثير غثيان الجميع، وبدأت مزبلة الأمعاء تملأ الحي بالذباب، عندما وضعت كلارا حداً للمذبحة في نوبة هياج عصبي أوشكت أن تعيدها إلى أزمنة بكمها. لم يؤثر هذا الإخفاق التجاري الجديد كثيراً على نيكولاس

الذي كان يشعر بتقلبات في معدته وضميره من تلك المجزرة. فاستسلم لخسارة ما كان قد وظفه في تلك الصفقات، واعتكف في حجرته ليخطط لأساليب جديدة في كسب المال واللهو.

ـ منذ زمن لم أرَ آماندا هنا ـ قال خايمي عندما لم يعد قادراً على كبح نفاد صبر قلبه.

في تلك اللحظة تذكر نيكولاس آماندا وانتبه إلى أنه لم يرها تجوب أنحاء البيت منذ حوالي ثلاثة أسابيع وأنها لم تحضر محاولة التحليق بالمنطاد المحبطة، ولا تدشين صناعة الخبز بلحم الدجاج البيتية. ذهب يسأل كلارا، لكن أمه لم تكن تعرف شيئاً عن الفتاة أيضاً، وكانت قد بدأت بنسيانها، ذلك أنها ضبطت ذاكرتها وفق الواقع المفروض بتحول البيت إلى نقطة عبور للناس، بحيث لم يعد ثمة متسع في روحها، مثلما تقول، للتحسر على كل من يتغيبون. عندئذ قرر نيكولاس الذهاب للبحث عنها، لأنه لاحظ افتقاده إلى حضور الفراشة القلقة التي تمثلها آماندا، وإلى عناقاتها الخانقة وصمتها في غرف بيت الناصية الكبير الخاوية، حيث كانا يتقلبان متعاركين كجروين كلما خففت كلارا المراقبة وانشغل ميغيل باللعب أو غفا في أحد الأركان.

تبين أن البانسيون الذي تعيش فيه آماندا مع أخيها الصغير هو بيت عتيق، ربما كان يتمتع قبل خمسين عاماً بنوع من الفخامة المبهرة، ولكنه فقدها مع توسع المدينة باتجاه سفوح الجبال. لقد سكنه في أول الأمر التجار العرب الذين أضافوا إليه جداريات مزهوة من الحبس الوردي. وفيما بعد، عندما نقل العرب تجارتهم إلى الحي التركي، حوّل المالك البيت إلى بانسيون بتقسيمه إلى حجرات سيئة الإضاءة، وكئيبة وغير مريحة، لمستأجرين قليلي الموارد. وكانت للبناء جغرافية مستحيلة من ممرات ضيقة ورطبة، تعبق على الدوام برائحة حساء الملفوف والكرنب. خرجت صاحبة البانسيون شخصياً لتفتح الباب، وهي امرأة ضخمة لها لُغد مهيب ثلاثي الطبقات تحت ذقنها وعينان شرقيتان مدفونتان بين طيات من الشحم الأحفوري، تضع خواتم في أصابعها كلها، وتتغنج كمستجدة.

ـ لا نتقبل زيارات من الجنس المعاكس للنزيل ـ قالت لنيكولاس.

ولكن نيكولاس نشر ابتسامة المغوي التي لا تُقاوم ، وقبّل يدها دون أن ينفر من اللون القرمزي المقشر على أظفارها المتسخة، وأبدى انبهاره بالخواتم وقال إنه ابن عم آماندا، إلى أن ذابت المرأة متلوية في ضحكات متغنجة وتلويات فيل، وقادته عبر سلّم معفر بالغبار حتى الطابق الثالث وأشارت إلى باب حجرة آماندا. وجد نيكولاس الفتاة في الفراش، متدثرة بشال حائل اللون، وتلعب بالدامة مع أخيها ميغيل. كانت بالغة الزرقة والضآلة إلى حدّ وجد صعوبة في التعرف إليها. نظرت إليه آماندا دون أن تبتسم ولم تومئ له بأي إشارة ترحيب. بينما وقف ميغيل في طريقه وهو يضع يديه على خاصرتيه.

ـ ها أنتذا قد جئت أخيراً ـ قال له الطفل.

اقترب نيكولاس من السرير وحاول تذكرآماند اللينة السمراء، آماندا المثمرة والمتلوية التي عرفها في لقاءاتهما في عتمة الغرف المغلقة، ولكنه رأى بين صوف الشال الملبد وملاءات السرير الرمادية امرأةً مجهولة ذات عينين واسعتين تائهتين، تتفحصانه بقسوة لا تفسير لها. «آماندا»، تلعثم وهو يمسك يدها. تلك اليد الخالية من خواتمها وأساور الفضة بدت بائسة كقائمة طائر يحتضر. نادت آماندا أخاها. فاقترب ميغيل من السرير، وهمست شيئاً في أذنه. توجه الطفل ببطء نحو الباب، ومن العتبة وجه نظرة أخيرة غاضبة إلى نيكولاس ثم خرج مغلقاً الباب دون ضجيج.

ـ سامحيني يا آماندا ـ تلعثم نيكولاس ـ كنتُ مشغولاً جداً. لماذا لم تخبريني أنك مريضة؟

ـ لستُ مريضة ـ أجابت ـ. إنني حبلى.

أوجعت هذه الكلمة نيكولاس كصفعة. تراجع إلى أن أحس بزجاج النافذة وراء ظهره. منذ المرة الأولى التي عرّى فيها آماندا، متلمساً في الظلمة، ومتشابكاً بأسمال تنكرها كوجودية، مرتعشاً مسبقاً من التكورات والانحناءات التي تخيلها مرات كثيرة دون أن يتوصل إلى التعرف إليها في عريها البديع، افترض أن لديها ما يكفي من التجربة لتجنب تحوله إلى أب لأسرة وهو في العشرين من عمره، وتحولها إلى أم عازبة وهي في الخامسة والعشرين. وكانت آماندا قد أقامت علاقات

غرامية سابقة، وهي أول من حدّثه عن الحب الحر. وكانت تؤكد عزمها الجازم على بقائهما معاً طالما ظلت المودة تجمع بينهما، دون أية قيود أو التزامات للمستقبل، مثل سارتر وسيمون دوبوفوار. هذا الاتفاق الذي بدا لنيكولاس في أول الأمر دليل فتور وتحلل صادم بعض الشيء، تبين له أنه مريح جداً في ما بعد. فهو المتراخي والمرح في كافة شؤون الحياة، واجه العلاقة الغرامية دون تروٍ في نتائجها.

ـ ما الذي سنفعله الآن! ـ هتف.

ـ عملية إجهاض بالطبع ـ أجابته.

هزت نيكولاس موجة من الراحة. فهو يتجاوز الهوة مرة أخرى. ومثلما يحدث في كل مرة يلعب فيها على شفير الهاوية، يجد ظهور من هو أقوى منه إلى جانبه يتولى مسؤولية الأمور، كما في أزمنة المدرسة، عندما كان يستفز الصبيان في الاستراحة بين الدروس إلى أن ينقضوا عليه، وعندئذ، في اللحظة الأخيرة، في اللحظة التي يشله فيها الخوف، يأتي خايمي ويتدخل، فيحول رعبه إلى انشراح ويتيح له الوقوف بين أعمدة الباحة ليصرخ مطلقاً الشتائم من مخبئه، بينما الدم ينزف من أنف أخيه الذي يوزع اللكمات بصمت آلة عنيد. وها هي آماندا الآن تتحمل المسؤولية عنه.

ـ يمكننا أن نتزوج يا آماندا... إذا رغبتِ في ذلك ـ تمتم لينقذ ماء وجهه،

ـ لا! ـ أجابت دون تردد ـ. فأنا لا أحبك بما يكفي للزواج منك يا نيكولاس.

وعلى الفور تعرضت مشاعره لتحول مفاجئ، لأن مثل ذلك الاحتمال لم يخطر له من قبل. فحتى ذلك الحين لم يشعر قطّ بأنه محل صدّ أو إهمال. ففي كل مغامرة غرامية كان يستعين بكل ما لديه من رقة ليتملص دون أن يجرح كثيراً مشاعر الفتاة المعنية في كل مغامرة. لقد فكر في الوضع الذي هي فيه آماندا: فقيرة، وحيدة، تنتظر ابناً. وفكر في أنه يمكن لكلمة منه أن تبدل مصير الشابة، وتحولها إلى زوجة محترمة لشخص من آل ترويبا. مرّت هذه الأفكار في ذهنه خلال جزء من الثانية، ولكنه مالبث أن شعر فوراً بالخجل والاحمرار عندما فاجأ نفسه مستغرقاً في تلك الأفكار. وفجأة بدت له آماندا فتاة عظيمة. وتواردت إلى

ذاكرته كل اللحظات الطيبة التي تقاسمها معاً، والمرات التي استلقيا فيها على الأرض يدخنان من الغليون نفسه ليدوخا قليلاً معاً ويضحكان من تلك العشبة التي لها طعم روث البقر الجاف، وقليل من التأثير المهلوس، ولكنها تحفز قدرة الإيهام. وتذكر تمارين اليوغا والتأمل الثنائي وهما يجلسان أحدهما في مواجهة الآخر، باسترخاء كامل، يتبادلان النظر إلى العينين ويتمتمان بكلمات سنسكريتية يمكن لها حملهما إلى نشوة النيرفانا، ولكن تأثيرها كان معاكساً على العموم، فكانا ينتهيان إلى التهرب من نظرات الآخرين، والتسلل إلى آجام الحديقة، وممارسة الحب كيائسين. وتذكرالكتب التي قرأاها على ضوء شمعة وهما يختنقان بالوله والدخان؛ والسهرات الطويلة في مناقشة رؤى فلاسفة ما بعد الحرب المتشائمين، أو تركيز طاقتهما الذهنية لتحريك منضدة القوائم الثلاث، وضربتان تعنيان نعم، وثلاث ضربات تعني لا، بينما كلارا تسخر منهما. انهار جاثياً إلى جانب السرير يتوسل آماندا ألا تتركه، وأن تصفح عنه، وأن يظلا معاً كما لو أن شيئاً لم يحدث، وأن ما جرى ليس سوى حادث تعيس لا يمكن له أن يبدل جوهر علاقتهما الراسخ. ولكنها بدت كما لو أنها لا تسمعه. فقد كانت تداعب رأسه بحركة أمومية ونائية.

ـ لا جدوى من كل هذا يا نيكولاس. ألا ترى أن روحي هرمة جداً بينما أنت لا تزال طفلاً؟ وستظل طفلاً على الدوام ـ قالت.

واصلا المداعبات دون رغبة وبعذاب من التوسلات والذكريات. كانا يتذوقان مرارة فراق يتوجسانه، ولكنهما لا يزالان قادرين على الخطأ في الظن بأنه مصالحة. نهضت من الفراش لتُعدّ فنجاناً من الشاي لكليهما، ورأى نيكولاس أنها ترتدي تنورة عتيقة كقميص نوم. كانت قد نحلت كثيراً، وبدت له ربلتا ساقيها محزنتين. كانت تمشي في الحجرة حافية، واضعة شالاً على كتفيها، وشعرها منفوش. وتحوم حول موقد بارافين موضوع على منضدة تستخدمها كمكتب ومائدة ومطبخ. رأى الفوضى التي تعيش فيها آماندا، وانتبه عندئذ إلى أنه كان يجهل حتى تلك اللحظة كل شيء عنها. كان قد افترض أنه ليس لها من أسرة سوى

أخيها، وأنها تعيش على راتبها الضئيل، ولكنه لم يكن قادراً على تصور حقيقة وضعها. فالفقر عنده مجرد مفهوم مجرد وناء، يمكن تطبيقه على فلاحي الماريات الثلاث وعلى المعوزين الذين يسعفهم أخوه خايمي، ولكنه لم يكن على احتكاك بهم قط. أما آماندا، آماندا القريبة منه والمعروفة جيداً، صارت غريبة فجأة. ينظر إلى ملابسها التي ترتديها فتبدو له كأنها ملابس تنكرية للمكة، أما وهي معلقة على مسامير في الجدار، فتبدو مجرد أسمال حزينة لمتسولة. ينظر إلى فرشاة أسنانها في كأس موضوع فوق المغسلة الصدئة، وإلى حذاء ميغيل المدرسي المصبوغ والمعاد صبغه مراراً وتكراراً، وقد فقد شكله الأصلي، وإلى الآلة الكاتبة القديمة إلى جانب موقد البارافين، وإلى الكتب بين الفناجين، وإلى زجاج نافذة مكسور ومغطى بقصاصة من مجلة. إنه عالمٌ آخر. عالم لم يكن يتخيل وجوده. فحتى ذلك الحين كان هناك في أحد جانبي الخط الفاصل الفقراء المعدمون، وفي الجانب الآخر الناس الذين مثله، وكان يضع آماندا بينهم. لم يكن يعرف شيئاً عن تلك الطبقة الوسطى الصامتة التي تتخبط بين الفقر ذي الياقة وربطة العنق من جهة والرغبة المستحيلة في محاكاة الحثالة المذهبة التي ينتمي إليها. أحس بالتشوش والخزي وهو يفكر في المناسبات الكثيرة الماضية حين كانت تضطر، ربما، إلى أن تسحرهم كيلا يلاحظوا بؤسها في بيت آل تروبيا، بينما هو مستغرق في غيبوبة كاملة، دون أن يفكر في مد يد المساعدة إليها. تذكر حكايات أبيه عندما كان يحدثه عن طفولته الفقيرة وعن أنه اضطر إلى العمل وهو في مثل سنه كي يعيل أمه وأخته، وتمكن أن يربط، لأول مرة، بين تلك الحكايات التعليمية والواقع. وفكر في أن حياة آماندا هي هكذا.

تقاسما تناول فنجان الشاي وهما جالسان على السرير، لأنه لا وجود إلا لكرسي وحيد. حدثته آماندا عن ماضيها، عن أسرتها، عن أبيها الكحولي المدمن الذي كان أستاذاً في إحدى مقاطعات الشمال، وعن أم مثقلة بالهموم وكئيبة، تعمل من أجل إعالة أبنائها الستة، وكيف أنها هي، فور تمكنها من الاعتماد على نفسها، غادرت البيت. لقد وصلت إلى العاصمة وهي في الخامسة عشرة من عمرها، إلى بيت عرابة طيبة القلب

ساعدتها لبعض الوقت. وبعد ذلك، عندما ماتت أمها، ذهبت لدفنها والبحث عن ميغيل الذي كان لا يزال طفلاً رضيعاً. ومنذ ذلك الحين صارت أماً له. أما أبوها وبقية أخوتها فلم تعد تعرف شيئاً عنهم. كان نيكولاس يشعر في أعماقة بتنامي الرغبة في حمايتها والعناية بها، في تعويضها عن كل حرمانها. ولم يشعر نحوها قطّ بمثل هذا القدر من الحب.

عند الغروب، رأيا عودة ميغيل بخدين متوهجين، يتلوى برشاقة ومرح ليخفي الهدية التي يخبئها وراء ظهره. إنها حزمة خبز لأخته. وضعها على السرير، ثم قبّل أخته بمحبة، ومسّد شعرها بيده القزمة، ورتب وضع الوسائد. اجتاحت نيكولاس قشعريرة، لأن حركات الطفل كانت تتضمن من الحنان والرقة أكثر من كل ما أغدقه هو من مداعبات على أي امرأة طوال حياته. عندئذ فهم ما أرادت آماندا قوله له. فتلعثم: «عليّ أن أتعلم الكثير». أسند جبهته إلى زجاج النافذة المتسخ متسائلاً إن كان قادراً على العطاء ذات يوم بقدر ما يأمل تلقيه.

- كيف سنفعل ذلك؟ - سألها دون أن يجرؤ على النطق بالكلمة الرهيبة.

- اطلب المساعدة من أخيك خايمي - اقترحت آماندا.

استقبل خايمي أخاه في سرداب كتبه، وهو مضطجع على سريره الضيق، يضيئه نور المصباح الوحيد المدلى من السقف. كان يقرأ سونيتات الحب التي نظمها الشاعر، وكانت قد اكتسبت آنذاك شهرة عالمية، مثلما تنبأت كلارا حين سمعته يلقي أشعاره، أول مرة، في إحدى سهراتها الأدبية، بصوت كأنه يخرج من أعماق الأرض. وقد خمن خايمي أن السونيتات ربما تكون مستوحاة من حضور آماندا في حديقة آل ترويبا، حيث اعتاد الشاعر الجلوس، في موعد شرب الشاي، ليتحدث عن أغنيات يائسة، في الزمن الذي كان فيه ضيفاً مواظباً في بيت الناصية الكبير. لقد فاجأته زيارة أخيه، لأن كل منهما راح يبتعد عن الآخر أكثر فأكثر منذ خروجهما من المدرسة. ولم يكن لديهما في الأونة

الأخيرة ما يتكلمان فيه، فكانا يتبادلان التحية بانحناءة من الرأس في المرات النادرة التي يلتقيان فيها عند عتبة الباب. وكان خايمي قد تخلى عن فكرته في اجتذاب نيكولاس إلى قضايا الوجود السامية.

وكان لا يزال يشعر بأن تسليات أخيه التافهة هي إهانة شخصية، لأنه غير قادر على تقبل أن يهدر وقته وطاقته في رحلات بمنطاد وفي مذابح دجاج، على الرغم من وجود عمل كثير يتوجب القيام به في حي الإحسان. ولكنه لم يعد يحاول جرّه إلى المستشفى كي يرى الألم عن قرب، على أمل أن يتمكن بؤس الاخرين من تحريك قلبه الذي كقلب عصفور مهاجر، وتخلى عن دعوته إلى الاجتماعات مع الاشتراكيين في بيت بيدرو غارثيا الثالث، في الشارع الأخير من الضاحية العمالية، حيث يجتمع كل الشبان الذين تراقبهم الشرطة. كان نيكولاس يسخر من هموم أخيه الاجتماعية، متذرعاً بأنه لا يمكن إلا لأبله ذي ميول رسولية أن يخرج حاملاً عقب شمعة ليجوب العالم بحثاً عن النكبات والقباحة. وهاهوذا خايمي يرى أخاه أمامه، ينظر إليه نظرات مذنب متوسل من تلك التي طالما لجأ إلى استخدامها لتحريك عاطفته.

- أماندا حامل - قال نيكولاس دون مقدمات.

كان عليه أن يكرر ما قاله، لأن خايمي ظل جامداً، بوضع النفور الذي هو عليه دوماً، دون أي إيماءة تشي بأنه قد سمعه. أما في أعماقه فكان الإحباط يخنقه. وبصمت كان ينادي آماندا باسمها، متشبثاً برنة هذه الكلمة العذبة للحفاظ على السيطرة على نفسه. كانت حاجته كبيرة إلى امتلاك وهم حي، حتى وصل به الأمر إقناع نفسه بأن آماندا ترتبط مع نيكولاس بعلاقة حب طفولي، علاقة تقتصر على نزهات بريئة يمسك فيها كل منهما بيد الاخر، وعلى نقاشات حول زجاجة نبيذ حلو، وعلى قبلات قليلة عابرة فاجأهما هو نفسه يتبادلانها.

كان يرفض الحقيقة المؤلمة التي عليه أن يواجهها الآن.

- لا تخبرني بأي شيء. فأنا لا علاقة لي بهذا الأمر - أجابه فور تمكنه من استعادة صوته. فتهاوى نيكولاس جالساً عند حافة السرير مغطياً وجهه بيديه.

ـ عليك أن تساعدها، أرجوك! ـ قال متوسلاً.

أغمض خايمي عينيه، وتنفس بجزع باذلاً الجهد في التحكم بالمشاعر الجنونية التي تريد دفعه إلى قتل أخيه، وإلى أن يهرع ليتزوج هو نفسه من آماندا، إلى البكاء من العجز والخيبة. كانت صورة الشابة في ذاكرته مثلما تظهر له كلما هزمته هموم الحب. يراها تدخل إلى البيت وتخرج منه، مثل هبَّة هواء نقي، وهي تمسك بيد أخيها الصغير، يسمع ضحكتها على الشرفة، يشم الشذى العذب والخفي لبشرتها وشعرها حين تمر بجانبه في أوج شمس الظهيرة. كان يراها مثلما يتخيلها في ساعات الفراغ التي يحلم خلالها بها. ويستحضر ذكراها بصورة خاصة في تلك المرة الوحيدة بالتحديد، حين دخلت آماندا إلى حجرته وكانا وحدهما في حميمية صومعته. دخلت دون أن تطرق الباب، بينما هو مستلق يقرأ على السرير، فملأت السرداب بتشعث شعرها الطويل وذراعيها المتموجين، لمست الكتب دون أي توقير، بل تجرأت كذلك على سحبها من رفوفها المقدسة، ونفخ الغبار عنها دون أدنى احترام ثم رميها بعد ذلك على السرير وهي تثرثر دون كلل، بينما هو يرتجف من الرغبة والمفاجأة، دون أن يجد في اتساع معجم مفرداته الموسوعي كلمة واحدة توقفها، إلى أن ودعته هي نفسها بقبلة طبعتها على خده، قبلة ظلت تلتهب مثل حرق، قبلة وحيدة ورهيبة أتاحت له تشييد متاهة أحلام كلاهما فيها أمير عاشق.

ـ أنت تعرف بعضاً من الطب يا خايمي. عليك أن تفعل شيئاً ـ قال نيكولاس متوسلاً.

ـ إنني طالب، ومازال ينقصني الكثير لأكون طبيباً. ولست أعرف شيئاً في هذا الأمر. ولكنني رأيت نساء كثيرات يمتن على يد جهلة يتدخلون في ما لا يعرفون ـ قال خايمي.

ـ إنها تثق بك. تقول إنك وحدك القادر على مساعدتها ـ قال نيكولاس.

أمسك خايمي أخاه من ملابسه ورفعه في الهواء وهو يهزه كأنه دمية مخلعة المفاصل، ويصرخ بكل الشتائم التي خطرت لذهنه، إلى أن أجبره إجهاشه هو نفسه في البكاء على تركه. وتباكى نيكولاس مرتاحاً. لقد كان يعرف خايمي، وقد حدس أنه تقبّل، كعادته، دور الحامي.

- شكراً يا أخي!

وجه إليه خايمي صفعة دون رغبة منه ودفعه دفعاً خارج الغرفة. أقفل الباب بالمفتاح وانبطح على سريره مهتزاً بذلك البكاء الأبح والرهيب الذي يبكي به الرجال آلام حبهم.

انتظرا حتى يوم الأحد. حدد لهما خايمي موعداً في عيادة حي الإحسان، حيث يمارس التدريب كطالب طب. وقد كان المفتاح معه، لأنه آخر من يغادر العيادة دوماً، وهكذا استطاع الدخول دون مشقة، ولكنه شعر أنه أشبه بلص، لأنه لا يستطيع تقديم تفسير لوجوده هناك في ذلك الوقت المتأخر. كان قد أمضى ثلاثة أيام وهو يدرس بدقة كل خطوة من العملية الجراحية التي سيُجريها، حتى صار بإمكانه أن يكرر كل كلمة في الكتاب بترتيبها الدقيق، ولكن ذلك لم يمنحه مزيداً من الطمأنينة. كان يرتجف. يحاول عدم التفكير في النساء اللاتي رآهن يصلن محتضرات إلى قاعة الطوارئ في المستشفى، وساعد في إنقاذهن في هذه العيادة بالذات، وغيرهن ممن متن شاحبات على تلك الأسرة نفسها بينما نهر دماء يتدفق من بين سيقانهن، دون أن يتمكن العلم من عمل أي شيء للحيلولة دون إفلات الحياة منهن عبر ذلك الصنبور المفتوح. كان يعرف هذه المأساة عن قرب شديد، ولكنه لم يجد نفسه حتى تلك اللحظة مضطراً إلى أن يطرح على نفسه الخلاف الأخلاقي في مساعدة امرأة يائسة. ولم يخطر لباله أن تكون تلك المرأة هي آماندا. أضاء الأنوار، وارتدى رداء مهنته الأبيض، وهيأ الأدوات وهو يراجع بصوت عالٍ كل تفصيل حفظه عن ظهر قلب. كان يتمنى حدوث كارثة عظيمة، زلزال يهز الكوكب من أسسه، كيلا يضطر إلى عمل ما هو مقدم على عمله. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث حتى ساعة الموعد المتفق عليه.

وفي أثناء ذلك كان نيكولاس قد ذهب لاحضار آماندا في *الكوفادونغا* القديمة التي تمشي متعثرة بصمولاتها وسط سحابة سوداء من الزيت المحروق، ولكنها مازالت تنفع مع ذلك للأزمات الطارئة. كانت آماندا تنتظره جالسة على الكرسي الوحيد في غرفتها، ممسكة بيد ميغيل، وكلاهما مستغرق في تواطؤ مشترك، أحس نيكولاس بأنه

مستبعد منه كالعادة. بدت الشابة شاحبة وهزيلة بسبب توتر الأعصاب وما تحملته في الأسابيع الأخيرة من قلق وارتباك، ولكنها كانت أكثر طمأنينة مع ذلك من نيكولاس الذي يتكلم بتلعثم، ولا يستطيع البقاء هادئاً ويسعى لتشجيعها بمرح مفتعل ومزاح غير مُجدٍ. وكان قد جاءها بهدية، هي خاتم قديم من الماس وأحجار اليجادي الحمراء، أخذه من حجرة أمه وهو متأكد من أنها لن تفتقده أبداً، حتى لو رأته في يد أماندا، ولن تستطيع التعرف إليه، لأن كلارا لا تهتم بهذه الأشياء. فردته أماندا إليه بلطف.

ـ هاأنتذا ترى يا نيكولاس، إنك مجرد طفل ـ قالت دون أن تبتسم.

وعند الخروج، ارتدى ميغيل الصغير عباءة بونتشو وتشبث بيد أخته. فكان على نيكولاس أن يلجأ في أول الأمر إلى أساليب سحره، ثم إلى القوة الفظة بعد ذلك كي يبقيه عند صاحبة البانسيون التي وقعت في الأيام الأخيرة نهائياً في غواية ابن عمّ نزيلتها المزعوم، وخلافاً لأنظمتها الخاصة، وافقت على رعاية الطفل تلك الليلة.

قطعا الطريق دون كلام، وكل منهما مستغرق في مخاوفه. كان نيكولاس يشعر بعدائية أماندا كنتانة استقرت بينهما. وكانت هي قد توصلت في الأيام الأخيرة إلى إنضاج فكرة الموت في ذهنها، ووجدت أنها تخشى الموت أقل من خشيتها من الألم والمهانة اللذين سيكون عليها تحملهما في تلك الليلة. كان نيكولاس يقود *الكوفادونغا* في قطاع مجهول من المدينة، عبر أزقة ضيقة ومظلمة، حيث تتراكم القمامة إلى جانب أسوار المعامل العالية، في غابة من المداخن التي تحجب لون السماء. وحيث الكلاب المتشردة تشم النفايات والمتسولون ينامون ملتفين بالجرائد في فجوات الأبواب. وفاجأه أن يكون هذا هو مسرح نشاطات أخيه اليومية.

كان خايمي ينتظرهما عند باب العيادة. وقد أضفى عليه الروب الأبيض والجزع مظهراً من هو أكبر سناً بكثير مما هو عليه. قادهما عبر متاهة ممرات جليدية البرودة حتى الحجرة التي هيأها لإجراء العملية،

محاولاً إلهاء آماندا عن قبح المكان، وكيلا ترى المناشف الضاربة إلى الصفرة ملقاة في العلب بانتظار الغسل يوم الاثنين، والعبارات البذيئة المخربشة على الجدران، والبلاط المخلع والأنابيب الصدئة التي يقطر منها الماء. توقفت آماندا عند باب الجناح وعلى وجهها ملامح الرعب: فقد رأت الأدوات ومنضدة العمليات النسائية وكل ما كان حتى تلك اللحظة فكرة مجردة وغزلاً من احتمال الموت، يتجسد ويتخذ هيئة أمامها. كان نيكولاس شاحباً، ولكن خايمي أمسكهما من ذراعيهما وأجبرهما على الدخول.

ـ لا تنظري يا آماندا، سوف أُنوّمك كيلا لا تشعري بشيء ـ قال لها.

لم يكن قد استخدم مخدراً قط ولا تدخل في أي عمل جراحي من قبل. فقد كانت مهمته كطالب تقتصر على الأعمال الإدارية، وإعداد الإحصاءات، وملء البطاقات، والمساعدة في علاج بعض الإصابات، وخياطة الجروح، ومهمات صغيرة أخرى. كان خائفاً أكثر من آماندا نفسها، ولكنه اتخذ موقفاً قوياً ومسترخياً مثلما رأى الأطباء يفعلون، كي يجعلها تشعر أن المسألة كلها ليست سوى عملية روتينية عادية. أراد أن يجنبها حرج التعري، وأن يجنب نفسه قلق رؤيتها، فساعدها على الاستلقاء فوق المنضدة بملابسها. وبينما هو يغسل يديه ويدل نيكولاس على طريقة فعل ذلك أيضاً، حاول أن يُلهيها بحكاية الشبح الإسباني الذي ظهر لكلارا في إحدى جلسات أيام الجمعة وأخبرها بوجود كنز مخبأ تحت ركائز البيت، وحدثها عن أسرته: كومة مجانين غريبي الأطوار منذ عدة أجيال، تسخر منهم حتى الأشباح. ولكن آماندا لم تكن تستمع إليه، فقد كانت شاحبة مثل كفَنٍ وأسنانها تصطك.

ـ لماذا هذه الأحزمة الجلدية؟ لا أريد أن تقيدني! ـ قالت وقد اجتاحتها قشعريرة.

ـ لن أقيدك. وسيتولى نيكولاس إعطاءك الأثير. تنفسي بهدوء، ولا تخافي، وعندما تستيقظين سنكون قد انتهينا ـ ابتسم خايمي بعينيه من فوق كمامته.

قرّب نيكولاس كمامة المخدر من الشابة، وكان آخر ما رأته قبل

أن تغرق في الظلام هو وجه خايمي ينظر إليها بحب، ولكنها ظنت أنها تحلم بذلك. نزع نيكولاس ثيابها عنها وقيّدها إلى المنضدة وهو يعي أن ذلك أسوأ من الاغتصاب، بينما أخوه ينتظر وقد ألبس يديه قفازين، محاولاً ألا يرى فيها المرأة التي تشغل كل تفكيره، وإنما جسد آخر مثل غيره من أجساد كثيرة تمر كل يوم على هذه المنضدة بصرخة ألم. بدأ العمل ببطء وحذر، مكرراً في نفسه ما يتوجب عليه عمله، متمتماً نص الكتاب الذي حفظه في ذاكرته، وبينما قطرات العرق تسقط على عينه، كان يراقب باهتمام تنفس الفتاة، ولون بشرتها، وإيقاع قلبها، كي يشير إلى أخيه أن يضع لها قليلاً من الأثير كلما تأوهت، مصلياً أن لا يحدث أي تعقيد، وكان في أثناء ذلك يجرف أعماق حميميتها دون أن يتوقف، في الوقت نفسه، عن لعن أخيه في تفكيره، فلو كان هذا الجنين منه وليس من نيكولاس، لولد سليماً وتاماً بدل أن يذهب فتاتاً عبر بالوعة العيادة البائسة، ولكان احتضنه وحماه بدل أن ينتزعه جرفاً من عشه. انتهى بعد خمس وعشرين دقيقة، وأمر نيكولاس أن يساعده على تمديدها في وضع مريح ريثما ينقضي مفعول المخدر، ولكنه رأى أخاه يترنح مستنداً إلى الجدار، ضحية غثيان عنيف.

- أحمق! - زمجر خايمي - انصرف إلى الحمام، وبعد أن تتقيأ ذنوبك انتظر في قاعة الانتظار، لأنه مازال أمامنا الكثير.

خرج نيكولاس متعثراً، وخلع خايمي القفازين والكمامة وبادر إلى فك الأحزمة عن أماندا، وإلباسها ثيابها بلطف، وأخفى آثار عمله الدامية، وأبعد عن نظرها أدوات تعذيبها. ثم حملها بين ذراعيه مستمتعاً باللحظات التي استطاع فيها ضمها إلى صدره، ومددها على سرير كان قد وضع عليه ملاءة نظيفة، وهذه إضافة لا تتوفر للنساء اللاتي يأتين إلى العيادة يطلبن المساعدة. دثرها جيداً وجلس إلى جانبها. وتمكن أول مرة في حياته من تأملها على هواه. كانت أصغر وأعذب مما تبدو عليه وهي تتجول في كل الأنحاء بتنكرها كعرّافة وخشاخشتها الخرزية، ولم تكن العظام في جسدها النحيل، مثلما قدّر دائما، أكثر من إيحاء بين هضاب أنوثتها الصغيرة وأوديتها الملساء. ولولا شعرها الأهوج وعينيها

اللتين كعيني أبي الهول، لبدت في الخامسة عشرة من العمر. وبدت هشاشتها لخايمي مشتهاة أكثر من كل ما أغواه فيها من قبل. كان يشعر أنه أطول وأثقل منها مرتين، وأقوى ألف مرة، ولكنه كان يعرف أنه مهزوم مسبقاً بالحنان والتلهف لحمايتها. لعن عاطفيته المنيعة وحاول النظر إليها على أنها عشيقة أخيه التي انتهى للتو من إجراء عملية إجهاض لها، ولكنه أدرك على الفور عقم المحاولة واستسلم لمتعة وعذاب حبها. داعب يديها الشفافتين، وأصابعها الدقيقة، وتلويات أذنيها، وجاب عنقها مصغياً إلى خرير الحياة الخافت في أوردتها. قرّب فمه من شفتيها واستنشق بنهم رائحة المخدر، ولكنه لم يتجرأ على ملامستهما.

استفاقت آماندا من النوم ببطء. أحست أولاً بالبرودة ثم اجتاحتها بعد ذلك قشعريرة غثيان. واساها خايمي بالتحدث إليها باللغة نفسها التي يحتفظ بها للتوجه إلى الحيوانات، وإلى الأطفال الصغار في مستشفى الفقراء، إلى أن راحت تهدأ. ثم بدأت بالبكاء وواصل هو مداعبتها. ظلا صامتين، كانت تترنح بين النعاس والغثيان والغم والألم الذي بدأ يمض بطنها، وكان يتمنى ألا تنتهي هذه الليلة أبداً.

- أتظن أنني سأتمكن من إنجاب أبناء؟ - سألته أخيراً.

- أظن أن نعم - أجابها -. ولكن عليك البحث لهم عن أب يتحمل المسؤولية.

ابتسما بارتياح. بحثت آماندا في وجه خايمي الأسمر المنحني قريباً من وجهها عن تشابه ما مع نيكولاس، ولكنها لم تستطع العثور عليه. فلأول مرة في حياتها الرحالة أحست أنها محمية، آمنة، وتنهدت سعيدة ومتجاهلة القذارة التي تحيط بها، والجدران المقشرة، والخزائن المعدنية الباردة، والأدوات المخيفة، ورائحة أدوية التعقيم، وكذلك الألم القاسي الذي استقر في أحشائها.

- أرجوك أن تستلقي إلى جانبي وتحتضنني - قالت.

تمدد بخجل على السرير الضيق وطوقها بذراعيه. وحاول البقاء ساكناً كيلا يزعجها ولا يسقط أرضاً. كان يمتلك الرقة الخرقاء لمن لم يكن محبوباً قط ويتوجب عليه الآن أن يرتجل. أغمضت آماندا عينيها

وابتسمت. ظلا على تلك الحال، يتنفسان معاً بهدوء تام، مثل أخوين، إلى أن بدأ الضياء وصار نور النافذة أقوى من ضوء المصباح. عندئذ ساعدها خايمي على النهوض، وألبسها المعطف وقادها من ذراعها حتى قاعة الانتظار حيث كان نيكولاس يغفو على كرسي.

- استيقظ! سنوصلها إلى البيت كي تعنى بها أمي. من الأفضل عدم تركها وحيدة لبضعة أيام - قال خايمي.

- كنت أعرف أننا نستطيع الاعتماد عليك يا أخي - شكره نيكولاس متأثراً.

- لم أفعل ذلك من أجلك أيها التعيس، بل من أجلها - زمجر خايمي مديراً له ظهره.

استقبلتهم كلارا في بيت الناصية الكبير دون أن توجه أسئلة، أو ربما وجهتها مباشرة إلى أوراق قراءة الطالع أو إلى الأرواح. وكان عليهم أن يوقظوها، لأن الفجر كان يبزغ ولم يكن أحد قد استيقظ في البيت بعد.

- ساعدي آماندا يا أماه - طلب خايمي بالثقة التي يمنحها التطامن الطويل الذي تنطوي عليه هذه الأمور، ثم أضاف - إنها مريضة وستبقى هنا عدة أيام.

- وماذا عن ميغيل الصغير؟ - سألت آماندا.

- سأذهب أنا لإحضاره - قال نيكولاس وخرج.

جهزوا إحدى غرف الضيوف واستلقت آماندا على السرير. فحص خايمي حرارتها وقال إنه عليها أن تستريح. همّ بالانسحاب، ولكنه توقف عند عتبة الباب متردداً. وفي هذه اللحظة عادت كلارا ومعها صينية فيها قهوة للثلاثة.

- أظن أننا مدينون لك بتفسير يا أماه - تمتم خايمي.

- لا يا بني - ردّت كلارا بمرح -. إذا كان ثمة خطيئة، من الأفضل ألا تخبروني بها. ولننتهز الفرصة لندلل آماندا قليلاً، فهي بحاجة كبيرة إلى ذلك.

خرجت يلحق بها ابنها. رأى خايمي أمه تتقدم عبر الممر حافية، شعرها مفلت على ظهرها، ملتفة بروبها الأبيض، ولاحظ أنها ليست

طويلة وقوية مثلما كان يراها في طفولته. مدّ يده وأوقفها من كتفها. فالتفتت وابتسمت، وعانقها خايمي بقوة ضاماً إياها إلى صدره، وحاكاً جبينها بفكه السفلي حيث كانت ذقنه المستحيلة تطالب بحلاقة أخرى. كانت تلك أول مرة يداعبها بتلقائية مذ كان طفلاً يتعلق بدافع الحاجة إلى ثدييها، وقد فوجئت كلارا برؤية ابنها كبيراً إلى ذلك الحد، بصدر رافع أثقال، وذراعين كمطرقتين عصرتاها في حركة خائفة. وتساءلت بتأثر وسعادة، كيف أمكن لهذا الرجل الضخم الأشعر الذي له قوة دب وبراءة راهبة مستجدة أن يكون ذات يوم في بطنها، وبرفقته فوق ذلك ابن آخر.

أصيبت آماندا في الأيام التالية بحمى. فراح خايمي يسهر عليها مذعوراً ويعطيها في كل ساعة جرعات من السلفاميد. وتولت كلارا العناية بها. ولم يغب عن ملاحظتها أن نيكولاس يسأل عن حالتها بتكتم، ولكنه لا يحاول زيارتها، في حين كان خايمي يعتكف معها، ويعيرها أحب كتبه إليه، ويمضي كملهم، يتكلم كلاماً غير متماسك ويجوب أنحاء البيت مثلما لم يفعل قطّ من قبل، حتى إنه نسي اجتماع الاشتراكيين في يوم الخميس.

وهكذا صارت آماندا جزءاً من الأسرة لبعض الوقت، وهكذا أيضاً كان ميغيل الصغير حاضراً، بفعل ظروف خاصة، وهو مختبئ في الخزانة، يوم مولد آلبا في بيت آل ترويبا، ولم ينس قطّ المشهد العظيم والرهيب للوليدة وهي تظهر إلى الدنيا ملتفة بمادة مخاطية دامية، وسط صرخات أمها وصخب النساء المنهمكات من حولها.

وفي أثناء ذلك كان إستيبان ترويبا قد سافر إلى أميركا الشمالية. فبعد أن أرهقته آلام عظامه وذلك المرض السري الذي لم يلحظه أحد سواه، اتخذ القرار بأن يذهب ليفحصه أطباء أجانب، لأنه توصل إلى استنتاج مبكر بأن الدكاترة اللاتينيين جميعهم ليسوا سوى مشعوذين أقرب إلى السحرة المحليين منهم إلى العلماء. كان تضاؤل حجمه خفيفاً جداً، وشديد البطء والاستتار، لم ينتبه إليه أحد سواه. فقد كان عليه أن يشتري في كل مرة حذاء أصغر نمرة عن سابقه، وأن يقصّر بناطيله، وأن يأمر بجعل طيات لأكمام قمصانه. وفي أحد الأيام اعتمر قبعته التي

لم يستخدمها طيلة الصيف ورأى أنها غطست حتى غطت أذنيه بالكامل، فاستنتج مذعوراً أنه إذا ما تقلص حجم دماغه، فربما ستتقلص أفكاره أيضاً. قاس الأطباء الفرينغيون أبعاد جسمه، وفحصوا أنيابه واحداً واحداً، واستجوبوه بالإنكليزية، وحقنوه بسوائل بإبرة حقن، ثم سحبوها بأخرى، وصوروه، وقلبوه مثل قفاز، حتى إنهم أدخلوا مصباحاً صغيراً في شرجه. وتوصلوا في النهاية إلى أنها مجرد أفكار تراوده، وأنه عليه ألا يفكر في أنه يتضاءل، وأن حجمه هو نفسه دائماً، وأنه قد حلم بالتأكيد بأن طوله كان ذات يوم متر وثمانون سنتيمتراً وأنه انتعل أحذية قياس اثنين وأربعين. فانتهى الأمر باستيبان تروبيا إلى فقدان صبره ورجع إلى موطنه مصمماً على عدم إيلاء اهتمام لمشكلة طول القامة، لأن جميع الساسة العظماء في التاريخ كانوا قصيري القامة، ابتداء من نابليون حتى هتلر. وعندما وصل إلى البيت، رأى ميغيل الصغير يلعب في الحديقة وآماندا أشد نحولاً وعينيها محاطتين بالزرقة، وقد تخلصت من عقودها وأساورها، وكانت تجلس مع خايمي على الشرفة. لم يوجه أسئلة، لأنه كان معتاداً على رؤية أناس غرباء عن الأسرة يعيشون تحت سقف بيته.

الفصل الثامن

الكونت

كان يمكن لهذه الفترة أن تغرق في اختلاط الذكريات القديمة والغائمة بمرور الزمن لولا الرسائل التي تبادلتها كلارا وبلانكا. فقد حفظت تلك المراسلات الغزيرة الأحداث وأنقذتها من ضبابية الوقائع الملتبسة. فمنذ الرسالة الأولى التي تلقتها من ابنتها، بعد زواجها، استطاعت كلارا أن تخمن أن الفراق عن بلانكا لن يدوم طويلاً. وعمدت، دون أن تخبر أحداً، إلى ترتيب إحدى أوسع غرف البيت وأكثرها تعرضاً للشمس بانتظار مجيئها. ووضعت فيها المهد البرونزي الذي ربت فيه أبناءها الثلاثة.

لم تستطع بلانكا أن تفسر لأمها أسباب موافقتها على الزواج، لأنها هي نفسها لم تكن تعرف تلك الأسباب. وعند تحليلها أحداث الماضي، بعد أن صارت امرأة ناضجة، توصلت في النتيجة إلى أن السبب الرئيسي هو الخوف الذي كانت تشعر به من أبيها. فقد عرفت قوة غضبه اللاعقلاني مذ كانت طفلة رضيعة، واعتادت على الانصياع له. وجاء حبلها والخبر عن أن بيدرو غارثيا الثالث قد مات ليدفعاها إلى اتخاذ القرار. ومع ذلك، فقد صممت، منذ اللحظة التي وافقت فيها على الارتباط بجان دوساتيني، على أن الزواج لن يكتمل أبداً. وأنها ستختلق كل أنواع الذرائع لمواصلة تأخير اقترانها به، كأن تتذرع في البدء بتعكر المزاج الخاص بحالتها، ثم تبحث بعد ذلك عن أعذار أخرى، واثقة من أن التحكم بزوج مثل الكونت، ينتعل أحذية من جلد الجداء، ويطلي أظفاره بورنيش لامع، ويتقبل الزواج من امرأة حبلى من رجل غيره، سيكون أسهل بكثير من معارضة أب مثل إستيبان تروبيا. واختارت أهون الشرين. لقد انتبهت إلى أنه جرى ترتيب صفقة بين أبيها والكونت الفرنسي لم تكن لها كلمة فيها. فمقابل توفير اسم محترم لحفيده، قدم تروبيا إلى جان دوساتيني

دوطة مغرية والوعد .بأنه سيتلقى ميراثاً ذات يوم. وتهيأت بلانكا للتفاوض، ولكنها لم تكن مستعدة لأن تسلم زوجها أياً من حبها أو حميميتها، لأنها مازالت تحب بيدرو غارثيا الثالث بحكم العادة وليس أملاً بالعودة إلى اللقاء به.

أمضت بلانكا وعريسها ليلتهما الأولى كزوجين في الجناح الزفافي في أفضل فنادق العاصمة، وكان تروييا قد أمر بملء الجناح بالأزهار لدفع ابنته إلى أن تغفر له سلسلة أعمال العنف التي لاحقها بها خلال الشهور الأخيرة. وقد فوجئت بلانكا بأنها لم تكن مضطرة إلى تصنع الصداع، لأنهما ما إن وجدا نفسيهما وحيدين حتى تخلى جان عن دور العريس الذي يطبع قبلات على عنقها وينتقي أفضل قطع جراد البحر ليطعمها إياها بيده، وبدا كما لو أنه نسي تماماً أساليب إغوائه الشبيهة بأساليب عشاق السينما الصامتة، ليتحول إلى الأخ الذي كان عليه معها خلال نزهاتهما في الريف، حين كانا يذهبان لتناول وجبة خفيفة على العشب ومعهما آلة التصوير وكتب بالفرنسية. دخل جان إلى الحمام، وتأخر فيه طويلاً إلى حد أن بلانكا كانت نصف نائمة عندما خرج. وقد ظنت أنها تحلم حين رأت زوجها وقد استبدل بدلة الزفاف ببيجاما من حرير أسود وروب من مخمل بومباي، ووضع على رأسه شبكة لتثبيت تموجات تسريحته الدقيقة، وكانت تفوح منه بزخم رائحة كولونيا إنكليزية. ولم يبد عليه أنه يشعر بأي تلهف زفافي. جلس إلى جانبها في السرير وداعب خدها بالحركة الساخرة قليلاً التي عرفتها منه في مناسبات أخرى، وبادر بعد ذلك إلى التوضيح، بإسبانيته المتكلفة والخالية من الراءات، بأنه لا يشعر بأي ميل خاص إلى الزواج، لأنه رجل مولع فقط بالفنون والآداب والموضوعات العلمية الطريفة، وأنه لن يحاول بالتالي إزعاجها بمتطلبات الزوج، أي أنهما يستطيعان العيش متقاربين، وليس ملتحمين، وبوئام تام وتهذيب جيد. اجتاح بلانكا إحساس بالراحة، فألقت بذراعيها حول عنقه وقبلته من خديه.

- شكراً يا جان - هتفت.

- لا داعي للشكر - أجابها بتهذب.

استلقيا في السرير الكبير ذي الطراز الإمبراطوري الزائف، وراحا يعلقان على تفاصيل الحفلة ويخططان لحياتهما المستقبلية.

ـ لا يهمك أن تعرف من هو أبو ابني؟ ـ سألته بلانكا.

ـ إنني أنا ـ أجابها جان وهو يقبّل جبهتها.

ناما على جانبي السرير، يدير كل منهما ظهره للآخر. وفي الخامسة صباحاً استيقظت بلانكا ومعدتها مضطربة بسبب حلاوة رائحة الأزهار التي زين بها إستيبان ترويبا السرير الزفافي. رافقها جان دوساتيني إلى الحمام، وأسند جبهتها وهي تنحني فوق المرحاض، ثم ساعدها على الاستلقاء في الفراش وأخرج الأزهار إلى الممر. وظل ساهراً بقية الليل يقرأ فلسفة التبرج للماركيز دوساد، بينما هي تتنهد في أحلامها من روعة الزواج من مثقف.

ذهب جان في اليوم التالي إلى المصرف لصرف شيك حميه وأمضى النهار كله تقريباً في التجول على متاجر مركز المدينة ليشتري جهاز عريس رأى أنه مناسب لوضعه المادي الجديد. وفي أثناء ذلك، ملت بلانكا من انتظاره في قاعة الاستقبال في الفندق، فقررت الذهاب لزيارة أمها. وضعت على رأسها أفضل قبعة صباحية لديها وانطلقت في عربة أجرة إلى بيت الناصية الكبير، حيث كان بقية أفراد الأسرة يتناولون الغداء بصمت، وهم لا يزالون متجهمين ومتعبين من مفاجآت حفلة الزفاف وارتدادات آخر المشاجرات. وعند رؤيتها تدخل غرفة الطعام، أطلق أبوها صرخة رعب.

ـ ما الذي تفعلينه هنا يا ابنتي! ـ زمجر.

ـ لا شيء... جئت لرؤيتكم... ـ تلعثمت بلانكا مرعوبة.

ـ أنت مجنونة! ألا تدركين أنه إذا رآك أحد، سيقول الجميع إن زوجها قد أعادها في أوج شهر العسل؟ وسيقولون إنها لم تكن عذراء!

ـ وأنا لم أكن عذراء يا أبي.

كاد إستيبان أن يصفعها على وجهها، ولكن خايمي وقف أمامه بتصميم شديد، فاكتفى بشتمها لبلاهتها. نهضت كلارا العصية على التأثر وقادت بلانكا إلى كرسي وسكبت لها طبقاً من السمك البارد مع

صلصة الكَبَر. وبينما كان إستيبان يواصل الصراخ، وخرج نيكولاس لإحضار السيارة كي يعيدها إلى زوجها، ظلت هي وأمها تتهامسان كما في الأزمنة القديمة.

في مساء ذلك اليوم بالذات، استقلت بلانكا وجان القطار الذي حملهما إلى الميناء. ومن هناك أبحرا في عابرة محيطات إنكليزية. كان يرتدي بنطالاً من الكتان الأبيض وسترة زرقاء ذات تفصيل بحري، بانسجام تام مع تنورة زوجته الزرقاء وسترتها البيضاء. بعد أربعة أيام من ذلك أنزلتهما السفينة في أكثر مقاطعات الشمال عزلة ونسياناً، حيث مرت ملابس سفرهما الأنيقة وحقائبهما التي من جلد التمساح دون أن تلفتا انتباه أحد في قيظ ساعة القيلولة الجاف. أنزل جان دوساتيني زوجته مؤقتاً في فندق وانهمك في مهمة البحث عن مسكن يليق بمداخيله الجديدة. وخلال أربع وعشرين ساعة كان المجتمع الريفي الصغير قد علم بأن كونتاً حقيقياً يقيم بينهم. وقد سهّل ذلك الأمور على جان. استطاع أن يستأجر منزلاً قديماً كان ملكاً لأحد أصحاب أكبر ثروات أزمنة النترات، قبل اختراع بديل صناعي لها وسقوط المنطقة كلها في البؤس. كان البيت ذاوياً ومهجوراً، مثل كل شيء هناك، يحتاج إلى بعض الإصلاحات، ولكنه يحتفظ بوقاره العريق ومفاتن نهاية القرن. تولى الكونت تنفيذ ديكوره حسب ذوقه، وفعل ذلك بترف خاطئ وانحطاط فاجأ بلانكا المعتادة على حياة الريف وعلى تقشف أبيها التقليدي. وزع جان زهريات كبيرة من الخزف الصيني المشكوك فيه، ووضع فيها ريش نعام مصبوغ بدلاً من الأزهار، وعلق ستائر دمشقية كثيرة الطيات والشرّابات، ووسائد ذات هُدب وزينات، وأثاث من كل الطُرز، ومعلقات مذهبة، وبارابانات، ومصابيح غير معقولة محمولة على تماثيل خزفية تمثل زنوجاً حبشيين بالحجم الطبيعي، شبه عراة، ولكنهم ينتعلون أخفافاً وتغطي رؤوسهم عمائم. وكان البيت بستائره المسدلة دائماً يظل في عتمة خفيفة تتمكن من كبح ضوء الصحراء القاسي. وقد وضع جان في الزوايا مجامر شرقية يحرق فيها أعشاباً عطرية وعيدان بخور كانت تقلب معدة بلانكا في البدء، ولكنها سرعان ما اعتادت عليها. وتعاقد

مع عدد من الهنود للقيام على خدمته، فضلاً عن امرأة بدينة ضخمة تمارس مهنة الطهو، دربها على إعداد صلصات كثيرة التوابل تروقه، وخادمة عرجاء وأمية للاهتمام ببلانكا. وألبسهم جميعاً أزياء بديعة مستوحاة من المسرحيات الغنائية، ولكنه لم يستطع جعلهم يلبسون أحذية لأنهم معتادون على المشي حفاة ولا يطيقون انتعالها. لم تكن بلانكا تشعر بالضيق في البيت، ولا تثق بالهنود غير القابلين للتغيير الذين يخدمونها دون حماسة ويبدو أنهم يسخرون منها من وراء ظهرها. كانوا يتجولون حولها مثل أرواح، وينسلون دون ضجة عبر الحجرات، وهم في معظم الوقت عاطلين وضجرين. لا يستجيبون عندما تكلمهم، كما لو أنهم لا يفهمون الإسبانية، ويتكلمون في ما بينهم همساً أو بلهجات النجود. وفي كل مرة تُحدث بلانكا زوجها عن الأمور الغريبة التي تراها من الخدم، يقول لها إنها عادات الهنود ويجب عدم إيلائهم الاهتمام. وقد ردّت كلارا في رسالة بالكلام نفسه عندما أخبرتها بلانكا بأنها رأت أحد الهنود يتوازن على حذاء قديم غريب الشكل، له كعب معوج ورباط من المخمل، حيث تظل قدما الرجل العريضتان والقاسيتان منكمشتين. «لا بد أن حرّ الصحراء، والحبل، ورغبتك الدفينة في العيش ككونتيسة، مثل سلالة زوجك، تجعلك ترين رؤى يا صغيرتي»، هذا ما كتبته لها كلارا مازحة، وأضافت أن أفضل علاج مضاد لأحذية لويس الخامس عشر هو دوش بارد ونقيع البابونج. وفي مناسبة أخرى وجدت بلانكا في طبقها سحلية ميتة وكانت على وشك حملها إلى فمها. وما إن تجاوزت رعبها وتمكنت من استعادة صوتها حتى نادت الطاهية صارخة وأشارت لها إلى الطبق بإصبع مرتعشة. اقتربت الطاهية تزرجح كتل شحمها الضخمة وضفائر شعرها السوداء، وتناولت الطبق دون أي تعليق. ولكن بلانكا ظنت، حين التفتت، أنها فاجأت غمزة تواطؤ بين زوجها والهندية. ظلت مستيقظة في تلك الليلة حتى ساعة متأخرة وهي تفكر في ما رأته، وعند الفجر توصلت إلى أنها قد تخيلت ذلك. وأن أمها على حق: فالحر والحبل يشوشانها.

جرى تخصيص أقصى حجرات البيت لهوس جان بالتصوير. وهناك

وزعٍ مصابيحه، ومناصبه ثلاثية القوائم، وآلاته. رجا بلانكا ألا تدخل أبداً دون إذن إلى ما عمده باسم «المخبر»، لأنه يمكن لدخول الضوء الطبيعي أن يُفسد بلاكات التصوير، حسب قوله. أقفل الباب بمفتاح يحمله معه معلقاً بسلسلة ذهبية، وهو احتياط بلا طائل بالكامل، لأن زوجته لم تكن تهتم أدنى اهتمام بما يحيط بها، واهتمامها بفن التصوير أقل بكثير.

ومع تزايد بدانة بلانكا، راحت تكتسب وداعة شرقية تصطدم بها محاولات زوجها لدمجها بالمجتمع، أو مرافقتها له إلى الحفلات، أو خروجها للتنزه في عربة، أو استثارة حماستها بديكور بيتها الجديد. لجأت بلانكا الثقيلة، المتثاقلة، المتوحدة، دائمة التعب، إلى التلهي بالحياكة والتطريز. كانت تقضي شطراً كبيراً من النهار نائمة، وفي ساعات يقظتها تصنع قطع ملابس صغيرة وردية، لأنها واثقة من أنها ستنجب طفلة. ومثلما فعلت أمها معها، طورت بلانكا نظام تواصل مع الجنين الذي يتشكل، وانقلبت إلى داخلها في حوار صامت وبلا انقطاع. وكانت تصف في رسائلها حياة عزلتها الكئيبة، وتشير إلى زوجها بتعاطف أعمى على أنه رجل رقيق، رزين، ومحترم. وهكذا راحت تستقر، دون قصد منها، أسطورة أن جان دوساتيني هو شخص أشبه بأمير، دون أي إشارة إلى أنه يتنشق الكوكائين عبر الأنف ويدخن الأفيون في الأماسي، لثقتها بأن أبويها لن يتفهما ذلك. لقد وُضع جناح كامل من البيت تحت تصرفها. وفيه استقرت ورتبت أوضاعها وراحت تراكم فيه كل ما تُعدّه لولادة ابنتها. كان جان يقول إنه لا يمكن لخمسين طفل أن يلبسوا كل تلك الثياب واللعب بكل تلك الكميات من الألعاب والدمى، ولكن متعة بلانكا الوحيدة كانت تتمثل في الخروج للتجول في سوق المدينة الصغير، وشراء كل ما تراه وردي اللون من احتياجات الأطفال. كان يومها ينقضي في تطريز أغطية صغيرة، وحياكة أحذية طفولية من الصوف، وتزيين سلال، وترتيب أكوام القمصان والمرايل والحفاضات، وكي الملاءات المطرزة. وبعد القيلولة تكتب لأمها، وفي بعض الأحيان لأخيها خايمي، وعندما تغيب الشمس ويبرد الجو قليلاً، تخرج للتمشي

في محيط البيت لتتخلص من خدر ساقيها. وفي الليل تجتمع مع زوجها في قاعة الطعام الفسيحة في البيت، حيث تماثيل الزنوج الخزفية المنتصبة في الزوايا تضيئ المشهد بأضواء ماخور. كان كل منهما يجلس إلى أحد طرفي المائدة المغطاة بسماط طويل، وعليها أواني من الكريستال وأدوات كاملة، والمزينة بزهور اصطناعية، لأنه لا وجود لأزهار طبيعية في تلك المنطقة القاحلة. ويقوم على خدمتهما دائماً الهندي غير المبالي والصامت نفسه الذي يحرك في فمه طوال الوقت كرة خضراء من أوراق الكوكا التي تقيم أوده. لم يكن خادماً عادياً ولا يؤدي أي وظيفة محددة ضمن النظام المنزلي. ولم تكن خدمة المائدة هي اختصاصه، فهو لا يتقن التعامل من الأطباق ولا مع أدوات المائدة، ويلقي لهما الطعام كيفما اتفق. وقد اضطرت بلانكا إلى أن تنبهه في إحدى المرات أن يتلطف ولا يمسك بيده البطاطا ليضعها في طبقها. غير أن جان دوساتيني كان يقدره لسبب غامض وكان يدربه ليكون مساعده في مخبر التصوير.

- إذا كان غير قادر على التكلم كمسيحي، فكيف سيتمكن من التقاط صور - أبدت بلانكا ملاحظتها حين علمت بالأمر.

وقد كان ذلك الهندي هو من تظن بلانكا أنها رأته بحذاء ذي كعب من طراز لويس الخامس عشر.

مرت الشهور الأولى من حياتها كمتزوجة بهدوء وضجر. وازدادت ميول بلانكا الطبيعية إلى العزلة والوحدة. فقد رفضت الحياة الاجتماعية وانتهى الأمر بجان دوساتيني إلى الذهاب وحده إلى الدعوات الكثيرة التي يتلقياها. وعند عودته إلى البيت بعد ذلك، كان يسخر أمام بلانكا من ابتذال تلك العائلات العريقة القديمة، فالآنسات يعتمرن قلنسوات والرجال يستخدمون الكتفيات. وقد استطاعت بلانكا أن تعيش حياة الكسل التي تميل إليها، بينما كرس زوجها وقته لتلك المتع الصغيرة التي يمكن للمال وحده أن يوفرها، والتي اضطر إلى التخلي عنها لزمن طويل. كان يخرج ليلاً للمقامرة في الكازينو، وقد قدرت زوجته أنه يخسر مبالغ كبيرة من المال، لأن هناك على الدوام في نهاية كل شهر صف من

الدائنين أمام الباب. وقد كانت لدى جان فكرة خاصة جداً حول الاقتصاد المنزلي. اشترى سيارة من آخر موديل، مقاعدها مغلفة بجلد فهد وبعض أجزائها المعدنية مذهبة ببذخ يليق بأمير عربي، وكانت أكبر وأفخم سيارة عرفتها تلك الأنحاء. وأقام شبكة اتصالات غامضة أتاحت له اقتناء عاديات وقطع أثرية، لاسيما قطع خزف فرنسي من الطراز الباروكي الذي يشعر بضعف نحوه. وأدخل إلى البلاد صناديق مشروبات فاخرة يمررها من الجمارك دون مشاكل. وكانت مُهرياته تدخل البيت من بوابة الخدم وتخرج سليمة لم تمس من الباب الرئيسي لتُنقل إلى أماكن أخرى، حيث كان جان يستهلكها في حفلات قصف سرية أو يبيعها بأسعار باهظة. ولم يكونا يتلقيان زيارات في البيت، فتوقفت نساء المنطقة بعد أسابيع عن الاتصال ببلانكا. وانتشرت الإشاعة بأنها متكبرة، متعجرفة، وعليلة الصحة، مما ضاعف من التعاطف العام مع الكونت الفرنسي الذي اكتسب شهره الزوج الصبور والمعاني.

عاشت بلانكا على علاقة طيبة بزوجها. والمناسبات الوحيدة التي تجادلا فيها هي عندما كانت تحاول التقصي عن أوضاع الأسرة المالية. لم تكن تجد تفسيراً لترف خوان في اقتناء الخزف والتنزه في تلك السيارة النمرية، وهو الذي لا يجد المال لدفع حساب صاحب المتجر الصيني، ولا أجور الخدم الكثيرين. فكان جان يرفض التحدث في الموضوع بحجة أنها من مسؤوليات الرجال، وأنه ليس عليها أن تشغل رأسها الصغير كرأس الجدجد في مشاكل ليست قادرة على فهمها. افترضت بلانكا أن لحساب جان دوساتيني مع إستيبان ترويبا أرصدة غير محدودة، وحيال استحالة توصلها إلى اتفاق معه، انتهى بها الأمر إلى إهمال تلك المسائل. كانت تعيش كزهرة من مناخ آخر، في ذلك البيت المغروس وسط الرمال، محاطة بهنود غريبين، كمن هي موجودة في بُعد آخر، كثيراً ما كانت تُفاجأ بتفاصيل صغيرة تدفعها إلى الشك في سلامة تفكيرها. كان الواقع يبدو لها مشوشاً، كما لو أن تلك الشمس القاسية التي تمحو الألوان قد شوهت كذلك الأشياء التي تحيط بها وحوّلت الكائنات البشرية إلى ظلال سرية متكتمة.

في خدر تلك الشهور، نسيت بلانكا ضخامة نكبتها وهي محمية بالجنين الذي ينمو في أحشائها. تخلت عن التفكير في بيدرو غارثيا الثالث بالتلهف الملح الذي كانت عليه في السابق، ولاذت بذكريات حلوة وباهتة تستطيع استحضارها في أي لحظة. كانت حسيتها هاجعة ونادراً ما كانت تتأمل في قدرها التعيس، وتقنع بتخيل نفسها تطفو في فضاء سديمي، بلا أتراح ولا أفراح، بعيدة عن شؤون الحياة الفظة، معزولة، مع ابنتها كرفقة وحيدة. ووصلت إلى حد التفكير في أنها فقدت إلى الأبد القدرة على الحب، وأن أوار جسدها قد خمد نهائياً. كانت تقضي ساعات في تأمل المشهد الشاحب الممتد أمام نافذتها. فالبيت يقع عند حدود المدينة، تحيط به بعض الأشجار الضعيفة التي تقاوم حصار الصحراء القاسي. ومن جهة الشمال، كانت الريح تدمر أي نوع من الخضرة، ويمكن للناظر أن يرى السهب المترامي والهضاب والجبال التي تبدو راجفة في انعكاس وهج الضوء. وفي النهار يثقل عليها الاختناق بحر تلك الشمس التي كالرصاص، بينما ترتجف في الليل من البرد بين ملاءات السرير، فتحمي نفسها من الصقيع بقرب مملوءة بماء ساخن وبشالات صوفية. تنظر إلى السماء العارية والصافية بحثاً عن أثر غيمة، لعل قطرة مطر واحدة تهطل ذات مرة وتخفف من الجفاف الطاغي في ذلك الوادي القمري. مرت الشهور دون تبدل، ودون أي تسلية سوى رسائل أمها التي تخبرها فيها عن حملة أبيها السياسية، وعن نزوات نيكولاس الجنونية، وعن تصرفات خايمي الغريبة الذي يعيش كراهب ولكنه يمضي بعينين عاشقتين. وقد اقترحت عليها كلارا في إحدى رسائلها أن تعود إلى صنع دمى أعياد الميلاد كي تُبقي يديها مشغولتين. فحاولت عمل ذلك. طلبت أن يُرسل إليها الصلصال الخاص الذي اعتادت على استخدامه في الماريات الثلاث، ونظمت مشغلها في الجانب الخلفي من المطبخ، وكلفت هنديتين ببناء فرن تشوي فيه تماثيل الخزف. ولكن جان دوساتيني راح يسخر من مسعاها الفني قائلاً إنها إذا كانت تريد إبقاء يديها مشغولتين، فمن الأفضل أن تحوك جوارباً وأن تتعلم صنع حلويات رقائق العجين. فانتهى بها الأمر إلى هجر العمل، ولم يكن السبب

في ذلك سخريات زوجها بقدر ما هي قناعتها بأنه من المحال أن تتمكن من منافسة فخار الهنود القديم.

كان جان قد نظم تجارته بالإصرار نفسه الذي أبداه في مسألة التشينتشات، ولكن بنجاح أكبر. فباستثناء كاهن ألماني أمضى ثلاثين عاماً وهو يجوب المنطقة للكشف عن ماضي شعب الإنكا، لم يكن هناك من أبدى اهتماماً بتلك اللقى الأثرية، باعتبارها لا تتمتع بأي قيمة تجارية. فالحكومة تحظر المتاجرة بالآثار التي تعود للسكان الأصليين، وقد منحت امتيازاً عاماً للكاهن المخول بالتنقيب عن القطع الأثرية وحملها إلى المتحف. لقد رآها جان أول مرة في واجهات المتحف المغبرة. وأمضى يومين مع الألماني الذي بدا سعيداً باللقاء بعد كل تلك السنوات بشخص يهتم بعمله، ولم يجد غضاضة في الكشف عن معارفة الواسعة. وهكذا اطلع جان على الطريقة التي تمكنه من تحديد الزمن الذي أمضته تلك الآثار مدفونة، وتعلم التمييز بين الحقب الزمنية وتنوع الأساليب، واكتشف طريقة تحديد مواقع المقابر في الصحراء من خلال إشارات غير مرئية للعين المتحضرة، وتوصل أخيراً إلى أنه على الرغم من عدم تمتع تلك الأواني الفخارية بالبريق الذهبي للقبور الفرعونية المصرية، إلا أن لها على الأقل القيمة التاريخية نفسها. وبعد حصوله على كل المعلومات التي يحتاج إليها، نظم فرق عمل من الهنود لينبش عن كل ما أفلت من غيرة الكاهن الأركيولوجية.

بدأت قطع الفخار البديعة، الخضراء بزنجار الزمن، بالوصول إلى البيت مخبأة في صرر هنود وفي خروج محملة على ظهور حيوانات اللاما، وملأت بسرعة الأماكن السرية المعدة لها. كانت بلانكا تراها تتكدس في الحجرات وتقف مذهولة بأشكالها. تحملها بيديها، تداعبها كالمنوّمة، وعندما يلفونها بالقش والورق ليرسلوها إلى أماكن بعيدة وغير معروفة، تشعر بالكآبة. كان ذلك الفخار يبدو لها شديد البهاء. وتشعر أن مسوخ أعياد الميلاد التي تصنعها لا يمكن لها أن تكون تحت السقف نفسه مع قطع فخار الإنكا، ولهذا السبب، أكثر من أي سبب آخر، هجرت مشغلها.

كانت تجارة مشغولات السكان الأصليين الصلصالية تجري بسرية، لأنها تراث تاريخي للأمة. وكانت تعمل لحساب جان دوساتيني عدة فرق من الهنود وصلوا إلى هناك متسللين سراً عبر ممرات حدودية معقدة. لم تكن لديهم وثائق تثبت شخصيتهم ككائنات بشرية، كانوا صموتين، خشنين لا يمكن النفاذ إليهم. وكلما سألت بلانكا من أين تخرج تلك الكائنات التي تظهر فجأة في فناء بيتها، يجيبونها إنهم أبناء عمومة الهندي الذي يخدم على المائدة، وقد كانوا جميعهم متشابهين بالفعل. ولم يكونوا يبقون طويلاً في البيت. فمعظم الوقت يقضونه في الصحراء، دون أي أمتعة سوى رفش لحفر الرمل وكرة من أوراق الكوكا يديرونها في الفم للبقاء أحياء. في بعض الأحيان يحالفهم الحظ بالعثور على أطلال قرية إنكية شبه مطمورة، فيملؤون خلال وقت قصير أقبية البيت بما يسرقونه في حفرياتهم. كان البحث عن تلك البضاعة، ونقلها وتسويقها يجري بحذر شديد، حتى إن الشكوك لم تخامر بلانكا بأن هناك ما هو غير شرعي وراء نشاطات زوجها. وقد أوضح لها جان أن الحكومة شديدة الحساسية بشأن تلك الجرار القذرة وعقود أحجار الصحراء البائسة، ومن أجل تلافي الإجراءات البيروقراطية الرسمية اللامتناهية، فإنه يفضل المتاجرة بها على طريقته. كان يُخرجها من البلاد في صناديق مختومة تحمل بطاقة أنها تحتوي تفاحاً، بفضل تواطؤ نفعي من بعض مفتشي الجمارك.

لم يكن ذلك كله يحظى بأدنى اهتمام من جانب بلانكا. ما يقلقها هو مسألة الموميات فقط. لقد كانت متآلفة مع الموتى، لأنها أمضت حياتها على تماس وثيق معهم من خلال المنضدة ذات القوائم الثلاث، حيث كانت أمها تستحضرهم. كانت معتادة على رؤية أشباحهم الشفافة تتمشى في ممرات بيت أبويها، وتُحدث ضجة في خزائن الثياب، وتظهر في الأحلام لتتنبأ بنكبات أو بجوائز يانصيب. ولكن الموميات كانت مختلفة. فتلك الكائنات المنكمشة، الملفوفة بخرق قماشية تتحلل إلى نسالات مفتتة، برؤوسها المعروقة والمصفرّة، وأيديها المجعدة، وجفونها المخيطة، وشعورها القليلة في القذال، وابتساماتها الأبدية والرهيبة دون

شفاه، وروائحتها الزنخة، وبذلك المظهر الحزين والبائس للجثث القديمة، كانت تقلب روحها. لقد كانت المومياءات قليلة. فنادراً ما يأتي الهنود بإحداها. يظهرون في البيت بطيئين ومتثاقلين، يحملون جرة مختومة بصلصال مشوي. يفتحها جان بحذر في حجرة مغلقة الأبواب والنوافذ، كيلا تحولها أول نسمة هواء إلى رماد. ومن داخل الإناء الفخاري تظهر المومياء، كأنها بذرة فاكهة غريبة، متكورة في وضع جنيني، ملفوفة بأسمالها، ومعها كنوزها البائسة من عقود أسنان ودمى من الخرق. كانت المومياءات تلقى رواجاً أكبر من الأشياء الأخرى المستخرجة من المدافن، لأن هواة اقتناء التحف الأفراد، وبعض المتاحف الأجنبية، يدفعون مقابلها أثماناً جيدة. وكانت بلانكا تتساءل عن نوعية أولئك الأشخاص الذين يجمعون جثث موتى وأين يضعونها. ما كان بمقدورها أن تتصور المومياء كجزء من زينة صالون، فيقول لها جان دوساتيني إنها حين توضع في وعاء زجاجي، يمكن أن تكون أثمن من أي عمل فني في نظر مليونير أوروبي. لقد كان من الصعب عرض المومياءات في السوق، ونقلها وتمريرها من الجمارك، ولهذا كانت تبقى في بعض الأحيان عدة أسابيع في أقبية البيت، بانتظار مجيء دورها للقيام بالرحلة الطويلة إلى الخارج. كانت بلانكا تحلم بها، وتنتابها التهيؤات، ويخيل إليها أنها تراها تمشي في الممرات على رؤوس أصابعها، ضئيلة كعفاريت متكتمة وخفية. فتقفل باب حجرتها، وتدس رأسها تحت الملاءات، وتقضي ساعات على تلك الحال، مرتعشة ومصلية ومستدعية أمها بقوة الفكر. وقد روت ذلك لكلارا في رسائلها، فردت عليها أمها بأنه لا يتوجب عليها الخوف من الأموات، وإنما من الأحياء؛ لأنه على الرغم من سوء سمعة المومياءات، إلا أنه لم يُسمع عنها قط أنها هاجمت أحداً، بل على العكس تماماً، فهي من طبيعة أقرب إلى الخجل. ومتشجعة بنصائح أمها، قررت بلانكا التجسس على المومياءات. فكانت تنتظرها بصمت، وتراقب من خلال باب غرفتها الموارب. وسرعان ما أيقنت أنها تتجول عبر البيت مجرجرة سيقانها الطفولية على السجاجيد، وتتهامس كالتلاميذ، وتتدافع، وتقضي الليل كله في جماعات صغيرة من اثنتين أو ثلاثة، وتكون دوماً في جهة مخبر

تصوير جان دوساتيني. كانت تعتقد أنها تسمع تأوهات نائية من عالم ما وراء القبر وتعاني من نوبات رعب جامحة، تنادي زوجها صارخة، ولكن لم يكن أحد يهرع إليها، بينما يجتاحها خوف يحول دون اجتيازها البيت للبحث عنه. ومع بزوغ أولى أشعة الشمس، تستعيد بلانكا رشدها والسيطرة على أعصابها المعذبة، وتنتبه إلى أن غمها الليلي هو ثمرة خيالها المحموم الذي ورثته عن أمها، وتطمئن إلى أن يعود الليل ليرخي ظلاله وتتجدد دورة رعبها. وفي أحد الأيام، فقدت القدرة على تحمل مزيد من التوتر الذي تشعر به مع اقتراب الليل وقررت أن تكلم جان بشأن المومياتء. كانا يتناولان العشاء. وعندما حدثته عن حركة التنقل والهمسات والصرخات المخنوقة، تجمد جان دوساتيني والشوكة في يده، وفمه مفتوح. والهندي الذي كان يدخل غرفة الطعام حاملاً صينية، تعثر وتدحرج الفروج المشوي تحت أحد الكراسي. أظهر جان كل ما لديه من فتنة وحزم وحس منطقي كي يقنعها بأن أعصابها تخونها وأن شيئاً من ذلك كله لا يحدث في الواقع، وأن الأمر برمته ناتج عن مخيلتها الجامحة. تظاهرت بلانكا بتقبلها لرأيه، ولكنها بدت متشككة جداً بحماسة زوجها الذي لا يعير عادة أي اهتمام بمشاكلها، كما أنها ارتابت بوجه الخادم الذي فقد للمرة الأولى ملامحه الجامدة كصنم وجحظت عيناه قليلاً. عندئذ قررت في نفسها أن الوقت قد حان لتتحرى بعمق حول مسألة المومياءات النقالة. وفي تلك الليلة انسحبت باكراً بعد أن قالت لزوجها إنها تفكر في تناول مهدئ كي تنام. ولكنها تناولت بدلاً من ذلك فنجاناً كبيراً من القهوة السوداء، وقبعت وراء الباب مستعدة لقضاء ساعات طويلة من السهر.

أحست بأولى الخطوات الخافتة عند انتصاف الليل تقريباً. فتحت الباب بحذر شديد وأطلت برأسها في اللحظة التي كانت فيها هيئة متكورة على نفسها تمر في أقصى الممر. كانت واثقة هذه المرة من أنها لم تكن تحلم، ولكنها أحتاجت، بسبب ثقل بطنها، إلى دقيقة تقريباً كي تصل إلى الممر. كانت الليلة باردة، وكان يهب من الصحراء هواء يجعل زخارف البيت العتيقة تطقطق، وينفخ الستائر كأنها أشرعة سوداء

في عرض البحر. منذ طفولتها، حين كانت تستمع في المطبخ إلى قصص النانا عن العفاريت، كانت تخشى الظلام، ولكنها لم تتجرأ مع ذلك على إضاءة الأنوار كيلا تُفزع الموميات الصغيرة في تجوالها التائه.

وفجأة كسرت صمت الليل الكثيف صرخة مبحوحة ومكتومة، كأنها تخرج من أعماق تابوت أو هذا ما ظنته بلانكا على الأقل. كانت قد بدأت بالوقوع ضحية الانبهار المرضي بأمور ما وراء القبر. تجمدت في مكانها وقلبها يكاد يطفر من فمها، ولكن أنّة أخرى أخرجتها من ذهولها ومنحتها القوة على التقدم حتى باب مخبر جان دوساتيني. حاولت فتحه، ولكنه كان مقفلاً بالمفتاح. ألصقت وجهها بالباب، وسمعت بوضوح عندئذ همسات وصرخات مخنوقة وضحكات، ولم يعد لديها أي شك في أن شيئاً يحدث للموميات. رجعت إلى غرفتها مرتاحة لقناعتها بأنه المسألة ليست في أن أعصابها تخونها، وإنما في شيء فظيع يحدث في جناح زوجها السري.

في اليوم التالي، انتظرت بلانكا إلى أن انتهى جان دوساتيني من نظافته وزينته الشخصية الدقيقة، وتناول فطوره بتقشفه المعهود، وقرأ صحيفته حتى الصفحة الأخيرة، وخرج أخيراً في نزهته الصباحية اليومية، دون أن يكشف شيءٌ في هدوء لامبالاتها كأم مقبلة عن تصميمها الحازم. وعندما خرج جان، استدعت الخادم ذا الكعب العالي، وأصدرت له أمراً للمرة الأولى:

- اذهب إلى المدينة واشتر لي مربى بابايا - أمرته بجفاء.

انصرف الهندي بالخطوات البطيئة التي تميز أبناء جنسه، وظلت هي في البيت مع الخدم الآخرين الذين تخشاهم أقل بكثير من ذلك الشخص الغريب ذي الميول البلاطية. افترضت أن لديها ساعتين قبل أن يعود، فقررت عدم التسرع والتصرف بهدوء. كانت مصممة على كشف سر الموميات الجوالة. توجهت إلى المخبر واثقة من أن الموميات لن تكون لديها الحماسة للقيام بحركات تهريجية على ضوء الصباح المشع، ومتمنية ألا يكون الباب مقفلاً بمفتاح، ولكنها وجدته مقفلاً كالعادة. جربت كل ما لديها من مفاتيح، ولكن أياً منها لم ينفع. عندئذ تناولت أكبر سكين

في المطبخ، وأدخلته في رزة الباب وبدأت تحركه إلى أن طارت قطع من خشب الإطار الجاف، وتمكنت بذلك من فك الصفيحة الحديدية وفتح الباب. كان الضرر الذي أحدثته في الباب كبيراً لا يمكن إخفاؤه، وأدركت أنه سيكون عليها، عندما يراه زوجها، أن تقدم تفسيراً عقلانياً، ولكنها واست نفسها بالتذرع بأن لها الحق، كسيدة البيت، أن تعرف ما يحدث تحت سقفه. وعلى الرغم من حسها العملي الذي قاوم بثبات طوال أكثر من عشرين عاماً رقصة المنضدة ذات القوائم الثلاث، وسماع أمها تتنبأ بما لا يمكن التنبؤ به، إلا أنها ما إن اجتازت عتبة المخبر حتى بدأت ترتجف.

بحثت عن مفتاح الكهرباء بالتلمس وأشعلت الضوء. وجدت نفسها في حجرة فسيحة، جدرانها مطلية بالأسود مع ستائر سميكة من اللون نفسه على النوافذ، حيث لا يمكن أن يتسرب منها أدنى شعاع ضوء. والأرض مغطاة بسجاجيد سميكة قاتمة، وتتوزع في أنحائها البروجكتورات والمصابيح وعاكسات الضوء التي رأت جان يستخدمها أول مرة في مأتم بيدرو غارثيا العجوز، عندما خطر له أن يلتقط صوراً للموتى والأحياء، حيث استثار الناس وانتهى الأمر بالفلاحين إلى أن يدوسوا بلاكات الصور بأقدامهم على الأرض. نظرت في ما حولها مترددة: إنها وسط مشهد خرافي. تقدمت متجاوزة صناديق مفتوحة تحتوي ملابس مزينة بالريش من كل العصور، وباروكات شعور مجعدة، وقبعات بديعة، توقفت أمام عُقلة مذهبة تتدلى من السقف وقد عُلقت بها دمية مخلعة المفاصل ولها حجم إنسان. رأت في أحد الأركان حيوان لاما محنطاً، وعلى المناضد زجاجات مشروبات عنبرية اللون، وعلى الأرض جلود حيوانات غريبة. ولكن أكثر ما فاجأها هي الصور. فقد وقفت مذهولة حين رأتها. كانت جدران مكتب جان دوساتيني مغطاة بصور مشاهد إباحية مؤلمة تكشف طبيعة زوجها الخفية.

كانت بلانكا بطيئة ردود الفعل، وحاولت خلال بعض الوقت أن تستوعب ما تراه، لأنها تفتقر إلى الخبرة في هذه المسائل. فهي تعرف اللذة على أنها مرحلة أخيرة وبديعة في الطريق الطويل الذي قطعته مع بيدرو

الثالث، حيث اجتازت دون تعجل، وبمزاج رائق، إطار الغابة، وحقول القمح، والنهر، تحت سماء فسيحة، ووسط صمت الريف. لم تصل إلى معرفة المعاناة الخاصة بسن المراهقة. فبينما كانت زميلاتها في المدرسة يقرأن خفية روايات محظورة عن عاشقين متخيلين وعذراوات متلهفات لأن يتخلين عن كونهن كذلك، كانت هي تجلس في ظل أشجار الخوخ في فناء الراهبات، تغمض عينيها وتستحضر بدقة تامة الواقع البديع لبيدرو غارثيا الثالث يطوقها بذراعيه، ويجوبها بمداعباته، وينتزع من أعمق أعماقها التأوهات نفسها التي يستخرجها من جيتاره. لقد وجدت غرائزها مشبعة فور تفتحها، ولم يخطر ببالها أنه يمكن للوله أن يتخذ أشكالاً أخرى. فكانت صور تلك المشاهد المشوشة والمعذبة تبعث على الحيرة أكثر ألف مرة من الموميات الصاخبة التي انتظرت رؤيتها.

تعرفت في الصور على وجوه خدم البيت. وقد كانت هناك حاشية بلاط الإنكا بكاملها، عراة مثلما وضعهم الله في الدنيا، أو شبه متسترين بأزياء مسرحية. رأت الهوة عميقة الغور بين ساقي الطاهية، وحيوان اللاما المحنط يمتطي الخادمة العرجاء، والهندي بارد الأعصاب الذي يخدمها على المائدة عارياً كوليد، أمرد وقصير الساقين بوجهه الحجري الجامد وعضوه الضخم منتصب.

وخلال لحظة بدت لانهائية، ظلت بلانكا غارقة في ترددها إلى أن هزمها هول ما رأت. حاولت التفكير بصفاء. فهمت ما الذي أراد جان دوساتيني قوله في ليلة الزفاف، عندما أوضح لها أنه لا يشعر بميل إلى الحياة الزوجية. وأدركت أيضاً مصدر السلطة المشؤومة التي يتمتع بها الهندي، وسخرية الخدم المستترة، وأحست أنها سجينة قاعة انتظار في الجحيم. وفي تلك اللحظة تحركت الطفلة في أحشائها، فارتعشت بلانكا كما لو أن ناقوس خطر قد قُرع.

ـ ابنتي! عليّ أن أُخرجها من هنا! ـ هتفت وهي تحتضن بطنها.

خرجت راكضة من المخبر، اجتازت البيت كله كنيزك ووصلت إلى الشارع، حيث أعاد إليها الحر الرصاصي وقسوة وهج الظهيرة الحس بالوقع. أدركت أنها لن تستطيع الوصول بعيداً جداً مشياً على قدميها

ببطنها الذي في الشهر التاسع. رجعت إلى غرفتها، وأخذت كل ما وجدته من نقود، وأعدت صرة صغيرة فيها بعض ملابس جهاز ابنتها الباذخ الذي أعدّته، وتوجهت إلى المحطة.

وبينما هي جالسة على المقعد الخشبي الخشن على رصيف المحطة، وصرة الملابس في حضنها وعيناها مذعورتان، انتظرت لساعات مجيء القطار، مصلية بين أسنانها ألا يعود الكونت إلى البيت ويرى التخريب في باب المخبر، وألا يبحث عنها إلى أن يجدها ويجبرها على دخول بلاط مملكة الإنكا المشؤوم، وأن يسرع القطار في المجيء ويصل في موعده ولو مرة واحدة، كي تتمكن من الوصول إلى بيت أبويها قبل أن يعلن الوليد الذي يتحرك في بطنها عن مجيئه إلى الدنيا، وأن تمتلك القوى اللازمة للقيام بهذه الرحلة طوال يومين دون راحة، وأن تكون الرغبة في العيش أقوى من الضيق الذي بدأ يستولي عليها. ضغطت أسنانها وانتظرت.

الفصل التاسع

الطفلة ألبا

ولدت ألبا واقفة، وهذه علامة حسن طالع. بحثت جدتها في ظهرها ووجدت لطخة لها شكل نجمة تميز الكائنات التي تولد مقدراً لها السعادة. «لا حاجة للقلق على هذه الطفلة. ستكون حسنة الطالع وسعيدة. وستكون لها فوق ذلك بشرة جيدة، لأن هذا يُورَّث، فأنا مازلت بلا تجاعيد ولم تظهر لي بثرة قط على الرغم من بلوغي هذه السن»، هذا ما أقرته كلارا في اليوم التالي لولادة الطفلة. ولهذه الأسباب لم يهتموا بشأن إعدادها للحياة، مادامت الكواكب قد توافقت لتزويدها بهبات كثيرة. كان برجها هو الأسد. درست الجدة نجمها ودونت قدرها بحبر أبيض على ألبوم ورق أسود، ألصقت فيه كذلك خصل شعر ضاربة إلى الخضرة من شعرها الأول، وقلامات الأظفار التي قصتها لها بعد قليل من ميلادها، وعدة صور تتيح رؤيتها مثلما كانت آنذاك: كائناً ضئيلاً بصورة استثنائية، شبه أصلع، مجعد الجلد وشاحب البشرة، دون أي علامات تشير إلى الذكاء البشري باستثناء عينيها السوداوين اللامعتين بتعبير شيخوخة حكيمة منذ المهد. هكذا كانت عينا أبيها الحقيقي. أرادت أمها أن تسميها كلارا، ولكن جدتها لم تكن تؤيد تكرار الأسماء في الأسرة، لأن ذلك يزرع البلبلة في دفاتر تدوين الحياة. بحثوا لها عن اسم في أحد معاجم المترادفات ووقعوا على اسمها، وهو الأخير في سلسلة كلمات مضيئة تعني جميعها الشيء نفسه. بعد سنوات من ذلك، كانت ألبا مؤرقة من التفكير في أنها حين تنجب ابنة، لن تجد كلمة أخرى بالمعنى نفسه تطلقها اسماً عليها، ولكن بلانكا قدمت لها فكرة استخدام لغات أجنبية، مما يوفر تشكيلة واسعة من التنويعات.

كانت ألبا على وشك أن تولد في قطار سكة ضيقة، في الساعة الثالثة عصراً، وسط الصحراء. وكان يمكن لذلك أن يكون شؤماً

لبطاقة طالعها. ولكنها تمكنت، لحسن الحظ، من التشبث ببطن أمها عدة ساعات أخرى، وخرجت إلى الدنيا في بيت جديها، في أدق يوم وتوقيت ومكان مناسب لبرجها. لقد وصلت أمها إلى بيت الناصية الكبير دون إخطار مسبق، وكانت مشعثة، معفرة بالغبار، تحيط الزرقة بعينيها، ومنحنية على نفسها من آلام التشنجات التي تسببها ألبا وهي تدفع بنفسها للخروج. طرقت الباب بيأس وعندما فتحوا لها اندفعت كإعصار دون توقف حتى حجرة الخياطة، حيث كانت كلارا تنهي آخر فستان صغير لحفيدتها المقبلة. هناك انهارت بلانكا، بعد رحلتها الطويلة، قبل أن تتمكن من تقديم أي تفسير، لأن بطنها انفزر في زفرة سائلة عميقة وأحست أن ماء العالم كله يسيل بين ساقيها بتدفق هائج. وعلى صرخات كلارا توافد الخدم راكضين، ومعهم خايمي الذي كان طوال تلك الأيام في البيت يحوم حول آماندا. نقلوها إلى حجرة كلارا وبينما هم يضعونها على السرير كانوا ينزعون الثياب عن بدنها، وبدأت ألبا تطل بإنسانيتها الصغيرة. وقد ساعدها على الخروج خالها خايمي الذي كان قد حضر بعض الولادات في المستشفى. أمسكها بقوة من إليتيها بيده اليمنى، بينما أصابع يده اليمنى تتلمس في الظلام بحثاً عن عنق الوليدة ليزيح عنه الحبل السري الذي كان يخنقها. وفي أثناء ذلك، وصلت آماندا راكضة وقد اجتذبتها الضجة، وراحت بلانكا تضغط بكل ثقل جسدها، بينما كلارا تنحني فوق وجه ابنتها المتألم، وتقرّب من أنفها مصفاة شاي مغطاة بخرقة قماش تقطر منها بضع قطرات من الاثير. ولدت ألبا بسرعة. نزع خايمي الحبل السري عن عنقها، ورفعها معلقة في الهواء ورأسها إلى أسفل وبصفعتين مدويتين أدخلها إلى آلام الحياة وإلى آلية التنفس، غير أن آماندا التي كانت قد قرأت حول عادات القبائل الأفريقية وتدعو للعودة إلى الطبيعة، انتزعت الوليدة منه يديه ووضعتها بحب فوق بطن أمها الدافئ، حيث وجدت بعض العزاء من حزن الولادة. ظلت الأم والابنة ترتاحان عاريتين ومتعانقتين، بينما راح الآخرون ينظفون آثار عملية الولادة ويرتبون الملاءات الجديدة وأولى الحفاضات. وفي انفعال تلك اللحظات، لم ينتبه أحد إلى باب خزانة الملابس الموارب، حيث كان

ميغيل الصغير يراقب المشهد مشلولاً من الخوف، ويسجل في ذاكرته إلى الأبد رؤيا الكرة الضخمة المخترقة بأوردة، والمتوجة بسرة بارزة، والتي خرج منها ذلك الكائن الضارب إلى البنفسجي، والملتف بمعي أزرق مخيف.

سجلوا ألبا في السجل المدني وفي سجلات التعميد في الأبرشية بكنية أبيها الفرنسي، ولكنها هي نفسها لم تستخدمها، لأن كنية أمها كانت أسهل تهجئة. لم يوافق إستبان ترويبا قط على تلك العادة السيئة، لأنه تحمل مشقات كثيرة - كما كان يقول كلما أتيحت له الفرصة - كي يكون للطفلة أب معروف وكنية محترمة ولا تضطر إلى استخدام كنية أمها، كما لو أنها ابنة عار وخطيئة. ولم يسمح كذلك بالتشكيك بشرعية أبوة الكونت وواصل الانتظار، خلافاً لأي منطق، آملاً أن تُلحظ عاجلاً أو آجلاً أناقة أساليب الفرنسي وسحره الراقي في الحفيدة الصموت الخرقاء التي تتسكع في أنحاء بيته. ولم تأتي كلارا كذلك على ذكر المسألة إلى أن لاحظت بعد زمن طويل، في مناسبة رأت فيها الطفلة تلعب بين تماثيل الحديقة المكسرة، أن ألبا لا تشبه أحداً من الأسرة، وأقل منهم شبهها بجان دوساتيني.

- من أين جاءت بعيني العجوز هاتين؟ - تساءلت الجدة.

- إنهما عينا أبيها - ردت بلانكا ساهية.

- أظن أنه بيدرو غارثيا الثالث - قالت كلارا.

- أجل - أكدت بلانكا.

كانت تلك أول مرة يدور الحديث فيها عن أصل ألبا ضمن الأسرة، لأن الموضوع، كما سجلت كلارا في دفاترها، كان يخلو تماماً من الأهمية، لاسيما وأن جان دوساتيني قد اختفى من حياتهم على أي حال. فلم يعودوا يعرفوا شيئاً عنه، ولم يزعج أحد منهم نفسه في التقصي عن مصيرة، ولو لمجرد تسوية وضع بلانكا المحرومة من حريات العازبة والمحكومة بكل محدوديات المرأة المتزوجة، ولكنها بلا زوج. لم ترَ ألبا أي صورة للكونت قط، لأن أمها لم تترك ركناً من البيت إلا وفتشته، إلى أن أتلفت صوره كلها، بما فيها تلك التي تظهر فيها متأبطة ذراعه

يوم الزفاف. فقد اتخذت القرار بنسيان الرجل الذي تزوجت منه واعتبار أنه لم يوجد قطّ. لم تعد إلى الحديث عنه، كما أنها لم تقدم أي تفسير لهروبها من بيت الزوجية. وكانت كلارا التي أمضت تسع سنوات بكماء، تعرف فضائل الصمت، فلم تسأل ابنتها شيئاً وشاركت في مهمة محو جان دوساتيني من الذكريات. وأخبروا ألبا أن أباها كان سيداً نبيلاً، ذكياً ومتميزاً، نُكب بالموت محموماً في صحراء الشمال. فكانت تلك إحدى الأكاذيب القليلة التي واجهتها في طفولتها، لأنها في كل ما سوى ذلك كانت على اتصال وثيق مع حقائق الحياة العادية التافهة. تولى خالها خايمي تحطيم أسطورة أن الأطفال ينبثقون من نباتات الملفوف أو أن طيور اللقلق هي التي تأتي بهم من باريس، وتكفل نيكولاس بتحطيم أسطورة ملوك المجوس والجنيات والعفاريت. كانت ألبا ترى موت أبيها في كوابيسها. فهي تحلم برجل شاب وسيم، يرتدي ملابس بيضاء بالكامل، وحذاء لامعاً من اللون نفسه، وقبعة من القش، ويمضي في الصحراء في ذروة احتداد الشمس. وفي حلمها، كانت خطوات السائر تقصر أكثر فأكثر، يترنح، ويصير مشيه أبطأ فأبطأ، يتعثر ويسقط، ينهض، يعود للسقوط منهوكاً من الحر والحمى والعطش. يتجرجر على ركبتيه لمسافة قصيرة على الرمل الملتهب، ولكنه ينهار أخيراً ويظل ممدداً في اتساع تلك الكثبان الباهتة، بينما الجوارح تطير محومة في دوائر فوق الجسد الخامد. لقد رأت الحلم مرات كثيرة، حتى إنها فوجئت بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما كان عليها أن تذهب للتعرف على جثة من يُعتقد أنه أبوها، في مستودع للجثث تابع للبلدية. كانت ألبا حينذاك قد صارت شابة شجاعة، جريئة الطبع ومعتادة على المحن، ولهذا ذهبت وحدها. استقبلها ممرض مساعد يلبس رداء أبيض، قادها عبر الممرات الطويلة في المبنى القديم إلى قاعة واسعة وباردة، جدرانها مطلية بطلاء رمادي. فتح الرجل ذو الرداء الأبيض باب ثلاجة ضخمة وسحب منها صفيحة معدنية طويلة يرقد فوقها جسد منتفخ، هرم وأزرق اللون. نظرت إليه ألبا بانتباه، دون أن تجد أي شبه بينه وبين الصورة التي رأتها كثيراً في أحلامها. بدا لها شخصاً عادياً، له هيئة موظف

بريد. أمعنت النظر في يديه: لم تكونا يديّ سيد نبيل، متميز وذكي، بل يدي رجل ليس لديه شيء مشوق يرويه. ولكن وثائقه كانت دليلاً غير قابل للدحض على أن تلك الجثة الزرقاء والكئيبة هي جان دو ساتيني الذي لم يمت بالحمى في الكثبان الذهبية لكابوس طفولي، وإنما بالسكتة القلبية وهو يجتاز شارعاً في شيخوخته. ولكن هذا كله حدث بعد زمن طويل. أما في الزمن الذي كانت كلارا لا تزال فيه على قيد الحياة، وألبا لا تزال طفلة، كان بيت الناصية الكبير عالماً مغلقاً، ترعرت فيه محمية حتى من كوابيسها بالذات.

لم تكن ألبا قد أكملت أسبوعين في الحياة عندما غادرت آماندا بيت الناصية الكبير. كانت قد استعادت قواها ولم تجد صعوبة في اكتشاف اللهفة في قلب خايمي. أمسكت بيد أخيها الصغير وانصرفت مثلما جاءت، دون ضجة ودون وعود. غابت عن عيونهم، والوحيد الذي كان بإمكانه البحث عنها لم يشأ عمل ذلك كيلا يجرح أخاه. وبالمصادفة وحدها عاد خايمي لرؤيتها بعد سنوات طويلة، ولكن الوقت كان قد فات آنذاك بالنسبة لكليهما. بعد ذهابها، أخمد خايمي مشاعر يأسه بالانهماك في الدراسة والعمل. رجع إلى عاداته القديمة ولم يعد يظهر في البيت إلا نادراً. ولم يعد إلى ذكر اسم الفتاة وابتعد عن أخيه إلى الأبد.

حضور الحفيدة في البيت لطف من طباع إستيبان تروبيا. كان التبدل غير ملحوظ، ولكن كلارا لمحته. فقد كانت تشي به بعض الأعراض الصغيرة: بريق نظرته حين يرى الطفلة، والهدايا الغالية التي يأتيها بها، وغمه إذا ما سمعها تبكي. ومع ذلك لم يقرّبه هذا من بلانكا. فعلاقته بابنته لم تكن جيدة قط، وقد تردت جداً بعد زواجها المشؤوم إلى حدّ أن الأمر الوحيد الذي كان يسمح لهما بالبقاء والعيش تحت السقف نفسه هو تهذب اضطراري فرضته عليهما كلارا.

في تلك الفترة كانت غرف البيت كلها مشغولة تقريباً، وفي كل يوم تُعدّ المائدة للأسرة والضيوف، مع مقعد إضافي لمن قد يأتي دون إشعار مسبق. كان الباب الرئيسي مفتوحاً على الدوام، كي يتمكن

المقيمون والزوار من الدخول والخروج. وبينما كان السيناتور ترويبا مشغولاً بترقيع مصائر بلاده، كانت زوجته تبحر ببراعة في مياه الحياة الاجتماعية المائجة، ومياه أخرى، مفاجئة، في طريقها الروحية. كان التقدم في السن والخبرة قد شحذا قدرة كلارا على كشف الخفي وتحريك الأشياء عن بُعد. وكانت حالاتها المعنوية الهائجة تقودها بسهولة إلى لحظات تتمكن خلالها من التنقل عبر أرجاء الغرفة وهي جالسة على كرسيها، كما لو أن هناك محركاً مخبأً تحت المقعد. وفي تلك الأيام، استقبلوا على سبيل الإحسان في البيت فناناً شاباً يتضور جوعاً، وقد دفع ثمن استضافته رسم الصورة الوحيدة الموجودة لكلارا. وبعد زمن طويل، تحول الفنان البائس إلى معلم مشهور، ولوحته تلك صارت اليوم في أحد متاحف لندن، مثل أعمال فنية كثيرة أخرى خرجت من البلاد في الفترة التي توجب فيها بيع الأثاث لإطعام الملاحقين. وتظهر في اللوحة امرأة ناضجة ترتدي ثوباً أبيض، لها شعر أبيض ولوجهها ملامح لاعب عُقلة عذب، تستريح على كرسي هزاز معلق فوق مستوى الأرض، يطفو بين ستائر مزينة بأزهار، وجرة كبيرة تطير مقلوبة، وهرّ سمين وأسود يتأمل جالساً كسيد عظيم. إنه تأثر بشاغال، هذا ما يقوله كتالوغ المتحف، ولكن الحقيقة ليست كذلك. فاللوحة استجابة دقيقة للواقع الذي عاشه الفنان في بيت كلارا. ففي تلك الفترة كانت قوى الطبيعة البشرية الخفية وطيب المزاج الإلهي يعملان على هواهما مستثيرين حالة اضطراب وارتباك في قوانين الفيزياء والمنطق. فاتصالات كلارا مع الأرواح الشاردة، ومع الكائنات الفضائية، كانت تتم عن طريق التخاطر أو الأحلام أو بوساطة بندول خاص تستعمله لهذا الغرض، تمسكه معلقاً في الهواء فوق لوحة حروف هجائية تضعها على المنضدة. وكانت حركات البندول التلقائية تشير إلى حروف وتشكل الرسالة المطلوبة بالإسبانية وبلغة الاسبرانتو، مؤكدة بذلك أنهما اللغتان الوحيدتان اللتان تهمان الكائنات الآتية من أبعاد أخرى، وليس اللغة الإنكليزية، مثلما تقول كلارا في رسائلها إلى سفراء القوى العظمى الناطقة بالإنكليزية، دون أن يرد هؤلاء يوماً على رسائلها، مثلهم في ذلك مثل وزراء التربية المتتالين

الذين توجهت إليهم لتعرض نظريتها حول أنه بدلاً من تعليم الإنكليزية والفرنسية في المدارس، وهما لغتا بحارة وتجار محتالين ومرابين، عليهم أن يجبروا الأطفال على دراسة الاسبرانتو.

أمضت ألبا طفولتها بين أنظمة التغذية النباتية، وفنون القتال اليابانية، والرقصات التيبيتية، وأساليب اليوغا التنفسية، والاسترخاء والتركيز مع البروفيسور هوسر، وتقنيات كثيرة أخرى مهمة، دون حساب المساهمات التي أضافها إلى تربيتها خالاها والآنسات مورا الثلاث الفاتنات. وكانت جدتها كلارا تتدبر الأمر لتحافظ على دوران تلك العربة الضخمة الممتلئة بمهووسين التي تحول إليها بيتها، بالرغم من أنها لم تكن تتمتع بأية مهارة تدبير منزلية، وكانت تزدري العمليات الحسابية الأربع إلى حد نسيان الجمع، وبهذا وقع عبء تنظيم البيت والحسابات بصورة طبيعية على بلانكا التي وزعت وقتها بين مهمات مدبرة المنزل في تلك المملكة المصغرة والعمل في ورشة خزفها في أقصى الفناء، الملاذ الأخير لأحزانها، حيث كانت تعطي دروساً لأطفال منغوليين أو لآنسات، وتصنع مذاود عيد الميلاد من مسوخ قبيحة تباع، خلافاً لكل منطق، مثلما يباع الخبز الساخن الخارج لتوه من الفرن.

منذ طفولتها تولت ألبا مسؤولية وضع الأزهار في الزهريات. كانت تفتح النوافذ كي يدخل الضوء والهواء بوفرة، ولكن الأزهار لم تكن تصمد حتى الليل، لأن صرخات إستيبان تروبيا وضربات عكازه كانت تمتلك القدرة على إخافة الطبيعة. فالحيوانات الأليفة تفرّ لدى مروره وتذبل النباتات. كانت بلانكا تعنى بشجرة سنط صمغية جيء بها من البرازيل، وهي نبتة هزيلة وفزعة، الطرافة الوحيدة فيها هي ثمنها؛ إذ إنها تشترى حسب عدد أوراقها. وما إن يُسمع صوت وصول الجد حتى يهرع أقرب الموجودين إلى الشجرة ليحملها ويضعها في مأمن على الشرفة، لأن النبتة كانت تحني أوراقها فور دخول العجوز إلى الغرفة، ويبدأ ساقها بإفراز سائل ضارب إلى البياض كأنه دموع من حليب. ولم تكن ألبا تذهب إلى المدرسة لأن جدتها تقول إن من يحظى بمثل أفضليتها في كواكب

الطالع لا يحتاج إلى أكثر من معرفة القراءة والكتابة، وهما أمران يمكن تعلمهما في البيت. وقد تعجلت كثيراً في محو أميتها، حتى إن الصغيرة صارت قادرة، وهي في الخامسة من عمرها، على قراءة الجريدة في موعد تناول الفطور من أجل التعليق على الأخبار مع جدها، وفي السادسة من عمرها اكتشفت الكتب السحرية في صناديق خال جدتها الخرافي ماركوس، وتوغلت جيداً في عالم الخيال الذي لا رجعة منه. ولم يهتم أحد بصحتها كذلك، لأنهم ما كانوا يؤمنون بمنافع الفيتامينات ويقولون إن اللقاحات تُعطى للدجاج. أضف إلى ذلك أن جدتها درست خطوط يدها وقالت إنها ستتمتع بصحة حديدية وحياة مديدة. والاهتمام الوحيد العبثي الذي أغدقوه عليها كان تسريح شعرها بعصارة قشور الجوز لتخفيف الخضرة القاتمة التي كان عليها شعرها عند الولادة، على الرغم من أن السيناتور تروبيا كان يقول إنه يتوجب تركه على تلك الحال، لأنها الوحيدة التي ورثت شيئاً من روسا الجميلة، وإن يكن ذلك الشيء لسوء الحظ هو لون الشعر البحري. ومن أجل إرضائه تخلت ألبا في مراهقتها عن استخدام قشور الجوز، وصارت تغسل شعرها بنقيع البقدونس، مما جعل اللون الأخضر يظهر بكل زخمه. أما ما تبقى من شخصيتها فكان ضئيلاً وتافهاً، خلافاً لمعظم نساء الأسرة اللواتي كن، دون استثناء تقريباً، متألقات.

في لحظات راحتها القليلة كانت بلانكا تفكر بنفسها وبابنتها، وتأسف لأنها طفلة متوحدة وصامتة، بلا رفاق في مثل سنها تلعب معهم. والحقيقة أن ألبا لم تكن تشعر أنها وحيدة، بل على العكس، فقد كانت تجد سعادة كبيرة في بعض الأحيان إذا ما أتيح لها الإفلات من نفاد بصيرة جدتها، ومن حدس أمها، ومن صخب الناس غريبي الأطوار الذين يظهرون في بيت الناصية الكبير على الدوام، ويختفون، ثم يعودون للظهور من جديد. وكانت بلانكا قلقة من أن ابنتها لا تلعب بالدمى، ولكن كلارا كانت تساند حفيدتها بحجة أن تلك الجثث الخزفية الصغيرة تبعث على التقزز بعيونها المدورة التي تنفتح وتنغلق وأفواهها الخبيثة المقطبة. فكانت هي نفسها تصنع للصغيرة كائنات مشوهة من

بقايا الصوف الذي تستخدمه في الحياكة للفقراء. وهي كائنات ليس فيها شيء إنساني، وبالتالي من السهل جداً ضمها، وهدهدتها، وغسلها، ثم رميها بعد ذلك إلى القمامة. كان القبو هو مكان اللهو المفضل للطفلة. وبسبب الفئران، أمر إستيبان تروبيا أن يوضع له رتاج، ولكن ألبا كانت تتسلل برأسها من كوة علوية ضيقة وتنزل دون ضجة إلى فردوس الأشياء المنسية ذاك. كان المكان معتماً على الدوام، محمياً من تجاوزات الزمن، كأنه هَرَمٌ مختوم. وهناك كانت تتكدس قطع الأثاث المهملة، وأدوات ذات استخدامات غير مفهومة، وآلات مخلعة، وقطع من *الكوفادونغا*، السيارة التي فككها خالاها لتحويلها إلى سيارة سباق وانتهى بها الأمر إلى التحول إلى خردة. كل شيء كان ينفع ألبا في بناء بيت صغير في أركان القبو. فقد كانت هناك صناديق وحقائب تحتوي ملابس قديمة، تستخدمها لإعداد مشاهدها المسرحية المتوحدة، وممسحة أقدام كئيبة، سوداء ومليئة بالعث، ولها رأس كلب، عند وضعها على الأرض تبدو أشبه بحيوان مفتوح القوائم في حالة محزنة. إنها البقايا المخجلة المتبقية من *باراباس* الوفي.

في ليلة أحد أعياد الميلاد، قدمت كلارا إلى حفيدتها هدية خرافية جاءت لتحل في بعض الأحيان محل جاذبية القبو المدهشة. كانت الهدية علبة مرطبانات ألوان ورياش رسم وسلّم صغير، ومنحها الإذن بأن تستخدم على هواها أكبر جدار في غرفتها.

- سيساعدها هذا في التفريج عن نفسها - قالت كلارا حين رأت ألبا تتوازن على السلّم لترسم قرب السقف قطاراً ممتلئاً بحيوانات.

وعلى امتداد السنين، راحت ألبا تملأ ذلك الجدار، وجدران حجرتها الأخرى بجدارية واسعة، تبدت فيها رغباتها، وذكرياتها، وأحزان طفولتها وأفراحها، وسط أزهار ونباتات فينوسية وحيوانات مستحيلة مختلقة، مثل تلك التي طرزها روسا على سماطها، والتي تشويها بلانكا في فرن خزفها.

كان خالاها يعيشان قريباً جداً منها. وكان خايمي هو المفضل لديها. لقد كان مارداً ضخماً كثيف الشعر، عليه أن يحلق ذقنه مرتين في

اليوم، ومع ذلك تبدو ذقنه كأنها لم تُحلق منذ الثلاثاء، وله حاجبان أسودان خبيثان يسرحهما إلى أعلى لجعل ابنة أخته تصدق أنه على علاقة قرابة مع الشيطان، وشعره قاس كأنه فرشاة، لا طائل من تثبيته بمواد صمغية أو إبقائه مبللاً على الدوام. وكان يدخل ويخرج وكتبه تحت إبطه ويحمل في يده حقيبة سباك. وقد قال لألبا إنه يعمل لصّ مجوهرات وأنه يحمل في حقيبته القبيحة قفازات وفتاحات معقوفة لفتح الخزائن. فتتصنع الطفلة الفزع، ولكنها تعرف أن خالها طبيب وأن الحقيبة تضم أدوات مهنته. وكانا يبتكران ألعاب وهم للتسلية في أمسيات الأيام الماطرة.

- أحضري الفيل! - يأمرها الخال خايمي.

فتخرج ألبا، ثم تدخل وهي تسحب بحبل غير مرئي فيلاً مُتخيلاً. وكان يمكن لهما أن يقضيا نصف ساعة وهما يقدمان له أعشاباً يأكلها أبناء جنسه، ويحممانه بالتراب لحماية جلده السميك من قسوة المناخ، ويلمعان عاج نابيه، بينما هما يتجادلان بحماسة حول منافع ومضار العيش في الأدغال.

- هذه الطفلة ستنتهي إلى الجنون المحتم! - كان السيناتور يقول حين يرى الصغيرة ألبا جالسة على الشرفة تقرأ في المراجع الطبية التي يعيرها إياها الخال خايمي.

كانت الوحيدة في البيت التي لديها مفتاح للدخول إلى سرداب كتب الخال، ولديها إذن بأخذها لتقرأها. وكانت بلانكا تصر على ضرورة تقنين القراءة، لأن هناك أشياء غير مناسبة لسنها، ولكن خالها كان يرى أن الناس لا يقرؤون ما لا يثير اهتمامهم، وإذا كان ما تقرأه يهمها! فهذا يعني أنها ناضجة بالقدر الذي يسمح لها بقراءته. وكانت له النظرية نفسها بشأن الاستحمام والطعام. فهو يقول إنه إذا كانت الطفلة غير راغبة في الاستحمام، فلأنها لا تشعر بالحاجة إلى الاستحمام، وإنه يجب إعطائها ما ترغب في أكله وفي الوقت الذي تشعر فيه بالجوع، لأن بنية الجسم تعرف حاجاتها أفضل من أي كان. ولكن بلانكا كانت شديدة الصرامة في هذه النقطة بالتحديد، تفرض على ابنتها مواعيد طعام واستحمام صارمة. وكانت النتيجة أن ألبا، فضلاً عن الوجبات والحمامات

المعهودة، كانت تبتلع الحلويات التي يأتيها بها الخال، وتستحم بخرطوم الماء كلما أحست بالحر، دون أن يؤثر شيء من ذلك على سلامة بنيتها الطبيعية. وكانت ألبا ترغب في يتزوج خالها من أمها، لأنه سيصير وهو أب لها مضموناً أكثر من كونه خالاً، ولكنهم أوضحوا لها أن مثل هذه الزيجات المحرمة تؤدي إلى إنجاب أطفال منغوليين. فاستقرت في ذهنها فكرة أن تلاميذ يوم الخميس في مشغل أمها هم أبناء أخوالهم.

نيكولاس أيضاً كان مقرباً في قلب الطفلة، إنما كان فيه شيئاً سريع الزوال، طيّاراً، متعجلاً، وعابر على الدوام، كمن يقفز من فكرة إلى أخرى، بطريقة تستثير قلق ألبا. كانت في الخامسة من عمرها عندما رجع خالها نيكولاس من الهند. فبعد أن تعب من استذكار الرب على المنضدة ذات القوائم الثلاث ووسط دخان الحشيش، قرر الذهاب للبحث عن منطقة أقل فظاظة من أرض مولده. أمضى شهرين وهو يزعج كلارا، يلاحقها في أركان البيت ويهمس في أذنها وهي نائمة، إلى أن أقنعها بأن تبيع خاتم الماس لتدفع ثمن تذكرة سفر إلى بلاد المهاتما غاندي. لم يعارض إستيبان ترويبا في هذه المرة، لأنه فكر في أن مشواراً في بلاد الجائعين والأبقار الشاردة البعيدة تلك ستفيد ابنه كثيراً.

- إذا لم تمت بلدغة أفعى كوبرا أو بوباء غريب، فإنني آمل أن ترجع وقد صرت رجلاً، لأني سئمت غرابة أطوارك - قال له أبوه وهو يودعه في المرفأ.

أمضى نيكولاس سنة كمتسول، يجوب دروب اليوغا ماشياً على قدميه، ومشياً على الأقدام اجتاز جبال الهيملايا، ومشياً على الأقدام وصل إلى كاتماندو، وعلى قدميه جاب نهر الغانج، ومشياً على قدميه ذرع بيناريس. وبعد ذلك الحج الطويل توصل إلى اليقين بوجود الرب، وتعلم كيف يُدخل دبابيس قبعات في خديه وفي جلد صدره، وكيف يعيش دون أكل. رأوه يصل إلى البيت في أحد الأيام، دون إشعار مسبق، وليس عليه سوى حفاض رضيع يغطي أعضاء حياته، وجلده ملتصق بعظامه، وبهيئة الضياع التي تُلحظ على من يتغذون على الخضروات وحدها. وصل برفقة دركيين غير مصدقين ومستعدين لاقتياده إلى السجن إلا إذا أثبت أنه ابن السيناتور ترويبا حقاً، ويلحق به موكب صبية يرمونه بالقمامة

ويسخرون منه. وكانت كلارا هي الوحيدة التي لم تجد صعوبة في التعرف إليه. طمأن أبوه الدركيين وأمر نيكولاس بأن يستحم ويرتدي ثياباً مسيحية إذا كان يريد العيش في البيت، ولكن نيكولاس نظر إليه كما لو أنه لا يراه، ولم يجب بشيء. كان قد تحوّل إلى نباتي. لا يتذوق اللحم، ولا الحليب والبيض، ويتبع نظام تغذية أرنب، وشيئاً فشيئاً راح وجهه الرزين يزداد شبهاً بوجه ذلك الحيوان. كان يمضغ كل لقمة من أطعمته القليلة خمسين مرة. فتحولت وجبات الطعام إلى طقوس لانهائية تغفو خلالها ألبا فوق الطبق الفارغ، ويظل الخدم ينتظرون بالصواني الجاهزة في المطبخ، بينما هو يجتر بصورة احتفالية. ولهذا انقطع إستيبان ترويبا عن المجيء إلى البيت، وصار يتناول وجباته كلها في النادي. كان نيكولاس يؤكد أنه يستطيع المشي حافياً على الجمر، ولكنه في كل مرة يتأهب لإثبات ذلك تُصاب كلارا بنوبة ربو، فيضطر إلى التخلي عن المحاولة. وكان يتكلم بأمثال آسيوية ليست مفهومة دائماً. وكانت اهتماماته الوحيدة من النوع الروحاني. فمادية الحياة المنزلية تضايقه بقدر ما يضايقه افراط أمه وأخته في العناية به، وإلحاحهما على أن يتغذى ويلبس جيداً، وملاحقة ألبا المفتونة به، إذ كانت تتبعه في أنحاء البيت مثل كلب صغير، متوسلة إليه أن يعلمها كيف تقف على رأسها، وكيف تدخل الدبابيس في خديها. وظل شبه عارٍ حتى بعد مجيء الشتاء بكل برده القارس. كان قادراً على البقاء قرابة ثلاث دقائق دون تنفس، ومستعداً للقيام بتلك المأثرة كلما طلب منه أحد ذلك، وهو ما يحدث بكثرة. فكان خايمي يقول إنه من المؤسف أن يكون الهواء مجانياً، لأنه أجرى حسابات بيّنت أن نيكولاس يتنفس نصف ما يتنفسه شخص عادي، ولا يبدو أن ذلك يؤثر عليه مطلقاً. أمضى الشتاء يأكل الجزر، دون أن يشكو من البرد، معتكفاً في حجرته يملأ أوراقاً وأوراقاً بخطة الدقيق الذي يكتبه بحبر أسود. ومع بداية الربيع، أعلن أنه انتهى من تأليف كتابه. وكان قد كتب ألفاً وخمسمئة صفحة، وتمكن من إقناع أبيه وأخيه خايمي بتمويله، على أن يسدد التكاليف من الأرباح التي سيجنيها من بيع الكتاب. وبعد التصحيح والطباعة، تقلصت صفحات

المخطوط الألف وبضع مئات إلى ستمئة صفحة في مجلد سميك حول أسماء الرب التسعة والتسعين، وطريقة بلوغ النيرفانا من خلال تمارين تنفسية. لم يجد الكتاب النجاح المأمول، وانتهى الأمر بحزم الطبعة إلى القبو، حيث استخدمتها ألبا كقطع طوب لبناء مخابئ وخنادق، إلى أن استُخدمت تلك النسخ بعد سنوات طويلة في تغذية نيران محرقة مشينة.

فور خروج الكتاب من المطبعة، أمسك به نيكولاس بحب بين يديه، واستعاد ابتسامة الضبع الضائعة التي كانت له، ثم ارتدى ملابس لائقة وأعلن أن الوقت قد حان ليسلّم الحقيقة لمواطنيه القابعين في ظلمات الجهل. ذكّره إستيبان ترويبا بمنعه من استخدام البيت كأكاديمية وحذره من أنه لن يتسامح مع إدخال أفكار وثنية في رأس ألبا، أو تعليمها خدع الفقير الهندي. ذهب نيكولاس للوعظ في كافتيريا الجامعة، وتوصل هناك إلى ضم عدد كبير من المريدين لدورات التمارين الروحية والتنفسية. وكان يقضي أوقات فراغه في التنزه على دراجة نارية وتعليم ابنة أخته كيفية التغلب على الألم وغيره من مظاهر ضعف الجسد. وكان منهجه يتلخص في تحديد تلك الأسباب التي تسبب الخوف. أما الطفلة التي لديها ميل إلى ما هو جنائزي ومخيف، فكانت تركز تفكيرها، عملاً بتعليمات خالها، وتتوصل إلى رؤيا لموت أمها، كما لو أنها تشهد حدوث ذلك حقاً. تراها شاحبة، باردة، وعيناها العربيتان مغمضتان وهي مسجاة في التابوت. تسمع بكاء الأسرة. وترى موكب الأصدقاء الذين يدخلون بصمت، ويتركون بطاقاتهم التعريفية على صينية ويخرجون مطأطئين روسهم. وكانت تحس برائحة الأزهار، وصهيل حصاني العربة المأتمية اللذين تزين رأسيهما قنازع ريش. وتشعر بألم قدميها في حذاء الحداد الجديد. وتتخيل وحدتها، وهجرانها، ويتمها. وكان خالها يساعدها على التفكير في ذلك كله دون بكاء، باسترخاء وعدم مقاومة للألم، كي يمر ذلك الألم منها دون أن يستقر فيها. وفي أحيان أخرى، كانت ألبا تضغط الباب على إصبعها وتتعلم تحمل الحرقة الكاوية دون شكوى. فإذا تمكنت من قضاء أسبوع دون بكاء، وتجاوزت الاختبارات التي يفرضها عليها نيكولاس، تكسب

جائزة تتمثل على الدوام تقريباً بنزهة على الدراجة النارية بأقصى سرعة، وهي تجربة لا تنسى. وفي إحدى المرات دخلا وسط قطيع أبقار متوجه إلى الزائب، على طريق خارج المدينة أخذ ابنة أخته إليه ليقدم لها الجائزة. وستتذكر هي إلى الأبد أجساد تلك الحيوانات الثقيلة، وبلادتها، وذيولها الملوثة بالروث تضرب وجهها، ورائحة الروث، والقرون التي تلامسها، وإحساسها بالخواء في معدتها، وبالدوار الرائع، وبإثارة لا تُصدّق، مزيج من الفضول المثير والرعب لم تعد إلى الإحساس بمثله إلا في لحظات عابرة من حياتها.

أما إستيبان تروبيا الذي كان يجد على الدوام صعوبة في التعبير عن حاجته إلى الحنان، ولم يعد لديه سبيل إلى رقة العاطفة منذ ترديت علاقته الزوجية مع كلارا، فأغدق أفضل مشاعره على ألبا. كان يهتم بالطفلة أكثر مما أولاه من اهتمام لأبنائه أنفسهم. ففي كل صباح تذهب الصغيرة وهي بالبيجاما إلى غرفة جدها، تدخل دون أن تطرق الباب وتندس في فراشه. فيتظاهر بأنه استيقظ متفاجئاً، على الرغم من أنه يكون بانتظارها في الحقيقة، ويزمجر طالباً منها ألا تزعجه، وأن تذهب إلى غرفتها وتتركه ينام. فكانت ألبا تدغدغه إلى أن يسمح لها، وقد تظاهر بالهزيمة، بأن تبحث عن الشكولاته التي يخبئها لها. كانت ألبا تعرف كل المخابئ، وكان الجد يستخدم تلك المخابئ بالترتيب نفسه دوماً، ولكنها تقضي وقتاً لا بأس به في البحث، كيلا تخذله، وتطلق صيحات البهجة عندما تجدها. لم يعرف إستيبان قطّ أن حفيدته تكره الشكولاته وأنها تأكلها حباً به. بتلك الألعاب الصباحية كان السيناتور يُشبع حاجته إلى التواصل الإنساني. أما بقية النهار فيقضيه مشغولاً في الكونغرس، والنادي، ولعب الجولف، والصفقات التجارية، ولقاءات المكائد السياسية. كان يذهب مرتين في السنة إلى الماريات الثلاث مع حفيدته ويبقى هناك أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. ويرجعان وقد اكتسبت بشرتهما اللون البرونزي، وصارا أوفر صحة وأكثر سعادة. وكانوا يقطرون هناك نوعاً من الخمر البيتي ينفع للشرب، ولإشعال موقد المطبخ، وتعقيم الجروح وقتل الصراصير، ويسمونه بتفخيم «فودكا». وفي أواخر

حياتـه، عنـدما حولتـه تـسعون سـنة مـن الحيـاة إلى شـجرة هرمـة ملتويـة وهشة، ظل إستيبان ترويبا يتذكر تلك اللحظات مع حفيدته على أنها الأفضل فـي حياتـه، واحتفظـت هـي أيضاً فـي ذاكرتهـا بتواطـؤ تلـك الرحلات إلى الريف ويدها بيد جدها، والنزهات معه على ردف حصانه، وساعات الغروب في اتساعات الحقول، والليالي الطويلة إلى جانب مدفأة الصالون ورواية حكايات الأشباح والرسم.

أما علاقة السيناتور ترويبا مع بقية أفراد الأسرة فازدادت تردياً مع مرور الزمن. كانوا يجتمعون مرة كل أسبوع، فـي أيام السبت، لتناول العشاء معاً حول مائدة خشب السنديان الكبيرة التي احتفظت بها الأسـرة دائماً، وكانت قبل ذلك ملكاً لآل دل بابيه، وهذا يعني أنها تنتمي إلى أقدم القِدم، وقد استُخدمت للسهر على الموتى، ولرقصات الفلامنكو، ولأمور أخرى لا تخطر على بال. كانوا يُجلسون ألبا بين أمها وجدها، بوضع وسادة على كرسيها كي يصل أنفها إلى مستوى طبق الطعام. وكانت الطفلة تراقب الكبار بافتتان: جدتها المتألقة وهي تضع أسنانها الاصطناعية من أجل المناسبة، وتوجه رسائل متبادلة إلى زوجها من خلال أبنائها أو الخدم، وخايمي بمظاهر مباهاة بقلة الأدب، وذلك بالتجشؤ بعد الانتهاء من كل طبق ونكش أسنانه بإصبعه الخنصر لإزعاج أبيه، ونيكولاس بعينيه نصف المغمضتين وهو يمضغ كل لقمة خمسين مرة، وبلانكا التي تثرثر في أي موضوع كي تخلق الوهم بعشاء عادي. وكان ترويبا يحتفظ بالصمت نسبياً إلى أن يخونه سوء طبعه ويبدأ الشجار مع ابنه خايمي لأسباب لها علاقة بالفقراء، والتصويت، والاشتراكيين، والمبادئ، أو شتم نيكولاس لمبادراته في الطيران بالمنطاد أو ممارسته العلاج بالوخز بالإبر مع ألبا، أو معاقبة بلانكا بأجوبته الفظة، وعدم مبالاته بها، وتحذيراته غير المجدية بأنها دمرت حياتها ولن ترث قرشاً واحداً منه. وكانت كلارا هي الوحيدة التي لا يواجهها، ولكنه لم يكن يتبادل معها الكلام. في بعض الأحيان كانت ألبا تفاجئ عيني جدها معلقتين بكلارا، يظل ينظر إليها ويأخذ بالشحوب والعذوبة حتى يبدو شيخاً مجهولاً. ولكن ذلك لم يكن يحدث بكثرة، فالأمر المعهود هو

تجاهل كل من الزوجين للآخر. وفي بعض الأحيان يفقد السيناتور التحكم بنفسه ويصرخ كثيراً إلى أن يصطبغ بالحمرة، فيكون لا بد من دلق إبريق ماء بارد على وجهه كي يتجاوز غضبه ويستعيد إيقاع تنفسه.

في تلك الفترة بلغت بلانكا ذروة جمالها. كانت لها ملامح عربية، واهنة، وافرة، تدعو إلى الطمأنينة والبوح. كانت طويلة القامة وممتلئة، بمزاج حرمان وبكاء يوقظ في الرجال غريزة الحماية المغرقة في القدم. لم يكن أبوها يشعر نحوها بالتعاطف. ولم يغفر لها غرامياتها مع بيدرو غارثيا الثالث، ويحاول تذكيرها بأنها تعيش على إحسانه. ولم يكن بإمكان تروبيا أن يجد تفسيراً لكثرة المتوددين لابنته، لأن بلانكا لم تكن تتمتع بشيء من البهجة المقلقة والمرح اللذين كانا يجتذبانه إلى النساء، وكان يفكر، إضافة إلى ذلك، في أنه لا يمكن لأي رجل طبيعي أن يرغب في الزواج من امرأة عليلة الصحة، ووضعها المدني غير مؤكد، ولديها عبء ابنة. أما بلانكا فلم تكن تبدو متفاجئة من ترصد الرجال لها. فقد كانت تعي جمالها. ومع ذلك، تتخذ في مواجهة السادة الذين يزورونها موقفاً متناقضاً، فهي تشجعهم من جهة برعشة رموش عينيها المسلمتين، ولكنها تبقيهم على مسافة حذرة. وفور انتباهها إلى أن نوايا زائرها جدية، تقطع العلاقة مع برفض حازم. وكان بعضهم، ممن هم في وضع مادي جيد، يحاولون الوصول إلى قلب بلانكا عن طريق إغواء ابنتها. فكانوا يغمرون ألبا بالهدايا الغالية، ودمى ذات آلية تمكنها من المشي، والبكاء، والأكل، وممارسة مهارات أخرى خاصة بالبشر، ويتخمونها بقوالب حلوى بالكريما، ويأخذونها في نزهات إلى حديقة الحيوان، حيث كانت الطفلة تبكي حزناً على الحيوانات المسكينة الحبيسة، وخاصة الفقمة التي تثير في روحها نُذراً مشؤومة. تلك الزيارات إلى حديقة الحيوان ممسكة بيد متودد معتد بنفسه ومبذر، خلّفت في نفسها طوال ما تبقى من حياتها الرعب من الحبس، والأسوار، والحواجز الحديدية والعزلة. وبين جميع أولئك العاشقين، كان أكثر من تقدم على طريق غزو بلانكا هو «ملك طناجر الضغط». وعلى الرغم من ثروته الهائلة وطبعه الهادئ والمتروي، إلا أن إستيبان تروبيا كان يمقته لأنه

مختون، وله أنف سفاردي وشعر مجعد في حلقات. وقد توصل تروبيا بسلوكه الساخر والعدواني من إبعاد ذلك الرجل الذي نجا من معسكر اعتقال، وتغلب على البؤس والمنفى، وانتصر في الصراع التجاري الذي لا رحمة فيه. خلال الفترة التي استمرتها قصة الحب تلك، كان «ملك طناجر الضغط» يأتي لمرافقة بلانكا للعشاء في أرقى الأمكنة وأشدها حصرية، يأخذها في سيارة صغيرة جداً، فيها مقعدان فقط، ولها عجلات جرار وضجة عنفة في محركها، سيارة فريدة من نوعها، يثير مرورها صخب الفضول في الشارع، وجفلة ازدراء لدى أسرة تروبيا. كانت بلانكا تتجاهل استياء أبيها وتطفل الجيران، وتصعد إلى السيارة بجلال رئيس وزراء، مرتدية بدلتها الوحيدة السوداء وبلوزتها الحريرية البيضاء اللتين تلبسهما في جميع المناسبات الخاصة. وكانت ألبا تودعها بقبلة وتظل واقفة عند الباب وعطر ياسمين أمها الخفيف ملتصق بأنفها وعقدة غم تطبق على صدرها. وكانت تدريبات خالها نيكولاس هي التي تمكنها من تحمل خروج أمها دون أن تبكي، لخشيتها من أن يتمكن أحد المتوددين ذات يوم من إقناع بلانكا بالذهاب معه، فتظل هي عندئذ بلا أم إلى الأبد. كانت قد قررت منذ زمن أنها ليست بحاجة إلى أب، وأقل من ذلك بكثير حاجتها إلى زوج أم، ولكن إذا وصل الأمر إلى فقدانها أمها فسوف تُغطس رأسها في دلو ماء إلى أن تموت اختناقاً، مثلما تفعل الطاهية بالقطط الصغيرة التي تلدها الهرة كل أربعة شهور.

تخلصت ألبا من الخوف من أن تهجرها أمها حين تعرفت على بيدرو الثالث، ونبهها حدسها إلى أنه مادام هذا الرجل موجوداً فلن يكون هناك من هو قادر على الظفر بحب بلانكا. كان ذلك في يوم أحد صيفي. سرحت لها بلانكا شعرها بتجعدات لولبية أحدثتها بقضيب حديد محمى لسع أذنيها، وألبستها قفازين أبيضين وحذاء أسود لامعاً وقبعة قش مزينة بكرز اصطناعي. حين رأتها جدتها كلارا انفجرت ضاحكة، ولكن أمها واستها بوضع قطرتين من عطرها على عنقها.

- ستتعرفين على شخص مشهور - قالت بلانكا بغموض عند خروجهما.

اقتادت الطفلة إلى الحديقة اليابانية، حيث اشترت لها حلوى السكر

المحروق وكيساً من حبوب الذرة. جلستا على مقعد في الظل متماسكتي اليدين، تحيط بهما الحمائم التي تلتقط حبات الذرة.

رأتـه يقـترب قبـل أن تـشير أمهـا إليـه. كـان يرتـدي أفرهـول ميكانيكي، وله لحية سوداء ضخمة تصل إلى منتصف صدره، وشعر مـشعث، وينتعـل صـندل راهـب فرنسيـسكاني دون جـوارب، ويبتـسم ابتـسامة مـشرقة رائعـة جعلتهـا تـضعه علـى الفـور فـي مرتبـة الكائنـات الجديرة بأن تُرسم في جدارية غرفتها الضخمة.

تبـادل الرجل والطفلة النظـرات، وتعـرف كل منهمـا علـى نفسه فـي عيني الآخر.

ـ هذا هو بيدرو الثالث، المغني. لقد سمعتِه في المذياع ـ قالت أمها.

مـدت ألبـا يـدها، وصـافحها هـو بيـسراه. عندئـذ لاحظـت نقـص عـدة أصابع فـي يده اليمنـى، ولكنـه أوضح لها أنـه يستطيع بـالرغم مـن ذلـك العـزف علـى الجيتـار، لأن هنـاك طريقـة علـى الـدوام ليفعـل أحـدنا مـا يـود عمله. تمشى الثلاثة فـي الحديقة اليابانيـة. وعنـد العصر ذهبـوا فـي أحـد آخـر الترامـات الكهربائيـة الـتي كانـت لا تـزال موجـودة فـي المدينـة ليأكلواسمكاً في محل للمقالي في السوق، وعند الغروب رافقهما حتى شـارع البيت. وعنـد الـوداع تبادلـت بلانكـا وبيـدرو الثالـث قبلـة علـى الفـم. كانت تلك هي أول مرة ترى فيها ألبا ذلك في حياتها، لأنه لم يكن فـي ما حولها أناس عاشقون.

ابتداء مـن ذلك اليـوم، صـارت بلانكـا تخـرج وحـدها فـي نهاية كل أسبوع. كانت تقول إنها ذاهبة لزيارة بنات عمومة بعيدات. فكان إستيبان تروييا يستشيط غضباً ويهددها بـالطرد مـن البيت، ولكـن بلانكـا تظل مصممة علـى قرارهـا. كانـت تـترك ابنتهـا مـع كـلارا وتـذهب فـي حافلـة حاملة معها حقيبة مهرج مزينة برسوم أزهـار.

ـ أعـدكِ بـأنني لـستُ ذاهبـة للـزواج وسـأرجع غـداً لـيلاً ـ كـانت تقـول لابنتها وهي تودعها.

كـانت ألبا تحب الجلوس مع الطاهيـة فـي سـاعة القيلولـة، والاسـتماع من المذياع إلى الأغاني الشعبية، وخاصة أغنيات الرجـل الـذي تعرفـت إليـه

في الحديقة اليابانية. وفي أحد الأيام دخل السيناتور ترويبا إلى المطبخ، وحين سمع صوت المذياع، انقض على الجهاز ضرباً بعكازه محولاً إياه إلى كومة من الأسلاك المتداخلة والأجزاء المبعثرة، أمام عيني حفيدته المذعورة التي لم تستطع تفسير نوبة غضب جدها المفاجئة. وفي اليوم التالي، اشترت كلارا مذياعاً جديداً كي تستمع ألبا إلى بيدرو الثالث كلما رغبت في ذلك، وتظاهر ترويبا العجوز بأنه لم يلحظ ذلك.

كانت تلك هي مرحلة «ملك طناجر الضغط». وقد علم بيدرو الثالث بوجوده، وأصيب بنوبة غيرة لا مسوغ لها إذا ما قورن تأثيره على بلانكا بمغازلات ذلك التاجر اليهودي الخجول. فتوسل إلى بلانكا، كما في مرات عديدة أخرى، أن تهجر بيت آل ترويبا، ووصاية أبيها القاسية عليها، وعزلة مشغلها الممتلئ بمنغوليين وآنسات بليدات، وتذهب معه، مرة واحدة وإلى الأبد، ليعيشا ذلك الحب الجامح الذي أخفياه منذ الطفولة. ولكن بلانكا لم تحزم أمرها. كانت تعلم أنها إذا ما ذهبت مع بيدرو الثالث، فسوف تُستبعد نهائياً من وسطها الاجتماعي ومن الوضع الذي تمتعت به على الدوام، وكانت تدرك أنه لا تتوافر لها أدنى فرصة في أن تجد استقبالاً لائقاً بين أصدقاء بيدرو الثالث، أو أن تتكيف على الحياة المتواضعة في حي عمالي. بعد سنوات من ذلك، عندما صارت ألبا في سن تسمح لها بتحليل هذا الجانب من حياة أمها، توصلت إلى نتيجة أن أمها لم تذهب مع بيدرو الثالث لأن الحب، بكل بساطة، لم يكن يشدها كفاية، فهي لم تكن تملك في بيت آل ترويبا ما لا يستطيع هو تقديمه إليها. فقد كانت بلانكا امرأة شديدة الفقر، لا تتصرف إلا بقليل من المال تقدمه إليها كلارا أو تحصل عليه عندما تبيع أحد مذاود عيد الميلاد. وكانت تكسب مبالغ بائسة تنفقها كلها تقريباً في دفع حسابات الأطباء، لأن قدرتها على معاناة أمراض متخيلة لم تتقلص مع العمل والحاجة، بل على العكس من ذلك تماماً، كانت تتزايد من سنة إلى أخرى. وكانت تسعى إلى عدم طلب اي شيء من أبيها، كيلا تمنحه فرصة إذلالها. وبين حين وآخر كان خايمي وكلارا يشتريان لها ملابس أو يقدمان لها شيئاً لتغطية حاجاتها الضرورية، ولكنها لم تكن تملك عادة

ما يكفي لشراء جورب. وكان فقرها يتناقض تماماً مع الفساتين المطرزة والأحذية المفصلة على المقاس التي كان السيناتور ترويبا يوفرها لحفيدته ألبا. لقد كانت حياتها قاسية. فهي تستيقظ في السادسة صباحاً، في الشتاء والصيف. فتشعل فرن المشغل في تلك الساعة، وتضع مريولاً مشمعاً وقبقاباً خشبياً، وتهيء مناضد العمل، وتعجن الصلصال من أجل دروسها بذراعين غارقين حتى المرفقين في الطين الخشن والبارد. ولهذا كانت أظفارها مكسرة دوماً، وبشرتها مشققة، ومع مرور الزمن راحت أصابعها تتشوه. كانت تشعر في تلك الساعة بالإلهام وبأن أحداً لا يقاطعها، بحيث يمكن لها البدء بصنع حيواناتها المسوخ من أجل مذاود عيد الميلاد. ويكون عليها بعد ذلك أن تتولى شؤون البيت، والخدم، والمشتريات، إلى أن يحين موعد الدروس. كانت تلميذاتها بنات عائلات راقية لا يوجد لديهن ما يفعلنه، وقد اخترن مجاراة موضة الأعمال الحرفية ويرين أنها أكثر لياقة من الحياكة للفقراء، مثلما تفعل الجدات.

أما فكرة إعطاء دروس للمنغوليين فجاءت بمحض المصادفة. ففي أحد الأيام حضرت إلى بيت السيناتور ترويبا صديقة قديمة لكلارا ومعها حفيدها. كان مراهقاً بديناً ورخواً، له وجه مدور كقمر وديع وملامح حنان ثابتة في عينيه الشرقيتين. كان عمره خمس عشرة سنة، ولكن ألبا لاحظت أنه أشبه بطفل رضيع. طلبت كلارا من حفيدتها أن تأخذ الصبي للعب في الحديقة وأن تنتبه إلى أن لا يوسخ ثيابه، ولا يغرق في بركة النافورة، ولا يأكل التراب، ولا يمد يده إلى فتحة بنطاله. وسرعان ما ضجرت ألبا من مراقبته، وحيال استحالة التواصل معه بأية لغة متماسكة، أخذته إلى مشغل الخزف، حيث بلانكا، كي تبقيه هادئاً، وألبسته مريولاً يحميه من التلوث بالطين والماء، ووضعت بين يديه كرة من الصلصال. ظل الفتى طوال أكثر من ثلاث ساعات مشغولاً، دون أن يريّل، ودون أن يبول، ودون أن يضرب رأسه بالجدران، يقولب أشكالاً غريبة من الطين، وحملها بعد ذلك هدية لجدته. افتتنت السيدة التي كادت أن تنسى أنها جاءت معه، وهكذا ولدت فكرة أن الخزف جيد للمنغوليين. وانتهى

الأمر ببلانكا إلى إعطاء دروس لجماعة أطفال يأتون إلى المشغل بعد ظهر كل خميس. كانوا يأتون في شاحنة صغيرة، برعاية راهبتين تضعان قبعات منشاة، تجلسان في فسحة الحديقة لتناول الشكولاته مع كلارا والنقاش حول فضائل القطبية المتصالبة ومراتب الخطايا، بينما بلانكا وابنتها تعلمان الأطفال صنع ديدان، وكرات صغيرة، وكلاب مبعوجة، وأكواب مشوهة من الطين. وفي نهاية السنة تنظم الراهبات معرضاً وسوقاً خيرية تباع فيها تلك الأعمال الفنية المرعبة على سبيل الإحسان. وسرعان ما انتبهت بلانكا وألبا إلى أن الأطفال يعملون بصورة أفضل بكثير عندما يشعرون أنهم محبوبون، وأن الطريقة الوحيدة للتواصل معهم هي المحبة. فتعلمتا معانقتهم، وتقبيلهم ومداعبتهم، إلى أن انتهى بهما الأمر إلى محبتهم بالفعل. كانت ألبا تنتظر طيلة الأسبوع مجيء الشاحنة الصغيرة وفيها الأطفال المتخلفون وتقز سعيدة عندما يهرعون لمعانقتها. ولكن أيام الخميس كانت منهكة. فكانت ألبا تنام منهوكة، وفي ذهنها تدور وجوه أطفال المشغل الآسيوية العذبة، وتعاني بلانكا من الصداع على الدوام. وبعد انصراف الراهبتين بثيابهن البيضاء وزمرة متخلفيهم الذهنيين ممسكين بأيدي بعضهم بعضاً، كانت بلانكا تضم ابنتها بقوة، وتغطيها بالقبلات وهي تقول لها إنها تحمد الله لأنها طبيعية. ولهذا السبب كبرت ألبا وقد رسخت في ذهنها فكرة أن الحالة الطبيعية هي هبة إلهية. وقد ناقشت الأمر مع جدتها.

ـ في العائلات كلها تقريباً، يا بنيتي، يوجد مجنون أو أبله ـ أكدت لها كلارا وهي منهمكة في حياكتها، لأنها لم تتعلم طوال كل تلك السنوات أن تحوك دون النظر إلى ما تحوكه، ثم أضافت: ـ وهؤلاء لا يراهم أحد أحياناً، لأنهم يخفونهم، كما لو كانوا عاراً. يحبسونهم في أقصى الغرف المعزولة، كيلا يراهم الزائرون. ولكن ليس في ذلك ما يدعو إلى الخجل، لأنهم هم أيضاً من صنيع الرب.

ـ ولكن لا وجود لأي مجنون في أسرتنا يا جدتي ـ أجابتها ألبا.

ـ لا. الجنون هنا موزع بين الجميع ولا يوجد فائض منه ليكون لنا مجنوننا الكامل.

هكذا كانت أحاديثها مع كلارا. ولهذا كانت ألبا ترى أن جدتها أهم شخص في البيت، فالجدة هي الحضور الأقوى في حياتها. والمحرك الذي يحرك ويدير ذلك الكون السحري في الجزء الخلفي من بيت الناصية الكبير، حيث أمضت أول سبع سنوات من حياتها بحرية كاملة. لقد اعتادت على غرابات الجدة. ولم تكن تفاجأ برؤيتها تنزلق عبر الصالة بحالة من النشوة وهي جالسة على كرسيها وساقاها مطويتان، مدفوعة بقوة غير مرئية. كانت تتابعها في كل جولاتها على المستشفيات وعلى دور الإحسان حيث تحاول متابعة عصبتها من المحتاجين، حتى إنها تعلمت أن تحوك بصوف رباعي الخيوط وسيخيّ حياكة ثخينين سترات كان خالها خايمي يقدمها هدايا بعد أن يستخدمها مرة واحدة، لمجرد أن ترى ابتسامة جدتها الخالية من الأسنان عندما يصيب عينيها الحول وهي تتابع قطب الحياكة. وكثيراً ما كانت كلارا تستخدمها لحمل رسائل إلى إستيبان، ولهذا السبب لقبوها بالحمامة الزاجلة. كانت الطفلة تشارك في جلسات أيام الجمعة، حيث تتقافز منضدة القوائم الثلاث في وضح النهار، دون استخدام أي خدعة أو طاقة معروفة أو رافعة، وفي السهرات الأدبية حيث تجالس المعلمين المكرسين وعدداً متفاوتاً من الفنانين المجهولين الخجولين الذين تحيطهم كلارا برعايتها. في تلك الفترة كان عدد كبير من الضيوف يأكلون ويشربون في بيت الناصية الكبير. وكان يتناوب العيش هناك، أو يجيء لحضور الجلسات الروحانية، والمحادثات الثقافية، والسهرات الاجتماعية، جميع الأشخاص المهمين في البلاد، بمن فيهم الشاعر الذي اعتُبر بعد سنوات من ذلك أفضل شعراء القرن وتُرجم إلى كل لغات الأرض المعروفة، وقد جلست ألبا على ركبتيه مرات كثيرة، دون أن يخطر ببالها أنها ستمشي ذات يوم وراء نعشه حاملة باقة قرنفل دامية في يدها، بين صفين من البنادق الرشاشة.

كانت كلارا لا تزال شابة، ولكنها كانت تبدو لحفيدتها عجوزاً هرمة جداً، لأنها بلا أسنان. ولم تكن تظهر على وجهها تجاعيد حين تطبق فمها، فيتولد حينئذ وهم بفتوة شبابية بفضل ملامح البراءة في وجهها. وكانت ترتدي جلابيب من الكتان الخام تبدو أشبه بمرابيل

المجانين، وتلبس فـي الشتاء جوارب صوفـية طويلة وقفازات بـلا أصابع. كانت تستظرف أقل الأمور فكاهة، ولم تكـن قادرة بالمقابل على فهم عبـارات المـزاح، فتضحك لها بعـد فـوات الأوان، حـين يكـون الجميـع قـد توقفـوا عـن الـضحك، ويمكـن لهـا أن تحـزن جداً إذا رأت أحـدهم يقـوم بأفعـال مـضحكة. وتعـاني فـي بعـض الأحيـان مـن نوبـات ربـو. عندئـذ تستدعي حفيدتها بجرس فضي صغير تحمله معها دوماً، فتهرع إليها ألبا راكضة، تعانقها وتشفيها بهمسات مواسية، لأن كلتيهما تعرفان، من خلال التجربة، أن الشيء الوحيد الذي يوقف نوبة الربو هو العناق الطويل لكائن محبوب. كانت لها عينان حالمتان بلون البندق، وشعر أشيب ولامع مجموع فـي عقيصة مضطربة تفلت منها خصل متمردة، ويدان ناعمتـان وبيـضاوان، بأظفـار لوزيـة وأصـابع طويلـة بـلا خـواتم، لا تنفعـان إلا فـي الإيماءات الحانية، وترتيب أوراق التنبؤ، ووضـع الأسنان الإصطناعية فـي فمهـا فـي موعـد تنـاول الطعـام. كانـت ألبـا تقـضي النهـار فـي اللحـاق بجدتها، مندسـة بـين طيات تنورتهـا، وتستحثها لـتروي لهـا حكايـات أو لتحـرك الزهريـات بقـوة تفكيرهـا. وكانـت تجـد فـيها مـلاذاً آمنـاً عنـدما تحاصـرها كوابيـسها أو عنـدما تـصير تـدريبات خالهـا نيكـولاس غـير محتملة. وقد علمتها كلارا العناية بالطيور، والتحدث إلى كل واحد منها بلغته، والتعرف على أدنى إشارات الطبيعة، وحياكة لفاعات للفقراء.

كانـت ألبـا تعـرف أن جـدتها هـي روح بيت الناصية الكبير. وهـو مـا عرفـه الآخـرون فـي مـا بعـد، عنـدما ماتـت كـلارا وفقـد البيـت الأزهـار، والأصـدقاء العـابرين، والأرواح اللعـوب، ودخـل فـي مرحلـة التـداعي والخراب.

كانت ألبا فـي السادسة من عمرهـا عنـدما رأت إستيبان غارثيا أول مرة، ولكنها لم تنسه قطّ. ربمـا تكـون قـد رأتـه مـن قبـل، فـي الماريـات الثلاث، خـلال إحـدى رحلاتهـا الـصيفية مـع جـدها، حـين كـان يأخـذها لتجوب الإقطاعية، ويشير لها بإيماءة واسعة إلى كل ما يحيط به البـصر، ابتداء من الطريق المحفوف بأشجار الحـور حتـى البركـان، بمـا فـي ذلك

بيوت الآجر الصغيرة، ويطلب منها أن تتعلم حب الأرض، لأنها ستكون لها ذات يوم.

- أبنائي جميعهم كسالى. وإذا ما ورثوا الماريات الثلاث، فسوف تعود خلال أقل من سنة إلى الخراب الذي كانت عليه في أزمنة أبي - كان يقول لحفيدته.

- وهل هذا كله لك يا جدي؟

- كله، ابتداء من الطريق عبر أميركا حتى قمم تلك الجبال. هل ترينها؟

- لماذا يا جدي؟

- كيف لماذا! لأنني السيد المالك، طبعاً!

- أعرف، ولكن لماذا أنت المالك؟

- لأنها كانت لأسرتي.

- لماذا؟

- لأنهم اشتروها من الهنود.

- والفلاحون، من عاشوا هنا دوماً كذلك، لماذا لا يكونون هم المالكين؟

- لقد بدأ خالك خايمي بحشو رأسك بأفكار بولشفية! - يزمجر السيناتور تروييا محتقناً بالغضب - أتعلمين ما الذي سيحدث لو لم يكن ثمة سيد مالك هنا؟

- لا.

- سيذهب كل شيء إلى الجحيم! لن يكون هناك من يصدر الأوامر، ويبيع المحاصيل، ويتولى مسؤولية الأمور، هل تفهمينني؟ ولن يوجد من يهتم بالناس هنا كذلك. فإذا مرض أحدهم، على سبيل المثال، أو مات مخلفاً أرملة وكثير من الأبناء، فسوف يموتون جوعاً. سيكون لكل منهم قطعة أرض بائسة لا تكفي لإطعام أهل بيته. إنهم بحاجة لمن يفكر عنهم، ويتخذ القرارات، ويساعدهم. لقد كنتُ أفضل مالك في المنطقة يا ألبا. إنني سيء الطبع، ولكنني عادل. المزارعون عندي يعيشون أفضل من كثيرين من أهل المدينة، لا ينقصهم شيء حتى لو كانت سنة جفاف أو فيضان أو زلزال، فأنا أهتم بألا يعاني أحد هنا البؤس. وهذا ما عليك

أن تفعلينه أنت عندما تبلغين السن المناسبة، ولهذا آتي بك معي دوماً إلى الماريات الثلاث، كي تتعرفي على كل حجر وكل حيوان، وتتعرفي قبل ذلك كله على كل شخص باسمه ولقبه. هل فهمتني؟

ولكن اتصالها بالفلاحين كان قليلاً جداً في الواقع، وكانت أبعد ما تكون عن معرفة كل واحد منهم باسمه ولقبه. ولهذا لم تتعرف على الشاب الأسمر المرتبك والطائش، الذي له عينا حيوان قارض صغيرتين، حين طرق باب بيت الناصية الكبير في العاصمة. كان يرتدي بدلة قاتمة ضيقة جداً على مقاسة. قماشها بالٍ ومتحول إلى قشرة رقيقة لامعة عند الركبتين والمرفقين والإليتين. قال إنه يريد التحدث إلى السيناتور تروييا، وقدم نفسه على أنه ابن أحد فلاحيه في الماريات الثلاث. وعلى الرغم من أن من هم في مثل وضعه يدخلون، في الأوقات العادية، من باب الخدمة، وينتظرون في غرفة الخدمة، إلا أنهم اقتادوه إلى المكتبة، لأن حفلة ستقام في ذلك اليوم في البيت ويحضرها أركان الحزب المحافظ. وقد اجتاح المطبخ جيش من الطهاة والمساعدين الذين جاء بهم تروييا من النادي، وكانت هناك حركة مضطربة ومتسرعة لا يمكن للزائر إلا أن يكون مزعجاً فيها. حدث ذلك بعد ظهر يوم شتائي، وقد بدت المكتبة مظلمة وصامتة، لا تضيئها سوى النار التي تطقطق في المدفأة. وتعبق برائحة طلاء تلميع الخشب والجلد.

ـ انتظر هنا، ولكن لا تلمس شيئاً. سيأتي السيناتور قريباً ـ قالت الخادمة بنبرة مستاءة، وتركته وحيداً.

جاب الشاب الحجرة بنظره، دون أن يتجرأ على القيام بأي حركة، مجتراً الضغينة بأنه كان يمكن لذلك كله أن يكون له لو أنه ولد كابن شرعي، مثلما أوضحت له مرات كثيرة جدته بانتشا غارثيا، قبل أن تموت بتشنجات حمى البُرداء وتخلفه يتيماً تماماً بين حشد من أبناء العمومة الذين لا يمثل بينهم شيئاً يُذكر. فجدته هي الوحيدة التي ميزته بين الجمع ولم تسمح له أن ينسى أنه مختلف عن الآخرين، لأن دماء السيد المالك تجري في عروقه. نظر إلى المكتبة وهو يشعر بالاختناق. كانت الجدران كلها مغطاة برفوف من خشب الماغوني الصقيل،

باستثناء جانبي المدفأة، حيث توجد خزانتين زجاجيتين مترعتين بالعاج وأحجار الشرق الثمينة. وكانت الحجرة مؤلفة من مستويين، وهذه هي نزوة المهندس الوحيدة التي وافق عليها جده. فهناك شرفة يتم الوصول إليها عبر سلم حلزوني من حديد مشغول، وتشكل طابقاً ثانياً فوق الرفوف. وكانت أفضل لوحات البيت هناك، لأن إستيبان ترويبا حوّل الحجرة إلى صومعته، مكتبه، ملجئه، وكان يرغب في أن يجد حوله الأشياء التي يقدرها كثيراً. كانت الرفوف مترعة بكتب وأعمال فنية، من الأرض حتى السقف. وهناك أيضاً منضدة تثقيلة من طراز إسباني، ومقاعد كبيرة فارهة من جلد أسود ظهرها إلى النافذة، وأربع سجاجيد فارسية تغطي أرضية خشب السنديان، وعدة مصابيح للقراءة أكمامها من رقاق جلود وموزعة بطريقة استراتيجية، بحيث يتوفر ضوء للقراءة أينما يجلس المرء. في هذا المكان كان السيناتور يفضل عقد جلسات تآمره، وحياكة مكائده، وإبرام صفقاته، وأن يعتكف هناك في أشد ساعات الوحدة لتنفيس غضبه، أو رغباته المحبطة، أو أحزانه. ولكن شيئاً من ذلك كله ما كان بإمكان الفلاح أن يعرفه وهو يقف على السجادة دون أن يعرف أين يضع يديه، ويتعرق من الخجل. تلك المكتبة المهيبة، الثقيلة والفخمة، تتناسب تماماً مع الصورة التي يحتفظ بها عن السيد. ارتعش بحقد وخوف. فهو لم يدخل قط مكاناً كهذا، وكان يظن حتى تلك اللحظة أن أفخر مكان في العالم كله هو صالة السينما في سان لوكاس، حيث أخذت معلمة المدرسة في أحد الأيام جميع تلاميذ الصف لمشاهدة فيلم عن طرزان. لقد تكلف الكثير في اتخاذ القرار وإقناع أسرته والقيام بالرحلة الطويلة إلى العاصمة، وحيداً ودون نقود، كي يكلم السيد. ما كان بإمكانه الانتظار حتى الصيف ليخبره بما يثقل صدره. وفجأة أحس بأنه مراقب. استدار ووجد نفسه في مواجهة طفلة ذات ضفائر وجوربين مطرزين تنظر إليه من الباب.

- ما اسمك؟ سألته الطفلة.

- إستيبان غارثيا - قال.

- انا أدعى ألبا ترويبا. تذكر اسمي.

- سأتذكره.

تبادلا النظرات لبرهة طويلة، إلى أن أحست بالثقة وتجرأت على الاقتراب. أوضحت له أنه عليه الانتظار، لأن جدها لم يرجع بعد من الكونغرس، وأخبرته أن المطبخ مزدحم بسبب الحفلة، ووعدته بأنها ستحصل فيما بعد على بعض الحلوى لتأتيه بها. أحس إستيبان غارثيا بقليل من الراحة. جلس على أحد المقاعد الجلدية السوداء، وراح يجتذب الطفلة شيئاً فشيئاً وأجلسها على ركبتيه. كانت تنبعث من ألبا رائحة قشور الجوز، شذى ناعم وعذب يختلط بالرائحة الطبيعية لطفلة متعرقة. قرّب الشاب أنفه من رقبتها وشم ذلك الأريج المجهول المركب من نظافة ورفاه، فامتلأت عيناه بالدموع دون أن يدري السبب. أحس بأنه يكره هذه الطفلة بقدر ما يكره ترويبا العجوز. فهي تجسد ما لن يمتلكه أبداً، وما لن يكونه مطلقاً. كان يرغب في إلحاق الأذى بها، في تدميرها، ولكنه كان يريد مواصلة شمها أيضاً، وسماع صوتها الطفولي، وأن تظل بشرتها الناعمة في متناول يده. داعب ركبتيها، فوق حافة الجوربين المطرزين بالضبط، كانتا دافئتين وفيهما تكورات صغيرة. واصلت ألبا الثرثرة عن الطاهية التي تدس الجوز في مؤخرات الدجاج من أجل حفلة العشاء في الليل. أغمض عينيه، وكان يرتجف. طوق عنق الطفلة بإحدى يديه، أحس بضفائرها تدغدغ معصمه وضغط برفق، مدركاً أنها صغيرة إلى حد يمكن له بجهد بسيط أن يخنقها. رغب في أن يفعل ذلك، وأن يحس بها تتلوى وتضرب بقدميها على ركبتيه، وتتخبط بحثاً عن هواء. رغب في سماعها تئن وتموت بين ذراعيه، رغب في تعريتها وأحس بأنه مستثار بعنف. توغل بيده الأخرى تحت الثوب المنشى، وذرع الساقين الطفليتين، ووجد التنورة التحتانية المخرمة وسروال الطفولة الصوفي ومطاطه. بقي في ركن دماغه ما يكفي من الوعي ليدرك أنه يقف على شفير هاوية. كانت الطفلة قد توقفت عن الكلام، وظلت هادئة، تنظر إليه بعينيها الواسعتين السوداوين. أمسك إستيبان غارثيا يد الطفلة ووضعها على عضوه المتصلب.

- أتعرفين ما هذا؟ - سأل بصوت أبح.

- إنه عضوك - أجابت، وكانت قد رأت ذلك في رسوم توضيحية في كتب خالها خايمي الطبية، وعند خالها نيكولاس حين كان يمضي عارياً وهو يمارس تمارينه الآسيوية.

انتفض متفاجئاً. ونهض واقفاً بعنف فسقطت الطفلة على السجادة. كان مذهولاً وخائفاً، يداه ترتجفان، ويشعر برخاوة الصوف في ركبتيه وبحرارة في أذنيه. وفي تلك اللحظة سمع وقع خطوات السيناتور ترويبا في الممر، وبعد هنيهة، قبل أن يتمكن من استرداد أنفاسه، دخل العجوز إلى المكتبة.

- لماذا كل هذا الظلام هنا؟ - زمجر بصوت مزلزل.

أشعل ترويبا الأنوار ولم يتعرف على الشاب الذي ينظر إليه بعينين جاحظتين. مدّ ذراعيه إلى حفيدته والتجأت هي إليهما للحظة قصيرة، مثل كلب مضروب، ولكنها أفلتت على الفور وخرجت مغلقة الباب وراءها.

- من أنت يا رجل؟ - وخز بالسؤال من هو حفيده أيضاً.

- إستيبان ترويبا. ألا تتذكرني يا سيدي؟ - تمكن الآخر من التلعثم.

عندئذ تعرف ترويبا على الطفل الوغد الذي وشى بپيدرو الثالث منذ سنوات، وجمع الأصابع المقطوعة عن الأرض. وأدرك أنه لن يكون من السهل عليه أن يصرفه دون الاستماع إليه، على الرغم من أن لديه قاعدة بأن مشاكل الفلاحين يجب أن يحلها الوكيل في الماريات الثلاث.

- وما الذي تريده؟ - سأله.

تردد إستيبان ترويبا، لم يستطع العثور على الكلمات التي هيأها بدقة كبيرة طيلة شهور، قبل أن يتجرأ على طرق باب بيت السيد.

- تكلم بسرعة، لا وقت لدي - قال ترويبا.

وبتلعثم، تمكن غارثيا من طرح طلبه: لقد توصل إلى إنهاء الدراسة في مدرسة سان لوكاس ويريد توصية للانضمام إلى مدرسة الدرك والحصول على منحة من الدولة لتغطية نفقات دراسته.

- لماذا لا تظل في الريف، مثل أبيك وجدك؟ - سأله السيد.

- اعذرني يا سيدي، ولكنني أريد أن أصير دركياً - قال إستيبان غارثيا متوسلاً.

تذكر ترويبا أنه مازال مديناً له بمكافأة الوشاية ببيدرو غارثيا الثالث، ورأى أن طلبه فرصة جيدة لتصفية ذلك الدين، وليكون له كذلك خادم في سلك الشرطة. وفكر: «ومن يدري، فقد أحتاج إليه فجأة». جلس إلى منضدة مكتبه الثقيلة، وتناول ورقة تحمل ترويسة الكونغرس، وحرر التوصية بالصيغ المعهودة وقدمها للشاب الذي ينتظر واقفاً.

- خذ يا بني. يسعدني أنك اخترت هذه المهنة. إذا كان حمل السلاح هو ما تريده، فبين حمله كقاطع طريق أو كشرطي، سيكون من الأفضل أن تكون شرطياً، لأنك تظل بمنجى من العقاب. وسوف أتصل هاتفياً بالقومندان هورتادو، وهو صديقي، كي يوفروا لك منحة. وإن احتجت لشيء، أخبرني.

- شكراً جزيلاً يا سيدي.

- لا تشكرني يا بني. فأنا أحب مساعدة جماعتي.

ودّعه بتربيتة مودة على كتفه.

- لماذا سمّوك إستيبان؟ - سأله عند الباب.

- من أجلك يا سيدي - أجابه الآخر وقد احمر خجلاً.

لم يفكر ترويبا مرتين في الموضوع. فكثيراً ما يستخدم الفلاحون أسماء سادتهم لتعميد أبنائهم، كإشارة احترام.

ماتت كلارا في اليوم نفسه الذي أكملت فيه ألبا السنة السابعة من عمرها. ولم يلحظ أحد سواها أولى الإشارات إلى موتها. وبدأت عندئذ بإعدادات سرية لرحيلها. وزعت ملابسها بتكتم شديد على الخدم وزمرة المحميين الذين كانت تحتضنهم على الدوام، مستبقية الأشياء الضرورية. ورتبت أوراقها، وأخرجت من الأركان المنسية دفاتر تدوين الحياة. وربطتها بشرائط ملونة مرتبة حسب الأحداث وليس وفق التسلسل التاريخي، لأن الشيء الوحيد الذي نسيت تسجيله فيها هو التواريخ، وقررت في تعجل ساعاتها الأخيرة أنه لا يمكنها إضاعة الوقت في تقصي تلك التواريخ. وفي أثناء البحث عن الدفاتر، راحت تظهر المجوهرات في علب الأحذية،

وفي أكياس جوارب، وفي قعر الخزائن حيث وضعتها منذ الزمن الذي قدمها فيه زوجها إليها مفكراً في أنه سيتوصل بتلك الهدايا إلى نيل حبها. وضعتها في جراب صوفي قديم، وأغلقته بدبوس غير قابل للضياع وسلمته لبلانكا.

- احتفظي بهذا يا بنيتي. فقد ينفعك ذات يوم لما هو أكثر من التذكر به - قالت.

ناقشت بلانكا الأمر مع خايمي، فبدأ هذا مراقبتها. لاحظ أن أمه تعيش حياة عادية في الظاهر، ولكنها تكاد لا تأكل. فهي تتغذى على الحليب وبضع ملاعق من العسل. ولا تنام كفايتها، بل تقضي الليل في الكتابة والتجول عبر البيت. بدا كما لو أنها تنفصل عن العالم، وتغدو أكثر خفة في كل مرة، وأكثر شفافية وروحانية.

- ستطلق محلقة في أي يوم من هذه الأيام - قال خايمي قلقاً.

بدأت تختنق فجأة. تشعر في صدرها بعدو حصان جامح وجزع فارس يمضي بأقصى سرعة ضد الريح. قالت إنه الربو، ولكن ألبا انتبهت إلى أنها لم تعد تستدعيها بالجرس الفضي الصغير كي تشفيها بمعانقات مطولة. وفي صباح أحد الأيام رأت جدتها تفتح أقفاص الطيور بسعادة لا تفسير لها.

كتبت كلارا بطاقات صغيرة إلى أحبائها، وهم كثيرون، ووضعتها سراً في علبة تحت سريرها. وفي صباح اليوم التالي لم تنهض، وعندما جاءت الخادمة بالفطور، لم تسمح لها بأن تفتح الستائر. كانت قد بدأت بتوديع النور أيضاً، كي تدخل ببطء في الظلمات.

عندما أخبروا خايمي، ذهب لرؤيتها ولم يخرج إلا بعد أن سمحت له بفحصها. لم يستطع العثور على شيء غير طبيعي في مظهرها، ولكنه عرف، دون مجال للشك، أنها ستموت. خرج من الغرفة بابتسامة عريضة ومنافقة وعندما صار بعيداً عن نظر أمه، اضطر إلى الاستناد إلى الجدار لأن ساقيه خارتا. لم يخبر أحداً في البيت. واتصل باختصاصي كان أستاذه في كلية الطب، فحضر في اليوم نفسه إلى بيت آل تروبيا. وبعد أن رأى كلارا أكد تشخيص خايمي للحالة. فجمعا أفراد الأسرة في

الصالون، وأخبراهم دون مقدمات بأنها لن تعيش أكثر من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وأن الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو مرافقتها، كي تموت سعيدة.

- أظن أنها قررت أن تموت، وليس لدى العلم أي علاج لهذا المرض - قال خايمي.

أمسك إستيبان ترويبا ابنه من عنقه وكان على وشك أن يخنقه، ودفع الاختصاصي خارجاً ثم كسر بعكازه ما في الصالون من مصابيح وخزف. وانهار أخيراً على ركبتيه وهو يجهش كطفل. وفي تلك اللحظة دخلت ألبا ورأت جدها في وضعه ذاك في مثل طول قامتها، اقتربت منه وظلت تنظر إليه متفاجئة، وعندما رأت دموعه، عانقته. ومن بكاء العجوز علمت الطفلة بالخبر. وكانت هي الشخص الوحيد في البيت الذي لم يفقد هدوءه، بفعل تدريباتها على تحمل الألم، ولواقع أن جدتها كانت قد شرحت لها مراراً ظروف الموت وشجونه.

- في الموت، كما في المجيء إلى الدنيا، يتملكنا خوف من المجهول. ولكن الخوف شيء داخلي لا علاقة له بالواقع. فالموت مثل الولادة: تبدل وحسب - هذا ما قالته لها كلارا.

وأضافت أنها مادامت قادرة على التواصل دون صعوبة مع أرواح العالم الآخر، فإنها متأكدة تماماً من أنها ستتمكن في ما بعد من التواصل مع أرواح هذا العالم، ولهذا تريد منها عندما تحين تلك اللحظة ألا تتباكى، وأن تحتفظ بهدوئها، لأن الموت في حالتها لن يكون فراقاً، وإنما هو طريقة لاتحاد أقوى بينهما. وقد فهمت ألبا ذلك تماماً.

بدا بعد قليل أن كلارا قد دخلت في إغفاءة عذبة، وكان الجهد المرئي لإدخال الهواء إلى رئتيها هو الإشارة الوحيدة إلى أنها مازالت حية. ولم يبدُ مع ذلك أن الاختناق يضايقها، إذ أنها لم تكن تصارع من أجل الحياة. ظلت حفيدتها إلى جانبها طوال الوقت. وكان عليهم أن يرتجلوا لها فراشاً على الأرض، لأنها رفضت الخروج من الغرفة، وعندما ارادوا إخراجها بالقوة، أصيبت بنوبتها العصبية الأولى. كانت تصر على أن جدتها تعي كل شيء وأنها بحاجة إليها. وقد كان الأمر كذلك بالفعل.

فقبل النهاية بقليل، استعادت كلارا وعيها واستطاعت التكلم بهدوء. وكان أول ما لاحظته هو يد ألبا بين يديها.

- سأموت، أليس كذلك يا بنيتي؟ - سألت.

- أجل يا جدتي، ولكن ليس مهماً، لأني معك - أجابت الطفلة.

- لا بأس. أخرجي علبة فيها بطاقات من تحت السرير ووزعيها، لأنني لن أتمكن من وداع الجميع.

أغمضت كلارا عينيها، أطلقت زفرة رضا ورحلت إلى العالم الآخر دون أن تنظر إلى الوراء. كانت الأسرة كلها حولها، خايمي وبلانكا بآثار سهر الليالي على وجهيهما، ونيكولاس يتمتم تراتيل بالسنسكريتية، وإستيبان يزم فمه ويشد قبضتيه بغضب وحزن غير متناهيين، والصغيرة ألبا، الوحيدة التي ظلت هادئة. وكان يقف هناك الخدم أيضاً، والأخوات مورا، واثنان من الفنانين الجائعين الذين عاشوا في البيت خلال الشهور الأخيرة، وكاهن حضر بدعوة من الطاهية، ولكنه لم يجد ما يفعله، لأن تروبيا لم يسمح له بإزعاج المحتضرة باعترافات اللحظة الأخيرة أو برش الماء المقدس.

انحنى خايمي فوق الجسد بحثاً عن خفقة غير محسوسة في قلبها، ولكنه لم يجدها.

- لقد رحلت أمنا - قال مجهشاً.

الفصل العاشر

عصر الخراب

لا يمكنني التحدث عن هذا الأمر. ولكنني سأحاول كتابته. لقد مضت عشرون سنة، وعانيتُ لزمن طويل من ألم لا يهدأ. ظننت أنني لن أجد السلوى أبداً، ولكنني الآن، وانا اقترب من التسعين، بدأت افهم ما أرادت أن تقوله حين أكدت لنا أنها لن تجد صعوبة في التواصل معنا، لأن لها خبرة كبيرة في هذه الشؤون. كنت أمضي قبل ذلك كالتائه، أبحث عنها في كل مكان. وفي كل ليلة، عندما أستلقي لأنام، أتصور أنها معي، بالحال التي كانت عليها حين كانت أسنانها كلها كاملة وكانت تحبني. أطفئ النور، وأغمض عيني وأحاول رؤيتها في صمت حجرتي، أناديها في يقظتي، ويقولون إنني أناديها كذلك وأنا نائم.

في الليلة التي ماتت فيها، حبستُ نفسي معها. وبعد سنوات طويلة من عدم تبادلنا الكلام، تقاسمنا تلك الساعات الأخيرة مستلقيين على سفينة مياه الحرير الأزرق الراكدة، مثلما كان يحلو لها أن تسمي سريرها. وانتهزتُ الفرصة لأقول لها كل ما لم أستطع قوله من قبل، كل ما صمتُ عنه منذ الليلة الرهيبة التي ضربتها فيها. نزعتُ عنها قميص النوم وتفحصتها بتمعن بحثاً عن أثر مرض يسوغ موتها، وحين لم أجده، عرفتُ ببساطة أنها قد أكملت مهمتها على هذه الأرض وطارت إلى بُعد آخر، حيث ستشعر روحها بمزيد من الراحة وقد تحررت أخيراً من الأثقال المادية. لم يكن هناك اي تشوه أو أي شيء رهيب في موتها. تفحصتها طويلاً، لأنه لم تُتح لي الفرصة منذ سنوات طويلة بتفحصها على هواي، وكانت زوجتي قد تبدلت في هذه الفترة، مثلما يحدث للجميع مع مرور العمر. بدت لي جميلة كعادتها. كانت قد نحلت وخيل إليّ أن قامتها قد طالت، أنها صارت أكثر طولاً، ولكنني أدركت بعد ذلك أن في الأمر

خدعة بصرية، نتيجة تقلص قامتي وانكماشها. لقد كنت أشعر من قبل بأنني مارد إلى جانبها، ولكنني حين اضطجعت معها على السرير، لاحظتُ أن لنا الطول نفسه تقريباً. وأنها تحتفظ بالشعر الأجعد والمتمرد الذي كان يفتنني عند زواجنا، وقد ازداد نعومة ببضع خصل من الشيب تضيء وجهها النائم. كانت شاحبة جداً، مع ظلال حول عينيها، ولاحظتُ أول مرة أن هناك تجاعيد دقيقة جداً عند جانبي الشفتين وفي جبينها. كانت تبدو أشبه بطفلة. وكانت باردة، ولكنها المرأة العذبة المعهودة، واستطعتُ التكلم إليها باطمئنان، ومداعبتها، والنوم إلى جانبها بعض الوقت عندما تغلب النعاس على حزني، دون أن يؤثر على لقائنا واقع الموت الذي لا مفر منه، وقد تصالحنا أخيراً.

وعند الفجر بدأتُ بترتيب حالها كي يراها الجميع حسنة المظهر. ألبستها جلباباً أبيض وجدته في خزانتها وفوجئت بقلة الثياب فيها، فقد كانت لدي فكرة أنها امرأة شديدة الأناقة. وجدت جوربين صوفيين وألبستها إياهما كيلا تتجمد قدماها، لأنها برّيدة جداً. ثم مشطت شعرها وأنا أفكر في ربطه في عقيصة مثلما كانت تفعل، ولكنني حين مررت عليه بالفرشاة تجعَّد مشكلاً إطاراً لوجهها فرأيتُ أنها تبدو أجمل هكذا. بحثت عن مجوهراتها لأضع لها بعضها، ولكنني لم أستطع العثور عليها، فاكتفيت بخلع خاتم الزفاف الذهبي الذي ألبسه منذ خطوبتنا ووضعته في إصبعها محل الخاتم الذي خلعَتْه من يدها يوم قطعت علاقتها بي. رتبتُ الوسائد، ومسدت ملاءات الفراش، وسكبت قطرات من ماء الكولونيا على عنقها، ثم فتحت بعد ذلك النافذة ليدخل الصباح. وعندما صار كل شيء جاهزاً، فتحت الباب وسمحت لأبنائي وحفيدتي بأن يودّعوها. وجدوا كلارا باسمة، نظيفة وجميلة، مثلما كانت على الدوام. أما أنا فكنت قد قصرت عشرة سنتيمترات، وكانت قدماي تسبحان في الحذاء، وصار شعري أبيض بالكامل ونهائياً، ولكنني لم أعد أبكي.

ـ يمكنكم دفنها ـ قلت لهم، ثم أضفت ـ وانتهزوا الفرصة لتدفنوا كذلك رأس حماتي، لا بد أنه في مكان من القبو منذ زمن بعيد ـ وخرجت مجرجراً قدميّ كيلا يفلت منهما حذائي.

هكذا عرفت حفيدتي أن ما كانت تضمه علبه القبعات المصنوعة من جلد خنزير، والتي كانت تستخدمها لتلعب لعبة الصلوات السوداء وتزين بها بيوتها الصغيرة في القبو، إنما هو رأس أم جدتها نيفيا الذي ظل بلا دفن لزمن طويل، تجنباً للفضيحة في البدء، ولأننا نسيناه في ما بعد في فوضى هذا البيت. وقد فعلنا ذلك بتكتم شديد، كيلا نفسح المجال للناس بالثرثرة. فبعد أن انتهى موظفوا الوكالة الجنائزية من وضع كلارا في نعشها، وإعداد الصالون كقاعة لتسجية الميتة بوضع ستائر وحرائر سوداء، وشموع تقطر، ومذبح مرتجل فوق البيانو، دس خايمي ونيكولاس رأس جدتهما في التابوت، وكان قد تحوّل إلى لعبة صفراء بملامح مرعوبة، ليرقد بسلام إلى جانب ابنة صاحبته المفضلة.

لقد كانت جنازة كلارا حدثاً كبيراً. لا يمكن لي أن أفسر من أين خرج كل أولئك الناس المحزونين لموت زوجتي. لم أكن أعلم أنها تعرف الجميع. مرت مواكب لانهائية لأناس يشدّون على يدي، وصف طويل من السيارات سد كل المنافذ إلى المقبرة، وجاءت وفود غريبة من الفقراء، والتلاميذ، والنقابات العمالية، والراهبات، والأطفال المنغوليين، والبوهيميين، والروحانيين. وقام جميع فلاحي الماريات الثلاث تقريباً بالرحلة، بعضهم أول مرة في حياتهم، في شاحنات أو في القطار، لوداعها. وبين الحشود رأيت بيدرو غارثيا الثاني الذي لم أره منذ سنوات طويلة. اقتربت لأحييّه، ولكنه لم يردّ على إيماءتي. اقترب مطأطئ الرأس من القبر المفتوح وألقى على تابوت كلارا باقة شبه ذاوية من الأزهار البرية التي تبدو مسروقة من بستان مجاور. وكان يبكي.

حضرت ألبا الطقوس المأتمية وهي تمسك بيدي. رأت إنزال التابوت إلى الأرض، في الموضع المؤقت الذي حصلنا عليه، وسمعت الخطابات المطولة المشيدة بالفضائل الوحيدة التي لم تكن جدتها تتمتع بها، وعندما رجعت إلى البيت، هرعت لتلوذ بالقبو بانتظار أن تتواصل روح كلارا معها، مثلما كانت قد وعدتها. وهناك وجدتُها تنام مبتسمة فوق بقايا *باراباس* التي نخرتها العثة.

لم أستطع النوم في تلك الليلة. فقد اختلط في ذهني حبا حياتي، روسا

ذات الشعر الأخضر، وكلارا نافدة البصيرة. الأختان اللتان أحببتهما كثيراً. وعند الفجر، توصلتُ إلى القرار بأنني إذا لم أكن قد تمكنت من امتلاكهما في الحياة، فسوف ترافقاني في مماتي، وبادرت إلى إخراج بعض الأوراق من منضدة مكتبي ورحت أرسم الضريح الأكثر جدارة وفخامة، من مرمر إيطالي وردي بلون السلمون مع تمثالين من الرخام نفسه يمثلان روسا وكلارا بأجنحة ملائكة، لأنهما كانتا ملاكين وستظلان ملاكين. وبينهما سوف أُدفن ذات يوم.

أريد أن أموت بأسرع ما يمكن، لأن الحياة بلا زوجتي لم يعد لها معنى في نظري. لم أكن أعلم أنه مازال علي عمل الكثير في هذا العالم. لحسن الحظ أن كلارا رجعت، أو ربما أنها لم تغادر بالكامل قطّ. إنني أفكر أحياناً في أن الشيخوخة شوشت عقلي وأنه من غير الممكن تجاوز واقع أني دفنتها قبل عشرين عاماً. يخامرني الشك في أنني أرى رؤى، كعجوز معتوه. ولكن هذه الشكوك تتلاشى حين أراها تمر بجانبي وأسمع ضحكتها على الشرفة، أعرف أنها ترافقني، وأنها غفرت لي كل عنفي الماضي، وأنها أقرب إليّ مما كانت عليه في أي وقت سابق. مازالت حية، ومعي، كلارا نافدة البصيرة...

قلب موت كلارا حياة بيت الناصية الكبير رأساً على عقب. لقد تبدلت الأزمنة. وذهبت معها الأرواح، والضيوف، وتلك السعادة المشعة التي كانت حاضرة دوماً لأنها هي نفسها لم تكن تؤمن بأن العالم ليس إلا وادياً للدموع، وإنما هو، على العكس من ذلك، دعابة من الرب، ومن الغباء أخذه على محمل الجد، مادام الرب نفسه لم يأخذه على محمل الجد. لاحظت ألبا التردي منذ الأيام الأولى. ورأته يتقدم ببطء، ولكن بطريقة لا يمكن كبحها. تنبهت إلى ذلك قبل الجميع بسبب الأزهار التي تذبل في الزهريات، مالئة الجو برائحة حلاوة خفيفة ومقززة، حيث ظلت إلى أن يبست تماماً وأفلتت أوراقها وتساقطت، ولم يبقَ منها سوى سوق ذاوية لم يرفعها أحد إلا بعد وقت طويل. ولم تعد ألبا تقطف أزهاراً لتزين بها البيت. بعد ذلك ماتت النباتات لأن أحداً لم يعد يتذكر سقايتها أو

التحدث إليها، مثلما كانت تفعل كلارا. وغادرت القطط بصمت، مثلما جاءت أو ولدت في دهاليز السطح. وارتدى إستيبان تروبيا السواد وانتقل، في ليلة واحدة، من متانة نضجه كفحل متدفق الصحة إلى بداية شيخوخة منكمشة ومتلعثمة، لم تكن لها مع ذلك فضيلة تهدئة غضبه. لقد حافظ على حداد صارم طوال ما تبقى من حياته، حتى بعد أن لم تعد رموز الحداد رائجة، ولم يعد هناك من يضعها، باستثناء الفقراء الذين ظلوا يعقدون شريطة سوداء على الذراع في إشارة إلى الحداد. لقد علّق في رقبته جراباً صغيراً من جلد الغزال يتدلى من سلسلة ذهبية تحت القميص، ملاصقاً لصدره. وفيه وضع أسنان زوجته الاصطناعية التي لها في نظره معنى حسن الطالع والكفارة. شعر جميع أفراد الأسرة أنهم فقدوا مسوغ بقائهم معاً بعد موت كلارا: لم يعد لديهم ما يقولوه بعضهم لبعض. وانتبه تروبيا إلى أن الشيء الوحيد الذي يبقيه في البيت هو وجود حفيدته.

تحول البيت في سياق السنوات التالية إلى أنقاض. فلم يعد هناك من يهتم بالحديقة، سواء بالسقاية أو التنظيف، حتى بدا كما لو أنها قد ابتُلعت بالنسيان والطيور والأعشاب الضارة. فتلك الحديقة الهندسية التي أمر تروبيا بزراعتها، محاكياً تصميم حدائق القصور الفرنسية، والمنطقة المسحورة التي كانت كلارا ملكة عليها في الفوضى والوفرة، في غزارة الزهر واختلاط النباتات المتسلقة الآخذة باليباس والتعفن والنتانة. وغطت الأوراق الجافة وفضلات الطيور والطحالب تماثيل الحديقة العمياء والنوافير المزغردة. وصارت العرائش المقوضة والمتسخة إلى ملجأ للحشرات ومزبلة للجيران. لقد تحولت الحديقة أجمة ريفية مهجورة متشابكة، لا يمكن التقدم فيها إلا بفتح الطريق بضربات منجل ماتشيتي. وشجرة الزان الأبيض العملاقة التي كانت تُشذب وتُقلم بزهو باروكيّ، انتهت إلى اليأس والخراب، تعذبها الحلزونات والأوبئة النباتية. وفي الصالونات، راحت الستائر تفلت شيئاً فشيئاً من خطافاتها وتتهدل كتنانير العجائز، معفرةً وحائلة الألوان. وقطع الأثاث التي تدوسها ألبا وهي تلعب بها لعبة البيوت والخنادق، تحولت إلى جثث بارزة النوابض، وفقدت سجادة الزينة المعلقة في الصالون نظافتها الراسخة كمشهد رعوي من مرابع فرساي

وصارت هدف تصويب لسهام نيكولاس وابنة أخته. وغطت الدهون والسخام المطبخ الذي امتلأ بعلب فارغة وأكوام من الصحف، ولم يعد يُنتج صواني الحلوى الكبيرة ومأكولات الزمن الغابر المعطرة. وقنع ساكنو البيت بأكل الحمّص والرز بالحليب بصورة شبه يومية، لأن أحداً لم يكن يجرؤ على مواجهة كوكبة الطاهيات ذوات الثآليل، الغاضبات والمستبدات اللاتي يحكمن بالتناوب وسط القدور المسودّة من سوء الاستخدام. وأحدثت الهزات الأرضية وخبط الأبواب وعكاز إستيبان تروبيا شروخاً في الجدران، وشظت الأبواب، وأفلتت مفصلات النوافذ دون أن يبادر أحد إلى إصلاحها. وبدأت الصنابير تقطر، والأنابيب تسرب الماء، والقرميد يتكسر، وظهرت لطخات رطوبة ضارية إلى الخضرة على الجدران. بينما ظلت غرفة كلارا المبطنة بالحرير الأزرق وحدها سليمة. وفيها بقي الأثاث المصنوع من خشب أشقر، وفستانين من القطن الأبيض، وقفص الكناري الفارغ، وسلة المطرزات غير المنتهية، وأوراق لعبها السحرية، والمنضدة ذات الثلاث قوائم، وحزمة دفاتر مدونات الحياة خلال خمسين سنة التي أعدتُ ترتيبها بعد زمن طويل من ذلك، وقرأتُها وأنا منزوية في عزلة البيت المقفر وصمت الموتى والمختفين، كي أبعث هذه القصة إلى الحياة.

فقد خايمي ونيكولاس اهتمامهما الواهن بالأسرة ولم يشفقا على أبيهما الذي حاول في عزلته، دون جدوى، إقامة صداقة معهما تملأ الفراغ الذي خلّفته حياة من سوء العلاقات. كانا يعيشان في البيت لأنه ليس لديهما مكان أكثر ملاءمة يمكنهما الأكل والنوم فيه، ولكنهما يمران كشبحين غير مباليين، لا يتوقفان لرؤية الخراب. كان خايمي يمارس مهنته باستعداد رسولي وبالعناد نفسه الذي أخرج به أبوه الماريات الثلاث من الإهمال وراكم ثروة، أما هو فكان يجهد نفسه في العمل في المستشفى ومعالجة الفقراء مجاناً في ساعات فراغه.

ـ أنت خاسر لا خلاص له يا بني ـ يقول تروبيا متنهداً ـ ليس لديك إحساس بالواقع. ولم تنتبه بعد كيف هو العالم. تراهن على قيم طوباوية لا وجود لها.

ـ مساعدة الغير قيمة لها وجود يا أبي.

- لا. فالإحسان مثل اشتراكيتك، ما هو إلا اختراع من الضعفاء من أجل ثني إرادة الأقوياء واستخدامهم.

- لستُ مؤمناً بنظريتك عن الأقوياء والضعفاء - يرد عليه خايمي.

- بل الأمر هكذا على الدوام في الطبيعة. إننا نعيش في غابة.

- صحيح، لأن من يضعون القوانين هم من يفكرون مثلك، ولكن الأمور لن تستمر على هذا النحو إلى الأبد.

- بل ستستمر، لأننا ظافرون. نعرف كيف ننتشر في الدنيا وكيف نمارس السلطة. استمع إليّ يا بني، ضع عقلك في رأسك وافتح عيادة خاصة، وأنا سأساعدك. ولكن اقطع علاقتك بالضالين الاشتراكيين! - كان إستيبان تروبيا يعظ ابنه، ولكن دون نتيجة.

بعد اختفاء آماندا من حياة نيكولاس، بدا أنه قد استقر عاطفياً. وكانت تجربته في الهند قد خلّفت لديه حباً بالمشاريع الروحية. هجر المغامرات التجارية الخيالية التي شوشت مخيلته في سنوات شبابه الأولى وكذلك رغبته في مضاجعة كل النساء اللاتي يصادفهن، ورجع إلى رغبته الدائمة في العثور على الرب عبر دروب غير تقليدية. والفتنة نفسها التي استخدمها في السابق لاجتذاب تلميذات لرقصات الفلامنكو، أفادته في أن يجمع حوله عدداً متزايداً من المريدين. وكان معظمهم من الشباب الضجرين من الحياة المريحة، يحاولون مثله البحث عن فلسفة تتيح لهم العيش دون أن يشاركوا في الاضرابات الأرضية. وهكذا تجمعوا في فريق مستعد لتلقي المعارف القديمة التي اكتسبها نيكولاس في الشرق. وبأمر منه، اجتمعوا في غرف الجزء الخلفي المهجور من البيت، حيث كانت ألبا توزع عليهم الجوز وتقدم لهم مغلى أعشاب بينما هم يستغرقون في التأمل متقاطعي السيقان. وعندما انتبه إستيبان تروبيا إلى أن أولئك التزامنيين والنسابة الذين يتنفسون من سررهم، يتجولون في البيت من وراء ظهره ويخلعون ثيابهم لأي سبب، فقد صبره وطردهم مهدداً إياهم بعكازه وبالشرطة. عندئذ أدرك نيكولاس أنه لن يتمكن من مواصلة تعليم الحقيقة دون أموال، فبدأ يتقاضى أجوراً متواضعة مقابل تعاليمه. واستطاع بذلك استئجار بيت أقام فيه أكاديميته للمتورين.

وتجاوباً مع المتطلبات القانونية وضرورة أن يكون للأكاديمية تسمية قانونية، أطلق عليها اسم **معهد الاتحاد مع العدم** (م.ا.م.ع). ولكن أباه لم يكن مستعداً لأن يتركه بسلام، لأن صور أتباع نيكولاس بدأت تظهر في الصحف برؤوسهم الحليقة، ووزراتهم غير المحتشمة، وملامحهم الطوباية، معرضين اسم آل تروييا للسخرية. فما إن عُرف أن نبي (م.ا.م.ع) هو ابن السيناتور تروييا، حتى استغلت المعارضة المسألة لتسخر منه، مستخدمة أبحاث الابن الروحاني كسلاح سياسي ضد الأب. تحمل السيناتور تروييا ذلك كله بصبر رواقي حتى اليوم الذي وجد فيه حفيدته ألبا حليقة الرأس مثل كرة بلياردو، تردد دون كلل كلمة «أوم» المقدسة. فأصيب بإحدى أشد نوبات غضبه رهبة. وانقض بصورة مفاجئة على معهد ابنه، ومعه اثنان من القتلة المستأجرين، فهشموا الأثاث القليل، وكانوا على وشك تهشيم التزامنيين المسالمين، لو لم يأمرهم العجوز بالتوقف عن التحطيم وانتظاره خارجاً بعد أن أدرك أنه قد تجاوز الحدود مرة أخرى. وحين انفرد بابنه، تمكن من السيطرة على ارتعاش الغضب الذي استولى عليه ليدمدم بصوت مكبوح أنه لم يعد قادراً على تحمل جنونه. وأضاف قبل أن يغادر مع صفقة الباب الأخيرة:

ـ لا أريد رؤيتك إلى أن ينمو شعر حفيدتي من جديد!

وفي اليوم التالي ظهر رد فعل نيكولاس. بدأ برمي الأنقاض التي خلّفها قاتلا أبيه المأجوران وتنظيف المكان، وكان في أثناء ذلك يتنفس بإيقاعية ليُفرغ من داخله أي أثر للغضب وينقي روحه. ثم انطلق بعد ذلك مع تلاميذه مرتدين وزراتهم وحدها، وحاملين لافتات يطالبون فيها بحرية العبادة واحترام حقوقهم كمواطنين، وتوجهوا نحو السور الحديدي للكونغرس. وأخرجوا هناك مزامير خشبية وأجراساً وصنوجاً صغيرة مرتجلة، أثاروا بها ضجة صاخبة أوقفت حركة المرور. وعندما اجتمع جمهور كبير، بادر نيكولاس إلى خلع ثيابه، وبعد أن تعرى تماماً مثل طفل وليد، استلقى وسط الشارع فاتحاً ذراعيه على شكل صليب. فتعالت ضجة مكابح وأبواق سيارات، وصراخ وصفير، حتى وصل الهياج إلى داخل مبنى المجلس. فقطعت الجلسة التي كان يُناقش فيها حق الملاكين

العقاريين بأن يغلقوا بأسلاك شائكة الدروب المجاورة لأملاكهم، وخرج أعضاء المجلس إلى الشرفة للاستمتاع بالمشهد الفريد لابن السيناتور ترويبا يرتل مزامير آسيوية وهو عارٍ بالكامل. نزل إستيبان ترويبا راكضاً على أدراج الكونغرس العريضة، واندفع إلى الشارع مستعداً لقتل ابنه، ولكنه لم يتمكن من تجاوز السور الحديدي، لأنه أحس بقلبه ينفجر من الغضب في صدره، وغطت غلالة حمراء عينيه. وسقط على الأرض.

حملت نيكولاس عربة للدرك، وحملت السيناتور ترويبا سيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر. استمرت إغماءة ترويبا ثلاثة أسابيع وكادت أن تودي به إلى عالم آخر. وعندما تمكن من مغادرة الفراش، أمسك ابنه نيكولاس من رقبته، وأصعده إلى طائرة وشحنه إلى خارج البلاد آمراً إياه بألا يعود للظهور أمامه طوال ما تبقى من حياته. ولكنه أعطاه مع ذلك نقوداً تكفيه للاستقرار والعيش لزمن طويل، لأن تلك هي الطريقة الوحيدة، مثلما أوضح خايمي، لتجنب إقدامه على حماقات يمكن لها أن تشوه سمعة الأب في الخارج أيضاً.

وخلال السنوات التالية، كان إستيبان ترويبا يطّلع على أخبار نعجة أسرته السوداء من خلال مراسلات متباعدة بين بلانكا وأخيها. وهكذا علم أن نيكولاس قد أقام في أميركا الشمالية أكاديمية أخرى للاتحاد مع العدم، وحقق نجاحاً كبيراً، وتمكن من جمع ثروة كبيرة لم يتوصل إلى جمعها من التحليق بالمنطاد أو من صناعة السندويتشات. وانتهى به الأمر إلى العوم مع تلاميذه في مسبحه الخاص من الخزف الوردي؛ وسط احترام المواطنين، موائماً دون قصد منه بين البحث عن الرب وحسن الحظ في الأعمال التجارية. والحقيقة أن إستيبان ترويبا لم يصدق ذلك قطّ.

انتظر السيناتور أن ينمو شعر حفيدته قليلاً، كيلا يظنوا أنها مصابة بالقرع، ثم ذهب بنفسه ليسجلها في مدرسة إنكليزية للآنسات، لأنه كان لا يزال يرى أن تلك هي الطريقة المثلى في التعليم، على الرغم من النتائج المناقضة التي توصل إليها مع ابنيه. وقد وافقت بلانكا على ذلك، لأنها أدركت أن اقتراناً موفقاً للكواكب في برج ابنتها الفلكي لن

يكون كافياً لتقدم ألبا في حياتها. وفي المدرسة، تعلمت ألبا أكل الخضار المسلوقة والرز المحروق، وتحمّل البرد في الباحة، وإنشاد الأناشيد وإنكار كافة توافه العالم باستثناء تلك التي من النوع الرياضي. لقد علموها قراءة الكتاب المقدس، ولعب التنس، والكتابة على الآلة الكاتبة. وكانت هذه الأخيرة هي الشيء المفيد الوحيد الذي بقي لها من تلك السنوات الطويلة من التعلم بلغة أجنبية. وألبا التي عاشت حتى ذلك الحين دون أن تسمع شيئاً عن الخطيئة أو عن أساليب لياقة الآنسات، كانت تجهل الحدود بين ما هو بشري وما هو إلهي، وبين الممكن والمستحيل، وكانت ترى أحد خاليها يتمشى عارياً في الممرات ويقفز قفزات كاراتيكا، وخالها الآخر مدفوناً تحت جبل من الكتب، وجدها يحطم بعكازه أجهزة الهاتف واصص الشرفة، وأمها تخرج خلسة حاملة حقيبة مهرج، وجدتها تحرك المنضدة ذات القوائم الثلاث وتعزف شوبان دون أن تفتح البيانو، بدا لها روتين المدرسة لا يطاق. كانت تضجر في الدروس. وفي الاستراحات تجلس في أقصى ركن في الباحة وأشده تكتماً، حيث لا تُرى، وهي ترتجف رغبة في أن يدعوها أحدهم للعب ومتوسلة في الوقت نفسه ألا ينتبه أحد إلى وجودها. حذرتها أمها من محاولة أن تشرح لزميلاتها ما رأته عن الطبيعة البشرية في كتب خالها خايمي الطبية، وطلبت منها ألا تتحدث إلى المعلمات عن المزايا التي تتفوق فيها لغة الإسبرانتو على اللغة الإنكليزية. وعلى الرغم من هذه الاحتياطات، لم تجد مديرة المعهد، منذ الأيام الأولى، صعوبة في اكتشاف شذوذات تلميذتها الجديدة. راقبتها خلال أسبوعين، وعندما تأكدت من تشخيصها للحالة، استدعت بلانكا تروبيا إلى مكتبها، وشرحت لها بكل ما استطاعت من لباقة أن الطفلة تتفلت تماماً من الحدود المعهودة للتربية البريطانية، وألمحت إليها أن تضعها في مدرسة راهبات إسبانيات، فربما يستطعن هناك كبح مخيلتها الغريبة وتقويم تهذيبها المؤسف. ولكن السيناتور تروبيا لم يكن مستعداً بالسماح للمدعوة مسّ سانت جون أن تُفحمه بحججها، واستخدم ثقل نفوذه كله كيلا يطردوا حفيدته من المدرسة. كان يريد لها أن تتعلم الإنكليزية

بأي ثمن. فهو مقتنع بتفوق الإنكليزية على الإسبانية التي يعتبرها لغة من مرتبة ثانوية، تنفع للشؤون المنزلية والسحر، للمواطف الجامحة والمشاريع غير المجدية، ولكنها لا تناسب عالم العلم والتقنية، وهو المجال الذي يأمل أن تحقق فيه ألبا الفوز. وكان قد انتهى به الأمر إلى أن يتقبل - وقد هزمته موجة الأزمنة الجديدة - أن بعض النساء لسن حمقاوات بالكامل، وأن ألبا التي لن تستطيع اجتذاب عريس جيد، يمكن لها اكتساب مهنة لتكسب عيشها كرجل. وقد ساندت بلانكا أباها في هذه النقطة، لأنها تحققت من تجربتها نتائج سوء التأهيل الأكاديمي في مواجهة الحياة.

- لا أريد لكِ أن تكوني فقيرة مثلي، ولا أن تعتمدي على رجل في معيشتك - هذا ما كانت تقوله لابنتها كلما رأتها تبكي غير راغبة في الذهاب إلى المدرسة.

لم يُخرجوها من المدرسة، وكان عليها أن تتحمل ذلك لعشر سنوات دون انقطاع.

في ذلك المركب المبحر على غير هدى، والذي تحول إليه بيت الناصية الكبير بعد موت كلارا، كان الشخص الوحيد المستقر في نظر ألبا هو أمها. فقد كانت بلانكا تكافح ضد التردي بضراوة لبؤة، ولكن بدا واضحاً أنها ستخسرالمعركة ضد زحف الخراب. لقد كانت هي الوحيدة التي تحاول منح الدار الكبيرة مظهر المنزل. فالسيناتور ترويبا واصل العيش هناك، ولكنه لم يعد يدعو أصدقاءه والسياسيين الذي له علاقة بهم، وأغلق الصالون واكتفى بشغلِ المكتبة وحجرته. وكان أصم وأعمى عن حاجات منزله. ومستغرقاً تماماً بمهماته السياسية وصفقاته، يسافر على الدوام، ويمول حملات انتخابية جديدة، ويشتري أراض وجرارات، ويربي خيول سباق، ويضارب بأسعار الذهب والسكر والورق. لم يكن ينتبه إلى أن جدران بيته تتلهف إلى طبقة جديدة من الطلاء، وأن الأثاث مخلع والمطبخ قد تحول إلى مزبلة. ولا يرى كذلك ستراتِ حفيدته الصوفية الملبدة، ولا ملابس ابنته العتيقة أو يديها التالفتين من الأعمال المنزلية والصلصال. لم يكن تصرفه نابعاً عن بخل، وإنما لأن أسرته لم تعد تهمه ببساطة. وقد ينفض عن نفسه الشرود في

بعض الأحيان، ويحمل هدية ضخمة وبديعة لحفيدته لا تفيد إلا في إبراز التناقض الكبير بين الثروة الخفية في الحسابات المصرفية وحياة التقشف في البيت. كان يعطي بلانكا مبالغ متفاوتة، ولكنها غير كافية على الدوام، مخصصة للإبقاء على سير الحياة في ذلك البيت الضخم المخلع والمظلم، شبه الفارغ الذي تتقاطع فيه التيارات الهوائية، وهي الحال التي تردى إليها منزل الزمن الغابر. لم تكن النقود تكفي بلانكا لسد النفقات، فكانوا يعيشون على مبالغ إضافية تستدينها من خايمي، ومهما اجتهدت في تقليص الميزانية من هنا، وترقيعها من هناك، تجد نفسها في نهاية كل شهر أمام حسابات لا يمكن دفعها وآخذة بالتضخم، إلى أن تتخذ القرار بالذهاب إلى حي الصاغة اليهود لتبيع شيئاً من المجوهرات التي اشتُريت قبل ربع قرن من هناك بالذات، وأورثتها إياها كلارا في جراب صوفي.

كانت بلانكا تتجول في البيت وهي تضع مريولاً وتحتذي نعلاً بيتياً، مختلطة بالقلة المتبقية من الخدم، ومن أجل الخروج ترتدي بدلتها السوداء نفسها التي تكويها وتعيد كيّها، ومعها بلوزتها الحريرية البيضاء. أما ألبا التي لم يعد جدها يهتم بها بعد ترمله، فكانتْ تلبس ما ترثه عن بنات عمومة بعيدات، هن أكبر أو أصغر منها، بحيث تبدو المعاطف عليها عموماً كما لو أنها معاطف عسكريين، وتكون الفساتين قصيرة وضيقة. كان خايمي يود عمل شيء من أجلهما، ولكن ضميره يشير إليه أن إنفاق دخله على إطعام الجائعين أفضل من إنفاقه على ترف أخته وابنة أخته.

بدأت ألبا تعاني، بعد موت جدتها، كوابيس تجعلها تستيقظ صارخة ومحمومة. كانت تحلم بأن جميع أفراد أسرتها قد ماتوا وأنها ظلت تتسكع وحيدة في البيت الكبير، دون رفقة أخرى سوى الأشباح الخفيفة والباهتة التي تهيم على وجهها في الممرات. اقترح خايمي نقلها إلى حجرة بلانكا لتشعر بمزيد من الطمأنينة. ومذ بدأت تشاطر أمها حجرة النوم، صارت تنتظر موعد النوم بتلهف خفي. فبينما هي متكورة على نفسها بين الملاءات، تتابع أمها بنظرها وهي تقوم بروتين إنهاء النهار قبل أن تندس في الفراش. كانت بلانكا تنظف وجهها بكريم هاريم، وهو

دهن وردي معطر برائحة الورد، ذائع الشهرة بتحقيق معجزات للبشرة النسائية، وتسرح مئة مرة شعرها الكستنائي الطويل الذي بدأت تخالطه شعرات قليلة شائبة لا يراها أحد باستثنائها هي. وكانت تتأثر بالبرد بشدة، فتنام في الشتاء والصيف بقميص نوم صوفي تحوكه بنفسها في لحظات فراغها. وعندما يهطل المطر تغطي يديها بقفازين للتخفيف من حدة البرد القطبي الذي يتغلغل حتى عظامها بفعل رطوبة الصلصال، وقد عجزت عن شفائها كل حقن خايمي وكل وخز الإبر الصينية الذي يمارسه نيكولاس. كانت ألبا تراقبها وهي تأتي وتروح في الحجرة، بقميص نوم الراهبة المستجدة يطفو حول جسدها، وبشعرها المتحرر من عقيصته، تحيط بها هالة غير مرئية من شذى ثيابها النظيفة الناعم وكريم هاريم، مستغرقة في مونولوج غير متماسك تختلط فيه الشكوى من أسعار الخضروات، وتعداد استياءاتها الكثيرة، وإنهاك حمل أعباء البيت على كاهلها، وتخيلاتها الشاعرية مع بيدرو غارثيا الثالث الذي تتخيله بين غيوم المغيب أو تتذكره وسط حقول القمح الذهبية في الماريات الثلاث. وحين تنهي طقوسها، تندس بلانكا في الفراش وتطفئ النور. كانت تمسك بيد ابنتها عبر الحيز الضيق الذي يفصل بين سريريهما، وتروي لها حكايات الكتب السحرية القابعة في صناديق الخال ماركوس المسحورة، ولكن ذاكرتها تحوّلها إلى حكايات جديدة. وهكذا علمت ألبا بأمر أمير نام مئة عام، وعذراوات يصارعن التنانين ملتحمات بها جسد إلى جسد، وعن ذئب تائه في الغابة تنتزع أحشاءه طفلةٌ دون أي مسوغ. وعندما ترغب ألبا في سماع تلك الفظاعات مرة أخرى، لا تتمكن بلانكا من إعادتها، لأنها تكون قد نسيتها، ونظراً لذلك، تبنت الصغيرة عادة كتابتها. وصارت تدون بعد ذلك الأمور التي تبدو لها مهمة، مثلما كانت تفعل جدتها كلارا.

بدأتُ العمل في بناء الضريح بعد قليل من موت كلارا، ولكنه امتد قرابة السنتين، لأن تفاصيل جديدة وباهظة التكاليف راحت تُضاف: لوحات حجرية مكتوبة بحروف قوطية من الذهب، وقبة بلورية كي

تدخل الشمس، وآلية بارعة مستنسخة عن النوافير الرومانية، تتيح سقاية دائمة ومحسوبة لحديقة داخلية صغيرة في الضريح، حيث أمرتُ بزرع ورود وأزهار كاميليا، وهي الزهور المفضلة لدى الأختين اللتين احتلتا قلبي. وكان التمثالان مشكلة. فقد رفضتُ عدة تصاميم، لأنني لا أريد تماثيل ملائكة غبية، وإنما أن تكون صورة مماثلة لروسا وكلارا، بوجهيهما وأيديهما وحجمهما الواقعي. وقد حقق نحات أورغوائي رغبتي وأنجز التمثالين أخيراً مثلما أردتُ لهما. وعندما صار الضريح جاهزاً، واجهتُ عقبة غير متوقعة: لم أستطع نقل رفات روسا إلى الضريح الجديد، لأن آل دل بايه اعترضوا على ذلك. حاولت إقناعهم بكل أنواع الحجج، بهدايا وضغوط، حتى إنني استخدمت سلطتي السياسية، ولكن ذلك كله لم يُجدِ. وظل أنسبائي مصرين على موقفهم. أظن أنهم علموا بمسألة رأس نيفيا وكانوا غاضبين مني لأنني أبقيته في القبو كل ذلك الزمن. وحيال عنادهم، استدعيت خايمي وطلبت منه أن يستعد لمرافقتي إلى المقبرة كي نسرق جثة روسا. لم يُبد عليه أنه فوجئ.

- إذا لم نستطع عمل ذلك بالحسنى، لا بد لنا من عمله بالإكراه - أوضحتُ لابني.

ومثلما هو معهود في هذه الحالات، ذهبنا في الليل ورشونا حارس المقبرة، مثلما فعلتُ قبل زمن طويل، كي أظل مع روسا في ليلتها الأولى التي أمضتها هناك. دخلنا ونحن نحمل أدواتنا عبر درب أشجار السرو، بحثنا عن مدفن آل دل بايه وانهمكنا في مهمة فتحه الشاقة. نزعنا بحذر اللوح الحجري الذي يحمي راحة روسا وأخرجنا النعش الأبيض من الكوة، وكان أثقل بكثير مما توقعناه، فاضطررنا إلى الطلب من الحارس أن يساعدنا. كنا نعمل بمشقة بسبب ضيق المكان، يعرقل أحدنا الآخر بالأدوات، وسط إضاءة ضعيفة من فانوس كربورو. أعدنا بعد ذلك إغلاق الكوة باللوح الحجري، كيلا يخامر الشك أحد بأنها فارغة. وانتهينا ونحن نتعرق بغزارة. وكان خايمي قد احتاط للأمر بأن أحضر معه زمزمية خمر، فتمكنا من شرب جرعة تمنحنا الحيوية. وعلى الرغم من أن أياً منا لم يكن متطيراً ومؤمناً بالخرافات، إلا أن منظر تلك

المقبرة الكبيرة الممتلئة بالصلبان والقباب ولوحات القبور الحجرية كان يستثير أعصابنا. جلستُ عند العتبة لأسترد أنفاسي وفكرت في أنني لم أعد شاباً بأي حال، مادام تحريك نعش يسبب اضطراباً في إيقاع نبضات قلبي ويجعلني أرى نقاطاً مضيئة في الظلام. أغمضتُ عيني وتذكرت روسا، بوجهها الكامل، بشرتها الحليبية، وشعرها الذي كشعر حورية بحر أقيانوسية، وعينيها العسليتين اللتين تسببان الاضطراب، ويديها المتشابكتين بمسبحة الصدف، وإكليل العروس على رأسها. تنهدت متذكراً تلك العذراء باهرة الجمال التي أفلتت من يدي، وظلت هناك تنتظر طوال تلك السنوات كلها أن أجيء للبحث عنها وحملها إلى المكان الذي يليق بها أن تكون فيه.

- فلنفتح هذا النعش يا بني. أريد رؤية روسا - قلتُ لخايمي.

لم يحاول صرفي عن عمل ذلك، لأنه كان يعرف نبرة صوتي عندما يكون قراري لا رجعة عنه. رتبنا توجيه ضوء الفانوس، وفك هو بصبر البراغي النحاسية التي سوّدها مرور الزمن، واستطعنا رفع الغطاء الثقيل كأنه من الرصاص. وعلى ضوء الكربور الأبيض، رأيتُ روسا الجميلة، بإكليل العروس الذي من زهر البرتقال، وبشعرها الأخضر، وجمالها الباقي مثلما رأيتها قبل سنوات طويلة مسجاة في نعشها الأبيض فوق منضدة غرفة الطعام في بيت حميّ. ظللتُ أنظر إليها مفتوناً، دون أن أستغرب أن الزمن لم يؤثر فيها، لأنها كانت هي نفسها مثلما أراها في أحلامي. انحنيت فوقها وطبعتُ من خلال الزجاج الذي يغطي وجهها قبلة على شفتي حبيبتي اللامتناهية الشاحبتين. وفي تلك اللحظة بالضبط، هبت نسمة هواء منسلة بين أشجار السرو، ونفذت غدراً من شرخ ما في النعش الذي ظل حتى تلك اللحظة محكم الإغلاق، وفي لحظة واحدة تحللت العروس غير المتبدلة كما في سحر، وتحولت إلى رماد ناعم خفيف ورمادي. وعندما رفعت رأسي وفتحت عيني، وطعم القبلة الباردة لا يزال على شفتي، كانت روسا الجميلة قد اختفت. ورأيتُ مكانها جمجمة فارغة المحجرين، ومزق من الجلد بلون العاج ملتصقة بالوجنتين، وبضع خصل شعر طحلبية على قذالها.

سارع خايمي والحارس إلى إغلاق الغطاء، ووضعا نعش روسا على عربة وحملاها إلى المكان المخصص لها إلى جانب كلارا في الضريح الذي بلون السلمون الوردي. وظللتُ جالساً فوق قبر في درب أشجار السرو أتطلع إلى القمر.

- لقد كانت فيرولا على حق - فكرتُ - فها أنذا قد بقيت وحيداً وجسدي وروحي يتضاءلان. ولم يبق لي إلا أن أموت مثل كلب.

كان السيناتور تروبيا يناضل ضد خصومه السياسيين الذين يتقدمون أكثر فأكثر على طريق الوصول إلى السلطة. وبينما كان قادة آخرون في الحزب المحافظ يسمنون ويشيخون ويضيعون الوقت في مجادلات بيزنطية لا تنتهي، ظل يكرس نفسه للعمل والدراسة وذرع البلاد من الشمال إلى الجنوب، في حملة شخصية لا تتوقف، دون أن يأخذ في الاعتبار سنوات عمره واحتجاج عظامه الأصم. وكان يُعاد انتخابه سيناتوراً في كل انتخابات برلمانية. ولكنه لم يكن مهتماً بالسلطة أو الثروة أو الشهرة. بل كان هاجسة الدائم تدمير ما يدعوه «السرطان الماركسي» الذي يتغلغل شيئاً فشيئاً بين الشعب.

- يرفع أحدنا أي حجر، فيظهر له شيوعي تحته! - كان يقول.

لم يكن هناك من يصدقه، بمن في ذلك الشيوعيين أنفسهم. كانوا يسخرون منه قليلاً بسبب نوبات مزاجه السيئ، ومظهره كغراب في حالة حداد، وعكازه القديم، ونبوءاته الكارثية. وعندما كان يضع أمام أنوف محازبيه الإحصائيات والنتائج الحقيقة للانتخابات الأخيرة، كانوا يخشون أن تكون نتاج هذيانات العجوز. فيؤكد تروبيا بإلحاح:

- في اليوم الذي لن نتمكن فيه من وضع يدنا على صناديق الاقتراع قبل حساب الأصوات، سنهوي إلى الجحيم!

- لم يكسب الماركسيون أي انتخابات شعبية في أي مكان قطّ. فالأمر يحتاج إلى ثورة، وهي أمور لا تحدث في هذه البلاد - يردون عليه.

- إلى أن يأتي اليوم الذي تحدث فيه! - يقول لهم تروبيا هائجاً.

- اهدأ يا رجل. لن نسمح بحدوث ذلك - يطمئنونه -. لن تتوفر

للماركسية أدنى فرصة في أميركا اللاتينية. ألا ترى أنها لا تأخذ في اعتبارها الجانب السحري من الأمور؟ إنها مذهب ملحد، عملية ووظيفية. ولا يمكن لها النجاح هنا.

حتى إن العقيد هورتادو الذي يرى أعداء الوطن في كل مكان، لم يكن يعتبر الشيوعيين خطراً. وقد بيّن له، في أكثر من مناسبة، أن الحزب الشيوعي مؤلف من أربعة قطط منتوفة لا مكانة لها إحصائياً، وأنهم محكومون بأوامر موسكو بولاء جدير بأفضل قضية.

- وموسكو بعيدة، إنها حيث أضاع الشيطان عباءته يا إستيبان. وليس لديهم هناك فكرة عما يحدث في البلاد - كان العقيد هورتادو يقول له -. لا يأخذون في الاعتبار ظروف بلادنا، والدليل على ذلك أنهم ضائعون أكثر من ضياع ذات القبعة الحمراء. منذ بعض الوقت نشروا بياناً يدعون فيه الفلاحين والبحارة والسكان الأصليين إلى تأسيس أول مجلس سوفييت وطني، وهذا ليس سوى تهريج من أي وجهة نظرت إليه. ما الذي يعرفه الفلاحون عن معنى سوفييت! والبحارة الذين هم في أعالي البحار على الدوام، يهتمون بمواخير الموانئ الأخرى أكثر من اهتمامهم بالسياسة. وأما عن السكان الأصليين! لم يبق لدينا منهم سوى نحو مئتي شخص. لا أظن أنه بقي منهم أكثر من هذا العدد بعد مجازر القرن الماضي، ولكنهم إذا أرادوا أن يشكلوا سوفييتاً في محمياتهم، فلهم ما يريدون! - يقول العقيد ساخراً.

— أجل، ولكن فضلاً عن الشيوعيين، هناك الاشتراكيون، والراديكاليون وجماعات صغيرة أخرى! وجميعهم لديهم الأفكار نفسها تقريباً - يجيبه ترويبا.

جميع الأحزاب السياسية في نظر السيناتور ترويبا، باستثناء حزبه، هي ماركسية كامنة، فهو لا يستطيع تمييز أيديولوجية بعضها عن بعض. ولم يكن يتردد عن عرض موقفه أمام الملأ كلما أتيحت له الفرصة، ولهذا السبب صار السيناتور ترويبا في نظر الجميع، باستثناء أنصاره، نوعاً من الرجعي والأوليغارشي المجنون، وشديد الطرافة. وكان على الحزب المحافظ أن يكبح جماحه كيلا يفلت لسانه ويكشف

تفاهتهم جميعاً. وكان الفارس الغِضوب المستعد لخوض المعركة في الميادين كلها. ففي المؤتمرات الصحفية، وفي الجامعات، وحيث لا يتجرأ أحد سواه على إظهار وجهه، يكون حاضراً بثبات ببدلته السوداء، وشعره الذي كلبدة أسد، وعكازه الفضي. كان هدف رسامي الكاريكاتير الذين حولوه، لكثرة السخرية منه، إلى شخصية شعبية يكتسح الأصوات المحافظة في كل انتخابات. لقد كان متعصباً عنيفاً وعتيقاً، ولكنه يمثل أفضل من الجميع قيم العائلة والتقاليد والملكية الخاصة والنظام. وكان الناس جميعاً يعرفونه في الشارع، ويخترعون عنه النكات، ويجري على كل لسان تداول الطرائف التي تُنسب إليه. يقولون إن رئيس الجمهورية استدعاه إلى مكتبه عندما أصيب بأزمة قلبية، يوم تعرى ابنه أمام أبواب الكونغرس، وعرض عليه السفارة في سويسرا، حيث يمارس مهام منصب مناسب لسنه، ويتيح له استرداد عافيته. ويقال إن السيناتور تروبيا ردّ عليه بخبط منضدة الرئيس بقبضته، فقلب العلم الوطني وتمثالاً نصفياً لأبي الوطن، وزمجر قائلاً:

- لن أخرج من هنا ولو مت يا صاحب الفخامة. لأنني إذا ما سهوتُ لحظة عن الماركسيين فسوف يسحبون من تحتك الكرسي الذي تجلس عليه!

تمتع ببراعة أن يكون أول من أطلق على اليسار تسمية «عدو الديمقراطية»، دون أن يخطر بباله أن تسميته تلك ستتحول بعد سنوات إلى شعار الحقبة الدكتاتورية. كان يكرس وقته كله تقريباً في النضال السياسي، وجزءاً كبيراً من ثروته كذلك. وعلى الرغم من أنه كان يعقد على الدوام صفقات جديدة، إلا أنه لاحظ أن ثروته آخذة بالتناقص منذ موت كلارا، ولكن ذلك لم يسبب له الذعر، فقد افترض أنه في السياق الطبيعي للأمور، هناك واقعة لا سبيل إلى إنكارها بأن كلارا كانت نفحة حسن طالع في حياته، غير أنه لا يمكن لها مواصلة منفعته بعد موتها. أضف إلى ذلك أنه قدّر أن ما يملكه سيكفيه للعيش كرجل ثري طوال ما تبقى له في هذا العالم. كان يشعر أنه عجوز، ويفكر في ان أياً من أبنائه الثلاثة لا يستحق أن يرثه، وأنه سيوفر

الضمانة لحفيدته بتوريثها الماريات الثلاث، على الرغم من أن الريف لم يعد مزدهراً كما في السابق. فبفضل الطرق الجديدة والسيارات، اختُزل ما كان أشبه برحلة سفاري في القطار من قبل إلى ست ساعات فقط من العاصمة إلى الماريات الثلاث، ولكن تروبيا كان مشغولاً على الدوام ولا يجد الوقت للقيام بالرحلة. كان يستدعي الوكيل بين حين وآخر ليقدم له كشفاً بالحسابات، ولكن تلك اللقاءات كانت تخلف لديه رجماً من تعكر المزاج يستمر عدة أيام. لقد كان وكيله رجلاً مهزوماً بتشاؤمه بالذات. وكانت أخباره سلسلة من المصادفات المشؤومة: لقد جمد الصقيع الفريز، الدجاج أصيب بعدوى داء التورم، كروم العنب أصابها وباء. وهكذا تحول الريف الذي كان مصدر ثرائه إلى عبء، وكثيراً ما كان على السيناتور تروبيا أن يسحب أموالاً من صفقات أخرى ليدعم تلك الأراضي النهمة التي يبدو أنها راغبة في العودة إلى أزمنة الإهمال التي كانت عليها قبل أن يُخرجها من البؤس.

ـ عليّ أن أذهب لفرض النظام. ما ينقص هناك هو عين السيد الساهرة ـ كان يدمدم.

ـ الأمور مضطربة في الريف يا سيدي ـ حذرة وكيله مرات كثيرة ـ. فالفلاحون ينتفضون. وفي كل يوم يتقدمون بمطالب جديدة. يخيل لأحدنا أنهم يريدون أن يعيشوا كالسادة الملاكين. أفضل ما يمكن عمله هو بيع هذه الملكية.

ولكن تروبيا لم يكن يرغب في سماع كلام عن البيع. «الأرض هي الشيء الوحيد الذي يبقى عندما ينتهي كل شيء»، يكرر ما كان يقوله وهو الخامسة والعشرين من عمره، حين كانت أمه وأخته تضغطان عليه للسبب نفسه. ولكنه مع اشتداد وطأة التقدم في العمر والانغماس في العمل السياسي، لم تعد الماريات الثلاث تهمه كثيراً، مثلها مثل أمور أخرى كانت تبدو له أساسية من قبل. ولم تعد لها في نظره سوى قيمة رمزية.

لقد كان الوكيل محقاً. فالأمور اضطربت جداً في تلك السنوات. وهذا ما كان يشيعه صوت بيدرو غارثيا الثالث الذي وصل، بفضل

أعجوبة المذياع، إلى أقصى الأركان النائية في البلاد. فبعد بلوغه الثلاثين وبضع سنوات، كان لا يزال له مظهر الفلاح الخشن، محافظاً على مسألة المظهر، ذلك أن اكتساب معارف الحياة والنجاح قد خففت من خشونته وأرهفت أفكاره. كان يطلق لحية خشنة وشعراً طويلاً كنبي، يقصه بنفسه عن ظهر قلب بموسى كانت لأبيه، مستبقاً عدة سنوات الموضة التي شاعت في ما بعد بين مغني الرفض. كان يرتدي بناطيل من أقمشة خشنة، وينتعل صنادل مصنوعة يدوياً، ويلقي على نفسه في الصيف عباءة بونتشو من صوف خام. وكان ذاك هو زيه الميداني. هكذا يظهر على المنصات، وهكذا تظهر صورته على مغلفات الأسطوانات. ولخيبة أمله من المنظمات السياسية، انتهى به الأمر إلى تقطير ثلاث أو أربع أفكار أولية كوّن منها فلسفته. لقد كان فوضوياً. ومن الأغنيات عن الدجاجات والثعالب تطور إلى الغناء للحياة، والصداقة، والحب، وللثورة أيضاً. كانت موسيقاه واسعة الشعبية، لا يمكن إلا لشخص مكابر مثل السيناتور تروبيا أن يتجاهل وجوده. كان العجوز قد منع المذياع في بيته، ليجنب حفيدته سماع التمثيليات الهزلية والمسلسلات التي تفقد فيها الأمهات أبنائهن ثم يستردنهم بعد سنوات، وليتجنب كذلك إمكانية أن تعكر مزاجه أغنيات عدوه الهدامة وتقلب معدته. كان لديه مذياع حديث في غرفة نومه، ولكنه لا يستمع إلا إلى الأخبار. ولم يكن يعرف أن بيدرو غارثيا الثالث هو أفضل أصدقاء ابنه خايمي، ولا أنه يلتقي ببلانكا في كل مرة تخرج فيها حاملة حقيبتها التي كحقيبة المهرج وهي تتلعثم بأعذار. ولم يكن يعرف كذلك أنه يأخذ ألبا في بعض أيام الآحاد المشمسة لتسلق الهضاب، ويجلسان على ذراها ليتأملا المدينة ويأكلا خبزاً وجبناً، قبل أن يتدحرجا نزولاً على السفوح وهما ينفجران بالضحك كجروين سعيدين، وأنه يحدثها عن الفقراء، والمضطهدين، والبائسين وأمور أخرى يفضل تروبيا أن تجهلها حفيدته.

كان بيدرو الثالث يرى نمو ألبا، ويحاول أن يكون قريباً منها، ولكنه لم يتوصل إلى اعتبارها ابنته حقاً، لأن بلانكا متصلبة في هذه النقطة. فهي تقول إن ألبا قد تحملت الكثير من المفاجآت، وإن بقاءها

طفلة طبيعية نسبياً يشكل معجزة، ولهذا لا ضرورة لإضافة سبب آخر للاضطراب والتشوش بشأن أصلها. وإنه من الأفضل أن تواصل الاعتقاد بالرواية الرسمية حول أصلها. كما أن بلانكا لا تريد، من جهة أخرى، المجازفة بأن تتحدث الطفلة في الموضوع مع جدها، مما سيؤدي إلى كارثة. وعلى أي حال، كانت روح الطفلة الحرة والمتجاوبة تُبهج بيدرو الثالث. فكان يقول بافتخار:

- لو لم تكن ابنتي، لكانت جديرة بأن تكون ابنتي.

خلال تلك السنوات كلها، لم يتوصل بيدرو الثالث إلى التكيف مع حياته كعازب، على الرغم من نجاحه مع النساء، لاسيما المراهقات المتألقات اللواتي يؤججهن أنين جيتاره حباً. بعضهن كن يدخلن حياته بالقوة. وكان هو بحاجة إلى نضارة تلك الغراميات. فكان يسعى إلى إسعادهن لوقت قصير جداً، ولكنه منذ لحظة وهمهن الأولى يبدأ بمحاولة صرفهن، إلى أن يتوصل أخيراً إلى هجرهن بلطف. وفي أحيان كثيرة، عندما تكون إحداهن إلى جانبه في الفراش، تتنهد وهي نائمة، يغمض عينيه ويفكر في بلانكا، بجسدها الرحب الناضج، بنهديها الوافرين والدافئين، بتجاعيد فمها الدقيقة، بظلال عينيها العربيتين، ويشعر بصرخة تُثقل على صدره. حاول البقاء مع نساء أخريات، ذرع دروباً كثيرة وأجساداً كثيرة للابتعاد عنها، ولكن في أشد اللحظات حميمية، في نقطة الوحدة ونبوءة الموت، تكون بلانكا هي الفريدة على الدوام. فيبدأ في صباح اليوم التالي بالعملية الرقيقة للتخلص من العشيقة الجديدة، وما إن يجد نفسه حراً حتى يعود إلى حيث بلانكا، ويكون أشد نحولاً، وبعينين محاطتين بزرقة أكبر، وبإحساس أشد بالذنب، وبأغنية جديدة يعزفها على جيتاره، وبمداعبات لها لا تنضب.

كانت بلانكا بالمقابل قد اعتادت العيش وحيدة. وانتهى بها الأمر إلى العثور على الطمأنينة في أشغالها في البيت الكبير، وفي مشغل خزفها وفي حيوانات مذاود عيد الميلاد التي تخترعها، حيث الشيء الوحيد الخاضع لقوانين البيولوجيا هو العائلة المقدسة الضائعة بين حشد من المسوخ. لقد كان رجل حياتها الوحيد هو بيدرو الثالث، لأن ميولها

الطبيعة لا تتقبل سوى حب واحد. وقد أنقذتها قوة هذا الشعور الثابت من الوقوع في التفاهة ومن كآبة قدرها. فكانت تظل على وفائها له حتى في الأوقات التي يضيع فيها وراء بعض الحوريات ذوات الشعور السبطة والعظام الطويلة، دون أن يقلل ذلك من حبها له. كانت تظن، في البدء، أنها ستموت كلما ابتعد عنها، ولكنها سرعان ما أدركت أن غيابه لا يطول أكثر مما تطول تنهيدة، وأنه يرجع على الدوام أشد حباً وأكثر عذوبة. وكانت بلانكا تفضل تلك اللقاءات المختلسة مع حبيبها في فنادق المواعيد على روتين حياة عادية مشتركة، وعلى ضجر الزواج، وعلى ضيق التقدم في السن وهرمهما معاً في عوز آخر الشهر، ورائحة الفم الكريهة عند الاستيقاظ، وضجر أيام الآحاد، وتوعكات العمر. لقد كانت رومانسية لا خلاص لها. وقد داعبتها في بعض الأحيان فكرة حمل حقيبة المهرج وما تبقى من مجوهرات الجراب، والذهاب مع ابنتها للعيش معه، ولكنها كانت تجبن دائماً. ربما خشية ألا يتمكن ذلك الحب العظيم الذي صمد لتجارب كثيرة من الصمود أمام أشد التجارب رهبة: المساكنة. لقد كانت ألبا تكبر بسرعة، وأدركت بلانكا أن ذريعة الاهتمام بابنتها لتأجيل مطالبات حبيبها لن تستمر طويلاً، ولكنها تفضل على الدوام تأجيل قرارها إلى ما بعد. والواقع أنها بقدر خشيتها من الروتين، كانت ترتعب من أسلوب بيدرو الثالث في الحياة، وبيته المتواضع المشيد من ألواح خشب وصفيح في حيّ عمالي، بين مئات البيوت الأخرى البائسة مثل بيته، بأرضية ترابية مرصوصة، دون ماء وبمصباح وحيد يتدلى من السقف. ومن أجلها، غادر الحي العمالي وانتقل إلى شقة في مركز المدينة، صاعداً بذلك، دون نية مسبقة منه، إلى طبقة وسطى لم يتطلع يوماً إلى الانتماء إليها. ولكن ذلك لم يكن كافياً لبلانكا. فقد بدت لها الشقة قذرة، ومظلمة، وضيقة، ورأت أن البناية مختلطة. كانت تقول إنها لا تستطيع السماح بأن تكبر ألبا هناك، وأن تلعب مع أطفال آخرين في الشارع وعلى الدرج، وأن تتلقى التعليم في مدرسة عامة. انقضى شبابها على تلك الحال ودخلت سن النضج مذعنه إلى أن لحظات المتعة الوحيدة هي تلك التي تخرج فيها خلسة بأفضل ملابسها، وعطرها،

وبملابس داخلية فاضحة يفتتن بها بيدرو غارثيا، وتخفيها هي بخجل في أشد الأماكن سرية في خزانتها، مفكرة في التفسيرات التي ستقدمها إذا ما اكتشف أحدهم وجودها. هذه المرأة العملية والأرضية في كافة مظاهر حياتها، صعّدت عاطفة طفولتها لتعيشها بصورة مأساوية. لقد غذتها بتخيلات، وحولتها إلى المثالية، ودافعت عنها بقوة، ونقّتها من الحقائق التافهة وتمكنت من تحويلها إلى حب روائي.

تعلمت ألبا، بدورها، عدم الاتيان على ذكر بيدرو غارثيا الثالث، لأنها تعرف التأثير الذي يسببه هذا الاسم في الأسرة. كانت تخمن أن شيئاً خطيراً قد حدث بين جدها والرجل مبتور الأصابع الذي يقبّل أمها من فمها، ولكن الجميع، بمن فيهم بيدرو الثالث نفسه، يتهربون من الإجابة على أسئلتها. وفي بعض الأحيان، في حميمية غرفة النوم، كانت بلانكا تروي لها حكايات طريفة عنه وتعلمها أغانيه مع توصيتها بألا تدندن بها في البيت. ولكنها لم تخبرها بأنه أبوها، وكان يبدو عليها أنها هي نفسها قد نسيت ذلك. فقد كانت تتذكر الماضي كمتوالية من أعمال العنف، والإهمال، والأحزان، ولم تكن واثقة من أن الأمور قد جرت بالطريقة التي تظنها هي. لقد امحت من ذاكرتها حادثة المومياات، والصور الفاضحة، والهندي الأمرد صاحب الحذاء من طراز أحذية لويس الخامس عشر، وغير ذلك من الأحداث التي أدت إلى هروبها من بيت زوجها. لقد كررت مراراً وتكراراً قصة أن الكونت قد مات محموماً في الصحراء، حتى توصلت إلى تصديقها. وبعد سنوات من ذلك، في اليوم الذي جاءت ابنتها لتخبرها بأن جثة جان دوساتيني ترقد في ثلاجة مستودع الجثث، لم تبتهج، لأنها كانت تشعر بأنها أرملة منذ سنوات طويلة خلت. ولم تحاول كذلك أن تسوغ كذبها. أخرجت بدلتها السوداء القديمة من الخزانة، وثبتت عقيصة شعرها بدبابيس، وأخذت معها ألبا لدفن الفرنسي في المقبرة العامة، في قبر للبلدية، حيث ينتهي الأمر بالمعوزين، لأن السيناتور تروبيا رفض منحه مكاناً في مدفنه السلموني اللون. سارت الأم والابنة وحيدتان وراء النعش الأسود الذي تمكنتا من شرائه بفضل سخاء خايمي. كانتا تشعران أنهما مضحكتان في قيظ

تلك الظهيرة الصيفية وهما تحملان باقة زهر ذابلة، ودون دمعة واحدة على الجثة المتوحدة التي ستدفنانها.

ـ أرى أن أبي لم يكن له حتى أصدقاء ـ علقت ألبا.

وحتى في هذه المناسبة لم تكشف بلانكا الحقيقة لابنتها.

بعد أن نقلتُ كلارا وروسا إلى ضريحي الذي شيدته، أحسستُ بشيءٍ من الطمأنينة، لأني كنت أعرف أننا سنجتمع نحن الثلاثة هناك، عاجلاً أو آجلاً، إلى جانب أحبة آخرين مثل أمي والنانا، وفيرولا نفسها التي آمل أن تكون قد غفرت لي. لم أكن أتصور أنني سأعيش طويلاً مثلما عشت وأنهن سينتظرنني كل ذلك الوقت.

ظلت حجرة كلارا مقفلة بالمفتاح. لم أكن أريد لأحد أن يدخلها، كيلا يحركوا شيئاً وأتمكن من العثور على روحها حاضرة هناك كلما رغبتُ في ذلك. بدأت أعاني الأرق، داء المسنين جميعاً. فكنت أجوب في الليل أنحاء البيت دون أن أجد إلى النوم سبيلاً، أجرجر الخف الذي صار واسعاً على مقاس قدمي، ملتفاً بالروب الأسقفي القديم الذي مازلت أحتفظ به لأسباب عاطفية، أتأفف من القدر كعجوز منتهٍ. ومع ذلك، ما إن يبزغ ضوء الشمس حتى أستعيد الرغبة في العيش. فأظهر في موعد تناول الفطور بقميص مُنشٍّ وببدلة الحداد، حليق الذقن ومطمئناً، أقرأ الصحيفة مع حفيدتي، وأتابع شؤون صفقاتي ومراسلاتي، ثم أخرج بعد ذلك لقضاء بقية النهار خارجاً. لم أعد أتناول طعامي في البيت، بما في ذلك أيام السبت والأحد، فمن دون حضور كلارا المحفز، لم يعد هناك مسوغ لتحمل المشاحنات مع أبنائي.

كان صديقاي المقربان الوحيدان يحاولان انتزاعي من حداد الروح. يتناولان الغداء معي، ونلعب الغولف، ويتحديانني في لعبة الدومينو. ومعهما كنتُ أناقش أمور صفقاتي، وأتحدث في السياسة، وعن شؤون الأسرة أحياناً. وفي عصر يوم وجداني فيه أشد حماسة، دعواني للذهاب إلى الكريستوف كولومبس، على أمل أن تتمكن امرأة مبهجة من أن

تعيد إليّ طيب المزاج. لم يكن أي منا نحن الثلاثة في سن مناسبة لمثل تلك المغامرات، ولكننا تناولنا كأسي خمر وذهبنا.

لقد ذهبتُ إلى الكريستوف كولومبس منذ سنوات، ولكنني كنت قد نسيت ذلك. وقد اكتسب المحل في الأزمنة الأخيرة شهرة سياحية، وكان أبناء الأقاليم يسافرون إلى العاصمة لا لشيء سوى زيارته والتحدث عن ذلك في ما بعد إلى أصدقائهم. وصلنا إلى البيت القديم الذي مازال يحتفظ من الخارج بالمظهر نفسه منذ سنوات طويلة جداً. استقبلنا بواب قادنا إلى الصالون الرئيسي، فتذكرتُ أنني دخلته من قبل، في زمن القوّادة الفرنسية، أو ذات اللكنة الفرنسية بتعبير أدق. قدّمت لنا صبية ترتدي زي تلميذة مدرسة كأساً من النبيذ على حساب المحال. حاول أحد صديقيّ أن يطوق خصرها، ولكنها حذرته بأنها من العاملات في الخدمة، وأنه علينا أن ننتظر المحترفات. بعد لحظات من ذلك فُتحت ستارة وظهر مشهد بلاط عربي قديم. شخص أسود ضخم، شديد السواد إلى حدّ يبدو أشبه بالزرقة، عضلاته مطلية بالزيت، يلبس سروالاً فضفاضاً من حرير جزريّ اللون، وصداراً بلا كمين، وعمامة بنفسجية مقصبة، وبابوجاً تركياً، وخاتماً ذهبياً يتدلى من أنفه. وعندما ابتسم، رأينا أن أسنانه كلها من الرصاص. قدّم نفسه باسم مصطفى وعرض علينا ألبوم صور كي نختار البضاعة. ضحكتُ بشهية للمرة الأولى منذ زمن طويل، لأن فكرة وجود كاتالوج للعاهرات بدت لي مسلية جداً. تصفحنا الألبوم، فكانت فيه نساء بدينات، ونحيلات، ذوات شعر طويل وشعر قصير، يلبسن كحوريات، أو أمازونيات، أو راهبات مستجدات، أو وصيفات، دون أن اتمكن من اختيار واحدة منهن، فقد بدت هيئتهن جميعهن منتهكة مثل أزهار المآدب. وكانت الصفحات الثلاث الأخيرة من الألبوم مخصصة لفتيان بعباءات إغريقية، وآكاليل غار، يلعبون وسط أطلال هيلينية زائفة، بمؤخراتهم الممتلئة وأهدابهم التي ترمش بصورة مقززة. لم اكن قد رأيت مخنثين عن قرب من قبل، باستثناء كارميلو الذي كان يتزيا بزي يابانية في القنديل الأحمر، ولهذا فوجئتُ عندما اقدم أحد صديقيّ، وهو رب أسرة ومضارب في بورصة التجارة، على

اختيار أحد غلمان الصور ذوي المؤخرات الضخمة. ظهر الفتى بحركة أشبه بفنون السحر من وراء الستائر واقتاد صديقي من يده، وسط ضحكات وتغنجات أنثوية. وفضّل صديقي الآخر جارية بدينة جداً، أشك في أن يكون قد تمكن من تحقيق أي مأثرة معها، بسبب تقدمه في العمر وبنيته الهشة، ولكنه خرج معها وابتلعتهما الستائر أيضاً.

ـ أرى أن السيد يجد صعوبة في اتخاذ القرار ـ قال مصطفى بمودة ـ اسمح لي أن أعرض عليك أفضل ما في المحل. سأقدم لك أفروديت.

ودخلت أفروديت إلى الصالون، بثلاث طبقات من الشعر المجعد فوق رأسها، وعليها تول شفاف كثير الطيات لا يكاد يسترها إلا قليلاً، وتتدلى منها أعناب اصطناعية من الكتفين حتى الركبتين. إنها ترانسيتو سوتو دون ريب، متخذة لنفسها هيئة أسطورية، إنها هي على الرغم من أعنابها السوقية وتول السيرك الذي يغطيها.

ـ تسعدني رؤيتك أيها السيد المالك ـ قالت محيية.

قادتني عبر الستائر إلى باحة داخلية صغيرة، هي قلب ذلك البناء المتاهيّ. كان الكريستوف كولومبوس مؤلفاً من بيتين أو ثلاثة بيوت قديمة، متصلة فيما بينها استراتيجياً بباحات خلفية، وممرات وجسور أقيمت لهذا الغرض. قادتني ترانسيتو سوتو إلى حجرة بسيطة، لكنها نظيفة، الشيء الوحيد الغريب فيها هو بعض الرسوم الجدارية الإيروتيكية المستنسخة بصورة غير متقنة عن جداريات بومبي، استنسخها رسام غير بارع على الجدران، وحوض بانيو كبير، قديم، عليه بعض الصدأ، يصله ماء جارٍ. صفرتُ إعجاباً.

ـ لقد أجرينا بعض التعديلات في الديكور ـ قالت لي. وخلعت ترانسيتو عنها الأعناب والتول الشفاف، وعادت لتكون المرأة التي أتذكرها، غير أنها صارت أشهى وأقل قابلية للتأثر، ولكن في عينيها تعبير الطموح نفسه الذي فتنني عندما تعرّفت عليها. حدثتني عن تعاونية المومسات والمخنثين، وأنها توصلت فيها إلى نتائج باهرة. وأنهم بتعاونهم معاً نهضوا بالكريستوف كولومبوس من الخراب الذي خلّفته فيه المدام الفرنسية الزائفة القديمة، وأنهم عملوا معاً لتحويله إلى حدث اجتماعي

ونصب تاريخي، يدور الحديث عنه على أفواه البحارة في أقصى البحار. وقد كان للأزياء التنكرية أكبر مساهمة في نجاح المحل، لأنها تستثير مخيلة الزبائن الإيروتيكية، ومثلها كان تأثير كتالوج العاهرات الذي تمكنوا من طباعته وتوزيعه في بعض الأقاليم، كي يوقظوا في الرجال الرغبة في الوصول ذات يوم إلى التعرف على الماخور المشهور.

ـ من المزعج التحرك بهذه المزق الشفافة وهذه الأعناب المزيفة أيها السيد، ولكن ذلك يروق الرجال. يذهبون ويتحدثون عنه فيجتذبون آخرين. أمورنا تمضي على ما يرام، إنها تجارة جيدة وليس هناك من يشعر بأنه يُستغَل. جميعنا شركاء. وهذا هو بيت العاهرات الوحيد الذي فيه زنجي حقيقي. الآخرون الذين قد تراهم في المواخير مصبوغون، أما مصطفى فيظل أسود حتى لو دعكته بورق الزجاج. والمكان نظيف، فهنا يمكنك أن تشرب الماء حتى في المرحاض، لأننا نسكب المعقمات حتى في الأماكن التي لا يمكنك تخيلها، وجميعنا نخضع لفحوص طبية. لا وجود هنا لأمراض زهرية.

خلعت ترانسيتو عنها آخر الحجب فأذهلني عريها البديع، حتى إنني أحسست فجأة بإرهاق مميت. كان قلبي مثقلاً بالحزن، وعضوي متراخياً مثل زهرة ذابلة وليس له من هدف بين ساقيّ.

ـ آه يا ترانسيتو! أظن أنني صرت عجوزاً جداً على هذه الأمور ـ قلت متلعثماً.

ولكن ترانسيتو راحت تُمَوِّج أفعى الوشم التي حول سرتها، وتنومني بتقلصات بطنها الناعمة، بينما هي تهدهدني بصوت الطائر الأبح الذي لها، متحدثة عن منافع التعاونية وفوائد الكتالوج. ووجدتني أضحك على الرغم من كل شيء، وشيئاً فشيئاً رحت أشعر بأن ضحكي أشبه ببلسم شافٍ. حاولتُ أن أتتبع بإصبعي وشم الحيّة، ولكنها كانت تفلت مني في حركتها المتلوية. وذُهلت لأن هذه المرأة التي لم تعد في شبابها الأول أو الثاني، مازالت متينة البشرة، ومازالت عضلاتها قوية وقادرة على تحريك رسم الحيوان الزاحف كما لو أنه كائن له حياته الخاصة. انحنيت لتقبيل الوشم وتأكدتُ، بسعادة، من أنها لم تتعطر. تغلغلت رائحة بطنها الدافئة

والواثقة في أنفي واجتاحتني بالكامل مستفزة في دمي غلياناً كنت أظنه قد برد. ودون أن تتوقف ترانسيتو عن الكلام، فتحت ساقيها، مباعدة من بين عمودي فخذيها الناعمين، في حركة عارضة، كما لو أنها تتخذ وضعاً أكثر راحة. بدأت أجوبها بشفتي، أشمها، أداعبها، ألحسها، إلى أن نسيت الحداد وثقل السنين، وعاودتني الرغبة بقوة أزمنة أخرى، ودون أن أتوقف عن مداعبتها وتقبيلها رحت أخلع ملابسي باحتدام، بيأس، وأتأكد بسعادة من صلابة ذكورتي في الوقت الذي رحت أغوص فيه في الحيوان الدافئ والمُشفق الذي يقدم نفسه إليّ، يهدهدني صوت العصفور الأبح، وتحتضنني ذراعا الربة، وتؤرجحني قوة ذينك الردفين، إلى أن فقدت الوعي بالأشياء وانفجرت في اللذة.

نزلنا بعد ذلك معاً في حوض الماء الدافئ إلى أن عادت روحي إلى جسدي، وأحسست عندئذ بأنني قد شفيت تقريباً. وداعبتُ نفسي للحظة بتخيل أن ترانسيتو هي المرأة التي كنت بحاجة إليها على الدوام، وأنه يمكنني إلى جانبها العودة إلى الزمن الذي كنتُ قادراً فيه على حمل فلاحة ممتلئة ورفعها إلى ردف حصاني وأخذها إلى الأجمة رغم إرادتها.

- كلارا... - تمتمتُ دون تفكير، وأحسست عندئذ بسقوط دمعة على خدي، ثم دمعة أخرى وأخرى، إلى أن تحولت إلى فيض بكاء، شهقات نحيب، اختناق حنين وأحزان تعرفت عليها ترانسيتو سوتو دون صعوبة، لأن لديها تجربة طويلة بأحزان الرجال. تركتني أبكي كل بؤس ووحدة سنواتي الأخيرة ثم أخرجتني من حوض الاستحمام بعناية أم، وجففتني، ودلكتني إلى أن خلّفتني طرياً مثل خبز مبلول، وغطتني عندما أغمضتُ عيني في الفراش. قبّلت جبهتي وخرجت على رؤوس أصابعها.

- من تكون كلارا يا ترى؟ - سمعتها تدمدم وهي تخرج.

الفصل الحادي عشر

اليقظة

في حوالي الثامنة عشرة من عمرها غادرت ألبا مرحلة الطفولة نهائياً. ففي اللحظة الدقيقة التي أحست فيها أنها امرأة، اعتكفت في حجرتها القديمة حيث الجدارية التي بدأت برسمها قبل سنوات طويلة. بحثت في علب الألوان القديمة إلى أن وجدت قليلاً من اللونين الأحمر والأبيض لا يزالان غير متجمدين. مزجتهما بعناية ورسمت قلباً وردياً ضخماً في الفراغ الأخير المتبقي على الجدران. لقد كانت واقعة في الحب. وألقت بعد ذلك بعلب الألوان ورياش الرسم إلى القمامة، وجلست طويلاً تتأمل الرسوم، لتراجع تاريخ أحزانها وأفراحها. واستخلصت في النتيجة أنها كانت سعيدة، وودعت طفولتها بتنهدة راحة.

لقد تبدلت في تلك السنة أشياء كثيرة في حياتها. فقد أنهت المدرسة وقررت أن تدرس الفلسفة، إرضاء لميولها، وكذلك الموسيقى، في معارضة لجدها الذي يعتبر الفن شكلاً من أشكال إضاعة الوقت ويشيد دون كلل بمنافع المهن الحرة أو العلمية. وكان يحذرها كذلك من الحب والزواج بالبلادة نفسها التي يلح بها على خايمي أن يبحث له عن خطيبة محترمة ويتزوج، لأنه آخذ بالتحول إلى رجل عانس. وكان يقول إنه من المناسب للرجال أن تكون لهم زوجات، أما النساء بالمقابل، مثل ألبا، فإنهن يخرجن خاسرات من الزواج على الدوام. ولكن نصائح الجد تبخرت تماماً عندما رأت ألبا أول مرة الفتى ميغيل، وكان ذلك في عصر يوم تاريخي ماطر وبارد في كافيتريا الجامعة.

كان ميغيل طالباً شاحباً، له عينان محمومتان، يلبس بنطالاً حائل اللون وينتعل جزمة عامل منجم، وهو في السنة الأخيرة في كلية الحقوق. كان قائداً يسارياً. يتأجج بأشد الميول جموحاً: ميل البحث عن العدالة.

ولكـن ذلـك لم يحـل دون أن يلحـظ أن ألبـا تتأملـه. رفـع بـصره والتقـت عيناهما. تبادلا النظر مبهورين، ومنذ تلك اللحظة صارا يتحينان أي فرصة للقاء فـي ممرات الحديقة، حيث يتمشيان محملين بالكتب أو مجرجرين فيولونسيل ألبا الثقيل. ومنذ اللقاء الأول لاحظت وجود إشـارة صغيرة على كمه: يد مرفوعة مضمومة القبضة. قررت ألا تخبره أنها حفـيدة إسـتيبان ترويبا، واستخدمت أول مرة في حياتها اللقب المدون فـي بطاقة هويتها: ساتيني. وسرعان ما أدركت أنه من الأفضل ألا تخبر بذلك بقية زملائها أيضاً. ولكنها راحت تفاخر بالمقابل أنها صديقة بيدرو غارثيا الثالث الذي يتمتع بشعبية واسعة بين الطلاب، وأنها تعرف الشاعر الذي كانت تجلس على ركبتيه فـي طفولتها، وكـان قد صـار معروفاً آنـذاك بكل لغـات العالم، وأشعاره تدور على شفاه الشباب وتُنقش على الجدران.

وكان ميغيل دائم الحديث عن الثورة. يقول إنه لا بد من مواجهة عنف النظام بعنف الثورة. أما ألبا بالمقابل فلم تكن تبدي أي اهتمام بالسياسة، ولا تتكلم إلا عن الحب. فقد ملت سماع خطب جدها، وحضور مـشاداته مـع خالها خـايمي، والعيش فـي الحمـلات الانتخابيـة. وتمثلت مـشاركتها السـياسية الوحيـدة فـي حياتهـا بـالخروج مع تلاميـذ آخـرين لرشـق سـفارة الولايـات المتحـدة بالحجـارة دون أن تكـون لـديها أسـباب واضـحة لـذلك، وكانت النتيجة أنهم طردوها لأسبوع من المدرسة، وكاد جدها أن يصاب بنوبة قلبية أخرى. ولكن السياسة فـي الجامعة كانـت أمـراً لا مفر منـه. ومثلها مثـل جميـع الـشبان الـذين انـضموا إلى الجامعـة فـي تلـك الـسنة، اكتـشفت جاذبيـة ليـالي الـسهر فـي مقهـى، والتغييرات الـتي يحتـاج إليهـا العـالم وانتقال عدوى هـوى الأفكـار من بعضهم إلى بعـض. فكـانـت تعـود إلى بيتهـا فــي سـاعة متـأخرة مـن الليـل، تمـلأ فمهـا المـرارة وتعبـق ثيابهـا برائحة التبغ الزنخـة، ورأسـها حـام بالبطولـة، وواثقـة مـن أنهـا لـن تتـوانى، عندما تحين اللحظة، عن تقديم حياتها في سبيل قضية عادلة. وبدافع من حبهـا لميغيـل، ولـيس لقناعـة أيديولوجيـة، اعتـصمت ألبـا فــي الجامعـة مـع الطلاب الذين احتلوا المبنى دعماً لاضراب العمال. كانـت أيـام معـسكر، وخطابات لاهبة، وإطلاق الشتائم على رجال الشرطة من خلال النوافذ إلى

أن تُبح الأصوات. أقاموا متاريس بأكياس مملوءة بتراب وبلاط انتزعوه من الباحة الرئيسية، وسدوا الأبواب والنوافذ لتحويل المبنى إلى موقع محصن، فكانت النتيجة تحويله إلى سجن يصعب على الطلاب الخروج منه أكثر مما يسهل على رجال الشرطة الدخول إليه. كانت تلك أول مرة تقضي فيها ألبا الليل خارج بيتها، متكورة بين ذراعي ميغيل، وسط أكوام من الصحف وزجاجات البيرة الفارغة، واختلاط الرفاق الدافئ، وجميعهم شباب، ينضحون عرقاً، بعيون محمرة من طول السهر والدخان، ويشعرون بشيء من الجوع ولكن دون أثر من الخوف. لأن ذلك بدا أشبه باللعب منه بالحرب. أمضوا اليوم الأول مشغولين جداً بإقامة المتاريس وتعبئة دفاعاتهم الساذجة، ورسم اللافتات والتكلم في الهاتف، حتى إنهم لم يبالوا عندما قطعت الشرطة عنهم الماء والكهرباء.

تحول ميغيل منذ اللحظة الأولى إلى روح عملية الاعتصام، يساعده البروفيسور سيباستيان غوميث الذي رافقهم حتى النهاية على الرغم من ساقيه المعطلتين. غنوا في تلك الليلة ليبثوا الحماسة في نفوسهم، وعندما تعبوا من الخطابات الحماسية والأغاني، توزعوا في جماعات للراحة وقضاء الليل بأفضل طريقة ممكنة. وكان آخر من رقد للراحة هو ميغيل الذي بدا أنه الوحيد الذي يعرف كيف يتصرف. تولى بنفسه توزيع الماء، بعد أن جمع ما وجده منه حتى في خزانات المراحيض، وارتجل مطبخاً وأعدَّ، دون أن يدري أحد كيف، قهوة سريعة الذوبان، وبسكويتاً وبعض علب البيرة. وفي اليوم التالي كانت نتانة المراحيض التي بلا ماء رهيبة جداً، ولكن ميغيل نظم عمليات التنظيف وأمر بعدم استخدامها: لا بد من قضاء الحاجات في الفناء، في حُفرةٍ أُحدثت إلى جانب التمثال الحجري لمؤسس الجامعة. ووزّع ميغيل الشباب إلى جماعات وأبقاهم مشغولين طيلة النهار. وقد فعل ذلك بمهارة شديدة لم يلحظوا معها سلطته. فكانت القرارات تبدو وكأنها تخرج بصورة تلقائية عن الجماعات.

ـ يبدو أننا سنبقى شهوراً ـ علقت ألبا مفتونة بفكرة البقاء محاصرين.

وفي الشارع، توزعت عربات الشرطة المصفحة بصورة استراتيجية حول المبنى القديم. وبدأت انتظاراً حرجاً سيستمر عدة أيام.

ـ سيتضامن طلاب البلاد بأسرها، وكذلك النقابات، والهيئات الحرفية. وربما ستسقط الحكومة ـ أعرب سيباستيان غوميث عن رأيه.
ـ لا أظن ذلك ـ أجابه ميغيل ـ. ولكن المهم هو الإصرار على الرفض وعدم ترك هذا المبنى إلا بعد التوقيع على لائحة مطالب العمال.
بدأ المطر يهطل بنعومة، وخيم الليل باكراً في البناء المحروم من النور. أشعلوا بعض مصابيح النفط المرتجلة في علب وفتائل يتصاعد منها الدخان. ظنت ألبا أنهم قد قطعوا الهاتف أيضاً، ولكنها تأكدت من أن الخط مازال يعمل. فأوضح ميغيل أن للشرطة مصلحة في معرفة ما يقولونه وحذرهم مما يمكن أن تتضمنه أحاديثهم. ومع ذلك، اتصلت ألبا ببيتها لتخبرهم بأنها ستظل إلى جانب زملائها حتى الانتصار النهائي أو الموت، وقد بدا لها ذلك زائفاً فور الانتهاء من التلفظ به. وقد انتزع جدها الجهاز من يد بلانكا، وقال لها بالنبرة الغاضبة التي تعرفها حفيدته جيداً إنه لديها ساعة واحدة كي ترجع إلى البيت وأن تقدم تفسيراً عقلانياً لقضائها ليلة خارج البيت. فردت عليه ألبا بأنها لا تستطيع الخروج، وحتى لو كانت تستطيع ذلك فإنها لا تفكر في عمله.
ـ ليس لديكِ ما تفعلينه هناك مع أولئك الشيوعيين! ـ صرخ إستيبان تروبيا. ولكنه لطَّف صوته فوراً وتوسل إليها أن تخرج قبل أن تدخل إليهم الشرطة، لأنه في وضع يتيح له معرفة أن الحكومة لن تتسامح إلى ما لانهاية، وانتهى السيناتور إلى القول: ـ إذا لم تخرجوا بالحسنى، فسوف تتدخل القوة المحمولة وتُخرجكم بالهراوات.
نظرت ألبا من فجوة في النافذة المسدودة بألواح خشب وأكياس تراب، ورأت العربات المصفحة مصطفة في الشارع وصفاً مزدوجاً من الرجال المتأهبين للحرب، بالخوذ والهراوات والأقنعة. أدركت أن جدها لا يبالغ. وكان الآخرون قد رآوهم أيضاً وبدأ بعضهم يرتجف. وذكر أحدهم أن هناك قنابل جديدة، أسوأ من القنابل المسيلة للدموع، تسبب إسهالاً متواصلاً يمكن له أن يقهر أشجع الشجعان بتحويله إلى نتن وأضحوكة. بدت الفكرة لألبا مرعبة. وكان عليها أن تبذل جهداً جباراً لمنع نفسها من البكاء. فقد كانت تشعر بوخزات في بطنها وافترضت أن سببها

الخوف. احتضنها ميغيل، ولكن ذلك لم ينفعها كعزاء. كان كلاهما متعباً وبدأا يشعران بالليلة السيئة في عظامهما وروحهما.

ـ لا أظن أنهم سيتجرؤون على الدخول ـ قال سيباستيان غوميث ـ. فلدى الحكومة ما يكفيها من المشاكل، ولن تدخل في مواجهة معنا.

ـ لن تكون المرة الأولى التي تشن فيها الحكومة هجوماً على الطلاب ـ قال أحدهم.

ـ الرأي العام لن يسمح بذلك ـ ردّ عليه غوميث ـ. فهذا بلد ديمقراطي. إنه ليس دكتاتورية، ولن يكون كذلك أبداً.

ـ المرء يفكر دائماً في أن تلك الأمور تحدث في أماكن أخرى ـ قال ميغيل ـ إلى أن يأتي يوم وتحدث لنا أيضاً.

ـ انقضت بقية المساء دون حوادث، وكان الجميع في الليل أكثر طمأنينة، على الرغم من امتداد أمد الوضع غير المريح والجوع. كانت العربات المصفحة لا تزال ثابتة في مواقعها. وكان الشبان في الممرات الطويلة وقاعات الدروس يلعبون لعبة القط والفأر أو الورق، ويستريحون بالاستلقاء على الأرض ويحضّرون أسلحة دفاعية من عصي وأحجار. كان الإنهاك بادياً على الوجوه كلها. وكانت ألبا تشعر بتزايد المغص في بطنها وفكرت في أنه إذا لم تُحل الأمور في اليوم التالي فلن يكون أمامها مفر من استخدام الحفرة التي في الباحة. وفي الشارع كان هطول المطر مستمراً وروتين المدينة يتواصل دون تأثر. وبدا أنه ليس هناك من يهتم بإضراب الطلاب مرة أخرى، فالناس يمرون أمام المصفحات دون أن يتوقفوا لقراءة اللافتات التي عُلقت على واجهة الجامعة. وسرعان ما اعتاد الجيران على وجود رجال الدرك المسلحين، وعندما توقف المطر خرج الأطفال ليلعبوا بالكرة في موقف السيارات الخاوي الذي يفصل بين البناء وقوات الشرطة. وأحست ألبا للحظات أنها في سفينة شراعية وسط بحر هادئ، بلا نسمة واحدة، في حالة انتظار أبدي وصامت، تتفحص الأفق لساعات. والرفاقية المرحة التي سادت في اليوم الأول تحولت إلى توتر وجدل متواصل مع مرور الوقت، وازدادت حدة عدم الراحة. فتش ميغيل المبنى كله وصادر كل ما في الكافيتريا من مأكولات.

ـ عندما ينتهي هذا الوضع، سندفع ثمن ما أخذناه للتزم الكافيتريا.
فهو عامل كغيره من العمال ـ قال.

كان الجو بارداً. والوحيد الذي لم يكن يشكو من شيء، حتى ولا من العطش، هو سيباستيان غوميث. بدا أنه مثل ميغيل، لا يعرف التعب، على الرغم من مظهره كمشلول، ومن أن سنوات عمره ضعف سنوات عمر ميغيل. وقد كان البروفيسور الوحيد الذي ظل مع الطلاب عندما استولوا على المبنى. يقال إن ساقية معطوبتان بفعل زخة رصاص رشاش في بوليفيا. وكان الأيديولوجي الذي يؤجج في طلابه اللهيب الذي رآه معظمهم ينطفئ عندما غادروا الجامعة واندمجوا في العالم الذي ظنوا في شبابهم الأول أنهم قادرون على تغييره. كان رجلاً ضئيلاً، هزيلاً، له أنف صقري معقوف وشعر قليل مبعثر، تدفعه نار داخلية لا تتيح له الراحة. وكانت ألبا مدينة له بلقب «كونتيسة»، لأنه خطرت لجدها في اليوم الأول الفكرة السيئة في أن يرسلها إلى الدروس في السيارة مع السائق، وقد رآها البروفيسور يومذاك. فكان اللقب مصادفة صائبة، لأنه لم يكن بوسع غوميث أن يعرف أنها إذا ما رغبت ذات يوم في أن تكون كونتيسة، فبإمكانها نبش لقب نبالة جان دوساتيني، وهو من الأشياء القليلة الحقيقية التي كان يمتلكها الكونت الفرنسي الذي منحها اسمه. لم تحقد عليه ألبا بسبب اللقب الساخر، بل على العكس، فقد راودتها التخيلات أحياناً بإغواء البروفيسور المجتهد. ولكن سيباستيان غوميث كان قد رأى فتيات كثيرات مثل ألبا، وكان قادراً على تمييز ذلك المزيج من الإشفاق والفضول الذي تثيره عكازاه اللتان تسندان ساقيه الرخوتين.

هكذا انقضى النهار كله دون أن تحرك الوحدة المحمولة عرباتها المصفحة ودون أن ترضخ الحكومة لمطالب العمال. بدأت ألبا تتساءل عما تفعله في ذلك المكان، لأن آلام بطنها صارت لا تطاق وحاجتها إلى الاغتسال في حمام ماء جارٍ بدأت تشكل هاجساً لها. وكلما نظرت إلى الشارع ورأت رجال الدرك، امتلأ فمها باللعاب. وفي أثناء ذلك كانت قد لاحظت أن تدريبات خالها نيكولاس ليست فعالة في لحظة الفعل الواقعي

مثلما هي أوقات تخيل المعانات الوهمية. وبعد ساعتين من ذلك أحست ألبا بين ساقيها بلزوجة دافئة ورأت بنطالها ملوثاً بلطخة حمراء. استولى عليها إحساس بالرعب. فخلال تلك الأيام كان يعذبها الخوف من حدوث ذلك قدر ما يعذبها الجوع تقريباً. لقد كانت اللطخة على بنطالها أشبه براية. لم تحاول إخفاءها. تقوقعت على نفسها في أحد الأركان شاعرة بالضياع. لقد علمتها جدتها، حين كانت صغيرة، أن الأمور الخاصة بالوظائف الإنسانية طبيعية جداً، وأنه يمكن التحدث عن الحيض كما التحدث عن الشعر، ولكنها عرفت في ما بعد، وهي في المدرسة، أن كافة إفرازات الجسد ليست وقورة، باستثناء الدموع. انتبه ميغيل إلى خجلها وغمها، فذهب بحثاً عن علبة قطن في العيادة المرتجلة، فوجد بعض المناديل، ولكنهما سرعان ما أدركا أنها ليست كافية. وعند الغروب كانت ألبا تبكي من المهانة والألم، مرتعبة من الكماشة التي تعضها من الداخل ومن ذلك التدفق الدامي الذي لا يشبه في شيء حاله في شهور أخرى. ظنت أن هناك شيئاً يتمزق فيها. وقدمت آنا دياث - وهي طالبة تحمل على ذراعها، مثل ميغيل، شعار القبضة المرفوعة - ملاحظتها بالقول إن ذلك يؤلم النساء الثريات فقط، لأن النساء البروليتاريات لا يشتكين حتى عند المخاض والولادة، ولكنها حين رأت بنطال ألبا وقد صار بركة دم، وأن ألبا نفسها شاحبة شحوب محتضرة، ذهبت لتخبر سيباستيان غوميث. فأعلن أنه عاجز عن حل هذه المشكلة.

- هذا ما يحدث عندما تشارك النساء في شؤون الرجال - قال مازحاً.

- لا! هذا ما يحدث عندما يشارك البرجوازيون في شؤون الفقراء! - ردّت عليه الفتاة بغضب.

توجه إستيبان غوميث إلى الركن الذي مدد فيه ميغيل ألبا واندس هناك بصعوبة بسبب عكازيه.

- عليك الذهاب إلى بيتك أيتها الكونتيسة. لن تفيدي في شيء هنا، بل على العكس، ستكونين مصدر إزعاج - قال لها.

أحست ألبا بموجة من الراحة. فقد كانت خائفة جداً، ووفر لها كلامه مخرجاً مشرّفاً يتيح لها الرجوع إلى بيتها دون أن يبدو ذلك جبناً.

تجادلت قليلاً مع سيباستيان غوميث كي تنقذ ماء وجهها، ولكنها وافقت على الفور تقريباً على أن يخرج ميغيل رافعاً راية بيضاء للتفاوض مع رجال الدرك. وقف الجميع يراقبونه من خلال كوى المتاريس وهو يجتاز موقف السيارات الخالي. اتخذ رجال الدرك وضع التأهب وأمروه بمكبر صوت أن يتوقف، وأن يضع الراية على الأرض ويتقدم ويديه على رقبته.

- إن هذا أشبه بحرب! - علق غوميث.

رجع ميغيل بعد قليل وساعد ألبا على النهوض. والفتاة نفسها التي انتقدت تأوهات ألبا قبل قليل، ساعدتها بالإمساك بذراعها وخرج الثلاثة من المبنى متجاوزين المتاريس وأكياس التراب، تضيئهم مصابيح الشرطة قوية الإضاءة. كانت ألبا تمشي بمشقة، وتشعر بالخجل، وبدوار في رأسها. ظهرت لهم دورية في منتصف الطريق، ووجدت ألبا نفسها على بعد سنتيمترات من زي عسكري أخضر ورات مسدساً موجها إليها عند مستوى الأنف. رفعت بصرها وواجهت وجهاً أسمر له عينا حيوان قارض. وعرفت على الفور من هو: إنه إستيبان غارثيا.

- أرى أنها حفيدة السيناتور ترويبا! - هتف غارثيا بنبرة ساخرة.

هكذا عرف ميغيل أنها لم تخبره كل الحقيقة. ولإحساسه بالخيانة، تركها بين يدي الآخر، ثم استدار ورجع يجر رايته البيضاء على الأرض، دون أن يوجه إليها نظرة وداع، ترافقه آنا دياث التي فوجئت وغضبت مثله.

- ما الذي أصابك؟ - سأل غارثيا وهو يشير بمسدسه إلى بنطال ألبا -. يبدو أنها عملية إجهاض!

رفعت ألبا رأسها ونظرت إلى عينيه.

- هذا لا يعنيك. أوصلني إلى بيتي! - قال آمرة في محاكاة للنبرة المتسلطة التي يستخدمها جدها مع من هم ليسوا من طبقته الاجتماعية.

تململ غارثيا. فمنذ زمن طويل لم يسمع آمراً يصدر إليه من شخص مدني، وراودته الرغبة في اقتيادها إلى الثكنة وتركها تتعفن في إحدى الزنازين، مستحمة بدمها، إلى أن تتوسل إليه جاثية. ولكنه كان قد تعلم في مهنته الدرس بأن هناك آخرين أقوى منه بكثير، وأنه لا يستطيع منح نفسه ترف التصرف دون عقاب. أضف إلى ذلك أن ذكرى ألبا بملابسها

المنشاة، وهي تتناول الليمونادة على شرفة البيت في الماريات الثلاث، بينما هو يجرجر قدميه الحافيتين في باحة الدجاج ويرشف مخاطه، والخوف الذي مازال يشعر به من ترويبا العجوز، كانا أقوى من رغبته في إذلالها. لم يستطع مواجهة نظرة الفتاة، وأحنى رأسه بطريقة غير ملحوظة. استدار على عقبيه، ونبح جملة قصيرة، فاقتاد دركيان ألبا من ذراعيها إلى إحدى عربات الشرطة. وهكذا وصلت إلى البيت. ظنت بلانكا حين رأتها أن نبوءة الجد قد تحققت وأن الشرطة قد انقضت على الطلاب بالهراوات. بدأت الصراخ ولم تتوقف إلا بعد أن انتهى خايمي من فحص ألبا وأكد لها أنها ليست جريحة، وأنه ليس فيها ما لا يمكن شفاؤه بحقنتين وبعض الراحة.

أمضت ألبا يومين في الفراش، تم خلالهما حل الإضراب الطلابي سلمياً. وجرى استبدال وزير التربية من منصبه ونقله إلى وزارة الزراعة. وقد علق السيناتور ترويبا على ذلك:

ـ مادام قد تمكن من شغل منصب وزير التربية دون أن يكون قد أنهى مرحلة التعليم الأساسي، فبإمكانه أن يصير وزيراً للزراعة دون أن يكون قد رأى في حياته بقرة كاملة.

وبينما ألبا في الفراش، أتيحت لها الفرصة لمراجعة الظروف التي عرفت فيها إستيبان غارثيا. وفي رجوعها بعيداً للبحث في صور الطفولة، تذكرت شاباً أسمر، ومكتبة البيت، والمدفأة المشتعلة بقطع حطب كبيرة تعطر الجو، في المساء أو الليل، وهي جالسة على ركبتيه. لكن هذه الرؤيا تظهر وتختفي بصورة سريعة وعابرة في ذاكرتها، وقد توصلت إلى الشك في أنها إنما رأتها في حلم. أما أول ذكرى محددة لديها عنه فهي تالية لذلك. إنها تتذكر تاريخها الدقيق، لأنه كان اليوم الذي أكملت فيه أربعة عشر من عمرها، وقد دونت أمها ذلك في الألبوم الأسود الذي بدأته جدتها عند ولادتها. وكانت قد جعدت شعرها من أجل تلك المناسبة، وكانت تجلس على الشرفة وهي ترتدي معطفها، تنتظر مجيء خالها خايمي ليأخذها من أجل شراء هديتها. كان البرد قارساً، ولكنها تحب الحديقة في الشتاء. نفخت في يديها ورفعت ياقة المعطف

لتحمي أذنيها. وكان بإمكانها أن ترى من هناك نافذة المكتبة، وجدها هناك يتكلم إلى رجل آخر. كان زجاج النافذة غبشاً، ولكنها استطاعت أن ترى زي رجال الدرك وتساءلت ما الذي تراه يفعله جدها مع واحد منهم في مكتبه. كان الرجل يولي ظهره إلى النافذة ويجلس متيبساً على حافة الكرسي، وظهره متصلب بهيئة دمية جندي من الرصاص تثير الشفقة. ظلت ألبا تنظر لبعض الوقت، إلى أن قدرت أن موعد وصول خالها قد اقترب، فمشت عندئذ عبر الحديقة حتى عريشة شبه مقوضة، أزاحت بيديها العقبات وجلست على مقعد هناك تنتظر. وهناك بالذات وجدها إستيبان غارثيا بعد قليل، لدى خروجه من البيت واضطراره إلى اجتياز الحديقة ليصل إلى البوابة. توقف فجأة حين رآها. نظر في كل الاتجاهات، تردد قليلاً ثم اقترب منها.

- هل تتذكرينني؟ - سألها غارثيا.

- لا... - قالت متشككة.

- أنا إستيبان غارثيا. لقد التقينا في الماريات الثلاث.

ابتسمت ألبا بحركة آلية. لقد استحضر ذكرى خبيثة إلى ذاكرتها. كان هناك في عينيه شيء يثير فيها القلق، ولكنها لم تستطع تحديده. كنس غارثيا بيده الأوراق اليابسة عن المقعد وجلس إلى جانبها في العريشة، قريباً جداً منها، بحيث تلاصقت ساقيهما.

- تبدو هذه الحديقة أشبه بدغل - قال متنفساً على مقربة منها.

خلع قبعته العسكرية، فرأت أن شعره قصير جداً وقاس، مُسرّح بمادة مثبِّتة. وفجأة، حطت يد غارثيا على كتفها. بلبلت حركة الألفة تلك الفتاة وأصابها الشلل للحظة، ولكنها ما لبثت أن سارعت إلى التراجع محاولة الإفلات. ضغطت يد الدركي على كتفها وانغرزت أصابعه في الكتف عبر قماش المعطف السميك. أحست ألبا بقلبها يخفق مثل آلة وبحمرة الخجل تغطي خديها.

- لقد كبرتِ يا ألبا. تبدين امرأة تقريباً - همس الرجل في أذنها.

- عمري أربعة عشر عاماً، اليوم أكملتها - تلعثمت.

- لدي هدية لك إذاً - قال إستيبان غارثيا مبتسماً بفمه المعوج.

حاولت ألبا أن تبعد وجهها، ولكنه ثبّته بقوة بكلتا يديه مجبراً إياها على مواجهته. كانت تلك قبلتها الأولى. شعرت بإحساس دافئ، فظ، وببشرة خشنة سيئة الحلاقة تحك وجهها، شمت رائحة التبغ الزنخة والبصل التي تفوح منه، وأحست بعنفه. حاول لسان غارثيا أن يفتح شفتيها بينما هو يضغط بإحدى يديه على خديها ليجبرها على فتح فكيها. وتخيلت ذلك اللسان مثل رخوية لعابية ودافئة، اجتاحها التقزز وصعدت نوبة غثيان من معدتها، ولكنها أبقت عينيها مفتوحتين. رأت قماش البدلة العسكرية الخشن، وأحست باليدين الشرستين تطوقان عنقها، وبدأت أصابعه الضغط، دون أن يتوقف عن تقبيلها. ظنت ألبا أنها تختنق، فدفعته بقوة توصلت معها إلى إبعاده عنها. أبعد غارثيا فمه وابتسم بسخرية. كانت هناك بقع حمراء على خديه، وكان يتنفس باضطراب.

- هل أعجبتك هديتي؟ - سألها ضاحكاً.

رأته ألبا يبتعد بخطوات واسعة عبر الحديقة وجلست تبكي. أحست أنها متسخة ومهانة. ثم هرعت بعد ذلك إلى البيت لتغسل فمها بالصابون وتنظف أسنانها بالفرشاة كما لو أنها ستتمكن من محو تلك اللطخة من ذاكرتها. عندما وصل خالها لمرافقتها، تعلقت بعنقه، ودفنت وجهها في قميصه وقالت له إنها لا تريد أي هدية، لأنها قررت أن تصير راهبة. انفجر خايمي في الضحك بقهقهة مدوية وعميقة تخرج من أعماقه، لم تسمعها منه إلا في مناسبات قليلة، لأن خالها كان رجلاً قليل الكلام.

- أقسم لك إنها الحقيقة! سأصير راهبة! - قالت وهي تجهش في البكاء.

- سيكون عليك أن تولدي من جديد - أجابها خايمي -. وسيكون عليك فوق ذلك أن تمري على جثتي أولا.

- لم تعد ألبا إلى رؤية إستيبان غارثيا إلى أن وجدته إلى جانبها في موقف السيارات في الجامعة، ولكنها لم تستطع نسيانه قط. لم تخبر أحداً بأمر تلك القبلة المقززة ولا بالأحلام التي صارت تراها في ما بعد، حيث يظهر لها كوحش أخضر يتأهب لخنقها بقوائمه وكتم أنفاسها بإدخال إحدى أذرعه الأخطبوطية اللزجة في فمها.

وبينما هي تتذكر ذلك كله، اكتشفت ألبا أن الكابوس ظل قابعاً

فـي أعماقهـا طيلـة تلـك السنوات، وأن غارثيـا مـازال ذلـك الـوحش الـذي يترصدها فـي الظـلام كـي ينقض عليهـا فـي أحـد منعطفـات الحيـاة. ولم يكن بمقدروهـا أن تعرف أن اكتشـافها هذا يشكل نبوءة.

تراجـع إحـساس ميفيـل بالخيبـة والغـضب مـن كـون ألبـا حفـيدة السيناتور تروويبا حين رآها، ثاني مرة، تتسكع كروح تائهة فـي الممـرات القريبـة مـن الكافتيريـا حيـث تعارفـا. فقـرر أنـه مـن غـير العـدل تجـريم الحفيدة على أفكار جدها، وعادا إلى التنزه معاً متشابكي الأذرع. وبعد بعض الوقت لم تعد القبلات كافية وصارا يلتقيان في الغرفة التي يعيش فيها ميفيل. كانت غرفة في نزل رخيص للطلاب الفقراء، يديره زوجان ناضجان لديهما ميول تجسسية. كانا يراقبان ألبا بعدائية سافرة عندما تصعد ويديها بيد ميفيل إلى غرفته، وقد كان عذاباً لها أن تتغلب على خجلها وتواجه انتقاد النظرات التي تدمر سعادة اللقاء. ومن أجل تجنبهما كانت تفضل مبادرات أخرى، ولكنها لا تتقبل فكرة ذهابهما معاً إلى فندق، للسبب نفسه الذي لا تريد أن تُرى فيه في بانسيون ميفيل.

ـ أنتِ أسوأ برجوازية أعرفها ـ يقول لها ميفيل ضاحكاً.

كان يتمكن في بعض الأحيان من استعارة دراجة نارية يهربان عليها عدة ساعات. يمتطيان الآلة وينطلقان بسرعة انتحارية، بآذان متجمدة وقلب جزع. كانا يحبان الذهاب في الشتاء إلى الشواطئ المقفرة، والمشي على الرمل المبلل مخلفين آثارهما ليلحسها الماء، ويُفزعان النوارس ويتنفسان هواء البحر بجرعات. وفي الصيف يفضلان الغابات المتشابكة، حيث يمكنهما التقلب دون حساب تجنبهما الصبية الكشافة والمتنزهين. وسرعان ما اكتشفت ألبا أن أكثر الأمكنة أمناً هو بيتها بالذات، لأنه في متاهة الحجرات الخلفية وهجرانها، حيث لا يدخل أحد، يمكن لهما تبادل الحب دون إزعاج.

ـ وإذا سمعت الخادمات ضجة، سيعتقدن أن الأشباح قد عادت ـ قالت ألبا، وأخبرته بماضي الأرواح الزائرة المجيد، والمناضد الطيارة في بيت الناصية الكبير.

عندما اقتادته أول مرة من باب الحديقة الخلفي، وشقا طريقهما بين الآجام متجاوزين التماثيل الملطخة بالطحالب وذرق الطيور، فوجئ الشاب برؤية المنزل الكئيب، وتمتم: «لقد كنت في هذا المكان من قبل»، ولكنه لم يستطع أن يتذكر، لأن غابة الكوابيس تلك، وذلك المنزل الكئيب يكاد لا يشبه الصورة المضيئة التي اختزنها في ذاكرته منذ الطفولة.

جرب العاشقان الغرف المهجورة واحدة واحدة وانتهيا إلى ارتجال عش لغرامياتهما السرية في أعماق القبو. لم تكن ألبا قد دخلت هناك منذ سنوات عديدة، ووصل بها الأمر حدّ نسيان وجوده، ولكنها ما إن فتحت الباب وشمت الرائحة التي لا يمكنها عدم التعرف عليها حتى عادت تشعر بجاذبية الماضي السحرية. استعملا الأمتعة القديمة المهملة، والصناديق، ونسخ الكتاب الذي طبعه الخال نيكولاس، وقطع الأثاث، وستائر أزمنة أخرى ليُعدّا حجرة عروسين مفاجئة. وارتجلا في منتصفها سريراً من عدة فُرش غطياه بقطع مخمل نخرتها العثة. وأخرجا كنوزاً لا حصر لها من الصناديق. وصنعا ملاءات من ستائر دمقس قديمة ياقوتية اللون، وفتقا خياطة فستان الدانتيلا الشانتيه الذي ارتدته كلارا يوم موت *باراباس*، ليصنعا منه كلّة بلون الزمن، تحميهما من العناكب التي تنسج شباكها متدلية من السقف. وكانا يستضيئان بالشموع ويتجاهلان وجود القوارض الصغيرة، والبرد، وتلك العفونة القبورية. وفي أجواء القبو الغسقية الدائمة كانا يتحركان عاريين، متحديين الرطوبة وتيارات الهواء. ويشربان النبيذ الأبيض في كؤوس كريستال اختلستها ألبا من غرفة الطعام، ويقومان بجرد دقيق لجسديهما ولاحتمالات اللذة المتعددة. كانا يلعبان كطفلين. كان يصعب عليها أن تتعرف في ذلك الشاب العاشق والعذب الذي يضحك ويتقلب في عربدة لا تنتهي، على الثوري المتعطش بنهم إلى العدالة، ويتدرب سراً على استخدام الأسلحة النارية والاستراتيجيات الثورية. وكانت ألبا تبتكر حيل إغراء لا يمكن مقاومتها، ويبتكر ميغيل طرقاً جديدة ورائعة لممارسة الحب معها. كانا مبهورين بقوة عاطفتهما التي بدت أشبه بسحر ظمأ لا يرتوي. لم تكن الساعات ولا الكلمات كافية ليعبرا عن أشد أفكارهما حميمية وأقدم ذكرياتهما،

في محاولة طموح ليتملك كل مهما الآخر حتى أقصى أركان الذاكرة. أهملت ألبا الفيولونسيل، اللهم إلا عندما كانت تعزف عليه وهي عارية على الفراش ياقوتي اللون، وكانت تتابع دروسها في الجامعة وهي غائبة في أحلام يقظة. وأجّل ميغيل كذلك أطروحة تخرجه واجتماعاته السياسية، لأنهما كانا بحاجة إلى البقاء معاً طوال الوقت واستغلال أدنى سهو من قاطني البيت ليتسللا إلى القبو. وعادت ألبا إلى الكذب والمداراة. فبحجة أنها بحاجة إلى الدراسة في الليل، تركت الحجرة التي تقاسمتها مع أمها منذ موت جدتها واستقرت في غرفة في الطابق الأول تطل على الحديقة، كي تتمكن من فتح النافذة لميغيل واقتياده على رؤوس أصابعه عبر البيت الهاجع إلى القبو المسحور. ولكنهما لم يكونا يلتقيان في الليل وحسب. فقد كانت لهفة الحب جامحة في بعض الأحيان إلى حد يغامر معه ميغيل بالدخول إلى البيت في النهار، زاحفاً بين آجام الحديقة كلص حتى باب القبو، حيث تنتظره ألبا وقلبها معلق بخيط. كانا يتعانقان بيأس وداع وينسلان إلى مخبئهما مختنقين بالتواطؤ.

أحست ألبا للمرة الأولى في حياتها بضرورة أن تكون جميلة، وتحسرت لأن أياً من نساء أسرتها باهرات الجمال لم تورثها مفاتنها، والوحيدة التي فعلت ذلك هي روسا الجميلة، ولكنها لم تورثها سوى لون الطحالب البحرية في شعرها، ولكن لون الشعر ذاك، ما لم تصاحبه عناصر جمال روسا الأخرى، سيبدو أشبه بخطأ في صالون قصّ الشعر. عندما انتبه ميغيل إلى قلقها، اقتادها من يدها إلى المرآة الفينيسية الكبيرة التي تزين أحد أركان حجرتهما السرية، نفض الغبار عن زجاجها المشروخ ثم أشعل كل الشموع المتوافرة ووضعها حولها. نظرت ألبا إلى مئات أجزاء المرآة المشروخة. كان لبشرتها المضاءة بالشموع لون تمثال شمع لا واقعي. بدأ ميغيل يداعبها ورأت وجهها يتحول في فتات المرآة، وتقبلت أخيراً أنها الأجمل في الكون كله، لأنها استطاعت أن ترى نفسها بالعينين اللتين ينظر إليها بهما ميغيل.

تواصلت حفلة مجونهما الامتناهية تلك أكثر من سنة. وأخيراً أنهى ميغيل أطروحته الجامعية وتخرج وبدأ البحث عن عمل. وعندما تجاوزا

وطأة الحاجة المتعطشة إلى الحب، تمكنا من استرداد اتزانهما وتطبيع حياتيهما. بذلت ألبا جهوداً جبارة لاستعادة اهتمامها مجدداً بدراستها، وانقلب هو مجدداً إلى مهماته السياسية، لأن الأحداث كانت تتسارع والبلاد تضطرب في الصراعات الأيديولوجية. استأجر ميغيل شقة صغيرة على مقربة من مكان عمله، حيث كانا يلتقيان لتبادل الحب، لأن السنة التي أمضياها يتقلبان عاريين في القبو أصابت كليهما بالتهاب قصبات مزمن كان يقتطع جزءاً كبيراً من فتنة فردوسهما تحت الأرضي. ساعدت ألبا في ديكور الشقة بوضع حشايا ووسائد منزلية وتعليق ملصقات سياسية في كل مكان، ووصلت إلى حدّ الإيحاء بأنه يمكنها المجيء للعيش معه، ولكن ميغيل كان حازماً في هذه النقطة.

- إن أوقاتاً عصيبة جداً تقترب - أوضح لها -. لا يمكن لي أن أستبقيك إلى جانبي، لأنني سألتحق بحرب العصابات عندما يصير ذلك ضرورياً.

- سأذهب معك إلى أي مكان - تعهدت له.

- لا يمكن الذهاب إلى هناك بدافع الحب، وإنما عن قناعة سياسية، وأنت لا تمتلكين هذه القناعة - أجابها ميغيل -. ولا يمكننا منح أنفسنا ترف تقبل الهواة.

بدا ذلك لألبا قاسياً جداً، وكان لا بد من مرور بعض السنوات كي تتمكن من تفهم الأمر بكل أبعاده.

بلغ السيناتور تروبيا سن التقاعد، ولكن هذه الفكرة لم تخطر له على بال. كان يقرأ صحيفة اليوم ويدمدم بين أسنانه. فقد تبدلت الأمور كثيراً خلال تلك السنوات، وكان يشعر بأن الأحداث تتجاوزه، لأنه لم يفكر في أنه سيعيش طويلاً ويجد نفسه مضطراً إلى مواجهتها. لقد ولد عندما لم يكن نور كهرباء قد وُجد في المدينة بعد، وقُدّر له أن يرى بعد ذلك في التلفاز رجلاً يمشي على القمر، ولكن أياً من مفاجآت حياته الطويلة لم يهيئه لمواجهة الثورة التي تختمر في بلاده، تحت ذقنه بالذات، وأن يجد الجميع منتفضين باضطراب.

الوحيد الذي لم يكن يتحدث عما يحدث هو خايمي. فمن أجل تجنب

المشاجرات مع أبيه اكتسب عادة الصمت، وسرعان ما تبين أن عدم التكلم أكثر راحة له. والمرات القليلة التي تخلى فيها عن إيجازه المترهب هي تلك التي تأتي فيها ألبا لتزوره في سرداب كتبه. كانت ابنة أخته تأتي بقميص النوم، وبشعر مبلل بعد الاستحمام، وتجلس على طرف سريره لتروي له أحداثاً سعيدة، لأنه على حدّ قولها أشبه بمغناطيس في اجتذابه مشاكل الاخرين وأمور البؤس التي لا حلّ لها، وأنه لا بد من وجود أحد يطلعه على وجود الربيع والحب. ولكن نواياها الطيبة كانت تصطدم بلهفة الحاجة إلى التحدث مع خالها حول كل ما يشغل بالها. لم يكونا على اتفاق قط. لقد كانا يقرآن الكتب نفسها، ولكنهما عند تحليل ما يقرآه تكون لهما آراء متناقضة تماماً. كان خايمي يسخر من أفكارها السياسية، ومن أصدقائها الملتحين، ويؤنبها لأنها وقعت في حب واحد من إرهابيي المقاهي. وكان الوحيد في البيت الذي يعلم بوجود ميغيل. وقد اعتاد أن يقول لألبا:

ـ قولي لهذا الصبي أن يأتي للعمل معي يوماً واحداً في المستشفى، وسنرى بعد ذلك إن كانت ستبقى لديه رغبة في مواصلة إضاعة الوقت في الشعارات والخطابات.

ـ إنه محام يا خال، وليس طبيباً ـ تردّ عليه.

ـ ليس مهماً. إننا بحاجة هناك إلى كل شيء. ويمكن حتى لسبّاك أن يفيدنا.

كان خايمي واثقاً من أن الاشتراكيين سيفوزون أخيراً، بعد سنوات طويلة من النضال. ويعزو ذلك إلى أن الشعب بدأ يعي حاجاته وقوته. بينما كانت ألبا تردد عبارات ميغيل بأنه لا يمكن الانتصار على البرجوازية إلا بالحرب. كان خايمي يستفظع أي شكل من أشكال التطرف ويؤكد أن حروب العصابات لا مسوغ لها إلا في ظل الحكومات المستبدة، حيث لا تبقى وسيلة أخرى سوى السلاح، ولكن ذلك سيكون انحرافاً في بلاد يمكن الوصول فيها إلى التغيير عن طريق التصويت الشعبي.

ـ لم يحدث أمر كهذا من قبل قطّ، لا تكن ساذجاً يا خال ـ ترد عليه ألبا ـ لن يسمحوا لاشتراكييك بالفوز أبداً!

وتحاول أن تشرح وجهة نظر ميغيل: لا يمكن مواصلة انتظار الخطوات البطيئة التي يتقدم بها التاريخ، والعملية الشاقة في تثقيف الشعب وتنظيمه، لأن العالم يتقدم بقفزات كبيرة بينما هم يبقون متأخرين في الخلف، وأن التبدلات الجذرية لم تتحقق قط بالحسنى ودون عنف. التاريخ يثبت ذلك. يطول النقاش، ويضيع كلاهما في خطابية مشوشة تخلفهما مستنفدين، يتهم أحدهما الآخر بأنه أشد عناداً من بغل، ولكنهما يتبادلان في النهاية قبلة مع التمنيات بليلة سعيدة، ويظل كلاهما محافظاً على شعوره بأن الآخر هو أروع كائن في الدنيا.

في أحد الأيام، أثناء تناول العشاء، أعلن خايمي أن الاشتراكيين سيفوزون، ولكنها كانت النبوءة نفسها التي تتكرر منذ عشرين سنة، فلم يصدقه أحد.

ـ لو أن أمك مازالت على قيد الحياة، لقالت إن من سيفوزون هم من يفوزون دائماً ـ ردّ عليه السيناتور تروبيا بازدراء.

كان خايمي يعرف لماذا قال ذلك. فقد أخبره به **المرشح** نفسه. وهما صديقان منذ سنوات طويلة، وكثيراً ما يذهب خايمي للعب الشطرنج معه في الليل. إنه الاشتراكي نفسه الذي واظب على التقدم لرئاسة الجمهورية منذ ثمانية عشر عاماً. وكان خايمي قد التقى به أول مرة، من وراء ظهر أبيه، عندما مر وسط سحابة دخان في قطارات النصر، خلال الحمله الانتخابية التي جرت في أيام مراهقته. كان **المرشح** في ذلك الحين رجلاً شاباً ومربوعاً، له خدا كلب صيد، يصرخ بخطابات حماسية وسط سخرية الملاكين وصفيرهم، وصمت الفلاحين الساخط. وكان ذلك في الزمن الذي علق فيه الإخوة سانتشيث قائداً اشتراكياً عند تقاطع الطرق، وأقدم فيه إستيبان تروبيا على جلد بيدرو غارثيا الثالث بحضور أبيه، لأنه كرر أمام الفلاحين تفسيرات الكتاب المقدس المخلة بالنظام التي يروجها الأب خوسيه دولثي ماريا. وقد بدأت صداقته مع **المرشح** بمحض المصادفة، ذات يوم أحد ليلاً، عندما أرسلوه من المستشفى لمعاينة حالة طارئة في بيتها. وصل إلى العنوان المحدد في سيارة إسعاف مناوبة، قرع الجرس وفتح له الباب **المرشح** بالذات. لم يجد خايمي صعوبة في

التعرف عليه، لأنه رأى صوره مرات كثيرة، ولأنه لم يكن قد تبدل منذ اليوم الذي رأى مروره في القطار.

- تفضل يا دكتور، إننا ننتظرك - حياه المرشح.

قاده إلى غرفة الخدمة حيث كانت بناته يساعدن امرأة بدا له أنها تختنق. كان وجهها مزرقاً، وعيناها جاحظتان، ولسانٌ منتفخ بصورة مرعبة يتدلى خارج فمها.

- لقد أكلت سمكاً - أوضحوا له.

- أحضروا عبوة الأوكسجين الموجودة في سيارة الإسعاف - قال خايمي وهو يحضّر حقنة.

ظل مع المرشح، كلاهما يجلس على حافة السرير، إلى أن بدأت المرأة تتنفس بصورة طبيعية واستطاعت إدخال لسانها في فمها. تكلما عن الاشتراكية وعن الشطرنج، وكانت تلك بداية صداقة جيدة. قدّم خايمي نفسه بكنية أمه التي كان يستخدمها دائماً، دون أن يخطر بباله أن جهاز الأمن في الحزب سيقدم في اليوم التالي المعلومات بأنه ابن السيناتور ترويبا، أسوأ أعدائه السياسيين. ومع ذلك لم يشر المرشح إلى الموضوع قط، بينما ظل خايمي حتى اللحظة الأخيرة، عندما صافح كل منهما الآخر للمرة الأخيرة، وسط جلبة الحريق وأزيز الرصاص، ظل يتساءل إذا ما كان سيمتلك الشجاعة ويخبره بالحقيقة ذات يوم.

كانت تجربة المرشح الطويلة في الهزائم ومعرفته بالشعب تتيح له أن يدرك قبل الجميع أنه سيكسب الانتخابات هذه المرة. وقد قال ذلك لخايمي وأضاف إن الخبر ليس للنشر، كي تتقدم قوى اليمين إلى الانتخابات وهي واثقة من الفوز، متعجرفة ومنقسمة على نفسها. فرد خايمي بأنهم لو أخبروا الجميع بذلك، لن يصدقه أحد، بمن في ذلك اشتراكييه أنفسهم. ومن أجل إثبات ما يقوله أعلن الخبر أمام أبيه.

واصل خايمي العمل أربع عشرة ساعة في اليوم، بما في ذلك أيام الآحاد، دون أن يشارك في المعركة السياسية. كان يشعر بالجبن حيال مسار العنف الذي اتخذه ذلك الصراع، حيث جرى استقطاب القوى في جانبين متضادين، ولم يبق في الوسط سوى جماعة مترددة ومتقلبة،

تنتظر رؤية بروز الرابح كي تصوت له. لم يُتح لأبيه أن يستفزه، بالرغم من أن ترويبا كان ينتهز أي فرصة يلتقيان فيها ليحذره من مناورات الشيوعية الدولية والفوضى التي ستعصف بالوطن في حال فوز اليسار غير المحتمل. والمرة الوحيدة التي فقد فيها خايمي صبره كانت يوم وجد المدينة مغطاة بملصقات فظيعة تظهر فيها امرأة منتفخة البطن ويائسة، تحاول دون جدوى أن تنتزع ابنها من جندي شيوعي يريد أخذه إلى موسكو. كانت حملة تخويف منظم يقودها السيناتور ترويبا ومحازبوه، بمساعدة خبراء أجانب مستوردين خصيصاً لهذا الهدف. كان ذلك أكثر من أن يتحمله خايمي. وقرر أنه لم يعد قادراً على العيش تحت السقف نفسه مع أبيه، فأقفل سردابه، وحمل ثيابه وذهب لينام في المستشفى.

تسارعت الأحداث في الشهور الأخيرة قبل الانتخابات. كانت الجدران كلها مغطاة بصور المرشحين، وأُلقيت منشورات من الجو بالطائرات، وغطت الشوارع قمامة مطبوعة تهطل من السماء كالثلج، وكانت الإذاعات تنبح بشعارات سياسية، وتبودلت أشد الرهانات بُعداً عن المعقول بين أنصار كل جانب. وفي الليل كان يخرج شبان كل فريق لمهاجمة خصومهم الأيديولوجيين. نُظمت مهرجانات حاشدة لقياس شعبية كل حزب، وكان كل حزب يملأ المدينة ويكدس الناس بالطريقة نفسها. كانت ألبا مبتهجة، ولكن ميغيل أوضح لها أن الانتخابات ليست سوى تهريج، ولا فرق في من سيكسب، لأن الحقنة ستظل هي نفسها وإن تبدل أنبوبها، وأنه لا يمكن صنع الثورة من صناديق الاقتراع، وإنما بدماء الشعب. وأن فكرة الثورة السلمية في الديمقراطية وبحرية كاملة ما هي إلا تفسير معاكس للثورة.

ـ هذا الفتى مجنون! ـ صاح خايمي حين أخبرته ألبا ـ. سوف نكسب وسيكون عليه أن يبتلع كلماته.

لقد تمكن خايمي، حتى ذلك الوقت، أن يتجنب اللقاء بميغيل. ما كان يريد التعرف إليه. فبعض الأسرار وشيء من الغيرة غير المعلنة كانت تعذبه. لقد ساعد في مولد ألبا، وأجلسها آلاف المرات على ركبتيه، وعلمها القراءة، ودفع لها نفقات المدرسة، واحتفل بكل أعياد ميلادها، وكان

يشعر كما لو أنه أب لها ولا يمكنه تجنب القلق الذي تسببه له رؤيتها وقد تحولت امرأة. لقد لاحظ التبدل في السنوات الأخيرة، فكان يخدع نفسه بذرائع زائفة، بالرغم من أن خبرته في العناية ببشر آخرين علمته أن معرفة الحب وحدها يمكن لها أن تضفي مثل ذلك الألق على المرأة. لقد رأى ألبا تكبر بين عشية وضحاها، وتفارق هيئة المراهقة غير واضحة الملامح لتتبدى بجسدها الجديد كامرأة راضية وهانئة. كان يأمل بحمية بليدة أن يكون حب ابنة أخته مجرد شعور عابر، لأنه لا يريد أن يتقبل في أعماقه أنها بحاجة لرجل آخر أكثر من حاجتها إليه. ومع ذلك، لم يستطع مواصلة تجاهله لميغيل. وفي تلك الأيام، أخبرته ألبا أن أخته مريضة.

ـ أريدك أن تتحدث إلى ميغيل يا خالي. وسوف يخبرك هو بحال أخته. هل ستفعل ذلك من أجلي؟ ـ طلبت منه ألبا.

عندما تعرف خايمي على ميغيل، في مقهى الحي، لم تستطع شكوكه كلها أن تمنع موجة من التعاطف جعلته ينسى تعارضهما، لأن الرجل الذي كان يحرك قهوته بعصبية أمامه لم يكن بالمتطرف المتكبر والقاتل الذي يظنه، بل هو شاب متأثر ومرتجف، يحاول كبح الدموع التي تُغشي عينيه بينما هو يتحدث عن أعراض داء أخته.

ـ خذني إليها ـ قال له خايمي.

قاده ميغيل وألبا إلى الحي البوهيمي. ففي مركز المدينة، على بعد أمتار قليلة من عمارات الفولاذ والزجاج الحديثة، كانت قد انبثقت على سفح إحدى الهضاب الدروبُ الصاعدة حيث يقيم الرسامون والخزافون والنحاتون. هناك أقاموا جحورهم بتقسيم البيوت القديمة إلى ستوديوهات صغيرة. كانت محترفات الفنانين مفتوحة على السماء بسقوف زجاجية، وفي الجحور المظلمة يعيش الفنانون في فردوس من العظمة والبؤس. وفي الأزقة الضيقة أطفالٌ يلعبون دون خوف، ونساء جميلات بجلاليب طويلة يحملن صغارهن على ظهورهن أو ملتصقين باوراكهن، أما الرجال الملتحون، الناعسون، غير المبالين، فيرون مرور الحياة وهم يجلسون عند النواصي وعند عتبات البيوت. توقفوا أمام بيت على الطراز الفرنسي مزينٍ كقالب حلوى بالكريما مع منحوتات ملائكة على أفاريزه. صعدوا درجاً

ضيقاً مشيداً كمخرج طوارئ في حال حدوث حريق، وقد حولته تقسيمات البناء المتعددة إلى المدخل الوحيد. وكلما صعدوا كان الدرج يلتف حول نفسه وتلفهم رائحة نفاذة من الثوم والماريجوانا والتربنتين. توقف ميغيل في الطابق الأخير، قبالة باب ضيق مطلي بطلاء برتقالي، أخرج مفتاحاً وفتح الباب. خيل لخايمي وألبا أنهما يدخلان قفص طيور. كانت الحجرة دائرية، تعلوها قبة بيزنطية غير معقولة محاطة بزجاج، يمكن للنظر أن يسرح من خلاله على سقوف المدينة والإحساس بالقرب من الغيوم. كانت الحمائم تعشش على أفاريز النوافذ وتساهم ببرازها وريشها بيرقشة قطع الزجاج. وعلى كرسي قبالة منضدة وحيدة، كانت تجلس امرأة ترتدي ثوباً مزيناً برسم تنين كئيب من نسالات تطريز على الصدر. احتاج خايمي إلى بضع ثوان كي يتعرف إليها.

- آماندا... آماندا... - تلعثم.

لم يكن قد رآها منذ أكثر من عشرين عاماً، عندما كان حب كل منهما لنيكولاس أقوى من حب أحدهما للآخر. وخلال تلك الفترة، تحول الشاب الرياضي الأسمر، ذو الشعر المطلي بمادة زيتية والرطب دائماً، والذي كان يتمشى وهو يقرأ بصوت عالٍ مراجعه الطبية، إلى رجل منحنٍ قليلاً بفعل عادة الانحناء على أسرة المرضى، وصار شعره رمادياً، ووجهه رصيناً مع نظارة سميكة بإطار معدني، ولكنه مازال في الجوهر الشخص نفسه. أما تَعرُّفه على آماندا فكان يتطلب بالمقابل أن يكون قد أحبها كثيراً. فقد كانت تبدو أكبر من سنوات عمرها، نحيلة جداً، أشبه بهيكل عظمي، بشرتها شاحبة وصفراء، ويداها مهملتان جداً، بأصابع مصبوغة بالنيكوتين. كانت عيناها متورمتين، لا بريق فيهما، محتقنتان بالحمرة، وحدقتاهما متسعتان، ما يضفي عليها مظهراً بائساً ومرعوباً. لم ترَ خايمي ولا ألبا، لأنه لا عينان لها إلا لرؤية ميغيل. حاولت النهوض، فتعثرت وترنحت. اقترب أخوها وأسندها، ضاماً إياها إلى صدره.

- أتعرفان بعضكما؟ - سأل ميغيل باستغراب.

- أجل، منذ زمن بعيد - قال خايمي.

فكر في أنه لا جدوى من التحدث عن الماضي وأن ميغيل وألبا فتيين

لا يمكن لهما فهم إحساسه بخسارة لا تعوض الذي يشعر به في تلك اللحظة. وبضربة ريشة أمحت صورة الفجرية التي كان يحتفظ بها طوال تلك السنوات في قلبه، والحب الوحيد في عزلة قدره. ساعد ميفيل في تمديد المرأة على الصوفا التي تستخدمها كسرير، وسوّى لها الوسادة. ثبتت آماندا الثوب بيدها مدافعة عن نفسها بضعف ومتلعثمة بكلمات غير متماسكة. كانت تهتز في رعشات اختلاجية وتلهث مثل كلب متعب. تأملتها ألبا برعب، ولكن آماندا لم تتعرف على المرأة الباسمة في الصورة الصغيرة التي يحتفظ بها ميفيل دائماً في محفظة جيبه، إلا بعد أن استلقت هادئة وأطبقت عينيها. كلمها خايمي بصوت لم تتعرف إليه، وشيئاً فشيئاً تمكن من تهدئتها، داعبها بحركات رقيقة وأبوية، كتلك التي يداعب بها الحيوانات أحياناً، إلى أن استرخت المريضة وسمحت له بأن يرفع كمّي الثوب الصيني العتيق. ظهر ذراعاها العظميان، ورأت ألبا عليهما آلاف الفروح والندبات والوخزات الصغيرة، بعضها ملتهب وينز قيحاً. ثم كشف عن ساقيها فكان الفخذان متأذيين أيضاً. تأملها خايمي بأسى، مدركاً في تلك اللحظة الهجران، وسنوات البؤس، والغراميات المحبطة، والطريق الرهيب الذي قطعته هذه المرأة حتى وصلت إلى نقطة اليأس التي هي فيها. تذكرها كيف كانت في شبابها، حين كانت تبهره بتموجات شعرها، وخشخشة خرزها، وضحكتها المجلجلة، وبراءتها في تبني أفكار غير معقولة وملاحقة الأوهام. لعن نفسه لأنه تركتها تذهب، وندم على كل ذلك الزمن الضائع لكليهما.

ـ لا بد من إدخالها المستشفى. لا يمكن أن ينقذها إلا علاج يوقف التسمم ـ قال خايمي، ثم أضاف: ـ ستتألم كثيراً.

الفصل الثاني عشر

المؤامرة

مثلما كان المرشح قد تنبأ، كسب الاشتراكيون الانتخابات الرئاسية بالتحالف مع بقية أحزاب اليسار. انقضى يوم الانتخابات دون حوادث في صباح يوم مشرق من أيلول. فمن كانوا يكسبون دائماً، المعتادون على السلطة منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة، وعلى الرغم من انهم لاحظوا في السنوات الأخيرة ضعفاً شديداً في قواهم، أعدوا أنفسهم للاحتفال بالنصر قبل أسابيع. خلت المتاجر من المشروبات، ونفدت ثمار البحر الطازجة من الأسواق، وعملت محلات صنع الحلوى في ورديات مضاعفة لتلبية الطلبات المتزايدة على قوالب وقطع الحلوى. لم يشعر أحد في الحي الراقي بالذعر عند سماع حساب النتائج الجزئية في الأرياف التي تعطي الأفضلية لليسار، لأن الجميع كانوا يعرفون أن أصوات العاصمة هي الحاسمة. تابع السيناتور تروييا التصويت من مقر حزبه بهدوء تام ومزاج رائق، وكان يضحك بكبرياء وصلف كلما بدا أحد رجاله عصبياً من التقدم الواضح لمرشح المعارضة. وفي استباق للفوز، كان قد كسر حداده الصارم بوضع وردة حمراء في عروة سترته. لقد قابلوه في التلفزيون، وتمكنت البلاد بأسرها من سماعه: «سنكسب نحن المعتادون على الكسب دائماً»، قال ذلك بعجرفة، ثم دعا إلى تناول نخب في صحة «المدافعين عن الديمقراطية».

وفي بيت الناصية الكبير كانت بلانكا وألبا والعاملين في البيت يجلسون قبالة التلفزيون، يرتشفون الشاي، ويأكلون خبزاً محمصاً، ويسجلون النتائج أولاً بأول لمتابعة السباق النهائي عن قرب، عندما رأوا ظهور الجد على الشاشة، أشد شيخوخة ومكابرة من أي وقت مضى.

ـ سيصاب بصدمة ـ قالت ألبا ـ لأن الآخرين هم من سيكسبون هذه المرة.

وسرعان ما اتضح للجميع أنه لا يمكن إلا لمعجزة أن تبدل النتيجة الآخذة بالظهور على امتداد اليوم. في منازل السادة البيضاء والزرقاء والصفراء في الحي الراقي، بدؤوا بإغلاق النوافذ وإقفال الأبواب، ونزعوا على عجل الأعلام وصور مرشحهم التي علقوها مسبقاً على الشرفات. وفي أثناء ذلك، في الضواحي الهامشية والأحياء العمالية، خرجت إلى الشوارع عائلات بأكملها، آباء وأطفال وأجداد، يرتدون ثياب يوم الأحد، وساروا مبتهجين نحو مركز المدينة وهم يحملون أجهزة مذياع نقالة ليسمعوا آخر النتائج. وفي الحي الراقي، سخر بعض الطلاب الشباب المنتفخين بالمثالية من ذويهم المجتمعين حول أجهزة التلفاز بملامح حداد مأتمية، واندفعوا أيضاً إلى الشارع. ومن الأحزمة الصناعية خرج العمال في صفوف منتظمة وهم يرفعون قبضاتهم عالياً، وينشدون أغنيات الحملة الانتخابية. واحتشد الجميع في مركز المدينة يصرخون بصوت رجل واحد بأن الشعب الموحد لا يمكن أن يُهزم ابداً. أخرجوا مناديل بيضاء وانتظروا. وعند انتصاف الليل عُرف أن اليسار قد فاز. وفي مثل لمح البصر تكاثفت الجماعات المتفرقة، تضخمت، توسعت، وامتلأت الشوارع بجموع أناس مبتهجين يقفزون، يصرخون، يتعانقون، يضحكون. أشعلوا مشاعل وتحوّل صخب الأصوات ورقص الشوارع إلى موكب منضبط ومرح راح يتقدم باتجاه الجادات البرجوازية الفخمة. وتبدى عندئذ المشهد الفريد لأبناء الشعب، مشهد رجال ينتعلون أحذية العمل في المصانع، ونساء يحملن أبناءهن بين أذرعهن، وطلاب بقمصان قصيرة الأكمام، ويمضون باطمئنان في المنطقة المحظورة الفاخرة التي قلما غامروا في الوصول إليها، لأنهم يكونون فيها أجانب غرباء. تغلغل وقع أغانيهم وخطواتهم، ووميض مشاعلهم إلى داخل البيوت المقفلة والصامتة، حيث يرتجف من انتهى بهم الأمر إلى تصديق ادعاءات حملتهم الانتخابية المرعبة، واقنعوا أنفسهم بأن الجمهور المنتفض سيمزقهم إرباً، أو أنه سيجردهم من أملاكهم في أفضل الحالات ويرسلهم إلى سيبيريا. ولكن الجموع الهادرة لم تكسر أي باب، ولم تطأ حدائق البيوت المتقنة. لقد مرت بسعادة دون أن تلمس السيارات الفارهة المتوقفة في الشارع، دارت في الساحات وفي الحدائق العامة التي

لم تدخلها من قبل، وتوقفت مشدوهة أمام واجهات المتاجر التي تلمع بألق كما في أعياد الميلاد، وتُعرض فيها أشياء لا يعرفون لأي شيء تُستعمل، وواصل الحشد طريقه بهدوء. وعندما مرت الجموع أمام بيت ألبا، خرجت راكضة واختلطت بهم مغنية بأعلى صوتها. واصل الشعب المبتهج مسيرته طيلة الليل. أما في قصور الأثرياء، فظلت زجاجات الشمبانيا مسدودة، وفسد جراد البحر في صوانيه الفضية، وغطى الذباب قوالب الحلوى.

وعند الفجر، لمحت ألبا بين الجمهور الذي بدأ يتفرق هيئة ميغيل المميزة، كان يصيح ويحمل راية في يده. شقت طريقها إليه وهي تناديه دون جدوى، لأنه ما كان قادراً على سماعها وسط الصخب. وحين صارت أمامه رآها ميغيل، أعطى الراية لأقرب شخص إليه وعانقها، رافعاً إياها عن الأرض. كلاهما كان منهوك القوى، وبينما هما يتبادلان القبلات كانا يبكيان من السعادة.

- قلت لك يا ميغيل إننا سنكسب بالطرق الحميدة! - قالت ألبا ضاحكة.

- لقد كسبنا، ولكن علينا الآن أن نحمي انتصارنا - ردّ عليها.

في اليوم التالي، خرج أولئك الذين أمضوا الليل مرتعبين في بيوتهم واندفعوا كسيل مجنون ليقتحموا المصارف ويحتلوها، مطالبين بأن تُسلم إليهم أموالهم. ومن يملكون شيئاً ثميناً، فضلوا أن يخبئوه تحت الفراش أو إرساله إلى الخارج. وخلال أربع وعشرين ساعة انخفضت قيمة الأملاك العقارية إلى أقل من النصف، ونفدت كل بطاقات الرحلات الجوية في جنون مغادرة البلاد قبل مجيء السوفييتيين لنصب الأسلاك الشائكة على الحدود. والشعب الذي احتفل بانتصاره ذهب لرؤية البرجوازية التي تصطف في أرتال وتتشاجر عند أبواب المصارف، وضحك مقهقهاً. وخلال ساعات قليلة انقسمت البلاد إلى فريقين لا مجال للمصالحة بينهما، وبدأ الانقسام يالامتداد إلى داخل العائلات كلها.

أمضى السيناتور تروييا الليل في مقر حزبه، حيث استبقاه أتباعه بالقوة لقناعتهم بأنه إذا خرج إلى الشارع لن تجد الجموع صعوبة في التعرف عليه وشنقه على أحد أعمدة النور. لقد كان تروييا متفاجئاً أكثر منه غاضباً. ما كان قادراً على تصديق ما يحدث، بالرغم من أنه

يردد منذ سنوات طويلة معزوفة أن البلاد تمتلئ بالماركسيين. لم يكن يشعر بالإحباط، بل على العكس. فقد كانت تخفق في قلبه العجوز كمناضل انفعالات حماسة لم يشعر بمثلها منذ شبابه.

- كسب الانتخابات شيء والوصول إلى شغل منصب الرئاسة شيء آخر مختلف تماماً - قال بنبرة غامضة لمحازبيه المتباكين.

ولكن فكرة تصفية الرئيس المنتخب لم تكن قد خطرت ببال أحد بعد، لأن خصومه كانوا متأكدين من أنهم سيقضون عليه بالطرق الشرعية نفسها التي أتاحت له الفوز. هذا ما كان يفكر فيه تروبيا. وفي اليوم التالي، حين تبين بوضوح أنه ليس هناك ما يخشاه من الحشود المحتفلة، خرج من مخبئه وتوجه إلى بيت ريفي على مقربة من المدينة، حيث أقيم غداء سري. اجتمع هناك مع سياسيين آخرين وبعض العسكريين، ومع الغرينغيين الذين أرسلتهم الاستخبارات لرسم خطة قلب الحكومة الجديدة: إشاعة عدم الاستقرار الاقتصادي، حسب التسمية التي أطلقوها على عمليات التخريب.

كان ذلك المكان بيتاً كبيراً على الطراز الاستعماري يحيط به فناء مبلط. وحين وصل السيناتور تروبيا، وجد عدة سيارات سبقته تقف هناك. استقبلوه بترحاب، لأنه أحد قادة اليمين الذين لا جدال فيهم ولأنه هو نفسه كان قد قام بالاتصالات الضرورية قبل شهور من ذلك، تحسباً لما قد يحدث. وبعد تناول الطعام: سمك غراب البحر مبرد مع صلصة بيضاء، وخنوص مشوي بالبراندي، وكريما الشكولاته. صرفوا الخدم وأغلقوا أبواب الصالون. وهناك وضعوا الخطوط العريضة لاستراتيجيتهم، ثم شربوا بعد ذلك، واقفين، نخب الوطن. وكانوا جميعهم، باستثناء الأجانب، مستعدين للمجازفة بنصف ثرواتهم الشخصية في العملية، ولكن السيناتور تروبيا العجوز كان مستعداً لتقديم حياته أيضاً.

- لن نتركه بسلام لحظة واحدة. يجب أن يستقيل - قال بحزم.

- وإذا لم ينفع هذا الأسلوب أيها السيناتور فلدينا هذا أيضاً - قال الجنرال هويردو وهو يضع سلاحه النظامي على غطاء المنضدة.

- لا نريد انقلاباً عسكرياً أيها الجنرال - ردّ عميل المخابرات في السفارة

بإسبانيته السليمة ـ نريد للماركسية أن تفشل فشلاً مدوياً وتسقط من تلقاء نفسها، لننزع هذه الفكرة من رؤوس بلدان أخرى في القارة. هل تفهمني؟ سنسوي المسألة بالمال. مازال بإمكاننا شراء بعض البرلمانيين من أجل عدم المصادقة عليه كرئيس. هذا موجود في دستوركم: لم يحصل على الأغلبية المطلقة، وعلى البرلمان أن يحسم الأمر.

ـ انزع هذه الفكرة من راسك يا ميسترا ـ هتف السيناتور تروبيا ـ لن تتمكن من رشوة أحد هنا! فالكونغرس والقوات المسلحة غير قابلين للإفساد. من الأفضل أن نخصص هذه الأموال لشراء وسائل الإعلام كلها. وهكذا نتمكن من التحكم بالرأي العام، وهو وحده ما يؤخذ بالحسبان في الواقع.

ـ هذا جنون! فأول ما سيفعله الشيوعيون هو القضاء على حرية الصحافة! ـ قالت عدة أصوات في وقت واحد.

ـ صدقوني أيها السادة ـ أجاب السيناتور تروبيا ـ أنا أعرف هذه البلاد. لن يقضوا على حرية الصحافة أبداً. أضف إلى ذلك أن هذا الأمر متضمن في برنامجه الحكومي، وقد أقسم على احترام الحريات الديمقراطية. سنصطاده في فخه بالذات.

كان السيناتور تروبيا على حق. لم يستطيعوا رشوة البرلمانيين، وخلال المهلة التي يحددها القانون تولى اليسار السلطة بكل هدوء. وعندئذ بدأ اليمين بحشد الأحقاد.

تبدلت حياة الجميع بعد الانتخابات. ومن كانوا يظنون أنهم يستطيعون الاستمرار في ما كانوا عليه دائماً، سرعان ما أدركوا أن ظنهم لم يكن إلا وهماً. وكان التبدل رهيباً في حالة بيدرو غارثيا الثالث. فقد عاش حتى ذلك الحين متجنباً الوقوع في مصايد الروتين، حراً وفقيراً كمغنٍ جوّال، دون أن يكون قد استخدم قطّ حذاء من الجلد أو ربطة عنق أو ساعة يد. مانحاً نفسه ترف الرقة، والبراءة، والتبذير ونوم القيلولة، لأنه لم يكن مضطراً إلى تقديم حساب لأحد. وكان يجد في كل مرة صعوبة أكبر في العثور على القلق والألم الضروريين لنظم أغنية

جديدة، لأنه توصل مع مرور السنوات إلى التمتع بسلام داخلي، وتحوّل التمرد الذي كان يهزه في شبابه إلى وداعة رجل راضٍ عن نفسه. كان متقشفاً مثل راهب فرانسيسكاني. ولم تكن لديه أية طموحات إلى المال والسلطة. واللطخة الوحيدة في طمأنينته هي بلانكا. فهو لم يعد يهتم بغراميات لا مستقبل لها مع فتيات مراهقات، وتوصل إلى اليقين بأن بلانكا هي امرأة حياته الوحيدة. أجرى حساباً للسنوات التي أحبها فيها سراً ولم يستطع أن يتذكر لحظة واحدة من حياته لم تكن حاضرة فيها. وبعد الانتخابات الرئاسية، وجد توازن حياته يتحطم بضرورة التعاون مع الحكومة. لم يستطع الرفض، لأن أحزاب اليسار، مثلما أوضحوا له، ليس لديها ما يكفي من الرجال الأكفاء لتولي كل الوظائف التي يجب شغلها.

ـ أنا مجرد فلاح. وليس لديّ أي تأهيل ـ حاول الاعتذار.

ـ ليس مهماً يا رفيق. أنت رجل له شعبية. وحتى لو أخطأت، سيغفر لك الناس ذلك ـ أوضحوا له.

وهكذا وجد نفسه جالساً، أول مرة في حياته، وراء منضدة مكتب، مع سكرتيرة لاستخدامه الشخصي، ووراء ظهره لوحة كبيرة جداً لأعيان الوطن في معركة مُشرّفة. لكن بيدرو غارثيا الثالث كان ينظر من نافذة مكتبه الفخم ذات القضبان الحديدية، ولا يستطيع أن يرى سوى مربع صغير من السماء الرمادية. لم يكن منصبه مجرد ديكور. فعليه أن يعمل منذ السادسة صباحاً حتى الليل. وصار يجد نفسه متعباً جداً في النهاية، يشعر أنه غير قادر على انتزاع نغم واحد من جيتاره، وأقل من ذلك بكثير قدرته على ممارسة الحب مع بلانكا بعاطفته المعهودة. فعندما يستطيعان تحديد موعد، بعد تذليل كل العقبات المعتادة التي تضعها بلانكا، إضافة إلى عقبات جديدة يفرضها عليه عمله، يلتقيان بين ملاءات السرير بجزء أكبر من الرغبة. يمارسان الحب منهوكين، يقاطعهما الهاتف، ويلاحقهما الوقت الذي لم يعد كافياً على الإطلاق. توقفت بلانكا عن استخدام الملابس الداخلية الفاضحة، لأنها بدت لها وسيلة استثارة غير مجدية تحولهما إلى أضحوكة. وانتهى بهما الأمر إلى اللقاء للراحة متعانقين، مثل جدين مسنين يتبادلان الحديث بمودة

حول مشاكلهما اليومية وحول المسائل الخطيرة التي تهز البلاد. وذات يوم قدّر بيدرو الثالث أنهما لم يمارسا الحب منذ شهر، وما بدا له أسوأ من ذلك هو أن أياً منهما لم يكن يشعر بالرغبة في ممارسته. هزته المفاجأة. ففي مثل سنه لا وجود لسبب يفسر العجز، وعزا ذلك إلى الحياة التي يعيشها ونزوات العازب التي اعتاد عليها. وافترض أنه إذا ما عاش حياة طبيعية مع بلانكا، تكون هي فيها بانتظاره كل يوم في طمأنينة المنزل، فإن الأمور ستتخذ مساراً آخر. دعاها للزواج بسرعة، لأنه ملّ تلك الغراميات المتخفية ولم يعد في سن تسمح له بالعيش على ذلك النحو. فقدمت له بلانكا الجواب الذي قدمته مرات كثيرة من قبل:

- عليّ أن أفكر في الأمر يا حبي.

كانت عارية، تجلس على سرير بيدرو الثالث الضيق. تأملها دون رحمة ورأى أن الزمن بدأ يُتلفها بأثره، فقد ازدادت سمنة، وصارت أكثر كآبة، ويداها مشوهتان بالروماتيزم، ونهداها البديعان اللذان سلباه النوم في زمن آخر آخذان بالتحول إلى صدر فسيح لأم بلغت أوج النضج. ومع ذلك، كان يجدها جميلة كما في شبابها، عندما كانا يمارسان الحب بين القصب على ضفة النهر في الماريات الثلاث، فيشعر بالأسى لأن الإرهاق صار أقوى من رغبته.

- لقد فكرتِ في الأمر خلال نصف قرن. كفى. إما الآن أو أبداً.

لم تتأثر بلانكا، لأنها لم تكن المرة الأولى التي يطالبها فيها باتخاذ قرار. ففي كل مرة يقطع فيها علاقته بإحدى عشيقاته الشابات ويعود إليها، كان يطالبها بالزواج، في مسعى يائس للتشبث بالحب ولكي يغفر لنفسه. وعندما وافق على هجر الحي العمالي حيث عاش سعيداً لسنوات عديدة، وذهب ليستقر في شقة كأحد أفراد الطبقة الوسطى، قال لها الكلمات نفسها.

- إما أن توافقي على الزواج اليوم بالذات أو نتوقف عن اللقاء إلى الأبد.

لم تدرك بلانكا أن قرار بيدرو الثالث في هذه المرة كان حاسماً لا رجعة عنه.

افترقا غاضبين. ارتدت ثيابها، وجمعت بسرعة أشياءها المبعثرة على

الأرض، وعقدت شعرها فوق رقبتها مثبتة إياه ببعض الدبابيس التي بحثت عنها والتقطتها من فوضى السرير. أشعل بيدرو الثالث سيجارة دون أن يرفع بصره عنها وهي ترتدي ثيابها. انتهت بلانكا من انتعال حذائها، وتناولت حقيبتها وأمأت له مودعة من الباب. كانت واثقة من أنه سيتصل بها في اليوم التالي من أجل مصالحة أخرى من مصالحاته الاستعراضية. استدار بيدرو الثالث نحو الجدار. كانت تكشيرة مرارة قد حوّلت فمه إلى خط مشدود. ولن يعودا إلى القاء إلا بعد سنتين.

انتظرت بلانكا في الأيام التالية أن يتصل بها وفق الطريقة التي تتكرر دائماً. لم يتخلف عن عمل ذلك من قبل، حتى عندما تزوجت وأمضيا سنة متفرقين. فقد كان هو أيضاً من بحث عنها في تلك المناسبة. ولكنها بعد انقضاء اليوم الثالث دون أي خبر، بدأت تقلق. كانت تتقلب في الفراش، يعذبها أرق دائم، ضاعفت جرعة المهدئات، وعادت تلوذ بأوجاع رأسها وآلامها العصبية، وداخت في مشغلها وهي تُدخل إلى الفرن وتُخرج منه مئات دمى المسوخ الصغيرة لمذاود عيد الميلاد في مسعى لإبقاء نفسها مشغولة، وعدم التفكير، ولكنها لم تستطع إخماد قلقها. وأخيراً اتصلت به في الوزارة. فردّ عليها صوت أنثوي أن الرفيق غارثيا في اجتماع ولا يمكن مقاطعته. وفي اليوم التالي أعادت بلانكا الاتصال وواصلت عمل ذلك خلال بقية الأسبوع، إلى أن اقتنعت بأنها لن تتوصل إليه بهذه الوسيلة. بذلت جهداً عظيماً كي تتغلب على الكبرياء المتضخمة التي ورثتها عن أبيها، فلبست أفضل ثوب لديها، وحمالة جوارب مومس، وذهبت بحثاً عنه في شقته. لم يتوافق مفتاحها مع القفل، وكان عليها أن تقرع الجرس. فتح لها الباب رجل ضخم ذو شارب وله عينا تلميذة.

- الرفيق غارثيا غير موجود - قال لها دون أن يدعوها للدخول.

عندئذ أدركت أنها فقدته. وفي برهة عابرة تبدت لها رؤيا لمستقبلها، رأت نفسها في صحراء شاسعة، تستنفد ذاتها في أشغال بلا معنى لمجرد تبديد الوقت، ومن دون الرجل الوحيد الذي أحبته مدى الحياة وبعيداً عن تينك الذراعين اللتين نامت في كنفهما منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة في طفولتها الأولى. جلست على الدرج وأجهشت بالبكاء. فأغلق الرجل ذو

الشارب الباب دون ضجة.

لم تخبر أحداً بما حدث. سألتها ألبا عن بيدرو الثالث، فردت عليها بجواب متهرب قائلة إن المنصب الجديد في الحكومة يبقيه مشغولاً جداً. وواصلت إعطاء دروس للآنسات المتكاسلات والأطفال المنغوليين كما بدأت تعليم صناعة الخزف في الأحياء الهامشية، حيث نظمت النساء أنفسهن لتعلم مهن جديدة والمشاركة، للمرة الأولى، في أنشطة البلاد السياسية والاجتماعية. كان التنظيم ضرورة ملحة، لأنه سرعان ما تحول «الطريق إلى الاشتراكية» إلى ميدان معركة. فبينما كان الشعب يحتفل بالنصر بتطويل الشعر وإطلاق اللحى، ومناداة بعضهم بعضاً بلقب رفيق، وبعث الفولكلور المنسيّ والفنون الشعبية، وممارسة السلطة الجديدة في اجتماعات عمالية بلا نهاية ولا جدوى، حيث يتكلم الجميع في الوقت نفسه دون التوصل إلى أي اتفاق، كانت قوى اليمين تجز سلسلة أعمال استراتيجية تهدف إلى تدمير الاقتصاد والحط من سمعة الحكومة. فاليمين يتحكم بأقوى وسائل الإعلام، ويستند إلى موارد مادية غير محدودة، وبمساعدة الأمريكيين الذين خصصوا أرصدة سرية لخطة التخريب. وبعد شهور قليلة صار بالإمكان تقدير النتائج. فقد وجد الشعب نفسه، أول مرة، يملك من النقود ما يكفي لتغطية حاجاته الأساسية وشراء بعض الأشياء التي طالما رغب في شرائها، ولكنه لم يعد قادراً على فعل ذلك، لأن المتاجر شبه خاوية. لقد بدأ فقدان المواد التموينية بالتحول إلى كابوس جماعي. النساء ينهضن عند الفجر للوقوف في صفوف انتظار لانهائية من أجل التمكن من شراء فروج هزيل، أو نصف دستة من حفاضات الأطفال أو الورق الصحي. وصارت أصباغ طلاء الأحذية والإبر والقهوة مواد رفاهية تُقدم كهدايا ملفوفة بأوراق أعياد الميلاد المزركشة. انتشر القلق من الندرة، فالبلاد تهتز تحت دفق إشاعات متناقضة تنبه الناس إلى السلع والمنتجات التي ستُفتقد، فيشتري الناس ما يجدونه دون تقدير، تحسباً للمستقبل. ويقف البعض في صفوف الانتظار دون أن يدروا ما الذي يباع هناك، لمجرد ألا تفوتهم فرصة شراء شيء، حتى لو لم يكونوا بحاجة إليه. وظهر محترفو وقوف في صفوف الانتظار،

يتخلون عن موقعهم لآخرين مقابل مبلغ معقول، وبائعو سكاكر يستغلون التجمعات ليبيعوا بضاعتهم التافهة، ومؤجروا بطانيات لصفوف الانتظار الليلية الطويلة. انفلتت السوق السوداء. حاولت الشرطة منعها، ولكنها كانت أشبه بوباء، تدخل من كل الأنحاء، ولم يتمكنوا من وقفها مهما حاولوا تفتيش السيارات أو توقيف من يحملون حزماً مشبوهة. حتى الأطفال أنفسهم كانوا يتعاطون التهريب في باحات المدارس. وفي حمى اقتناء السلع، وقعت تشوشات وبلبلة، فمن لم يدخنوا سيجارة في حياتهم قطّ انتهوا إلى دفع أي ثمن مقابل علبة سجائر، ومن لا أطفال لديهم، يصارعون من أجل الحصول على علبة طعام للرضع. اختفت الأدوات المنزلية، وقطع غيار الآلات الصناعية والسيارات. جرى تقنين البنزين، وصارت أرتال السيارات تنتظر نهارين وليلة، وتسد المدينة أفعى بوا هائلة ثابتة دون حراك، تتحمص تحت الشمس. لم يكن الوقت يتسع لكل صفوف الانتظار تلك، فاضطر الموظفون إلى التنقل مشياً أو على الدراجات. امتلأت الشوارع بالدراجين اللاهثين، وبدا ذلك أشبه بهذيان الهولنديين. هكذا كانت الأمور عندما أعلن سائقو الشاحنات الإضراب. وبدا واضحاً في الأسبوع الثاني أن الإضراب ليس مسألة مهنية، وإنما سياسية، وأعلنوا أنهم لا يفكرون في العودة إلى العمل. أراد الجيش أن يتولى الأمر، لأن الخضروات تتعفن في الأرياف، وليس هناك في الأسواق شيء يباع لربات البيوت، ولكن تبين أن السائقين قد فككوا المحركات وأنه من المستحيل تحريك آلاف الشاحنات التي تحتل الطرقات العامة كهياكل أحفورية متحجرة. ظهر الرئيس في التلفزيون طالباً الصبر. ونبه البلاد إلى أن أصحاب الشاحنات باعوا أنفسهم للإمبريالية وأنهم سيظلون في إضراب مفتوح، ولهذا سيكون من الأفضل للناس أن يزرعوا خضرواتهم بأنفسهم في باحات البيوت وعلى الشرفات، ريثما يتم اكتشاف حلّ آخر على الأقل. والشعب الذي لم يكن يأكل الدجاج إلا في العيد الوطني وعيد الميلاد، لم يفقد حماسة اليوم الأول، بل على العكس، نظم صفوفه كما لو أنه في حالة حرب، مصمماً على عدم السماح للتخريب الإقتصادي أن يفسد عليه انتصاره. وواصل الاحتفال

بروح مرحة والتغني في الشوارع بذلك الشعار عن الشعب المتحد الذي لا يمكن أن يُهزم أبداً، وإن كان وقعه يصير في كل يوم أكثر نشازاً، لأن الانقسام والحقد كانا يتفشيان دون هوادة.

حياة السيناتور ترويبا، كما هي حياة الآخرين جميعاً، طرأ عليها تبدل أيضاً. فالحماسة في النضال الذي خاضه أعادت إليه قواه التي كانت له في الماضي، وخففت قليلاً من آلام عظامه البائسة. كان يعمل كما في أفضل أزمنته. يقوم برحلات تآمر متنوعة إلى الخارج، ويجول دون كلل على مقاطعات البلاد، من الشمال إلى الجنوب، في الطائرة، والسيارة، والقطارات التي وُضع حدّ فيها لامتيازات الدرجة الأولى. وكان يتحمل ولائم عشاء ثقيلة يكرمه بها محازبوه في كل مدينة وقرية وضيعة يزورها، متظاهراً بأن له شهية سجين، على الرغم من أن أحشاءه كعجوز لم تعد قادرة على تلك المفاجآت. كان يعيش في أجواء التآمر. ففي البدء، كانت الممارسة الطويلة للديمقراطية تحدّ من قدرته على نصب المكايد للحكومة، ولكنه سرعان ما تخلى عن فكرة قصم ظهرها ضمن حدود القانون وتقبل واقع أن الطريقة الوحيدة لهزيمتها هي في استخدام وسائل محرمة. فكان أول من تجرأ على القول علناً إن الإنقلاب العسكري وحده هو القادر على وقف تقدم الماركسية، لأن الشعب لن يتخلى عن السلطة التي انتظرها طوال نصف قرن، لمجرد افتقاد الفراريج.

- دعكم من التخنث وامتشقوا السلاح! - كان يردد كلما سمع من يتكلم عن التخريب.

لم تكن أفكاره أسراراً بأي حال، كان يعلنها في كل الجهات، ولا يكتفي بذلك، بل يذهب بين حين وآخر ليرمي حفنات من الذرة على طلاب المدرسة العسكرية ويصرخ بهم قائلاً إنهم مجرد دجاجات. وقد اضطر إلى البحث عن حارسين شخصيين ليحمياه من تجاوزاته نفسها. وكثيراً ما كان ينسى أنه هو نفسه من تعاقد معهما، فيتعكر مزاجه كلما شعر أنهما يراقبانه، ويشتمهما، ويهددهما بعكازه وينتهي به الأمر عموماً إلى نوبة اختناق من تسرع في القلب. كان واثقاً من أن هذين الأبلهين قويي البنية لن ينفعاه في شيء إذا ما نوى أحد اغتياله، ولكنه

يثق على الأقل بأنه يمكن لوجودهما أن يخيف الشتامين العفويين. وحاول وضع حراسة لحفيدته، لأنه رأى أنها تتنقل في وكر شيوعيين ويمكن لأي شخص في أي لحظة أن يهينها بسبب قرابتها له، لكن ألبا رفضت سماع أي كلام في الموضوع قائلة: «وجود قاتل مأجور هو اعتراف بأن مستأجره مذنب. وأنا ليس لدي ما أخشاه». فلم يتجرأ على الإلحاح عليها، لأنه كان متعباً من الشجار مع جميع أفراد أسرته، كما أن حفيدته في نهاية المطاف هي الوحيدة التي تبادله الحنان وتُضحكه في هذا العالم.

وفي أثناء ذلك، كانت بلانكا قد نظمت سلسلة تموين من خلال السوق السوداء وارتباطاتها في الأحياء العمالية التي تذهب لتعليم النساء أشغال الخزف. كانت تعاني الكثير من الغم والجهد من أجل الحصول على كيس سكر أو صندوق صابون. ووصل بها الأمر إلى التمرس في دهاء لم تكن تعرف أنها قادرة عليه، كي تخزن في إحدى غرف البيت الفارغة كل أنواع السلع، بعضها لا نفع فيه بصراحة، مثلما هي حال برميلين من صلصا الصويا اشترتهما من بعض الصينيين. سدّت نافذة الغرفة، ووضعت قفلاً على الباب، وصارت تتنقل وهي تعلق المفاتيح على خصرها، ولا تنزعها عنها حتى عندما تستحم، لأنها ترتاب بالجميع، بمن في ذلك خايمي وابنتها نفسها. ولم تكن تنقصها المسوغات. «تبدين يا أماه أشبه بسجان»، كانت ألبا تقول لها مذعورة من ذلك الهوس في الاحتياط للمستقبل متحملة مرارة الغم في الحاضر. فألبا ترى أنه إذا لم يكن اللحم متوافراً، فيمكن أكل البطاطا، وإذا اختفت الأحذية، يمكن انتعال الصنادل المشغولة يدوياً. ولكن بلانكا المرعوبة من بساطة ابنتها كانت تتمسك بنظرية أنه يجب عدم خفض مستواهم مهما يكن ما يحدث، لتبرر بذلك الوقت الذي تنفقه في مجادلاتها مع المهربين. والحقيقة أنهم لم يعيشوا منذ موت كلارا في وضع أفضل مما هم عليه، لأنه صار هناك في البيت، للمرة الأولى، من يهتم بتنظيم الأمور المنزلية ويوفر ما سيستقر في القدور. كانت تصل بانتظام من الماريات الثلاث صناديق مأكولات تخبئها بلانكا. لقد تعفن في المرة الأولى كل شيء تقريباً، وخرجت العفونة من الغرف المغلقة لتملأ البيت وتنتشر في الحي.

اقترح خايمي على أخته أن تهدي المواد القابلة للتلف أو تقايض بها أو تبيعها، ولكن بلانكا رفضت مشاركة أحد لها في كنوزها. حينئذ أدركت ألبا أن جنون العائلة قد انتقل إلى أمها التي كانت تبدو حتى ذلك الحين الشخص الوحيد المتزن في الأسرة. ففتحت ثغرة في جدار مستودع المؤن، وصارت تُخرج من خلالها السلع بالقدر الذي تخزن فيه بلانكا. تعلمت عمل ذلك بحذر شديد كيلا يُلاحظ النقص، فكانت تسرق السكر والرز والدقيق بفناجين، وتفتت الجبن وتنثر الفواكه المجففة كي يبدو ذلك من عمل الفئران، حتى إن بلانكا تأخرت أكثر من أربعة شهور قبل أن تخامرها الشكوك. عندئذ نظمت قائمة جرد بما تملكه في المستودع، وصارت تضع إشارة صليب على ما تُخرجه للاستعمال في البيت، مقتنعة من أنها ستكشف اللص بتلك الطريقة. ولكن ألبا صارت تنتهز أي لحظة سهو من أمها لتضع إشارات صلبان على قائمتها، إلى أن اختلطت الأمور في النهاية على بلانكا ولم تعد تعرف إذا ما كانت قد أخطأت في الحسابات، وإذا ما كانوا يأكلون في البيت ثلاثة أضعاف تقديراتها، أم أن الأرواح التائهة مازالت تجول فعلاً في هذا البيت الملعون.

كانت حصيلة اختلاسات ألبا تنتهي إلى يدي ميغيل الذي يوزعها في الأحياء الهامشية وفي المصانع مع منشورات ثورية تدعو إلى الكفاح المسلح للإطاحة بالأوليغارشية. ولكن أحداً لم يكن يهتم بها. فقد كانوا مقتنعين بأنهم قد وصلوا إلى السلطة بالطرق الشرعية والديمقراطية، ولا يمكن لأحد انتزاعها منهم حتى الانتخابات الرئاسية القادمة على الأقل.

- إنهم حمقى، لا ينتبهون إلى أن اليمين يتسلح! - قال ميغيل لألبا.

وقد صدقته ألبا. لأنها رأت إنزال صناديق كبيرة في فناء البيت، في منتصف الليل، ثم حُفظت الحمولة بعد ذلك، بتكتم شديد وبأمر من تروبيا، في غرفة أخرى من الغرف الفارغة. وقد وضع جدها، مثل أمها، قفلاً لباب الغرفة وصار يحمل المفتاح معلقاً حول عنقه في الجراب الصغير نفسه المصنوع من جلد غزال، حيث يحتفظ بأسنان كلارا. أخبرت ألبا خالها خايمي الذي رجع إلى البيت بعد التوصل إلى هدنة مع أبيه. وعلقت: «أنا شبه متأكدة من أنها أسلحة». ولكن خايمي الذي كان هائماً في

القمر في تلك الفترة، وظل على تلك الحال حتى يوم مقتله، لم يستطع تصديق كلامها، لكن ابنة أخته ألحت كثيراً إلى أن وافق على التكلم مع أبيه في موعد الغداء. وقد بدد جواب العجوز ترددهما السابق.

- أنا أفعل في بيتي ما يحلو لي، وأحضر إليه ما أشاء من صناديق! إياكم والعودة إلى دسّ أنوفكم في شؤوني! - زمجر السيناتور ترويبا ضارباً المنضدة بقبضته ضربة جعلت أواني الكريستال تتراقص، وقطعت المحادثة بحزم.

ذهبت ألبا في تلك الليلة لرؤية خالها في سرداب كتبه واقترحت عليه أن يستخدما مع أسلحة الجد الأسلوب نفسه الذي استخدمته مع مؤن أمها. وهذا ما فعلاه. أمضيا بقيه تلك الليلة في فتح ثغرة في جدار الحجرة المجاورة لمستودع الأسلحة، وأخفيا الثغرة بخزانة من جانب وبالصناديق المحظورة من الجانب الآخر. ومن هناك تمكنا من الدخول إلى الحجرة التي أقفلها الجد مزودين بمطرقة وكماشة. ولأنه كانت لألبا تجربة في هذا المجال، فقد أقترَحت فتح الصناديق التي تحت. وجدا أسلحة حربية أصابتهما بالذهول، لأنهما ما كانا يعلمان بوجود أدوات بمثل ذلك الاتقان تستخدم في القتل. سرقا في الأيام التالية كل ما استطاعا سرقته منها، وتركا الصناديق الفارغة تحت الصناديق الأخرى بعد أن ملأاها بالحجارة كيلا يُلاحظ شيء عند حملها. أخرجا مسدسات حربية، ورشاشات قصيرة، وبنادق، ورمانات يدوية، وخبأا ذلك كله في سرداب خايمي إلى أن تمكنت ألبا من نقله في علبة الفيولونسيل إلى مكان آمن. كان السيناتور ترويبا يرى حفيدته تجر العلبة الثقيلة، دون أن يخامره أي شك في إنها تخبئ بداخلها المبطن بقماش مخملي ما سرقاه من رصاص كلفه الكثير تهريبه عبر الحدود وإخفاءه في بيته. خطرت لألبا فكرة تسليم الأسلحة المصادرة إلى ميغيل، ولكن خالها خايمي أقنعها بأن ميغيل ليس أقل إرهابية من الجد وأنه من الأفضل التخلص منها بطريقة لا تُلحق الأذى بأحد. ناقشا عدداً من الخيارات، ابتداء من رميها في النهر وحتى حرقها في محرقة، وقررا أخيراً أن الحل الأكثر عملية هو دفنها في أكياس بلاستيكية في مكان آمن وسري، فلربما تكون ذات يوم مفيدة لقضية

أكثر عدلاً. استغرب السيناتور تروبيا رؤية ابنه وحفيدته يخططان لرحلة إلى الجبل، لأن خايمي وألبا على السواء لم يعودا إلى ممارسة أي نوع من الرياضة منذ أزمنة المدرسة الإنكليزية، ولم يبديا قط أي ميل لمشقات تسلق الجبال. وذات يوم سبت صباحاً انطلقا في سيارة جيب مستعارة مزودين بخيمة وسلة مؤن، وحقيبة غامضة كان عليهما أن يحملاها معاً لأنها ثقيلة ثقل ميت. وكانت فيها الأسلحة الحربية التي سرقاها من الجد. انطلقا متحمسين باتجاه الجبل إلى حيث استطاعا التقدم على الطريق، ثم واصلا التقدم في البرية بحثاً عن مكان هادئ وسط الخضرة المعذبة بالريح والبرد. وهناك أنزلا حوائجهما، ونصبا دون أي مهارة خيمتهما، وحفرا عدة حفر دفنا فيها الأكياس، ووضعا على كل حفرة كومة أحجار كعلامة. أما بقية نهاية الأسبوع فأمضياها في صيد أسماك الترويت من النهر وشيّها على نار نباتات شوكية عطرة، والتجوال بين الجبال كصبية الكشافة، وتبادل الحديث عن الماضي. وفي الليل، سخنّا نبيذاً أحمر مع القرفة والسكر، وبينما هما متدثرين بمعطفيهما شربا نخب الوجه الذي سيبديه الجد حين ينتبه إلى ما سرقاه، وضحكا إلى أن طفرت الدموع من عيونهما.

- لو لم تكن خالي لتزوجت منك! - قالت ألبا مازحة.

- وماذا عن ميغيل؟

- سيكون عندئذ عشيقي.

لم يبدُ الأمر مسليا لخايمي، وأمضى ما تبقى من النزهة متضايقاً. اندس كل منهما تلك الليلة في كيس نومه، وأطفأا قنديل البرافين وظلا صامتين. نامت ألبا بسرعة، ولكن خايمي ظل حتى الفجر مفتوح العينين في الظلام. كان يحب القول إن ألبا أشبه بابنة له، ولكنه فوجئ في تلك الليلة بأنه يرغب في الا يكون أبوها أو خالها، وإنما أن يكون ميغيل ببساطة. فكر في آماندا وتحسر لأنها ما عادت قادرة على استثارة عواطفه، بحث في ذاكرته عن جذوة تلك العاطفة الجامحة التي أحس بها نحوها ذات يوم، ولكنه لم يجدها. لقد تحوّل إلى شخص متوحد. كان في البدء على مقربة شديدة من آماندا، لأنه تولى علاجها وكان

يراها كل يوم تقريباً. لقد أمضت المريضة عدة أسابيع في حالة احتضار، إلى أن تمكنت من الاستغناء عن المخدرات. وتخلت كذلك عن التدخين وشرب الخمور، وبدأت تتحول إلى حياة صحية وعادية، وازداد وزنها قليلاً، وقصت شعرها وعادت إلى تكحيل عينيها الواسعتين السوداوين، ووضع عقودها وأساورها في محاولة محزنة لاستعادة الصورة الباهتة التي تحتفظ بها عن نفسها. لقد كانت عاشقة. وتحولت من الاكتئاب إلى حالة من الغبطة الدائمة، وكان خايمي هو محط نزوتها. والجهد الإرادي العظيم الذي بذلته للتخلص من عللها الكثيرة قدمته إليه كدليلٍ على الحب. لم يشجعها خايمي على ذلك، ولكنه لم يجد الشجاعة أيضاً على صدها، مفكراً في أنه يمكن لوهم الحب أن يساعدها في استرداد عافيتها، ولكنه كان يعرف أن الوقت قد فاتهما. وفور تمكنه حاول إقرار مسافة بينهما، متذرعاً بأنه عازب ضائع لا سبيل له إلى الحب. تكفيه بعض اللقاءات الخفية مع ممرضةٍ مجاملةٍ في المستشفى أو زيارته الكئيبة لأحد المواخير لإشباع رغباته الملحة في لحظات الفراغ النادرة التي يتيحها له عمله. وعلى الرغم منه، وجد نفسه مرتبطاً مع آماندا بعلاقة تمناها بيأس في شبابه، ولكنها لم تعد تهزه الآن ولا يشعر بالقدرة على الحفاظ عليها. لم تكن توحي إليه إلا بإحساس من الشفقة، ولكن ذلك الإحساس كان أحد أقوى الانفعالات التي يشعر بها. فخلال حياة كاملة من التعايش مع البؤس والألم، لم تتصلب روحه، بل على العكس تماماً، فهو يزداد تأثراً بالشفقة أكثر فأكثر. وفي اليوم الذي طوقت فيه آماندا عنقه بذراعيها وقالت إنها تحبه، احتضنها بصورة آلية وقبلها بعاطفة متصنعة، كيلا تلاحظ أنه لا يشتهيها. وهكذا وجد نفسه عالقاً في علاقة منهكة وهو في سن يظن فيها أنه عاجز عن غراميات صاخبة. «لم أعد أنفع في هذه الأمور»، كان يفكر بعد تلك اللقاءات المضنية التي كانت آماندا تلجأ لإغوائه من خلالها بحثاً عن ممارسات غرامية تخلف كليهما منهوكاً.

علاقته بآماندا، وإلحاح ألبا عليه، جعلاه يكثر من الاتصال بميغيل. لم يكن قادراً على تجنب اللقاء به في مناسبات كثيرة. بذل كل ما

يستطيعه كي يظل على مسافة من عدم المبالاة، ولكنه انتهى إلى الافتتان بشخصية ميغيل. كان قد نضج ولم يعد ذلك الشاب المندفع، ولكنه لم يتحول قيد أنملة عن خطه السياسي، وظل يفكر في أنه من المحال هزيمة اليمين إلا بثورة عنيفة. لم يكن خايمي يوافقه الرأي، ولكنه يقدره ويُجب طبعه الباسل. ومع ذلك، كان يعتبره واحداً من أولئك الرجال المشؤومين الذين تتسلط على أذهانهم مثالية خطيرة وطهارة متشددة، يحوّلون كل ما يلمسونه إلى نكبة، وخاصة النساء اللاتي يشاء لهن سوء الطالع الوقوع في حبهم. ولم يكن يروقه كذلك موقفه الأيديولوجي، لقناعته بأن متطرفي اليسار من أمثال ميغيل، يلحقون بالرئيس ضرراً أكبر مما يلحقه به اليمين. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن يحول دون تعاطفه معه والانحناء أمام رسوخ قناعاته، وسعادته الطبيعية، وميله إلى الحنان والسخاء اللذين يجعلانه مستعداً لتقديم حياته في سبيل مُثل عليا يشاطره خايمي إياها ولكنه لا يمتلك الشجاعة للوصول بها إلى الحدود القصوى.

نام خايمي في تلك الليلة نوماً مزعجاً وقلقاً، دون راحة، في كيس نومه، وهو يسمع على مقربة منه تنفس ابنة أخته. وعندما استيقظ، كانت قد نهضت وبدأت تسخن قهوة الفطور. وكانت تهب نسمات باردة، والشمس تضيء قمم الجبال بانعكاسات ذهبية. ألقت أليا بذراعيها حول عنق خالها وقبّلته، ولكنه استبقى يديه في جيبيه ولم يبادلها مداعبتها. لقد كان مشوشاً.

كانت الماريات الثلاث إحدى آخر الإقطاعيات التي صادرها الإصلاح الزراعي في الجنوب. فالفلاحون أنفسهم الذين ولدوا وعملوا لأجيال في تلك الأرض، شكلوا تعاونية واستولوا على الملكية، لأنهم لم يروا السيد منذ ثلاث سنوات وخمسة شهور، وكانوا قد نسوا إعصار نوبات غضبه. أما الوكيل المرعوب من المنحى الذي اتخذته الأحداث، ومن النبرة المتهورة في اجتماعات الفلاحين في المدرسة، فجمع حوائجه وانصرف دون أن يودّع أحداً ودون أن يخبر ترويبا نفسه، لأنه لم يشأ مواجهة غضبه،

ولاعتقاده بأنه قد فعل ما عليه فعله عندما حذره عدة مرات من قبل. وبذهابة، ظلت أمور الماريات الثلاث تمضي على غير هدى لبعض الوقت. لم يكن هناك من يصدر الأوامر ولا من هو مستعد لتنفيذها، فقد تذوق الفلاحون للمرة الأولى في حياتهم طعم الحرية، وأن يكونوا سادة أنفسهم. تقاسموا الحقول في ما بينهم بالتساوي وزرع كل واحد منهم ما رغب فيه، إلى أن أرسلت الحكومة مهندساً زراعياً قدّم إليهم البذار بالدين، وأطلعهم على حاجات السوق، ومصاعب نقل المنتجات، وفائدة الأسمدة والمبيدات. لم يهتم الفلاحون كثيراً بالمهندس، لأنه بدا لهم شخصاً متكلفاً من المدينة، ومن المؤكد أنه لم يمسك محراثاً بيديه قط، ولكنهم احتفلوا مع ذلك بزيارته، ففتحوا أقبية المالك القديم المقدسة، ونهبوا نبيذه المعتق وذبحوا ثيران التخصيب لياكلوا خصيّها مقلية مع البصل والكزبرة. وبعد أن غادر المهندس، أكلوا كذلك الأبقار المستوردة والدجاج البياض. علم السيناتور ترويبا أنه فقد أراضيه عندما أُرسل إليه إشعار بأنهم سيدفعون له ثمنها بسندات حكومية، وبأقساط لمدة ثلاثين سنة، وبالسعر نفسه الذي حدده هو في تصريحه لمصلحة الضرائب. فقد السيطرة على نفسه. فأخرج من ترسانة أسلحته مسدساً رشاشاً لا يعرف كيفية استخدامه، وأمر السائق بأن يأخذه دون توقف إلى الماريات الثلاث، ولم يخبر بذلك أحداً، بمن في ذلك حارسيه الشخصيين. سافر عدة ساعات وقد أعماه الغضب، دون أن تكون في ذهنه خطة محددة.

وعند الوصول، كان لا بد من الضغط على مكابح السيارة بقوة، لأن الطريق كان مغلقاً بعارضة خشبية سميكة تسدّ المدخل. وكان أحد الفلاحين يقوم بالحراسة حاملاً حربة وبندقية صيد بلا خرطوش. ترجل ترويبا من السيارة. وما إن رأي الحارسُ المسكين السيدَ المالك حتى تعلق كمجنون بجرس المدرسة الذي عُلق على مقربة منه ليعطي إشارة إنذار، ثم انبطح فوراً على الأرض. مرت زخة الرصاص فوق رأسه وانغرزت في الأشجار القريبة. لم يتوقف ترويبا ليتأكد مما إذا كان قد قتله. وبرشاقة غير متوقعة في مثل عمره توغل على طريق الملكية دون النظر إلى أي

جانب، وهكذا أصابت الضربة قذاله فجأة دون أن ينتبه لما حدث. استفاق من غيبوبته في غرفة طعام بيت السيد، وكان مطروحاً على المنضدة مكبل اليدين وتحت رأسه وسادة. وكانت هناك امرأة تضع له خرقاً مبللة على جبينه، وحوله الفلاحون كلهم تقريباً ينظرون إليه بفضول.

- كيف حالك أيها الرفيق؟ - سألوه.

- أبناء العاهرة! أنا لست رفيق أحد! زمجر العجوز محاولاً النهوض.

تكلم وصرخ كثيراً، فحلوا وثاقه وساعدوه على الوقوف، ولكنه حين أراد الخروج وجد النوافذ مسدودة من الخارج والباب مقفل بالمفتاح. حاولوا أن يوضحوا له أن الأمور قد تغيّرت وأنه لم يعد المالك، ولكنه لم يشأ الاستماع إلى أحد. كان الزبد يتطاير من فمه وقلبه يوشك أن ينفجر وهو يطلق الشتائم كمعتوه، مهدداً بالعقاب والانتقام، فانتهى الأمر بالآخرين إلى الانفجار في الضحك. وأخيراً، حين ملّوا منه، تركوه وحده حبيساً في غرفة الطعام. تهاوى إستيبان تروبيا على كرسي وقد أنهكه الجهد المريع. وبعد ساعات علم أنه تحول إلى رهينة وأنهم يريدون تصويره للتلفزيون. وبإخبار من السائق، توجه حارساه الشخصيان وبعض شبان حزبه المندفعين إلى الماريات الثلاث، يريدون إنقاذه، مسلحين بهراوات وقبضات حديدية وسلاسل. ولكنهم وجدوا حراسة مشددة عند البوابة، ومسلحة بالمسدس الرشاش نفسه الذي وفره لهم السيناتور تروبيا.

ـ لن يأخذ أحد منا الرفيق الرهينة ـ قال الفلاحون، وليضفوا مصداقية على كلماتهم، لاحقوهم بالرصاص.

عندئذ ظهرت شاحنة التلفزيون لتصور الحادث، فسمح لها الفلاحون الذين لم يروا شيئاً مشابهاً من قبل بالدخول، وأبدوا أمام الكاميرات أوسع الابتسامات وهم يحيطون بالأسير. وفي تلك الليلة رأت البلاد بأسرها على الشاشات صور الممثل الأكبر للمعارضة مقيداً يطلق زبد الغضب ويجأر بكلمات بذيئة اضطرت معها الرقابة إلى التصرف. لقد رآه رئيس الجمهورية أيضاً، ولم يرق له المشهد، لأنه رأى أن هذا الحادث قد يكون الصاعق الذي يفجّر برميل البارود الذي تقف عليه حكومته مزعزعة التوازن. أمر قوات الدرك بأن تنقذ السيناتور. وعندما وصل هؤلاء

إلى الإقطاعية، لم يسمح لهم الفلاحون الذين شجعتهم الصحافة بالدخول. وطالبوا رجال الدرك بإبراز أمر قضائي. وحين رأى قاضي المنطقة أنه قد يتورط في مشكله وقد يظهر كذلك في التلفزيون ويُحقّره صحفيو اليسار، غادر على عجل في رحلة لصيد السمك. فاضطر رجال الدرك إلى الانتظار في الجانب الآخر من بوابة الماريات الثلاث، إلى أن وصلهم التفويض القضائي من العاصمة.

علمت بلانكا وألبا بالخبر، مثل الجميع، لأنهم رؤوه في نشرة الأخبار. انتظرت بلانكا حتى اليوم التالي دون أن تعلق بشيء، ولكنها حين رأت أن رجال الدرك أيضاً لم يتمكنوا من تخليص الجد، قررت أن الوقت قد حان للقاء مجدداً ببيدرو غارثيا الثالث.

ـ اخلعي هذا البنطال البائس والبسي فستاناً محترماً ـ أمرتها ألبا.

مثلتا كلتاهما في الوزارة دون أن تطلبا موعداً مسبقاً. حاول سكرتير أن يوقفهما في غرفة الانتظار، ولكن بلانكا دفعته جانباً وتقدمت بخطوات ثابتة وهي تجر ابنتها جراً. فتحت الباب دون أن تطرقه واندفعت إلى مكتب بيدرو الثالث الذي لم تره منذ سنتين. وكانت على وشك التراجع معتقدة أنها قد أخطأت. فخلال تلك الفترة القصيرة، كان رجل حياتها قد نحل وشاخ، وصار يبدو منهوكاً ومتعباً جداً. كان شعره لا يزال أسود، ولكنه أقصر وأكثر تبعثراً، وكان قد شذب لحيته البديعة، ويرتدي بدلة موظف رمادية وربطة عنق كئيبة من اللون نفسه. ولم تتعرف عليه بلانكا إلا من نظرة عينيه السوداوين القديمة.

ـ يا يسوع! كم تغيّرت...! ـ تلعثمت.

أما هي بالمقابل، فبدت لبيدرو الثالث أجمل مما يتذكره، كما لو أن الغياب قد أعاد إليها شبابها. لقد توفر له الوقت خلال تلك الفترة للندم على قراره وليكتشف أنه بفقدان بلانكا قد فقد حتى إعجابه بالشابات اللواتي كنّ يبعثن فيه الحماسة من قبل. ومن جهة أخرى، كانت فرص إحساسه بالسعادة قليلة جداً وهو جالس في ذلك المكتب، حيث يعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، بعيداً عن جيتاره وعن إلهام الشعب. ومع مرور الزمن كان يشعر بالحنين أكثر فأكثر إلى حب بلانكا الهادئ

والغامر. وما كاد يراها تدخل بخطوات حاسمة ترافقها ابنتها، حتى أدرك أنها ليست آتية لتراه لأسباب عاطفية، وخمن أن فضيحة السيناتور ترويبا هي سبب الزيارة.

- إنني آتية لأطلب منك أن ترافقنا - قالت له بلانكا دون مقدمات - سنذهب أنا وابنتك لإحضار العجوز من الماريات الثلاث.

هكذا عرفت ألبا أن أباها هو بيدرو غارثيا الثالث.

- لا بأس. سنمر ببيتي لاحضار الجيتار - أجاب وهو ينهض.

خرجوا من الوزارة في سيارة سوداء كأنها عربة جنائزية تحمل لوحة رسمية. انتظرت بلانكا وألبا في الشارع بينما صعد هو إلى شقته. وعندما رجع كان قد استعاد شيئاً من سحره القديم. فقد استبدل البدلة الرمادية بافرهوله السابق وعباءة البونتشو، وكان ينتعل صندلاً ويحمل الجيتار معلقاً على ظهره. ابتسمت له بلانكا للمرة الأولى، فانحنى وقبّلها قبلة سريعة على فمها. كانت الرحلة صامتة خلال المئة كيلومتر الأولى، إلى أن تمكنت ألبا من الخروج من المفاجأة وأصدرت خيط صوت نحيل ومرتعش لتسأل لماذا لم يخبراها من قبل أن بيدرو الثالث هو أبوها؛ لأنها كانت ستتجنب بذلك كوابيس كثيرة ترى فيها كونتاً يرتدي البياض، ويموت بحمى الصحراء.

- أب ميت أفضل من أب غائب - ردّت عليها بلانكا بغموض، ولم تعد إلى الحديث في الموضوع.

وصلوا إلى الماريات الثلاث عند الغروب، ووجدوا عند بوابة الإقطاعية حشداً يتبادل أفراده الحديث بمودة حول موقد يُشوى عليه خنزير. إنهم رجال الدرك والصحفيون والفلاحون، وكانوا يجهزون على آخر زجاجات الخمر في قبو السيناتور. وكانت بعض الكلاب وعدد من الأطفال يلعبون تضيئهم النار، بانتظار أن ينضج لحم الجنزير الوردي اللامع. تعرف الصحفيون على بيدرو غارثيا الثالث في الحال، لأنهم يجرون معه المقابلات بكثرة، وتعرف عليه رجال الدرك بسبب مظهره الذي لا يمكن الخطأ فيه كمغن شعبي، وعرفه الفلاحون لأنهم شهدوا ولادته على تلك الأرض. واستقبلوه بحرارة.

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا رفيق؟ - سأله الفلاحون.
- جئت لرؤية العجوز - ابتسم بيدرو الثالث.
- أنت يمكنك الدخول يا رفيق، ولكن وحيداً. أما دونيا بلانكا والصغيرة ألبا فستقبلان دعوتنا إلى كأس من النبيذ - قالوا.
جلست المرأتان مع الآخرين حول الموقد، وذكّرتهما رائحة الشواء بأنهما لم تأكلا شيئاً منذ الصباح. كانت بلانكا تعرف جميع الفلاحين، وقد علّمت كثيرين منهم القراءة في مدرسة الماريات الثلاث الصغيرة، وهكذا راحوا يتذكرون الأزمنة الماضية، عندما كان الأخوة سانتشيث يفرضون قانونهم في المنطقة، وعندما قضى بيدرو غارثيا العجوز على جائحة النمل، وعندما كان رئيس الجمهورية مرشحاً أبدياً، يتوقف في المحطة ليخطب فيهم من قطار هزائمه.
- من كان يصدق أنه سيصير رئيساً ذات يوم! - قال أحدهم.
- وأن قدرة السيد المالك على إصدار الأوامر في الماريات الثلاث ستكون ذات يوم أقل من قدرتنا - ضحك الآخرون.
اقتادوا بيدرو غارثيا الثالث إلى البيت، مباشرة إلى المطبخ. وهناك كان أكبر الفلاحين سناً يحرسون باب غرفة الطعام، حيث يحتجزون المالك القديم أسيراً. لم يكونوا قد رأوا بيدرو الثالث منذ سنوات، ولكنهم عرفوه جميعهم. جلسوا حول المنضدة يشربون النبيذ ويتذكرون الماضي البعيد، والأزمنة التي لم يكن فيها بيدرو الثالث أسطورة في ذاكرة أهل الريف، وإنما مجرد فتى متمرد ومغرم بابنة المالك. بعد ذلك تناول بيدرو الثالث جيتاره، أسنده إلى فخذيه، وأغمض عينيه وبدأ الغناء بصوته المخملي تلك الأغنية عن الدجاجات والثعالب، وجميع الشيوخ يرددون معه كجوقة.
- سآخذ المالك معي يا رفاق - قال بيدرو الثالث بعذوبة في إحدى توقفاته عن الغناء.
- لا تحلم بذلك يا بني - أجابوه.
- غداً سيأتي رجال الدرك بأمر قضائي وسيأخذونه كبطل. من الأفضل أن آخذه أنا وذيله بين ساقيه - قال بيدرو الثالث.

ناقشوا الأمر لبعض الوقت، ثم قادوه أخيراً إلى غرفة الطعام وتركوه وحيداً مع الرهينة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يلتقيان فيها وجهاً لوجه منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي جعله فيه ترويبا يدفع ثمن بكارة ابنته بضربة فأس. كان بيدرو الثالث يتذكره كمارد غاضب. يمضي مسلحاً بسوط من جلد ثعبان وعكاز فضي، يرتجف الفلاحون لدى مروره وتتقلب الطبيعة من صوته الراعد وسلطته كسيد إقطاعي كبير. فوجئ بأن حقده الذي تراكم خلال زمن طويل، قد خمد بغتة بحضور ذلك العجوز منحني الظهر والمتضائل الذي ينظر إليه مذعوراً. كان السيناتور ترويبا قد استنفد غضبه، وكانت الليلة التي أمضاها جالساً على كرسي ويداه مقيدتان قد سببت له آلاماً في عظامه كلها وتعبَ ألف سنة في ظهره. وجد صعوبة في التعرف عليه أول الأمر، لأنه لم يره منذ ربع قرن، ولكنه حين انتبه إلى نقص ثلاث أصابع من يده اليمنى، أدرك أن هذه هي ذروة الكابوس الذي وجد نفسه غارقاً فيه. تفحص كل منهما الآخر بصمت لثوان طويلة، وكلاهما يفكر في أن الآخر يجسّد أشد ما في العالم مقتاً، ولكن دون أن يجدا نار الحقد القديم في قلبيهما.

- لقد جئت لأخرجك من هنا - قال بيدرو الثالث.

- لماذا؟ سأله العجوز.

- لأن ألبا طلبت مني ذلك - أجاب بيدرو الثالث.

- اذهب إلى الجحيم - تلعثم العجوز دون قناعة.

- لا بأس، سنذهب معاً إلى هناك. وستأتي معي.

بادر بيدرو الثالث إلى فك الأربطة التي أعادوا تقييد معصمي العجوز بها لمنعه من ضرب الباب بقبضتيه. أدار ترويبا عينيه كيلا يرى يد الآخر مبتورة الأصابع.

- أخرجني من هنا دون أن يراني أحد. لا أريد أن يعرف الصحفيون بالأمر - قال السيناتور ترويبا.

- سأخرجك من حيث دخلتَ بالضبط، من الباب الرئيسي - قال بيدرو الثالث، وبدأ المشي.

تبعه ترويبا خافضاً رأسه، كانت عيناه محمرتين، وكان يشعر،

للمرة الأولى في حياته، بأنه مهزوم. مرا من المطبخ دون أن يرفع العجوز نظره. اجتازا البيت كله وذرعا الطريق من بيت المالك حتى بوابة الدخول ترافقهما جماعة أطفال صاخبين يتقافزون حولهم، وكوكبة من الفلاحين الصامتين تمضي خلفهم. كانت بلانكا وألبا جالستين بين الصحفيين ورجال الدرك، وكانتا تأكلان لحم الخنزير المشوي بأصابعهما وتشربان جرعات كبيرة من النبيذ الأحمر من فم الزجاجة التي تتنقل من يد شخص إلى آخر. حين رأت ألبا جدها، تأثرت بشدة، لأنها لم تره قطّ بمثل هذا اليأس منذ موت كلارا. ابتلعت ما كان في فمها وهرعت للقائه. تعانقا بقوة وهمست شيئاً في أذنه. عندئذ تمكن السيناتور ترويبا من السيطرة على وقاره، فرفع رأسه وابتسم بعجرفته القديمة أمام أضواء آلات التصوير. صوّره الصحفيون وهو يصعد إلى سيارة سوداء ذات لوحة رسمية، وتساءل الرأي العام خلال عدة أسابيع عن معنى ذلك التهريج، إلى أن وقعت أحداث أخرى أشد خطورة ومحت ذكرى ذلك الحدث.

كان رئيس الجمهورية قد اعتاد على خداع الأرق بلعب الشطرنج مع خايمي، وقد علق في تلك الليلة على الموضوع بين جولتين من اللعب، بينما هو يرصد بعينين ماكرتين مختبئتين وراء عدستي نظارة سميكتين يحيط بهما إطار أسود، عله يلمح شيئاً من القلق في وجه صديقه، لكن خايمي واصل صف أحجار الشطرنج على الرقعة دون التفوه بكلمة واحدة.

ـ هذا العجوز ترويبا يملك خصيتين متينتين ـ قال الرئيس ـ إنه شخص جدير بأن يكون في صفنا.

ـ النقلة الآن لك أيها الرئيس ـ قال خايمي وهو يشير إلى رقعة اللعب.

في الشهور التالية ازداد الوضع تردياً، وبدت البلاد كما لو أنها في حرب. كانت الخواطر متأججة جداً، لاسيما بين نساء المعارضة اللواتي كن يتظاهرن وهن يقرعن قدورهن احتجاجاً على افتقاد المؤن. كان نصف الشعب يسعى لإسقاط الحكومة بينما النصف الآخر يدافع عنها، دون أن يبقى لدى أحد الوقت للاهتمام بالعمل. وقد فوجئت ألبا في إحدى الليالي عندما رأت الشوارع مظلمة ومقفرة. فالقمامة لم تُجمع خلال

الأسبوع كله، والكلاب المشردة تنبش في أكوام القذارة. وأعمدة النور مغطاة بدعايات مطبوعة أزال المطر حبرها. وكان نصف مصابيح الإنارة قد هُشم بالأحجار ولم تكن هناك نوافذ مضاءة في البنايات، والإضاءة الوحيدة تأتي من بعض المواقد الكئيبة التي تُغذى بأوراق صحف وألواح خشب، تتدفأ عليها جماعات صغيرة تتناوب الحراسة أمام الوزارات والمصارف والمكاتب لتحول دون إقدام عصابات اليمين المتطرف على اقتحامها والاستيلاء عليها في الليل. رأت ألبا شاحنة تتوقف أمام أحد الأبنية العامة. نزل منها شبان يعتمرون خُوذاً بيضاء، ويحملون علب ألوان وفراشي طلاء، غطوا الجدران بطلاء فاتح كأساس. ثم رسموا بعد ذلك حمائم ضخمة متعددة الألوان، وفراشات وأزهاراً دامية، وخطوا أبياتاً من قصائد الشاعر ونداءات تدعو إلى وحدة الشعب. إنهم من الكتائب الشبابية التي تظن أنها قادرة على إنقاذ الثورة برسم الجداريات الوطنية الحمائم. اقتربت ألبا منهم وأشارت إلى جدارية أخرى في الجانب المقابل من الشارع، ملطخة بطلاء أحمر وعليها كلمة واحدة بحروف ضخمة: جاكرتا.

ـ ما الذي يعنيه هذا الاسم يا رفاق؟ ـ سألتهم.

ـ لا نعرف ـ أجابوها.

لم يكن هناك من يعرف سبب كتابة المعارضة هذه الكلمة الآسيوية على الجدران، ولم يكن هناك من سمع عن أكوام القتلى في شوارع تلك المدينة البعيدة. امتطت ألبا دراجتها وتوجهت بها نحو البيت. فمنذ تقنين البنزين وإضراب وسائل النقل العام، أخرجت من القبو لعبة طفولتها القديمة لاستخدامها في التنقل. وبينما هي على الدراجة، كانت تفكر في ميغيل وهاجس قاتم يطبق على حنجرتها.

لم تعد تذهب إلى الدروس منذ بعض الوقت، وصار لديها فائض من وقت الفراغ. كان الأساتذة قد أعلنوا توقف الدروس حتى إشعار آخر، واحتل الطلاب مباني الكليات الجامعية. ولضجرها من التدرب على الفيولونسيل في بيتها، صارت تستغل الوقت الذي لا تكون فيه مشغولة بالتقلب مع ميغيل، أو التنزه مع ميغيل، أو النقاش مع ميغيل، كي تذهب

إلى مستشفى حي الإحسان لتساعد خالها خايمي وعدد قليل من الأطباء الآخرين الذين مازالوا يمارسون عملهم على الرغم من أوامر نقابة الأطباء بعدم العمل للتخريب على الحكومة. لقد كانت مهمة بطولية. فالممرات تغص بمرضى ينتظرون لأيام، كقطيع يئن ويتأوه، من أجل تلقي العلاج. لم يكن عدد الممرضين كافياً، وكان خايمي يغفو وهو يمسك المبضع في يده، وينسى تناول الطعام من كثرة انشغاله في العمل. أصابه النحول والشحوب. وصار يعمل في وردية تستمر ثماني عشرة ساعة متواصلة، وعندما يستلقي على سريره الضيق لا يستطيع النوم وهو يفكر في المرضى الذين ينتظرون، وفي عدم توفر المخدر والمحاقن والقطن، وفي أنه لو ضاعف نفسه ألف مرة، لن تكون جهوده كافيه، لأن ما يقوم به اشبه بمحاولة وقف قطار براحة اليد. كانت آماندا تعمل أيضاً متطوعة في المستشفى، كي تظل على مقربة من خايمي وتُبقي نفسها مشغولة. وفي أثناء تلك المهمات المضنية في العناية بمرضى مجهولين، استعادت النور الذي كان يضيئها من الداخل في شبابها، وداعبها لبعض الوقت الوهم بأنها سعيدة. كانت تستخدم مريولاً أزرق وخفاً من المطاط، ولكن خايمي كان يشعر، حين تمر بجانبه، بأنه يسمع صلصلة حليّها الخرزية القديمة. كان يشعر بمرافقتها له، وتمنى لو أنه يستطيع حبها.

صار الرئيس يظهر في التلفاز كل ليلة تقريباً ليندد بحرب المعارضة التي لا هوادة فيها. كان متعباً جداً، وكان صوته ينكسر أحياناً. قالوا إنه سكران ويقضي الليالي في حفلات مجون مع خلاسيات جيء بهن جواً من المنطقة المدارية لتدفئة عظامه. لقد نبه إلى أن سائقي الشاحنات المضربين يتلقون خمسين دولاراً في اليوم من الخارج لإبقاء البلاد مشلولة. فردوا بأنه يتلقى مثلجات جوز الهند وأسلحة سوفييتيه في الحقائب الدبلوماسية. قال إن خصومه يتآمرون مع العسكريين للقيام بانقلاب، لأنهم يفضلون رؤية موت الديمقراطية على رؤيته يحكم البلاد. فاتهموه بأنه يختلق مؤامرات هذيانية وأنه يسرق مقتنيات المتحف الوطني ليضعها في مخدع عشيقته. حذر من أن قوى اليمين قد تسلحت وصممت على بيع الوطن للإمبريالية، فردوا عليه بأن لديه مستودع مؤونه مملوء بصدور الدجاج بينما الشعب

يقف في صفوف الانتظار للحصول على بقايا وأجنحة الطيور نفسها.

يوم قرعت لويسا مورا جرس باب بيت الناصية الكبير، كان السيناتور تروبيا في المكتبة يُجري حساباته. إنها الأخت الأخيرة المتبقية في هذا العالم من الأخوات مورا الثلاث، وكانت قد اختُزلت إلى حجم ملاك تائه ومتبصر تماماً، وتتمتع بأقصى طاقتها الروحية الراسخة. لم يكن تروبيا قد رآها منذ موت كلارا، ولكنه تعرف عليها من صوتها الذي مازال يرن مثل مزمار سحري، ومن رائحة عطر البنفسج البري الذي خفف انقضاء الزمن من تضوعه، ولكن مازال بالإمكان شمه عن بُعد. عند دخولها إلى الغرفة أدخلت معها حضور كلارا المجنح التي ظلت تطفو في الهواء أمام عينيِ زوجها العاشقتين، والذي لم يرها منذ عدة أيام.

ـ جئتُ لأخبركِ بنكبات كبيرة يا إستيبان ـ قالت لويسا مورا بعد أن استقرت على الأريكة.

ـ آه يا عزيزتي لويسا! لقد نلتُ ما يكفي من النكبات... ـ قال متنهداً.

أخبرته لويسا بما اكتشفته في بروج الكواكب. وكان عليها أن تشرح المنهج العلمي الذي استخدمته كي تتغلب على مقاومة السيناتور البرغماتية. قالت إنها أمضت الشهور العشرة الأخيرة في دراسة برج كل شخصية مهمة في الحكومة وفي المعارضة، بمن في ذلك السيناتور نفسه. وقد عكست مقارنة بطاقات الأبراج أنه ستحدث في تلك اللحظة التاريخية وقائع دم وألم وموت لا سبيل إلى تجنبها. وانتهت إلى القول:

ـ لا يخامرني أدنى شك في ذلك يا إستيبان. إن أزمنة رهيبة تقترب. سيكون هناك كثير من الموتى لا يمكن حصر أعدادهم. وستكون أنت مع الفئة الغالبة، ولكن الغلبة لن تأتيك إلا بالمعاناة والعزلة.

شعر إستيبان تروبيا بالقلق أمام هذه المتنبئة الغريبة التي تعكر سلام مكتبته وتقلب كبده بهذيانات تنجيمية، ولكنه لم يجد الشجاعة على صرفها، بسبب كلارا التي كانت تراقب بطرف عينها من ركنها.

ـ ولكنني لم أجئ لإزعاجك بأخبار لا قدرة لك على كبحها يا إستيبان. لقد جئتُ لأكلمك عن حفيدتك ألبا، لأن لدي رسالة لها، تلقيتها من جدتها.

استدعى السيناتور ألبا. لم تكن الفتاة قد رأت لويسا مورا مذ كانت في السابعة من عمرها، ولكنها تذكرتها جيداً. عانقتها بحذر، كيلا تلحق الأذى بهيكلها العظمي العاجيّ الهش، وشمت بجزع رائحة العطر الذي لا مجال للخطأ في التعرف عليه.

ـ جئت لأطلب منكِ توخي الحذر يا بنيتي ـ قالت لويسا مورا بعد أن مسحت دموع التأثر ـ. الموت يتبعك خطوة خطوة. جدتك كلارا تحميك من عالم الغيب، ولكنها أرسلتني كي أخبرك بأن الأرواح الحامية تفقد فعاليتها في الكوارث العظمى. من الأفضل أن تسافري، أن تذهبي إلى الجانب الآخر من البحر، وهناك ستكونين في مأمن.

وعند وصول الحديث إلى هذا المستوى، فقد السيناتور تروبيا صبره، وتأكد من أنه أمام معتوهة متمادية. بعد عشرة شهور وأحد عشر يوماً من ذلك، سيتذكر نبوءة لويسا مورا، عندما اقتادوا ألبا في سيارة في الليل خلال منع التجوال.

الفصل الثالث عشر

الرعب

طلع صباح يوم الانقلاب العسكري بشمس مشرقة، وهو أمر غير مألوف في الربيع الخجول الذي بدأ يطل. كان خايمي قد عمل طيلة الليل تقريباً، وفي السابعة صباحاً كان جسمه قد حصل على ساعتين من النوم. أيقظه جرس الهاتف، وأخرجه من النعاس تماماً صوتُ سكرتيرة فيه أثر من القلق. إنهم يتصلون به من القصر الرئاسي ليخبروه بأن عليه الحضور بأسرع ما يمكن إلى مكتب الرفيق الرئيس، لا، الرفيق الرئيس ليس مريضاً، لا، إنها لا تعرف ما الذي يحدث، لديها أمر بالاتصال بجميع أطباء الرئيس. ارتدى خايمي ملابسه كمن يفعل ذلك وهو نائم ثم ركب سيارته وهو يحمد حظه لأن مهنته تمنحه الحق بالحصول على حصة أسبوعية من البنزين، وإلا لكان عليه الذهب إلى مركز المدينة على دراجة. وصل إلى القصر في الساعة الثامنة، واستغرب خلو الساحة من الناس ووجود مفرزة كبيرة من الجنود أمام بوابات مقر الحكومة، وجميعهم بملابس الميدان، تغطي رؤوسهم الخوذ ويحملون أسلحة حربية. أوقف خايمي سيارته في الساحة المقفرة، دون أن يولي اهتماماً لأيماءات الجنود له بعدم التوقف. ترجل من السيارة، وعلى الفور أحاطوا به مصوبين إليه أسلحتهم.

ـ ما الذي يحدث يا رفاق؟ هل نحن في حرب مع الصينيين؟ ـ سألهم خايمي مبتسماً. فأمره ضابط:

ـ واصل طريقك، لا يمكنك التوقف هنا! لقد أُوقفت حركة المرور!

ـ متأسف، لقد استدعوني إلى مقر الرئاسة ـ تعلل خايمي وهو يعرض وثائقه الشخصية ـ أنا طبيب.

رافقوه حتى بوابات القصر الخشبية الثقيلة، حيث كانت جماعة من الدرك تقوم بالحراسة. سمحوا له بالدخول. كان يسود المبنى اضطراب

سفينة تشرف على الغرق، فالموظفون يركضون على الأدراج كفئران دائخة، وأفراد حرس الرئيس الخاص يكدسون الأثاث عند النوافذ ويوزعون مسدسات على أقرب المقربين. خرج الرئيس للقائه. كان يضع على رأسه خوذة ميدانية تبدو غير متناسبة مع زيه الرياضي الأنيق وحذائه الإيطالي. عندئذ أدرك خايمي أن شيئاً خطيراً يحدث.

- لقد تمردت البحرية يا دكتور - أوضح له بإيجاز -. وقد جاءت لحظة النضال.

تناول خايمي الهاتف واتصل بألبا ليقول لها ألا تتحرك من البيت، وليطلب منها أن تخبر آماندا. ولم يعد إلى التكلم معها إلى الأبد، لأن الأحداث توالت بصورة دوارية. وخلال الساعات التالية وصل بعض الوزراء والقادة الحكوميين السياسيين، وبدأت المفاوضات الهاتفية مع المتمردين لتقدير حجم تمردهم والبحث عن حلّ سلمي. ولكن كافة وحدات البلاد العسكرية كانت قد صارت تحت أمرة الانقلابيين في الساعة التاسعة والنصف. وبدأت في الثكنات حملة تطهير ضد من ظلوا أوفياء للدستور. أصدر الجنرال قائد الدرك أمراً إلى حراس القصر بالخروج منه، لأن الشرطة انضمت أيضاً إلى الانقلاب.

- يمكنكم الانصراف يا رفاق، ولكن اتركوا أسلحتكم هنا - قال لهم الرئيس.

بدا رجال الدرك مرتبكين وخجلين، لكن أمر الجنرال كان قاطعاً. لم يجرؤ أي منهم على مواجهة عيني رئيس الدولة. وضعوا أسلحتهم في الفناء وخرجوا في رتل، برؤوس محنية. وعند البوابة استدار أحدهم.

- أنا سأبقى معك أيها الرفيق الرئيس - قال.

عند الضحى صار واضحاً أن الوضع لن يُسوى بالحوار، وبدأ الجميع تقريباً بالانسحاب. لم يبق سوى أصدقاء الرئيس المقربين وحرسه الخاص. أجبر الرئيس ابنتاه على الخروج. واضطروا إلى إخراجهما بالقوة، وكان بالإمكان سماع أصواتهما وهما تناديانه من الشارع. بقي في المبنى حوالي ثلاثين شخصاً متمترسين في صالونات الطابق الثاني، وبينهم خايمي. كان يشعر أنه وسط كابوس. جلس على أريكة مخمل أحمر، في يده

مسدس ينظر إليه ببلاهة. لم يكن يعرف كيفية استخدامه. بدا له أن الوقت يمضي ببطء شديد، فساعته لا تشير إلا إلى مضي ثلاث ساعات في هذا الحلم الخبيث. سمع صوت الرئيس الذي يتوجه إلى البلاد عبر المذياع. وكان ذلك هو خطاب الوداع.

«إنني أتوجه إلى أولئك الذين سيتعرضون للملاحقة، لأقول لهم إنني لن أستقيل: سأدفع حياتي ثمناً لوفائي للشعب. سأكون معكم دائماً. إنني مؤمن بالوطن وقدره. سيتجاوز رجال آخرون هذه اللحظة، وستتفتح عاجلاً وليس آجلاً دروباً فسيحة سيذرعها الإنسان الحر لبناء مجتمع أفضل. يحيا الشعب! يحيا الشغيلة! هذه هي كلماتي الأخيرة. وأنا واثق من أن تضحيتي لن تذهب هباء.»

بدأت السماء تمتلئ بالغيوم. سُمعت بعض الطلقات المتفرقة والبعيدة. في تلك اللحظة كان الرئيس يتكلم في الهاتف مع زعيم المتمردين الذي عرض عليه طائرة عسكرية للخروج من البلاد مع أسرته. ولكنه لم يكن مستعداً لتقبل المنفى في مكان بعيد حيث يقضي بقية حياته وهو يشيخ إلى جانب رؤساء آخرين أطيح بهم وخرجوا من أوطانهم بين منتصف الليل والفجر.

ـ لقد أخطأت ظنونكم بي أيها الخونة. الشعب وضعني هنا ولن أخرج من هنا إلا ميتاً ـ ردّ بصوت هادئ.

عندئذ سُمع هدير الطائرات وبدأ القصف الجوي. انبطح خايمي على الأرض مع الآخرين، دون أن يتمكن من تصديق ما يعيشه، لأنه كان مقتنعاً حتى اليوم السابق بأنه لا يمكن حدوث شيء في بلاده، لأن الجميع بمن في ذلك العسكريين يحترمون القانون. الرئيس وحده ظل واقفاً، اقترب من النافذة وهو يحمل مدفع بازوكا بين يديه، وأطلق النار باتجاه الدبابات التي في الشارع. زحف خايمي إليه وشده من ربلتي ساقيه لإجباره على الانحناء، ولكن الآخر أفلت كلمة بذيئة وظل واقفاً. بعد خمس عشرة دقيقة من ذلك كان المبنى كله يحترق، ولم يعد التنفس ممكناً في الداخل بسبب القنابل والدخان. كان خايمي يزحف بين الأثاث المهشم وقطع من السقف التي تتساقط حوله مثل مطر قاتل، كان

يحاول مساعدة الجرحى، ولكنه لم يستطيع أن يقدم ما هو أكثر من العزاء وإطباق عيون الموتى. وخلال توقف قصير لإطلاق النار، جمع الرئيس من تبقوا على قيد الحياة وطلب منهم أن يغادروا، لأنه لا يريد شهداء ولا تضحيات غير مجدية، ولأن لهم جميعاً عائلات وعليهم أن يحققوا مهمات كبيرة في ما بعد. وأضاف: «سأطلب هدنة كي تتمكنوا من الخروج». ولكن أياً منهم لم ينسحب. كان البعض يرتجفون، ولكنهم حافظوا في الظاهر على وقارهم. كان القصف قصيراً، ولكنه خلّف القصر أنقاضاً. وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان الحريق قد التهم صالونات القصر القديمة التي استُخدمت منذ العهد الاستعماري، ولم يبق سوى حفنة من الرجال حول الرئيس. دخل العسكريون إلى المبنى واحتلوا كل ما تبقى من الطابق الأرضي. وأعلى من الدوي، سمعوا ضابطاً يأمرهم بصوت هستيري بأن يستسلموا وينزلوا في رتل وأيديهم إلى أعلى. شدّ الرئيس على يد كل واحد منهم، وقال: «سأنزل أنا في المؤخرة». ولم يروه حياً بعدها.

نزل خايمي مع الآخرين. وعلى كل درجة من السلّم الحجري الفسيح كان هناك جنود متأهبون يبدون كمن أصابهم مس من الجنون. كانوا يركلون النازلين ويضربونهم بأعقاب البنادق، يفعلون ذلك بحقد جديد، اختُرع حديثاً، وازهر فيهم خلال ساعات قليلة. وكان بعضهم يطلق الرصاص فوق رؤوس المستسلمين. تلقى خايمي ضربة على بطنه أجبرته على الانحناء، وعندما تمكن من الانتصاب كانت عيناه ممتلئتين بالدموع وبنطاله ملوث ببراز دافئ. واصلوا ضربهم حتى الشارع، وهناك أمروهم بالانبطاح أرضاً، ثم داسوا عليهم وشتموهم إلى أن نفد مخزونهم من البذاءات بالقشتالية، أشاروا عندئذ إلى دبابة. سمعها المعتقلون تقترب، وترج الإسفلت بوزنها الخرتيتي المحصن.

- افسحوا الطريق، سنمر بالدبابة على هؤلاء الأنذال! - صرخ كولونيل.

نظر خايمي إليه من الأرض، وخيل إليه أنه يعرفه، لأنه ذكّره بصبي كان يلعب معه في الماريات الثلاث في صباه. مرت الدبابة تشخر على بُعد عشرة سنتيمترات من رؤوسهم وسط قهقهات الجنود ودوي صفارات

سيارات المطافئ. وفي البعيد كان يُسمع هدير طائرات حربية. وبعد وقت طويل، تم تقسيم المعتقلين إلى جماعات حسب خطاياهم، وكان خايمي مع من أخذوهم إلى وزارة الدفاع التي تحولت إلى ثكنة عسكرية. أجبروه على التقدم منحنياً، كما لو أنه في خندق، ثم اقتادوه عبر قاعة كبيرة ممتلئة برجال عراة، مقيدين في صفوف من عشرة أشخاص، وأيديهم مربوطة وراء ظهورهم، ومضروبين بقسوة لا يستطيع معها بعضهم البقاء واقفاً. كان الدم يسيل خيوطاً على رخام الأرضية. اقتادوا خايمي إلى قاعة مراجل التدفئة، حيث يوجد أشخاص آخرون يقفون مستندين إلى الجدار، يحرسهم جندي شاحب يتمشى وهو يوجه إليهم مسدسه الرشاش. أمضى خايمي هناك وقتاً طويلاً واقفاً دون حراك، يتماسك كمنوم، دون أن يتوصل إلى فهم ما الذي يحدث، معذباً بالصرخات التي تُسمع من خلال الجدار. لاحظ أن الجندي يتأمله. وفجأة أخفض سلاحه واقترب منه.

ـ اجلس لتستريح يا دكتور، وعندما أنبهك انهض واقفاً على الفور ـ قال هامساً وهو يقدم إليه سيجارة مشتعلة ـ حضرتك أجريت عملية جراحية لأمي وأنقذت حياتها.

لم يكن خايمي مدخناً، ولكنه استمتع بالسيجارة وهو يمج منها أنفاساً ببطء. كانت ساعته مهشمة، ولكنه قدّر من خلال الجوع والعطش أن الوقت صار ليلاً. كان منهوكاً ومتضايقاً من بنطاله الملوث إلى حدّ لم يتساءل معه عما سيحدث له. وكان رأسه قد بدأ يترنح من النعاس عندما اقترب الجندي منه.

ـ انهض يا دكتور ـ همس ـ لقد جاؤوا من أجلك. أتمنى لك حظاً سعيداً!.

وبعد لحظة دخل رجلان، قيدا معصميه بأصفاد حديدية واقتاداه إلى ضابط مكلف باستجواب المعتقلين. كان خايمي قد رآه عدة مرات من قبل برفقة الرئيس.

ـ نحن نعرف أنه لا علاقة لك بهذا كله يا دكتور ـ قال ـ نريد منك فقط أن تظهر في التلفزيون وتقول إن الرئيس كان مخموراً وإنه انتحر. وبعد ذلك سأتركك تذهب إلى بيتك.

ـ أعلن ذلك بنفسك. اما أنا فلا تعتمد عليّ أيها القواد ـ أجابه خايمي.

ثبتوه من ذراعيه. وتلقى أول ضربة على معدته. رفعوه عن الأرض، وطرحوه على منضدة، وأحس أنهم يجردونه من ثيابه. وبعد وقت طويل من ذلك أخرجوه فاقداً الوعي من وزارة الدفاع. كان المطر قد بدأ بالهطول، فأنعشته برودة الماء والهواء. واستعاد وعيه عندما أصعدوه إلى حافلة للجيش وتركوه في المقعد الخلفي. ومن خلال الزجاج رأى الليل. وعندما انطلقت السيارة، تمكن من رؤية الشوارع مقفرة والبنايات المزدانة بالأعلام. فأدرك أن الأعداء قد انتصروا، وربما فكر حينئذ بميغيل. توقفت الحافلة في فناء ثكنة عسكرية، وهناك أنزلوه. وجد سجناء آخرين في حالة يرثى لها كحاله. قيّدوا أقدامهم وأيديهم بأسلاك شائكة وطرحوهم على وجوههم في المذاود. وهناك أمضى خايمي والآخرون يومين دون ماء أو غذاء، يتعفنون في فضلاتهم ودمائهم ورعبهم، وبعد ذلك نقلوهم جميعاً في شاحنة إلى موقع قريب من المطار. وفي أرض خلاء هناك، أعدموهم رمياً بالرصاص وهم مطروحين أرضاً، لأنهم كانوا عاجزين عن الوقوف، ثم نسفوا الأجساد بالديناميت. وقد ظل هول الانفجار ونتانة الأشلاء يطفوان في الهواء لزمن طويل.

في بيت الناصية الكبير، فتح السيناتور تروييا زجاجة شمبانيا فرنسية للاحتفال بهزيمة النظام الذي ناضل ضده بضراوة، دون أن يخطر بباله أنهم كانوا، في تلك اللحظة بالذات، يحرقون خصيتي ابنه خايمي بسيجارة مستوردة. علق العجوز العلم على مدخل البيت ولم يخرج للرقص في الشارع لأنه كان أعرج ولأن هناك منعاً للتجوال، إنما لم تكن تنقصه الرغبة في ذلك كما قال لابنته وحفيدته بابتهاج. وفي أثناء ذلك كانت ألبا متعلقة بالهاتف، تحاول الحصول على أخبار عن الناس الذين تشعر بالقلق عليهم: ميغيل، وبيدرو الثالث، وخالها خايمي، وآماندا، وسيباستيان غوميث وآخرين كثيرين.

- الآن سيدفعون الثمن! - هتف السيناتور تروييا وهو يرفع الكأس.

انتزعت ألبا الكأس من يده بحركة خاطفة ورمته نحو الجدار لتتهشم فتاتاً. أما بلانكا التي لم تجرؤ قطّ على مواجهة أبيها، فابتسمت دون موارية.

ـ لن نحتفل بموت الرئيس ولا بموت الآخرين يا جدي! ـ قالت ألبا.

وفي بيوت الحي العالي الفاخرة، فُتحت الزجاجات التي كانت تنتظر منذ ثلاثة أعوام، وشُربت أنخاب النظام الجديد. وفوق الأحياء العمالية الفقيرة حلقت طوال الليل طائرات الهليوكبتر وهي تئز مثل ذبابات من عالم آخر.

وفي وقت متأخر جداً، عند الفجر تقريباً، رن الهاتف. فهرعت ألبا التي لم تكن قد نامت بعد للرد عليه. وبراحة كبيرة سمعت صوت ميغيل.

ـ لقد حان الوقت يا حبي. لا تبحثي عني ولا تنتظريني. أحبك ـ قال.

ـ ميغيل! أريد الذهاب معك! ـ أجهشت ألبا بالبكاء.

ـ لا تكلمي أحداً عني يا ألبا. لا تقابلي الأصدقاء. مزقي كل المفكرات والأوراق وكل ما يمكن أن تكون له علاقة بي. سأحبك دائماً، تذكري ذلك يا حبي ـ قال ميغيل وقطع الاتصال.

استمر حظر التجول يومين كانا أبدية في نظر ألبا. كانت الإذاعات تبث أناشيد عسكرية لا تنتهي، والتلفزيون لا يعرض سوى مشاهد من أرض الوطن وبعض الرسوم المتحركة. ويظهر على الشاشة، عدة مرات في اليوم، جنرالات المجلس العسكري الأربعة، جالسين بين شعار الوطن والعلم لإعلان بياناتهم: إنهم أبطال الوطن الجدد. وعلى الرغم من الأوامر بإطلاق النار على كل من يطل خارج بيته، فقد اجتاز السيناتور تروييا الشارع كي يذهب للاحتفال عند جارٍ له. ولم يلفت صخب الحفلة انتباه الدوريات التي تتجول في الشارع، لأنهم لا ينتظرون أن يواجهوا معارضة في هذا الحي. أعلنت بلانكا أنها مصابة بأسوأ صداع في حياتها وحبست نفسها في حجرتها. وفي الليل، سمعتها ألبا تجول في المطبخ وافترضت أن يكون الجوع قد تغلب على ألم الراس. وقد أمضت هي نفسها يومين تجول في أنحاء البيت في حالة من اليأس، تتفحص الكتب في سرداب خايمي ومكتبه الخاص لتتلف ما تُقدّر أنه قد يورطه. كان ذلك أشبه بتدنيس لمقدسات، وكانت واثقة من أن خالها سيغضب حين يعود وسيسحب ثقته بها. وقد اتلفت كذلك الدفاتر التي تتضمن أرقام هواتف الأصدقاء، وأثمن رسائلها الغرامية، وحتى صور ميغيل نفسه. أما الخدم الذين كانوا

غير مبالين وضجرين، فشغلوا أنفسهم خلال حظر التجوال في صنع الفطائر، باستثناء الطاهية التي لم تتوقف عن البكاء، وتنتظر بلهفة لحظة التمكن من الذهاب لرؤية زوجها الذي لم تستطع الاتصال به.

وعندما رُفع حظر الخروج بضع ساعات، لمنح الناس فرصة شراء المؤن، تأكدت بلانكا بذهول من أن المتاجر مترعة بالسلع التي ظلت نادرة خلال ثلاثة أعوام وبدا كما لو أنها ظهرت بفعل السحر في الواجهات. رأت أكواماً مكدسة من الفراريج واستطاعت شراء كل ما رغبت في شرائه، على الرغم من أن سعرها تضاعف ثلاثة أضعاف، إذ أُطلقت حرية الأسعار. ولاحظت أن أشخاصاً كثيرين ينظرون بفضول إلى الفراريج، كما لو أنهم لم يروها قط، ولكن قله منهم يشترون، لأنهم لا يستطيعون دفع الثمن. بعد ثلاثة أيام من ذلك، ملأت نتانة اللحم المتعفن متاجر المدينة.

كان الجنود العصبيون يقومون بدورياتهم في الشوارع، يحييهم أناس كثيرون ممن رغبوا في إسقاط الحكومة. وكان بعضهم، وقد شجعتهم ممارسة العنف في تلك الأيام، يعتقلون الرجال ذوي الشعور الطويلة أو اللحى، وهما علامتان مؤكدتان على روح التمرد، ويوقفون في الشارع النساء اللاتي يرتدين بناطيل ليقصوا سيقانها بالمقصات، لأنهم يشعرون بمسؤوليتهم في فرض النظام، والأخلاق، والاحتشام. وقد أعلنت السلطات الجديدة أن لا علاقة لها بمثل تلك التصرفات، وأنها لم تصدر أية أوامر بقص اللحى أو البناطيل، وأنه ربما يكون من يفعلون ذلك شيوعيون متنكرون بزي الجنود للحط من هيبة القوات المسلحة وجعلها مكروهة في نظر المواطنين، وأن اللحى والبناطيل غير محظورة، ولكنهم يفضلون بالطبع أن يتجول الرجال بذقون حليقة وشعور قصيرة، والنساء بتنانير.

انتشر الخبر بأن الرئيس قد مات، ولم يصدق أحد الرواية الرسمية عن أنه قد انتحر.

انتظرتُ إلى أن عادت الأوضاع إلى طبيعتها بعض الشيء. وبعد ثلاثة أيام من التحرك العسكري، توجهت بالسيارة المخصصة لي كعضو كونغرس إلى وزارة الدفاع، مستغرباً أنهم لم يدعوني للمشاركة في

الحكومة الجديدة. فالجميع يعرفون أني كنت العدو الأول للماركسيين، وأول من عارض دكتاتورية الشيوعية وتجرأ على الحيلولة دون وقوع البلاد في براثن اليسار. فضلاً عن أنني من أجريتُ معظم الاتصالات مع القيادة العسكرية، ومن رتبتُ العلاقة مع الأمريكيين، ووظفت اسمي وأموالي لشراء الأسلحة. وكنت، باختصار، من جازف أكثر من الجميع. وفي هذه السن التي بلغتها، لم تعد السلطة السياسية تهمني في شيء. ولكنني من القلة التي يمكنها أن تساعدهم وتنصحهم، لأني أمضيتُ زمناً طويلاً في شغل المناصب، وأعرف خيراً من الجميع ما يناسب هذه البلاد. فمن دون مستشارين مخلصين ونزيهين وأكفاء، ما الذي يستطيع عمله بضعة كولونيلات مرتجلين؟ مجرد فظاظات. أو أن يخدعهم بعض الماكرين ممن يستغلون الظروف للإثراء، مثلما يحدث الآن في الواقع. في ذلك الوقت لم يكن هناك من يعرف أن الأمور ستصير إلى ما آلت إليه. كنا نظن أن التدخل العسكري لن يكون سوى خطوة ضرورية من أجل العودة إلى ديمقراطية صحية، ولهذا بدا لي من الضروري أن أتعاون مع السلطات.

عندما وصلتُ إلى وزارة الدفاع فوجئتُ برؤية المبنى وقد تحول إلى مزبلة. كان المجندون ينظفون الأرضيات بمماسح. رأيتُ بعض الجدران مثقوبة بالرصاص، وعسكريين يركضون منحنين في كل الاتجاهات، كما لو أنهم في ميدان معركة حقاً أو ينتظرون أن ينقض عليهم الأعداء من السقف. كان عليّ أن أنتظر ثلاث ساعات كي يستقبلني ضابط. ظننت في البدء أنهم لم يتعرفوا عليّ في تلك الفوضى، ولهذا يعاملونني بغير قليل من عدم المبالاة، ولكنني فهمت كيف هي الأمور في ما بعد. استقبلني الضابط وهو يرفع جزمته فوق منضدة المكتب، وكان يمضغ سندويتشاً دهنياً، وذقنه غير حليقة، وسترته مفتوحة الأزرار. لم يمنحني وقتاً للسؤال عن ابني خايمي وتهنئته على العمل الشجاع الذي أقدم عليه الجنود لإنقاذ الوطن، وإنما بادر إلى طلب مفاتيح السيارة بحجة أن الكونغرس قد أغلق، وانتهت بالتالي الامتيازات الممنوحة للسيناتورات. فوجئتُ بكلامه. وتبين لي بجلاء عندئذ أنه لا نية لديهم في إعادة فتح أبواب الكونغرس مثلما كنا نأمل جميعنا. طلب مني، بل أمرني، بأن أكون في الساعة

الحادية عشرة من صباح يوم الغد في الكاتدرائية، لحضور قداس الشكر الذي سيحمد به الوطنُ الربَ على الانتصار الذي تحقق على الشيوعية.

- هل صحيح أن الرئيس قد انتحر؟ - سألته.

- لقد مضى - أجابني.

- مضى؟ إلى أين؟

- مضى في الدمّ - وضحك الآخر.

خرجتُ إلى الشارع مشوشاً، ومستنداً إلى ذراع سائقي. لم تكن لدينا وسيلة للعودة إلى البيت، لأنه لم تكن هناك سيارات أجرة أو حافلات في الشوارع، ولم أكن في سن تتيح لي المشي. ولحسن الحظ أنه تصادف مرور سيارة جيب تابعة لقوات الدرك، وقد تعرفوا إليّ. فمن السهل تمييزي كما تقول حفيدتي ألبا، لأن لي مظهر غراب عجوز نزق وأمضي على الدوام بملابس الحداد، وبعكازي الفضي.

- اصعد أيها السيناتور - قال لي ملازم في السيارة.

ساعدونا في الصعود إلى السيارة. كان التعب بادياً على رجال الدرك وبدا واضحاً أنهم لم يناموا. وقد أكدوا لي أنهم يقومون بأعمال الدورية في المدينة منذ ثلاثة أيام، ويظلون مستيقظين بالقهوة الثقيلة والأقراص.

- هل واجهتم مقاومة في الضواحي أو الأحزمة الصناعية؟ - سألتهم.

- مقاومة قليلة جداً. الناس هادئون - قال الملازم -. وآمل أن يصبح الوضع طبيعياً عما قريب أيها السيناتور. لا يروق لنا هذا، إنه عمل قذر.

- لا تقل هذا الكلام يا رجل. لو لم تبادروا أنتم لقام الشيوعيون بالانقلاب، ولكنتَ أنت، وأنا وخمسون ألف شخص آخر في عداد الموتى. أنت تعرف أنه كانت لديهم خطة لفرض دكتاتوريتهم، أليس كذلك؟

- هذا ما قيل لنا. ولكن هناك معتقلون كثيرون من الحي الهامشي الذي أعيش فيه. وجيراني ينظرون إليّ باستياء. والشباب هنا يحدث لهم الشيء نفسه. ولكن علينا تنفيذ الأوامر. فالوطن أولاً، أليس صحيحاً؟

- أجل. أنا أيضاً أشعر بالأسف لما يجري أيها الملازم. ولكن لم يكن هناك حلّ آخر. لقد كان النظام متعفناً. وما الذي كان يمكن أن يحلّ بالبلاد لو لم تمتشقوا السلاح؟

ومع ذلك، لم أكن متأكداً في أعماقي تماماً مما أقوله. كانت لدي هواجس بأن الأمور لا تمضي بالطريقة التي خططنا لها وأن الوضع آخذ بالإفلات من أيدينا، ولكنني أسكتُّ مخاوفي في تلك اللحظة متعللاً بأن ثلاثة أيام هي وقت قصير لإعادة النظام إلى البلاد، وربما كان ذلك الضابط الفظ الذي استقبلني في وزارة الدفاع يمثل أقلية ليست ذات معنى ضمن القوات المسلحة. فالأكثرية هي مثل هذا الملازم المتحرج الذي أوصلني إلى البيت. افترضت أن النظام سيستقر بعد بعض الوقت، وعندما يهدأ توتر الأيام الأولى، سأسعى للاتصال بشخص أعلى مرتبة في التراتبية العسكرية. تأسفت لأني لم أتوجه إلى الجنرال هورتادا، ولم أفعل ذلك إلا بسبب الاحترام، وبسبب الكبرياء أيضاً، وأنا أعترف بذلك، لأن الصواب أن يأتي هو إليّ لا أن أذهب أنا إليه.

لم أعلم بموت ابني خايمي إلا بعد أسبوعين، بعد أن تجاوزنا بهجة الانتصار، ونحن نرى الجميع منهمكين في إحصاء القتلى والمفقودين. وذات يوم أحد، حضر جندي إلى البيت سراً، وأخبر بلانكا في المطبخ بما رآه في وزارة الدفاع وبما يعرفه عن الأجساد التي فجرت بالديناميت.

- لقد أنقذ الدكتور دل بابيه حياة أمي - قال الجندي وهو ينظر إلى الأرض، وخوذة الميدان في يده - ولهذا جئت لأخبركم كيف قتلوه.

استدعتني بلانكا لأسمع ما يقوله الجندي، ولكنني رفضت تصديق ذلك. قلت إن الرجل قد أخطأ، وإن من رآه في قاعة المراجل ليس خايمي، وإنما شخص آخر، لأنه لم يكن لدى خايمي ما يفعله في القصر الرئاسي في يوم التحرك العسكري. كنت واثقاً من أن ابني قد هرب إلى الخارج عبر أحد الممرات الحدودية أو أنه التجأ إلى إحدى السفارات، هذا إذا افترضنا أنهم يلاحقونه. كما أن اسمه، من جهة أخرى، لا يظهر في قوائم المطلوبين للسلطات، وهكذا استنتجتُ أنه ليس لدى خايمي ما يخشاه.

كان لا بد من انقضاء زمن طويل، عدة شهور في الواقع، كي أدرك أن الجندي قد أخبرنا بالحقيقة. وفي هذيانات الوحدة، كنت أنتظر ابني وأنا جالس على أريكة المكتبة، وعيناي مسمرتان على عتبة الباب، أستدعيه بتفكيري، مثلما كنت أستدعي كلارا. لقد استدعيته كثيراً،

حتى إني توصلتُ في النهاية إلى رؤيته، ولكنه ظهر لي مغطى بدم متيبس وأسمال ممزقة. هكذا عرفتُ أنه قد مات بالطريقة التي أخبرنا بها الجندي. عندئذ فقط بدأت أتكلم عن الاستبداد. أما حفيدتي ألبا بالمقابل، فقد رأت طيف الدكتاتور قبلي بوقت طويل. رأته يبرز بين الجنرالات وأناس الحرب. تعرفت عليه فوراً، لأنها ورثت قدرة الحدس عن كلارا. إنه رجل فظ وذو مظهر بسيط، قليل الكلام مثل فلاح. كان يبدو متواضعاً، وقلة هم الذين يمكن لهم أن يخمنوا أنهم سيرونه يتوشح ذات يوم بعباءة إمبراطور، ويرفع ذراعاه عالياً ليُسكت الجموع التي تُنقل في شاحنات لتحييه، بينما شاربه المهيب يترتعش زهواً وتيهاً، وهو يفتتح نصب السيوف الأربعة الذي تعلوه شعلة أبدية تضيء مقدرات الوطن، ولكن، بسبب خطأ من التقنيين الأجانب، لم يرتفع في أعلى النصب لهب أي شعلة قط، وإنما دخان مطبخي كثيف ظل يطفو في السماء كعاصفة دائمة من أجواء أخرى.

بدأتُ التفكير في أنني أخطأت التصرف، وأنه ربما لم تكن تلك الطريقة هي الحل الأفضل لإلحاق الهزيمة بالماركسية. كنت أشعر بالوحدة أكثر فأكثر، لأن أحداً لم يعد بحاجة إليّ، وفقدتُ ابنيَّ وصارت كلارا، بنزوات صمتها وسهوها، تبدو شبحاً. وحتى ألبا أخذت تبتعد عني أكثر كل يوم. أكاد لا أراها في البيت. تمرُّ بجانبي مثل هبة ريح، بتنانيرها القطنية المجعدة الطويلة والمريعة، وشعرها الأخضر غير المعقول، الشبيه بشعر روسا، وتبدو مشغولة على الدوام بمهمات غامضة تنفذها بالتواطؤ مع جدتها. إنني متأكد من أنهما تحيكان أسراراً معاً. فحفيدتي مشغولة على الدوام، مثلها مثل كلارا في أزمنة التيفوس، عندما ألقت على كاهلها أثقال الألم البشري.

لم تجد ألبا ما يكفي من الوقت للتحسر على موت خالها خايمي، لأنها انغمست فوراً في تقديم مساعدات ملحة للمحتاجين، واضطرت إلى تخزين ألمها كي تعانيه فيما بعد. ولم تعد إلى رؤية ميغيل إلا بعد شهرين من الانقلاب العسكري، وكانت قد توصلت إلى الاعتقاد بأنه قد مات

أيضاً. ولم تبحث عنه مع ذلك، إذ كانت لديها من هذه الناحية تعليمات محددة منه، فضلاً عن أنها سمعت أن استُدعي في قوائم من يتوجب عليهم المثول أمام السلطات. وقد منحها ذلك أملاً، واستنتجت «ماداموا يبحثون عنه، فلا بد أنه حي». كانت تعذبها فكرة أن يتمكنوا من إلقاء القبض عليه حياً، فتستحضر جدتها لتطلب منها عدم حدوث ذلك، وتتوسل إليها «أُفضل ألف مرة أن أراه ميتاً يا جدتي». كانت تعرف ما الذي يحدث في البلاد، ولهذا كانت تعاني ليل نهار من تشنجات في معدتها، ورجفة في يديها، وعندما تعلم بمصير أحد السجناء، تغطي بثورٌ بدنها من القدمين حتى الراس، كموبوءة. ولكنها لا تستطيع التحدث في تلك الأمور مع أحد، ولا حتى مع جدتها، لأن الناس يفضلون عدم معرفة ذلك.

بعد ذلك الثلاثاء الرهيب، تبدل العالم تبدلاً فظيعاً بالنسبة لألبا. كان عليها أن تشحذ حواسها كي تواصل العيش. وتوجب عليها أن تعتاد على فكرة أنها لن تعود لرؤية أكثر من أحبتهم، خالها خايمي، وميغيل، وآخرين كثيرين. كانت تُحَمِّل جدها مسؤولية ما حدث، ولكنها بعد ذلك، حين تراه منزوياً على مقعده، ينادي كلارا وابنه في تمتمة غير متناهية، تستعيد كل محبتها للعجوز وتركض لمعانقته، لتقبيل أصابعه، لمداعبة شعره الأبيض ومواساته. كانت ألبا تشعر أن الأشياء كلها من زجاج، هشة كما التنهدات، وأن رشاشات وقنابل ذلك الثلاثاء الذي لا يُنسى قد حطمت شطراً كبيراً مما تعرفه، وأن الشطر المتبقي قد تحول إلى نتفٍ ممزقة يلطخها الدم. ومع مرور الأيام، والأسابيع، والشهور، راحت تظهر أمارات التردي أيضاً على ما بدا في البدء أنه نجا من الدمار. لاحظت أن الأصدقاء والأقارب يتجنبونها، وأن بعضهم يقطع الشارع إلى الجهة الأخرى كيلا يسلموا عليها أو يديرون وجوههم حين يقتربون منها. وفكرت في أن خبر مساعدتها للملاحقين قد انتشر.

وهكذا كان. فمنذ الأيام الأولى تمثلت أشد الأمور إلحاحاً في تأمين مأوى لمن يتعرضون لخطر الموت. وقد بدا ذلك لألبا في البداية عملاً مسلياً تقريباً، يُبقي تفكيرها مشغولاً في أشياء أخرى، فلا تفكر في ميغيل، ولكنها سرعان ما تبينت أن المسألة ليست لعبة. فقد نبهت البلاغات

العسكرية المواطنين إلى أنه عليهم الوشاية بالماركسيين وتسليم الهاربين، وإلا سيُعتبرون خونة للوطن ويحاكمون بهذه التهمة. استعادت ألبا بأعجوبة سيارة خايمي التي نجت من القصف وظلت متوقفة طوال أسبوع في الساحة حيث تركها هو نفسه، إلى أن علمت ألبا بذلك وذهبت بحثاً عنها. رسمت زهرتي عباد شمس كبيرتين صفراوين على بابيّ السيارة كي تتميز عن سيارات أخرى وتُسهّل عليها مهمتها الجديدة. كان عليها أن تحفظ في ذاكرتها مواقع كافة السفارات، ومواعيد تبديل ورديات الدرك التي تحرسها، وارتفاع أسوارها، وعرض بواباتها. وكان الإشعار بأن هناك من يتوجب توفير اللجوء له يأتي فجأة، وغالباً ما يصلها عبر شخص مجهول يقترب منها في الشارع، وتتوقع أن يكون ميغيل هو من أرسله. وكانت تذهب إلى المكان المحدد في وضح النهار، وعندما ترى أحدهم يومئ إليها، وقد عرفها من الزهرتين الصفراوين المرسومتين على سيارتها، تتوقف قليلاً كي يصعد بأقصى سرعة. وخلال الطريق لا يتبادلان الحديث، لأنها تفضل ألا تعرف حتى اسمه. ويكون عليها في بعض الأحيان أن تقضي النهار كله معه، وحتى إخفائه ليلة أو ليلتين، قبل أن تجد اللحظة المناسبة لإدخاله إلى إحدى السفارات المتاحة، بالقفز عن السور من وراء ظهر الحراس. وكان هذا الأسلوب أكثر سرعة من إجراء معاملات مطولة مع سفراء ديمقراطيات أجنبية هيابين. ولا تعود بعد ذلك إلى معرفة أي شيء عن اللاجئ، ولكنها تحتفظ إلى الأبد بشكره المرتجف لها، وعندما ينتهي كل شيء تتنفس الصعداء لأنها نجت في هذه المرة. وقد اضطرت في بعض الأحيان إلى التعامل مع نساء لا يردن الانفصال عن أبنائهن، وعلى الرغم من تأكيد ألبا لهن بأنها ستوصل الصغار عبر البوابة الرئيسية، لأنه لا يمكن لأشد السفراء خوفاً أن يعترض على دخولهم، ولكن الأمهات يرفضن ترك أبناءهن، فلا تجد مفراً عندئذ من رمي الأطفال من فوق السور أو تمريرهم من بين قضبان السياج. وبعد قليل أحيطت السفارات كلها بأسلاك شائكة ومسدسات رشاشة، وصار من المستحيل مواصلة اقتحامها، ولكنها ظلت مشغولة بواجبات ضرورية أخرى.

آماندا هي التي وضعتها على اتصال مع الكهنة. كانت الصديقتان

تلتقيان لتبادل الحديث همساً عن ميفيل الذي لم يعد أحد يراه، وللتحدث عن خايمي بحنين ودون دموع، لأنه لم يكن هناك دليل رسمي على موته، وكانت رغبة كليهما في العودة لرؤيته أقوى من قصة الجندي. كانت آماندا قد عادت إلى التدخين قسراً، وبدأت يداها ترتجفان كثيراً وبصرها يزيغ. وفي بعض الأحيان كانت حدقتاها تتوسعان وتتحرك بتثاقل، ولكنها واصلت العمل في المستشفى. وقد أخبرتها بأنها تعالج في أحيان كثيرة أناساً يؤتى بهم وقد أغمي عليهم من الجوع.

- عائلات المعتقلين والمختفين والقتلى لا يجدون ما يأكلونه. والعاطلون عن العمل كذلك. يكادون لا يحصلون على أكثر من طبق عصيدة كل يومين. والأطفال ينامون منهوكين في المدارس بسبب سوء التغذية. وأضافت أن كأس الحليب وقطع البسكويت التي كان يتلقاها جميع التلاميذ يومياً، قد أوقفت، والأمهات يُسكتن جوع أبنائهن بماء الشاي.

- الوحيدون الذين يفعلون شيئاً للمساعدة هم الكهنة - أوضحت آماندا - الآخرون لا يريدون أن يعرفوا الحقيقة. أما الكنيسة فنظمت قاعات طعام لتقديم طبق طعام يومي، ستة أيام في الأسبوع، لمن هم دون السابعة من العمر. هذا غير كافٍ بالطبع. ولكن مقابل كل طفل يأكل طبق عدس أو بطاطا في اليوم، هناك خمسة أطفال يظلون في الخارج ينظرون، لأنه لا يوجد ما يكفي الجميع.

أدركت ألبا أنها تراجعت إلى الزمن القديم، عندما كانت جدتها كلارا تذهب إلى حي الإحسان لتستبدل العدالة بالصدقات. والفرق الوحيد هو أن النظرة إلى الإحسان صارت مشبوهة الآن. فقد ثبت لها أنها عندما تلجأ إلى بيوت الأصدقاء لتطلب عبوة رز أو علبه مسحوق حليب، لا يجرؤون على الرفض في المرة الأولى، ولكنهم يتجنبونها بعد ذلك. لقد ساعدتها بلانكا في البدء. ولم تجد ألبا صعوبة في الحصول على مفتاح مستودع مؤن أمها، بحجة أنه لا حاجة إلى احتكار دقيق عادي وفاصوليا فقراء، مادام بالإمكان أكل قشريات من بحر البلطيق، وشكولاته سويسرية، وزودت بما حصلت عليه مطاعم الكهنة لوقت بدا لها قصيراً على اي حال. وفي أحد الأيام أخذت أمها إلى إحدى قاعات الطعام تلك.

وحين رأت بلانكا المنضدة الطويلة المصنوعة من خشب خشن، حيث يجلس صفان من الأطفال بعيون متوسلة ينتظرون أن تقدم إليهم وجبتهم، اجهشت بالبكاء، ثم أمضت يومين طريحة الفراش من شدة الصداع. وكانت ستظل تتحسر لو لم تجبرها ابنتها على ارتداء ملابسها، ونسيان نفسها قليلاً والسعي للحصول على مساعدة، حتى ولو فعلت ذلك بسرقة الجد من خلال الميزانية العائلية. لم يشأ السيناتور تروييا سماع شيء عن الموضوع، مثلما يفعل الناس الذين من طبقته، وأنكر وجود الجوع بالعناد نفسه الذي كان ينكر به وجود السجناء ومن يتعرضون للتعذيب، وهكذا رأت ألبا أنه لا يمكنها الاعتماد عليه، وفيما بعد، عندما لم تستطع الاعتماد على أمها أيضاً، كان عليها أن تلجأ إلى أساليب أكثر فعالية. فأبعد مكان يصل إليه الجد هو النادي. ولكنه لا يذهب إلى مركز المدينة، وأقل من ذلك اقترابه من الضواحي أو الأحياء العمالية. ولهذا لم يجد صعوبة في الاعتقاد بأن ما ترويه حفيدته ما هو إلا افتراءات يلفقها الماركسيون. وصاح قائلاً:

- كهنة شيوعيون! هذا آخر ما كان ينقصني سماعه!

ولكن عندما بدأ الأطفال والنساء يصلون في كل وقت إلى أبواب البيوت للتسول، لم يأمر بإغلاق البوابات الحديدية والنوافذ كيلا يراهم، مثلما فعل الآخرون، بل زاد النفقات الشهرية التي يعطيها لبلانكا وطلب أن يكون هناك شيء من الطعام الساخن لتقديمه للمتسولين.

- هذا وضع مؤقت - كان يؤكد -. وفور انتهاء العسكريين من تنظيم الفوضى التي خلّفها الماركسيون في البلاد، سيتم حلّ هذه المشكلة.

وقالت الصحف إن متسولي الشوارع الذين اختفوا ولم يعد يراهم أحد منذ سنوات عديدة، ترسلهم الآن الشيوعية العالمية للحط من سمعة المجلس العسكري وتخريب النظام والتقدم. ووُضعت حواجز ملونة لاخفاء الأحياء الهامشية عن عيون السياح ومن لا يرغبون في الرؤية. وفي إحدى الليالي انبثقت بقدرة السحر حدائق مشذبة وأزهار متفتحة في الشوارع، زرعها العاطلون عن العمل لخلق الوهم بربيع آمن. وطلوا الجدران بالأبيض لمحو جداريات الحمائم، وأزيحت الملصقات السياسية من تحت الأنظار إلى

الأبد. وكانت أي محاولة لكتابة شعارات سياسية في الطريق العام تُعَرِّض مقترفها للحكم عليه برشقة رشاش في عين المكان. وفتحت الشوارع النظيفة والمرتبة والصامتة للتجارة. وبعد وقت قصير اختفى الأطفال المتسولون من الشوارع، ولاحظت أليا كذلك أنه لم تعد هناك كلاب في الشوارع ولا صفائح قمامة. وانتهت السوق السوداء منذ اللحظة نفسها التي قصفوا فيها قصر الرئاسة، لأن المضاربين هُدِّدوا بالقانون العرفي والرمي بالرصاص. وبدأت المتاجر تبيع أشياء لا يعرف الناس أسماءها، وأشياء أخرى لم يكن يحصل عليها سوى الأثرياء عن طريق التهريب. لم تكن المدينة قط أجمل مما بدت عليه آنذاك. ولم تكن البرجوازية الراقية قطّ أسعد مما هي عليه: صار بإمكانها شراء الويسكي بكثرة، وشراء السيارات بالتقسيط.

وفي حماسة الأيام الأولى الوطنية، أهدت النساء مجوهراتهن في الثكنات من أجل الإعمار الوطني، وقدمنَ حتى خواتم زفافهن، واستبدلنها بخواتم من النحاس تحمل شعار الوطن. فاضطرت بلانكا إلى أن تخبئ جراب الصوف الذي يضم المجوهرات التي أورثتها إياها كلارا، كيلا يسلمها السيناتور تروييا إلى السلطات. وشهدوا ظهور طبقة اجتماعية جديدة متعجرفة. سيدات بارزات جداً يرتدين ملابس غريبة مجلوبة من أمكنة أخرى، تلمع كالحباحب في الليل، يتبخترن في مراكز اللهو متأبطات أذرع الاقتصاديين الجدد المتكبرين. وبرزت فئة من العسكريين احتلت بأقصى سرعة المناصب المفصلية. والعائلات التي كانت تعتبر وجود عسكري بين أفرادها نكبة عائلية، صارت تتنافس في استخدام النفوذ لإدخال أبنائها إلى الأكاديميات الحربية، ويعرضن بناتهن على الجنود. امتلأت البلاد بالزي العسكري، وآلات الحرب، والرايات، والأناشيد والاستعراضات العسكرية، لأن العسكريين يعرفون حاجة الشعب إلى رموزهم وطقوسهم الخاصة. والسيناتور تروييا الذي كان يمقت، من حيث المبدأ هذه الأمور، أدرك ما الذي كان يعنيه أصدقاؤه في النادي عندما يؤكدون أنه لا يتوافر للماركسية أدنى فرصة في أميركا اللاتينية، لأنها لا تلحظ الجانب السحري في الأمور. «خبز وسيرك وشيء

يُوَقِّر، هذا كل ما يحتاجه الشعب»، انتهى السيناتور تروبيا إلى القول في نفسه وهو متأسف في أعماقه لافتقاد الخبز.

نُظمت حملة مكرسة لمحو اسم الرئيس السابق وسمعته الطيبة عن وجه الأرض، على أمل أن يتوقف الشعب عن بكائه. فتحوا بيته ودعوا الشعب لزيارة ما أسموه «قصر الدكتاتور». وكان بالإمكان رؤية خزائنه والتعجب من عدد ونوعية السترات المصنوعة من جلود الغزلان، وتفتيش أدراجه، والعبث بمستوع مؤونته لرؤية زجاجات الروم الكوبي وكيس السكر الذي يخبئه. وجرى تداول صور مركبة ببدائية تُظهره بزي «باكو»، على رأسه عنقود عنب، يتقلب مع عاهرات ممتلئات ورياضيين من جنسه بالذات، في حفلة مجون دائم لم يستطع أحد تصديق صحتها، بمن في ذلك السيناتور نفسه الذي همهم حين سمع بذلك: «هذا كثير، إنهم يتجاوزون الحد».

وبجرة قلم، بدّل العسكريون التاريخ، فشطبوا الأحداث، والأيديولوجيات، والشخصيات التي لا يوافق عليها النظام. وأعادوا ترتيب الخرائط، لأنه لا يوجد أي مسوغ لوضع الشمال في الأعلى، بعيداً جداً عن الوطن المفضال، مادام بالإمكان وضعه في الأسفل، حيث يكون أفضل، وعمدوا في طريقهم إلى أن يلونوا باللون الأزرق البروسي امتدادات ساحلية واسعة من المياه الاقليمية تصل حتى حدود آسيا وأفريقيا، واستولوا في كتب الجغرافية على أراضٍ نائية، وأزاحوا الحدود بعيداً جداً دون عقاب، إلى أن فقدت البلدان الشقيقة صبرها، ودبت الصوت في الأمم المتحدة وهددت بأن توجه إليهم دباباتها الحربية وطائراتها المطاردة. وأما الراقابة التي اقتصرت في البدء على وسائل الإعلام، فسرعان ما امتدت إلى المناهج المدرسية، وإلى كلمات الأغاني، وسيناريوهات الأفلام، والأحاديث الخاصة. فكانت هناك كلمات محظورة ببلاغات عسكرية، مثل كلمة «رفيق»، وكلمات أخرى لم يعد هناك من يتفوه بها تحسباً واحتياطاً، على الرغم من أنه لم يصدر أي بلاغ عسكري بحذفها من المعجم، مثل حرية، وعدالة، ونقابة. وكانت ألبا تتساءل من أين خرج كل أولئك الفاشيين بين ليلة وضحاها، لأنه لم يُلحظ قط، في مسيرة

بلادها الديمقراطية، باستثناء بعض المندفعين في زمن الحرب، أن تُلبس قمصان سوداء وتُجرى استعراضات بأذرع مرفوعة، وسط قهقهات الناس وصفير المارة، دون أن يكون لها أي دور مهم في الحياة الوطنية. كما أنها لم تجد تفسيراً لموقف القوات المسلحة التي تتحدر بمعظمها من الطبقة العاملة، والتي كانت تاريخياً أقرب إلى اليسار منها إلى اليمين. ولم تفهم حالة الحرب الداخلية ولم تدرك أن الحرب هي العمل الفني الذي يحققه العسكريون، وأنها ذروة تدريباتهم، والوسام الذهبي لمهنتهم. فهم لم يُخلقوا للتألق في زمن السلم. وقد منحهم الانقلاب الفرصة لممارسة ما تعلموه في الثكنات من طاعة عمياء، واستخدام للأسلحة، وفنون أخرى يمكن للجنود اتقانها عندما تصمت وساوس القلب والضمير.

هجرت ألبا دراستها، لأن كلية الفلسفة، مثل غيرها من الكليات التي تفتح أبواب التفكير، جرى إغلاقها. كما أنها لم تواصل دراسة الموسيقى، لأن الفيولونسيل بدا لها تفاهة في تلك الظروف. وكان أساتذة كثيرون قد صُرفوا من العمل، أو اعتقلوا، أو اختفوا وفق قائمة سوداء تتداولها الشرطة السياسية. فقد قتلوا الأستاذ سيباستيان غوميث في أول حملة تفتيش، بعد أن وشى به تلاميذه بالذات. وامتلأت الجامعة بالجواسيس.

البرجوازية الكبيرة وقوى الاقتصاد اليمينية التي رعت الانقلاب العسكري، كانت مبتهجة جداً. لقد شعرت بقليل من الذعر، في البدء، وهي ترى نتائج أعمالها، لأنها لم تعش في ظل دكتاتورية من قبل، ولم تكن تعرف ما هي الدكتاتورية. وظنت في أن غياب الديمقراطية سيكون عابراً وأنه يمكن العيش لبعض الوقت دون حريات فردية أو جماعية، مادام النظام يحترم حرية الشركات. كما أنها لم تول اهتماماً لانحطاط السمعة العالمية التي وضعتها على قدم المساواة مع حكومات استبدادية أخرى في القارة، لأن ذلك بدا ثمناً بخساً مقابل هزيمة الماركسية. وعندما وصلت رؤوس أموال أجنبية للاستثمار في مصارف البلاد، عزت ذلك، طبعاً، إلى استقرار النظام الجديد، متجاهلة واقع أن كل بيزو يدخل البلاد يُخرج مقابله بيزوين اثنين كفوائد. وعندما راحت

الصناعات الوطنية تغلق أبوابها شيئاً فشيئاً. وبدأ التجار يفلسون مهزومين أمام الاستيراد المكثف للمواد الاستهلاكية، قالت إن أدوات المطبخ البرازيلية والأقمشة التايوانية والدراجات النارية اليابانية أفضل من أي شيء صُنع في البلاد. ولكن عندما أُعيدت امتيازات استثمار المناجم إلى الشركات الأمريكية الشمالية، بعد ثلاث سنوات من التأميم، لمحت بعض الأصوات إلى أن ذلك أشبه بتقديم الوطن كهدية ملفوفة بورق سيلوفان. وعندما بدأت إعادة تسليم أراضي الإصلاح الزراعي إلى مالكيها القدماء، اطمأن هؤلاء: فقد عادوا إلى الأزمنة الطيبة. ورأوا أن الدكتاتورية وحدها هي القادرة على التصرف بكل قوة، دون أن تكون مضطرة إلى تقديم الحساب أمام أحد، لتضمن لهم امتيازاتهم، وهكذا توقفوا عن التكلم في السياسة وتقبلوا فكرة أنهم هم من سيمسكون بالسلطة الاقتصادية، بينما يتولى العسكريون الحكم. تمثلت مهمة اليمين الوحيدة في النصح والمساعدة في صياغة مراسم وقوانين جديدة. وخلال أيام قليلة ألغوا النقابات، وكان القادة العماليون معتقلين أو مقتولين، وأُعلن تعطيل الأحزاب السياسية إلى أجل غير مسمى، وحُلّت كافة المنظمات العمالية والطلابية، وكذلك الجمعيات المهنية. وحُظرت التجمعات. والمكان الوحيد الذي كان بإمكان الناس الاجتماع فيه هو الكنيسة، وهكذا تحول التدين إلى موضة رائجة خلال وقت قصير، فاضطر الكهنة والراهبات إلى تأجيل مهماتهم الروحية من أجل تلبية احتياجات ذلك القطيع الضائع الدنيوية. فبدأت الحكومة ورجال الأعمال ينظرون إليهم كأعداء كامنين، وحلم بعضهم بحلّ المشكلة باغتيال الكردينال، لاسيما وأن البابا رفض، من روما، سحبه من منصبه وإرساله إلى ملجأ للرهبان المختلين عقلياً.

وابتهج قسم كبير من الطبقة الوسطى بالانقلاب العسكري، لأنه يعني العودة إلى النظام، إلى العادات الحسنة، وإلى النساء بالتنانير والرجال بشعور قصيرة، ولكنهم سرعان ما بدؤوا معاناة عذاب ارتفاع الأسعار وتضاؤل فرص العمل. ولم تعد الأجور تكفي لتوفير الطعام. وفي كل الأسر كان هناك من يتحسر، ولم يعد بإمكانهم أن يقولوا، مثلما كانوا يقولون في البدء، إن من يُعتقل أو يقتل أو يهرب إلى المنفى، إنما

يحدث له ذلك لأنه يستحقه. كما أنهم لم يستطيعوا مواصلة إنكار وجود التعذيب.

وبينما كانت تزدهر تجارة المواد الفاخرة، وريعية الأموال الإعجازية، والمطاعم الاكزوتيكية، وشركات الاستيراد، كانت تقف أمام المصانع صفوف العاطلين عن العمل بانتظار فرصة للعمل بأدنى حدّ من الأجور. لقد هبطت قيمة اليد العاملة إلى مستويات العبودية وتمكن أرباب العمل، للمرة الأولى منذ عقود طويلة، من تسريح العمال على هواهم، دون دفع تعويضات لهم، وزجهم في السجون لدى أدنى احتجاج.

خلال الشهور الأولى، شارك السيناتور تروييا في انتهازية من هم من طبقته. كان مقتنعاً بانه لا بد من فترة دكتاتورية كي تعود البلاد إلى السكة التي ما كان عليها أن تخرج منها. وكان أول إقطاعي يستعيد أملاكه. أعادوا إليه الماريات الثلاث خراباً، ولكنها كاملة، حتى آخر متر مربع منها. لقد انتظر تلك اللحظة منذ ما يقرب من سنتين، كان في أثنائها يجتر غضبه. ودون أن يفكر في الأمر مرتين، ذهب إلى الريف مع ستة من القتلة المأجورين واستطاع أن ينتقم على هواه من الفلاحين الذين تجرؤوا على تحديه وانتزاع أملاكه. وصلوا إلى هناك في صباح يوم أحد مشرق، قبل قليل من عيد الميلاد. دخلوا إلى الإقطاعية بجلبة قراصنة. اندفع القتلة في كل الأنحاء، واقتادوا الناس بالصراخ والضرب والركل، وجمعوا البشر والبهائم في الفناء، ثم رشوا البنزين على بيوت الآجر التي كانت من قبل مصدر فخر تروييا، وأضرموا فيها النار بكل محتوياتها. قتلوا الحيوانات بالرصاص. أحرقوا المحاريث، وحظائر الدجاج، والدراجات، وحتى مهود حديثي الولادة، في ما يشبه اجتماع سحرة أشرار في الظهيرة كاد أن يودي بحياة العجوز تروييا من البهجة. ثم طرد جميع الفلاحين بعد تحذيرهم من أنه إذا ما رآهم يحومون حول أملاكه فسوف يلقون المصير نفسه الذي لقيته البهائم. رآهم يرحلون وهم أشد فقراً مما كانوا عليه في أي وقت آخر، في موكب طويل وكئيب، حاملين أطفالهم وشيوخهم، والكلاب القليلة التي نجت من الرصاص، ودجاجة أو اثنتين أنقذتا من الجحيم، يجرجرون أقدامهم على الدرب

الترابي الذي راح يبعدهم عن الأرض التي عاشوا فيها لأجيال. وعند بوابة الماريات الثلاثة كانت تقف جماعة من البائسين تنتظر متلهفة. إنهم فلاحون آخرون عاطلين، طُردوا من إقطاعيات أخرى، جاؤوا بتذلل مثل أسلافهم منذ قرون، ليتوسلوا إلى السيد أن يستخدمهم في الموسم القادم.

في تلك الليلة استلقى إستيبان تروبيا في السرير الحديدي الذي ورثه عن أبويه، في بيت الإقطاعية الذي لم يأت إليه منذ زمن طويل. كان متعباً، وكانت تلتصق بأنفه رائحة الحريق وجيف الحيوانات التي اضطروا إلى إحراقها أيضاً كيلا تملأ النتانة الهواء. كانت بيوت الآجر لا تزال تحترق. ولكنه كان يعرف أنه قادر على إعادة النهوض بالريف، مثلما فعل ذلك مرة من قبل، فالحقول مازالت سليمة وكذلك قواه. وعلى الرغم من سعادته بالانتقام، إلا أنه لم يستطع النوم. كان يشعر كما لو أنه أب عاقب أبناءه بصرامة مفرطة. ظل طيلة ذلك الليل يرى وجوه الفلاحين الذين رآهم يولدون في ملكيته، وهم يبتعدون على الطريق. لعن سوء طباعه. ولم يستطع النوم أيضاً طيلة ذلك الأسبوع، وعندما تمكن من النوم، حلم بروسا. قرر ألا يخبر أحداً بما فعله، وأقسم أن تعود الماريات الثلاث لتكون الإقطاعية النموذجية التي كانت عليها ذات يوم. أطلق الخبر بأنه مستعد لقبول عودة المزارعين، مع بعض الشروط بالطبع، ولكن أياً منهم لم يرجع. كانوا قد تفرقوا في الأرياف، والجبال، والساحل، وذهب بعضهم مشياً إلى المناجم، وآخرون إلى جزر الجنوب، وكل منهم يبحث عن الخبز لأسرته في أي مهنة يجدها. وأخيراً رجع السيد المالك إلى العاصمة قرفاً، وكان يشعر بأنه أكثر شيخوخة من أي وقت مضى. فقد كانت روحه تعذبه.

احتضر الشاعر في بيته بجوار البحر. كان مريضاً وجاءت أحداث الفترة الأخيرة لتستنفد رغبته في مواصلة العيش. حاصرت قوات الجيش بيته، قلبوا مجموعة حلزوناته وقواقعه، فراشاته وقواريره، وتماثيل مقدمات السفن المستخرجة من بحار كثيرة، وكتبه، ولوحاته، وقصائده غير المنتهية، باحثين عن أسلحة هدامة وعن شيوعيين مختبئين، إلى أن بدأ

قلبه العجوز كشاعر ملحمي يتعثر. حملوه إلى العاصمة. ومات بعد أربعة أيام من ذلك، وكانت آخر كلمات الرجل الذي غنى للحياة: «سيرمونهم بالرصاص! سيرمونهم بالرصاص!». لم يستطع أي من أصدقائه الاقتراب في ساعة موته، لأنهم كانوا خارجين على القانون، أو هاربين، أو منفيين، أو مقتولين. أما بيته الأزرق على الرابية في العاصمة فكان شبه خرب، الأرضية محروقة والزجاج مهشم، ولم يُعرف إذا كان ذلك من عمل العسكريين، مثلما يقول الجيران، أم من عمل الجيران، مثلما يقول العسكريون. وهناك سهر على جثمانه عدد قليل ممن تجرؤوا على الوصول، وصحفيون توافدو من أنحاء العالم لتغطية خبر جنازته. لقد كان السيناتور تروبيا عدوه الأيديولوجي، ولكنه استقبله في بيته مرات كثيرة، وكان يحفظ أشعاره عن ظهر قلب. وقد حضر للسهر على الجثمان مرتدياً السواد الصارم، ومعه حفيدته ألبا. ووقف كلاهما إلى جانب النعش الخشبي البسيط ورافقاه بعد ذلك حتى المقبرة في صباح تعيس. كانت ألبا تحمل في يدها باقة من أول أزهار قرنفل الموسم، حمراء كالدم. اجتاز الموكب الصغير، ببطء، الطريق إلى المقبرة مشياً على الأقدام، بين صفين من الجنود الذين طوقوا الشوارع.

كان الجمع يمضي بصمت. وفجأة، صاح أحدهم بصوت مبحوح هاتفاً باسم الشاعر، وردّ عليه صوت واحد من الحناجر كلها «حاضر! الآن وإلى الأبد!». كان ذلك أشبه بفتح صمام ليخرج كل ألم وخوف وغضب تلك الأيام من الصدور ويجوب الشوارع ويصعد في دوي رهيب حتى الغيوم السوداء في السماء. ثم جاء هتاف آخر «الرفيقِ الرئيس!». وردّ الجميع بأنّة واحدة، ببكاء إنسان واحد: «حاضر!». وشيئاً فشيئاً تحولت جنازة الشاعر إلى جنازة رمزية للحرية.

وعلى مقربة من ألبا وجدها، كان مصورو التلفزيون السويدي يصورون كي يرسلوا إلى بلاد نوبل الجليدية مشهد الرشاشات المخيفة المصوبة من جانبي الشارع، ووجوه الناس، والنعش المغطى بالزهور، وجماعة النساء الصامتات اللاتي يتزاحمن عند أبواب مستودع الجثث، على بعد شارعين من المقبرة، كي يقرأن قوائم بأسماء من قتلوا. تعالى

صوت الجميع في نشيد، وامتلأ الهواء بالشعارات المحظورة، والهتاف بأن الشعب المتحد لن يُهزم أبداً، ومواجهة الأسلحة التي ترتجف في أيدي الجنود. مرّ الموكب أمام ورشة بناء، فترك العمال أدوات عملهم ونزعوا الخوذ عن رؤوسهم وشكلوا صفاً وهم يطأطئون رؤوسهم. وكان هناك رجل يمضي بقميص مهترئ المعصمين، دون سترة، وبحذاء ممزق، ويردد أشد أشعار الشاعر ثورية، بينما الدموع تسيل من عينيه. تلاحقه عينا السيناتور تروييا الذي كان يمشي بجانبه.

- من المؤسف أنه كان شيوعياً! - قال السيناتور لحفيدته -. شاعر جيد جداً وبأفكار مشوشة! لو أنه مات قبل التحرك العسكري، لكان تلقى على ما أعتقد تكريماً وطنياً.

- لقد عرفَ كيف يموت مثلما عرف كيف يعيش يا جدي - أجابته ألبا.

كانت مقتنعة بأنه مات في الوقت المناسب، لأنه لا يمكن لأي تكريم أن يكون أعظم من ذلك الموكب المتواضع من بضعة رجال ونساء دفنوه في قبر مستعار وهم يصرخون لآخر مرة بأشعاره عن العدالة والحرية. بعد يومين من ذلك ظهر في الصحيفة إعلان من المجلس العسكري يعلن الحداد الوطني على الشاعر ويسمح بتنكيس الأعلام حتى منتصف السارية على بيوت الناس الراغبين في ذلك. واعتُبر التصريح سارياً منذ لحظة موته حتى يوم ظهور الإعلان.

ومثلما لم تستطع الجلوس لتبكي خالها خايمي، لم تستطع ألبا أن تفقد عقلها كذلك في التفكير بميغيل أو التحسر على الشاعر. كانت مستغرقة في التحري عن المفقودين، ومواساة المعذبين الذين يرجعون بظهور مشققة اللحم وعيون زائغة، وفي البحث عن أطعمة لمطاعم الكهنة. ومع ذلك، في صمت الليل، عندما تفقد المدينة طبيعتها الاستعمالية وسلام الأوبريت، تشعر هي بأنها محاصرة بالأفكار المعذّبة التي كتمتها خلال النهار. ففي تلك الساعة لا تتحرك في الشوارع الشاحنات المملوءة بالجثث والمعتقلين، وسيارات الشرطة، مثل ذئاب تائهة تعوي في ظلام حظر التجوال. كانت ألبا ترتجف في الفراش. وتظهر لها

أشباح ممزقة لموتى كثيرين مجهولين، وتسمع بيت الناصية الكبير يتنفس في لهاث عجوز هرمة، وتصيخ السمع فتشعر بالأصوات المخيفة في عظامها: مكبح سيارة بعيد، صفقة باب قوية، تبادل إطلاق نار، وقع خطوات جزمة عسكرية، صرخة صماء. ثم يعود بعد ذلك الصمت الطويل الذي يستمر حتى الفجر، عندما تستعيد المدينة الحياة ويبدو كما لو أن الشمس قد محت أهوال الليل. لم تكن المؤرقة الوحيدة في الليل. كثيراً ما كانت تجد جدها بثياب النوم والخف البيتي، أكثر هرماً وحزناً مما هو عليه في النهار، يسخن فنجان مرق ويتمتم بلعنات قرصان، لأنه يشعر بألم في عظامه وروحه. وتجد أمها كذلك تقلب في المطبخ أو تجول مثل شبح منتصف الليل على الحجرات الخاوية.

هكذا انقضت الشهور وتبين بوضوح للجميع، بمن فيهم السيناتور تروييا، أن العسكريين قد استولوا على السلطة ليستبقوها لأنفسهم وليس لتسليم الحكومة إلى سياسيي اليمين الذين هيأوا للانقلاب. لقد كان العسكريون سلالة خاصة، أخوة في ما بينهم، يتكلمون لغة مختلفة عن المدنيين، والحديث معهم أشبه بحوار طرشان، لأنهم يرون في أدنى اختلاف عنهم خيانة لقوانين شرفهم الصارمة. رأى تروييا أن لديهم خططاً مسيخية لا دور فيها للسياسيين. وفي أحد الأيام علق على الأوضاع مع بلانكا وألبا. وأبدى أسفه لأن عمل العسكريين الذي كان الهدف منه درء خطر دكتاتورية شيوعية، أودى بالبلاد إلى دكتاتورية أشد قسوة بكثير، ويبدو أنها ستستمر لقرن من الزمان. واعترف السيناتور تروييا، للمرة الأولى في حياته، بأنه قد أخطأ. كان غارقاً في مقعده كعجوز منتهٍ، ورأيتاه يبكي بصمت. لم يكن يبكي فقدان السلطة. لقد كان يبكي الوطن.

عندئذ جثت بلانكا بجانبه، أمسكت يده واعترفت له بأنها تخبئ بيدرو غارثيا الثالث، وأنه يعيش مختبئاً كنسك متوحد في إحدى غرف البيت المهجورة التي كانت بلانكا قد شيدتها في أزمنة الأرواح. ففي اليوم التالي للانقلاب، نشروا قائمة بأسماء الأشخاص الذين عليهم المثول أمام السلطات. وكان اسم بيدرو غارثيا الثالث بينهم. وبعض الذين مازالو

يعتقدون أنه لا يمكن حدوث أي شيء أبداً في هذه البلاد، ذهبوا بإرادتهم وسلموا أنفسهم في وزارة الدفاع، ودفعوا حياتهم ثمناً لذلك. أما بيدرو الثالث فحدس قبل الآخرين مدى شراسة النظام الجديد، ربما لأنه تعلم خلال السنوات الثلاث السابقة كيفية التعرف الصحيح على القوات المسلحة، ولم يعد يصدق حكاية أنها مختلفة عن القوات المسلحة في بلدان أخرى. في تلك الليلة بالذات، وخلال حظر التجول، زحف حتى بيت الناصية الكبير وطرق على نافذة بلانكا. وعندما أطلت، ونظرها غائم من الصداع، لم تتعرف عليه، لأنه كان قد حلق لحيته ووضع نظارة على عينيه.

- لقد قتلوا رئيس الجمهورية - قال بيدرو الثالث.

خبأته في الغرف الخاوية. هيأت له مخبأ طوارئ على عجل، دون أن تخامرها الظنون بأنها ستضطر إلى إبقائه مخبأً لعدة شهور، بينما الجنود يمشطون البلاد بحثاً عنه.

فكرت بلانكا في أنه لن يخطر لأحد أن يكون بيدرو غارثيا الثالث في بيت السيناتور ترويبا في الوقت نفسه الذي كان فيه هذا الأخير يستمع واقفاً لقداس الشكر في الكاتدرائية. بالنسبة لبلانكا، كانت تلك هي أسعد فترة في حياتها.

أما بالنسبة له، فكانت الساعات تمر بالبطء نفسه الذي سيشعر به لو كان معتقلاً. كان يقضي النهار بين أربعة جدران، والباب مقفل بالمفتاح كيلا يخطر لأحد أن يبادر بالدخول لتنظيف الغرفة، والنافذة مغلقة وستائرها مسدلة. لا يدخل ضوء النهار، ولكنه يستطيع تمييزه من خلال التبدل الطفيف الذي يطرأ خشب النافذة وستائرها. وفي الليل يفتح النافذة على مصراعيها لتهوية الحجرة - حيث يحتفظ بها بدلو مغطى لقضاء حاجاته - وليستنشق جرعات كبيرة من هواء الحرية. كان يشغل وقته في قراءة كتب خايمي التي تحملها إليه بلانكا خفية، ويستمع إلى ضجة الشارع، وهمس المذياع المفتوح على أخفض صوت. وقد حصلت له بلانكا على جيتار، فدس خرقاً من الصوف تحت الأوتار كيلا يسمعه أحد وهو يؤلف بصمت أغنيات للأرامل، واليتامى، والسجناء، والمختفين.

حاول تنظيم جدول توقيت منهجي لملء اليوم بالقيام بتمرينات رياضية، والقراءة، ودراسة اللغة الإنكليزية، ونوم القيلولة، وكتابة موسيقى والعودة ثانية للتمارين الرياضية، ولكنه كان يجد مع ذلك فائضاً من ساعات فراغ لا تنتهي، إلى أن يسمع أخيراً صوت المفتاح في قفل الباب ويرى دخول بلانكا حاملة إليه الصحف، والطعام، وماء نظيفاً للاغتسال. كانا يمارسان الحب بيأس، ويخترعان أوضاعاً جديدة محرمة يحوّلها الخوف والوله إلى رحلات هذيانية إلى النجوم. كانت بلانكا قد استسلمت إلى العفة، والنضج، وتوعكاتها المتنوعة، ولكن انبعاث الحب المفاجئ منحها شباباً جديداً. فقد تألق بريق بشرتها، وإيقاع مشيتها، ورنّة صوتها. كانت تبتسم في أعماقها وتمشي كالنائمة. ولم تكن بمثل ذلك الجمال قطّ من قبل. حتى إن أباها لاحظ ذلك وعزاه إلى طمأنينة الوفرة. «يبدو أن بلانكا تجددت منذ لم تعد مضطرة إلى الوقوف في صفوف الانتظار»، هذا ما كان يقوله السيناتور تروبيا. وقد لاحظت ذلك ألبا أيضاً. كانت تراقب أمها. وبدا لها تجولها الغريب في الليل مثيراً للشبهة، وكذلك نزوتها الجديدة بحمل الطعام لتأكل في غرفتها. وخطر لها في أكثر من مناسبة أن تتجسس عليها في الليل، ولكن التعب من انشغالها الطويل في مساعدة المحتاجين كان يتغلب عليها، وعندما تستيقظ مؤرقة، تخشى من المغامرة بالتجوال في الغرف الخاوية حيث تتهامس الأشباح.

أصيب بيدرو الثالث بالنحول وفقد طيب المزاج والعذوبة اللذين كانا يميزانه حتى ذلك الحين. كان يضجر، ويلعن سجنه الطوعي، ويجأر بجزع لمعرفة أخبار أصدقائه. ولم يكن يهدئه سوى حضور بلانكا. فما إن تدخل الغرفة حتى يندفع لمعانقتها كمن به مس، كي يهدئ أهوال النهار وضجر الأسابيع. بدأت تتسلط على ذهنه فكرة أنه خائن وجبان، لأنه لم يشاطر آخرين كثيرين مصيرهم، ولأنه من المشرف له أن يسلم نفسه ويواجه قدره. فتحاول بلانكا ثنيه عن تلك الأفكار بأفضل حججها، ولكنه يبدو كمن لا يستمع إليها. تحاول كبحه بقوة الحب المستعاد، تُطعمه في فمه، تحممه بتدليكه بخرقة مبللة ورشه بالبودرة كطفل، تقص شعره وأظفاره، وتحلق له ذقنه. وقد اضطرت أخيراً إلى أن

تضع له أقراصاً مهدئة في الطعام وقطرات منوّم في الماء، كي تطرحه في نوم عميق ومضطرب، يستيقظ منه بفم جاف وقلب أشد حزناً. وبعد شهور قليلة أدركت بلانكا أنها لا تستطيع إبقاءه سجيناً بصورة لانهائية وتخلت عن خططها في ترويض روحه وتحويله إلى عشيقها الدائم. لقد أدركت أنه يموت في الحياة لأن الحرية عنده أهم من الحب، وليست هناك أقراص إعجازية قادرة على جعله يبدل موقفه.

- ساعدني يا أبتاه! - توسلت بلانكا إلى السيناتور تروييا -. عليّ أن أخرجه من البلاد.

شلّ الذهولُ العجوز وأدرك كم هو مستنفد حين بحث عن غضبه وحقده ولم يجدهما في أي ركن. فكر في ذلك الفلاح الذي تبادل الحب مع ابنته طوال نصف قرن، ولم يجد مسوغاً لكرهه، لم يجده حتى في البونتشو الذي يرتديه، أو في لحية الاشتراكي التي له، أو في دجاجاته اللعينة التي تطارد الثعالب.

- عجباً! علينا أن نجد له ملجأ، لأنهم إذا وجدوه في هذا البيت، فسوف نتخوزق جميعنا - كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع قوله.

ألقت بلانكا ذراعيها حول عنقه وغطته بالقبل وهي تبكي مثل طفلة. كانت تلك هي المداعبة التلقائية الأولى التي توجهها إلى أبيها منذ طفولتها البعيدة.

- أنا أستطيع إدخاله إلى سفارة - قالت ألبا -. ولكن علينا أن ننتظر اللحظة المناسبة، وسيكون عليه أن يقفز عن سور.

- لا حاجة إلى ذلك يا صغيرتي - أجابها السيناتور تروييا -. مازال لدي أصدقاء متنفذون في هذه البلاد.

وبعد ثماني وأربعين ساعة من ذلك فُتح باب غرفة بيدرو غارثيا الثالث، ولكن بدلاً من بلانكا، ظهر في هذه المرة السيناتور تروييا عند العتبة. ففكر الهارب في أن ساعته قد حانت أخيراً، وبطريقة ما أحس بالبهجة.

- جئتُ لأخرجك من هنا - قال تروييا.

- لماذا؟ - سأله بيدرو الثالث.

- لأن بلانكا طلبت مني ذلك - أجاب الآخر.

ـ اذهب إلى الجحيم ـ دمدم بيدرو الثالث.

ـ حسن، سنذهب إلى هناك. وأنت ستأتي معي.

ابتسم كلاهما في آن واحد. وكانت تنتظره في الخارج سيارة ليموزين فضية لسفير دولة شمالية. حشروا بيدرو الثالث في صندوق السيارة الخلفي، متكوراً على نفسه مثل كيس، وغطوه بأكياس سوق ملأى بالخضروات. وعلى المقاعد استراحت بلانكا وألبا، والسيناتور تروييا وصديقه السفير. قادهم السائق إلى مقر القاصد الرسولي، ومروا بحاجزاً لرجال الدرك، دون أن يوقفهم أحد. وعند بوابة مقر القاصد كانت الحراسة مضاعفة، ولكنهم حين تعرفوا على السيناتور تروييا ورأوا لوحة السيارة الدبلوماسية، سمحوا لهم بالمرور مع تحية. وبعد أن اجتازوا البوابة، وصاروا بمنجى في مقر سفارة الفاتيكان، أخرجوا بيدرو الثالث من تحت جبل من أوراق الخس والبندورة المتفززة. اقتادوه إلى مكتب القاصد الرسولي الذي كان ينتظره مرتدياً زيه الأسقفي ومزوداً بوثيقة جديدة لإرساله إلى الخارج مع بلانكا التي قررت أن تعيش في المنفى حبها المؤجل منذ الطفولة. رحب بهم القاصد الرسولي. وكان معجباً بغناء بيدرو غارثيا الثالث ولديه اسطوانات أغانيه كلها.

وبينما كان رجل الدين والسفير الشمالي يتناقشان حول الوضع الدولي، تبادل أفراد الأسرة الوداع. كانت بلانكا وألبا تبكيان بحرقة. لأن أياً منهما لم تبتعد عن الأخرى من قبل. وعانق السيناتور تروييا ابنته طويلاً، بلا دموع، ولكن بفم مشدود بقوة، مرتجف، وهو يحاول كبح بكائه.

ـ لم أكن أباً جيداً لك يا ابنتي ـ قال ـ. أتظنين أنك قادرة على أن تغفري لي وتنسي الماضي؟

ـ أحبك كثيراً يا أبتاه! ـ بكت بلانكا وهي تطوق عنقه بذراعيها وتضمه إليها بيأس وتغطيه بالقبلات.

التفت العجوز بعد ذلك إلى بيدرو الثالث، ونظر إلى عينيه. مدّ إليه يده، ولكنه لم يستطع الشدّ على يده، لأنها تفتقد بعض الأصابع. عندئذ فتح ذراعيه وتبادل الرجلان الوداع في عناق حميم، متخلصين أخيراً من الكراهية والحقد اللذين لوثا حياتيهما لسنوات طويلة.

- ساعتني بابنتك وأحاول إسعادها يا سيدي - قال بيدرو غارثيا الثالث بصوت مكسور.

- لستُ أشك في ذلك. فلتذهبا بسلامٍ يا بنيّ - دمدم العجوز.

كان يعرف أنه لن يعود لرؤيتهما أبداً.

ظل السيناتور ترويبا وحيداً في البيت مع حفيدته وبعض الخدم. هذا ما كان يظنه هو على الأقل. ولكن ألبا كانت قد قررت أن تتبنى فكرة أمها، وصارت تستخدم الجزء المهجور من البيت مخبأً تخبئ فيه أشخاصاً لليلة أو ليلتين، ريثما تجد مكاناً أكثر أمناً أو طريقة لإخراجهم من البلاد. كانت تساعد من يعيشون في الظل، ويهربون في النهار، مختلطين في صخب المدينة، ولكنهم ما إن يخيم الليل حتى يضطروا إلى الاختباء في مكان مختلف كل مرة. فقد كانت ساعات حظر التجوال هي الأخطر، عندما لا يكون بمقدور الهاربين الخروج إلى الشارع، وتكون الشرطة قادرة على اصطيادهم بسهولة. فكرت ألبا في أن بيت جدها هو آخر مكان يمكن تفتيشه. وشيئاً فشيئاً حولت الغرف الفارغة إلى متاهة أركان سرية تخبئ فيها محمييها، وقد يكونون عائلات بكاملها أحياناً. لم يكن السيناتور ترويبا يشغل أكثر من المكتبة والحمام وغرفة نومه. يعيش هناك محاطاً بأثاثه المصنوع من خشب المهاغوني، وخزائنة الفيكتورية وسجاجيده الفارسية. لقد كان ذلك البيت المكفهر مثيراً للقلق، حتى لشخص مثله قليل النزوع إلى الهواجس. يبدو كما أنه بيت يضم مسخاً مختبئاً. لم يكن ترويبا يدرك سبب قلقه، لأنه يعرف أن الأصوات الغريبة التي يقول الخدم إنهم يسمعونها، مصدرها كلارا التي تجول في البيت برفقة أرواح صديقة لها. فقد فاجأ زوجته مراراً وهي تنسل عبر الصالونات بعباءتها البيضاء وابتسامة صباها. فيتظاهر بأنه لا يراها، يظل ثابتاً دون حراك، بل ويتوقف عن التنفس، كيلا يخيفها. وإذا ما أغمض عينيه متصنعاً النوم، يستطيع الإحساس بملامسة أصابعها الخفيفة على جبينه، ونفسها البارد يمر كنسمة، وحفيف شعرها في متناول يده. لم تكن لديه أسباب للارتياب بوجود

.شيء غير طبّيعي، ولم يكن يحاول مع ذلك المجازفة بالاقتراب من المنطقة المسحورة حيث كانت مملكة زوجته، وأبعد مكان يصل إليه هو منطقة المطبخ المحايدة. كانت طاهيته القديمة قد رحلت، لأنهم قتلوا زوجها بطريق الخطأ خلال تبادل لإطلاق النار، وابنها الوحيد الذي كان مجنداً في إحدى قرى الجنوب، عُلق على عمود وقد لُفت أمعاؤه حول عنقه، انتقاماً من الشعب لأنه نفذ أوامر رؤسائه. فقدت المرأة المسكينة عقلها، وبعد وقت قصير فقد تروبيا صبره، وملّ من العثور في الطعام على شعرها الذي كانت تنتزعه في ندبها المتواصل. ولبعض الوقت خاضت ألبا تجربة العمل بين القدور مستفيدة من كتاب وصفات مطبخية، ولكن الأمر انتهى بتروبيا، على الرغم من حسن نواياها، إلى تناول العشاء كل ليلة في النادي، من أجل تلقي وجبة محترمة في اليوم على الأقل. فوفر ذلك لألبا مزيداً من الحرية في تهريب المطاردين ومزيداً من الأمان في إدخال أناس إلى البيت وإخراجهم منه قبل حظر التجول، دون أن تخامر الشكوك جدها.

في أحد الأيام ظهر ميغيل. كانت عائدة إلى البيت في عز ظهيرة القيلولة، عندما خرج فجأة للقائها. كان ينتظرها مختبئاً بين نباتات الحديقة المتشابكة. وكان قد صبغ شعره بلون أصفر شاحب، ويرتدي بدلة زرقاء بخطوط متقاطعة. وكان يبدو أشبه بموظف عادي في مصرف، ولكن ألبا تعرفت إليه فوراً ولم تستطع كبح صرخة ابتهاج صعدت من أعماقها. تعانقا في الحديقة، على مرأى من المارة وكل من يريد النظر، إلى أن استعادا وعيهما وأدركا خطورة الموقف. قادته ألبا إلى داخل البيت، وإلى حجرة نومها. سقطا على السرير في تشابك أذرع وسيقان، وكل منهما يدعو الآخر بالأسماء السرية التي كانا يستخدمانها في أزمنة القبو، تبادلا الحب باحتدام إلى أن أحسا بأن الحياة تفلت منهما وبأن روحهما تنفجر، فكان عليهما أن يظلا هادئين، يسمعان دوي نبض قلبيهما، كي يطمئنا قليلاً. عندئذ نظرت إليه ألبا بتمعن، أول مرة، ورأت أنها كانت تضاجع شخصاً مجهولاً تماماً، ليس له شعر فايكيغ وحسب، وإنما هو بلا لحية ميغيل كذلك، وبلا نظارة

المعلم الصغيرة مدورة العدسات، ويبدو أشد نحولاً بكثير. فهمست في أذنه: شكلك مريع! كان ميغيل قد تحول إلى أحد قادة حرب العصابات، متمماً بذلك المصير الذي خطه لنفسه منذ سن المراهقة. وكانوا قد استجوبوا أعداداً كبيرة من الرجال والنساء لمعرفة مكانه، مما كان يُثقل على روح ألبا كحجر الرحى، بينما لم يكن يرى في ذلك كله سوى جزء من أهوال الحرب، وكان مستعداً لأن يلقى المصير نفسه عندما تحين لحظة يتوجب عليه فيها تغطية آخرين. وفي أثناء ذلك، كان يناضل في السرية، وفياً لنظريته في أنه لا بد من مواجهة عنف الأغنياء بعنف الشعب. وألبا التي تخيلت ألف مرة أنه وقع أسيراً أو أنهم قتلوه بطريقة رهيبة، راحت تبكي من السعادة وهي تشم رائحته، وتلمس بشرته، وتسمع صوته، وتحس بدفئه، وبملمس يديه الخشنتين من استعمال السلاح وعادة التنقل زاحفاً، كانت تصلي، وتلعن، وتقبله، وتكرهه لكل تلك المعاناة المتراكمة، وترغب في الموت هناك بالذات، كيلا تعود إلى التألم لغيابه من جديد.

ـ لقد كنتَ محقاً يا ميغيل. فقد حدث كل ما كنت تقول إنه سيحدث ـ أكدت ألبا وهي تبكي على كتفه.

حدثته بعد ذلك عن الأسلحة التي سرقتها من جدها وخبأتها مع خالها خايمي وعرضت عليه أن تأخذه للبحث عنها. وكانت ترغب في أن تعطيه كذلك تلك التي لم يستطيعا سرقتها وظلت في مخزن البيت، ولكن بعد أيام قليلة من الانقلاب العسكري، صدرت الأوامر إلى السكان المدنيين بتسليم كل ما يمكن اعتباره سلاحاً، بما في ذلك مُدى الكشافة وسكاكين بري أقلام التلاميذ. فكان الناس يتركونها في حزم ملفوفة بورق جرائد عند أبواب الكنائس، لأنهم لا يجرؤون على حملها وتسليمها في الثكنات العسكرية. أما السيناتور تروبيا الذي كان يملك أسلحة حربية، فلم يشعر بأي خوف، لأن أسلحته كانت مكرسة لقتل شيوعيين مثلما يعرف الجميع. فاتصل هاتفياً بصديقه الجنرال هورتادو، فأرسل هذا شاحنة عسكرية لنقل الأسلحة. قاد تروبيا الجنود إلى حجرة الأسلحة، وهناك تبين، وقد عقدت المفاجأة لسانه، أن نصف الصناديق

كانت مملوءة بأحجار وقش، ولكنه أدرك أن اعترافه بفقدانها سيورط أحداً من أسرته أو سيوقعه هو نفسه في مشاكل. بدأ بتقديم اعتذارات لم يطلبها منه أحد، لأنه لا يمكن للجنود معرفة عدد الأسلحة التي اشتراها. اتجهت شكوكه نحو بلانكا وبيدرو غارثيا الثالث، ولكن حمرة خدي حفيدته جعلته يشك بها أيضاً. وبعد أن حمل الجنود الصناديق، ووقعوا له إيصالاً بها، امسك بذراعي ألبا وهزها مثلما لم يفعل قط، لتعترف إذا ما كانت لها أية علاقة بالمسدسات الرشاشة والبنادق المختفية. فأجابت ألبا وهي تنظر إلى عينيه: «لا تسألني عما لا ترغب أنت نفسك في أن أجيبك عليه يا جدي». ولم يعودا إلى الحديث في الموضوع.

- جدك رجل مقيت يا ألبا. سيقتله أحدهم كما يستحق - قال ميغيل.

- بل سيموت في فراشة. إنه عجوز هرم - قالت ألبا.

- من يَقتلُ بالحديد لا يمكن له أن يموت وترفع له القبعات. ربما سأقتله أنا نفسي ذات يوم.

- لا قدّر الله ذلك يا ميغيل، لأنك ستضطرني عندئذ إلى أن أفعل بك الشيء نفسه - ردّت ألبا بضراوة.

أوضح لها ميغيل أنهما لن يتمكنا من اللقاء لوقت طويل، وربما إلى الأبد. وحاول أن يبين لها المخاطر التي ينطوي عليها كونها رفيقة رجل حرب عصابات، حتى وإن كانت محمية بلقب جدها، ولكنها بكت كثيراً، وعانقته بجزع شديد، فلم يجد بداً من التعهد لها بأنه سيسعى لإيجاد فرصة للقاء بها من وقت لآخر حتى لو كان في ذلك خطر على حياتيهما. ووافق ميغيل كذلك على الذهاب معها للبحث عن الأسلحة والذخائر المدفونة في الجبل، لأنها أكثر ما يحتاج إليه في نضاله المخيف.

- آمل ألا تكون تلك الأسلحة قد تحولت إلى حديد خردة - تلعثمت ألبا
-. وأن أتذكر مكانها الدقيق، لأن أكثر من سنة مضت على ذلك.

بعد أسبوعين، نظمت ألبا نزهة مع أطفال مطعم وجباتها الشعبي في شاحنة أعارها إليها كهنة الأبرشية. حملت معها وجبة عصرونية خفيفة

في سلال، وكيس برتقال، وعدة كرات وجيتاراً. ولم يلفت انتباه أحد من الأطفال أنها توقفت خلال الطريق ليركب معها رجل أشقر. قادت ألبا الشاحنة الثقيلة بحمولتها من الأطفال عبر طريق الجبل نفسها التي كانت قد قطعتها مع خالها خايمي. أوقفتهم دوريتان وكان عليها أن تفتح سلال الطعام، ولكن سعادة الأطفال المعدية وبراءة محتويات الأكياس أبعدت الشكوك عن الجنود. استطاعوا الوصول باطمئنان إلى المكان الذي خُبئت فيه الأسلحة. راح الأطفال يلعبون لعبة الاختباء ومطاردة بعضهم بعضاً. ونظم ميغيل معهم مباراة بكرة القدم، ثم أجلسهم في حلقة حوله وقصّ عليهم حكايات، وغنى الجميع حتى الصراخ. وبعد ذلك رسم خريطة للموقع كي يعود إليه مع رفاقه في ظلمة الليل. كان يوماً ريفياً سعيداً استطاعا خلاله نسيان توتر حالة الحرب والاستمتاع بشمس الصباح الدافئة، وسماع صيحات الأطفال الذين يركضون بين الصخور ببطون ممتلئة للمرة الأولى منذ شهور.

ـ إنني خائفة يا ميغيل ـ قالت ألبا ـ ألن نستطيع أن نعيش حياة عادية أبداً؟ لماذا لا نغادر إلى الخارج؟ لماذا لا نهرب الآن، والفرصة لا تزال متاحة؟

أشار ميغيل إلى الأطفال، وعندئذ فهمت ألبا.

ـ دعني أذهب معك إذاً! ـ توسلت مثلما فعلت مرات كثيرة من قبل.

ـ لا يمكننا حالياً أن نأخذ معنا أشخاصاً غير مدربين. وأقل من ذلك امرأة عاشقة ـ ابتسم ميغيل ـ من الأفضل أن تواصلي مهماتك. لا بد من مساعدة هؤلاء الصغار الفقراء إلى أن تأتي أزمنة أفضل.

ـ أخبرني على الأقل كيف يمكنني معرفة مكان وجودك!

ـ إذا ألقت الشرطة عليك القبض، فسيكون من الأفضل ألا تعرفي شيئاً ـ أجابها ميغيل.

فأحست ألبا بقشعريرة.

خلال الشهور التالية، بدأت ألبا المتاجرة بأثاث البيت. لم تتجرأ في البدء إلا على إخراج الأشياء الموجودة في الغرف المهجورة والقبو، ولكنها عندما باعت ذلك كله، بدأت تأخذ كراسي الصالون القديمة واحدة فواحدة، والحمالات الباروكية، والصناديق الكولونيالية، وحواجز

البارابانات المحفورة يدوياً، وحتى شراشف ومناديل غرفة الطعام. انتبه تروبيا إلى ذلك، ولكنه لم يقل شيئاً. وافترض أن حفيدته تقدم النقود لقضية محظورة، مثلما يتوقع أنها فعلت بالأسلحة التي سرقتها منه، وقد فضل عدم معرفة ذلك ليتمكن من مواصلة الثبات بتوازن مزعزع في عالم آخذ بالتمزق. كان يشعر أن الأحداث تفلت منه. وأدرك أن الشيء الوحيد الذي يهمه حقاً هو عدم فقدان حفيدته، لأنها الرابطة الأخيرة التي تربطه بالحياة. ولهذا لم يقل أي شيء كذلك عندما بدأت بسحب اللوحات، واحدة فواحدة، عن الجدران، وكذلك السجاجيد القديمة لتبيعها للأثرياء الجدد. كان يشعر أنه هرم ومتعب جداً، بلا قوة على النضال. ولم تعد أفكاره واضحة بعد أن امحت الحدود بين ما كان يبدو له خيراً وما يعتبره شراً. وفي الليل، عندما يفاجئه النعاس، يرى كوابيس تحترق فيها بيوت من الآجر. وفكر في أنه إذا كانت وريثته الوحيدة مصممة على تبديد مقتنيات البيت، فلن يمنعها من ذلك، لأنه لم يبق أمامه سوى القليل ليكون في القبر، ولن يحمل معه إلى هناك سوى الكفن. أرادت ألبا أن تتحدث إليه، لتقديم تفسير، ولكن العجوز رفض الاستماع إلى الحكاية عن الأطفال الجائعين الذين يتلقون طبق طعام كصدقة من حصيلة بيع لوحات سجاجيده الفرنسية المجلوبة من أبيسون، أو حكاية العاطلين عن العمل الذين يتمكنون من البقاء على قيد الحياة أسبوعاً آخر بثمن تنينه الصيني المنحوت من حجر صلب. لأنه مازال يؤكد أن كل تلك الادعاءات ما هي إلا أكاذيب تلفقها الشيوعية العالمية، وحتى لو كانت صحيحة، وهو أمر بعيد الاحتمال، فليس من مسؤولية ألبا أن تلقي على كاهلها ذلك العبء، وإنما هي مسؤولية الحكومة، أو مسؤولية الكنيسة في نهاية المطاف. ولكنه يوم عاد إلى البيت ولم يجد صورة كلارا معلقة في مكانها في المدخل، قدّر أن المسألة قد تجاوزت حدود صبره، وواجه حفيدته.

- إلى أية شياطين ذهبت لوحة جدتك؟ - قال مزمجراً.

- لقد بعتها للقنصل الإنكليزي يا جدي. قال لي إنه سيضعها في متحف في لندن.

- إنني أمنعك من إخراج أي شيء من هذا البيت! ومنذ الغد سيكون لك حساب في المصرف من أجل مصاريفك الخاصة.

سرعان ما تبين إستيبان ترويبا أن ألبا هي أغلى نساء حياته كلفة، وأنه ما كان يمكن لحريم كامل من المحظيات أن يكون باهظ الكلفة مثل تلك الحفيدة ذات الشعر الأخضر. لم يؤنبها، لأن أزمنة الحظ الطيب كانت قد عادت، وكلما كان يُنفق أكثر كان يحصل على المزيد. فمنذ حظر النشاطات السياسية، صار لديه فائض من الوقت لصفقاته وأعماله، وقدّر أنه، خلافاً لكل التنبوات، سيموت ثرياً جداً. كان يوظف أمواله في المؤسسات المالية الجديدة التي تعرض على المستثمرين مضاعفة أموالهم بطريقة مذهلة بين ليلة وضحاها. واكتشف أن الثروة تسبب له الكثير من النزق، لأنه يجنيها بسهولة دون أن يجد إغراءات مهمة لإنفاقها، بل إن موهبة حفيدته الإعجازية في التبذير لم تكن قادرة على أن تُنقص من مخزونه. فأعاد بحماسة شديدة إعمار الماريات الثلاث وتحسينها، ولكنه فقد بعد قليل من ذلك الاهتمام بأي مشروع آخر، لأنه لاحظ أنه لم تعد هناك حاجة لبذل الجهد والانتاج بفضل النظام الاقتصادي الجديد، لأن المال يجرّ مزيداً من المال، ولأن حساباته المصرفية تتضخم كل يوم دون أي مجهود منه. وهكذا، بعد أن أجرى حساباته، أقدم على خطوة لم يكن يتصور أنه سيُقدم عليها في حياته: صار يرسل شيكاً كل شهر إلى بيدرو غارثيا الثالث الذي كان يعيش لاجئاً مع بلانكا في كندا. وهناك كانا يشعران بأنهما قد حققا نفسيهما تماماً في سلام الحب المُرضي. كان بيدرو يكتب كلمات أغنياته الثورية للعمال والطلاب، وكذلك للبرجوازية الكبيرة على نحو خاص، بعد أن تبنتها كموضة رائجة، وصارت تُترجم إلى الإنكليزية والفرنسية بنجاح كبير، على الرغم من أن الدجاجات والثعالب هناك تعتبر كائنات متخلفة لا تمتلك الألق الحيواني الذي تتمتع به نسور وذئاب تلك البلاد الشمالية المتجمدة. وكانت بلانكا في أثناء ذلك راضية وسعيدة، تستمتع أول مرة في حياتها بصحة حديدية متينة. وقد شيدت في بيتها فرناً كبيراً لتشوي فيه مسوخ مشاهد الميلاد التي تباع جيداً،

باعتبارها مشغولات يدوية من تقاليد السكان الأصليين، مثلما تنبأ لها جان دوساتيني قبل خمس وعشرين سنة، عندما رغب في تصديرها. ومن هذه الأعمال، إضافة إلى شيك الجد، والمساعدة المالية الكندية، توفر لهما ما يكفي. وظلت بلانكا، على سبيل الاحتياط، تخبئ في أشد الأركان سرية جراب الصوف الذي يضم مجوهرات كلارا التي لا تنضب. وكانت تأمل بألا تضطر إلى بيعها أبداً كي تتمكن ألبا ذات يوم من التزين بها.

لم يعرف إستيبان تروييا أن الشرطة السياسية تراقب بيته حتى الليلة التي اقتادوا فيها ألبا. كانوا نائمين، وشاءت المصادفة ألا يكون هناك أحد مختبئ في متاهة الغرف المهجورة. ضربات أعقاب البنادق على باب البيت أيقظت العجوز من نومه بنبوءة واضحة بوقوع مصيبة. ولكن ألبا كانت قد استيقظت قبله، حين سمعت مكابح السيارات، وضجة الخطوات، والأوامر الصادرة بأصوات خفيضة، وبدأت ترتدي ثيابها، لأنه لم يخامرها أدنى شك في أن ساعتها قد أزفت.

خلال تلك الشهور، كان السيناتور تروييا قد أدرك أنه لا يمكن حتى لمسيرته النظيفة كانقلابي أن تشكل ضمانة ضد الرعب. ولكنه لم يتصور قط مع ذلك، أن يرى اثني عشر رجلاً يقتحمون بيته، في ظل حظر التجوال، وهم لا يرتدون الزي الرسمي، ومسلحين حتى الأسنان، ويسحبونه من فراشه دون تروٍ ويقتادونه من ذراعه إلى الصالون، دون أن يسمحوا له بانتعال الخف أو وضع شال على كتفيه. رأى آخرين يخلون بركلة باب غرفة ألبا ويدخلون والمسدسات الرشاشة في أيديهم، ورأى حفيدته وقد ارتدت ملابسها كلها، ووقفت تنتظرهم، شاحبة الوجه، ولكنها هادئة، ورآهم يُخرجونها بالدفع ويقتادونها وهم يوجهون إليها أسلحتهم إلى الصالون، حيث أمروها بالبقاء إلى جانب العجوز وألا تقوم بأي حركة. انصاعت لهم دون التفوه بكلمة واحدة، غير مكترثة بغضب جدها أو بالعنف الذي يجوب به الرجال أنحاء البيت محطمين الأبواب، ومفرغين بأعقاب بنادقهم الخزائن، وقالبين الأثاث، ومنتزعين أحشاء

الفرش، ومبعثرين محتويات الخزائن، وموجهين الركلات إلى الجدران، وصارخين بالأوامر، بحثاً عن رجال حرب عصابات مختبئين، وعن أسلحة سرية وأدلة أخرى. سحبوا الخادمات من فراشهن وحبسوهن في غرفة تولى حراستها رجل مسلح. وقلبوا رفوف المكتبة وتدحرجت زينات ولوحات السيناتور ترويبا الفنية على الأرض بصخب. ونُقلت مجلدات سرداب خايمي إلى الفناء، وكوّموها هناك، ورشوها بالبنزين وأضرموا فيها النار في محرقة مشينة راحت تُغذى كذلك بالكتب المسحورة التي في صناديق الجد القديم ماركوس، وطبعة كتاب نيكولاس، وأعمال ماركس المجلدة بأغلفة من الجلد وحتى نوتات أوبرات الجد، في محرقة فضائحية ملأت فضاء الحي كله بالدخان، وكان يمكن لها، في الأزمنة العادية، أن تجتذب رجال المطافئ.

ـ سلموا كل ما لديكم من مفكرات، ودفاتر عناوين، ودفاتر شيكات، وكافة وثائقكم الشخصية ـ أمر من بدا أنه القائد.

ـ أنا السيناتور ترويبا! ألا تعرفني يا رجل، بالله عليك؟ ـ صرخ الجد بيأس ـ لا يمكنكم أن تفعلوا هذا كله بي! هذا تجاوز! إنني صديق للجنرال هورتادو!

ـ اخرس يا عجوز البراز! لا يمكنك فتح فمك طالما لم أسمح لك! ـ أجابه الآخر بفظاظة.

أجبروه على تسليم محتويات منضدة مكتبه، ودسوا في بعض الأكياس كل ما بدا لهم مهماً. وبينما كانت جماعة تنهي تفتيش البيت، كانت جماعة أخرى تواصل إلقاء الكتب من النافذة. وبقي في الصالون أربعة رجال باسمين، ساخرين، متوعدين، أسندوا أقدامهم إلى قطع الأثاث وهم يشربون الويسكي الاسكتلندية من الزجاجة ويكسرون واحدة فواحدة اسطوانات مجموعة السيناتور ترويبا من الموسيقى الكلاسيكية. قدّرت ألبا أن أكثر من ساعتين قد انقضيا. كانت ترتجف، ليس من البرد، وإنما من الخوف. لقد توقعت أن هذه اللحظة ستأتي ذات يوم، ولكنها كانت تحتفظ على الدوام بالأمل غير العقلاني بأن نفوذ جدها سيوفر لها الحماية. لكنها حين رأته منكمشاً على نفسه

على الأريكة، ضئيلاً وبائساً كشيخ مريض، أدركت أنه لا يمكنها انتظار أي مساعدة.

- وقّع هنا - قال القائد آمراً ترويبا وهو يضع ورقة أمام أنفه -. هذا تصريح بأننا دخلنا بأمر قضائي، وأن أوراقنا رسمية، وأن كل شيء حسب الأصول، وأننا تصرفنا بكل احترام ولباقة، وأنه ليس لديكم أي شكوى. وقّع.

- لن أوقع أبداً على هذا الكلام! - صرخ العجوز بغضب.

استدار الرجل إلى الوراء بسرعة وصفع ألبا على وجهها. أوقعتها الضربة أرضاً. أصاب الشلل السيناتور ترويبا من المفاجأة والخوف، وأدرك أخيراً أن ساعة الحقيقة قد حانت، بعد قرابة تسعين عاماً من الحياة تحت القانون.

- أكنت تعلم أن حفيدتك هي قحبة أحد رجال حرب العصابات؟ - قال الرجل.

وقّع السيناتور ترويبا الورقة وهو محبط. ثم اقترب بمشقة من حفيدته وعانقها مداعباً شعرها برقة غير معهودة فيه.

- لا تقلقي يا بنيتي. كل شيء سيسوى، ولا يمكنهم عمل شيء ضدك، ما هذا كله إلا خطأ، كوني مطمئنة - قال متلعثماً.

لكن الرجل أبعده عنها بفظاظة وصرخ بالآخرين أنه عليهم المغادرة. اقتاد اثنان من القتلة ألبا من ذراعيها شبه محمولة. وكان آخر ما رأته صورة جدها المحزنة. كان شاحباً كالشمع، يرتجف في جلباب النوم، وحافياً وهو يؤكد لها من عتبة الباب أنه سيذهب لإخراجها في اليوم التالي، وأنه سيتكلم مباشرة مع الجنرال هورتادو، وسيذهب مع محاميه بحثاً عنها أينما تكون لإعادتها إلى البيت.

أصعدوها إلى شاحنة صغيرة ومعها الرجل الذي ضربها وآخر يقود السيارة وهو يصفر. وقبل أن يضعوا أشرطة ورق لاصق على جفنيها، نظرت آخر مرة إلى الشارع المقفر والصامت، مستغربة من أنه على الرغم من الضجة والكتب المحروقة، لم يُطلَّ أحد من الجيران للنظر. وافترضت أنهم يتلصصون من شقوق النوافذ ومن وراء طيات الستائر، مثلما فعلت هي في مرات كثيرة، أو أنهم غطوا رؤوسهم بالوسائد كيلا يعرفوا

شيئاً. انطلقت الشاحنة وفقدت هي، وقد صارت عمياء للمرة الأولى، مفهوم المكان والزمان. أحست بيد رطبة وكبيرة على ساقها تدلكها، تقرصها، تصعد، ترتاد، وانفاس ثقيلة تهمس في أذنها سأدفئك أيتها الماهرة، سترين، وسمعت أصواتاً أخرى وضحكات، بينما كانت السيارة تدور وتدور في ما بدا لها رحلة لانهائية. لم تدر إلى أين يأخذونها إلى أن سمعت صخب ماء وأحست أن عجلات السيارة تسير على خشب. حينئذ عرفت وجهتها. استحضرت أرواح أزمنة منضدة القوائم الثلاث، وسكرية جدتها المتحركة، والأشباح القادرة على تحويل مسار الأحداث، ولكن بدا لها أنها قد تخلت عنها، لأن الشاحنة واصلت على الطريق نفسه. أحست بكبح الفرامل، سمعت مصراعين ثقيلة لبوابة ضخمة ينفتحان بصرير قوي ويعودان للإنغلاق بعد مرورها. حينئذ دخلت ألبا في كابوسها، ذلك الكابوس الذي رأته جدتها في بطاقات برجها الفلكي عند ميلادها، ورأته لويسا مورا في لحظة تنبؤ مسبق.

ساعدها الرجال في النزول. لم تتمكن من السير خطوتين. فقد تلقت الضربة الأولى على أضلاعها وسقطت على ركبتيها فاقدة القدرة على التنفس. رفعها اثنان من تحت إبطيها وجرجراها مسافة لا بأس بها. أحست بقدميها على التراب وبعد ذلك على أرضية اسمنتية خشنة. وهناك توقفوا. وسمعت من يقول:

ـ هذه هي حفيدة السيناتور تروبيا أيها الكولونيل.

ـ أرى ذلك ـ أجاب صوت آخر.

تعرفت ألبا دون تردد على صوت إستيبان غارثيا وأدركت في تلك اللحظة أنه كان ينتظرها منذ ذلك اليوم البعيد الذي أجلسها فيه على ركبتيه، عندما كانت طفلة صغيرة.

الفصل الرابع عشر

ساعة الحقيقة

كانت ألبا متقوقعة على نفسها في الظلام. فقد نزعوا شريط الورق اللاصق عن عينيها بقوة، ووضعوا مكانه عصابة مشدودة. كانت خائفة. تذكرت تدريبات خالها نيكولاس وهو يهيئها لمواجهة خطر الخوف من الخوف، وركزت تفكيرها للسيطرة على رجفة جسمها وصم أذنيها عن الأصوات المخيفة التي تأتيها من الخارج. حاولت أن تستحضر اللحظات السعيدة مع ميغيل، بحثاً عن عون لخداع الوقت وإيجاد قوة لتحمل ما سيحدث، وقائلة لنفسها إنه عليها أن تتحمل بضع ساعات دون أن تخونها أعصابها، ريثما يتمكن جدها من تحريك آلية سلطته القوية ونفوذه لإخراجها من هناك. بحثت في ذاكرتها عن نزهة إلى الشاطئ قامت بها مع ميغيل، في الخريف، قبل وقت طويل من أن يقلب إعصار الأحداث العالم رأساً على عقب، عندما كانت الأمور لا تزال تسمى بأسماء معروفة وكان للكلمات معنى وحيد، عندما كانت كلمات: شعب، وحرية، ورفيق لا تعني شيئاً آخر سوى شعب وحرية ورفيق، ولم تتحول بعد إلى كلمة سر. حاولت أن تعود لعيش تلك اللحظات، التراب الأحمر الرطب، والرائحة الزخمة في غابات الصنوبر والأوكاليبتوس، حيث بساط الأوراق الجافة يتفتت بعد صيف طويل وحار، وضوء الشمس النحاسي يتسرب من بين ذرى الأشجار. حاولت أن تتذكر البرد، والصمت، وذلك الشعور البديع بأنهما سادة الأرض، وأنهما في العشرين ويمتلكان الحياة كلها أمامهما، يتحابان بطمأنينة، ثملين برائحة الغابة والبحر، بلا ماض، ودون شكوك في المستقبل، وثروتهما الوحيدة التي لا تُصدق هي تلك اللحظة الآنية التي ينظر فيها كل منهما إلى الآخر، يشمه، يُقبّله، يرتاده، يلفهما همس الريح بين الأشجار، وجلبة الأمواج القريبة وهي ترتطم بالصخور عند حافة الوهدة، مصطدمة في صخب زبد عابق، بينما

هما الاثنان متعانقان تحت عباءة البونتشو نفسها مثل وليدين سياميين يغطيهما الجلد نفسه، يضحكان، ويقسمان على أن ذلك سيظل إلى الأبد، مقتنعين بأنهما الوحيدان اللذان اكتشفا الحب في الكون كله.

كانت ألبا تسمع الصرخات، والآهات الطويلة والمذياع الذي يلعلع بأعلى صوت. ضاعت الغابة وميغيل والحب في نفق رعبها العميق وأذعنت لمواجهة قدرها دون تحايل.

قدرت أن الليل كله قد انقضى وشطراً لا بأس به من اليوم التالي عندما انفتح الباب أول مرة وأخرجها رجلان من الزنزانة. اقتاداها بالشتائم والتهديدات إلى حيث الكولونيل غارثيا الذي يمكنها التعرف عليه في العماء، حتى قبل أن تسمع صوته، بسبب طبعه الخبيث. أحست بيديه تمسكان وجهها، وأصابعه الثخينة على عنقها وأذنيها.

- ستخبرينني الآن أين هو عشيقك - قال لها -. وهذا سيوفر علينا نحن الاثنين الكثير من الازعاج.

تنفست ألبا براحة. فهم لم يعتقلوا ميغيل إذاً!

- أريد الذهاب إلى الحمام - أجابت ألبا بأقصى ما استطاعت من تماسك في صوتها.

- أرى أنك لا تريدين التعاون يا ألبا. هذا مؤسف - تنهد غارثيا -. على الشباب أن يقوموا بواجبهم، ولا يمكنني منعهم من ذلك.

ساد صمت قصير حولها، فبذلت جهداً هائلاً لتتذكر غابة الصنوبر وحب ميغيل، لكن أفكارها اختلطت ولم تعد تعرف إن كانت تحلم، ولا من أين تأتي تلك النتانة التي هي مزيج من العرق والبراز والدم والبول، وصوت ذلك المعلق الرياضي على مباراة كرة قدم معلناً عن ضربات فنلندية ليست لها أية علاقة بها، وسط زمجرات أخرى قريبة ومحددة. صفعة وحشية طرحتها أرضاً، أيدٍ عنيفة أوقفتها من جديد، أصابع شرسة انغرست في نهديها وهرست حلمتيهما، هيمن عليها الخوف تماماً. أصوات مجهولة تحاصرها وتشدد الضغط عليها، كانت تفهم اسم ميغيل، ولكنها لا تعرف ما الذي يسألونها إياه، وكانت تقتصر على ترديد لا هائلة بينما هم يضربونها، يداعبونها، ينزعون عنها بلوزتها، ولم

تعد قادرة على التفكير، تردد لا ولا ولا فحسب، مقدرة كم بإمكانها أن تتحمل قبل أن تُستنفد قواها، دون أن تدري أن هذه ليست سوى البداية، إلى أن أحست بالتلاشي، وتركها الرجال هادئة، ملقاة على الأرض لزمن بدا لها قصيراً جداً.

سرعان ما سمعت من جديد صوت غارثيا، وأدركت أن يديه هما اللتان تساعدانها على النهوض، وتقتادانها إلى كرسي، وتسويان ملابسها، وتلبسانها البلوزة.

- آه، رباه! - قال - انظري كيف فعلوا بك! لقد حذرتك يا ألبا. حاولي الآن أن تهدئي، سأعطيك فنجاناً من القهوة.

انفجرت ألبا بالبكاء. السائل الدافئ أنعشها، لكنها لم تشعر بطعمه، لأنها تبتلعه مختلطاً بالدم. وكان غارثيا يمسك الفنجان ويقرّبه بحذر كأنه ممرض.

- أترغبين في التدخين؟

- أريد الذهاب إلى الحمام - قالت وهي تنطق كل حرف بصعوبة من شفتيها المتورمتين.

- طبعاً يا ألبا. سيأخذونك إلى الحمام وبعد ذلك يمكنك أن تستريحي. أنا صديقك، أفهم وضعك جيداً. إنك عاشقة ولهذا تحمينه. أنا أعرف أنه لا علاقة لك بحرب العصابات. ولكن الشباب لا يصدقونني عندما أقول لهم ذلك، لن يقتنعوا إلى أن تخبريهم أين هو ميغيل. إنهم يحاصرونه في الواقع، يعرفون أين هو، وسيقبضون عليه، ولكنهم يريدون التأكد من أنه لا علاقة لك بجماعة حرب العصابات، أتفهمينني؟ فإذا حميته، وإذا رفضت التكلم، فسوف يواصلون الشك بك. أخبريهم بما يريدون معرفته وعندئذ سأوصلك أنا بنفسي إلى بيتك. سوف تخبرينهم، أليس كذلك؟

- أريد الذهاب إلى الحمام - كررت ألبا.

- أرى أنك عنيدة مثل جدك. لا بأس. ستذهبين إلى الحمام. سأمنحك فرصة لتفكري قليلاً - قال غارثيا.

اقتادوها إلى مرحاض وكان عليها أن تتجاهل وجود الرجل الذي يمسك بها من ذراعها. ثم اقتادوها بعد ذلك إلى زنزانتها. وفي حجيرة

سجنها الضيقة والمعزولة، حاولت ترتيب أفكارها، ولكنها كانت مشوشة من آلام الضرب، والعطش، والعصابة المشدودة على صدغيها، وضجة المذياع المدوية، والرعب من الخطوات التي تقترب، والإحساس بالراحة عندما تبتعد، والصراخ والأوامر. ظلت على تلك الحال عدة ساعات، وربما عدة أيام. مرتان جاء رجل لإخراجها واقتادها إلى مرحاض نتن، حيث لم تستطع أن تغتسل، لأنه لا وجود للماء. كان يمنحها دقيقة واحدة فقط، ويُجلسها فوق المرحاض بمساعدة شخص آخر صامت ومضطرب مثلها. لم تتبين ما إذا كان رجلاً أم امرأة. لقد بكت في البدء متحسرة لأن خالها نيكولاس لم يوفر لها تدريباً خاصاً على تحمل الإذلال الذي بدا لها أسوأ من الألم، ولكنها استسلمت أخيراً لقذاراتها ولم تعد تفكر في الحاجة التي لا تطاق إلى الاغتسال. قدموا لها طعاماً مؤلفاً من ذرة طرية، وقطعة لحم دجاج صغيرة وقليلاً من المثلجات، عرفت ذلك من المذاق والرائحة والحرارة، والتهمت كل شيء سريعاً بيدها، مستغربة ذلك العشاء الفاخر وغير المتوقع في مثل هذا المكان. ولكنها علمت فيما بعد أن طعام سجناء حصن التعذيب ذاك يأتي من مقر الحكومة الجديد الذي أقيم في بناء مؤقت، لأن قصر الرؤساء القديم تحوّل إلى كومة من الأنقاض.

حاولت حساب الأيام التي انقضت منذ اعتقالها، ولكن العزلة والظلام والخوف شوشت إحساسها بالزمن وعطلت شعورها بالمكان، وصارت تتراءى لها مغاور مسكونة بمسوخ، وتتخيل أنهم خدروها وأنها بسبب ذلك تشعر بعظامها متراخية وأفكارها مجنونة. وكانت تنوي عدم الأكل أو الشرب، ولكن الجوع والعطش كانا أقوى من تصميمها. وتتساءل لماذا لم يأتِ جدّها حتى الآن لانقاذها. وتدرك، في لحظات صحوها، أن ما تعيشه ليس حلماً خبيثاً، وأنها ليست هناك نتيجة خطأ. وقررت أن تنسى حتى اسم ميغيل.

عندما اقتادوها في المرة الثالثة إلى إستيبان غارثيا، كانت ألبا أفضل استعداداً، لأنها سمعت، من خلال جدار زنزانتها، ما الذي يحدث في الحجرة المجاورة، حيث يستجوبون سجناء آخرين، ولم تعد تعلل نفسها بالأوهام. بل إنها لم تعد تحاول استحضار ذكرى غابات غرامياتها.

- لقد توفر لك وقت للتفكير يا ألبا. وسنتكلم الآن معاً بهدوء وستخبرينني أين هو ميغيل، لننتهي من هذا الموضوع بسرعة - قال غارثيا.

- أريد الذهاب إلى الحمام - ردّت عليه ألبا.

- أرى أنك تسخرين مني يا ألبا - قال - متأسف جداً، ولكننا لا نستطيع إضاعة الوقت هنا.

لم ترد عليه ألبا.

- اخلعي ثيابك! - أمرها غارثيا بصوت مختلف.

لم تتصع للأمر. عروها بعنف، منتزعين عنها بنطالها على الرغم من رفساتها. ذكرى صباها الدقيقة والقبلة التي قبّلها إياها غارثيا في الحديقة منحاها قوة الحقد. صارعت ضده، صرخت، بكت، بالت، تقيأت منه، إلى أن تعبوا من ضربها ومنحوها استراحة قصيرة، استغلتها لاستحضار أرواح جدتها المتفهمة كي تساعدها في أن تموت. ولكن أحداً لم يأت لنجدتها. رفعتها يدان، ومددتها أربع أيد على سرير معدني، متجمد، قاسٍ وممتلئ بنوابض جرحت ظهرها. قيدوا كاحليها ورسغيها بسيور جلدية.

- للمرة الأخيرة يا ألبا. أين هو ميغيل؟ - سألها غارثيا.

رفضت بصمت. فقد كانوا قد ثبتوا رأسها بحزام جلدي آخر.

- عندما تكونين مستعدة للكلام، ارفعي أحد أصابعك - قال لها.

وسمعت ألبا صوتاً آخر يقول:

- أنا سأُشغِّل الآلة.

عندئذ أحست بألم فظيع يجوب جسدها ويحتلها بالكامل، ولن تتمكن قط، طوال أيام حياتها، أن تنساه. وغرقت في الظلام.

- قلت لكم أن تتوخوا الحذر معها أيها القوادون! - سمعت صوت إستيبان غارثيا يصلها من بعيد جداً، أحست أنهم يفتحون جفنيها، ولكنها لم ترَ شيئاً سوى وميض مشوش، ثم أحست بعد ذلك بوخزة في الذراع وعادت للضياع في اللاوعي.

بعد قرن من الزمان، استيقظت ألبا مبتلة وعارية. لم تدر إن كانت مغطاة بالعرق، أم بالماء، أم بالبول، وكانت عاجزة عن الحركة، لا

تتذكر شيئاً، ولا تعرف أين هي ولا سبب ذلك الألم الشديد الذي حوّلها إلى خرقة. أحست بظمأ صحراوي وطالبت بالماء.

- تحملي يا رفيقة - قال صوت بجانبها -. تحملي حتى الغد. لأنك إذا شربتِ ماء ستصابين بتشنجات، وقد تموتين.

فتحت عينيها. لم تكونا معصوبتين. ووجه مألوف بصورة غامضة كان ينحني فوقها، ويدان تسويان الغطاء عليها.

- هل تتذكرينني؟ أنا آنا دياث. كنا زميلتين في الجامعة. ألا تذكرين؟

نفت ألبا براسها، واغمضت عينيها واسلمت نفسها لوهم الموت اللذيذ. ولكنها استيقظت بعد بضع ساعات، وعندما تحركت أحست بألم حتى في آخر ألياف بدنها.

- ستتحسنين قريباً - قالت امراة وهي تداعب وجهها وتزيح خصل شعر مبلل عن عينيها -. لا تتحركي، حوالي أن تسترخي. سأظل إلى جانبك، استريحي.

- ما الذي حدث؟ - تلعثمت ألبا.

- لقد عاملوكِ بقسوة شديدة يا رفيقة - قالت الأخرى بحزن.

- ومن أنتِ؟ - سألتها ألبا.

- آنا دياث. وأنا هنا منذ أسبوع. وقد أمسكوا بزوجي أيضاً، ولكنه مازال حياً. أرى مروره مرة كل يوم، عندما يقتادونهم إلى المرحاض.

- آنا دياث؟ - دمدمت ألبا.

- هي نفسها. لم نكن صديقتين جداً في الجامعة، ولكن من الممكن البدء دائماً. الحقيقة أن آخر شخص كنت أتوقع وجوده هنا هو أنت أيتها الكونتيسة - قالت المرأة بعذوبة -. لا تتكلمي، حاولي النوم، كي تشعري بأن الوقت أقصر. ستعود إليك ذاكرتك شيئاً فشيئاً، لا تقلقي. هذا كله بسبب الكهرباء.

ولكن ألبا لم تستطع النوم، لأن باب الزنزانة فُتح، ودخل رجل.

- ضعي العصابة على عينيها! - أمر آنا دياث.

- أرجوك...! ألا ترى أنها منهوكة جداً؟ دعها تستريح قليلاً...

- افعلي ما أقوله لكِ!

انحنت آنا على السرير الضيق ووضعت العصابة على عيني ألبا. ثم رفعت عنها الغطاء وحاولت أن تُلبسها ثيابها، لكن الحارس دفعها بعيداً، وشد السجينة من ذراعيها لتجلس. دخل حارس آخر لمساعدته، وتعاون الاثنان على اقتيادها محمولة، لأنها عاجزة عن المشي. كانت ألبا متأكدة من أنها آخذة بالموت، إذا لم تكن قد ماتت وانتهت. أحست أنهم يتقدمون عبر الممر حيث يرتد صدى وقع الخطوات. شعرت بيد تلمس وجهها، وترفع رأسها.

ـ يمكنكم أن تسقوها ماءً. نظفوها وأعطوها حقنة أخرى. وانظروا إن كانت قادرة على ابتلاع رشفة من القهوة، ثم أحضروها لي ـ قال غارثيا.

ـ وهل نُلبسها ثيابها أيها الكولونيل؟

ـ لا.

ظلت ألبا بين يدي غارثيا وقتاً طويلاً. وكان قد انتبه بعد بضعة أيام إلى أنها قد عرفته، ولكنه لم يتخلَ عن احتياط استبقائها معصوبة العينين، حتى عندما يكونان وحدهما. كانوا يأتون في كل يوم بمعتقلين جدد أو يأخذونهم. وكانت ألبا تسمع السيارات، والصرخات، والبوابة التي تنغلق، وحاولت أن تحسب عدد المعتقلين، ولكن ذلك كان شبه مستحيل. قدرت آنا دياث أن العدد حوالي مئتي سجين. لقد كان غارثيا مشغولاً جداً، ولكنه لم يترك يوماً يمر دون أن يرى ألبا، مستبدلاً العنيف بين حين وآخر بكوميديا الصديق الطيب. كان يبدو في بعض الأحيان متأثراً حقاً، يطعمها بيده ملاعق الحساء، ولكنه في اليوم الذي غطّس رأسها في دلو ممتلئ بالبراز، إلى أن غابت عن الوعي من القرف، أدركت ألبا أنه لا يحاول التقصي عن مكان وجود ميغيل، وإنما هو ينتقم لمهانات حلّت به منذ مولده، وأنه لا يمكن لأي شيء تعترف به أن يبدل مصيرها كسجينة خاصة لدى الكولونيل غارثيا. عندئذ تمكنت من الخروج شيئاً فشيئاً من دائرة رعبها الخاص وراحت تقلص من خوفها إلى أن استطاعت الشعور بالشفقة على الآخرين، على من يعلقونهم من أذرعهم، وعلى القادمين الجدد، وعلى ذلك الرجل الذي مرّوا بشاحنة على

قدميه المقيدتين. أخرجوا جميع السجناء إلى الفناء، عند الفجر، وأجبروهم على النظر، لأنها كانت مسألة تصفية حساب شخصي بين الكولونيل وسجينه. كانت تلك هي المرة الأولى التي تفتح فيها ألبا عينيها خارج ظلام زنزانتها، فلم تتحمل بريق الفجر الناعم ووميض الصقيع الذي يلمع بين الحجارة حيث تجمعت برك من ماء المطر في الليل، لأنهما بدوا لها مبهرين بصورةٍ لا تطاق. جروا الرجل الذي لم يُبدِ أية مقاومة، ولكنه لم يكن قادراً على الوقوف أيضاً، وتركوه في منتصف الفناء. كان الحراس يغطون وجوههم بمناديل معقودة حول رؤوسهم، كيلا يتم التعرف عليهم إذا ما حدث ما هو غير ممكن الحدوث وتبدلت الظروف. أغمضت ألبا عينيها عندما سمعت محرك الشاحنة، ولكنها لم تستطع سدّ أذنيها عن صيحة الألم المدوية التي ظلت تتردد في ذاكرتها إلى الأبد.

لقد ساعدتها آنا دياث على الصمود خلال الفترة التي أمضيتاها معاً. وقد كانت امرأة صلبة لا يمكن كسرها. تحملت كل الفظاعات، فقد اغتصبوها أمام رفيقها، وعذبوهما معاً، ولكنها لم تفقد القدرة على الابتسام أو الأمل. ولم تفقدها كذلك عندما أخذوها إلى عيادة سرية للشرطة السياسية، لأنها بعد إحدى جولات التعذيب فقدت الطفل الذي كانت تنتظر ولادته وبدأت تنزف بغزارة.

- ليس مهماً، سيكون لي ذات يوم ابن آخر - قالت لألبا عندما رجعت إلى الزنزانة.

وفي تلك الليلة سمعتها ألبا تبكي أول مرة، وكانت تغطي وجهها بالدثار لتكتم حزنها. اقتربت ألبا منها، عانقتها، احتضنتها، مسحت دموعها، وقالت لها كل الكلمات العذبة التي استطاعت تذكرها، غير أنه لم يكن هناك عزاء يهدئ آنا دياث في تلك الليلة، فاكتفت ألبا بهزها بين ذراعيها، وهدهدتها كطفل، متمنية لو أنها تتمكن هي نفسها أن تحمل على كاهلها ذلك الألم الرهيب للتخفيف عنها. وطلع عليهما الصباح وهما متعانقتان كجروين صغيرين. في النهار، كانتا تنتظران بلهفة لحظة مرور رتل الرجال الطويل باتجاه الحمام. كانوا يمرون معصوبي العيون، يضع كل منهم يده على كتف من هو أمامه كيلا

يحيد عن الطريق، بينما يحرسهم حراس مسلحون. وكان أندريس يمضي بينهم. ومن خلال نافذة ضيقة بقضبان حديدية في زنزانتهما، تتمكنان من رؤيتهم يمرون على مقربة منهما، بحيث تستطيعان لمسهم لو أتيح لهما إخراج أيديهم من النافذة. وفي كل مرة يمرون، تبدأ آنا وألبا الغناء بقوة اليأس، وتتعالى من الزنازين الأخرى أيضاً أصوات نسائية. عندئذ تنتصب قامات السجناء، يرفعون أكتافهم ويلتفتون نحوهن، ويبتسم أندريس. كان يرتدي قميصاً ممزقاً وملطخاً ببقع دم جافة.

تأثر أحد الحراس بنشيد النساء. وفي إحدى الليالي جاءهما بثلاث قرنفلات في علبة معدنية مملوء بالماء لتزيين النافذة. وفي يوم آخر قال لآنا دياث إنه بحاجة إلى متطوعة لتغسل ملابس سجين وتنظيف زنزانته. قادها إلى حيث أندريس وتركهما وحيدين لدقائق. وعندما عادت آنا دياث كانت قد تبدلت تماماً، ولم تتجرأ ألبا على التحدث إليها كيلا تقطع عليها سعادتها.

في أحد الأيام، فاجأ الكولونيل غارثيا نفسه يداعب ألبا كعاشق ويحدثها عن طفولته في الريف، حين كان يراها تمرّ من بعيد، ممسكة بيد جدها، ومرتدية صداراتها المنشاة، تحيط بوجهها هالة ضفيرتي شعرها الأخضر، بينما هو حافي القدمين في الوحل. يقسم أنه سيجعلها تدفع ذات يوم غالياً ثمن كبريائها، وسينتقم من قدره اللعين كابن غير شرعي. كانت ألبا متيبسة وغائبة، عارية ترتعش من التقزز والبرد، لم تكن تسمعه أو تشعر به، ولكن ذلك الشرخ في تلهف الكولونيل لتعذيبها دوى في أعماقه كجرس إنذار. أمر بوضع ألبا في وجار الكلب، وتهيأ وهو غاضب لنسيانها تماماً.

وجار الكلب هو زنزانة ضيقة محكمة مثل قبر بلاهواء، مظلمة ومتجمدة. وكان يوجد ست زنازين من هذا النوع، أقيمت كأمكنة عقاب في مستنقع أُفرغ من الماء. يوضع فيها السجناء لفترة قصيرة إلى هذا الحد أو ذاك، لأنه لا يمكن لأحد أن يصمد فيها طويلاً، وإنما لأيام قليلة وحسب، قبل أن يبدأ بالتهويم، وفقدان مفهوم الأشياء، ومعنى الكلمات، وغم الزمن، أي قبل أن يبدأ بالموت بكل بساطة. تكورت ألبا

في البدء على نفسها في قبرها، دون أن تتمكن من الجلوس أو التمدد على الرغم من ضآلة حجمها، محاولة أن تحمي نفسها من الجنون. وأدركت في عزلتها كم هي بحاجة إلى آنا ديات. خيل إليها أنها تسمع دقات بعيدة وغير مفهومة كما لو أنها رسائل مشفرة تُرسل إليها من زنازين أخرى، ولكنها سرعان ما تخلت عن الاهتمام بها، لأنها أدركت أن أي طريقة للتواصل ستكون غير مجدية. استسلمت، وقررت إنهاء عذاباتها دفعة واحدة، فتوقف عن الأكل واقتصرت على شرب جرعة ماء كلما تغلب عليها ضعفها. حاولت عدم التنفس، وعدم التحرك، وراحت تنتظر الموت بفارغ الصبر. ظلت على هذه الحال وقتاً طويلاً. وعندما كانت على وشك التوصل إلى هدفها، ظهرت لها جدتها كلارا، وكانت قد استدعتها مرات كثيرة لتساعدها على الموت، تراودها فكرة أن النعمة ليست في الموت، لأن الموت سيأتي على كل حال، وإنما في البقاء على قيد الحياة، لأن هذا البقاء هو المعجزة. رأت جدتها مثلما كانت تراها دائماً في طفولتها، بردائها البيتي الكتاني الأبيض، وقفازي الشتاء، وابتسامتها الدرداء شديدة العذوبة، والبريق الخبيث في عينيها اللتين بلون البندق. حملت إليها كلارا الفكرة المنقذة بالكتابة ذهنياً، دون قلم ولا ورقة، من أجل إبقاء ذهنها مشغولاً، وتجنب التفكير في وجار الكلب، ومواصلة العيش. واقترحت عليها أيضاً أن تكتب شهادة يمكن لها أن تُخرج إلى النور ذات يوم السر الرهيب الذي تعيشه، كي يطلع العالم على الأهوال التي تحدث بموازاة الحياة الهادئة والمنظمة لمن لا يريدون أن يعرفوا، لمن يمكنهم التوهم بحياة عادية، لمن يمكن لهم أن ينكروا أنهم يعومون على طوف في بحر من الحسرات والآهات، متجاهلين، على الرغم من الوقائع الجلية، أنه على بعد أمتار عن عالمهم السعيد يوجد الآخرون، من يحافظون على بقائهم أو يموتون في الجانب المظلم. «هناك الكثير مما يتوجب عليك عمله، فدعك من الشكوى، اشربي ماء، وابدئي الكتابة»، قالت كلارا لحفيدتها وهي تختفي مثلما ظهرت.

حاولت ألبا الإذعان لطلب جدتها، ولكنها ما إن بدأت التدوين ذهنياً حتى امتلأ وجار الكلب بشخوص قصتها الذين دخلوا متزاحمين وشوشوها

بحكاياتهم، برذائلهم وفضائلهم، مقوضين نواياها التوثيقية وملقين أرضاً بشهادتها وهم يضايقونها، يلحون عليها، يستعجلونها، بينما هي تدون بأقصى سرعة، وبيأس، لأنها كلما انتهت من كتابة صفحة تكون سابقتها قد امحت. أبقاها هذا النشاط مشغولة. كانت تفقد خيط الأحداث بسهولة في البدء، وتنسى بالقدر نفسه الذي تتذكر به وقائع أخرى. وكان أدنى سهو أو أقل قدر من الخوف أو الألم يشوش قصتها ككبة خيطان مختلطة. ولكنها ابتدعت شيفرة خاصة لتذكر تسلسل الأمور، وعندئذ استطاعت الغوص في قصتها الخاصة بعمق شديد تخلت معه عن الأكل، والحك، والشم، والشكوى، وتوصلت إلى التفوق على آلامها الكثيرة واحداً فواحداً.

سرت شائعة أنها تحتضر. فتح الحراس باب وجار الكلب وسحبوها منها دون مشقة، لأنها كانت خفيفة جداً. حملوها من جديد إلى الكولونيل غارثيا الذي كان قد جدد أحقاده في ذلك الحين، ولكن ألبا لم تتعرف عليه. لقد كانت في ما وراء سلطته.

منظر الكريستوف كولومبس، من الخارج، مازال المنظر القديم نفسه الشبيه بمدرسة ابتدائية، مثلما أحتفظ به في ذاكرتي. لقد نسيتُ عدد السنوات التي انقضت منذ المرة الأخيرة التي كنت فيها هناك، وأوهمت نفسي بأنه قد يخرج لاستقبالي مصطفى الزمن القديم نفسه، ذلك الزنجي الضارب إلى الزرقة، بملابسه كطيف شرقي وصفي أسنانه الرصاصية وتهذبه كوزير. والزنجي الحقيقي الوحيد في البلاد، لأن الآخرين جميعهم مصبوغون، كما أكدت لي ترانسيتو سوتو. ولكن ما توقعته لم يحدث. فقد اقتادني بواب إلى حجرة صغيرة جداً، وأشار إلى مقعد وطلب مني الانتظار. وبعد قليل ظهرت، بدلاً من مصطفى الرائع، سيدة لها مظهر خالة ريفية كئيبة ومرتبة، ترتدي زياً أزرق اللون مع ياقة بيضاء منشاة، وقد جفلت قليلاً حين رأتني عجوزاً طاعناً في السن. وكانت تحمل وردة حمراء في يدها.

- هل السيد آت بمفرده؟ - سألتني.

ـ لقد جئت وحدي بالطبع! ـ صحت.

قدمت لي المرأة الوردة وسألتني أية غرفة أُفضل.

ـ لا فرق عندي ـ أجبتها متفاجئاً.

ـ الغرف الشاغرة الآن هي الاسطبل، والمعبد، وألف ليلة وليلة. أيها تريد؟

ـ ألف ليلة وليلة ـ قلت دون اهتمام.

اقتادتني عبر ممر طويل معلّم بأنوار خضراء وأسهم حمراء. كنت أستند إلى عكازي، وأجرجر قدمي، والحق بها بصعوبة. وصلنا إلى فناء صغير حيث ينتصب قصر شرقي مصغر ومزود بقناطر سخيفة من زجاج ملون.

ـ هنا. وإذا كنت ترغب في تناول شراب اطلبه بالهاتف ـ قالت وهي تشيرلي.

ـ أريد التحدث إلى ترانسيتو سوتو. وهذا ما جئت من أجله ـ قلت.

ـ متأسفة، ولكن السيدة لا تقابل الزبائن. إنها تقابل الممونين فقط.

ـ يجب أن أكلمها! أخبريها أني السيناتور تروييا. إنها تعرفني.

ـ لا تستقبل أحداً، لقد أخبرتك ـ كررت المرأة وهي تقاطع ذراعيها.

رفعتُ عكازي وقلت لها إن لم تظهر ترانسيتو سوتو شخصياً خلال عشر دقائق، سأبدأ بتكسير الزجاج وكل ما هو موجود في صندوق باندورا ذاك. تقهقرت المرأة مرعوبة. وفتحتُ باب البناء الشرقي ووجدت نفسي داخل محاكاة تافهة لقصر الحمراء. درج صغير من خزف الزلاج الأزرق، مغطى بسجادة فارسية زائفة، يؤدي إلى حجرة سداسية الأضلاع تعلوها قبة في السقف، حيث وضع أحدهم كل ما ظن أنه موجود في حريم عربي، دون أن يكون قد ذهب هناك قط: حشايا من الدمقس، ومجامر بخور وطيب من البلور، وأجراس وكل أنواع توافه البازار الرخيصة. وبين الأعمدة المكرورة إلى ما لا نهاية بفضل توزيع حكيم للمرايا، رأيتُ حماماً من موزاييك أزرق أوسع من الغرفة نفسها، فيه حوض كبير قدرتُ أنه بالإمكان أن تُغسل فيه بقرة، ويمكن بالتالي لعاشقين لعوبين أن يتقلبا فيه على هواهما. لم يعد المكان يشبه في أي شيء الكريسوف كولومبس الذي عرفته من قبل. جلست بمشقة على السرير المستدير، وقد أحسست فجأة بالتعب. كانت عظامي الهرمة تؤلمني. رفعت

رأسي وأعادت لي مرآة في السقف صورتي: جسد بائس متضائل، ووجه بطريرك توراتي حزين تخطه تجاعيد مريرة، وبقايا لبدة بيضاء. «كيف مضى الزمن!» تنهدت.

دخلت ترانسيتو سوتو بغتة.

- كم تسعدني رؤيتك أيها السيد المالك - حيتني كعادتها.

لقد تحولت إلى امرأة ناضجة، نحيلة، مع عقيصة شعر صارمة، وكانت ترتدي فستاناً أسود من الصوف، وحول عنقها عقد مزدوج من لؤلؤ فاخر، وبدت مهيبة وهادئة، أقرب إلى عازفة بيانو في مظهرها منها إلى صاحبة ماخور. وجدتُ صعوبة في الربط بينها وبين المرأة التي عرفتها قديماً وحول سرتها وشم أفعى. نهضتُ واقفاً لأحييها ولم استطع رفع الكلفة معها كما في السابق.

- تبدين في حالة جيدة يا ترانسيتو - قلت مقدراً أنها يجب أن تكون قد تجاوزت الخامسة والستين من العمر.

- لقد سارت أموري على ما يرام أيها السيد. هل تتذكر أني قلت لك عندما تعارفنا أنني سأصير ثرية ذات يوم - قالت مبتسمة.

- يسعدني أنك توصلت إلى مرادك.

جلسنا جنباً إلى جنب على السرير الدائري. سكبت ترانسيتو كأس كونياك لكل منا، وأخبرتني أن تعاونية العاهرات والمخنثين كانت تجارة رائجة طوال عشر سنوات، ولكن الأزمنة تغيرت وكان علينا أن نقوم بالتفافة أخرى في العمل، فبسبب تحرر العادات، والحب الحر، وأقراص منع الحمل وغيرها من الاختراعات، لم يعد هناك من يحتاج إلى الدعارة، باستثناء البحارة والشيوخ. وقالت: «البنات المحترمات يضاجعن مجاناً الآن، فتصور المنافسة». وأوضحت لي أن التعاونية بدأت تفلس، واضطرت شريكاتها إلى العمل في مهن أخرى أفضل دخلاً، وحتى مصطفى رجع إلى موطنه. عندئذ فكرت في أن ما تحتاج إليه هو فندق مواعيد، مكان لطيف يمكن فيه لعاشقين سريين ممارسة الحب، وحيث لا يخجل رجل من المجيء من خطيبته أول مرة. نحن لا نقدم نساء، فهؤلاء يأتي بهن الزبون نفسه. وقامت هي نفسها بتصميم الديكور، مجارية دوافع مخيلتها

وآخذة في الاعتبار ذوق الزبائن، وبفضل رؤيتها التجارية التي دفعتها إلى خلق جو مختلف في كل ركن متوافر، تحول فندق الكريستوف كولومبس إلى فردوس الأرواح التائهة والعشاق المتخفين. هيأت ترانسيتو سوتو صالونات فرنسية بأثاث منجد بالحرائر، ومذاود مفروشة بحشيش طري مع أحصنة من كرتون حجري تتأمل العاشقين بعيونها الثابتة التي من زجاج ملون، وكهوف من عصور ما قبل التاريخ فيها نوازل، وهواتف مغلفة بجلود نمور البوما.

ـ بما أنك لم تأت من أجل ممارسة الحب أيها السيد، فلنذهب للتحدث في مكتبي، ولنترك هذه الحجرة للزبائن ـ قالت ترانسيتو سوتو.

أخبرتني أن الشرطة السياسية، بعد وقوع الانقلاب العسكري، قامت بتفتيش الفندق مرتين، ولكنهم في كل مرة أخرجوا فيها أزواج العشاق من أسرتهم ودفعوهم بالمسدسات إلى الصالون الرئيسي، كانوا يجدون بين الزبائن جنرالاً أو اثنين، فاضطروا إلى التوقف عن ازعاجنا. إن لها علاقات جيدة بالحكومة الجديدة، مثلما كانت مع الحكومات السابقة. قالت لي إن الكريستوف كولومبس مشروع مزدهر، وإنها في كل سنة تجدد بعض أعمال الديكور، وتستبدل ديكور الناجين من الغرق في إحدى الجزر البولينيزية بمشاهد صارمة من حجرات أديرة الراهبات، أو تستبدل أراجيح باروكية بمنصات تعذيب، وفق الموضة الرائجة، وإنها تستطيع إدخال كل تلك الأشياء الكثيرة في بيت ذي ابعاد عادية نسبياً بفضل تلاعب بارع بالمرايا والأضواء، مما يتيح الوهم باتساع المكان والتلاعب بالمناخ، وخلق اللامتناهي وتعليق الزمن.

وصلنا إلى مكتبها، وكان مصمماً على شكل كابينة طائرة، ومنه تدير تنظيمها غير المعقول بفعالية مدير مصرف. أخبرتني بأعداد ملاءات الأسرة التي يغسلونها كل يوم، وكميات الورق الصحي المستخدمة، وكم من المشروبات تُستهلك، وكم من بيوض التدرج تُطهى كل يوم ـ إنها منشطة للقدرة الجنسية ـ، وكم من المستخدمين تحتاج، وكم ترتفع قيمة فواتير الكهرباء والماء والهاتف، من أجل الإبقاء على حاملة طائرات الغراميات المحظورة تلك طافية.

ـ أخبرني الآن أيها السيد ما الذي أستطيع عمله من أجلك ـ قالت ترانسيتو سوتو أخيراً، وهي تستريح في مقعدها المتحرك كمقعد ملاح جوي، بينما أصابعها تلعب بلآلئ عقدها ـ أظن أنك آت لأرد لك الجميل الذي أدين به منذ نصف قرن، أليس كذلك؟

وأنا الذي كنت أنتظر أن تسألني هي نفسها، فتحتُ عندئذ سيل جزعي ورويت لها كل شيء، دون أن أستبقي شيئاً، ودون لحظة توقف واحدة، من البداية حتى النهاية. قلت لها إن ألبا هي حفيدتي الوحيدة، وإنني رحت أبقى وحيداً في هذا العالم، وأن جسدي وروحي قد تضاءلا، مثلما قالت فيرولا وهي تلعنني، والشيء الوحيد المتبقي لي هو أن أموت مثل كلب، وهذه الحفيدة ذات الشعر الأخضر هي آخر ما تبقى لي، والكائن الوحيد الذي يهمني حقاً، وإنها، لسوء الحظ، ولدت مثالية، وهذا مرض في الأسرة، إنها من أولئك الأشخاص المقدر لهم أن يحشروا أنفسهم في المشاكل، وجعل من حولهم يتألمون من أجلهم، وقد خطر لها أن تساعد في لجوء هاربين إلى السفارات، وأنا متأكد من أنها فعلت ذلك دون تفكير، دون أن تدرك أن البلاد في حالة حرب... حرب ضد الشيوعية العالمية أو ضد الشعب، لم يعد يُعرف أي شيء، ولكنها حرب في نهاية المطاف، وهذه أمور يعاقب عليها القانون، ولكن ألبا تهيم دائماً في القمر ولا تنتبه إلى المخاطر، إنها لا تفعل ذلك عن خبث، بل على العكس تماماً، تفعله لأن قلبها جامح، مثلما كان قلب جدتها التي مازالت تقدم العون للفقراء من وراء ظهري في غرف البيت المهجورة، كلارتي نافذة البصيرة، وأي شخص كان يأتي إلى ألبا ويروي حكاية عن أنهم يلاحقونه، يتوصل إلى جعلها تجازف بجلدها لمساعدته، حتى لو كان مجهولاً تماماً، وقد قلتُ لها ذلك، وحذرتها مرات كثيرة من أنهم قد ينصبون لها فخاً ويتبين في أحد الأيام أن الماركسي المزعوم ما هو إلا عميل للشرطة السياسية، ولكنها لم تعرني اهتماماً، وهي لم تعرني اهتماماً قطّ في حياتها، إنها أشد عناداً مني، ومع ذلك، لا يمكن أن يكون تأمين لجوء لشيطان بائس بين حين وآخر إساءة، ليس بالأمر الخطير الذي يستدعي اعتقالها، دون الأخذ في الاعتبار أنها حفيدتي،

حفيدة سيناتور للجمهورية، وعضو بارز في الحزب المحافظ، لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك بشخص من بيتي بالذات، ففي هذه الحالة، أية شياطين ستبقى للآخرين، إذا كان أناساً مثلي يُعتقلون، فهذا يعني أنه لا أحد بمنجى من الاعتقال، وأنه لا نفع لأكثر من عشرين سنة في عضوية الكونغرس، وامتلاك كل العلاقات التي أملكها، فأنا أعرف الجميع في هذه البلاد، أو جميع الناس المهمين على الأقل، بمن في ذلك الجنرال هورتادو، وهو صديقي الشخصي، ولكنه لم يفدني في شيء في هذه المسألة، وحتى الكردينال نفسه لم يستطع مساعدتي في تحديد مكان حفيدتي، من غير المعقول أن تختفي كما في أعمال السحر، أن يأخذوها ذات ليلة ثم لا أتمكن من معرفة شيء عنها، لقد أمضيتُ شهراً في البحث وبدأ هذا الوضع يصيبني بالجنون، وهذه هي الأمور التي تشوه سمعة المجلس العسكري في الخارج وتوفر موطأ قدم لتبدأ الأمم المتحدة الازعاج بمسالة حقوق الإنسان، أنا لم أشأ في البدء سماع أي كلام عن القتلى، وعن التعذيب، وعن المختفين، ولكنني لم أعد قادراً الآن على مواصلة التفكير في أنها مجرد افتراءات شيوعية، إذا كان الأمريكيون أنفسهم، وهم أول من ساعد العسكريين وأرسلوا طياريهم الحربيين لقصف قصر الرؤساء، صاروا يصرخون مستنكرين المجزرة، وهذا لا يعني أنني ضد القمع، فأنا أتفهم أنه لا بد في البدء من الحزم لفرض النظام، ولكنهم مضوا بعيداً، وهم يبالغون في الأمور وفي مسألة الأمن الداخلي وأنه لا بد من تصفية العدو الأيديولوجي، إنهم يقضون على الجميع، ولا يمكن لأحد أن يوافق على ذلك، حتى أنا نفسي، من كنتُ أول من رمى ريش الدجاج على طلاب الأكاديمية العسكرية وروج للانقلاب، قبل أن تخطر الفكرة لأذهان الآخرين، وكنت أول من صفق لهم، وحضرت قداس الشكر في الكاتدرائية، ولهذا كله لا يمكنني القبول بأن تحدث هذه الأشياء في وطني، أن تختفي آثار الناس، وأن يجرجروا حفيدتي من البيت بالقوة دون أن أتمكن من منعهم، لم تحدث مثل هذه الأمور قط هنا، لهذا، ولهذا بالضبط، اضطررت اليوم إلى المجيء للتحدث إليك يا ترانسيتو، لم يخطر ببالي قط، منذ خمسين

عاماً، عندما كنتِ مجرد فتاة بائسة في القنديل الأحمر، أنني سأضطر يوماً إلى المجيء إليك للتوسل جاثياً أن تقدمي لي هذا الصنيع، أن تساعديني في العثور على حفيدتي، إنني أتجرأ على الطلب منك لأنني أعرف أن لك علاقات جيدة مع الحكومة، لقد حدثوني عنكِ، وأنا متأكد من أنه ليس هناك من يعرف أفضل منك الشخصيات المهمة في القوات المسلحة، أعرف أنكِ تنظمين لهم حفلاتهم ويمكنك الوصول إلى حيث لن يتاح لي الوصول أبداً، لهذا أطلب منكِ أن تفعلي شيئاً من أجل حفيدتي، قبل أن يفوت الوقت، لأنني لم أعد أستطيع النوم منذ أسابيع، لقد جلت على كل المكاتب، وعلى كل الوزارات، وعلى كل الأصدقاء القدماء، دون أن يتمكن أحد من مساعدتي، بل إنهم لا يريدون استقبالي، يجبرونني على البقاء في قاعة الانتظار لساعات، يفعلون بي ذلك أنا الذي قدمتُ خدمات كثيرة لهؤلاء الأشخاص أنفسهم يا ترانسيتو، اطلبي مني كل ما تشائين، فأنا مازلت رجلاً ثرياً، على الرغم من أن أموري ساءت في أزمنة الشيوعية، فقد صادروا أراضيّ، لابد أنكِ علمتِ بذلك، لا بد أنكِ رأيت ذلك في التلفزيون وفي الصحف، لقد كانت فضيحة، فقد أكل أولئك الفلاحون الجهلة ثيراني الفحلة، واستعملوا أفراسي الأصيلة في جر المحاريث، وحولوا الماريات الثلاث إلى خراب خلال أقل من سنة، ولكنني ملأتُ الإقطاعية الآن بالجرارات وأنا أنهض من جديد، مثلما فعلت ذلك في مرة سابقة، حين كنتُ شاباً، وأنا أفعله الآن بعد أن صرت عجوزاً، ولكنني عجوز غير منتهٍ، بينما أولئك التعساء الذين حصلوا على وثائق ملكية لأملاكي، أملاكي الخاصة، يموتون الآن من الجوع، مثل سرب من القطط المنتوفة، يبحثون عن عمل بائس ليقيموا أودهم، يا لهم من تعساء، فهم غير مذنبين، لقد خُدعوا بالإصلاح الزراعي اللعين، لقد غفرت لهم في أعماق نفسي وأرغب في أن يعودوا إلى الماريات الثلاث، حتى إنني نشرت إعلانات في الصحف لدعوتهم، وسوف يعودون ذات يوم، ولن أجد مفراً من مدّ يدي إليهم، فهم طيبون كالأطفال، ولكنني لم أجئ لأكلمك في هذا الشأن يا ترانسيتو، لا أريد إضاعة وقتك، المهم أنني في وضع مادي جيد وأعمالي

تمضي على ما يرام، وبإمكاني أن أقدم لك كل ما تشائين، أي شيء تطلبينه، مقابل أن تعثري لي على حفيدتي ألبا قبل أن يواصل أحد المتوهين إرسال أصابع مقطوعة لي أو يبدأ بإرسال آذان لينتهي إلى إصابتي بالجنون أو إماتتي بسكتة قلبية، اعذريني لما صرتُ إليه، يداي ترتجفان، وأنا عصبي جداً، لا أجد تفسيراً لما حدث، طرد بريدي يصلني وما فيه ليس إلا ثلاثة أصابع بشرية، مقطوعة من أصلها، إنها مزحة جهنمية تجلب لي ذكريات قديمة، ولكن تلك الذكريات لا علاقة لها بألبا، فحفيدتي لم تكن قد ولدت آنذاك، مما لا شك فيه أن لدي أعداء كثيرين، جميعنا نحن السياسيين لنا أعداء، ولا غرابة في يكون هناك شخص غير سوي ومستعد لمضايقتي بأرسال أصابع في البريد، وأن يأتي ذلك بالضبط في الوقت الذي أشعر فيه باليأس بسبب اعتقال ألبا، ليُدخل إلى راسي أفكاراً مريعة، ولولا أن قواي صارت في آخر حدودها، بعد أن استنفدتُ كل الوسائل، لما جئتُ لإزعاج حضرتك، أرجوك يا ترانسيتو، باسم صداقتنا القديمة، أشفقي عليّ، إنني عجوز بائس مدمر، أشفقي عليّ وابحثي عن حفيدتي ألبا قبل أن ينتهي بهم الأمر إلى أرسالها إليّ أشلاء مقطعة، وأجهشتُ بالبكاء.

لقد توصلت ترانسيتو سوتو إلى الوضع الذي هي عليه، بفضل عوامل كثيرة، أحدها أنها تعرف كيف تسدد ديونها. وأظن أنها استخدمت معرفتها بالجانب الأكثر سرية لدى الرجال الذين في السلطة كي تعيد إلي الخمسين بيزو التي استدانتها مني ذات يوم. فبعد يومين من لقائي بها اتصلت بي هاتفياً، وقالت:

- أنا ترانسيتو سوتو أيها السيد. لقد أنجزتُ المهمة.

خاتمة

ليلة أمس مات جدي. لم يمت ككلب مثلما كان يخشى، وإنما بهدوء بين ذراعيَّ وهو يخلط بيني وبين كلارا، وفي لحظات أخرى بيني وبين روسا، مات دون ألم ودون غم، وكان واعياً وهادئاً، وأشد صفاء ذهن وسعادة من أي وقت مضى. إنه مسجى الآن على سفينة البحر الساكن الشراعية، يرقد مبتسماً وهادئاً، بينما أنا أكتب على مضدة الخشب الأشقر التي كانت لجدي. لقد فتحتُ ستائر الحرير الزرقاء كي يدخل الصباح ويُبهج هذه الغرفة. وفي القفص القديم، إلى جانب النافذة، يوجد كناري جديد يغني. ومن وسط الغرفة، تنظر إليَّ عينا *باراباس* الزجاجيتان. لقد أخبرني جدي أنه أُغمي على كلارا يوم رغب في أن يُسعدها وفرش لها البساط المصنوع من جلد الحيوان. وقد ضحكنا حتى سالت دموعنا وقررنا الذهاب إلى القبو للبحث عن بقايا *باراباس* المسكين، والمهيب في تكوينه البيولوجي العصي على التصنيف، بالرغم من مرور الزمن ومن الهجران، وأن نضعه في المكان نفسه الذي وضعه فيه جدي قبل نصف قرن تكريماً لأكثر امرأة أحبها في حياته.

- فلنتركه هنا، في المكان الذي كان يتوجب أن يكون فيه دائماً - قال.

لقد وصلتُ إلى البيت في صباح يوم شتائي مشرق، في عربة يجرها حصان نحيل. وبدا الشارع، بصفي أشجار الكستناء المئوية وبيوته الإقطاعية، مشهداً مناسباً للعربة المتواضعة، ولكنها عندما توقفت، أمام بيت جدي بدت متناسقة تماماً مع طرازه. كان بيت الناصية الكبير أشد كآبة وقِدماً مما أتذكره، وعبثياً بشذوذاته المعمارية ومحاكاته المزعومة للطراز الفرنسي، وبواجهته المغطاة بلبلاب موبوء. كانت الحديقة أجمة متشابكة، وجميع درفات النوافذ تقريباً تتدلى معلقة بمفصلاتها. كانت البوابة الخارجية مفتوحة، مثلما هي الحال دائماً. قرعتُ الجرس،

وبعد لحظات سممت وقع خُفٍّ يقترب، وفتحت لي الباب خادمة مجهولة. نظرت إليّ دون أن تعرفني، وأحسست في أنفي برائحة الخشب البديعة وعزلة البيت الذي ولدتُ فيه. امتلأت عيناي بالدموع. ركضت باتجاه المكتبة، متوقعة أن جدي ينتظرني حيث يجلس دوماً، وقد كان هناك بالفعل، منكمشاً على نفسه على الأريكة. فوجئت برؤيته بتلك الشيخوخة، وبتلك الضآلة وذلك الارتجاف، لا يحتفظ من الماضي إلا بلبدة شعره البيضاء وعكازه الفضي الثقيل. تعانقنا بقوة لوقت طويل ونحن نهمس جدي، ألبا، ألبا، جدي، وتبادلنا القبلات، وعندما رأى يدي انفجر بالبكاء وراح يطلق اللعنات ويضرب الأثاث بعصاه، مثلما كان يفعل من قبل، فضحكتُ، لأنه لم يكن عجوزاً هرماً ومنتهياً بالقدر الذي تصورته في البدء.

في ذلك اليوم بالذات أراد جدي أن نغادر البلاد. كان خائفاً عليّ. ولكنني قلت له إنني لا أستطيع الذهاب، لأني بعيداً عن هذه الأرض سأكون مثل الأشجار التي يقطعونها من أجل عيد الميلاد، أشجار الصنوبر البائسة تلك التي تدوم لبعض الوقت بلا جذورها ثم تموت.

ـ لستُ أبله يا ألبا ـ قال وهو ينظر إليّ بثبات ـ. السبب الحقيقي لرغبتك في البقاء هو ميغيل، أليس كذلك؟

فوجئت. فأنا لم أكلمه من قبل قطّ عن ميغيل.

ـ مذ تعرفتُ عليه، علمتُ أنني لن أتمكن أبداً من إخراجكِ من هنا يا صغيرتي ـ قال بأسى.

ـ تعرفتَ عليه؟ أهو حيّ يا جدي ـ هززته وأنا أتشبث بثيابه.

ـ كان حياً في الأسبوع الماضي، عندما التقينا آخر مرة ـ قال.

أخبرني أن ميغيل ظهر في بيت الناصية الكبير ذات ليلة بعد اعتقالي. وكان على وشك أن يصاب بسكتة من الرعب، ولكنه أدرك بعد دقائق قليلة أن لديهما هدفاً مشتركاً: انقاذي. وبعد ذلك صار ميغيل يتردد بكثرة للقاء به، وكان يرافقه في وحدته، وقد ضافرا جهودهما للبحث عني. وكان ميغيل هو من خطرت له فكرة الذهاب للقاء ترانسيتو سوتو، وهي فكرة ما كانت ستخطر للجد أبداً.

- صدقني يا سيدي. أنا أعرف من يمسك بالسلطة في هذه البلاد. جماعتي متغلغلة في كل الأنحاء. وإذا كان هناك شخص قادر على مساعدة ألبا في هذه الأوقات، فإن ذلك الشخص هو ترانسيتو سوتو - أكد له.

- إذا توصلنا إلى انقاذها من براثن الشرطة السرية يا بني، سيكون عليها مغادرة البلاد. اذهبا معاً. يمكنني الحصول لكما على تصريح مرور، ولن ينقصكما المال - عرض عليه الجد.

ولكن ميغيل نظر إليه كما لو أنه عجوز مخبول وبادر إلى التوضيح له أن لديه مهمة عليه إنجازها ولا يمكنه الخروج من البلاد هارباً.

- وكان لا بد لي من الإذعان لفكرة بقائك هنا على الرغم من كل شيء - قال الجد وهو يعانقني -. والآن، أخبريني بكل شيء. أريد أن اعرف كل شيء حتى أدق التفاصيل.

وهكذا رويت كل شي. قلت له إنهم أخذوني، بعد أن التهبت يدي، إلى عيادة سرية يرسلون إليها المعتقلين الذين لا يريدون لهم أن يموتوا. وهناك تولى معالجتي طبيب طويل القامة، أنيق الملامح، بدا أنه يكرهني بقدر ما يكرهني الكولونيل غارثيا، وكان يرفض إعطائي مسكنات. ويستغل كل جلسة علاج ليطرح عليّ نظريته الشخصية حول طريقة القضاء على الشيوعية في البلاد، وفي العالم باسره إذا كان ذلك ممكناً. أما في ما عدا ذلك، فكان يتركني بسلام. وصارت لدي، للمرة الأولى منذ أسابيع، ملاءات فراش نظيفة، وطعام كافٍ وضوء طبيعي. وكان يعنى بي المدعو روخاس، وهو ممرض له جذع ممتلئ ووجه مدور، يرتدي رداء أزرق سماوياً متسخاً دوماً، ويتميز بكثير من طيبة القلب. كان يطعمني بيده، ويروي لي قصصاً لا تنتهي عن مباريات قديمة بكرة القدم بين فرق لم أسمع بأسمائها قط، ويحصل على مسكنات ليحقنني بها خفية، إلى أن تمكن من وضع حدٍّ لنوبات الهذيان التي تنتابني. كان روخاس قد عالج في تلك العيادة أعداداً لا حصر لها من التعساء. وتبين له أن معظمهم لم يكونوا قتلة ولا خونة للوطن، ولهذا كان لديه تقبل طيب للمعتقلين. وكثيراً ما كانوا يستعيدون السجين فور الانتهاء من خياطة

جراحه. «يبدو ذلك كأنك تلقي رملاً في البحر»، كان يقول بأسى. عرفتُ أن البعض كانوا يطلبون منه أن يساعدهم على الموت، وأظن أنه فعل ذلك، في حالة واحدة على الأقل. وكان روخاس يحفظ حساباً دقيقاً لمن يدخلون ويخرجون، ويمكنه أن يتذكر دون تردد أسماء الجميع، والتواريخ، والظروف التي جاؤوا فيها. أقسم لي إنه لم يسمع شيئاً قط عن ميغيل، فأعاد لي بذلك الشجاعة لمواصلة العيش، على الرغم من أنني كنتُ أسقط أحياناً في هاوية اكتئاب مظلمة، وأبدأ بترديد معزوفة أنني أريد أن أموت. وقد حدثني عن آماندا. كانوا قد اعتقلوها في الفترة نفسها التي اعتُقلتُ فيها. وعندما جاؤوا بها إلى روخاس، لم يكن هناك ما يمكن عمله من أجلها. وماتت دون أن تشي بأخيها، منجزة بذلك عهداً قطعته له قبل زمن طويل، في أول يوم أخذته إلى المدرسة. العزاء الوحيد هو أن موتها كان أسرع مما رغبوا فيه، لأن بنيتها كانت ضعيفة جداً بسبب المخدرات والأسى اللانهائي الذي خلّفها فيه موت خايمي. عنى روخاس بي إلى أن انخفضت حرارتي، وبدأت إصابة يدي تندمل، وبدأتُ أستعيد توازني، فانتهت عندئذ الحجج لاستبقائي؛ ولكنهم لم يعيدوني إلى قبضة إستيبان غارثيا، مثلما كنت أخشى. وأظن أنه منذ تلك اللحظة بدأ بالظهور مفعول نفوذ المرأة المحسنة ذات عقد اللؤلؤ التي ذهبتُ برفقة الجد لنشكرها على إنقاذ حياتي. جاء أربعة رجال في الليل ليأخذوني. أيقظني روخاس وساعدني في ارتداء ملابسي وتمنى لي حظاً سعيداً. قبّلته شاكرة.

- وداعاً أيتها البنية! استبدلي الضماد، ولا تبلليه بالماء، وإذا عاودتك الحمى، فمعنى ذلك أن يدك قد التهبت من جديد - قال لي من الباب.

اقتادوني إلى زنزانة ضيقة أمضيتُ فيها ما تبقى من الليل جالسة على كرسي. وفي اليوم التالي أخذوني إلى معسكر اعتقال للنساء. ولن أنسى ما حييت اللحظة التي نزعوا فيها العصابة عن عيني ووجدت نفسي في فناء مربع ومضيء، محاطة بنساء يغنين من أجلي نشيد السعادة. وكانت صديقتي آنا دياث بينهن، وهرعت لمعانقتي. وسرعان ما أجلسنني على سرير ضيق وشرحن لي قواعد التعاون الجماعي ومسؤولياتي.

ـ لن يكون عليك أن تغسلي أو تخيطي إلى أن تشفي تماماً، ولكن عليك رعاية الأطفال ـ هكذا قررن.

كنتُ قد صمدتُ وتحملت أهوال الجحيم بشيء من الشجاعة، ولكنني عندما وجدت من يرافقني، انهرت وانكسرت. فمع أقل كلمة حنان أنخرط في نوبة بكاء، كنت أقضي الليل مفتوحة العينين في الظلام وسط اختلاط النساء اللواتي يتناوبن مستيقظات على العناية بي وعدم تركي وحيدة. كن يساعدنني عندما بدأت الذكريات الخبيثة تعذبني أو يظهر لي الكولونيل غارثيا يخضعني للرعب، أو عندما أجهش بالبكاء خوفاً من أن يعتقلوا لي ميفيل.

ـ لا تفكري في ميفيل ـ كنّ يقلن لي، ويلححن ـ يجب عدم التفكير في الأشخاص الأعزاء، ولا في العالم الموجود في الجانب الآخر من هذه الأسوار. هذه هي الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة.

حصلت آنا ديات على دفتر مدرسي وأهدتني إياه.

ـ كي تكتبي. ولنر إذا كنت ستُخرجين ما يتعفن بداخلك، وتتحسنين دفعة واحدة لتغني معنا وتساعدينا في الخياطة ـ قالت لي.

أريتها يدي ونفيت بحركة من رأسي، ولكنها وضعت قلم الرصاص في يدي الأخرى وطلبت مني أن أكتب باليسرى. وشيئاً فشيئاً رحت أفعل ذلك. حاولت ترتيب القصة التي ستبدأ في وجار الكلب. كانت رفيقاتي يساعدنني عندما أفتقد الصبر ويبدأ القلم بالارتعاش في يدي. كنتُ في بعض الأحيان ألقي بكل شيء بعيداً، ولكنني أبادر على الفور إلى التقاط الدفتر وأمسده بحب، نادمة على ما فعلت لأني لا أعرف متى يمكنني الحصول على دفتر آخر. وفي أحيان أخرى أستيقظ حزينة تملؤني الهواجس، فأستدير جهة الجدار غير راغبة في التحدث إلى أحد، ولكنهن لا يتركنني، كنّ يهززنني، ويجبرنني على العمل، على رواية الحكايات للأطفال. ويغيّرن ضماد يدي بعناية، ويضعن الأوراق أمامي.

«إذا أنت رغبت، سأروي لك حالتي كي تكتبي عنها»، كنّ يقلن لي، ويضحكن ساخرات ومتعللات بأن جميع الحالات متشابهة، وأنه من الأفضل كتابة قصص حب، لأنها تعجب الجميع. وكنّ يجبرنني على

تناول الطعام أيضاً. يوزعن الحصص بعدالة صارمة، كل شخص حسب حاجته، ويخصصن لي كمية أكثر قليلاً، لأني مجرد عظام كما يقلن، ولا يمكن لأشد الرجال حرماناً أن ينظر إليّ. كنت أرتعش، ولكن آنا ديات تذكرني بأنني لستُ المرأة الوحيدة التي جرى اغتصابها، وأن ذلك، وأشياء أخرى كثيرة، يتوجب نسيانه. كانت النساء يقضين النهار في الغناء بأعلى أصواتهن. فيضرب الدركيون على الجدار.

- اخرسن أيتها العاهرات!

- أسكتونا إن استطعتم أيها القوادون، ولنر إن كنتم تجرؤون! - ويواصلن الغناء بقوة أكبر، ولا يدخل رجال الدرك لأنهم أدركوا أنه لا يمكنهم تجنب ما لا بد منه.

حاولت تدوين الأحداث الصغيرة في قسم النساء، مثل اعتقالهم لشقيقة الرئيس، وانتزاعهم السجائر منا، ومجيء سجينات جديدات، ومعاناة أدريانا من نوبة أخرى وانقضاضها على طفليها تريد قتلهما، فاضطررنا إلى انتزاعهما من بين يديها، وجلستُ محتضنة كل منهما بأحد ذراعي لأروي لهما الحكايات السحرية التي في صناديق الخال ماركوس المسحورة، إلى أن ناما، بينما أنا أفكر في مصير هؤلاء الصغار الذين يكبرون في ذلك المكان، برعاية أمهات أخريات مجهولات مازال لديهن صوت لغناء أغنية مهد، ومازال بإمكانهن تقديم مداعبة عزاء، وأتساءل، أكتبُ، بأي طريقة يمكن لابنيّ أدريانا أن يردا الأغنية أو المداعبة لأبناء أو أحفاد أولئك النسوة اللاتي يحتضنهما.

ظللتُ في معسكر الاعتقال أياماً قليلة فقط. وبعد ظهر يوم أربعاء جاء رجال الدرك في طلبي. أصبتُ بلحظة هلع، معتقدة أنهم سيأخذونني إلى حيث إستيبان غارثيا، ولكن رفيقاتي قلن لي إنهم يرتدون الزي الرسمي، وبالتالي ليسوا من الشرطة السياسية، فطمأنني ذلك قليلاً. تركتُ لهن سترتي الصوفية، لفك خيوطها وحياكة معطف لطفليّ أدريانا، وتركت لهن كذلك كل ما كان لدي من نقود عند اعتقالي، وأعادها إليّ العسكريون بهاجس النزاهة والشرف الذي يتملكهم بشأن كل ما هو تافه. دسستُ الدفتر في بنطالي، وعانقتهن جميعهن، واحدة

واحدة. وكان آخر ما سمعته لدى خروجي هو كورال رفيقاتي يغنين لتشجيعي، مثلما يفعلن مع كل السجينات اللواتي يصلن إلى المعسكر أو يغادرنه. وبكيت، فقد كنتُ سعيدة هناك.

رويت لجدي أنهم حملوني في شاحنة، معصوبة العينين، خلال ساعات حظر التجوال. كنت أرتجف بشدة، بحيث يمكن سماع اصطكاك أسناني. أحد الرجال كان معي في القسم الخلفي من السيارة وضع حبة سكاكر في يدي وربت تربيتة تشجيع على كتفي.

- لا تقلقي يا آنسة. لن يحدث لك شيء. سوف نطلق سراحك، وخلال ساعات ستكونين مع أسرتك - قال لي هامساً.

تركوني على مزبلة بالقرب من حي الإحسان.

والرجل نفسه الذي أعطاني حبة السكاكر ساعدني على النزول.

- احذري منع التجوال - همس في أذني - لا تتحركي حتى طلوع الشمس.

سمعتُ صوت المحرك، وظننت أنهم سيدهسونني ليظهر بعد ذلك في الصحافة أني مت في حادث سير، ولكن السيارة ابتعدت دون أن تمسني. انتظرتُ لبعض الوقت، يشلني البرد والخوف، إلى أن قررت أخيراً نزع العصابة عن عيني لأرى أين أنا. نظرتُ حولي. كان المكان قاحلاً، أرض خلاء ممتلئة بالقمامة تركض فيها بعض الجرذان بين الفضلات. ويلمع في السماء قمر شاحب يتيح لي أن أرى في البعيد حياً بائساً بيوته من الكرتون والصفيح وألواح الخشب. أدركت أنه لا بد لي من العمل بنصيحة الحارس والبقاء هناك حتى طلوع الصباح. كنت سأقضي الليل في مكب القمامة لو لم يأتِ فتى ينحني متخفياً في العتمة ويومئ إلي إيماءات حذرة. ولأنه لم يكن لدي ما أخسره، فقد مشيت متعثرة باتجاهه. وحين اقتربت، رأيت وجهه القلق. ألقى بطانية على كتفي، وأمسك بيدي واقتادني نحو الحي البائس دون أن يتفوه بكلمة واحدة. كنا نمشي منحنيين، ومتجنبين الشارع والمصابيح القليلة المضاءة، أثارت بعض الكلاب الصخب بنباحها، ولكن أحداً لم يطل برأسه ليرى ما يحدث. اجتزنا فناء ترابياً تتدلى على سلك فيه ملابس قليلة كأنها

رايات، ودخلنا كوخاً متداعياً، مثل جميع الأكواخ الأخرى هناك. وفي الداخل، كان هناك مصباح وحيد يضيء المكان إضاءة كئيبة. هزني البؤس الشديد: الأثاث الذي يقتصر على منضدة من خشب الصنوبر، وكرسيين خشنين وسرير ينام عليه عدد من الأطفال المكومين. خرجت لاستقبالي امرأة قصيرة، قاتمة البشرة، أوردة ساقيها بارزة وعيناها غائرتان في شبكة متقاطعة من تجاعيد الطيبة التي لا تتمكن من منحها مظهر الشيخوخة. ابتسمت لي ورأيت أنها تفتقد بعض أسنانها. اقتربت مني وسوت وضع البطانية بحركة مترددة وخجولة استبدلتها بالعناق الذي لم تتجرأ عليه.

- سأقدم لك قليلاً من الشاي. لا سكر عندي، ولكن تناول شيء ساخن سيفيدك - قالت.

أخبرتني أنهم سمعوا الشاحنة وأنهم يعرفون ما تعنيه سيارة تتجول خلال حظر التجوال وتتوقف في هذه الأنحاء. انتظروا إلى أن تأكدوا من مغادرتها ثم خرج الصبي لرؤية ما الذي تركوه. كانوا يظنون أنهم سيجدون ميتاً.

- في بعض الأحيان يلقون لنا شخصاً أُعدم بالرصاص، كي يخيفوا الناس ويجبروهم على الإذعان - أوضحت لي.

ظللنا نتحدث بقية الليل. إنها واحدة من نساء بلادنا الصابرات العمليات اللاتي ينجبن ابناً من كل رجل يمر في حياتهن، فضلاً عن أنهن يحملن إلى بيوتهن الأطفال الذين يهجرهم آخرون، وأشد الأقارب فقراً، وكل من يحتاج إلى أم، إلى أخت، إلى خالة. إنهن نساء يشكلن العمود المركزي لحيوات كثيرة أخرى، يربين أبناء ليرونهم يرحلون أيضاً، ويرين رحيل رجالهم دون أن يوجهن إليهم كلمة تأنيب، لأنهن مشغولات بأمور مستعجلة أهم عليهم تدبرها. لقد بدت لي شبيهة بأخريات عرفتهن في المطاعم الشعبية المجانية، وفي مستشفى خالي خايمي، وفي النيابة العامة حيث يذهبن للاستعلام عن مفقوديهم، وفي مستودع الجثث، حيث يذهبن للبحث عن موتاهم. قلت لها إنها جازفت كثيراً بمساعدتي، فابتسمت. عندئذ أدركت أن أيام الكولونيل غارثيا وآخرين من أمثاله صارت معدودة، لأنهم لم يستطيعوا تحطيم روح أولئك النسوة.

وفي الصباح، رافقتني إلى جار لها يملك عربة أجرة يجرها حصان. وطلبت منه أن يوصلني إلى بيتي وهكذا وصلتُ إلى هنا. وخلال الطريق استطعت رؤية المدينة في تناقضها الرهيب، الأكواخ المحاطة بحواجز أعلام ملونة لخلق الوهم بعدم وجودها، ووسط المدينة المزدحم والرمادي، والحي الراقي بحدائقه الإنكليزية، ومتنزهاته، وناطحات سحابه الزجاجية، وصفاره الشقر الذين يتنزهون على الدراجات. حتى الكلاب بدت لي سعيدة، وكل شيء مرتب، كل شيء نظيف، كل شيء هادئ، وذلك السلام الراسخ في الضمائر التي بلا ذاكرة. بدا لي هذا الحي كأنه بلاد أخرى.

استمع إليّ الجد بكآبة. لقد انهار أمامه عالماً كان يظنه طيباً.

- بما أننا سنبقى هنا بانتظار ميغيل، هلمي بنا نرتب هذا البيت قليلاً - قال أخيراً.

وهذا ما فعلناه. في البدء كنا نقضي اليوم في المكتبة، قلقين ومفكرين في أنهم قد يعودون لاقتيادي مرة أخرى إلى حيث غارثيا، ولكننا توصلنا بعد ذلك إلى أنه ليس هناك ما هو أسوأ من خوفنا من الخوف، مثلما كان يقول خالي نيكولاس، وأنه علينا أن نشغل البيت بكامله والبدء بحياة عادية. تعاقد جدي مع مؤسسة أعادت ترميم البيت من السطح حتى القبو، مروا عليه بمعدات الصقل، ونظفوا الزجاج، ودهنوه وعقموه، إلى أن صار صالحاً للسكن. وجاء ستة بستانيين وجرار، فأزالوا النباتات المتشابكة، وأحضروا عشباً ملفوفاً كالسجاجيد، إنه اختراع غرينغي عجيب، وخلال أقل من أسبوع كانت لدينا أشجار حور نامية، وعادت المياه تتدفق من النوافير المزغردة، وانتصبت من جديد تماثيل الأولمب المتكبرة، وقد صارت نظيفة أخيراً من ذرق الحمام ومن الإهمال الطويل. ذهبنا معاً لشراء طيور للأقفاص الخاوية منذ أن عمدت جدتي، وقد أحست باقتراب موتها، إلى فتح الأبواب لها. وضعتُ أزهاراً ندية في الزهريات، وأطباق فواكه على المناضد، كما في أزمنة الأرواح، وعبق الجو بشذاها. بعد ذلك تأبطت ذراع جدي وجلنا على البيت، متوقفين في كل مكان لنتذكر الماضي ونحيي أشباح الأزمنة الأخرى غير المرئية والتي مازالت في أمكنتها على الرغم من كل الصروف.

خطرت لجدي فكرة كتابة هذه القصة.

- وهكذا يمكنك حمل جذورك معك إذا اضطررت يوماً إلى الذهاب من هنا يا بنيتي - قال لي.

أخرجنا من الأمكنة السرية والمنسية ألبومات الصور القديمة، ولدي هنا، على منضدة جدي، كومة من الصور: روسا الجميلة إلى جانب أرجوحة حائلة الألوان. وأمي مع بيدرو غارثيا الثالث وهما في الرابعة من العمر، يقدمان الذرة للدجاج في فناء الماريات الثلاث. وجدي حين كان شاباً طول قامته متر وثمانين سنتيمتراً، وهذا دليل لا يمكن دحضه على أن لعنة فيرولا قد تحققت وأن جسده راح يتضاءل بمقدار ما كانت روحه تتكمش. والخالان خايمي ونيكولاس، أحدهما صموت ومتجهم، مارد وحساس، والآخر نحيل وظريف، كثير التقلب وباسم الوجه. وكذلك صورة النانا، والجدين دل بايبه قبل أن يموتا في حادث سيارة، وجميع الآخرين باختصار، ما عدا النبيل جانٍ دوساتيني الذي لم يبق منه أي دليل عملي، وصرت اشك في وجوده أصلاً.

بدأت الكتابة بمساعدة جدي الذي ظلت ذاكرته سليمة حتى اللحظة الأخيرة من سنوات حياته التسعين. وقد كتب بخط يده عدة صفحات، وعندما قدّر أنه أنجز كل شيء، استلقى في سرير كلارا. جلست إلى جانبه أنتظر، ولم يتأخر الموت في الوصول إليه بهدوء، ومفاجأته وهو نائم. ربما كان يحلم بأن زوجته هي من تداعب يده وتقبل جبينه، لأنها لم تفارقه لحظة واحدة في الأيام الأخيرة. كانت تتبعه في أنحاء البيت، وترصده من فوق كتفه وهو يقرأ في المكتبة، وتنام معه في الليل، ورأسها البديع المكلل بالتجعيدات يستند إلى كتفه. لقد كانت في البدء هالة غامضة، ولكن مع فقدان جدي، إلى الأبد، الغضب الذي عذبه طوال حياته، راحت تظهر مثلما كانت في أفضل أزمنتها، تضحك بكامل أسنانها وتهيج الأرواح بطيرانها السريع. وقد ساعدتنا كذلك في الكتابة، وبفضل حضورها تمكن إستيبان تروبيا من الموت سعيداً وهو يتمتم باسمها، كلارا، شديدة الصفاء، نافذة البصيرة.

في وجار الكلب كتبتُ ذهنياً أنه لا بد أن أجد الكولونيل غارثيا

مهزوماً أمامي ذات يوم لأتمكن من الثأر لكل من يتوجب الثأر لهم. ولكنني الآن ارتاب في حقدي. يبدو لي أنه قد تحلل وتلاشت حدوده الواضحة خلال أسابيع قليلة، منذ أن رجعتُ إلى هذا البيت. بدأت تخامرني الشكوك في أن كل ما حدث لم يكن أمراً طارئاً، وإنما هو استجابة لقدر مرسوم قبل ميلادي، وأن إستيبان غارثيا هو جزء من ذلك القدر المرسوم. إنه جرة قلم غير متقنة ومعوجة، ولكن لا وجود في الرسم لجرة قلم عبثية. ففي اليوم الذي طرح فيه جدي بين الآجام على ضفة النهر جدته بانتشا غارثيا، أضاف حلقة أخرى إلى سلسلة وقائع لا بد أن تتحقق. وبعد زمن يكرر حفيد المرأة المغتصبة العملية نفسها مع حفيدة المغتَصِب، وخلال أربعين سنة، ربما سيطرح حفيدي بين شجيرات النهر حفيدته، وهكذا دوليك لقرون طويلة قادمة، في تاريخ لا ينتهي من الآلام والدم والحب. في وجار الكلب فكرتُ في انني أُركِّب لوحة من قطع متفرقة، لكل قطعة منها مكانها الدقيق. قبل أن أضمها جميعها إلى بعضها البعض بدت غير مفهومة، ولكنني كنت واثقة من أنني سأتمكن من إنهائها، وسأمنح معنى لكل قطعة منها وستكون النتيجة متناسقة. فكل قطعة منها لها مسوغها في أن تكون على ما هي عليه، بمن في ذلك الكولونيل غارثيا. في بعض اللحظات يراودني إحساس بأني عشت ذلك كله، وأني كتبت الكلمات نفسها، ولكنني أدرك أنني لم أكن أنا، وإنما امرأة أخرى، دونت في دفاترها كي أستخدمها أنا. اكتبُ، كتبت هي، أن الذاكرة هشة وضعيفة، وأن مسار الحياة قصير جداً وكل شيء فيها يحدث بسرعة كبيرة، وأننا لا نتوصل إلى رؤية العلاقة بين الأحداث، لا نستطيع قياس نتيجة الأفعال، نؤمن بتخييل الزمن، في الحاضر، والماضي، والمستقبل، ولكن من الممكن أن كل شيء يحدث متزامناً، مثلما كانت تقول الأخوات مورا الثلاث، وكنّ قادرات على أن يرين في المكان أرواح كافة العصور. لهذا كانت جدتي كلارا تكتب في دفاترها، كي ترى الأشياء في بُعدها الحقيقي وتخدع ضعف الذاكرة. والآن، ابحث انا عن حقدي ولا أجده. اشعر بأنه ينطفئ مع تقدمي في تفسير وجود الكولونيل غارثيا وآخرين مثله،

وأتفهم جدي وأعرف الأمور من خلال دفاتر كلارا، ورسائل أمي، وسجلات الماريات الثلاث ووثائق كثيرة أخرى موجودة الآن في متناول يدي فوق المنضدة. سيكون من الصعب عليّ الانتقام من كل من يجب الانتقام منهم، لأن انتقامي لن يكون سوى فصل آخر من ذلك الطقس غير النهائي. أريد أن أفكر في أن مهنتي هي الحياة وأن مهمتي ليست في إطالة أمد الحقد، وإنما في ملء هذه الصفحات وحسب، بينما أنا أنتظر عودة ميغيل، وريثما أدفن جدي الذي يرقد الآن إلى جانبي في هذه الحجرة، وبينما أنا أنتظر مجيء أزمنة أفضل، ويتشكل الوليد الذي في أحشائي، ابنة الاغتصابات الكثيرة، أو ربما هي ابنة ميغيل، ولكنها ابنتي أنا بكل تأكيد.

لقد كتبت جدتي طوال خمسين سنة في دفاتر تدوين الحياة. الدفاتر التي أخفتها أرواح متواطئة. ونجت بمعجزة من المحرقة المشينة التي هلكت فيها أوراق عائلية كثيرة أخرى. إنها الآن هنا، عند قدمي، مربوطة بشرائط ملونة، ومرتبة حسب الأحداث وليس في تسلسل تاريخي، بالحالة التي تركتها هي نفسها عليها قبل أن تغادر. لقد كتبتها كلارا لأستخدمها اليوم في كتابة أمور الماضي وأتجاوز رعبي الخاص. أولها دفتر مدرسي من عشرين ورقة، مكتوب بخط طفولي دقيق. ويبدأ هكذا: «وصل *باراباس* إلى الأسرة عن طريق البحر».

الفهرس



ISBN 2-84306-058-x
9 782843 080586